رسائل جامعية (٣٩)

الثبات على دين الله
وأثره في حياة المسلم
في ضوء الكتاب والسنة

تأليف
الدكتور الأمين الصادق الأمين

المجلد الأول

دار ابن الجوزي



قال الله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]

عَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانِ الكِلابِي ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إلّا بَيْنَ أصْبَعَينِ مِنْ أصَابِعِ الرَّحْمٰنِ إنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإنْ شَاءَ أَزَاغَهُ». وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

الثَّباتُ عَلى دِينِ اللَّهِ

وَأثَرُهُ في حَيَاةِ المُسْلِمِ

في ضَوءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية تقدّم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة بإشراف الاستاذ الدكتور محمد رياض بن سيد أحمد قناوي وقد حازت على تقدير امتياز وشهادة تفوق.

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام. شارع ابن خلدون ـ ت: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ٨٤٦٧٥٨٩ ـ ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ ـ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠ ـ الرياض ـ ت: ٤٢٦٦٣٣٩ ـ الإحساء ـ الهفوف ـ شارع الجامعة ـ ت: ٥٨٨٣١٢٢ ـ جدة ـ ت: ٦٥١٦٥٤٩ ـ ٦٨١٣٧٠٦ ـ **بيروت** ـ هاتف: ٨٦٩٦٠٠/٠٣ ـ فاكس: ٦٤١٨٠١/٠١ ـ **القاهرة** ـ ج م ع ـ محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ ـ تلفاكس: ٠٢٢٥٦١٤٧٣

البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.jwzi.com**

المقدمة

الحمد لله الّذي ثبّت رسوله على الحقّ فلم يركن إلى الباطل شيئاً قليلاً.

والحمد لله الّذي أنزل عليه الكتاب ليثبّت به فؤاده ورتّله ترتيلاً.

والحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونسأله الثّبات على الهدى فلا نزيغ عنه قطميراً.

وأصلّي وأسلّم على من ثبت على الصّراط فلم يفارقه فتيلًا، وعلى صحبه الكرام الّذين ظلّوا على الطّريق فلم يبدّلوا تبديلًا، ولم يغيّروا تغييراً، وعلى التّابعين لهم بإحسان ومن تبعهم فتمسّك بالحقّ فلم يتركه نقيراً. وبعد:

فإنّ الثّبات على دين الله، والاستقامة على شرعه، والصّبر على طاعته، والالتزام بأمره، والتّمسّك بهديه، والملازمة لتقواه، والاعتصام بصراطه، والسّير على نهجه، مطلب أكيد، ورغبة ملحّة، وهدف سامٍ، وغاية حميدة، ومقصد نبيل لكلّ مسلم يريد إرضاء الله، ونيل جنّته، والفوز برحمته.

كما أنّ الزّيغ عن دين الله، والانصراف عن شرعه، والانحراف عن صراطه، وتنكّب طريقه، والميل إلى ما يجلب سخطه، والسّقوط في ما يؤدّي إلى غضبه أمور مهلكة، ومسالك موحشة، ومفاوز مقفرة، وسبل وعرة، تجلب أليم عذابه سبحانه، وعظيم عقابه ﷻ.

ولمّا كان الحديث عن الثّبات على دين الله يبلغ أهميّة قصوى، ويتبوّأ منزلة عظمى، ويهدف إلى غاية كبرى، وقع اختياري عليه ليكون الأطروحة الّتي أقدّمها لنيل شهادة الدّكتوراه.

ولقد طالعت العديد من الكتب قبل البدء فيه، ممّا استنفدت معه جهداً وفيراً، واستنزفت فيه وقتاً طويلاً، ظهر لي من خلال ذلك سعة الموضوع،

وترامي أطرافه، وتعدّد مداخله، وتكاثر مخارجه، وتنوّع جوانبه حتّى كدت أن أحجم عنه، وأدع الكتابة فيه.

ثمّ عزمت مستعيناً بالله على خوض غماره، وسلوك مفاوزه، واقتحام لججه لمّا انجلت لي أهميّته، وعظيم فائدته، وجليل قدره، وكبير نفعه.

وقد تمثّل ذلك في أمور أحببت أن أسجّلها لتكون شافعة لي في تناول هذا الموضوع المهم:

أوّلًا: إنّه موضوع بكر، لم أر يراعاً خطّ فيه، ولا صفحات سوّدت عنه. وما وجد نزر يسير، وجهد قليل، مبعثر بين طيّات الكتب والرّسائل، يحتاج إلى من يلمّ شعثه، ويجمع أطرافه، ويبرز جوانبه، ويوضّح أهدافه.

ثانياً: ضعف الإيمان، وقلّة الالتزام، وكثرة العصيان بين أبناء الإسلام يدفع للحديث عن الثّبات ليقوى الإيمان، ويزداد الالتزام، ويتلاشى العصيان.

ثالثاً: إنّ الثّبات يربّي النّفوس ويزكّيها، ويطهّر القلوب وينقّيها، ويدفع إلى التزام الطّاعات، ويدعو إلى مجافاة المعاصي والمنكرات. وذلك أعظم دافع، وأغلى مطلب.

رابعاً: كثرة الفتن وتعاظمها، وتنوّع الشّبه وتفاقمها، وتعدّد المغريات، وتزايد الشّهوات الّتي تعصف بالمسلم فتلقي به في الدّركات، وتدفعه إلى السّقطات والزّلّات، يدفع كلّ ذلك للحديث عن الثّبات، إذ فيه تكمن النّجاة والسّلامة من الآفات.

خامساً: غربة الدّين، وقلّة النّاصر والمعين، وندرة الرّفيق، ومشقّة السّير، ووحشة الطّريق، دوافع حاثّة للكلام عن الثّبات.

سادساً: تقلّب القلوب، وتغيّر الأحوال، وحدوث الارتياب، والنّكوص على الأعقاب، دواعٍ ملحّة للحديث عن الثّبات لأنّها من أعظم الأسباب.

سابعاً: كثرة الشّبه والشّكوك الّتي يبعثها أعداء الله، وبثّهم ما يكدّر، وإحداثهم ما يشوّش، ونشرهم ما يبلبل، خاصّة في هذا العصر الّذي صار العالم فيه كقرية واحدة، تربط بينه وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة والمقروءة

الّتي استخدم جلّها أعداء الله لتنفير المسلمين عن دينهم، وزعزعة الإيمان في نفوسهم، ممّا يدعو للحديث عن الثّبات لتتبدّد الشّكوك، وتتهاوى تلك الشّبهات.

ثامناً: إنّ الثّبات أمر لا غنى لأحد من المسلمين عنه، فهو حاجة العالم والجاهل، والكبير والصّغير، والرّجل والمرأة، والغني والفقير. بل الحاجة إليه أعظم من الحاجة للطّعام والشّراب، إذ فيه تكمن سعادة الدّنيا، والنّجاة في الآخرة.

تاسعاً: فيه مادّة قيّمة للدّعاة النّاصحين، يقيمون من خلاله العوج، ويزيلون به العلل، ويردّون إلى الشّاردين به الأمر، ويدفعون أمّة الإسلام من خلاله إلى حسن العمل، لتصدق في العبادة، فتسودها السّعادة، وتصبح أمّة مؤهّلة للقيادة والرّيادة.

وقد قسّمته إلى مقدّمة وسبعة أبواب وخاتمة:

أمّا المقدّمة:

فقد تناولت فيها أهميّة الموضوع، والأسباب الّتي دفعتني لاختياره، والمنهج الّذي أسير عليه.

وأمّا الباب الأوّل:

فهو عن الثّبات عند الفتن. وقد جعلته في خمسة فصول:

الفصل الأوّل أعرّف فيه بمعاني الفتنة في اللّغة والشّرع. ثمّ أبيّن إخبار الرّسول ﷺ بالفتن، وتحذيره منها، وظهور كثير ممّا حذّر منه، وهو الفصل الثّاني. ثمّ أورد أنواعاً من تلك الفتن مدلّلاً بها على ما سبق، والكيفية الّتي يتمّ بها علاجها، وهو الفصل الثّالث. ثمّ أعرّج بالحديث عن العوامل الّتي تعين على الثّبات عند الفتن، وهو الفصل الرّابع. ثمّ أورد نماذج لبعض الثّابتين عند الفتن، مبتدئاً بالرّسل عليهم السّلام، وهو الفصل الخامس.

وأمّا الباب الثّاني:

فهو عن الثّبات عند الابتلاء. وهو في خمسة فصول:

الفصل الأوّل أتناول فيه الحديث عن معاني الابتلاء في اللّغة والشّرع. ثمّ أبيّن أنّ ابتلاء الإنسان سنّة من سنن الله في الكون، وهو الفصل الثّاني. ثمّ أتعرّض لأنواع الابتلاء والحكمة من كلّ نوع منها، وهو الفصل الثّالث. ثمّ أردف الحديث عن العوامل المؤدّية إلى الثّبات عند الابتلاء، وهو الفصل الرّابع. ثمّ أذكر نماذج لمن ثبت عند الابتلاء، وهو الفصل الخامس.

وأمّا الباب الثّالث:

فهو عن الثّبات في الدّعوة إلى الله. وهو في أربعة فصول:

الفصل الأوّل أتكلّم فيه عن معاني الدّعوة في اللّغة والشّرع واصطلاح الدّعاة. ثمّ أعرّج بالكلام عن أهميّة الدّعوة إلى الله، والغاية منها، وحكمها، وهو الفصل الثّاني. ثمّ أعقب ذلك بالكلام عن العوامل المعينة على الثّبات في الدّعوة إلى الله، وهو الفصل الثّالث. ثمّ أختم الباب بالكلام عن نماذج للثّابتين على الدّعوة ليتبيّن أثر الثّبات فيها، وهو الفصل الرّابع.

وأمّا الباب الرّابع:

فهو عن الثّبات في الجهاد. وهو في خمسة فصول:

الفصل الأوّل يتمّ الحديث فيه عن معاني الجهاد في اللّغة والشّرع. ثمّ يعقبه الحديث عن المراحل الّتي مرّ بها تشريع الجهاد، والأنواع الّتي تمّ حصره فيها، وهو الفصل الثّاني. ثمّ يتناول الحديث حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه على العباد، وذلك هو الفصل الثّالث. ثمّ يعقبه الحديث عن العوامل المثبّتة للمسلم في الجهاد، وهو الفصل الرّابع، ثمّ خاتمة الباب ينصبّ فيها الحديث على نماذج مختارة ثبتت في الجهاد، وهو الفصل الخامس.

وأمّا الباب الخامس:

فهو عن الثّبات على المنهج الحق. وهو في أربعة فصول:

الفصل الأوّل أتعرّض فيه لمعاني المنهج في اللّغة والشّرع. ثمّ أبيّن السمات الّتي يتّسم بها ذلك المنهج، وهو الفصل الثّاني. ثمّ أعرّج بالحديث على العوامل الدّاعية للثّبات على المنهج، وهو الفصل الثّالث. ثمّ أورد نماذج يتبيّن من خلالها أثر الثّبات على المنهج، وهو الفصل الرّابع.

وأمّا الباب السّادس:

فهو عن الثّبات عند الموت. وفيه أربعة فصول:

الفصل الأوّل: ينصبّ فيه الحديث على معاني الموت في اللّغة والشّرع. ثمّ يكشف الحديث عن حقيقة الموت، والحكمة من خلقه، وهو الفصل الثّاني. ثمّ يتعرّض الحديث للكلام عن العوامل الجالبة للثّبات عند الموت، وهو الفصل الثّالث. ثمّ يختم الباب بإيراد نماذج لبعض من وفّق للثّبات عند الموت، وهو الفصل الرّابع.

وأمّا الباب السّابع:

فهو عن الثّبات في القبر. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل أتكلّم فيه عن معاني القبر من حيث اللّغة والشّرع، والأحكام الّتي أناطها الشّارع به. ثمّ أتناول الكلام عن الإيمان بنعيم القبر وعذابه، وحقيقة ذلك، وهو الفصل الثّاني. ثمّ أعقب ذلك بالحديث عن العوامل المؤدّية إلى الثّبات في القبر، وهو الفصل الثّالث والأخير.

وأمّا الخاتمة:

فهي تشتمل على أهمّ النّتائج الّتي توصّلت إليها من خلال البحث. وتوصية.

وقد ذيّلت البحث بتسعة فهارس وهي:

١ ـ الآيات القرآنية.

٢ ـ الأحاديث النّبويّة.

٣ ـ آثار الصّحابة.

٤ ـ الأعلام المترجم لهم.

٥ ـ البلدان والقبائل والأجناس.

٦ ـ الفرق.

٧ ـ الأبيات الشّعريّة.

٨ ـ المراجع.

٩ ـ الموضوعات.

وأمّا المنهج الّذي سرت عليه فهو كما يلي:

أوّلاً: الأصل:

* أفتتح كلّ باب ببيان المعنى اللّغوي والشّرعي المتعلّق به، والاصطلاحي إن توفّر ووجد. ثمّ ألحق ذلك بذكر الفصول والمباحث والمطالب الأخرى المتعلّقة به.

* أبدأ في الاستدلال بالآيات، ثمّ الأحاديث، ثمّ آثار الصّحابة، ثمّ آثار من بعدهم وهذا في الغالب. وقد يتخلّل ذلك توطئة، أو توجيه، أو شرح، أو إيضاح.

* سلكت في شرح النّصوص وبيانها المنهج التّحليلي الموضوعي.

* أوردت الآيات برسم المصحف، وجعلتها بين قوسين مزهرين. وخرّجتها في الأصل لكثرتها.

* وضعت الأحاديث والآثار وأقوال أهل العلم بين قوسين صغيرين مزدوجين لتتميّز عن كلامي.

* شكّلت بعض الكلمات الّتي تحتاج إلى تشكيل.

* أوردت اسم القائل في أوّل السّطر بخطّ مائل لإبرازه.

ثانياً: الحاشية:

* خرّجت فيها الأحاديث النّبويّة من مصادرها الأصليّة. وسلكت في تخريجها الآتي:

(أ) إن كان الحديث في الصّحيحين أو في أحدهما اكتفيت به، إلّا إذا لم يوجد لفظه فيهما أو في أحدهما فحينئذ أورده من مصدره مع تخريجه منهما. وقد يرويا أصل الحديث فأبيّن ذلك، مع تتبّعي لمواطن الحديث فيهما وإيراد ذلك.

(ب) إن كان الحديث في غير الصّحيحين خرّجته من مصادر السّنّة الأخرى، مقدّماً في ذلك السّنن الأربعة، وسنن الدّارمي، والبيهقي، والدّارقطني، وموطّأ مالك، ومسند أحمد، وصحيح ابن حبّان، ومستدرك

الحاكم، ومعاجم الطّبراني الثّلاثة، ثمّ ما أمكنني الرّجوع إليه من بقية مصادر الحديث.

(ج) استخدمت عبارات الأوائل في التّخريج، ومقارنة الرّوايات. وهي كالآتي:

- ما كان مطابقاً للفظ الاستدلال قلت: بلفظه.
- إن اختلف اللّفظ في كلمة أو كلمتين قلت: بلفظه، ثمّ ذكرت أوجه الاختلاف.
- إن زاد الاختلاف قليلاً. قلت: بلفظ مقارب، أو قريب منه.
- إن زاد الاختلاف فشمل معظم الألفاظ. قلت: نحوه، أو بنحو منه.
- إن اختلفت الألفاظ مع اتّحاد المعنى. قلت: بمعناه.
- أقدّم في المصدر الواحد ما كان بلفظه، ثمّ ما كان بلفظ مقارب أو قريب منه، ثمّ ما كان نحوه أو بنحو منه، ثمّ ما كان بمعناه.
- وإذا كان المستدل به جزءاً من حديث بيّنت ذلك.

(د) أذكر اسم المرجع دون اختصار، ثمّ أورد اسم الكتاب ورقمه، واسم الباب ورقمه، ورقم الحديث، والجزء، والصّفحة. متى ما توفّر لي ذلك.

(هـ) ما كان في غير الصّحيحين أو أحدهما ذكرت أحكام بعض أهل العلم المحقّقين عليه، فإن لم أجد ـ وذلك نادر ـ حكمت عليه بما ظهر لي من دراسة إسناده.

(و) رتّبت مصادر التّخريج حسب التّرتيب المشهور عند أهل العلم. فأقدّم صحيح البخاري، ثمّ صحيح مسلم، ثمّ سنن أبي داود. . . إلخ.

(ز) ذكرت اسم الرّاوي من الصّحابة إن لم يرد ذكره في الأصل.

* خرّجت الآثار الواردة من مصادرها، فإن كانت في مصادر الحديث خرّجتها كتخريج الأحاديث، وإن كانت في المصادر الأخرى اكتفيت بذكر اسم المصدر، والجزء والصّفحة في الغالب. وإن وجدت حكماً لبعض أهل العلم على الأثر ذكرته.

* ترجمت للأعلام الّذين وردوا في الأصل. وسلكت في تراجمهم الآتي:

(أ) لم أترجم للصّحابة إلّا ما ندر، كالتّعريف باسم صحابي شهر بكنيته أو لقبه، وحينئذ أترجم له ترجمة يسيرة. ولم أترجم لأئمّة المذاهب الأربعة لشهرتهم، ولا لأصحاب الكتب المؤلّفة لكثرتهم، إلّا ما دعت إليه الحاجة.

(ب) رتّبت مصادر التّرجمة حسب الأسبقيّة الزّمنيّة، نظراً لوفاة المؤلّف.

(ج) أورد التّرجمة بإيجاز غير مخل، ثمّ أشير إلى مواضعها في المصادر بعبارة (وانظر) مكتفياً بذكر أوّل صفحة بدأت بها التّرجمة.

* شرحت الغريب، وشكّلت ما يحتاج منه إلى تشكيل بالحروف تارة، وبالحركات أخرى.

* عزوت النّصوص إلى مراجعها، وسلكت في عزوها الآتي:

(أ) عزوت في كلّ فنّ إلى مصادره المختصّة به، ولا أذكر مصدراً في غير فنّه إلّا لفائدة لم توجد في المصدر المختص، أو لم يكن وافياً بالمقصود.

(ب) رتّبت المصادر المعزو إليها حسب الأسبقية الزّمنيّة نظراً لوفاة المؤلف.

ولا أقدّم مصدراً متأخراً على مصدر متقدّم إلّا إذا كان هو المباشر في الأخذ، أو أنّ المأخوذ به أكمل وأتمّ.

(ج) إذا لم أتصرّف في النّص، ونقلته من المصدر كما هو فإنّي أورد اسم المصدر مباشرة. أمّا إن تصرّفت في المنقول فإنّي أستخدم الاصطلاحات الآتية:

- بتصرّف: إذا تصرّفت في النّص المنقول بزيادة بعض العبارات، أو حذفها، أو إبدالها بغيرها، مع بقاء معظم النّص كما هو. وإذا كان التّصرّف يسيراً بيّنت ذلك.
- انظر: إذا أوردت النّص بمعناه. شريطة أن يكون ما في المصدر شاملاً لجميع ما ذكرته بالمعنى.

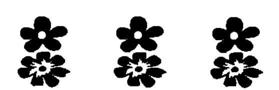
ـ وانظر: إذا وجد في المصدر بعض ما ذكرت بالمعنى، أو ذكر فيه أصل القضية المتحدّث عنها.

(د) رمزت للصّفحة بـ: ص.

* وثّقت المراجع عند أوّل ورودها. وقد أستخدم أكثر من طبعة فأبيّن حينئذ، مع التّنبيه على أمور:

ما لم أبيّنه من: طبعة جامع البيان للطّبري فهي الطّبعة الحلبية. وفتح الباري فهي طبعة دار الفكر. وشرح العقيدة الطّحاوية فهي طبعة مؤسّسة الرّسالة.

والله الكريم أسأل التّوفيق والإعانة والثّبات على الهدى، وأصلي وأسلم على إمام المتّقين، وسيّد المرسلين، وعلى صحبه الميامين، وأهل بيته الأكرمين، والتّابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.





الباب الأول

الثبات عند الفتن

وفيه فصول:

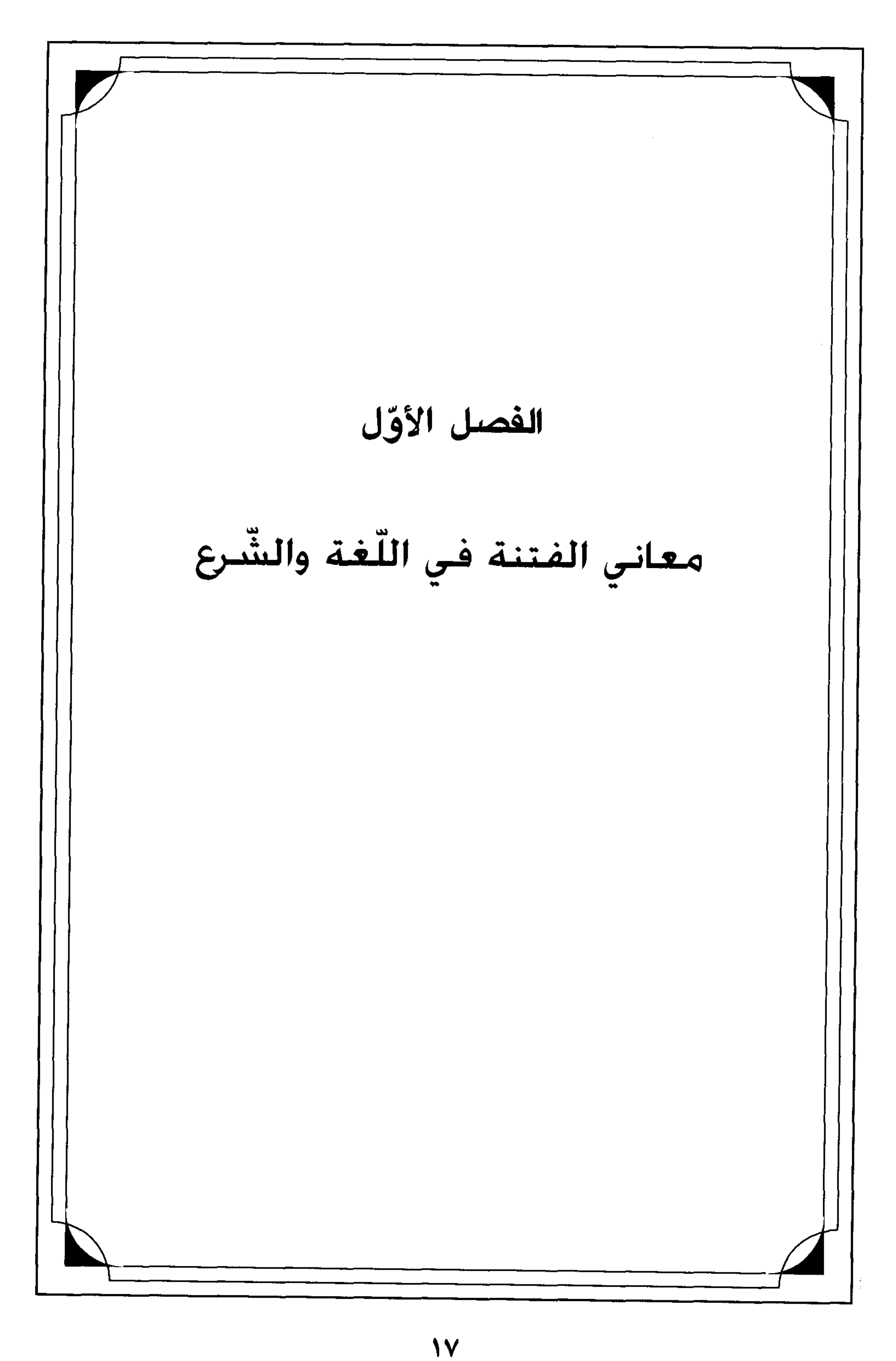
الفصل الأوّل: معاني الفتنة في اللّغة والشّرع.

الفصل الثّاني: إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها وظهورها.

الفصل الثّالث: أنواع الفتن وعلاجها.

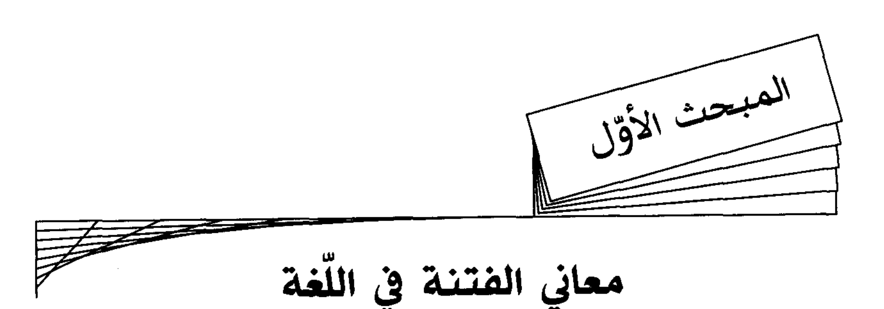
الفصل الرّابع: عوامل الثّبات عند الفتن.

الفصل الخامس: نماذج للثّبات عند الفتن.



الفصل الأوّل

معاني الفتنة في اللّغة والشّرع



معاني الفتنة في اللّغة

جماع معنى الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان. وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضّة والذّهب إذا أذبتهما بالنّار ليتميّز الرّديء من الجيّد[(1)].

وتقول: فتنت الذّهب إذا أدخلته النّار لتنظر ما جودته، ودينار مفتون[(2)].

ويسمّى الصائغ: الفتّان، لإذابته الذّهب والفضّة[(3)].

والفتنة: الإحراق.

من هذا قيل للحجارة السّود الّتي كأنّها أحرقت بالنّار: الفَتِين[(4)].

---

(1) تهذيب اللّغة، لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري، تحقيق: يعقوب عبد النّبي، مطابع سجل العرب، الدّار المصرية للتّأليف والتّرجمة: ١٤/ ٢٩٦. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر للطّباعة والنشر، دار بيروت للطّباعة والنّشر، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م: ١٣/ ٣١٧. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحبّ الدّين أبي الفيض السّيد محمّد مرتضى الحسيني الواسطي الزّبيدي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م: ١٨/ ٤٢٥.

(2) الصّحاح، تاج اللّغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م: ٦/ ٢١٧٥. مختار الصّحاح، للشيخ محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، عني بترتيبه: محمود خاطر، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ص: ٤٩٠. لسان العرب: ١٣/ ٣١٧. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٥.

(3) المرجع السّابق: ١٨/ ٤٢٧. وانظر: الصّحاح: ٦/ ٢١٧٥. لسان العرب: ١٣/ ٣١٧. القاموس المحيط، لمجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ص: ١٥٧٥.

(4) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٢٩٧. معجم مقاييس اللّغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر، =

وورق فتين: أي محرّق[1].

ويقال للأمة السّوداء: مفتونة، لأنّها كالحَرَّة[2] في السّواد كأنّها محترقة[3].

ويقال: فُتنَ الرّجل بالمرأة وافتتن: إذا ولهته وأحبّها[4].

وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة. وأهل نجد يقولون: أَفْتَنَته.

قال أعشى همدان[5]:

لئن فتنتني لَهْيَ بالأمس أفتنت سعيداً فأمسى قد قلا كلّ مسلم[6]

وكان الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ[7] ....

= الطّبعة الثّانية، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م: ٤/ ٤٧٣. الصّحاح: ٦/ ٢١٧٦. مجمل اللُّغة، لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسَّسة الرّسالة، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م: ٣/ ٧١١. لسان العرب: ١٣/ ٣١٧. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧. معجم متن اللُّغة، للشّيخ أحمد رضا، طبعة: دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م: ٤/ ٣٥٧.

(١) الصّحاح: ٦/ ٢١٧٦. لسان العرب: ١٣/ ٣١٧. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٢) الحرّة: هي الأرض ذات الحجارة السّود. انظر: القاموس المحيط، ص:٤٧٨.

(٣) تهذيب اللُّغة: ١٤/ ٣٠١. لسان العرب: ٣/ ٣٢٠. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٨. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٤) الصّحاح: ٦/ ٢١٧٦. لسان العرب: ١٣/ ٣١٧. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٥) أعشى همدان: هو أبو المصبّح عبد الرّحمٰن بن عبد الله بن الحارث الهمداني الكوفي، شاعر مفوّه شهير، كان متعبّداً فاضلاً ثمّ عبث بالشّعر، خرج مع القُرّاء في فتنة ابن الأشعث، قتله الحجّاج سنة نيف وثمانين.
انظر: سير أعلام النُّبلاء، لمحمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذّهبي أبي عبد الله، دار النّشر: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطَّبعة التّاسعة، ١٤١٣هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي: ٤/ ١٨٥.

(٦) ديوان أعشى همدان وأخباره، تحقيق: حسن عيسى أبو ياسين، طبعة: دار العلوم، الرياض، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص: ١٦٢.

(٧) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن عليّ بن أصمع أبو سعيد الأصمعي، أحد الأعلام، صاحب اللُّغة والنّحو والغريب والأخبار والملح، توفي عام ٢١٥هـ.
وانظر: التّاريخ الكبير، لمحمّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، طبعة: دار الفكر، =

ينكر أفتنته[1].

وفتنت الرّجل عن رأيه: إذا أزلته عمّا كان عليه[2].

ومن ذلك قولهم: فتنت فلانة فلاناً: أي أمالته عن القصد، فالفتنة: المميلة[3].

والفتنة: الإعجاب بالشّيء. من قولك: فَتَنَهُ يَفْتِنُه فَتْناً وفتوناً فهو فاتن[4].

قال الشّاعر[5]:

= مراجعة: السّيد هاشم النّدوي، ١٩٨٦م: ٥/ ٤٢٨. الجرح والتّعديل، لعبد الرّحمٰن بن أبي حاتم محمّد بن إدريس، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ١٢٧١هـ ـ ١٩٥٢م: ٥/ ٣٦٣. ثقات ابن حبَّان، لمحمّد بن حبَّان بن أحمد أبي حاتم التّميمي البستي، طبعة: دار الفكر، مراجعة: السّيد شرف الدّين أحمد، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م: ٨/ ٣٨٩. تاريخ بغداد، لأحمد بن عليّ أبي بكر الخطيب البغدادي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت: ١٠/ ٤١٠. تهذيب الكمال، ليوسف بن الزّكي عبد الرّحمٰن أبي الحجّاج جمال الدّين المزّي، طبعة: مؤسَّسة الرّسالة، مراجعة: د. بشّار عوّاد معروف، بيروت، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م: ١٨/ ٣٨٢. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتة، لمحمّد بن أحمد أبي عبد الله شمس الدّين الذّهبي الدّمشقي، طبعة: دار القبلة للثّقافة الإسلاميّة، مؤسَّسة علوم القرآن، مراجعة: محمّد عوامة، جدّة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م: ١/ ٦٦٨. تهذيب التّهذيب، لأحمد بن عليّ بن حجر أبي الفضل شهاب الدّين العسقلاني الشّافعي، طبعة: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م: ٦/ ٣٦٨.

(١) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٢٩٨. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٥.

(٢) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩. لسان العرب: ١٣/ ٣١٩.

(٣) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٢٩٧. لسان العرب: ١٣/ ٣١٩. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧. معجم متن اللّغة: ٤/ ٣٥٧. وانظر: التّكملة والذّيل والصّلة لكتاب تاج اللّغة وصحاح العربية، للحسن بن محمّد بن الحسن الصّاغاني، تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة: دار الكتب، ١٩٧٩م: ٦/ ٢٨٥.

(٤) لسان العرب: ١٣/ ٣١٨. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٥.

(٥) في كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، طبعة: دار الفكر، بيروت: ١٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦:

فتور القيام رخيم الكلام كان فؤادي به راهناً

ونسبه لعمرو بن سعيد بن زيد. =

رَخِيم الكلام قَطِيع القِيام   أمسى فؤادي بها فاتناً

والفاتن: المُفتِن[1] والمفتون[2].

ويقال أيضاً: أُفْتِن الرّجل وفُتن فهو مفتون: إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله[3].

كما يقال: فَتِنَ الرّجل يَفْتَنُ فتوناً إذا وقع في الفتنة، أو تحوّل من حال حسنة إلى حال سيّئة[4]. فالفعل لازم ومتعدي.

والفتنة: الكفر، والإثم، والقتل، والإضلال، والضّلال، والجنون، والعذاب، واختلاف النّاس في الآراء، والفضيحة، والمال، والأولاد، والظّلم والغلوّ في التّأويل[5].

وفتّنه فهو مُفتَّن: أي أوقعه في الفتنة أو أوصل الفتنة إليه[6].

والفتّان من أبنية المبالغة في الفتنة[7].

= كلام رَخِيمٌ أي رقيق. ورَخُمَتِ الجارية رَخامَةً، فهي رَخيمة الصّوت، ورَخِيمٌ إذا كانت سهلة المنطق. لسان العرب: ١٢/ ٢٣٤. وانظر: القاموس المحيط، ص:١٤٣٦.
وامرأة قَطِيعُ الكلام إذا لم تكن سَلِيطةً. لسان العرب: ٨/ ٢٧٩. انظر: القاموس المحيط، ص:٩٧٢.

(١) الصّحاح: ٦/ ٢١٧٦. لسان العرب: ١٣/ ٣١٨. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٦.

(٢) معجم مقاييس اللّغة: ٤/ ٤٧٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٧١١.

(٣) الصّحاح: ٦/ ٢١٧٦. مختار الصّحاح، ص:٤٩٠. لسان العرب: ١٣/ ٣١٨. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٨. معجم متن اللّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٤) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٠٠.

(٥) المرجع السّابق: ١٤/ ٢٩٧ - ٢٩٩. لسان العرب: ١٣/ ٣١٧ - ٣٢٠. القاموس المحيط، ص:١٥٧٥. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٤ - ٤٢٧. مختار القاموس، للطّاهر أحمد الزّواوي الطّرابلسي، مطبعة: عيسى الحلبي، الطّبعة الأولى، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ص:٤٦٨. معجم متن اللّغة: ٤/ ٣٥٧.
التّأويل: هو التّفسير وما يؤول إليه الشّيء. انظر: مختار الصّحاح، ص:٣٣. وانظر: لسان العرب: ١١/ ٣٣.

(٦) معجم متن اللّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٧) لسان العرب: ١٣/ ٣١٩. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧. معجم متن اللغة: ٤/ ٣٥٧.

فالفتّان: الشّيطان الّذي يفتن النّاس بخدعه وغروره وتزيينه المعاصي.
والفتّان أيضاً: اللّص الّذي يعرض للرُّفقة في طريقهم.

وجمعه: فُتَّان[١].

والفتّانان: الدّرهم والدّينار، لأنّهما يفتنان النّاس[٢].

وفتّانا القبر: مُنْكر ونَكِير[٣].

والفِتْنُ: النّاحية[٤]. والفَتْنَان: الحالان والضّربان واللّونان.

ومن ذلك قول عمرو بن أحْمَر الباهلي[٥]:

إمّا على نفسي وإمّا لها والعيش فِتْنان حلو ومر[٦]

ولذا قيل للغدوة والعشي: فَتْنان لأنّهما حالان أو ضربان[٧].

ممّا سبق يتبيّن لنا أنّ الفتنة في اللّغة متعدّدة المعاني، متكاثرة الإطلاقات، وإن كانت لا تخرج تلك المعاني في أصلها عن التّمحيص والاختبار.

---

(١) تهذيب اللُّغة: ١٤/ ٣٠٠. لسان العرب: ٣١٩/١٣. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.
وانظر: معجم مقاييس اللُّغة: ٤/ ٤٧٢. مجمل اللُّغة: ٣/ ٧١١. أساس البلاغة، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، طبعة: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الرّحيم محمود، ص: ٣٣٤. والقاموس المحيط، ص: ١٥٧٥. التّكملة والذَّيل: ٦/ ٢٨٥.

(٢) تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧. وانظر: أساس البلاغة، ص: ٣٣٤.

(٣) تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٤) تاج العروس: ١٨/ ٤٢٨. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٥) عمرو بن أحمر بن العمرد بن عامر الباهلي شاعر فصيح محسن.
الإكمال، لعليّ بن هبة الله بن أبي نصر بن ماكولا، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١١هـ، الطَّبعة الأولى: ٥/ ٨١.

(٦) تهذيب اللُّغة: ١٤/ ٣٠٠. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٤. وانظر: التّكملة والذَّيل: ٦/ ٢٨٥. معجم متن اللُّغة: ٤/ ٣٥٧.

(٧) تاج العروس: ١٨/ ٤٢٧.



معاني الفتنة في الشّرع

لفظ الفتنة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ جاء متعدّد الإطلاقات، متكاثر المعاني، حتّى شمل المعاني اللّغوية السّابقة الذّكر.

فتارة يضيفها الله سبحانه لنفسه أو يضيفها له رسوله ﷺ، كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥][1].

وتارة يضيفها إلى عباده كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠].

وهي في حالة إضافتها إلى الله تدلّ على معنى سوى الّذي دلّت عليه في حالة إضافتها إلى العباد.

قال الرّاغب الأصفهاني رحمه الله:

«والفتنة من الأفعال الّتي تكون من الله تعالى ومن العبد؛ كالبلية، والمصيبة، والقتل، والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة. ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضدّ

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن قيّم الجوزيّة، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطّبعة السّابعة والعشرون، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، مكتبة: المنار الإسلاميّة: ٣/١٦٩.

ذلك. ولهذا يذمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان»[1]. فالفتنة في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ تأتي بمعان عدّة، وهي:

١ ـ الابتلاء والاختبار:

من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وتأويل ذلك: وما يعلّم الملكان[2] أحداً من النّاس الّذي أنزل عليهما من التّفريق بين المرء وزوجه حتّى يقولا له: «إنّما نحن بلاء وفتنة لبني آدم فلا تكفر بربّك».

ثمّ روى بسنده عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ[3] أنّه قال:

---

(١) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ص:٣٧٢.

(٢) للقصّاص والإخباريين أحاديث عجيبة في شأن الملكين هاروت وماروت، فقد زعموا أنّهما ملكان من الملائكة أنكرا ما يصنع بنو آدم من المعاصي، فابتلاهما الله بالشّهوات، وأهبطهما إلى الأرض، فعصيا الله، وشربا الخمر وفعلا الفاحشة، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدّنيا والآخرة، فاختارا عذاب الدّنيا، فجعلهما ببابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة، وهما يعلّمان النّاس السّحر، ويدعوان إليه.
وهذا كلّه من أخبار اليهود ـ عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة ـ وقد اغتر بذلك جماعة من المفسّرين فأوردوا ذلك في كتبهم.
والّذي عليه المحقّقون أنّ هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصّلاح والتّقوى، وكانا يعلّمان النّاس السّحر. وبلغ حسن اعتقاد النّاس بهما أنّهما ملكان من السّماء، وأنّ ما يعلّمانه للنّاس هو بوحي من الله تعالى. وبلغ مكر هذين الرّجلين أنّهما كانا يقولان لمن أراد أن يتعلّم منهما: «إنّما نحن فتنة وبلاء نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر، وننصحك بعدم الكفر». ليوهماه أنّهما يريدان الخير، وأنّ فعلهما ذلك من الله، حتّى يحافظا على حسن اعتقاد النّاس فيهما.
انظر: تفسير القاسمي المسمّى محاسن التّأويل، لمحمّد جمال الدّين القاسمي، تصحيح وتعليق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطّبعة الأولى، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م: ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٣.

(٣) هو قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطّاب السّدوسي البصري الأعمى المفسّر، أحد=

«إنّما نحن فتنة»، «أي: بلاء»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣].

فقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾: أي لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه.

وقيل: لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم، فيعلم بالصّبر على البلاء الصّادق الإيمان من غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾: أي اختبرنا وابتلينا[2].

= الأئمّة الأعلام، حافظ عصره، ثقة ثبت في الحديث مع تدليس فيه، مات سنة ١١٨هـ وقيل: ١١٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى، لمحمّد بن سعد بن منيع، طبعة: دار صادر، بيروت: ٧/ ٢٢٩. التّاريخ الكبير: ٧/ ١٨٥. معرفة الثّقات، لأحمد بن عبد الله بن صالح العجلي، طبعة: مكتبة الدّار، المدينة المنورة، مراجعة: عبد العليم عبد العظيم البستوي، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م: ٢/ ٢١٥. الجرح والتّعديل: ٧/ ١٣٣. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٣٢١. تهذيب الكمال: ٢٣/ ٤٩٨. تذكرة الحفّاظ، لمحمّد بن أحمد الذّهبي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، مراجعة: عبد الرّحمٰن بن يحيى المعلّمي، ١٣٧٤هـ: ١/ ١٢٢. الكاشف: ٢/ ١٣٤. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٣١٥. تقريب التّهذيب، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، طبعة: دار الرّشيد، سوريا، مراجعة: محمّد عوامة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م: ١/ ٤٥٣. لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، طبعة: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، مراجعة: دائرة المعارف النّظاميّة، الهند، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م: ٧/ ٣٤١.

(١) تفسير الطّبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري، تحقيق: محمود محمّد شاكر، تخريج: أحمد محمّد شاكر، طبعة: دار المعارف بمصر: ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٤. وانظر: تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م: ١/ ٢١٤. محاسن التّأويل: ٢/ ٢١٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجّاج، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠. وانظر: تأويل مشكل القرآن، لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرحه=

قال الرّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وجعلت الفتنة كالبلاء في أنّهما يستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشدَّة أظهر معنى وأكثر استعمالاً. وقد قال فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]»[١].

وفي حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «فأمّا فتنة القبر فبي تفتنون وعنّي تسألون» الحديث[٢]. أي: بي تمتحنون وتختبرون[٣].

وفي حديث عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنّ الله يحب العبد المؤمن المُفَتَّن التَّوّاب»[٤].

= ونشره: السّيد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، ص:٤٧٢. المفردات في غريب القرآن، ص:٣٧٢. قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنّظائر في القرآن الكريم، للحسين بن محمّد الدّامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيّد الأهل، ١٩٨٣م، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ص:٣٤٨. كشف السّرائر في معنى الوجوه والأشباه والنّظائر، لابن العماد، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، نشر: مؤسّسة شباب جامعة الإسكندرية، طبع بمطابع جريدة السّفير، الإسكندرية، ص: ١٢٤.

(١) المفردات، ص: ٣٧٢.

(٢) مسند أحمد، للإمام أحمد بن محمّد بن حنبل، طبعة: مؤسّسة قرطبة، مصر، مصوّرة عن الطّبعة الميمنية، بلفظه في: ٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠، وهو جزء من حديث طويل، ورجال إسناده ثقات.

(٣) انظر: الفائق في غريب الحديث، لمحمود بن عمر الزّمخشري، طبعة: دار المعرفة، لبنان، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم، الطّبعة الثّانية: ٣/ ٨٧. النّهاية في غريب الحديث، للمبارك بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم أبو السّعادات الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمّد الطناحي، طبعة: دار الفكر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، بيروت: ٣/ ٤١٠.

(٤) مسند أحمد، بلفظه في: ١/ ٨٠، وبلفظ مقارب في: ١/ ١٠٣، إسناده ضعيف جداً شبه موضوع. الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد، تحقيق: جماعة من أهل العلم، إشراف: الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي، طبعة: وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد بالمملكة العربيّة السّعودية، الطّبعة الثّانية: ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م: ٢/ ٤٢، هامش: (١).

مسند أبي يعلى، بلفظه في: ١/ ٣٧٦، وهو في: سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة وأثرها السّيئ في الأمّة، لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: مكتبة=

أي: الممتحن بالذّنب[1].

٢ ـ الكفر والشّرك:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقد فسّرت الفتنة هنا بالشّرك والكفر[2]. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾

= المعارف، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ: ١/ ٩٦. ضعيف الجامع الصّغير وزيادته، لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٨هـ: ١/ ١٧٠٥، ولم أورد هذا الحديث إلّا لاستدلال أهل اللّغة به.

(١) فيض القدير، لعبد الرؤوف المناوي، طبعة: المكتبة التّجاريّة الكبرى بمصر، الطّبعة الأولى، ١٣٥٦هـ: ٢/ ٢٨٩. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤١٠.

(٢) انظر: مجاز القرآن صنعة، لأبي عبيد معمر بن المثنّى التّميمي، تعليق: د. محمّد فؤاد سزكين، نشر: مكتبة الخانجي بمصر: ١/ ٦٨. غريب القرآن وتفسيره، لأبي عبد الرّحمٰن عبد الله بن يحيى بن المبارك اليزيدي، تحقيق: محمّد سليم الحاج، عالم الكتب، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص: ٨٨. تأويل مشكل القرآن، ص: ٤٧٣. جامع البيان: ٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦، ٥٧٠ ـ ٥٧١، شاكر، وقد نقل أقوال من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين. معاني القرآن للزّجّاج: ١/ ٢٦٤، ٢٩٠. معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النّحّاس، تحقيق: محمّد عليّ الصّابوني، طبعة: جامعة أمّ القرى، الطّبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ١/ ١٠٦، ١٠٧. قاموس القرآن للدّامغاني، ص: ٣٤٨. زاد المسير في علم التّفسير، لأبي الفرج جمال الدّين عبد الرّحمٰن بن عليّ بن محمّد الجوزي، تحقيق: محمّد عبد الرّحمٰن عبد الله. تخريج أبي هاجر السّعيد بن بسيوني زغلول، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١، ٢١٥. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة: دار الكتب المصريّة، الطّبعة الثّانية: ٢/ ٣٥١، ٣/ ٤٦. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٤٠.

والآيتان نزلتا في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله واقد بن عبد الله التّميمي ﷺ في آخر يوم من رجب الشّهر الحرام، وأنكر ذلك المشركون، حسب ما جاء في سرية عبد الملك بن جحش ﷺ.

انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٥١. السّيرة النّبويّة، لأبي محمّد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: د. أحمد حجازي السّقا، دار التّراث العربي للطّباعة والنّشر: ١/ ٣٩٧ ـ ٤٠٠.

قال ابن القيّم ﷺ في قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ=

[البقرة: ١٩٣]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

أي: قاتلوا المشركين حتَّى لا يكون شرك بالله، ولا يعبد دونه أحد، وتزول عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، ويظهر دين الله على سائر الأديان[١].

قال الإمام الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أمّا قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾، فهذا يدلّ على حمل الفتنة على الشّرك، لأنّه ليس بين الشّرك وبين أن يكون الدّين كلّه لله واسطة، والمراد منه أن يكون تعالى هو المعبود المطاع دون سائر ما يعبد ويطاع غيره، فصار التّقدير كأنّه تعالى قال: وقاتلوهم حتّى يزول الكفر ويثبت الإسلام، وحتّى يزول ما يؤدّي إلى العقاب ويحصل ما يؤدّي إلى الثّواب»[٢].

= كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

يقول سبحانه: «هذا الّذي أنكرتموه عليهم، وإن كان كبيراً، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله، والصّدّ عن سبيله، وعن بيته، وإخراج المسلمين الّذين هم أهله منه، والشّرك الّذي أنتم عليه، والفتنة الّتي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشّهر الحرام، وأكثر السّلف فسّروا الفتنة هاهنا بالشّرك». زاد المعاد: ٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩.

(١) جامع البيان: / ٥٧٠، شاكر، بتصرُّف يسير.

(٢) التّفسير الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب، لمحمّد بن عمر بن الحسين الفخر الرّازي، النّاشر: دار الكتب العلميّة، طهران، الطّبعة الثّانية: ٥/ ١٣٣.

ولبيان أنّ المراد بالفتنة هنا الشّرك والكفر. انظر: تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٣. جامع البيان: ٣/ ٥٧٠ ـ ٥٧١، ١٣/ ٥٣٧ ـ ٥٣٩، شاكر، وقد ذكر من قال بذلك من الصّحابة والتّابعين. معاني القرآن للنّحّاس: ١/ ١٠٨، ٣/ ١٥٥. الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، لمحمود بن عمر الزّمخشري، المكتبة التّجاريّة الكبرى لمصطفى محمّد بمصر، الطّبعة الأولى، سنة ١٣٥٤هـ: ٢/ ١٢٦. زاد المسير: ١/ ١٨٢، ٣/ ٢٤٣. التّفسير الكبير: ٦/ ١٣٢، ١٥/ ١٦٣. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٥٤، ٧/ ٤٠٤. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٤١، ٢/ ٤٨٥، وذكر من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين وغيرهم. قاموس القرآن للدّامغاني، ص:٣٤٨. كشف السّرائر لابن العماد، ص:١٢٢. محاسن التّأويل: ٨/ ٢٩٩٦. تيسير الكريم الرّحمٰن في تفسير كلام المنان، لعبد الرّحمٰن بن ناصر السّعدي، طبعة: =

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال: «ها إنَّ الفتنة ها هنا، إنَّ الفتنة من حيث يطلع قرن الشّيطان»[1].

قال ابن عبد البر رحمه الله:

«يحتمل أن تكون الفتنة في هذا الحديث معناها الكفر. وكانت المشرق يومئذ دار كفر فأشار إليها»[2].

٣ ـ النِّفاق:

قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٤].

= مؤسَّسة الرّسالة، بيروت، الطَّبعة السّابعة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، ص: ٧٢، ٢٨٢. زاد المعاد: ١٦٩/٣. إغاثة اللَّهفان من مصايد الشَّيْطان، لأبي عبد الله محمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد حامد الفقي، نشر: دار المعرفة، الطَّبعة الثّانية، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م: ١٥٨/٢.

(١) صحيح البخاري المسمَّى الجامع المسند الصَّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيّامه، لمحمّد بن إسماعيل البخاري، طبعة: شركة دار الأرقم، بيروت، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، بلفظه في: كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب صفة إبليس وجنوده: (١١) برقم: (٣٢٧٩)، ص: ٦٩٠. وبلفظ مقارب في: كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣)، باب ما جاء في بيوت أزواج النّبي ﷺ: (٤)، برقم: (٣١٠٤)، ص: ٦٥٤. وفي كتاب الطَّلاق: (٦٨/ ٤٢)، باب الإشارة في الطَّلاق والأمور: (٢٤/ ٢٥)، برقم: (٥٢٩٦)، ص: ١١٦٣. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق: (١٦)، برقم: (٧٠٩٢)، ص: ١٤٩٦. ونحوه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب: (٥/ ٦)، برقم: (٣٥١١)، ص: ٧٤٢. وفي: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «الفتنة من قبل المشرق»: (١٦)، برقم: (٧٠٩٣)، ص: (١٤٩٦). صحيح مسلم، لمسلم بن الحجّاج القشيري، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار الحديث، القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، بلفظ مقارب في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشَّيْطان: (١٦)، برقم: (٢٩٠٥)، ٤/ ٢٢٢٨ ـ ٢٢٢٩.

(٢) التَّمهيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النّمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمّد عبد الكبير البكري، طبعة: وزارة عموم الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، المغرب، ١٣٨٧هـ: ١٧/ ١٢.

فالمراد بالفتنة هنا النِّفاق. وقد جاء ذلك عن مجاهد(1) رَحِمَهُ اللَّهُ(2).

٤ ـ الصَّد:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩].

أي احذر اليهود أن يصدُّوك ويصرفوك ويَسْتَزِلوك عن بعض ما أنزل الله إليك(3). ومثلها في الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ [الإسراء: ٧٣].

أي: كاد المشركون أن يصدُّوك ويستزلوك عن ما أوحاه الله إليك(4).

---

(1) هو مجاهد بن جَبْر أبو الحجّاج المخزومي مولاهم المكّي الإمام المقرئ الحافظ الفقيه العابد الورع المتقن، ثقة إمام في التَّفسير وفي العلم، وهو أحد أئمّة التّابعين، روى عن جماعة من الصَّحابة، مات سنة ١٠٣هـ وقيل: قبلها، وقيل: بعدها.

وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٥/ ٤٦٦. التَّاريخ الكبير: ٧/ ٤١١. الجرح والتعديل: ٨/ ٣١٩. ثقات ابن حبَّان: ٥/ ٤١٩. تهذيب الكمال: ٢٧/ ٢٢٨. تذكرة الحفَّاظ: ١/ ٩٢. الكاشف: ٢/ ٢٤٠. تهذيب التَّهذيب: ١٠/ ٣٨. تقريب التَّهذيب: ١/ ٥٢٠. لسان الميزان: ٧/ ٣٤٩.

(2) انظر: جامع البيان، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م، مطبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطَّبعة الثَّانية: ٢٧/ ٢٢٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٢٤٦. محاسن التَّأويل: ١٦/ ٥٦٨٤. غريب الحديث، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق ودراسة: د. سليمان بن إبراهيم بن محمّد العايد، طبعة: مركز البحث العلمي بجامعة أمّ القرى، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ: ٣/ ٩٣٢.

(3) انظر: مجاز القرآن: ١/ ١٦٨. تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٣. جامع البيان: ١٠/ ٣٩٢، شاكر، وقد ذكر أسباب نزول الآية. زاد المسير: ٢/ ٢٨٧. التَّفسير الكبير: ١٢/ ١٤ ونقل فيه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «يريد به يردّوك إلى أهوائهم». الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢١٣. قاموس القرآن للدَّامغاني، ص:٣٤٩. كشف السَّرائر لابن العماد، ص:١٢٤. محاسن التَّأويل: ٦/ ٢٠١٩. غريب الحديث للحربي: ٣/ ٩٣٧.

(4) انظر: تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٣. التَّفسير الكبير: ٢١/ ٢٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٠٠. قاموس القرآن للدَّامغاني، ص:٣٤٩. كشف السَّرائر لابن العماد، ص:١٢٤. محاسن التَّأويل: ١٠/ ٣٩٥٦. غريب الحديث للحربي: ٣/ ٩٣٧.

٥ ـ الضَّلال:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣].

أي: لن تقدروا أيّها المشركون ومن عبدتموه مع الله أن تضلّوا أحداً إلّا من قضى الله أنّه من أهل الجحيم(١).

فقوله: «بفاتنين»، أي بمضلّين(٢).

وفي حديث قَيْلَة بنت مَخْرَمة رضي الله عنها: «المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشّجر ويتعاونان على الفتّان»(٣).

يروى بضمّ الفاء وفتحها. بالضمّ جمع فاتن، وهم الّذين يضلُّون النّاس عن الحقّ. وبالفتح هو الشّيطان الّذي يضلّ النّاس عن دينهم(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٥٤، بتصرُّف يسير.

(٢) غريب القرآن وتفسيره لليزيدي، ص: ٣٢٠. جامع البيان: ٢٣/١٠٩ ـ ١١٠، الحلبي، وذكر بالأسانيد من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين وغيرهم. معاني القرآن للزّجّاج: ٤/٣١٥. المفردات في غريب القرآن، ص: ٣٧٢. تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٦. قاموس القرآن للدّامغاني، ص: ٣٤٩. كشف السّرائر لابن العماد، ص: ١٢٤. محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٦٨. غريب الحديث للحربي: ٣/٩٣٧.

(٣) سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السّجستاني، طبعة: بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب الخراج: (١٩)، باب في إقطاع الأرضيين: (٣٤، ٣٦)، برقم: (٣٠٧٠). قال الألباني رحمه الله: «ضعيف الإسناد»، ص: ٣٤٧.

سنن البيهقي الكبرى، لأحمد بن الحسين بن عليّ أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، طبعة: مكتبة دار الباز، مكّة المكرَّمة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، بلفظه في: باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة: ٦/١٥٠.

(٤) انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/٤١٠. عون المعبود، لمحمّد شمس الحقّ العظيم آبادي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٥هـ: ٨/٢٢٥.

قال ابن منظور رحمه الله:

«الفَتَّان أيضاً اللّص الّذي يعرض للرّفقة في طريقهم، فينبغي لهم أن يتعاونوا على اللّص». لسان العرب: ١٣/٣١٩.

وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال النّبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ: «يا معاذ أفتّان أنت؟»[1]. فالفتنة هنا صرف النّاس عن الدّين وحملهم على الضّلالة[2].

٦ ـ العذاب:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل: ١١٠]، أي: من بعد ما عُذِّبوا[3].

كما تطلق الفتنة على نوع من العذاب وهو الأذى، ومثاله قوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه (وهو جزء من حديث) في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأوّلاً أو جاهلاً: (٧٤)، برقم: (٦١٠٦)، ص:١٣٠٧، وبلفظ مقارب في: كتاب الأذان: (١٠/ ٥)، باب من شكا إمامه إذا طوّل: (٦٣/ ٢١٤)، برقم: (٧٠٥)، ص:١٥٨. وفي باب إذا صلّى ثمّ أمّ قوماً: (٦٦/ ٢١٧)، برقم: (٧١١)، ص:١٥٩. ونحوه في: باب إذا طوّل الإمام وكان للرّجل حاجة فخرج فصلّى: (٦٠/ ٢١١)، برقم: (٧٠١)، ص:١٥٧.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤)، باب القراءة في العشاء: (٣٦)، برقم: (٤٦٥)، ١/ ٣٣٩، ونحوه في: ١/ ٣٤٠.

(٢) انظر: عون المعبود: ٣/ ٥.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ:

«ومعنى الفتنة هاهنا أنّ التّطويل يكون سبباً لخروجهم من الصّلاة وللتّكرّه للصّلاة في الجماعة».

فتح الباري، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، محب الدّين الخطيب، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ: ٢/ ١٩٥.

وقال الدّاودي ﷺ:

«يحتمل أن يريد بقوله: «فتّان» أي: مُعَذِّب، لأنّه عذّبهم بالتّطويل». فتح الباري: ٢/ ١٩٥، طبعة: دار المعرفة. عون المعبود: ٣/ ٥، فعلى هذا يكون المراد بالفتنة هنا العذاب.

(٣) انظر: معاني القرآن للزّجّاج: ٣/ ٢٢٠. الكشّاف: ٢/ ٣٤٥، المكتبة التّجاريّة. زاد المسير: ٤/ ٣٦٤، وقد نقل ذلك المعنى عن ابن عبّاس ﷺ. التّفسير الكبير: ٢٠/ ١٢٥ ـ ١٢٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٩٢. قاموس القرآن للدّامغاني، ص:٣٤٨. كشف السّرائر لابن العماد، ص:١٢٤. غريب الحديث للحربي: ٣/ ٩٣٥.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، أي: جعل أذى النَّاس كعذاب الله تعالى[١].

وقد تطلق على الإحراق بالنَّار خاصة، وهو نوع من العذاب، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٣ ـ ١٤].

أي يوم هم على النَّار يحرقون فيقال لهم تقريعاً وتحقيراً وتوبيخاً: ذوقوا حريقكم الّذي كنتم به تستعجلون. ومن ذكر العذاب من العلماء إنّما أراد العذاب بالنَّار وهو الإحراق بها[٢].

ومن ذلك استعاذة النّبي ﷺ من فتنة النّار[٣]، أي إحراقها وعذابها[٤]. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠].

---

(١) انظر: مجاز القرآن: ٢/ ١١٤. تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٢. جامع البيان: ٢٠/ ١٣٢ ـ ١٣٣، الحلبي، وقد نقل أقوال من قال ذلك من التّابعين وغيرهم. معاني القرآن للزّجّاج: ٤/ ١٦١. الكشّاف، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م: ٣/ ٣٤٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٢٩. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧. محاسن التّأويل: ١٣/ ٤٧٤٠. غريب الحديث للحربي: ٣/ ٩٣٤.

(٢) انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي، ص:٣٤٨. تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٢. جامع البيان: ٢٦/ ١٩٣ ـ ١٩٥، الحلبي، وقد نقل أقوال الصّحابة والتّابعين وغيرهم في ذلك. المفردات في غريب القرآن، ص:٣٧١. الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٣٤ ـ ٣٥. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٥٩. قاموس القرآن للدّامغاني، ص:٣٤٨. كشف السّرائر لابن العماد، ص:١٢٣. محاسن التّأويل: ١٥/ ٥٥٢٥، تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٧٥١. غريب الحديث للحربي: ٣/ ٩٣٥ ـ ٩٣٧. التّبيان في أقسام القرآن، لابن قيّم الجوزيّة، تصحيح وتعليق: محمّد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ص:٢٩٠. روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، المنسوب لابن القيّم، فسّر غريبه وراجعه: صابر يوسف، مطبعة: الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٣م، ص:٤٣.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التّعوّذ من المأثم والمغرم: (٣٩)، برقم: (٦٣٦٨)، ص:١٣٥٧. وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدّنيا وفتنة النّار: (٤٤)، برقم: (٦٣٧٥)، ص:١٣٥٩.

(٤) وانظر: فتح الباري: ١١/ ١٨١، طبعة: دار المعرفة.

أي أحرقوهم وعذّبوهم بالنّار[1].

٧ ـ القتل:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١].

أي: إن خفتم أن يقتلكم الّذين كفروا. فقد فسّرت الفتنة هنا بالقتل[2]. ومثلها قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: أن يقتلهم[3].

عن أسامة رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ أشرف على أُطُم[4] من آطام المدينة ثمّ قال:

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٢. جامع البيان: ٣٠/ ١٣٧، الحلبي، نقل فيه أقوال من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين وغيرهم، الكشّاف، طبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: ٤/ ٢٣٧. التّفسير الكبير: ٣١/ ١٢١. الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ٢٩٥. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٨١. قاموس القرآن، للدّامغاني، ص:٣٤٨. كشف السّرائر لابن العماد، ص:١٢٣. معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللّغة العربية، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، الهيئة المصريّة العامّة للتّأليف والنّشر: ٢/ ٣١٢. غريب الحديث، للحربي: ٣/ ٩٣٥. زاد المعاد: ٣/ ١٦٩. التّبيان في أقسام القرآن، ص: ٢٩٠.

(٢) انظر: جامع البيان: ٩/ ١٢٣، شاكر. زاد المسير: ٢/ ١٨١. قاموس القرآن، للدّامغاني، ص:٣٤٨. كشف السّرائر لابن العماد، ص:١٢٤. محاسن التّأويل: ٥/ ١٥٠٢ إلّا أنّه قال: «يقاتلكم» فجعل الفتنة المقاتلة لا القتل. غريب الحديث، للحربي: ٣/ ٩٤٠.

(٣) انظر: زاد المسير: ٤/ ٤٦، نقل ذلك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. قاموس القرآن، للدّامغاني، ص:٣٤٨. كشف السّرائر، لابن العماد، ص:١٢٤. غريب الحديث، للحربي: ٣/ ٩٤٠.

(٤) أطم: الأطم بضم الهمزة والطّاء هو القصر والحصن، وجمعه آطام. ومعنى أشرف: علا وارتفع.
شرح صحيح مسلم، للإمام النّووي، طبعة دار الفكر، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م: ١٨/ ٧.
وانظر: غريب الحديث، للقاسم بن سلّام أبي عبيد الهروي، تحقيق: محمّد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٩٦هـ: ٢/ ٧٢ ـ ٧٣. غريب الحديث، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطّبعة الأولى، ١٣٩٧هـ: ٢/ ٢٨٦. غريب الحديث، لحمد بن محمّد بن=

«هل ترون ما أرى، إنّي لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»[١].

يعني بذلك: القتل والحروب الّتي تكون بين المسلمين[٢].

٨ ـ الإثم:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

قال الزّجّاج رَحِمَهُ اللهُ:

«أي: تؤثّمْني بأمرك إيَّاي بالخروج، وذلك غير متيسّر لي فآثم»[٣].

فالفتنة هنا الإثم[٤]. وبعض العلماء نصَّ على أنّ المراد بالفتنة هنا المعصية[٥]، والمعنى متقارب.

= إبراهيم الخطَّابي، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، طبعة جامعة أمّ القرى، مكّة المكرَّمة، ١٤٠٢هـ: ١/١٠٥. الفائق: ١/٤٧. النّهاية في غريب الحديث: ١/٥٤.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الحجّ: (٢٩/٨)، باب آطام المدينة: (٨/٢١٧)، برقم: (١٨٧٨)، ص:٣٩١. وفي كتاب المظالم والغصب: (٤٦/ ٢٢)، باب الغرفة والعليّة المشرفة: (٢٥)، برقم: (٢٤٦٧)، ص:٥١٢، إلّا أنّه قال: «إنّي أرى». وبلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٥٩٧)، ص:٧٥٧. وفي: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شرّ قد اقترب»: (٤)، برقم: (٧٠٦٠)، ص:١٤٩١.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣)، برقم: (٢٨٨٥)، ٤/ ٢٢١١.

(٢) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٨. فتح الباري: ١٣/ ١٣، طبعة: دار المعرفة.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٤٥١.

(٤) انظر: مجاز القرآن: ١/ ٢٦١. تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٣. جامع البيان: ١٤/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨، شاكر، وفيه أنّ قائل ذلك هو الجدّ بن قيس أخو بني سلمة، فقد قال له النّبي ﷺ عندما أراد غزوة تبوك: «هل لك يا جدّ العام في جلاد بني الأصفر ـ أي الرّوم ـ؟»، فقال: يا رسول الله، أوَ تأذن لي ولا تفتنّي، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدَّ عُجباً بالنِّساء منّي، وإنّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنّ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية. زاد المسير: ٣/ ٣٠٥. التَّفسير الكبير: ١٦/ ٨٣. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٥٩.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٥٩. زاد المعاد: ٣/ ١٧٠.

٩ ـ المصيبة والشّر:

من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

أي إن أصابه خير ورخاء وعافية اطمأنَّ به، وإن أصابته مصيبة وشرّ وشدّة ارتدّ عن إسلامه وفارق دينه(١).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها في استعاذة النّبي ﷺ من فتنة الفقر(٢). فسَّرها بعض العلماء بالمصيبة(٣).

١٠ ـ الفضيحة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

قيل في معنى الفتنة هنا: أي ومن يرد الله فضيحته. وهناك أقوال أخرى(٤).

١١ ـ المعذرة:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٢ ـ ٢٣].

---

(١) انظر: جامع البيان: ١٧/ ١٢٢ ـ ١٢٣، الحلبي. معاني القرآن، للنّحاس: ٤/ ٣٨٣. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٨٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التّعوذ من المأثم والمغرم: (٣٩)، برقم: (٦٣٦٨)، ص: ١٣٥٧، وباب التّعوذ من فتنة الفقر: (٤٦)، برقم: (٦٣٧٧)، ص: ١٣٥٩. صحيح مسلم، كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب التّعوذ من شر الفتن وغيرها: (١٤)، برقم: (٥٨٩)، ٤/ ٢٠٧٨ ـ ٢٠٧٩.

(٣) انظر: فيض القدير: ٢/ ١٢٧.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزّجاج: ٢/ ١٧٦. زاد المسير: ٢/ ٢٧٧. لسان العرب: ١٣/ ٣١٩. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٥.

أي لم تكن معذرتهم حين قيل لهم ذلك إلّا أن قالوا: والله ربّنا ما كنّا مشركين. ومن فسّر من العلماء الفتنة ها هنا بالقول، أي بمعنى لم يكن قولهم، لا يخالف ما ذُكر، إذ قولهم هو الّذي اعتذروا به عن شركهم[1].

١٢ ـ الجنون:

قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ [القلم: ٥ ـ ٦].

إمّا أن يراد بالمفتون المجنون. وتكون الباء بمعنى في. فيكون الكلام: في أي الفريقين المجنون؟.

وإمّا أن يراد بالمفتون الجنون. فيكون المفتون مصدراً بمعنى الفتون كقولك: معقود وميسور بمعنى العقد واليُسر.

وقيل: المفتون هو الشّيطان. أي قالوا: إنّ به شيطاناً. وهو الّذي يحصل من مسّه الجنون[2].

---

(١) انظر: جامع البيان: ١١/ ٢٩٧ ـ ٣٠٠، شاكر، وقد ذكر من قال بذلك من الصّحابة والتّابعين. معاني القرآن للزّجاج: ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦، وقال: «وتأويل هذه الآية تأويل حسن في اللُّغة لطيف، لا يفهمه إلّا من عرف معاني الكلام وتصرُّف العرب في ذلك، والله جلّ وعزّ ذكر في هذه الأقاصيص الّتي جرت في أمر المشركين وهم مفتتنون بشركهم، أعلم الله أنّه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلّا أن تبرّءوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنّهم ما كانوا مشركين، ومثل ذلك في اللُّغة أن ترى إنساناً يحبّ غاوياً فإذا وقع في هلكة تبرّأ منه، فتقول له: ما كانت محبّتك لفلان إلّا أن انتفيت منه». زاد المسير: ٣/ ١٤. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٤٠٢. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٠٤. قاموس القرآن للدّامغاني، ص:٣٤٩. كشف السّرائر لابن العماد، ص:١٢٤. محاسن التّأويل: ٦/ ٢٢٧٣ ـ ٢٢٧٤.

(٢) انظر: جامع البيان: ٢٩/ ١٩ ـ ٢٠، الحلبي، ذكر من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين. ثمّ قال:

«وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصّواب، قول من قال: معنى ذلك: بأيّكم الجنون؟ ووجه المفتون إلى الفتون بمعنى المصدر، لأنّ ذلك أظهر معاني الكلام». التّفسير الكبير: ٣٠/ ٨٢. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٢٩. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٣٠. قاموس القرآن للدّامغاني، ص:٣٤٩. محاسن التّأويل: ١٦/ ٥٨٩٣. روضة المحبّين، ص:٤٣. التّبيان في أقسام القرآن، ص:٢١٨ ـ ٢١٩. =

١٣ ـ الإعجاب بالشّيء:

قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يونس: ٨٥].

قال قوم موسى ﷺ: أي ربّنا لا تظفر بنا قوم فرعون وتسلّطهم علينا فيظنّوا أنّهم إنّما سلّطوا علينا لأنّهم على الحقّ ونحن على الباطل، فيعجبوا بذلك[١].

وذهب ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنّ المراد بالفتنة هنا العبرة فقال:

«أي يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضرٍّ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء ظنّوا أنّهم على حقّ، ونحن على باطل»[٢].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النّبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرّجال من النّساء»[٣].

أي: يعجب الرّجال بالنّساء فينشغلوا عن العمل الصّالح[٤].

= ذكر فيه ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال العلماء في الآية، ثمّ قال:
«وهذه الأقوال كلّها تكلُّف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه. وستبصر: مضمّن معنى تشعر وتعلم، فعدّى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]. وإذا دعاك اللّفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد».
وانظر إلى أقوال أهل اللُّغة في معنى «الباء» في تهذيب اللُّغة: ١٤/ ٢٩٩.

(١) انظر: جامع البيان: ١٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩، شاكر. معاني القرآن للزّجّاج: ٣/ ٣٠. معاني القرآن للنّحّاس: ٣/ ٢٠٩. زاد المسير: ٤/ ٧٤. التّفسير الكبير: ١٧/ ١٤٦. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٦٣. غريب الحديث للحربي: ٣/ ٩٣٨ ـ ٩٣٩. إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٤. تاج العروس: ١٨/ ٤٢٥.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص: ٤٧٤.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١)، باب ما يتّقي من شؤم المرأة: (١٧/ ١٨)، برقم: (٥٠٩٦)، ص: ١١٢١.
صحيح مسلم، كتاب الرّقاق، باب أكثر أهل الجنّة الفقراء وأكثر أهل النّار النّساء: (٢٦)، برقم: (٢٧٤٠)، ٤/ ٢٠٩٧، وزاد: «هي أضرّ». وبلفظ مقارب في: الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٧٤١)، ٤/ ٢٠٩٨، وزاد في الإسناد: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: فتح الباري: ١١/ ٢٥٨، طبعة: دار المعرفة. لسان العرب: ١٣/ ٣١٩.

١٤ ـ اللّبس والشّبهات:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

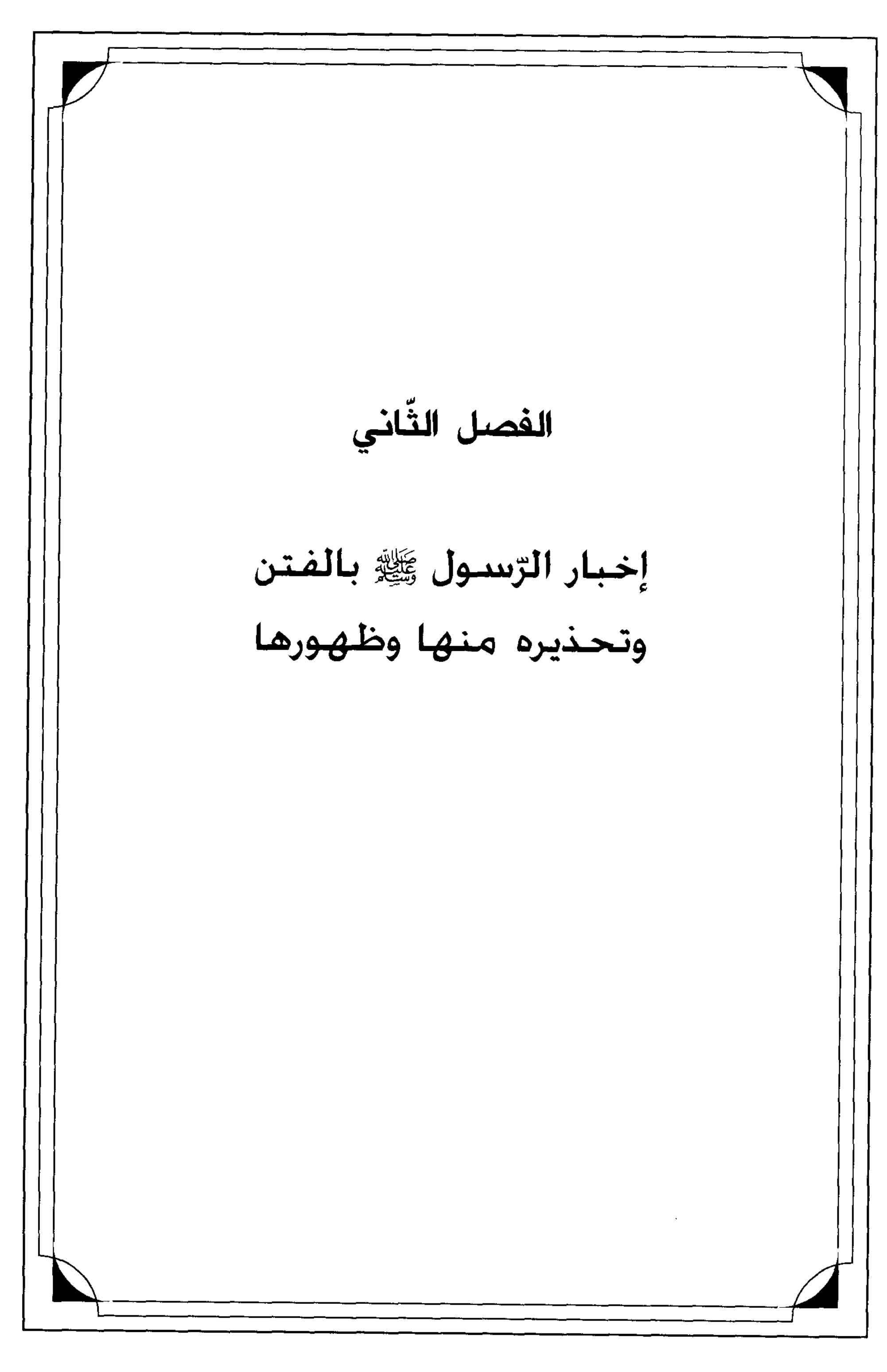
أي الّذين في قلوبهم مرض وميل عن الاستقامة، وانحراف لسوء قصدهم يتّبعون ما تشابه من كلام الله طلباً لإيقاع غيرهم في الشُّبهات واللَّبس. وهو المراد بالفتنة هنا(١).

ومن فسَّرها من العلماء بفساد ذات البين، فسَّرها باللّازم. لأنّ طلب الشُّبهات واللَّبس على عباد الله يؤدّي إلى الخلاف بينهم والتّقاتل وهو فساد ذات البين.



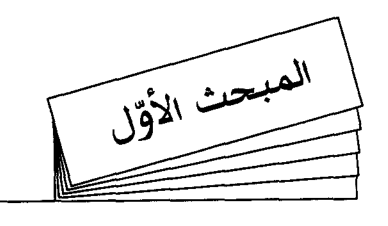
(١) انظر: جامع البيان: ٦/١٩٦ ـ ١٩٩، شاكر. معاني القرآن للزّجّاج: ١/٣٧٧. معاني القرآن للنّحّاس: ٢/٣٠٨. زاد المسير: ١/٣٠٣. التّفسير الكبير: ٧/١٧٥. الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٥. تفسير القرآن العظيم: ١/٥١٧ ـ ٥١٨. محاسن التّأويل: ٤/ ٧٥٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٠١ ـ ١٠٢.





الفصل الثّاني

إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها وظهورها



إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل
إخبار الرّسول ﷺ بالفتن

لقد أخبر الرّسول ﷺ أصحابه بالفتن الّتي أوحى الله إليه بوقوعها في الأمَّة.
فعن أمّ سلمة رضي الله عنها زوج النّبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: «سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجرات ـ يريد أزواجه ـ لكي يصلّين، ربّ كاسية في الدّنيا عارية في الآخرة»[1].

وفي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أشرف النّبي ﷺ على أُطُم من آطام المدينة فقال: «هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: «فإنّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القَطْر»[2].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب لا يأتي زمان إلّا الّذي بعده شرّ منه: (٦)، برقم: (٧٠٦٩)، ص:١٤٩٢. وبلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣)، باب العلم والعظة باللّيل: (٤٠)، برقم: (١١٥)، ص:٤٢ ـ ٤٣. وفي كتاب الصّلاة: (١٩/٥)، باب تحريض النّبي ﷺ على صلاة اللّيل والنّوافل من غير إيجاب: (٥/ ٤٨٢)، برقم: (١١٢٦)، ص:٢٣٩. وفي كتاب اللّباس: (٧٧/ ٥١)، باب ما كان النّبي ﷺ يتجوّز من اللّباس والبُسُط: (٣١)، برقم: (٥٨٤٤)، ص:١٢٦٤. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب التّكبير والتّسبيح عند التعجُّب: (١٢١)، برقم: (٦٢١٨)، ص:١٣٢٧ ـ ١٣٢٨. ونحوه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٥٩٩)، ص:٧٥٨.

(٢) الحديث سبق تخريجه. انظر: ص:٣٥.

والتَّشبيه بوقع القطر في الكثرة والعموم، أي إنّها كثيرة وتعمُّ النّاس، لا تختصّ بها طائفة دون طائفة. وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم(١).

وقد كان ﷺ حريصاً كلّ الحرص على بيانها وتوضيح أمرها إلى صحابته ﷺ، بل بلغ من حرصه في بيانها أن جعلها من أهمّ الأمور الّتي يجب أن يُعلم خبرها ويُنذر شرّها.

عن عبد الرحمٰن بن عبد ربّ الكعبة(٢) قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظلّ الكعبة، والنّاس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه، فقال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فمنّا من يصلح خِباءه(٣)، ومنا من يَنْتَضِل(٤)، ومنا من هو في جَشَرِه(٥)، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصّلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلّا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإنّ أمّتكم هذه جعل عافيتها في أوّلها، وسيصيب

---

(١) شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٧ ـ ٨. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدّين محمود بن أحمد العيني، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت: ٢٤/ ١٨٢.

(٢) هو عبد الرّحمٰن بن عبد ربّ الكعبة العائذي أو الصائدي، كوفي ثقة، من كبار التّابعين، سمع ابن مسعود وعبد الله بن عمرو، روى له مسلم وأبو داود والنَّسائي وابن ماجه هذا الحديث وحده.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٥/ ٣١٩. معرفة الثّقات: ٢/ ٨١. الجرح والتّعديل: ٥/ ٢٦١. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٠١. تهذيب الكمال: ١٧/ ٢٥١. الكاشف: ١/ ٦٣٥. تهذيب التّهذيب: ٦/ ١٩٩. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٤٥.

(٣) الخِباء: أحد بيوت العرب من وَبَر أو صوف، ولا يكون من شعر، ويكون على عمودين أو ثلاثة. والجمع أخبية، وسمّي خباء لأنّه يختبأ فيه. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٩ بتصرُّف يسير.

(٤) ينتضل: أي يترامى بالسهام لأجل السَّبق.
انظر: الفائق: ٣/ ٤٣٩. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٧١.

(٥) جشره: المراد أنّهم أخرجوا دوابهم ومكثوا معها للرّعي.
وانظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ٤١٩. غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٦٨. غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٦٧٧. الفائق: ١/ ٢١٥. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٧٣.

آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيُرَقِّق بعضها بعضاً[1]، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ثمّ تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحبّ أن يزحزح عن النّار ويدخل الجنّة، فلتأته مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى النّاس الّذي يحبّ أن يؤتى إليه...» الحديث[2].

وقد أطال ﷺ في ذكرها حتّى ينجلي أمرها، وينهتك سترها.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام السّاعة إلّا حدّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنّه ليكون منه الشّيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرّجل وجه الرّجل إذا غاب عنه، ثمّ إذا رآه عرفه»[3].

وعن أبي زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتّى حضرت الظّهر، فنزل فصلّى، ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتّى حضرت العصر، ثمّ نزل فصلّى، ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتّى غربت الشّمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا»[4].

وعن طارق بن شهاب رحمه الله[5] قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: «قام فينا

---

(١) يرقق بعضها بعضاً: أي: يحسن. غريب الحديث للهروي: ٤/ ٤٤٢.
قال ابن الأثير رحمه الله: «والمعنى: أي تُشَوِّف بتحسينها وتسويلها». النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٥٣. وانظر: الفائق: ٢/ ٧٩.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأوّل فالأوّل: (١٠)، برقم: (١٨٤٤)، ٣/ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٣.

(٣) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب إخبار النّبي ﷺ فيما يكون إلى قيام السّاعة: (٦)، برقم: (٢٨٩١)، ٤/ ٢٢١٧.

(٤) المرجع السّابق، بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٨٩٢)، ٤/ ٢٢١٧.

(٥) طارق بن شهاب بن عبد شمس أبو عبد الله الأسلمي البجلي الأحمس الكوفي، أدرك الجاهليّة. قال أبو داود: «رأى النّبي ﷺ ولم يسمع منه». وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «إذا ثبت أنّه لقي النّبي ﷺ فهو صحابي على الراجح، وإذا ثبت أنّه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي، وهو مقبول على الراجح». وكانت أكثر روايته عن الصّحابة، توفي سنة: ٨٣هـ، وقيل: ٨٢هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٦٦. التّاريخ الكبير: ٤/ ٣٥٢. معرفة الثّقات: =

النّبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتّى دخل أهل الجنَّة منازلهم، وأهل النّار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه»[1].

وكان ﷺ يكثر من ذكرها، فتارة يبيّن أنواعها، وأخرى يفصّل إجمالها.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعوداً عند رسول الله فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتّى ذكر فتنة الأحْلاس[2]. فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي هَرَبٌ وحَرَبٌ[3]، ثمّ فتنة السَّرَّاء[4] دَخَنُها[5] من تحت

= ١/ ٤٧٥. الجرح والتّعديل: ٤/ ٤٨٥. ثقات ابن حبَّان: ٣/ ٢٠١. مشاهير علماء الأمصار، لأبي حاتم محمّد بن حبَّان البستي، تحقيق: م. فلايشهمر، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٥٩م: ١/ ٤٨. الكاشف: ١/ ٥١١. الإصابة في تمييز الصَّحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م: ٣/ ٥١٠. تهذيب التَّهذيب: ٥/ ٤. تقريب التَّهذيب: ١/ ٢٨١.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]: (١)، برقم: (٣١٩٢)، ص: ٦٧٥.

(٢) الأحلاس: جمع حِلْس وهو كساء يكون تحت البَرْذَعة التي توضع على ظهر البعير، وهو أيضاً بساط يبسط في البيت.
انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٥٦٢. غريب الحديث للخطَّابي: ٢/ ٤٢٧. الفائق: ١/ ٣٠٤. النِّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٢٣.
قال الخطَّابي رحمه الله:
«إنَّما أضيفت الفتنة إلى الأحلاس لدوامها وطول لبثها، يقال للرجل إذا كان يلزم بيته لا يبرح منه: هو حلس بيته، لأنّ الحلس يفترش فيبقى على المكان ما دام يرفع، وقد يحتمل أن تكون هذه الفتنة إنَّما شبّهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها».
معالم السنن، لأبي سليمان الخطَّابي مع مختصر سنن أبي داود وتهذيب ابن القيّم، تحقيق محمّد حامد الفقي، مطبعة: السنّة المحمّدية، ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م: ٦/ ١٣١.
وانظر: غريب الحديث له: ١/ ٢٨٧. والفائق: ١/ ٣٠٥.

(٣) الحَرَب بالتحريك: نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له. النِّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٥٨.
وقال الخطَّابي رحمه الله: «الحَرَب: ذهاب المال والأهل، يقال: حرِب الرّجل فهو حريب: إذا سلب أهله وماله». معالم السنن مع المختصر: ٦/ ١٣١.

(٤) السَّرَّاء: هي البطحاء. الفائق: ١/ ٣٠٥. النِّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٦١.
كما تطلق السَّرَّاء على حالة اليسر والسّعة والرّاحة، وهي بخلاف الضّرّاء. انظر: المرجع السّابق: ٢/ ٣٦١.

(٥) دَخَنها: الدَّخَن: هو الدّخان. وأصله أن يكون في لون الدّابّة أو الثّوب أو غير ذلك=

قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنّه منّي وليس منّي، وإنّما أوليائي المتّقون. ثمّ يصطلح النّاس على رجل كوَرِك على ضِلَع[1]. ثمّ فتنة الدُّهَيْماء[2] لا تدع أحداً من هذه الأمَّة إلّا لطمته لطمة، فإذا قيل انقضت تمادت، يصبح الرّجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، حتّى يصير النّاس إلى فُسْطَاطين[3]: فُسْطَاط إيمان لا نفاق

= كدورة إلى سواد. انظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ٢٦٢.
شبّه ظهور تلك الفتنة وإثارتها بظهور الدّخان وارتفاعه، أي أنّها تثور من تحت قدمه كما يثور الدّخان ويرتفع، لأنّه ـ أي الرّجل ـ سبب إثارتها.
انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٢٨٧. النِّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٠٩.
وانظر: الفائق: ١/ ٣٠٥.

(١) كورك على ضِلَع:
قال الخطّابي رحمه الله:
«كورك على ضلع: مَثَلٌ، ومعناه: الأمر الَّذي لا يثبت ولا يستقيم، وذلك أنّ الضلع لا يقوم بالورك ولا يحمله، وإنَّما يقال في باب الملائمة والموافقة إذا وصفوا: هو ككفّ على ساعد وكساعد في ذراع، أو نحو ذلك، يريد أنّ هذا الرّجل غير خليق للملك ولا مستقل به». معالم السنن مع المختصر: ٦/ ١٣١ ـ ١٣٢.
وذكر نحواً منه في غريب الحديث: ١/ ٢٨٧. وانظر: الفائق: ١/ ٣٠٥.
وقال ابن الأثير رحمه الله:
«يصطلح على رجل كورك على ضلع: أي يصطلحون على أمر واهٍ لا نظام له ولا استقامة، لأنّ الورك لا يستقيم على الضلع ولا يتركّب عليه، لاختلاف ما بينهما وبعده». النِّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٧٦.

(٢) الدُّهَيْماء: تصغير الدَّهْماء، وهي الدَّاهية. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ١٢٥.
الفائق: ١/ ٣٠٥.
قيل: صغّرها على طريق المذمّة لها. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٢٨٧.
قيل: صغّرها للتّعظيم. وأراد بفتنة الدّهيماء: الفتنة المظلمة. انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٤٦.

(٣) الفُسْطاط: بالضّمّ والكسر: المدينة الّتي فيها مجتمع النّاس، وكلّ مدينة فسطاط.
المرجع السّابق: ٣/ ٤٤٥.
قال الزّمخشري: «هو ضرب من الأبنية في السّفر دون السّرادق». الفائق: ٣/ ١١٦.
زاد ابن الأثير: «وبه سمّيت المدينة. ويقال لمصر والبصرة: الفسطاط». النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٤٥.

فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه. فإذا كان ذاكم فانتظروا الدّجال من يومه أو من غده»[1].

ومن هذه الأحاديث يتبيّن أنّ الصّحابة ﷺ كان عندهم العلم الكثير بأحاديث الفتن[2]. وإن خصّ بعضهم بمزيد علم.

عن حذيفة ﷺ أنّه قال: «أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم السّاعة، فما منه شيء إلّا سألته، إلّا أنّي لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة»[3].

وحذيفة ﷺ هو القائل: «والله إنّي لأعلم النّاس بكلّ فتنة هي كائنة فيما بيني وبين السّاعة، وما بي إلّا أن يكون رسول الله ﷺ أسرَّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدّثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدّث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يعدّ الفتن: «منهنّ ثلاث لا يكدن يَذَرْن شيئاً، ومنهنّ فتن كرياح الصّيف، منها صغار ومنها كبار». قال حذيفة: «فذهب أولئك الرّهط كلّهم غيري»[4].

ومع هذا فإنّ الصّحابة ﷺ لم يُشيعوا أحاديث الفتن كما أشاعوا أحاديث الأحكام. وإنّما اقتصروا على ما فيه نفع وفائدة، وسكتوا عمّا يؤدّي إلى الشّرور.

---

(١) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الفتن والملاحم: (٣٤)، باب ذكر الفتن ودلائلها: (١)، برقم: (٤٢٤٢). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:٤٦٣.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١٣٣/٢. قال أحمد شاكر ﷺ: «إسناده صحيح». مسند أحمد، بتحقيق أحمد شاكر، طبعة: دار المعارف، مصر، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م: ٢٤/٩ - ٢٦، برقم: (٦١٦٨). المستدرك على الصَّحيحين، لمحمّد بن عبد الله الحاكم النَّيسابوري، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بلفظ مقارب في: ٥١٣/٤، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) انظر: التَّذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي، دار الرّيان للتّراث، القاهرة، الطَّبعة الثّانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص:٦٤١.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب إخبار النّبي ﷺ فيما يكون إلى قيام السَّاعة: (٦)، برقم: (٢٨٩١)، ٢٢١٧/٤.

(٤) المرجع السّابق، بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٨٩١)، ٢٢١٦/٤.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: «حفظت من رسول الله وعاءين، فأمّا أحدهما فبثثته، وأمّا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»[1].

وهو الّذي قال لجماعة فيهم مروان بن الحكم[2]: سمعت الصَّادق المصدوق يقول: «هلكة أمّتي على يد غِلْمة من قريش». فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة، فقال أبو هريرة: «لو شئت أن أقول بني فلان، وبني فلان لفعلت»[3].

قال القرطبي رحمه الله:

«قال علماؤنا رحمة الله عليهم: هذا الحديث يدلّ على أنّ أبا هريرة كان عنده من علم الفتن العلم الكثير، والتَّعيين على من يحدث عنه الشّر الغزير، ألا تراه يقول: «لو شئت قلت لكم هم بنو فلان وبنو فلان». لكنّه سكت عن تعيينهم مخافة ما يطرأ من ذلك من المفاسد»[4].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣)، باب حفظ العلم: (٤٢)، برقم: (١٢٠)، ص:٤٣.

(٢) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس أبو عبد الملك الأموي القرشي، ولد سنة اثنتين من الهجرة، ولم يصح له سماع من النّبي ﷺ، ولم تثبت له صحبة، كان ابن عمّ عثمان رضي الله عنه وكاتبه في خلافته، تولّى إمرة المدينة لمعاوية، وبويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، وخلافته تسعة أشهر وأيّام، مات في رمضان سنة ٦٥هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٣٥. التّاريخ الكبير: ٧/٣٦٨. الجرح والتّعديل: ٨/ ٢٧١. تهذيب الكمال: ٢٧/ ٣٨٧. الكاشف: ٢/ ٢٥٣. الإصابة: ٦/ ٢٥٧. تهذيب التّهذيب: ١٠/ ٨٢. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٢٥. لسان الميزان: ٧/ ٣٨٢.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «هلاك أمّتي على يدي أغيلمة سفهاء»: (٣)، برقم: (٧٠٥٨)، ص:١٤٩٠. وبلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٠٤)، ص:٧٥٨، وبرقم: (٣٦٠٥)، ص:٧٥٨ ـ ٧٥٩.

صحيح مسلم، بمعناه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨)، برقم: (٢٩١٧)، ٤/ ٢٢٣٦.

(٤) التّذكرة، ص:٦٤٣.

المطلب الثّاني

تحذير الرّسول ﷺ من الفتن

لقد حذّر النّبي ﷺ من الفتن، وأنذر بها. وما حذّر وأنذر به فلا شك في وقوعه، وقد قال سبحانه في شأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

عن زينب بنت جحش ﵂ زوج النّبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً مُحْمَرًّا وجهه يقول: «لا إله إلّا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلّق بإصبعه الإبهام والّتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[1].

= قال الحافظ ابن حجر ﵀:

«والمراد بالأمّة هنا أهل ذلك العصر ومن قاربهم لا جميع الأمّة إلى يوم القيامة... وعن أبي هريرة رفعه: «أعوذ بالله من إمارة الصّبيان، قالوا: وما إمارة الصّبيان؟ قال: إن أطعتموهم هلكتم ـ أي في دينكم ـ وإن عصيتموهم أهلكوكم»، أي في دنياكم بإزهاق النّفس أو بإذهاب المال أو بهما. وفي رواية... أنّ أبا هريرة كان يمشي في السّوق ويقول: «اللّهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصّبيان». وفي هذا إشارة إلى أنّ أوّل الأغيلمة كان في سنة ستين، وهو كذلك، فإنّ يزيد بن معاوية استخلف فيها وبقي إلى سنة أربع وستين فمات، ثمّ ولي ولده معاوية ومات بعد أشهر... والمراد أنّهم يهلكون النّاس بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله فتفسد أحوال النّاس، ويكثر الخبط بتوالي الفتن، وقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ».

فتح الباري، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م: ١٤/ ٥٠٠.

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قصّة يأجوج ومأجوج: (٧/ ٨)، برقم: (٣٣٤٦)، ص: ٧٠٤. وفي كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٥٩٨)، ص: ٧٥٧ ـ ٧٥٨. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «ويل للعرب من شرّ قد اقترب»: (٤)، برقم: (٧٠٥٩)، ص: ١٤٩٠ ـ ١٤٩١. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/ ٦٨)، باب يأجوج ومأجوج: (٢٨/ ٢٩)، برقم: (٧١٣٥)، ص: ١٥٠٣.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب اقتراب الفتن=

ففي الحديث تحذير بقرب وقوع الشّر وهو المعبَّر عنه بقوله: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»[1].

وإذا فتح ذلك القدر في زمنه ﷺ لم يزل الفتح يتّسع على مرّ الأوقات[2]. وفي ذلك دلالة على توالي الفتن ووقوعها في الأمَّة.

وجاء ذلك صراحة في حديث أمّ سلمة: «ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن»[3].

وفي حديث أسامة: «فإنِّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»[4].

وخاطب بذلك العرب وخصّهم بالذّكر لأنّهم كانوا حينئذ معظم من أسلم[5]. وأنّ الفتن إذا وقعت كان الهلاك إليهم أسرع[6].

وقد حثَّ النّبي ﷺ على مواجهة تلك الفتن الّتي دنا أمرها وقرب أجلها بالمسارعة بالأعمال الصّالحة، لشدّتها، وظلمتها، وعدم تبيّن أمرها، وتخبّط المرء فيها، وتأرجحه بين الإيمان والكفر عند حلولها. وفي ذلك تحذير منها أيَّما تحذير.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع اللّيل المظلم، يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدّنيا»[7].

= وفتح ردم يأجوج ومأجوج: (١)، برقم: (٢٨٨٠)، ٤/ ٢٢٠٨، وبلفظ مقارب في: ٤/ ٢٢٠٧.

(١) انظر: عون المعبود: ١١/ ٢١٥.

(٢) فتح الباري: ١٤/ ٥٠٤.

(٣) سبق تخريج الحديث. انظر: ص: ٤٢.

(٤) سبق تخريج الحديث. انظر: ص: ٣٤.

(٥) انظر: فتح الباري: ١٤/ ٦٢١. عون المعبود: ١١/ ٢١٥.

(٦) عمدة القاري: ٢٤/ ١٨١.

(٧) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب الحثّ بالمبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن: (٥١)، برقم: (١١٨)، ١/ ١١٠.

قال الإمام النووي رحمه الله:

«معنى الحديث الحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصّالحة قبل تعذّرها، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشّاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام اللّيل المظلم لا المقمر. ووصف ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن وهو أنّه يمسي مؤمناً ثمّ يصبح كافراً أو عكسه ـ شكّ الرّاوي ـ وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب، والله أعلم»[1].

والمراد من التّشبيه بظلمة اللّيل بيان حال الفتن من حيث إنّه بشع فظيع، ولا يعرف سببها ولا طريق الخلاص منها[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «يتقارب الزّمان، ويَنْقُصُ العمل، ويُلْقَى الشُّحُ[3]، وتظهر الفتن، ويَكْثُرُ الهَرْجُ»، قالوا: يا رسول الله أَيُّمَ هو؟ قال: «القتل القتل»[4].

---

(١) شرح النَّووي على مسلم: ٢/ ١٣٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي، لأبي علي محمّد عبد الرّحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلميّة، بيروت: ٦/ ٣٦٤.
روى التِّرمذي عن الحسن البصري رحمه الله أنّه كان يقول في هذا الحديث:
«يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً»، قال: «يصبح الرّجل محرّماً لدم أخيه وعرضه وماله، ويمسي مستحلاً له، ويمسي محرّماً لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح مستحلاً له».
سنن التِّرمذي المعروف بجامع التِّرمذي، لأبي عيسى محمّد بن عيسى بن سورة التِّرمذي، طبعة: بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء ستكون فتن كقطع اللّيل المظلم: (٣٠)، برقم: (٢١٩٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح الإسناد عن الحسن»، ص:٣٦٥. وهذا من قصر المعنى العام على المعنى الخاص. والأولى حمل الحديث على عمومه.

(٣) الشُّح: هو أشدّ البخل. النِّهاية في غريب الحديث: ٢/٤٤٨.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ظهور الفتن: (٥)، برقم: (٧٠٦١)، ص:١٤٩١. وبلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب حسن الخلق والسّخاء وما يكره من البخل: (٣٩)، برقم: (٦٠٣٧)، ص:١٢٩٥. ونحوه في: كتاب العلم: (٣)، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليدّ والرّأس: (٢٤)، برقم: (٨٤)، ص:٣٦. وفي كتاب الصّلاة: (١٥/ ٥)، باب ما قيل في الزّلازل والآيات: =

فقوله: «تظهر الفتن»، المراد كثرتها واشتهارها وعدم التّكاتم بها[1].

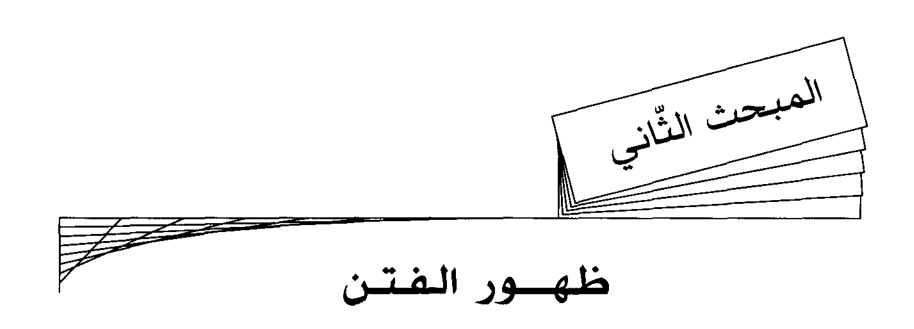
ففي هذه النّصوص تنبيه منه ﷺ للأمّة وتحذير لها من الفتن الّتي يتوقّع حلولها، ويترقّب وقوعها، كي تحزم الأمّة أمرها فلا تسقط فريسة لها، ولا تنحرف بسببها عن دينها، ولا تزيغ من أجلها عن شرعها، وتعدّ العدّة لمواجهتها ومجابهتها، لخطورتها، وسوء حالها، وكراهة شأنها.



= (٢٧/٤٢٤)، برقم: (١٠٣٦)، ص: ٢٢١. وفي كتاب المناقب: (٦١/٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٠٨)، ص: ٧٥٩. وفي كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب لا تقوم السّاعة حتّى يغبط أهل القبور: (٢٢/٢٣)، برقم: (٧١١٥)، ص: ١٥٠٠. عن أبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وفي باب: (٢٥/٢٦)، برقم: (٧١٢١)، ص: ١٥٠٠ ـ ١٥٠١. عن أبي موسى وعبد الله أيضاً.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٤٧)، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥)، برقم: (١٥٧)، (٤/٢٠٥٧). ونحوه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤)، برقم: (١٥٧)، ٤/ ٢٢١٥.

(١) فتح الباري: ١٤/٥٠٩. عمدة القاري: ٢٤/١٨٣.



ظهـــور الفـتـن

وفيه تمهيد ومطالب:

التّمهيد

وقوع ما أخبر عنه ﷺ

لقد ظهر كثير من الفتن من بعد النّبي ﷺ إلى يومنا هذا، تصديقاً لما ذكره ﷺ وهي لا تزال في ازدياد وتكاثر، حتّى ملأت أرجاء الأرض، وعمَّت وطمَّت، وقلّ بلد من بلاد الدّنيا إلّا وحلّ فيه أنواع، ووقع فيه أصناف منها، وإن كثرت في بعض البلاد دون بعض.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر النّبي ﷺ: «اللّهم بارك لنا في شأمنا، اللّهم بارك لنا في يمننا»، قالوا: وفي نَجْدنا، قال: «اللّهم بارك لنا في شأمنا، اللّهم بارك لنا في يمننا»، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ فأظنّه قال في الثّالثة: «هناك الزّلازل والفتن وبها يطلع قَرْنُ الشّيطان»(١).

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ أنّه قام إلى جنب المنبر فقال: «الفتنة ههنا، الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشّيطان أو قال: قرن الشّمس»(٢).

---

(١) الحديث: سبق تخريجه، ص:٢٩. ولكنّه بهذا اللّفظ في صحيح البخاري، كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «الفتنة من قبل المشرق»: (١٦)، برقم: (٧٠٩٤)، ص:١٤٩٦. وبلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (١٥/ ٥)، باب ما قيل في الزّلازل والآيات: (٢٧/ ٤٢٤)، برقم: (١٠٣٧)، ص:٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) الحديث: سبق تخريجه. انظر: ص:٢٩. ولكنّه بهذا اللّفظ في صحيح البخاري، =

و«نجد» المراد في هذه الأحاديث نجد العراق لا نجد الحجاز، لأنّ النّبي ﷺ أشار إلى المشرق وهو يومئذ بالمدينة، ومشرق المدينة إنّما هو العراق وما جاورها.

قال الخطّابي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة، وأصل النَّجْد ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغَوْر، فإنّه ما انخفض منها، وتهامة كلّها من الغور، ومكّة من تهامة»(١).

وقد جاء ذلك صراحة عن سالم بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ(٢) الّذي روى الحديث عن أبيه.

فقد روى مسلم بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر يقول: «يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصّغيرة، وأركبكم للكبيرة، سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنة تجيء من ها هنا»، وأومأ بيده نحو المشرق، «من حيث يطلع قرنا الشّيطان». وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض. وإنّما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]»(٣).

وقد وقع مصداق ما ذكره ﷺ، إذ كانت العراق وما جاورها مصدراً

= كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «الفتنة من قبل المشرق»: (١٦)، برقم: (٧٠٩٢)، ص: ١٤٩٦.

(١) فتح الباري: ١٤/ ٥٤٦، فيما نقله الحافظ عنه.

(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب القرشي العدوي، أبو عمر أو أبو عبد الله المدني، أحد فقهاء المدينة السّبعة، جمع بين العلم والعمل، والزّهد والشّرف، يُشبَّه بأبيه في الهدى والسّمت، وكان ثبتاً في الحديث، مات سنة ١٠٦هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ١٩٥. التّاريخ الكبير: ٤/ ١١٥. الجرح والتّعديل: ٤/ ١٨٤. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٨٨. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٣٧٨. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٢٦.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب الفتنة من قبل المشرق من حيث يطلع قرنا الشّيْطان: (١٦)، برقم: (٢٩٠٥)، ٤/ ٢٢٢٩ ـ ٢٢٣٠.

لعظائم الفتن الّتي حلّت بأهل الإسلام، قديماً وحديثاً. وكذلك البدع والفرق الضّالة نشأت من تلك النّاحية[1].

وما انفكت العراق تقذف بالفتن إلى العالم الإسلامي. وما حرب الخليج المدمِّرة الّتي أُزهقت فيها أرواح، ورُمِّلت فيها نساء، ويُتِّم فيها أطفال إلّا سوأة من سوآتها. ولا زال أهل الإسلام يعانون من آثار تلك الحرب بما أفرزته من أحقاد وإحن وخلافات. بات المسلمون على إثرها مضعضعي الأوصال، مفرقي الكلمة، مشتّتي الشّمل. وقد ضعفت قوّتهم أمام أعدائهم من اليهود والنّصارى. وهم الّذين جنوا ثمرة ذلك القتال.

وسوف أتناول بإذن الله أنواعاً من الفتن الّتي ذكرها رسول الله ﷺ أو أشار إليها، والّتي وقع كثير منها.

المطلب الأوّل

فتنة الناس أثر موت النّبي ﷺ

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في غزوة تبوك[2]

---

(١) انظر: فتح الباري: ١٤/٥٤٦. عمدة القاري: ٢٤/١٩٩. الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي السّاعة، لمحمّد صديق حسن القنوجي، مكتبة الثّقافة بالمدينة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، ص:٢٩ ـ ٣٠. إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط السّاعة، لحمود بن عبد الله التّويجري، مطابع الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٣٩٤هـ: ١/١١٥ ـ ١١٦.
وسوف يأتي تفاصيل ذلك في ثنايا البحث.

(٢) تبوك: بالفتح ثمّ الضمّ وواو ساكنة وكاف: موضع بين وادي القرى والشّام. وقيل: بركة لأبناء سعد من بني عذرة، وأصلها من البوك وهو إدخال اليد في الشّيء وتحريكه.
وقال أبو زيد رحمه الله: «تبوك بين الحجر وأوّل الشّام، على أربع مراحل من الحجر، نحو نصف طريق الشّام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النّبي ﷺ».
وغزوة تبوك هي آخر غزوة غزاها النّبي ﷺ وكانت في مواجهة الرّوم الّذين تجمّعوا هناك، ثمّ تفرّقوا فلم يقع قتال، وذلك في العام التّاسع للهجرة.
انظر: معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي، طبعة: دار الفكر، بيروت: =

وهو في خباء من أدَم[1]، فجلست بفناء[2] الخباء، فقال رسول ﷺ: «ادخل يا عوف»، فقلت: بكلِّي يا رسول الله؟ قال: «بكلِّك». ثمّ قال: «يا عوف احفظ خلالاً ستًّا بين يدي السّاعة: إحداهنّ موتي». قال: فَوَجَمْتُ[3] عندها وَجْمَةً شديدة، فقال: «قل: إحدى. ثمّ فتح بيت المقدس، ثمّ داء يظهر فيكم يَسْتَشْهِدُ الله به ذراريكم وأنفسكم ويزكّي به أموالكم، ثمّ تكون الأموال فيكم حتّى يعطى الرّجل مائة دينار فيظلُّ ساخطاً، وفتنة تكون بينكم لا يبقى بيت مسلم إلّا دخلته، ثمّ تكون بينكم وبين بني الأصفر[4] هُدْنَةٌ، فيغدرون بكم، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية[5]، تحت كلّ غاية اثنا عشر ألفاً»[6].

= ٢/ ١٤ ـ ١٥. وانظر: معجم ما استعجم، لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، طبعة: عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٢هـ، تحقيق مصطفى السقا: ١/ ٣٠٣. وتبوك اليوم مدينة مشهورة من مدن المملكة العربيّة السّعوديّة، وهي في أقصى الشّمال بالقرب من الحدود مع الأردن.

(١) أدم: من الأديم وهو الجلد. انظر: مختار الصّحاح، ص: ١٠ ـ ١١. القاموس المحيط، ص: ١٣٨٩.

(٢) فناء: يقال: فناء الدّار وهو: ما امتدّ من جوانبها، والجمع أفنية. مختار الصّحاح، ص: ٥١٣. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٧٠٤.

(٣) فوجمت: يقال: وَجم الرّجل يَجِم وجوماً: إذا أسكته الهمّ وعلته الكآبة. انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ٢٣٢. الفائق: ٤/ ٤٥. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٥٦.

(٤) بنو الأصفر: يعني الرّوم، لأنّ أباهم الأوّل كان أصفر اللون، وهو رُوم بن عِيصُو بن إسحاق بن إبراهيم. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٧.

(٥) غاية: يعني راية. انظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ٨٧. الفائق: ٣/ ٣٩٢. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٠٤.

(٦) سنن أبي داود: أخرج جزءاً منه في كتاب الأدب: (٤٠)، باب ما جاء في المزاح: (٨٥)، برقم:. (٥٠٠٠).
قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٥٤١.
سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمّد بن يزيد بن ماجه القزويني، طبعة: بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب أشراط السّاعة: (٢٥)، برقم: (٤٠٤٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٣٥.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، للأمير علاء الدّين عليّ بن بلبان الفارسي، =

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: دخلت على النّبي ﷺ وهو يتوضّأ وضوءاً مَكِيثاً فرفع رأسه فنظر إليّ فقال: «ستّ فيكم أيّتُها الأمَّة موت نبيّكم ﷺ». فكأنّما انتزع قلبي من مكانه، قال رسول الله: «واحدة». ثمّ ذكر الحديث نحواً من حديث عوف السّابق[1].

إنَّ موته ﷺ أوّل أمر دهم الإسلام، وأوّل فاجعة أصيبت بها الأمَّة، وأعظم مصيبة حلَّت بالمسلمين. فبموته انقطع الوحي. وكان أوّل ظهور الشرّ بارتداد العرب، وكان أوّل نقصان الخير في الأمة[2].

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «لمّا كان اليوم الّذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء، فلمّا كان اليوم الّذي مات فيه أظلم منها كلّ شيء، ولمّا نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنّا لفي دفنه حتّى أنكرنا قلوبنا»[3].

= تحقيق وتخريج: شعيب الأرناؤوط، طبعة: مؤسَّسة الرّسالة، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، بلفظ مقارب في: باب ذكر الأخبار عن فتح المسلمين بيت المقدس، برقم: (٦٦٧٥)، ١٥/ ٦٦.

مستدرك الحاكم، نحوه في: (٤/ ٤٦٥). وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه بهذه السِّياقة». وقال الذَّهبي رحمه الله: «على شرط البخاري ومسلم».

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ١٧٤.

(٢) انظر: التّذكرة، ص: ٧١٥.

(٣) سنن التِّرمذي، بلفظه في: كتاب المناقب: (٤٥)، باب في فضل النّبي ﷺ: (١)، برقم: (٣٦١٨)، وقال: «هذا حديث غريب صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٥٦٨.

سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦١)، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ: (٦٥)، برقم: (١٦٣١). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ١٧٨. مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ٢٢١، ٢٦٨. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر إنكار الصحابة قلوبهم عند دفن صفي الله ﷺ، برقم: (٦٦٣٤). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ١٤/ ٦٠١.

مستدرك الحاكم: ٣/ ٥٩، جزء منه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم».

مسند أبي يعلى، لأحمد بن عليّ بن المثنَّى أبي يعلى الموصلي، طبعة: دار المأمون للتّراث، دمشق، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، تحقيق: حسين سليم أسد، بلفظ=

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

«يريد أنّهم وجدوها تغيّرت عمّا عهدوه في حياته من الألفة والصَّفاء والرِّقة، لفقدان ما كان يمدّهم به من التّعليم والتّأديب»[1].

وقال ابن إسحاق رَحِمَهُ اللهُ:

«ولمّا توفِّي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة، فيما بلغني تقول: «لمّا توفِّي رسول الله ﷺ ارتدّت العرب، واشرأبّت اليهوديّة والنّصرانيّة، ونَجَم النّفاق، وصار المسلمون كالغنم المَطِيرة[2] في اللّيلة الشّاتية، لفقد نبيّهم ﷺ، حتّى جمعهم الله على أبي بكر»[3].

لقد كان موته ﷺ ثلمة عظيمة في تاريخ الأمّة الإسلاميّة، وخرقاً واسعاً لا يرقع، ولو كان أحد من البشر يستحقّ الخلود في هذه الدّنيا لكان أولى النّاس بذلك رسول الله ﷺ، ولكنّ الله تعالى قال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥].

وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١].

وقد قال لنا: «إذا أُصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنَّها أعظم المصائب عنده»[4].

= مقارب، برقم: (٣٢٩٦)، ٦/ ٥١، وبرقم: (٣٣٧٨)، ٦/ ١١٠. قال المحقّق حسين أسد: «إسناده صحيح».

(١) فتح الباري: (٨/ ١٤٩)، طبعة: دار المعرفة.

(٢) المطيرة: أي الماطرة، من باب فعيلة بمعنى فاعلة. انظر: الفائق: ١/ ٤٨.

(٣) السّيرة النّبويّة: ٤/ ٤٩٥.

(٤) سنن ابن ماجه، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعاً في جزء من حديث ولفظه: «يا أيُّها النّاس أيُّما أحد من النّاس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة الّتي تصيبه بغيري فإنّ أحداً من أمّتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي». في: كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في الصّبر على المصيبة: (٥٥)، برقم: (١٥٩٩). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص: ١٧٤. =

نعم! إنّ كلّ مصيبة بعد المصيبة بموته تهون، وكلّ خطب بعد وفاته يسهل.

وقد عبّر عن ذلك بعض الصّحابة رضي الله عنهم.

قال أبو بكر الصّديق رضي الله عنه في أبيات يرثي بها النّبي ﷺ:

فلتُحْدِثَنّ حوادثٌ من بعده ... تُعْنَى بهن جوانحٌ[1] وصدور

وقالت صفيّة بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لعمرك ما أبكي النّبي لفقده ... لكنّ ما أخشى من الهَرْج آتيا[2]

وقال حسّان بن ثابت رضي الله عنه في مرثيته الدّالية:

وراحوا بحُزْن ليس فيهم نبيّهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضُدُ

= سنن الدّارمي، لعبد الله بن عبد الرّحمٰن الدّارمي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السّبع العلمي، بلفظ مقارب في: باب وفاة النّبي ﷺ، برقم: (٨٤). عن مكحول رحمه الله مرسلاً، وبرقم: (٨٥). عن عطاء رحمه الله مرسلاً أيضاً: ١/٥٣.

المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطّبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفي، طبعة: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م، بلفظه عن عبد الرّحمٰن بن سابط عن أبيه رضي الله عنه، برقم: (٦٧١٨)، ٧/١٦٧.

المعجم الأوسط، للطّبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، طبعة: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، نحوه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ٤/٣٦٥.

المعجم الصغير، للطّبراني، تحقيق: محمّد شكور محمود، طبعة: المكتب الإسلامي، دار عمّار، بيروت، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، نحوه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ١/٣٦٦.

(١) الجوانِح: أوائل الضُّلُوع تحت التّرائب ممّا يلي الصّدر، كالضُّلوع ممّا يلي الظّهر، سمّيت بذلك لجنوحها على القلب، وقيل: الجوانح: الضُّلُوع القِصارُ الّتي في مُقَدَّمِ الصّدرِ، والواحدة جانحة. لسان العرب: ٢/٤٢٩.

(٢) التّذكرة، ص: ٧١٥.

والهَرْج: هو الفتنة والاختلاط ويطلق على القتل. انظر: مختار الصِّحاح، ص: ٦٩٤. القاموس المحيط، ص: ٢٦٨.

يُبَكُّون من تبكي السّماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالنّاس أكمَدُ[1]

وهل عَدَلَت يوماً رَزِيَّةُ هالك رزيَّةَ يوم مات فيهم محمّدُ

تَقَطَّعَ فيه منزلُ الوحي عنهم وقد كان ذا نور يغور[2] ويُنْجِدُ[3]

وما فقد الماضون مثل محمّد ولا مثلُه حتى القيامة يُفْقَدُ[4]

وأمّا ما حلَّ بالصَّحابة ﷺ فقد صوّره الإمام ابن العربي تصويراً بليغاً فقال:

«فكان موت النّبي ﷺ قاصمة الظّهر ومصيبة العمر. فأمّا عليّ فاستخفى في بيته مع فاطمة، وأمّا عثمان فسكت، وأمّا عمر فأهجر[5] وقال: «ما مات رسول الله ﷺ وإنّما واعده الله كما واعد موسى، وليرجعنَّ رسول الله ﷺ فليقطعنَّ أيدي ناس وأرجلهم»... واضطرب أمر الأنصار يطلبون الأمر لأنفسهم، أو الشّركة فيه مع المهاجرين. وانقطعت قلوب الجيش الّذي كان قد برز مع أسامة بن زيد بالجرف[6]»[7].

---

(١) الكَمَدُ: أشدُّ الحزن. كَمِدَ كَمَداً وأكْمَده الحزن. وكَمِدَ الرّجل، فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ. لسان العرب: ٣/ ٣٨١.

(٢) غَوْر كلّ شيء قعره، يقال: فلان بعيد الغَوْر. والغَوْر أيضاً المطمئن من الأرض، والغَوْر تهامة وما يلي اليمن. مختار الصّحاح، ص:٤٨٤. وانظر: القاموس المحيط، ص:٥٨١.

(٣) النَّجْدُ من الأرض: قِفافُها وصَلابَتُها، وما غَلُظَ منها وأَشرَفَ وارتَفَعَ واستَوى، والجمع أَنْجُدٌ وأَنجادٌ ونِجاد ونُجُودٌ، وما ارتفع عن تِهامة إلى أرض العراق، فهو نجد. انظر: لسان العرب: ٣/ ٤١٣. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٦٤٦. القاموس المحيط، ص:٤١٠.
والمراد أنّ نوره وهو الوحي الّذي يحمله كان يجوب كلّ الأرض، فيبلغ ما انخفض منها وما ارتفع.

(٤) السّيرة النّبويّة، لابن هشام: ٤/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧.
والقصيدة في ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري ﷺ، طبعة: دار صادر، بيروت، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م، ص:٥٤ ـ ٥٧.

(٥) أهجر: من الهُجْر أو الهَجْر وهو الهذيان. انظر: لسان العرب: ٥/ ٢٥٣.

(٦) الجُرْف: بضمِّ الجيم وسكون الرّاء، موضع على نحو ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام. انظر: معجم البلدان: ٢/ ١٢٨.
وقيل: بضمّ الجيم والرّاء، وأنّه على بعد ميل من المدينة. انظر: معجم ما استعجم: ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧. وهو اليوم حيّ معروف من أحياء المدينة المنورة.

(٧) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصَّحابة بعد وفاة النّبي ﷺ، للقاضي=

وارتدّت أحياء كثيرة من العرب، وعظم الخطب واشتدّ الحال، وطمع كثير من الأعراب في المدينة لقلّة الجند بها بعد إنفاذ الصّدّيق رضي الله عنه جيش أسامة رضي الله عنه. وامتنع كثير منهم من أداء الزّكاة. فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه وقال قولته المشهورة:

«والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة، فإنّ الزّكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»[1].

وقد كان محقّاً رضي الله عنه في ذلك. فنصره الله عليهم، وأعاد الله به للإسلام عزّته، وحمى به بيضته، وردّ الردة إلى صوابها، والأمور إلى نصابها[2].

= أبي بكر بن العربي، تحقيق: محبّ الدّين الخطيب، طبع ونشر: الرئاسة العامّة لإدارة البحوث العلميّة، الرّياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص: ٣٧ - ٤١.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب استتابة المرتدين: (٨٨/ ٦٣)، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الرّدّة: (٣)، برقم: (٦٩٢٥)، ص: ١٤٦١ - ١٤٦٢. وبلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب الاقتداء بسنن الرّسول ﷺ: (٢/ ٣)، برقم: (٧٢٨٤)، (٧٢٨٥)، ص: ١٥٣١، إلّا أنّه قال: «عقالاً». ونحوه في: كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧)، في باب أخذ العناق في الصّدقة: (٤٠)، برقم: (١٤٥٦)، ص: ٣٠٧ - ٣٠٨.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله محمّد رسول الله: (٨)، برقم: (٢٠)، ١/ ٥١ - ٥٢، إلّا أنّه قال: «عقالاً».

(٢) انظر: البدء والتّاريخ، لمطهّر بن طاهر المقدسي، طبعة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة: ٥/ ١٥٣. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لعبد الرّحمٰن بن عليّ أبي الفرج بن الجوزي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، تحقيق: محمّد ومصطفى عبد القادر عطا: ٤/ ٧٤ فما بعدها. وفيات الأعيان وأنباء الزّمان، لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن خلّكان، تحقيق: إحسان عبّاس، طبعة دار الثّقافة، بيروت، ١٩٦٨م: ٣/ ٦٧ فما بعدها. البداية والنّهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبعة: مكتبة المعارف، بيروت: ٦/ ٣١١ فما بعدها.

المطلب الثّاني

ظهور الكذّابين

إنَّ رسول الله ﷺ أخبر أنّه سيظهر في هذه الأمّة كذّابون يدّعون النُّبوّة. وقد وردت عدّة أحاديث عن جماعة من الصَّحابة تبيّن ذلك. منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السَّاعة حتّى يبعث دجّالون[1] كذّابون قريب من ثلاثين كلّهم يزعم أنّه رسول الله»[2].

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه: «وإنّه سيكون في أمّتي ثلاثون كذّابون كلّهم يزعم أنّه نبي وأنا خاتم النّبيين لا نبيّ بعدي»[3].

---

(١) دجّالون: أي كذّابون مُمَوِّهون، وأصل الدَّجل: الخلط، يقال: دجَّل فلان: إذا لبَّس وموَّه وخادع. والكلمة من أبنية المبالغة، أي يكسر منهم الكذب والتَّلبيس.
انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ٢/١٠٢. الفائق: ١/٤١٢.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب: (٢٥/٢٦)، برقم: (٧١٢١)، ص: ١٥٠٠ ـ ١٥٠١، وقد أورده ضمن حديث طويل.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السَّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت، برقم: (١٥٧)، ٤/٢٢٣٩ ـ ٢٢٤٠.

(٣) هذا الحديث جزء من حديث ثوبان رضي الله عنه الطويل، وهو في:
سنن أبي داود، بلفظه ـ إلّا أنّه قال: «كذّابون ثلاثون» ـ في كتاب الفتن والملاحم: (٣٤)، باب ذكر الفتن ودلائلها: (١)، برقم: (٤٢٥٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦٤.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء لا تقوم السَّاعة حتّى يخرج كذّابون: (٤٣)، برقم: (٢٢١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦٧.
سنن ابن ماجه، بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب ما يكون من الفتن: (٩)، برقم: (٣٩٥٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلا إنّه قال: «كذّابون ثلاثون» ـ في: ٥/٢٧٨.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه في: باب ذكر البيان بأنّ حدوث وقع السّيف في هذه الأمّة بين المسلمين يبقى إلى قيام السّاعة، برقم: (٦٧١٤) ١٥/١١٠، وبرقم: (٧٢٣٨)، ١٦/٢٢٠. قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/٤٩٦، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط=

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: «إنَّ بين يدي السَّاعة كذَّابين، منهم صاحب اليمامة[1]، ومنهم صاحب صنعاء العنسي، ومنهم صاحب حِمْيَر، ومنهم الدجَّال وهو أعظمهم فتنة»[2].

وعن حذيفة ﷺ أنّ نبيّ الله ﷺ قال: «في أمّتي كذَّابون ودجَّالون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، وإنّي خاتم النَّبيين ولا نبيّ بعدي»[3].

وقد تكاثرت الرِّوايات الدّالة على ظهورهم. في بعضها أنّهم ثلاثون بالجزم. وفي بعضها أنّهم قريب من ثلاثين، وفي أخرى أنّهم سبعة وعشرون. ومن جزم بالثَّلاثين فعلى طريق جبر الكسر[4].

وليس المراد بالأحاديث كلّ من ادَّعى النُّبوّة مطلقاً، فأولئك لا يحصون كثرة، وإنَّما المراد من قويت شوكته، وظهر أمره، وكثر أتباعه، وأثار الفتن بباطله[5].

من أولئك الّذين ظهروا: مُسَيْلِمة الكذَّاب[6] الّذي استفحل أمره، وكثر

= الشّيخين ولم يخرجاه بهذه السّياقة». وقال الذّهبي ﷺ: «على شرط البخاري ومسلم».
وأصل الحديث في صحيح مسلم في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض: (٥)، برقم: (٢٨٨٩)، ٤/ ٢٢١٥.

(١) اليمامة: اسم جارية زرقاء كانت تبصر الرّاكب من مسيرة ثلاثة أيّام، سمّيت بها بلدة اليمامة، وهي بلدة مشهورة قديمة في بادية الحجاز، كانت تسمّى بجوّ. انظر: معجم البلدان: ٥/ ٤٤٢ ـ ٤٤٧. وانظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٢٧. لسان العرب: ٢/ ٦٤٨. القاموس المحيط، ص: ١٥١٤.

(٢) مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ٣٤٥.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان، بلفظه في: باب ذكر الإخبار عن وصف ما كان يتوقّع ﷺ من وقوع الفتن من ناحية البحرين، برقم: (٦٦٥٠)، ١٥/ ٢٦. قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي».

(٣) مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٣٩٦.

(٤) انظر: فتح الباري: ١٤/ ٥٩٦. تحفة الأحوذي: ٦/ ٣٨٥.

(٥) انظر: فتح الباري: ٧/ ٣٢٤، اليوم الآخر: (١)، القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى، لعمر سليمان الأشقر، طبعة: مكتبة الفلاح، الكويت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص: ١٦٢.

(٦) هو مُسَيْلِمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب أبو ثمامة، وقيل: أبو هارون من بني حنيفة. جاء في وفد بني حنيفة إلى الرّسول ﷺ، فلمّا رجع إلى اليمامة ارتدّ وتنبّأ وكذّب، =

أتباعه، واستطار شرّه، حتّى قتل في معركة اليمامة في العام الثّاني عشر من الهجرة النَّبويّة[1].

وظهر الأسود العَنْسِي[2] الدجّال الّذي ادَّعى النُّبوّة واستولى على اليمن، وضلّ به خلق كثير، حتّى قتل في صفر من العام الحادي عشر للهجرة.

وخرجت سجاح[3] في بني تميم وادّعت النُّبوّة. وفيها يقول الشاعر[4]:

= وتسمَّى بالرّحمٰن، وزعم أنّه أشرك في النُّبوّة، وجعل يسجع سجع الكهَّان مضاهاة للقرآن، وأحلّ لأتباعه الخمر والزّنا، ووضع عنهم الصّلاة، وهو من ذلك مقرّ بنبوّة النّبي ﷺ، وقد كتب إلى النبي ﷺ يخبره بشراكته له في الرّسالة، فردّ عليه النّبي ﷺ بخطاب يكذّبه فيه، وقد تبعه على ذلك كثير من أجلاف العرب، واستفحل أمره جدًّا، إلى أن عقره الله بعد معارك طاحنة، وقتال مرير في السّنة الثّانية عشرة للهجرة.
انظر: البدء والتَّاريخ: ٥/ ١٦٠ ـ ١٦٥. المنتظم: ٤/ ٢٠ ـ ٢٢. البداية والنِّهاية: ٥/ ٥٠ ـ ٥١، ٦/ ٢٠٠، ٣٢٣ فما بعدها: ٦/ ٣٤١. وانظر: الطَّبقات الكبرى: ١/ ٢٧٣، ٣١٧. المنتظم: ٣/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣، ٤/ ٨٠ فما بعدها. وفيات الأعيان: ٣/ ٦٧.

(١) انظر: العبر في خبر من غبر، للذّهبي، دار الكتب العلميّة، بيروت: ١/ ١١. شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب، لابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمّد العكبري الحنبلي الدّمشقي، طبعة: دار ابن كثير، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط: ١/ ١٥١. وانظر: نماذج من كذبه وترّهاته في: المنتظم: ٤/ ٢٠. سير أعلام النُّبلاء: ٣/ ٦٩. البداية والنِّهاية: ٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) الأسود العنسي: هو عبهلة بن كعب بن غوث ذو الخمار، كان كاهناً مشعوذاً له شيطان يأتي له بالأخبار، ادَّعى النُّبوّة فضلّ به خلق كثيرون، واستطارت فتنته وعظم شرّه، واستوثقت له اليمن بكمالها، وقويت شوكته، وكان يشرب الخمر ولا يصلّي ولا يغتسل من جنابة، قتل غيلة في العام الحادي عشر للهجرة، وتفرّق أتباعه.
انظر: البدء والتَّاريخ: ٥/ ١٥٣ ـ ١٥٥. المنتظم: ٤/ ١٨ ـ ٢٠. وفيات الأعيان: ٣/ ٦٦. العبر: ١/ ١٠. البداية والنِّهاية: ٦/ ٣٠٧ ـ ٣١١، ٣٤٠. شذرات الذَّهب: ١/ ١٣١.

(٣) هي سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان أمّ صادر التَّغلبية، السَّاحرة، من الجزيرة، من نصارى العرب، ادَّعت النُّبوّة ووازرها على ذلك قومها، واستجاب لها عامَّة بني تميم، قصدت اليمامة لحرب مسيلمة فهابها، ثمّ استأمنها وتزوّجها، وكان صداقها أن وضع عن قومها صلاة الفجر والعشاء، أسلمت أيّام عمر رضي الله عنه وحسن إسلامها.
انظر: البدء والتَّاريخ: ٥/ ١٦٤ ـ ١٦٥. المنتظم: ٤/ ٢٢ ـ ٢٤. وفيات الأعيان: ٣/ ٦٧. البداية والنِّهاية: ٥/ ٥١، ٣١٩ ـ ٣٢١. فتح الباري: ٧/ ٣٢٣.

(٤) هو عطارد بن الحاجب. انظر: البدء والتَّاريخ: ٥/ ١٦٥. البداية والنِّهاية: ٦/ ٣٢٠.

أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بها — وأصبحت أنبياء النّاس ذكراناً

وتزوّجها مسيلمة، ورجعت إلى الإسلام بعد قتله.

وخرج في خلافة الصّدّيق رضي الله عنه طُليحة بن خُويلد الأسدي[1]، ثمّ تاب ومات على الإسلام على الصّحيح في خلافة عمر رضي الله عنه.

ثمّ ظهر المختار بن أبي عبيد الثّقفي[2] الكذّاب الدّعي الّذي غلب على الكوفة في أوّل خلافة ابن الزُّبير رضي الله عنه، ثمّ قتل.

ومنهم الحارث[3] الكذّاب الّذي خرج في خلافة

---

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي الصّحابي، يضرب بشجاعته المثل، أسلم سنة تسع من الهجرة، ثمّ ارتدَّ وتنبَّأ بنجد، وزعم أنَّ ذا النون يأتيه بالوحي، وعظم أمره واشتدَّ، له حروب مع المسلمين انتهت بهزيمته وفراره إلى الشّام، ثمّ ارعوى وأسلم وحسن إسلامه، وشهد القادسية ونهاوند وبها استشهد، وذلك عام واحد وعشرين من الهجرة.

وانظر: البدء والتّاريخ: ٥/١٥٧ ـ ١٥٩. المنتظم: ٤/٢٤ ـ ٢٥. وفيات الأعيان: ٣/ ٦٧. سير أعلام النُّبلاء: ١/٣١٦ ـ ٣١٧. العبر: ١/١١. البداية والنِّهاية: ٦/٣١٧ ـ ٣١٨. الإصابة: ٣/٥٤٢. شذرات الذَّهب: ١/١٧٥.

(٢) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثّقفي أبو إسحاق، ولد في أوّل الهجرة، وليست له صحبة ولا رؤية، بايع عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه، ثمّ ذهب إلى العراق فدعى إلى محمّد بن الحنفية رحمه الله وزعم أنّه المهدي المنتظر، وأظهر الانتصار لأهل البيت في العلن وهو يسرُّ طلب الدّنيا، فاجتمع عليه خلق كثير من الشِّيعة، وقوي أمره واشتدَّ، وتتبَّع قتلة الحسين فقتلهم، ثمّ ادَّعى النُّبوّة، وزعم أنّ جبريل ينزل عليه، وكان يأتي بالكذب الصَّريح، وقد قال النّبي ﷺ: «يكون في ثقيف كذّاب ومُبير ـ أي مهلك ـ». ـ مسند أحمد: ٦/٣٥١. المعجم الكبير: ٢٤/٨١، ٩٧، ١٠١ ـ فشهدت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنّ الكذّاب هو المختار، قتله مصعب بن الزُّبير بالكوفة سنة ٦٧هـ.

وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٥/٩٨ ـ ١٠٥. البدء والتّاريخ: ٦/١٥ ـ ٢١. المنتظم: ٦/ ٢٩ ـ ٣٠، ٥١ فما بعدها. العبر: ١/٥٤ ـ ٥٥. البداية والنِّهاية: ٨/٢٤٩ ـ ٢٥٠. الإصابة: ٦/٣٤٩ ـ ٣٥١. شذرات الذَّهب: ١/٢٩٢ ـ ٢٩٣. الأعلام، لخير الدِّين الزّركلي، طبعة: دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة السّابعة، ١٩٨٦م: ٧/١٩٢.

(٣) الحارث بن عبدالرّحمٰن بن سعيد الدّمشقي مولى أبي الجلاس العبدري المتنبِّي الكذّاب، نزل دمشق وتعبَّد بها وتنسَّك وتزهَّد، ثم مُكر به وأضلَّه الشَّيْطان فانسلخ من آيات الله فكان من الغاوين، وكان دجَّالاً مشعوذاً زنديقاً يفعل من الأعاجيب ما يأخذ=

عبد الملك بن مروان[1] فقتل.

وخرج في خلافة بني العبَّاس جماعة[2].

وفي القرن الماضي ظهر حسين بن علي الميرزا[3] في إيران وادَّعى النُّبوّة، ولقب بالبهاء، وأتباعه البهائية[4].

ومنهم الضَّال محمود محمد طه السُّوداني الّذي أضلّ خلقاً كثيراً، معظمهم من النّساء، وكانت له كتابات ومقالات نشر فيها كفره وضلاله وردَّته.

= بعقول العامّة، فتبعه خلق كثير، ثمّ ادَّعى النُّبوّة فطلبه عبد الملك حتّى ظفر به، فاستتابه فأبى فصلب وقتل عام ٧٩هـ.
انظر: المنتظم: ٦/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧. البداية والنِّهاية: ٦/ ٢٧ ـ ٢٩.

(١) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي أبو الوليد، المدني ثمّ الدمشقي، أمير المؤمنين، كان من فقهاء أهل المدينة وقرَّائهم، فولي الخلافة بعد أبيه، ثمّ اشتغل بها فتغيَّر حاله، مات سنة ٨٦هـ.
وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٥/ ٢٢٣. التَّاريخ الكبير: ٥/٤٢٩. ثقات ابن حبَّان: ٥/ ١١٩. تاريخ بغداد: ١٠/٣٨٨. تهذيب الكمال: ١٨/٤٠٨. تهذيب التَّهذيب: ٦/ ٣٧٣. تقريب التَّهذيب: ١/ ٣٦٥.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٢٤.

(٣) هو حسين عليّ نوري بن عبّاس بن بزرك الميرزا، المعروف بالبهاء، أو بهاء الله، رأس البهائية ومؤسّسها، إيراني مستعرب، التقى بعليّ بن محمّد الشيرازي الملقّب بالباب فاعتنق دعوته وقام بها بعده، نفي من إيران ثمّ من العراق، اعتقل وسجن مرّات، وتوفي بفلسطين ودفن بها عام ١٣٠٩هـ ـ ١٨٩٢م، من آثاره: الكتاب الأقدس، والإيقان، والهيكل، والألواح. انظر: الأعلام: ٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٤) البهائية: حركة فكرية عقائدية نشأت سنة ١٢٦٠هـ ـ ١٨٤٤م، تحت رعاية الاستعمار الرُّوسي والإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلاميّة، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسيّة.
جذورها: أديان الهند الباطلة، إضافة إلى اليهوديّة والنَّصرانية والدّهرية والتّشيّع الضّال والتّراث الفارسي القديم والفرق الباطنية، وتحوي بين طيَّاتها لميماً من العقائد المنحرفة كالحلوليّة والاتّحاد والتّناسخ، ويزعمون أنّ دينهم ناسخ لدين النّبي محمّد ﷺ، ويؤوّلون القرآن تأويلات باطنة توافق معتقداتهم.
انظر: الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، النّدوة العالمية للشّباب الإسلامي، المملكة العربية السّعودية، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص:٦٣ ـ ٦٤.

قتل في عام ١٩٨٥م. وتفرّق أتباعه الّذين عرفوا باسم الجمهوريين، وخمدت فتنته[١].

المطلب الثّالث

مقتل عمر رضي الله عنه وانتشار الفتن

لقد كان استشهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فتحاً لباب الفتن وانتشارها في أمّة الإسلام.

ورد ذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه حيث يقول: «بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيُّكم يحفظ قول النّبي ﷺ في الفتنة؟ قال: فتنة الرَّجل في أهله وماله وولده وجاره تكفِّرها الصَّلاة والصَّدقة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن الّتي تموج كموج البحر، قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إنّ بينك وبينها باباً مغلقاً. قال عمر: أيُكسر الباب أم يُفتح؟ قال: بل يكسر، قال عمر: إذاً لا يُغلق أبداً؟ قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم! كما أعلم أنَّ دون غد ليلة، وذلك أنّي حدّثته حديثاً ليس بالأغاليط[٢]. فهبنا أنْ نسأله من الباب؟ فأمرنا

---

(١) أنشأ المهندس محمود محمّد طه السُّوداني ـ الَّذي ولد عام ١٩١١م، وتخرّج في جامعة الخرطوم ـ حزبه الَّذي سمّاه الحزب الجمهوري عام ١٩٤٥م إبّان الاستعمار البريطاني على السُّودان، سجن عدَّة مرَّات، واعتكف عدَّة سنوات خرج على إثرها بآراء عقائديَّة وفكريّة وسياسيّة شاذّة ومشوشة ومضطّربة، من أديان وآراء ومذاهب كثيرة، قديمة وحديثة، تتكوّن من العقائد الصُّوفيّة الباطنيّة، وآراء الفلاسفة، والاشتراكيّة الماركسيّة، والنَّصرانيّة. وقد زعم أنّه رسول الرّسالة الثّانية، أمّا محمّد ﷺ فهو رسول الرّسالة الأولى، كما زعم أنّ الإنسان يترقّى حتّى يكون الله، وأسقط أصول التّكاليف كالصّلاة والزّكاة والحجّ وغيرها، وله في القرآن تأويلات باطنة تصرفه عن ظاهره، كثر أتباعه ومناصروه، ومعظمهم من النِّساء والمثقّفين الَّذين خلا فكرهم من الثَّقافة الدّينية الإسلاميّة، حكم عليه بالإعدام بتهمة الزّندقة، وأمهل ثلاثة أيّام فلم يتب، فنفّذ فيه الحكم شنقاً يوم الجمعة ٢٧ ربيع الثّاني ١٤٠٥هـ ـ ١٨/ ١/ ١٩٨٥م على مرأى من النّاس، وانحسر أتباعه.

انظر: الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ١٨٣ ـ ١٩٠.

(٢) الأغاليط: جمع أغلوطة، وهي التي يغالط بها، فمعناه: حدّثته حديثاً صدقاً محقّقاً، =

مسروقاً[1] فسأله، فقال: من الباب؟ قال: عمر»[2].

عنى عمر ﷺ بالفتنة الّتي تموج كموج البحر نوعاً معيَّناً من الفتن، وهي تلك الّتي تضطّرب اضطّراب البحر عند هيجانه، لشدّتها وعظمها، وذلك كناية عن كثرة الخصام والنِّزاع الّذي يؤدّي إلى القتال بين المسلمين[3].

وقد كان عمر ﷺ هو الحائل بين الفتن والإسلام، وهو المعبَّر عنه بالباب هنا، فما دام حيّاً فلا تدخل، فإذا مات دخلت. وكذا كان[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«وكأنَّه مثَّل الفتن بدار، ومثَّل حياة عمر بباب لها مغلق، ومثَّل موته بفتح

= ليس هو من صحف الكتابيين، ولا من اجتهاد ذي رأي، بل من حديث النّبي ﷺ. شرح النَّووي على مسلم: ٢/ ١٧٥. وانظر: الفائق: ٣/ ٧٣. النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٧٨.

(١) هو مسروق بن الأجدع بن مالك أبو عائشة الهمداني الوادعي الكوفي، أحد أعلام التّابعين، ثقة فقيه عابد مخضرم، من أصحاب عبد الله بن مسعود ﷺ، مات سنة ٦٣هـ، وقيل: ٦٢هـ.
وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٦/ ٧٦. التَّاريخ الكبير: ٨/ ٣٥. معرفة الثِّقات: ٢/ ٢٧٣. الجرح والتّعديل: ٨/ ٣٩٦. ثقات ابن حبَّان: ٥/ ٤٥٦. تاريخ بغداد: ١٣/ ٢٣٢. تهذيب الكمال: ٢٧/ ٤٥١. تذكرة الحفَّاظ: ١/ ٤٩. الكاشف: ٢/ ٢٥٦. الإصابة: ٦/ ٢٩١. تهذيب التَّهذيب: ١٠/ ١٠٠.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب الفتنة الّتي تموج كموج البحر: (١٧)، برقم: (٧٠٩٦)، ص:١٤٩٧. وبلفظ مقارب في: كتاب مواقيت الصّلاة: (٩/ ٥)، باب الصّلاة كفَّارة: (٤/ ١١٣)، برقم: (٥٢٥)، ص:١٢٥. وفي كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧)، باب الصّدقة تكفّر الخطيئة: (٢٣)، برقم: (١٤٣٥)، ص:٣٠٢ ـ ٣٠٣. وفي كتاب الصّوم: (٣٠/ ٩)، باب الصّوم كفَّارة: (٣)، برقم: (١٨٩٥)، ص:٣٩٥. وفي كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٥٨٦)، ص:٧٥٦.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب في الفتنة الّتي تموج كموج البحر: (٧)، برقم: (١٤٤)، ٤/ ٢٢١٨.

(٣) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ٢/ ١٧١. فتح الباري: ٧/ ٣٠٩. تحفة الأحوذي: ٦/ ٤٤٢.

(٤) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ٢/ ١٧٥.

ذلك الباب. فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق، لا يخرج ممّا هو داخل تلك الدّار شيء، فإذا مات فقد انفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدار[1].

وأشار بالكسر إلى قتله، وبالفتح إلى موته رضي الله عنه[2].

عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال له: يا أبا سليمان اتّق الله، فإنّ الفتن قد ظهرت، قال[3]: فقال: «وابن الخطّاب حيٌّ؟ إنَّما تكون بعده... فينظر الرّجل فيتفكّر هل يجد مكاناً لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الّذي هو فيه من الفتنة والشَّر فلا يجده. قال: وتلك الأيَّام الّتي ذكر رسول الله ﷺ»، بين يدي السَّاعة أيام الهرج، «فنعوذ بالله أن تدركنا وإيَّاكم تلك الأيّام»[4].

قال ابن كثير رحمه الله:

«هكذا وقع الأمر سواء بعد ما قتل في سنة ثلاث وعشرين وقعت الفتن بين النَّاس، وكان قتله سبب انتشارها بينهم»[5].

المطلب الرابع

مقتل عثمان رضي الله عنه

لمّا قتل عمر رضي الله عنه، وانكسر الباب الّذي كان حاجزاً من وقوع الفتن اشرأبَّت الفتن، واقتحمت معقل الإسلام الآمن، مدينة رسول الله ﷺ، وحطّت

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣١٠.

(٢) عمدة القاري: ٢٤/ ٢٠٢. والظّاهر أنَّه أراد بالكسر أنّه لن يغلق أبداً، وبالفتح أنّه سوف يغلق، كما ذكر ذلك عمر رضي الله عنه.

(٣) لعل القائل عزرة بن قيس راوي الأثر عن خالد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، بلفظه في: ٤/ ٩٠. المعجم الكبير، بلفظ مقارب في: ٤/ ١١٦. المعجم الأوسط، بلفظ مقارب في: ٨/ ٢٢٨.
وأورده الهيثمي في مجمع الزّوائد، طبعة: دار الريَّان للتّراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، وقال: «رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف»: ٧/ ٣٠٨، ولا يضرّ ضعفه، وقد ثبت حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٥) النّهاية في الفتن والملاحم، لأبي الفداء ابن كثير، تحقيق: محمّد أحمد عبد العزيز، نشر: دار التّراث الإسلامي. الأزهر: ١/ ١٥.

رحالها في دار خلافته، فكان الخليفة الرّاشد عثمان ذو النُّورين ﷺ فريسة لها. فلم يهدأ لها بال حتّى سفكت دمه، وأزهقت روحه. وصدق في شأنه قول النّبي ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، عندما دخل النّبي ﷺ حائطاً من حوائط المدينة، وجلس أبو موسى على بابه، ثمَّ استأذنه أبو بكر ﷺ في الدخول ثم عمر ﷺ ثم عثمان ﷺ قال النبي ﷺ في شأن عثمان ﷺ: «ائذن له وبشّره بالجنَّة، معها بلاء يصيبه»[1].

ولكن لماذا خصّ عثمان ﷺ بالبلاء مع أنَّ عمر ﷺ قد قتل أيضاً؟.

أجاب عن ذلك ابن بطّال رَحِمَهُ اللهُ فقال:

«إنّما خصَّ عثمان بذكر البلاء مع أنَّ عمر قتل أيضاً، لكون عمر لم يمتحن بمثل ما امتحن عثمان من تسلّط القوم الّذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجور والظّلم مع تنصّله من ذلك، واعتذاره عن كلّ ما أوردوه عليه، ثمّ هجومهم عليه في داره وهتكهم ستر أهله، وكلّ ذلك زيادة على قتله». ثمّ أردف الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ ـ بعد نقله للقول السّابق ـ:

«وحاصله: أنّ المراد بالبلاء الّذي خصّ به، الأمور الزّائدة على القتل وهو كذلك»[2].

---

(1) هذا جزء من حديث طويل في:
صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب الفتنة الّتي تموج كموج البحر: (١٧)، برقم: (٧٠٩٧)، ص:١٤٩٧. وبلفظ مقارب في: كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ (المناقب): (٦٢/ ٣٧)، باب: (٥/ ٣٤)، برقم: (٣٦٧٤)، ص:٧٧٢. وفي باب مناقب عمر بن الخطّاب أبي حفص القرشي: (٦/ ٣٥)، برقم: (٣٦٩٣)، ص:٧٧٦. وفي باب مناقب عثمان بن عفّان أبي عمرو القرشي: (٧/ ٣٦)، برقم: (٣٦٩٥)، ص:٧٧٦. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب نكت العود في الماء والطّين: (١١٩)، برقم: (٦٢١٦)، ص:١٣٢٧.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب من فضائل عثمان ﷺ: (٣)، برقم: (٢٤٠٣)، ٤/ ١٨٦٨ ـ ١٨٦٩.
(2) فتح الباري: ١٤/ ٥٥٢ وانظر: عمدة القاري: ١٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

لقد قتل مظلوماً رضي الله عنه، لم يأت بمنكر من القول أو الفعل يبرر قتله. وما نسب إليه كان جوراً وظلماً.

وقد ردّ العلماء رحمهم الله على ذلك شبهة شبهة حتّى اقتلعوا جذورها، وفنّدوا مزاعمها، فذهبت أدراج الرِّياح[1].

ويكفي في ردّ تلك المزاعم جملة، ما رواه كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه قال: «ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرَّبها. فمرَّ رجل مُقَنَّعٌ رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا يومئذ على الهدى». فوثبت فأخذت بضَبْعَي[2] عثمان، ثمّ استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: «هذا»[3].

لقد شهد له رسول الله ﷺ بأنّه على الهدى. وحسبك هذه الشَّهادة، إذ لا تحتاج إلى مزيد.

والّذين تولّوا كبر حصاره وقتله رضي الله عنه فلول من أقوام لا خلاق لهم ممن غلا في الدّين، أو افترسته العصبيَّة، أو ملأ الحقد والحسد قلبه على خيار الأمَّة رضي الله عنهم، أو الموتورون في حدّ شرعي، أو أصحاب الأغراض والمطامع الرّخيصة، أو الحاقدون على الإسلام، أو الحمقى والجهلة الّذين غرر بهم[4].

وقد سمّى رسول الله ﷺ كلّ أولئك بالمنافقين.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان إن ولَّاك الله هذا الأمر يوماً، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الّذي قمَّصك الله فلا تخلعه». يقول ذلك ثلاث مرّات. قال النُّعمان رضي الله عنه: فقلت لعائشة ما منعك أن تعلمي النَّاس بهذا؟ قالت: أنسيته»[5].

---

(١) انظر: العواصم من القواصم، ص:٦١ فما بعدها. البداية والنِّهاية: ٧/ ١٧١.

(٢) ضبعي: الضَّبع بسكون الباء: وسط العَضُد، وقيل: هو ما تحت الإبط. النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٧٣.

(٣) سنن ابن ماجه، بلفظه في: المقدّمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ: (١١)، فضل عثمان رضي الله عنه، برقم: (١١١). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٢٩.

(٤) انظر: العواصم من القواصم، ص:٥٨ ـ ٥٩، الهامش. والصَّحيح إنّه لم يتعيّن له قاتل معيّن، بل أخلاط من النّاس ورعاع جاءوا من مصر والعراق وغيرها. انظر: التّذكرة، ص:٦١٦.

(٥) سنن التّرمذي نحوه في: كتاب المناقب: (٤٥)، باب في مناقب عثمان رضي الله عنه: (١٨)، =

وبحمد الله لم يسع أحد من الصَّحابة عليه، ولم يقعد عن نصرته، ولو استنصر بهم ما غلب على أمره، ولكنّه اختار أهون الشّرين في نظره، فضحّى بنفسه خشية اتّساع الفتنة، وسفك دماء المسلمين[1]. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقد قال لمن اجتمع حوله من أبناء الصَّحابة الّذين قدموا للدّفاع عنه: «أعزم على كلّ من رأى أنّ لي عليه سمعاً وطاعة إلّا كفَّ يده وسلاحه، فإنَّ أفضلكم غِناء من كفّ يده وسلاحه»[2].

فكما أنَّه ﷺ لم يتنازل عن أمر الخلافة، ويترك أمّة محمّد يولّي عليها السّفهاء من يختارونه، فيقع بذلك الهرج، ويفسد أمر الأمّة بسبب ذلك[3]. كذلك لم ير القتال والدّفاع من أجله، حتّى لا تسفك الدّماء، ويقتل المسلمون بعضهم بعضاً.

= برقم: (٣٧٠٥)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٥٧٩.
سنن ابن ماجه، بلفظه في: المقدّمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ: (١١)، فضل عثمان ﷺ، برقم: (١١٢). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٢٩.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٣/ ١٠٦، وقال: «هذا حديث صحيح عالي الإسناد ولم يخرجاه».

(١) انظر: العواصم من القواصم، ص: ١٣٦ - ١٣٧، مع الهامش.

(٢) المرجع السّابق، ص: ٤١.
قال ابن كثير ﷺ:
«كان الحصار مستمرّاً من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثّامن عشر من ذي الحجّة، فلمّا كان قبل ذلك بيوم، قال عثمان للّذين عنده في الدّار من المهاجرين والأنصار، وكانوا قريباً من سبعمائة، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير، والحسن، والحسين، ومروان، وأبو هريرة، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه، فقال لهم: «أقسم على من لي عليه حقّ أن يكفّ يده، وأن ينطلق إلى منزله». وعنده من أعيان الصَّحابة وأبنائهم جمّ غفير، وقال لرقيقه: «من أغمد سيفه فهو حرّ»، فبرد القتال من داخل، وحمي من خارج، واشتدّ الأمر، وكان سبب ذلك أنّ عثمان رأى في المنام رؤيا دلّت على اقتراب أجله، فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده، وشوقاً إلى رسول الله ﷺ، وليكون خير ابني آدم». البداية والنّهاية: ٧/ ١٨١.

(٣) انظر: البداية والنّهاية: ٧/ ١٨٠.

وما تخوَّف منه رضي الله عنه فقد وقع. فبقتله انفتح باب شرّ عظيم على الأمّة، وهاجت الفتنة وأشتدّ أوارها، وعصفت رياحها بجيل الإسلام الأوّل.

قال سعيد بن المسيّب[(١)] رحمه الله:

«وقعت الفتنة الأولى، يعني مقتل عثمان، فلم تبق من أصحاب بَدْرٍ[(٢)] أحداً، ثمّ وقعت الفتنة الثّانية، يعني الحَرّة[(٣)]، فلم تبق من أصحاب الحُدَيْبِيَة[(٤)] أحداً، ثمّ وقعت الثّالثة، فلم ترتفع وللنّاس طَبَاخ[(٥)]»[(٦)].

---

(١) سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب أبو محمّد القرشي المخزومي المدني، سيّد التّابعين، وأحد العلماء الأثبات والفقهاء الكبار، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، ثقة حجّة في الحديث، رفيع الذّكر، رأس في العلم والعمل. قال عليّ بن المديني رحمه الله: «لا أعلم في التّابعين أوسع علماً منه»، مات سنة ٩٣ أو ٩٤هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢/ ٣٧٩، ٥/ ١١٩. طبقات خليفة بن خيّاط، طبعة: دار طيبة، مراجعة: د. أكرم ضياء العمري، الرّياض، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ص: ٢٤٤. التّاريخ الكبير: ٣/ ٥١٠. معرفة الثّقات: ١/ ٤٠٥. الجرح والتّعديل: ٤/ ٥٩. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٧٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٣. تهذيب الكمال: ١١/ ٦٦. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٥٤. الكاشف: ١/ ٤٤٤. تهذيب التّهذيب: ٤/ ٧٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٤١.

(٢) بَدْر: ماء مشهور بين مكّة والمدينة، ثمّ أطلق على الموضع، وبه كانت الوقعة المشهورة الّتي أعزّ الله بها الإسلام، وفرّق بها بين الحقّ والباطل، وكانت في شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة النّبويّة.
انظر: معجم البلدان: ١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨. وانظر: معجم ما استعجم: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
وهي اليوم بلدة معروفة بالمملكة العربية السّعودية، على طريق مكّة المدينة، وهي أقرب إلى المدينة.

(٣) الحرّة: يأتي الكلام عنها قريباً.

(٤) الحديبية: الحديبية بضمّ الحاء وفتح الدّال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة، وياء اختلفوا فيها: فمنهم من شدّدها، ومنهم من خفّفها، وهي قرية متوسّطة، ليست بالكبيرة، سمّيت ببئر هناك عند مسجد الشّجرة الّتي بايع رسول الله ﷺ تحتها. معجم البلدان: ٢/ ٢٣٠ بتصرُّف.

(٥) طَبَاخ: أصل الطَّباخ: القوّة والسِّمَن، ثمّ استعمل في غيرها، فقالوا: فلان لا طباخ له: أي لا عقل له ولا خير عنده.
غريب الحديث للخطّابي: ٣/ ٤١. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ١١١، وزاد: (أراد أنّها لم تبق في النّاس من الصّحابة أحداً). وانظر: الفائق: ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٦) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب: (١٢)، ص: ٨٤٠ ـ ٨٤١، =

وما حدث من قتال بين المسلمين بعد ذلك إنّما تولّد أصله من مقتله ﷺ. ولذا حُقّ لهذه الفتنة أن توصف بالفتنة الكبرى. وقد صدق الوصف فيها بأنّها الّتي تموج كموج البحر.

المطلب الخامس

موقعة الجمل[1]

لمّا قتل عثمان ﷺ انعقدت البيعة لعليّ ﷺ بطوع واختيار من المهاجرين والأنصار ﷺ. وقد خشي أجلّة الصّحابة أن يرجع النّاس إلى أمصارهم بخبر قتل عثمان ولم يقم بعده قائم، فلا يؤمن عند ذلك من اختلاف النّاس وفساد الأمّة.

وممن بايعه طلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوّام ﷺ. ثمّ خرجا إلى مكّة فالتقيا بأمّ المؤمنين عائشة ﷺ، ثمّ اتّفقوا على الخروج للبصرة[2]. وقد خرجوا

= وقوله: «ثمّ وقعت الثّالثة» قيل: هي فتنة الأزارقة الّتي وقعت عقب موت يزيد بن معاوية، واستمرّت أكثر من عشرين سنة، وقيل: هي خروج أبي حمزة الخارجي في خلافة مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم سنة ثلاثين ومائة، وأبعد الحافظ ابن حجر الأوّل، لأنّ الّذي يظهر أنّ المراد الفتنة التي وقعت بالمدينة دون غيرها. انظر: فتح الباري: ٨/ ٦١.

(١) سمّيت موقعة الجمل لأنّ أمّ المؤمنين عائشة ﷺ كانت تحمل أثناء المعركة في هودج على جمل اسمه عسكر اشتراه لها يعلى بن أمية ﷺ. انظر: البداية والنهاية: ٧/ ٢٣١، فما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار المعارف، بمصر، الطّبعة الثّانية: ٥/ ١٥٥ ـ ١٥٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٨. وانظر: العواصم من القواصم، ص:١٤٢ ـ ١٤٣ مع الهامش. والبصرة: مدينة بالعراق معروفة، سميت بذلك لأنّ أرضها غليظة وبها حجارة رخوة فيها بياض، وقيل: غير ذلك، فتحت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ.
انظر: معجم البلدان: ١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.
قال ابن أبي العز ﷺ في شرحه لقول الإمام الطّحاوي ﷺ:
ونثبت الخلافة بعد عثمان لعليّ ﷺ، قال: «لمّا قتل عثمان وبايع النّاس عليًّا صار=

مطالبين بقتلة عثمان رضي الله عنه الّذين اندسّوا في صفوف جيش عليّ رضي الله عنه[1]. ورأوا أنّه لا بد من أن ينتصروا للشّهيد المظلوم، ويقمعوا أهل الفساد والعصيان، وإلّا استوجبوا غضب الله وعقابة[2]، ولم يخرجوا رضي الله عنهم لينازعوا عليًّا في الخلافة، أو يولّوا أحداً منهم، وإنّما أنكروا على عليّ رضي الله عنه إيواءه قتلة عثمان رضي الله عنه، وترك الاقتصاص منهم[3].

وقد رأوا أنّ الصّلح بين المسلمين، واجتماع الكلمة لا يتأتّى إلّا بعد القضاء على قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة حكم الله فيهم[4].

= إماماً حقًّا واجب الطّاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوّة، كما دلّ عليه حديث سفينة رضي الله عنه... أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النُّبوّة ثلاثون سنة، ثمّ يؤتي الله ملكه من يشاء». وكانت خلافة أبي بكر الصّدّيق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة عليّ أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ابنه ستة أشهر». أبو داود: (٤٦٤٦)، ٥٠٧. الترمذي: (٢٢٢٦)، ٣٦٨.

شرح العقيدة الطّحاوية للقاضي عليّ بن عليّ بن أبي العزّ الحنفي، تحقيق وتعليق وتخريج: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرناؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ص:٧٢١ ـ ٧٢٢.

(١) انظر: التّذكرة، ص:٦٢٣. البداية والنّهاية: ٧/ ٢٣١. العبر: ١/ ٢٧.

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٧٢٣.

(٣) انظر: فتح الباري: ١٤/ ٥٥٨.

(٤) انظر: البداية والنّهاية: ٧/ ٢٣٨. وانظر: العواصم من القواصم، ص:١٥١، ١٥٤.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فإنّ عائشة لم تقاتل، ولم تخرج لقتال، وإنّما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنّت أنّ في خروجها مصلحة للمسلمين، ثمّ تبيّن لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتّى تبلّ خمارها، وهكذا عامّة السّابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزُّبير وعليّ رضي الله عنهم أجمعين، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم».

المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، وهو مختصر منهاج السّنّة، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، اختصره: الحافظ أبو عبد الله الذّهبي، تحقيق: محبّ الدين الخطيب، المكتبة السّلفيّة، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، ص:١٩٤ ـ ١٩٥.

وعليّ ﵁ ما خرج للقاء أولئك إلّا من أجل الإصلاح، وإطفاء ثائرة النّاس ليجتمعوا على الخير، ويلتئم شمل الأمّة. هذا ما بينه ﵁ لأهل الكوفة[1] عندما دعاهم إليه فأجابه جمع غفير منهم. فقال لهم:

«يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الّذي نريده، وإن أبوا داويناهم بالرّفق حتّى يبدؤنا بالظّلم، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلّا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى»[2].

وهو ﵁ لم يترك القصاص على قتلة عثمان ﵁، وإنّما أخّر ذلك حتّى يستوثق الأمر له، وتجتمع عليه الكلمة، ويقع الطّلب من أولياء عثمان ﵁، وهم أبناؤه، فيجري القضاء بالحقّ. ولو أقام الحدّ عليهم قبل اجتماع الكلمة لتعصّبت لهم قبائل، وانتصرت لهم طوائف، فزاد الفتق في الأمّة، وترتّب على ذلك مفسدة أعظم من مصلحة قتلهم. فكان ﵁ في ذلك أسدّ رأياً وأصوب قولاً[3].

ولا خلاف بين الأمَّة أنّه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى إلى إثارة فتنة، أو تشتيت كلمة[4]. وقد كان ﵁ يبغض قتلة عثمان ﵁ ويتبرّأ منهم بل ويلعنهم، وكان يتربّص بهم الدّوائر يودّ لو تمكّن منهم ليأخذ حقّ الله منهم[5].

---

(١) الكوفة: مدينة قديمة معروفة بأرض بابل من سواد العراق، سمّيت بذلك لاستدارتها، وقيل لاجتماع النّاس بها، وقيل غير ذلك. كانت قرية صغيرة فوسّع بناءها سعد بن أبي وقاص ﵁ بأمر عمر بن الخطاب ﵁، واستوطنها الجند. انظر: معجم البلدان: ٤/ ٤٩٠.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٢٣٧. وانظر: ٧/ ٢٣٩.
وقول عليّ ﵁ في تاريخ الطّبري: ٤/ ٤٨٧ وبه زيادات. وانظر: ٤/ ٤٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٨. التّذكرة، ص: ٦٢٣. البداية والنّهاية: ٧/ ٢٣٨. وانظر: العواصم من القواصم، ص: ١٦٤ فما بعدها مع الهامش.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٨. التّذكرة، ص: ٦٢٣.

(٥) انظر: البداية والنّهاية: ٧/ ٢٣٠. وانظر: ٧/ ٢٤١. المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: ١٩٦.

ولمّا التقى الفريقان بالبصرة تشاوروا فانتظم الأمر بينهما على الصّلح والتّفرّق على الرّضا. فخاف قتلة عثمان ﷺ من أن يتمكّنوا منهم فيقتص لعثمان ﷺ منهم، فاجتمعوا وتشاوروا واتّفقوا على إثارة الحرب بين الفريقين عند السَّحر، فتمّ لهم ما أرادوا. وظنَّ كلٌّ فريق أنَّ الآخر قد غدر به، فنشبت الحرب. ودافع كلّ فريق عن نفسه فقتل خلق لا يحصون. فلم يقع القتال على اختيار من الطّرفين وإنّما أثار ذلك المفسدون(١).

وعليٌّ ﷺ كان مصيباً في قتال أهل الجمل. وقد نقل الإجماع على ذلك جماعة من العلماء(٢).

ويؤيّده ما جاء عن زيد بن وهب رحمه الله(٣) أنّه قال:

«بينما نحن حول حذيفة إذ قال: «كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيّكم ﷺ في فئتين يضرب بعضكم وجوه بعض بالسّيف»، فقلنا: يا أبا عبد الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: «إي والّذي بعث محمّداً ﷺ بالحقّ إنّ ذلك لكائن». فقال بعض أصحابه: يا أبا عبد الله فكيف نصنع إن أدركنا ذلك الزّمان؟ قال: «انظروا الفرقة الّتي تدعو إلى أمر عليّ ﷺ فالزموها، فإنها على الهدى»(٤). ومثله لا يقال بالرّأي.

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٤/٥٠٦ ـ ٥٠٧. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣١٨ ـ ٣١٩. التّذكرة، ص:٦٢٠ ـ ٦٢١. البداية والنّهاية: ٧/٢٤٠. وانظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٧٢٣.

(٢) انظر: كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة النّاجية، لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمّد البغدادي، طبعة: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٧٧م، ص:١٠١ ـ ١٠٢، ٣٤٢. التّذكرة، ص:٦٢٦.

(٣) زيد بن وهب الجهني أبو سليمان نزيل الكوفة، مخضرم، أسلم في عهد النّبي ﷺ، وهاجر إليه فقبض النّبي وهو في الطّريق، وهو ثقة جليل، كثير الحديث، توفّي سنة ٩٦هـ وقيل: بضع وثمانين.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/١٠٢. التّاريخ الكبير: ٣/٤٠٧. الجرح والتّعديل: ٣/٥٧٤. ثقات ابن حبّان: ٤/٢٥٠. تاريخ بغداد: ٨/٤٤٠. تهذيب الكمال: ١٠/١١١. تذكرة الحفّاظ: ١/٦٦. الكاشف: ١/٤١٩. الإصابة: ٢/٦٤٩. تهذيب التّهذيب: ٣/٣٦٨. تقريب التّهذيب: ١/٢٢٥.

(٤) مسند البزّار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزّار، طبعة: مؤسّسة علوم=

المطلب السّادس

موقعة صِفِّين

لـمّا فرغ عليٌّ ﷺ من وقعة الجمل رجع إلى الكوفة، ثمّ بعث إلى معاوية ﷺ الّذي كان والياً على الشّام ومن معه يعلمهم باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبرهم بما كان في وقعة الجمل، ويدعوهم إلى الدّخول فيما دخل فيه النّاس، فأبوا أن يبايعوا حتّى يقتل قتلة عثمان ﷺ، أو يمكّنهم منهم. وصمّموا على القيام بطلب دم عثمان ﷺ الّذي قتل مظلوماً[(١)].

فالتقى الفريقان في سهل صفّين[(٢)] في العام السّادس والثّلاثين من الهجرة النّبويّة. وبعد مراسلات ومناوشات جرت بينهما وحروب يطول ذكرها، قتل من الفريقين سبعون ألفاً. وكان بينهم تسعون زحفاً[(٣)].

وقد حمل العلماء هذه الوقعة على حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا تقوم السّاعة حتّى تقتتل فئتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة»[(٤)].

= القرآن، بيروت، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق: محفوظ الرّحمٰن زين الله، بلفظه، برقم: (٢٨١٠)، ٧/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧. وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري بلفظ مقارب، وسكت عنه: ١٤/ ٥٧٧، وقد قال: «وأقتصر على ما أورده بسند صحيح أو حسن وأبيّن ما عداه». فتح الباري: ص:١٤/ ٥٥٦.

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٤/ ٥٦١ فما بعدها. الكامل في التّاريخ لعز الدّين بن الأثير، دار صادر للطّباعة والنّشر، دار بيروت للطّباعة والنشر، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م: ٣/ ٢٧٦ فما بعدها. البداية والنّهاية: ٧/ ٢٥٤ فما بعدها. وانظر: التّذكرة، ص:٦٢٣.

(٢) صِفِّين: موضع بقرب الرّقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، كانت فيه الوقعة بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ. انظر: معجم البلدان: ٢/ ٤١٤. وانظر: معجم ما استعجم: ٣/ ٨٣٧.

(٣) انظر: العبر: ١/ ٣١. البداية والنّهاية: ٧/ ٢٧٥.

(٤) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٠٩)، ص:٧٥٩. وفي كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣)، باب قول النّبي ﷺ: «لا تقوم السّاعة حتّى يقتتل فئتان دعواهما واحدة»: (٨)، =

ولمّا توجّه النّصر لجند العراق على أهل الشّام، رفع الشّاميّون المصاحف على أسنّة الرّماح طلباً لتحكيم كتاب الله بين الفريقين. فكفّ النّاس عند ذلك عن القتال[1].

وقد أحدثت تلك الوقعة شرخاً عظيماً في صفوف المسلمين، وفتقاً لم يرتق في وحدتهم. حيث سفكت فيها دماء أهل الإسلام، وولّدت إحناً ومحناً في النّفوس، وخلّفت من الأحقاد والعداوات والبغضاء الشّيء الكثير.

وكان أصلح للإسلام وأهله ألّا تقع، ولكن أمر قدّره الله ﷻ، فنفذ قدر الله في ذلك. ولم يقع القتال برغبة من أمير المؤمنين عليّ أو معاوية رضي الله عنهما، وإنّما أجّج نار فتنته قتلة عثمان رضي الله عنه كما أجّجوا القتال في وقعة الجمل من قبل، وانضاف إليهم هنا أناس يحبّون سفك الدّماء وإثارة البلابل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وأكثر الّذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون عليًّا ولا معاوية. وكان عليّ ومعاوية رضي الله عنهما أطلب لكفّ الدّماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلبا فيما وقع. والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها. وكان في العسكرين مثل الأشتر النّخعي[2]، وهاشم بن عتبة..................................

= برقم: (٦٩٣٥)، ص:١٤٦٣. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب: (٢٥/ ٢٦)، برقم: (٧١٢١)، ص:١٥٠٠ ـ ١٥٠١.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤)، برقم: (١٥٧)، ٤/ ٢٢١٤.

انظر: التّذكرة، ص:٧١٥. البداية والنّهاية: ٧/ ٢٧٥.

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٥/ ٤٨ فما بعدها. الكامل في التّاريخ: ٣/ ٣١٦ فما بعدها. العواصم من القواصم، ص:١٧٢ فما بعدها. العبر: ١/ ٣٠ ـ ٣١. البداية والنّهاية: ٧/ ٢٧٦ فما بعدها.

(٢) الأشتر النّخعي: هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي الأشتر، أحد الأشراف، أدرك الجاهليّة فهو مخضرم، نزل الكوفة، كان من شيعة عليّ رضي الله عنه وشهد معه الجمل وصفّين ومشاهده كلّها، وولّاه عليّ مصر فمات قبل أن يدخلها سنة ٣٧هـ، وهو ممن سعى في الفتنة وألّب على عثمان رضي الله عنه، وشهد حصره.

المِرْقال[1]، وعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد[2]، وأبي الأعور السُّلمي[3]، ونحوهم من المحرّضين على القتال. قوم ينتصرون لعثمان غاية الانتصار، وقوم ينفّرون عنه، وقوم ينتصرون لعليّ، وقوم ينفّرون عنه. ثمّ قتال أصحاب معاوية معه لم يكن لخصوص معاوية، بل كان لأسباب أخرى. وقتال الفتنة مثل قتال الجاهليّة لا تنضبط مقاصد أهله واعتقاداتهم. كما قال الزُّهري[4]: «وقعت

= وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٦/ ٢١٣. طبقات خليفة، ص:١٤٨. ثقات ابن حبَّان: ٥/ ٣٨٩. تهذيب الكمال: ٢٧/ ١٢٦. الكاشف: ٢/ ٢٣٤. الإصابة: ٦/ ٢٦٨. تهذيب التَّهذيب: ١٠/ ١٠. تقريب التَّهذيب: ١/ ٥١٦.

(١) هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن أخي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، المعروف بالمرقال ـ لإسراعه في الحرب ـ شجاع مشهور، أسلم يوم فتح مكّة، وكان ممّن يستعين به عمر رضي الله عنه على أمور المسلمين، ويقدّمه في البعث، حضر مع عمّه سعد رضي الله عنه حرب القادسيّة، وله بها آثار مذكورة، قتل بصفّين مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل: قتل بالجمل.

وانظر: ثقات ابن حبَّان: ٣/ ٤٣٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٤. تاريخ بغداد: ١/ ١٩٦. الإصابة: ٦/ ٥١٥.

(٢) هو عبد الرّحمٰن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، كان عظيم القدر، وله صحبة، ولكنَّه لم يسمع من النّبي ﷺ، ولم يحفظ عنه، كان مع معاوية رضي الله عنه، وشهد معه صفّين، مات سنة ٤٦هـ.

وانظر: ثقات ابن حبَّان: ٣/ ٢٥٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٥٢. الإصابة: ٥/ ٣٣.

(٣) أبو الأعور السُّلمي هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس، مشهور بكنيته، ذكره جماعة في الصَّحابة، وأنكر ذلك ابن أبي حاتم وابن حبَّان، أدرك الجاهليّة، وهو من أصحاب معاوية رضي الله عنه، وله مواقف معه بصفّين.

وانظر: طبقات خليفة، ص:٥١. الجرح والتّعديل: ٦/ ٢٣٤. الإصابة: ٤/ ٦٤١.

(٤) هو محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب أبو بكر القرشي الزُّهري، التّابعي العلم، الفقيه الحافظ، متّفق على جلالته وإتقانه، من أحفظ أهل زمانه للسّنن وأحسنهم لها سياقاً، مات سنة ١٢٥هـ وقيل بعدها.

وانظر: التَّاريخ الكبير: ١/ ٢٢٠. معرفة الثِّقات: ٢/ ٢٥٣. الجرح والتّعديل: ٨/ ٧١. ثقات ابن حبَّان: ٥/ ٣٤٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٦. تهذيب الكمال: ٢٦/ ٤١٩. تذكرة الحفَّاظ: ١/ ١٠٨. الكاشف: ٢/ ٢١٩. تهذيب التَّهذيب: ٩/ ٣٩٥. تقريب التَّهذيب: ١/ ٥٠٦.

الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا أنّ كلّ دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فإنّه هدر. أنزلوهم منزلة الجاهليّة»[1].

ولمّا وقع القتال ثبت كلّ من الفريقين للآخر ممّا أدّى إلى استحراء القتل بينهم.

قال عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعُم[2]:

«كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهليّة، فالتقوا في الإسلام معهم على الحميّة وسنّة الإسلام، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم».

قال الشّعبي[3] رحمه الله:

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: ٢٢٥ ـ ٢٢٧.
وقول الزهري أورد البيهقي نحوه في السّنن الكبرى، باب من قال لأتباعه في الخراج والدّماء، وما فات من الأموال في قتال أهل البغي: ٨/ ١٧٥.

(٢) عبد الرّحمٰن بن زياد بن أَنْعُم أبو أيّوب أو أبو خالد المعافري الشّعباني الإفريقي القاضي، كان رجلاً صالحاً، ولكنّه ضعيف في الحديث، مات سنة ١٥٦ وقيل بعدها.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٥/ ٢٨٣. ضعفاء العقيلي، لأبي جعفر محمّد بن عمرو بن موسى العقيلي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي: ٢/ ٣٣٢. الجرح والتّعديل: ٥/ ٢٣٤. المجروحين، لأبي حاتم محمّد بن حبّان البستي، طبعة: دار الوعي، حلب، تحقيق: محمود إبراهيم زايد: ٢/ ٥٠. الكامل في ضعفاء الرّجال، لعبد الله بن عدي بن عبد الله أبي أحمد الجرجاني، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، تحقيق: يحيى مختار غزّاوي: ٤/ ٢٧٩. تاريخ بغداد: ١٠/ ٢١٤. تهذيب الكمال: ١٧/ ١٠٢. الكاشف: ١/ ٦٢٧. تهذيب التّهذيب: ٦/ ١٥٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٤٠.

(٣) الشّعبي: هو الإمام العلم عامر بن شُرَاحيل الهمداني الحميري الكوفي، أبو عمرو علّامة التّابعين، ولد زمن عمر رضي الله عنه، وكان إماماً فاضلاً حافظاً فقيهاً متقناً ثبتاً. قال مكحول رحمه الله: «ما رأيت أفقه منه»، مات بعد المائة.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٢٤٦. التّاريخ الكبير: ٦/ ٤٥٠. معرفة الثّقات: ٢/ ١٢. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٨٥. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٠١. تاريخ بغداد: ١٢/ ٢٢٧. التّعديل والتّجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصّحيح، لسليمان بن خلف بن=

«هم أهل الجنّة، لقي بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد»[1].

ولا شك أنّ عليًا رضي الله عنه كان محقًّا في قتاله لأهل الشّام، كما كان محقًّا في قتاله لأصحاب الجمل، وأنّ من قاتلوه كانوا بغاة، لأنه الإمام المبايع، ومن خرج عليه وجب قتاله حتّى يفيء إلى الحقّ، وينقاد إلى الصّلح.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩].

قال ابن القيم رحمه الله:

«وقد أمر سبحانه بالإصلاح بين الطّائفتين المقتتلتين أوّلاً، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصّلح فإنّها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحقّ الطّائفة المظلومة»[2].

وقال ﷺ لعمّار بن ياسر رضي الله عنهما: «تقتلك الفئة الباغية»[3]، وعمّار رضي الله عنه كان يقاتل في صفّ عليّ رضي الله عنه، وقتله أهل الشام.

= سعد أبي الوليد الباجي، طبعة: دار اللّواء الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: أبي لبابة حسين: ٣/ ٩٩٢. تهذيب الكمال: ١٤/ ٢٨. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٧٩. الكاشف: ١/ ٥٢٢. تهذيب التّهذيب: ٥/ ٥٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٨٧. لسان الميزان: ٧/ ٥٠٩.

(١) البداية والنّهاية: ٧/ ٢٧٨.

(٢) إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، لابن القيّم، طبعة: مكتبة الكلّيات الأزهرية، تعليق: طه عبد الرءوف سعد، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، شركة الطّباعة الفنيّة المتّحدة بمصر: ١/ ١٠٩.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥)، باب التّعاون في بناء المسجد: (٦٣)، برقم: (٤٤٧)، ص: ١١٠. وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب مسح الغبار عن النّاس في السّبيل: (١٧)، برقم: (٢٨١٢)، ص: ٥٩٤، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
صحيح مسلم بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨)، برقم: (٢٩١٦)، ٤/ ٢٢٣٦. عن أمّ سلمة رضي الله عنها، وبلفظ مقارب برقم: (٢٩١٥)، ٤/ ٢٢٣٥. عن أبي سعيد رضي الله عنه.

قال الإمام النّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قال العلماء: هذا الحديث حجّة ظاهرة في أنّ عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان محقًّا مصيباً، والطّائفة الأخرى بغاة، لكنّهم مجتهدون، فلا إثم عليهم... وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه منها: أنّ عمّاراً يموت قتيلاً، وأنّه يقتله مسلمون، وأنّهم بغاة، وأنّ الصّحابة يقاتلون، وأنّهم يكونون فرقتين باغية وغيرها، وكلّ هذا قد وقع مثل فلق الصّبح»[(١)].

وقال ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين، يقتلها أولى الطّائفتين بالحقّ»[(٢)].

وهؤلاء المارقة هم الّذين خرجوا على عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقاتلوه يوم النَّهْرَوَان[(٣)]. فدلّ الحديث على أنّ عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وطائفته أقرب إلى الحقّ من طائفة معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٤)].

وقد ذهب جمهور أهل السنّة إلى تصويب عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قتاله، وأنّ مقاتليه قد اجتهدوا فأخطؤوا فلا يذمّون[(٥)].

---

(١) شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٤٠.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب ذكر الخوارج وصفاتهم: (٤٧)، برقم: (١٠٦٥)، ٢/ ٧٤٥. وبلفظ مقارب في: ٢/ ٧٤٦. عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) النَّهْرَوان: وفيها لغات أخرى، بلاد واسعة بين بغداد وواسط من ناحية الشّرق، وبها عدّة مدن وقرى، هدمت قديماً، وأصل النهروان اسم نهر، ثمّ أطلق الاسم على المكان، وبها أوقع عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالخوارج في الوقعة المشهورة. انظر: معجم ما استعجم: ٤/ ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧. معجم البلدان: ٥/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: ٢٢٣.

(٥) انظر: التَّذكرة، ص: ٦٢٦ ـ ٦٢٧. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٨. المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: ٥٤ ـ ٥٦. (وقد ذكر فيه شيخ الإسلام ابن تيمية أقوال أهل العلم وطوائف أهل الإسلام في حكم قتال صفّين).
البداية والنّهاية: ٧/ ٢٦٧ فما بعدها. فتح الباري: ١٤/ ٥٧١. الإذاعة، ص: ٣٧.
وانظر: العواصم من القواصم، ص: ١٦٨ فما بعدها.
وقد ذكر الشّيخ محبّ الدّين الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحقيقات صافية، وتعليقات مفيدة تثلج الصّدر، في تعليقه على كلام الإمام ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول تلك الوقعة. =

والمراد هنا أنّ تلك الوقعة كانت فتنة عظمى بين المسلمين الأُول، لما أحدثته من فرقة وشتات، وما أورثته من أحقاد وعداوات، ضعفت على إثرها شوكة المسلمين، وتضعضعت قوّتهم. وبات أبناء الدّين الواحد يقتل بعضهم بعضاً. فبدلاً من أن توجّه السّيوف إلى أعداء الله المتربّصين بدين الإسلام وجّهت إلى صدور أهل الإسلام وفلذات كبده.

وقد حذرّ الله ورسوله ﷺ إيّما تحذير من قتل المؤمن وقتاله.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «من حمل علينا السّلاح فليس منّا»[1].

= انظر: هامش رقم: (٤)، ص:١٦٨، وهامش رقم: (١)، ص:١٧٠ من الكتاب السّابق.

وقال رحمه الله:

«إنّ هذه الحرب المثاليّة هي الحرب الإنسانية الأولى في التّاريخ، الّتي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل الّتي يتمنّى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم، ولو في القرن الحادي والعشرين، وإنّ كثيراً من قواعد فقه الحرب في الإسلام، لم تكن لتعلم وتدوّن لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كلّ أمر حكمة»، هامش (١)، ص:١٦٥ من المرجع السّابق.

وانظر: الكامل في التّاريخ: ٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصّحابة في الصّحيحين:

(أ) عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّيات: (٨٧/ ٦٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢)، برقم: (٦٨٧٤)، ص:١٤٥٠. وزاد: رواه أبو موسى عن النّبي ﷺ. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب: قول النّبي ﷺ: «من حمل علينا السّلاح فليس منّا»: (٧)، برقم: (٧٠٧٠)، ص:١٤٩٢.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب قول النّبي ﷺ: «من حمل علينا السّلاح فليس منّا»: (٤٢)، برقم: (٩٨)، ١/ ٩٨.

(ب) أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «من حمل=

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسّلاح، فإنّه لا يدري لعل الشّيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النّار»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«وفي هذين الحديثين تحريم قتال المسلم وقتله، وتغليظ الأمر فيه، وتحريم تعاطي الأسباب المفضية إلى أذيّته بكلّ وجه، وفيه حجّة للقول بسدّ الذّرائع»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[3].

= علينا السّلاح فليس منّا»: (٧)، برقم: (٧٠٧١)، ص: ١٤٩٢.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب قول النّبي ﷺ: «من حمل علينا السّلاح فليس منّا»: (٤٢)، برقم: (١٠٠)، ١/ ٩٨.
(ج) أبو هريرة رضي الله عنه:
صحيح مسلم، بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين. وزاد: «من غشّنا فليس منّا»، برقم: (١٠١)، ١/ ٩٩.
(د) أم سلمة رضي الله عنها:
صحيح مسلم في: الكتاب والباب السّابقين، ولفظه: «من سلّ علينا السّيف فليس منّا»، برقم: (٩٩)، ١/ ٩٨.
قال النّووري رحمه الله:
«قاعدة مذهب أهل السّنة والفقهاء وهي: أنّ من حمل السّلاح على المسلمين بغير حقّ ولا تأويل ولم يستحلّه فهو عاص ولا يكفر بذلك فإن استحلّه كفر.
فأمّا تأويل الحديث: فقيل: هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملّة، وقيل: معناه ليس على سيرتنا الكاملة وهدينا. وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يكره قول من يفسّره بليس على هدينا ويقول: «بئس هذا القول». يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النّفوس وأبلغ في الزّجر، والله أعلم.
شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٠٨. وانظر: عمدة القاري: ٢٤/ ١٨٦.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «من حمل علينا السّلاح فليس منّا»: (٧)، برقم: (٧٠٧٢)، ص: ١٤٩٢.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب النّهي عن الإشارة بالسّلاح للمسلم: (٣٥)، برقم: (٢٦١٧)، ٤/ ٢٠٢٠.

(٢) فتح الباري: ١٤/ ٥٢٠.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الإيمان: (٢)، باب خوف المؤمن من أن يحبط=

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ أنّه قال في حجّة الوداع: «ويحكم ـ أو قال ـ ويلكم لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

= عمله وهو لا يشعر: (٣٦/ ٣٧)، برقم: (٤٨)، ص:٢٥. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب ما ينهى من السّباب واللّعن: (٤٤)، برقم: (٦٠٤٤)، ص:١٢٩٦. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»: (٨)، برقم: (٧٠٧٦)، ص:١٤٩٣.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب قول النّبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»: (٢٨)، برقم: (٦٤)، ١/ ٨١.

قال النَّووي رحمه الله:

«أمّا معنى الحديث فسبّ المسلم بغير حقّ حرام بإجماع الأمّة، وفاعله فاسق كما أخبر به النّبي ﷺ. وأمّا قتاله بغير حقّ فلا يكفر به عند أهل الحقّ كفراً يخرج به من الملّة... إلّا إذا استحلّه، فإذا تقرر هذا، فقيل في تأويل الحديث أقوال: أحدها: أنّه في المستحل. والثّاني: المراد كفر الإحسان والنّعمة وأخوّة الإسلام لا كفر الجحود. والثّالث: أنّه يؤول إلى الكفر بشؤمه. والرّابع: أنّه كفعل الكفّار. والله أعلم. ثمّ إنّ الظّاهر من قتاله المقاتلة المعروفة». ثمّ نقل قول القاضي عياض رحمه الله:

«ويجوز أن يكون المراد المشارة والمدافعة والله أعلم». شرح النَّووي على مسلم: ٢/ ٥٤.

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصّحابة رضي الله عنهم في الصّحيحين:

(أ) عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٣)، ص:٩١٥، ضمن خطبته في حجّة الوداع. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب ما جاء في قول الرّجل ويلك: (٩٥)، برقم: (٦١٦٦)، ص:١٣١٨. وفي كتاب الدّيات: (٨٧/ ٦٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢)، برقم: (٦٨٦٨)، ص:١٤٥٠.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب معنى قول النّبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»: (٢٩)، برقم: (٦٦)، ١/ ٨٢.

(ب) جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣)، باب الإنصات للعلماء: (٤٣)، برقم: (١٢١)، ص:٤٤. وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٥)، ص:٩١٥. وفي كتاب الدّيات: (٨٧/ ٦٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢)، برقم: (٦٨٦٩)، ص:١٤٥٠. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم=

وعن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرّجل. فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عمّ رسول الله ﷺ يعني عليًّا، قال: فقال لي: يا أحنف ارجع، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار»، قال: فقلت أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنّه قد أراد قتل صاحبه»[1].

= رقاب بعض»: (٨)، برقم: (٧٠٨٠)، ص:١٤٩٣.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب معنى قول النّبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»: (٢٩)، برقم: (٦٥)، ١/ ٨١ ـ ٨٢.
(ج) عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما:
صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الحجّ: (٢٥/ ٨)، باب الخطبة أيّام منى: (١٣٢/ ١٣٣)، برقم: (١٧٣٩)، ص:٣٦٤، ضمن خطبته في يوم النّحر. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»: (٨)، برقم: (٧٠٧٩)، ص:١٤٩٣.
(د) أبو بكرة رضي الله عنه: (ضمن خطبته يوم النّحر):
صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الحجّ: (٢٥/ ٨)، باب الخطبة أيّام منى: (١٣٢/ ١٣٣)، برقم: (١٧٤١)، ص:٣٦٤. وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٦)، ص:٩١٥ ـ ٩١٦. وفي كتاب الأضاحي: (٧٣/ ٤٧)، باب من قال لا أضحي يوم النّحر: (٤)، برقم: (٥٥٥٠)، ص:١٢١٢. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب قول النّبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»: (٨)، برقم: (٧٠٧٨)، ص:١٤٩٣. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]: (٢٤)، برقم: (٧٤٤٧)، ص:١٥٦٤.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب القسامة: (٢٨)، باب تغليظ تحريم الدّماء والأعراض والأموال: (٩)، برقم: (١٦٧٩)، ٣/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦.

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الإيمان: (٢)، باب ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فسمّاهم المؤمنين: (٢٢/ ٢٣)، برقم: (٣١)، ص:٢١. وفي كتاب الدّيات: (٨٧/ ٦٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]: (٢)، برقم: (٦٨٧٥)، ص:١٤٥١. وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما: (١٠)، برقم: (٧٠٨٣)، ص:١٤٩٤.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤)، برقم: (٢٨٨٨)، ٤/ ٢٢١٣ ـ ٢٢١٤.

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً. وقد احتجّ بها من لم ير القتال في الفتنة كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبي بكرة ﭬ وغيرهم.

وذهب بعضهم إلى الكفّ عن المقاتلة حتّى لو أنّ أحداً أراد قتله لم يدفعه عن نفسه. ورأى بعضهم أنّه لا يدخل في الفتنة، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه.

وذهب جمهور الصّحابة والتّابعين وعامّة علماء الإسلام إلى وجوب نصر المحق في الفتن، وقتال الباغي. وتأوّلوا الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو ضعف عن القتال، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما[1]، أو كان لهوى أو لطلب الدّنيا، أو كان القتال لعصبية. كما جاء عن أبي هريرة ﭬ عن النّبي ﷺ أنّه قال: «من خرج من الطّاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهليّة، ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّة[2]، يغضب لعصْبَة أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقِتْلة جاهلية، ومن خرج على أمّتي يضرب برَّها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس منّي ولست منه»[3].

ولا شك أنّ الصّحابة ﭬ ليسوا بداخلين في الوعيد الّذي ورد في النّصوص السّابقة، لأنَّ أهل السنّة والحقّ اتّفقوا على إحسان الظنّ بهم، ومنع الطّعن فيهم بسبب ما شجر بينهم، ولو عرف المحق منهم، لأنّهم كانوا مجتهدين في قتالهم، متأوِّلين فيه، لم يقصدوا معصية ولا محض دنيا، بل

---

(١) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ١٠. فتح الباري: ٤/ ٥٣٠.

(٢) عِمِّيَّة: وحكى بعضهم فيها ضمّ العين، وهي من العمى، والمراد الضّلالة، كالقتال للعصبيّة والأهواء.
انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٠٤. وانظر: الفائق: ٣/ ٢٥.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كلّ حال، وتحريم الخروج على الطّاعة ومفارقة الجماعة: (١٣)، برقم: (١٨٤٨)، ٣/ ١٤٧٦ ـ ١٤٧٧. وبلفظ مقارب في: ٣/ ١٤٧٧، ومختصراً عن جندب بن عبد الله البجلي ﭬ، برقم: (١٨٥٠)، ٣/ ١٤٧٨.

اعتقد كلّ فريق منهم أنّه على الحقّ، وأنّ مخالفه مخطئ وباغ، فيجب عليه قتاله. وكانت الأمور مشتبهة حتّى تحيّر في ذلك جماعة منهم فاعتزلوا الطّائفتين.

وما جاء عن أبي بكرة رضي الله عنه في منعه للأحنف عن القتال مع عليّ رضي الله عنه وقع ذلك عن اجتهاد منه[١].

قال الطّبري رحمه الله:

«ولو كان الواجب في كلّ اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهَرَب منه، ولزوم المنازل، وكسر السّيوف لما أقيم حدّ، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النّفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلّ ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكفّ الأيدي والهَرب منها، وذلك مخالف لقوله عليه الصّلاة والسّلام: «خذوا على أيدي سفهائكم»[٢].

ولكن وقوع القتال بين صحابة رسول الله ﷺ فتح باب شرّ عظيم على أمّة الإسلام. حذّر منه رسول الله ﷺ في حديث ثوبان الّذي سبق ذكره بقوله: «إذا وضع السّيف في أمّتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة».

وفيه: «حتّى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»[٣]. وذلك هو البأس الّذي ورد ذكره في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال ﷺ:

---

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/١١. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣٢١ ـ ٣٢٢. فتح الباري: ١٤/٥٣٠. وانظر: التّذكرة، ص:٦٣٦.

(٢) نقلاً عن التّذكرة، ص:٦٣٦. ولم أقف عليه في شيء من مؤلّفات الطّبري رحمه الله الّتي رجعت إليها.
والحديث في الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الدّيلمي الهمذاني، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٦م، تحقيق: السّعيد بن بسيوني زغلول، بلفظه، عن النّعمان بن بشير رضي الله عنهما، برقم: (٢٨٣٨)، ٢/١٦٧.

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص:٦٢.

«سألت ربّي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة. سألت ربّي أن لا يهلك أمّتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»(١).

وقد وضع السّيف في الأمّة ولن يرفع. وكثرت الحروب والقتل بعد ذلك، واشتدّ بأسهم فيما بينهم، وعظمت الفتن وعمّ شرّها.

المطلب السّابع

تتابع الفتن

* لقد تتابعت الفتن بعد وقعة صفّين على أمّة الإسلام. فخرجت الخوارج(٢) بعد حادثة التّحكيم من جيش عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ورفعوا شعارهم لا حكم إلّا لله. وكفّروا عليًّا رضي الله عنه ومقاتليه، واستباحوا دماء المسلمين، وأحدثوا في الأمّة بلاء عظيماً. وهم الّذين عناهم رسول الله ﷺ في حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. بقوله: «يأتي في آخر الزّمان قوم حُدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البريّة، يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرَّميَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض: (٥)، برقم: (٢٨٩٠)، ٤/٢٢١٦.

(٢) الخوارج: هم الَّذين خرجوا من جيش أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه بعد وقعة صفّين، ورفضوا التّحكيم، وقالوا له: لِمَ حكّمت الرّجال، لا حكم إلّا لله؟. وهم المارقة الّذين اجتمعوا بالنَّهروان فقاتلهم عليّ رضي الله عنه، ثمّ تكوّنت منهم فيما بعد فرق شتّى، يجمعهم القول بالتّبرُّؤ من عثمان رضي الله عنه، وتكفير أصحاب الكبائر، والخروج على الإمام إذا خالف السّنّة.

وانظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، لأبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، تحقيق: هلموت ريتر، ص:٨٦. الفرق بين الفرق، ص:٥٤ فما بعدها. الملل والنّحل، لمحمّد بن عبد الكريم الشّهرستاني، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني: ١/١١٤ فما بعدها.

فاقتلوهم، فإنّ قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»[1].

وقد قاتلهم عليّ رضي الله عنه في وقعة النّهروان، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلّا القليل[2]. ولكنّ شرّهم لم يجتث من دابره. فكانوا يظهرون كلّما قويت لهم شوكة فيحدثون البلابل والفتن والمفاسد في الأمّة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «ينشأ نَشءٌ يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، كلّما خرج قَرْنٌ قُطِع». قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلّما خرج قرن قطع» أكثر من عشرين مرّة، «حتّى يخرج في عِرَاضِهِم[3] الدَّجّال»[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«عظم البلاء بهم، وتوسّعوا في معتقدهم الفاسد، فأبطلوا رجم المحصن، وقطعوا يد السّارق من الإبط، وأوجبوا الصّلاة على الحائض في

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦١١)، ص: ٧٦٠. وفي كتاب فضائل القرآن: (٦٦/ ٤٠)، باب من راءى بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فخر به: (٣٦)، برقم: (٥٠٥٧)، ص: ١١١٤. وبلفظ مقارب في: كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣)، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجّة عليهم: (٦)، برقم: (٦٩٣٠)، ص: ١٤٦٢.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب التّحريض على قتل الخوارج: (٤٨)، برقم: (١٠٦٦)، ٢/ ٧٤٦.
والأحاديث في شأن الخوارج تبلغ حدّ التّواتر، ساق الإمام ابن كثير رحمه الله جملة غفيرة منها. انظر: البداية والنِّهاية: ٧/ ٢٩٠ ـ ٣٠٧.

(٢) وانظر: تاريخ الطّبري: ٥/ ٦٤ فما بعدها ٥/ ٧٢ فما بعدها. الكامل في التّاريخ: ٣/ ٣٢٦ فما بعدها. ٣/ ٣٣٤ فما بعدها. ٣/ ٣٤١ فما بعدها. العبر: ١/ ٣١ ـ ٣٢. البداية والنِّهاية: ٧/ ٢٧٨ فما بعدها. ٧/ ٢٨٥ فما بعدها.

(٣) أي: مواجهتهم. شرح السيوطي على سنن ابن ماجه، ص: ١٦. وانظر: النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٢١١.

(٤) سنن ابن ماجه، بلفظه في المقدّمة، باب ذكر الخوارج: (١٢)، برقم: (١٧٤). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٣٤ ـ ٣٥، وهو في صحيح الجامع الصّغير وزيادته، للشّيخ محمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، برقم: (٨١٧١)، ٢/ ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨.

حال حيضها، وكفّروا من ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إن كان قادراً، وإن لم يكن قادراً فقد ارتكب كبيرة. وحكم مرتكب الكبيرة عندهم حكم الكافر، وكفّوا عن أموال أهل الذمّة[1]، وعن التّعرّض لهم مطلقاً، وفتكوا فيمن ينسب إلى الإسلام بالقتل والسّبي والنّهب»[2].

* ولمّا بويع ليزيد بن معاوية[3] بالخلافة بعد أبيه امتنع الحسين بن عليّ رضي الله عنهما عن بيعته، ولجأ إلى مكّة، فأرسل إليه أهل العراق يدعونه للقدوم إليهم. وحذّره ذوو الرّأي والمحبّة له من الخروج إليهم فأبى. ثمّ سار إلى العراق في أهل بيته، وأبناء إخوته. وأخاف عبيد الله بن زياد[4] والي العراق النّاس فنكسوا عن الحسين رضي الله عنه، وانكفّوا عنه وخذلوه. ثمّ أرسل جيشاً بقيادة

---

(١) الذِمَّة: بالكسر تطلق على العهد والعقد والأمان. والمراد بأهل الذمّة أهل العهد ـ من غير المسلمين ـ الّذين أعطوا الأمان. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٢٢٣. القاموس المحيط، ص: ١٤٣٤.

(٢) فتح الباري: ١٢/ ٢٨٥، طبعة: دار المعرفة.

(٣) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أبو خالد الأموي القرشي، ولي الخلافة بعهد من أبيه سنة ستّين، كان قويًّا شجاعاً، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وكان فظًّا غليظاً، ليس له رواية تعتمد، وليس بأهل أن يروى عنه.
قال الذّهبي رحمه الله: «يزيد ممّن لا نسبّه ولا نحبّه، وله نظراء من خلفاء الدّولتين»، مات سنة ٦٤هـ.
وانظر: المنتظم: ٥/ ٣٢٢. سير أعلام النُّبلاء: ٤/ ٣٥. العبر: ١/ ٥١. البداية والنّهاية: ٨/ ٢٢٦. تهذيب التّهذيب: ١١/ ٣١٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٦٠٥. لسان الميزان: ٦/ ٢٩٣. شذرات الذّهب: ١/ ٢٨٦.

(٤) هو عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان أبو أحمد، ويقال لأبيه زياد بن أبيه، ويعرف بابن مرجانة، أمير الكوفة لمعاوية رضي الله عنه وابنه يزيد، كان سفّاكاً للدّماء، شديداً على الرّعيّة، وهو الّذي جهّز الجيش الّذي قاتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما حتّى قتل بكربلاء، قتله إبراهيم بن الأشتر في وقعة الحازر سنة ٦٦هـ.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٥/ ٣٨١. سير أعلام النُّبلاء: ٣/ ٥٤٥. البداية والنّهاية: ٨/ ٨٢٣. تعجيل المنفعة، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، تحقيق: إكرام الله إمداد الحقّ: ١/ ٢٧٠. شذرات الذّهب: ١/ ٢٩٢.

عمر بن سعد بن أبي وقاص[1] فلقي الحسين ﷺ ومن معه بسهل كَرْبِلاء[2]. فقتل ﷺ، وقتل معه بضع وسبعون نفساً. منهم بضعة عشر رجلاً من أولاده، وإخوته وأهل بيته. وقد كان مقتله ﷺ فتنة لأهل الإسلام. حزن له المسلمون، وكرهوا قتله وقتل أصحابه، وسخطوا على قاتليه. ولم يرض قتله إلّا شرذمة قليلة ممّن أغوتهم الدّنيا، وأغرتهم المطامع، وأهلكتهم الأهواء، أو امتلأت قلوبهم حقداً لآل بيت النّبي ﷺ، أو كانوا طلاّب رئاسة ومناصب.

وكان قتله هفوة من هفوات بني أميّة الّتي حفظها لهم التّاريخ، وأوغرت صدور كثير من المسلمين عليهم. كما كان مقتله فتنة لقوم ادّعوا حبّ آل البيت، وتشيّعوا لهم حيث جعلوا يوم مقتله[3] يوم حزن وجزع ومأتماً يأباه الإسلام، وارتكبوا فيه البدع الشّنيعة، والأهواء الفظيعة، والشِّرك الأكبر ممّا يفوق حدّ الوصف، وأوردوا من الأخبار الباطلة، والرِّوايات الكاذبة في صفة مصرعه ما ينافي الحقائق الثّابتة، والرّوايات الصّحيحة، والعقول السّليمة[4].

* وفي سنة ثلاث وستين من الهجرة النّبويّة خلع أهل المدينة يزيد بن

---

(١) هو عمر بن سعد بن أبي وقاص أبو حفص القرشي الزُّهري التّابعي المدني نزيل الكوفة، وهِم من ذكره في الصَّحابة، وهو صدوق في الحديث ولكن مقته النّاس لقتاله الحسين بن عليّ ﷺ، إذ كان أمير الجيش الّذي أرسله ابن زياد لقتاله، قتله المختار بن عبيد سنة ٦٥ هـ أو بعدها.

وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٥/ ١٦٨. معرفة الثّقات: ٢/ ١٦٦. الجرح والتَّعديل: ٦/ ١١١. تهذيب الكمال: ٢١/ ٣٥٦. الكاشف: ٢/ ٦١. الإصابة: ٥/ ٢٨٦. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٣٩٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٤١٣. لسان الميزان: ٧/ ٣١٨.

(٢) كربلاء: موضع في طرف البرّيّة عند الكوفة، وهو الموضع الّذي قتل فيه الحسين بن عليّ ﷺ. انظر: معجم البلدان: ٤/ ٤٤٥.

(٣) وهو يوم عاشوراء، العاشر من محرّم.

(٤) انظر في مقتل الحسين ﷺ، وأسباب قتله، وصفة ذاك القتل: تاريخ الطَّبري: ٥/ ٣٤٧ فما بعدها. ٥/ ٤٠٠ فما بعدها. الكامل في التّاريخ: ٤/ ١٩ فما بعدها. ٤/ ٣٧ فما بعدها. ٤/ ٤٦ فما بعدها. البداية والنّهاية: ٨/ ١٤٩ فما بعدها. ٨/ ١٥٩ فما بعدها. ٨/ ١٧٢ فما بعدها. وانظر: العبر: ١/ ٤٧ ـ ٤٨.

معاوية، وأخرجوا عامله[1] من بين أظهرهم. فجهّز يزيد جيشاً لحربهم عليه مسلم بن عقبة المرّي[2]، وأمره إذا ظهر عليهم أن يبيح المدينة ثلاثة أيام. فنزل شرقي المدينة في الحرّة، ودعا أهلها ثلاثة أيّام فأبوا إلّا المحاربة والمقاتلة، فقاتلهم فهزمهم، وقتل خلقاً كثيراً من بقايا المهاجرين والأنصار وأبناء الصّحابة وخيار التّابعين، ثمّ استباح المدينة ثلاثة أيّام. فانتهبت الأموال، وهتكت الأعراض، وأريقت الدّماء، ووقع شرٌّ عظيم، وفساد عريض، وفتن لا توصف[3].

قال سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقعت الفتنة الأولى، يعني مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثمّ وقعت الفتنة الثّانية، يعني الحرّة فلم تبق من أصحاب الحديبيّة أحداً، ثمّ وقعت الثّالثة فلم ترتفع وللنّاس طباخ»[4].

* وامتنع عبد الله بن الزّبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن بيعة يزيد، وأوى إلى مكّة. فحاصره فيها أصحاب يزيد، ونصبوا المنجنيق على الكعبة، ورموها بالنّار فاحترق جزء منها. ولمّا بلغ الجيش وفاة يزيد ترحّلوا عنه. فبايعه أهل الحرمين بالخلافة، ثمّ أهل العراق واليمن حتّى كادت تجتمع عليه الأمّة[5].

* وفي عهده وقعت مقتلة عظيمة بين الضّحاك بن قيس الفِهرِي[6] الدّاعي

---

(١) هو عثمان بن محمّد بن أبي سفيان (ابن عمّ يزيد).

(٢) هو مسلم بن عقبة بن رياح المُرّي أبو عقبة، وهو أمير الجيش الّذي أرسله يزيد بن معاوية لغزو المدينة، وسمّي مسرفاً لإسرافه في قتل أهل المدينة، مات في الطّريق بين المدينة ومكّة سنة ٦٣هـ.
وانظر: العبر: ١/ ٥١. الإصابة: ٦/ ٢٩٤. شذرات الذّهب: ١/ ٢٨٦.

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ٥/ ٤٨٢ ـ ٤٩٥. الكامل في التّاريخ: ٤/ ١١١ ـ ١٢١. التّذكرة، ص: ٦٨٨ ـ ٦٨٩. البداية والنّهاية: ٨/ ٢١٧ ـ ٢٢٤. وانظر: العبر: ١/ ٥٠ ـ ٥١.

(٤) سبق ذكره، ص: ٧٣.

(٥) انظر: تاريخ الطّبري: ٥/ ٤٧٥، ٥/ ٤٩٧ ـ ٤٩٩، ٥/ ٥٠١، ٥/ ٦٢٢. الكامل في التّاريخ: ٤/ ١٢٣ ـ ١٢٤. العبر: ١/ ٥١. البداية والنّهاية: ٨/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥، ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٦) هو الضّحاك بن قيس بن خالد أبو أُنيس القرشي الفهري، الأمير المشهور، ولد قبل وفاة النّبي ﷺ بنحو ستّ سنوات، ولذا اختلف في صحبته، إلّا أنّ الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزم بها في تقريب التّهذيب، شهد فتح دمشق، وشهد صفّين مع=

لأمر ابن الزُّبير رضي الله عنهما ومروان بن الحكم الّذي بايعه بنو أميّة بالخلافة بمَرْج راهط[1]. قتل فيها الضّحاك، وقتل خلق لا يحصون كثرة[2].

* وتوثّب على الكوفة المختار بن عبيد الثّقفي الكذّاب، الّذي ادّعى أنّ جبريل ينزل عليه، وتتبّع قتلة الحسين رضي الله عنه فقتلهم. ثمّ لقي جيشه الأمويين في وقعة الخازر[3]. فهزمهم، وقتل أمراءهم، وجرت فتنة[4].

* ولمّا تحقّق ابن الزُّبير رضي الله عنهما من خيانة المختار وكذبه، أرسل له جيشاً بقيادة مصعب بن الزُّبير[5]. فقتل المختار وتشتّت جنده. وجرت فتنة[6].

= معاوية رضي الله عنه، دعا أوّلاً إلى بيعة ابن الزُّبير رضي الله عنهما، ثمّ دعا إلى نفسه، قتل يوم مرج راهط سنة ٦٤ أو ٦٥هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٤١٠. طبقات خليفة، ص:٢٩، ١٢٧. التّاريخ الكبير: ٤/ ٣٣٢. ثقات ابن حبّان: ٣/ ١٩٩. تهذيب الكمال: ١٣/ ٢٧٩. الكاشف: ١/ ٥٠٩. جامع التّحصيل في أحكام المراسيل، لأبي سعيد بن خليل بن كيكلدي العلائي، طبعة: عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفي، ص:١٩٩. الإصابة: ٣/ ٤٧٨. تهذيب التّهذيب: ٤/ ٣٩٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٧٩. إسعاف المبطأ، لعبد الرّحمٰن بن أبي بكر السّيوطي، طبعة: المكتبة التّجاريّة الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م، ص:١٤.

(١) مرج راهط: موضع بالشّام على أميال من دمشق.
انظر: معجم ما استعجم: ٢/ ٦٣٠. وانظر: معجم البلدان: ٣/ ٢١، ٥/ ١٠١.

(٢) انظر: تاريخ الطّبري: ٥/ ٥٣٤ ـ ٥٣٨. الكامل في التّاريخ: ٤/ ١٤٩ ـ ١٥١. العبر: ١/ ٥٢. البداية والنّهاية: ٨/ ٢٤١ ـ ٢٤٣.

(٣) الخازر: اسم نهر بين إربل والموصل، ثمّ أطلق على الموضع. انظر: معجم البلدان: ٢/ ٣٣٧.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٦/ ٧ فما بعدها. ٦/ ٣٨ ـ ٦٦، ٦/ ٨١ ـ ٩٢. الكامل في التّاريخ: ٤/ ٢١١ ـ ٢٤٤، ٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٥. العبر: ١/ ٥٤. البداية والنّهاية: ٨/ ٢٦٤ ـ ٢٨٣.

(٥) هو مصعب بن الزُّبير بن العوّام بن خويلد أبو عبد الله القرشي الأسدي، التّابعي، ولد في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٣٣هـ، وكان جميلاً جوّاداً شجاعاً من فرسان قريش وعقلاء أهل الحجاز، قتله عبد الملك بن مروان سنة ٧١ وقيل: ٧٢هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ١٨٢. طبقات خليفة، ص:٢٤١. التّاريخ الكبير: ٧/ ٣٥٠. الجرح والتّعديل: ٨/ ٣٠٣. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٤١٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٧. تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠٥. تعجيل المنفعة: ١/ ٤٠٣.

(٦) انظر: تاريخ الطّبري: ٦/ ٩٣ ـ ١١٦. الكامل في التّاريخ: ٤/ ٢٦٧ ـ ٢٧٣. العبر: ١/ ٥٥. البداية والنّهاية: ٨/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩.

* ثمّ التقى مصعب بجيش الأمويين وعليه عبد الملك بن مروان الّذي بويع له بالخلافة بعد أبيه. وكان بينهما وقعة هائلة بدَيْر الجَاثَلِيق[1] قتل فيها مصعب وهزم جيشه. وجرت فتنة[2].

* ثمّ أرسل عبد الملك الحجّاج بن يوسف[3] إلى ابن الزُّبير فحاصره بمكّة، ودام القتال شهراً، وقتل ابن الزُّبير رضي الله عنهما. وجرت فتنة[4].

* ومن الفتن العظمى في الإسلام. فتنة عبد الرحمٰن بن الأشعث[5] الَّذي خرج على الحجّاج، وتبعه عامّة أهل البصرة من العلماء والعبّاد. واجتمع له جيش عظيم. ثمّ كانت له حروب مع الحجّاج يطول ذكرها. ختمت بوقعة دير الجَمَاجِم[6]

---

(١) دير الجاثليق: دير قديم قرب بغداد وغربي دجلة.
انظر: معجم ما استعجم: ٢/ ٥٧٢. معجم البلدان: ٢/ ٥٠٣.
والدَّيْر: بيت يتعبّد فيه الرُّهبان. معجم البلدان: ٢/ ٤٩٥.

(٢) انظر: تاريخ الطَّبري: ٦/ ١٥١ ـ ١٦٢. الكامل في التَّاريخ: ٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٨. العبر: ١/ ٥٩. البداية والنِّهاية: ٨/ ٣١٤ ـ ٣١٦.

(٣) هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم أبو محمّد الثّقفي، أمير العراق الشّهير، الظّالم المبير، كان فصيحاً بليغاً سفّاكاً للدّماء مع شجاعة وإقدام ودهاء، وقع ذكره وكلامه في الصَّحيحين وغيرهما، وليس بأهل أن يروى عنه، مات سنة ٩٥هـ.
وانظر: تهذيب الأسماء، للإمام النّووي، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م: ١/ ١٥٨. سير أعلام النُّبلاء: ٤/ ٣٤٣. العبر: ١/ ٨٤. تهذيب التّهذيب: ٢/ ١٨٤. تقريب التَّهذيب: ١/ ١٥٣. لسان الميزان: ٢/ ١٨٠. تعجيل المنفعة: ١/ ٨٧. شذرات الذَّهب: ١/ ٣٧٧.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٦/ ١٨٧ ـ ١٩٣. الكامل في التَّاريخ: ٤/ ٣٤٨ ـ ٣٥٩. العبر: ١/ ٦٠. البداية والنِّهاية: ٨/ ٣٢٩ ـ ٣٣٢.

(٥) هو عبد الرّحمٰن بن محمّد بن الأشعث بن قيس الكندي، تولّى سجستان للحجّاج، ثمّ ثار عليه لظلم الحجّاج وجبروته، وتبعه جمع كبير من العلماء والصّلحاء، فقاتله الحجّاج حتّى قتل عام ٨٤هـ ونكل بأتباعه.
وانظر: سير أعلام النُّبلاء: ٤/ ١٨٣. العبر: ١/ ٧١. البداية والنِّهاية: ٩/ ٥٣. شذرات الذَّهب: ١/ ٣٤٧.

(٦) دير الجماجم: الجماجم جمع جمجمة، وهو موضع يقع على شاطئ الفرات الغربي، وقيل: هو دير بظاهر الكوفة على طريق السّالك إلى البصرة.
انظر: معجم ما استعجم: ٢/ ٥٧٣. معجم البلدان: ٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

الّتي قتل فيها خلق لا يحصون كثرة. ثّم قتل ابن الأشعث[1].

* وخرج زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما[2] بالكوفة، وبايعه خلق كثير، وحارب متولّي العراق للأمويين يوسف بن عمر الثَّقفي[3]. فظفر به يوسف. ثمّ قتل وصلب، وتفرّق أتباعه. وكانت فتنة[4].

* واستولى بنو العبّاس على الخلافة بعد قتال مرير وويلات وحروب مع جيوش بني أميّة، وأكثروا القتل في من ناوأهم حتّى استتبّ لهم الأمر[5].

* ولمّا توفّي السَّفَّاح[6] أوَّل خلفاء بني العبَّاس خلفه أخوه أبو جعفر

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٦/ ٣٤٢ ـ ٣٥٠، ٦/ ٣٥٧ ـ ٣٧٥. الكامل في التّاريخ: ٤/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥، ٤/ ٤٦٧ ـ ٤٧٢، ٤/ ٤٧٨ ـ ٤٨٢، ٤/ ٥٠١. العبر: ١/ ٦٦ ـ ٧١. البداية والنّهاية: ٩/ ٣٥ ـ ٥١، ٩/ ٥٥.

(٢) هو زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، أبو الحسين القرشي الهاشمي العلوي المدني التّابعي، ولد سنة ٨٠هـ، من أفاضل أهل البيت وعبّادهم، وهو الّذي تنسب إليه الزيديّة، ثقة في الحديث، خرج في خلافة هشام بن عبد الملك، فقتل بالكوفة سنة ١٢٢هـ، وقيل قبلها.

وانظر: الجرح والتّعديل ٥٦٨/٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٣. تهذيب الكمال: ١٠/ ٩٥. الكاشف: ١/ ٤١٨. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٣٦٢. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٢٤.

(٣) هو يوسف بن عمر بن محمّد بن الحكم بن أبي عقيل الثّقفي، أمير العراق وخراسان لهشام بن عبد الملك، كان شهماً سائساً مهيباً جواداً، جبّاراً عسوفاً، قتل سنة ١٢٧هـ.

وانظر: وفيات الأعيان: ٧/ ١٠١. سير أعلام النُّبلاء: ٥/ ٤٤٢. العبر: ١/ ١٢٦. شذرات الذَّهب: ٢/ ١١٧.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٧/ ١٦٠ ـ ١٧٣. الكامل في التّاريخ: ٥/ ٢٢٩ ـ ٢٤٧. العبر: ١/ ١١٨. البداية والنّهاية: ٩/ ٣٢٧ ـ ٣٣١.

(٥) انظر: تاريخ الطَّبري: ٧/ ٤٢١ ـ ٤٥٨. الكامل في التّاريخ: ٥/ ٤٠٨ ـ ٤٣٢. العبر: ١/ ١٣٢، ١٣٤. البداية والنّهاية: ١٠/ ٤٠ ـ ٤٦.

(٦) هو أبو العبّاس عبد الله بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، القرشي الهاشمي العبّاسي، أوّل خلفاء بني العبّاس، بويع له بالخلافة سنة ١٣٢هـ، ولكن لم تطل خلافته فمات سنة ١٣٦هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/ ٤٦. سير أعلام النُّبلاء: ٦/ ٧٧. العبر: ١/ ١٤٢. فوات الوفيات والذَّيل عليها، لمحمّد بن عساكر الكتبي، طبعة: دار صادر، بيروت: ١٩٧٣م، تحقيق: إحسان عبّاس: ٢/ ٢١٥. البداية والنّهاية: ١٠/ ٥٢. شذرات الذَّهب: ٢/ ١٦١.

المنصور[1]، فخرج عليه عمّه عبد الله بن عليّ[2]، ودعا إلى نفسه بالشّام، فأرسل إليه أبو جعفر، أبا مسلم الخُرَاساني[3] صاحب دعوة بني العبّاس ومنشئ دولتهم. فالتقى الجيشان بنَصِيبين[4] واشتدّ بينهما القتال، ثمّ انهزم جيش عبد الله، وهرب إلى البصرة، وخمدت فتنته[5].

* ثمّ خلع أبو مسلم المنصور ولجأ إلى خراسان، فاحتال عليه المنصور

---

(١) هو أبو جعفر عبد الله بن محمّد بن عليّ الهاشمي العبّاسي المنصور، ثاني خلفاء بني العبّاس، ولي الخلافة بعد وفاة أخيه السّفّاح سنة ١٣٦هـ، وهو والد الخلفاء العبّاسيين جميعاً، كان ذا رأي وحزم، ودهاء وجبروت، تاركاً للّهو واللّعب، كامل العقل، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم، بنى مدينة بغداد، وقد قتل خلقاً كثيراً حتّى توطّد ملكه، مات سنة ١٥٨هـ.

وانظر: تاريخ الطّبري: ٧/ ٤٧١. تاريخ بغداد: ١٠/ ٥٣. الكامل في التّاريخ: ٥/ ٤٦١. سير أعلام النُّبلاء: ٧/ ٨٣. العبر: ١/ ١٧٦. فوات الوفيات: ٢/ ٢١٦. البداية والنّهاية: ١٠/ ١٢١. شذرات الذّهب: ٢/ ٢٦١. الأعلام: ٤/ ١١٧.

(٢) هو عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس ﷺ، عمّ السّفّاح والمنصور، من رجال العالم ودهاة قريش، كان بطلاً شجاعاً، ذا حزم ورأي ودهاء، مهيباً جبّاراً عسوفاً سفّاكاً للدّماء، به قامت الدّولة العبّاسية، مات في سجن المنصور سنة ١٤٧هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/ ٨. سير أعلام النُّبلاء: ٦/ ١٦١. العبر: ١/ ١٥٩. البداية والنّهاية: ١٠/ ١٠٤. شذرات الذّهب: ٢/ ٢١٤.

(٣) هو عبد الرّحمٰن بن مسلم، وقيل: ابن عثمان بن يسار الخرساني الأمير، صاحب دعوة بني العبّاس، وهازم جيوش الدّولة الأمويّة، والقائم بإنشاء الدّولة العبّاسية، وكان سفّاكاً للدّماء، خلع المنصور ودعا لنفسه، فتمكّن منه المنصور فقتل بين يديه سنة ١٣٧هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/ ٢٠٧. وفيات الأعيان: ٣/ ١٤٥. سير أعلام النُّبلاء: ٦/ ٤٨. العبر: ١/ ١٤٣. ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، لشمس الدّين محمّد بن أحمد الذّهبي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: عليّ محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود: ٤/ ٣١٧. لسان الميزان: ٣/ ٤٣٦. شذرات الذّهب: ٢/ ١٣١.

(٤) نَصِيبين: موضع بين العراق والشّام.

انظر: معجم ما استعجم: ٤/ ١٣١٠. معجم البلدان: ٥/ ٢٨٨.

(٥) انظر: تاريخ الطّبري: ٧/ ٤٧٠ ـ ٤٧٩. الكامل في التّاريخ: ٥/ ٤٦٤ ـ ٤٦٨. العبر: ١/ ١٤٣. البداية والنّهاية: ١٠/ ٦١ ـ ٦٣.

حتّى قدم إليه ثمّ قتله، ووضع السّيف في أتباعه حتّى سكنت فتنته[1].

* وكان العلويّون لا يهدأ لهم بال، كلّما وجدوا فرصة سانحة خرجوا على الدّولة العبّاسيّة، فيتبعهم خلق كثير، ممّا يدفع خلفاء بني العبّاس إلى قتالهم وإخماد فتنتهم[2].

* واستفحل أمر الزَّنادِقة[3] في عهد المهدي[4] العبّاسي، وأحدثوا شروراً وفساداً عظيماً فتتبّعهم ونكّل بهم[5].

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٧/ ٤٧٩ ـ ٤٩٢. الكامل في التّاريخ: ٥/ ٤٦٨ ـ ٤٨٠. العبر: ١/ ١٤٣. البداية والنّهاية: ١٠/ ٦٣ ـ ٧٢.

(٢) انظر: العبر: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٥، ١/ ١٩٧، ١/ ٢٥٧. البداية والنّهاية: ١٠/ ٨٢ ـ ٩٥.

(٣) الزّنادقة: من الزّندقة وهي عند الإطلاق يراد بها عدّة معانٍ: فقد كانت تطلق على أتباع (ماني)، ثمّ أطلقت على الملاحدة الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بالنُّبوّات، ثمّ على من أسرّ الكفر وأظهر الإسلام، فتكون مرادفة للنّفاق، ثمّ اتّسع هذا اللّفظ فشمل أهل المجون والخلاعة، وكلّ من كان فيه خروج عن الدّين بالقول والعمل، وكلّ اتّجاهات الزّنادقة تلتقي في هدف واحد وهو الوقوف في وجه الإسلام.

انظر: النّفاق والزّندقة وأثرهما في مواجهة الدّعوة الإسلاميّة قديماً وحديثاً، رسالة ماجستير، إعداد الطّالب: عطية عتيق عبد الله الزّهراني، وإشراف: الشّيخ محمّد الغزالي، جامعة الملك عبد العزيز بمكّة المكرّمة، كليّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، فرع العقيدة، ص: ٣٥. وانظر: لسان العرب: ١/ ١٤٧. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد الرّحمٰن بن محمّد بن قاسم، طبعة: مكتبة ابن تيمية، الطّبعة الثّانية: ٥/ ٦٣. فتح الباري: ١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، طبعة: دار المعرفة.

(٤) هو أبو عبد الله محمّد بن أبي جعفر المنصور بن محمّد بن عليّ، الهاشمي، الخليفة العبّاسي، كان جواداً ممداحاً معطاءً محبّباً إلى الرعيّة، حسن الأخلاق حليماً، قامعاً لأهل البدع والأهواء والزّنادقة، مع شجاعة فيه وعدل، مات سنة ١٦٩هـ، وبويع لابنه الهادي.

وانظر: تاريخ بغداد: ٥/ ٣٩١. سير أعلام النُّبلاء: ٧/ ٤٠٠. العبر: ١/ ١٩٧. البداية والنّهاية: ١٠/ ١٢٩. شذرات الذّهب: ٢/ ٣٠٥.

(٥) انظر: تاريخ الطّبري: ٨/ ١٤٨، ١٦٥. الكامل في التّاريخ: ٦/ ٦٠، ٧٣، ٧٥. العبر: ١/ ١٨٤، ١٩٠. البداية والنّهاية: ١٠/ ١٤٥ ـ ١٤٦، ١٤٩.

* ومن ذلك الفتنة الّتي وقعت بين الأمين[1] والمأمون[2] ابني الرّشيد[3] الّذي عقد العهد من بعده للأمين ثمّ المأمون، فتعجّل الأمين فخلع أخاه. فجرت بينهما حروب طويلة، وفتن كبيرة، انتهت بقتل الأمين، وتولّى الخلافة المأمون الّذي كان وبالاً على أهل السّنّة[4]. وهو الّذي أظهر القول بخلق القرآن، وامتحن النّاس على ذلك، وعظمت المصيبة، واشتدّ البلاء على أهل العلم، فأجاب أكثرهم على سبيل الإكراه، وامتنع آخرون فحبسوا وضربوا وقتل بعضهم. وكانت فتنة عظيمة. استمرّت طيلة عهد المأمون والمعتصم[5]

---

(١) هو أبو عبد الله محمّد بن هارون الرّشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الهاشمي، الخليفة العبّاسي، كان ذا قوّة وشجاعة وأدب وفصاحة، ولكنّه سيئ التّدبير، مفرط مبذّر، أرعن ذو لعب، مع صحّة إسلام ودين، تولّى الخلافة بعد أبيه الرّشيد، ثارت بينه وبين أخيه المأمون حروب انتهت بقتله سنة ١٩٨هـ.
وانظر: تاريخ بغداد: ٣/٣٣٦. العبر: ١/ ٢٥٤. البداية والنّهاية: ١٠/ ٢٢٢. شذرات الذّهب: ٢/ ٤٦٠.

(٢) هو أبو العبّاس عبد الله بن هارون الرّشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، الخليفة العبّاسي، كان من أذكياء العالم، فقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وعرّب كتبهم، وبالغ في ذلك، ودعا إلى القول بخلق القرآن، كان ذا حزم وعزم ورأي وعقل وهيبة وحلم مع اعتزال وتشيّع، استتبّ له الأمر بعد مقتل أخيه الأمين، مات سنة ٢١٨هـ.
وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/١٨٣. البدء والتّاريخ: ٦/ ١١٢. سير أعلام النُّبلاء: ١٠/ ٢٧٢. العبر: ١/ ٢٩٥. فوات الوفيات: ٢/ ٢٣٥. البداية والنّهاية: ١٠/ ٢٤٤. شذرات الذّهب: ٣/ ٨٢.

(٣) هو هارون الرّشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العبّاسي الخامس، ولي الخلافة بعد أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ، كان من أنبل الخلفاء، ذا حجّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي وفصاحة، وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيّد في الأدب والفقه، وكان عادلاً جوّاداً محبّاً للعلماء، وقد ازدهرت الدّولة الإسلاميّة في عهده وتوسّعت، مات سنة ١٩٣هـ.
وانظر: تاريخ الطّبري: ٨/ ٢٣٠. تاريخ بغداد: ١٤/ ٥. الكامل في التّاريخ: ٦/١٠٦. سير أعلام النُّبلاء: ٩/ ٢٨٦. العبر: ١/ ٢٤٣. شذرات الذّهب: ٢/ ٤٣١. الأعلام: ٨/ ٦٢.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٨/ ٣٧٤ ـ ٤٩٨. الكامل في التّاريخ: ٦/ ٢٢٢ ـ ٢٨٨. العبر: ١/ ٢٤٤، ٢٤٦ ـ ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٤. البداية والنّهاية: ١٠/ ٢٢٣ ـ ٢٤١.

(٥) هو أبو إسحاق محمّد بن هارون الرّشيد بن المهدي بن المنصور الخليفة العبّاسي، =

والواثق[1]. ورفعت في عهد المتوكّل[2] الّذي أحيا السّنّة وأمات البدعة[3].

* ومن ذلك فتنة بابك الخُرَمي[4] الّذي أفسد البلاد والعباد، وقوي أمره

= تولّى الخلافة بعد أخيه المأمون، وكان ذا قوّة وبطش وشجاعة وهيبة وشهامة، ولكنّه قليل العلم، كثير اللّهو، مسرف على نفسه، امتحن النّاس بخلق القرآن، مات سنة ٢٢٧هـ.
وانظر: تاريخ بغداد: ٣/ ٣٤٢. البدء والتّاريخ: ٦/ ١١٤. سير أعلام النُّبلاء: ١٠/ ٢٩٠. العبر: ١/ ٣١٥. فوات الوفيات: ٤/ ٤٨. البداية والنّهاية: ١٠/ ٢٩٥. شذرات الذّهب: ٣/ ١٢٧.

(١) هو أبو القاسم هارون بن المعتصم بن هارون الرّشيد الخليفة العبّاسي، ولي الخلافة بعد أبيه المعتصم، كان أديباً شاعراً، دعا إلى خلق القرآن، وقيل: إنّه رجع قبيل موته، مات سنة ٢٣٢هـ.
وانظر: تاريخ بغداد: ٤/ ١٥. سير أعلام النُّبلاء: ١٠/ ٣٠٦. العبر: ١/ ٣٢٥. فوات الوفيات: ٤/ ٢٢٨. البداية والنّهاية: ١٠/ ٣٠٨. شذرات الذّهب: ٣/ ١٥٠.

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن هارون الرّشيد، الخليفة العبّاسي، تولّى الخلافة بعد أخيه الواثق، كان جوّاداً ممداحاً كريماً مع تبذير ولعب فيه، رفع محنة خلق القرآن، ونصر السّنّة وأهلها، قتل سنة ٢٤٧هـ.
وانظر: وفيات الأعيان: ١/ ٣٥٠. سير أعلام النُّبلاء: ١٢/ ٣٠. العبر: ١/ ٣٥٣. فوات الوفيات: ١/ ٢٩٠. البداية والنّهاية: ١٠/ ٣١٠. شذرات الذّهب: ٣/ ٢١٨.

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ٨/ ٦١٩، ٦٣١ ـ ٦٤٦، ٩/ ١٣٥ ـ ١٣٩، ١٩٠. الكامل في التّاريخ: ٦/ ٤٢٣ ـ ٤٢٧. العبر: ١/ ٢٧٣، ٢٨٤، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٥٣. البداية والنّهاية: ١٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤، ٣٠٣ ـ ٣٠٦، ٣١٦.

(٤) بابك الخرمي: كان رجلاً ثانوياً على دين ماني ومَزْدَك يقول بتناسخ الأرواح، ويستحلّ البنت وأمّها، وكان يريد أن يقيم ملّة المجوس، تبعه الأشرار وقطّاع الطّريق والزّنادقة، وقد أباد خلائق من الأمّة، قتله الخليفة المعتصم عام ٢٢٣هـ.
وانظر: سير أعلام النُّبلاء: ٩/ ٢٩٣ ـ ٢٩٧. العبر: ١/ ٣٠٢. شذرات الذّهب: ٣/ ٩٥ فما بعدها.
قال أبو حامد الغزالي رحمه الله:
«وأمّا الخرميّة فلقبوا بها نسبة لهم إلى حاصل مذهبهم وزبدته، فإنّه راجع إلى طيّ بساط التّكليف، وحطّ أعباء الشّرع عن المتعبّدين، وتسليط النّاس على اتّباع اللّذات، وطلب الشّهوات، وقضاء الوطر من المباحات والمحرّمات، وخُرَم لفظ أعجمي ينبئ عن الشّيء المستلذ المستطاب الّذي يرتاح الإنسان إليه بمشاهدته، ويهتزّ لرؤيته، وقد كان هذا لقباً للمزدكيّة، وهم أهل الإباحة من المجوس الّذين نبغوا في أيام قباذ، وأباحوا النّساء وإن كنّ من المحارم، وأحلّوا كلّ محظور، وكانوا يسمّون خُرَمَدِينيّة». =

واشتدّ بلاؤه وكثر أتباعه، وكان يقول بالتَّناسُخ[1]، ويريد أن يقيم ملّة المجوس[2]، وامتدّت أيّامه نيفاً وعشرين سنة. كثرت فيها حروبه مع جيوش

= فضائح الباطنيّة، لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، طبعة: مؤسَّسة دار الكتب الثّقافيّة، الكويت، تحقيق: عبد الرّحمٰن بدوي، ص:١٤. وانظر: الفرق بين الفرق، ص:٢٥١. بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلاميّة، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مطبعة الحكومة، مكَّة المكرَّمة، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٢هـ، تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمٰن بن قاسم: ١/ ٣٧٤.

(١) التّناسخية: هم القائلون بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص إلى شخص، وما يلقى الإنسان من الرّاحة، والتّعب، والدّعة، والنّصب فمرتّب على ما أسلفه من قبل، وهو في بدن آخر جزاء على ذلك، والإنسان أبداً في أحد أمرين إمّا في فعل، وإمّا في جزاء، وما هو فيه فإمّا مكافأة على عمل قدّمه، وإمّا عمل ينتظر المكافأة عليه، والجنّة والنّار في هذه الأبدان، وأعلى عليّين درجة النُّبوّة، وأسفل السّافلين دركة الحيّة، فلا وجود أعلى من درجة الرّسالة، ولا وجود أسفل من دركة الحيّة، ومنهم من يقول الدّرجة الأعلى درجة الملائكة، والأسفل دركة الشّياطين. الملل والنّحل: ١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤، بتصرُّف يسير. وانظر: ٢/ ٥٥ ـ ٥٦. الفصل في الملل والأهواء والنّحل، لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم الظّاهري، طبعة: دار الفكر، مصوّرة عن طبعة المطبعة الأدبيّة بمصر، الطَّبعة الأولى، ١٣١٧هـ: ١/ ٩٠ ـ ٩١.

(٢) المجوس: هم الَّذين أثبتوا أصلين مدبّرين قديمين، يقتسمان الخير والشّر، والنّفع والضّر، والصّلاح والفساد، يسمّون أحدهما: النّور والآخر الظّلمة، وبالفارسية: يزدان وأهرمن، ولهم في ذلك تفصيل مُذْهِب.

ومسائل المجوس كلّها تدور على قاعدتين اثنتين: إحداهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة. والثّانية: بيان سبب خلاص النّور من الظّلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأً والخلاص معاداً. الملل والنّحل: ١/ ٢٣٢، بتصرُّف.

وانظر: الإبانة عن أصول الدّيانة، لعليّ بن إسماعيل أبي الحسن الأشعري، طبعة: دار الأنصار، القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، تحقيق: فوقيّة حسين محمود: ٢/ ١٥ ـ ١٦. الفرق بين الفرق، ص:٢٧٨، ٣٢١ ـ ٣٢٢. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لعليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدّمشقي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطَّبعة الثّالثة، ١٤٠٤هـ، ص:١٥٦. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، لمحمّد بن عمر بن الحسين الرّازي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٢هـ، تحقيق: عليّ سامي النّشّار، ص:٨٦ ـ ٨٩. الإعلام بما في دين النّصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد القرطبي، طبعة: دار التّراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ، تحقيق: أحمد حجازي=

الدّولة العبّاسية. وختمت بالقضاء عليه وعلى أتباعه[1].

* ومن الفتن العظمى فتنة الزُّنْج[2]، حيث خرج قائدهم[3] بالبصرة ودعا إلى نفسه، وزعم أنّه علوي، فتبعه كلّ صاحب فتنة، واستفحل أمره، وهزم جيوش الخليفة في عدّة وقائع، واستباح المدن الّتي غلب عليها، وكان زنديقاً خبيثاً يتستّر بمذهب الخوارج، وقد طالت أيّامه، وكثر فساده. فسفك الدِّماء، وسبا النّساء، وانتهى الأمر بقتله، وتفرَّق الزّنج من حوله[4].

* ومنها فتنة القَرَامِطَة[5]، وهم زنادقة مارقة عن الدّين، تفاقم أمرهم، واشتدّ البلاء بهم، وهزموا جيوش الخلافة مرّات عديدة، وأفسدوا في الأرض إفساداً عظيماً. أحرقوا المساجد، ووضعوا السّيف في أهل الإسلام، وقتلوا الحجيج يوم التّروية، واستباحوا مكّة، ثمّ قلعوا باب الكعبة، ونزعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى هَجَرَ[6].

وأسّسوا فيما بعد الدّولة الفاطميّة[7] الباطنيّة الملحدة الّتي

= السّقّا، ص:١٦٥ ـ ١٦٦. مسائل الجاهليّة الّتي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليّة، لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهّاب، طبعة: الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنورة، ١٣٩٦هـ، تحقيق: محمود شكري الألوسي: ص٥٠.

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٩/ ١١ ـ ٥٥. العبر: ١/ ٢٦٢، ٢٩٨، ٣٠٢. البداية والنِّهاية: ١٠/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥.

(٢) أوّل من بادر إليها عبيد أهل البصرة، فقيل لها فتنة الزّنج. انظر: العبر: ١/ ٣٦٥.

(٣) زعم أنّه عليّ بن أحمد بن عليّ بن عيسى ابن الشّهيد زيد بن عليّ، ولم يثبتوا نسبه. العبر: ١/ ٣٦٥. وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:٨٥.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٩/ ٤١٠ ـ ٦٦٣. العبر: ١/ ٣٦٤ ـ ٣٨٨.

(٥) القَرَامِطَة: حركة باطنيّة هدّامة، اعتمدت التّنظيم السّري العسكري، ظاهرها التّشيّع لآل البيت، والانتساب لمحمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق، وحقيقتها الإلحاد والشّيوعيّة والإباحيّة وهدم الأخلاق والقضاء على الدّولة الإسلاميّة، سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الّذي نشرها في سواد الكوفة سنة ٢٧٨هـ.
الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٣٩٥. وانظر: بيان تلبيس الجهميّة: ١/ ١٥٠، ٢٤٤، ٢٥٩ ـ ٢٦٠. البداية والنِّهاية: ١١/ ٦١ ـ ٦٢.

(٦) هجر: مدينة قديمة بأرض البحرين.
وانظر: معجم ما استعجم: ٤/ ١٣٤٦. معجم البلدان: ٥/ ٣٩٣.

(٧) أسّسها عبيد الله الّذي ادّعى أنّه من ولد جعفر الصّادق، وأنّه علوي وتلقّب بالمهدي=

أذاقت المسلمين الأمرّين[1].

* ومن أعظم الفتن الّتي حلّت بأهل الإسلام فتنة التّتار[2] الّذين قدموا من بادية الصيّن فخرّبوا معظم البلاد، وأبادوا كثيراً من العباد، فقتلوا وسبوا وأخذوا الأموال وانتهكوا الأعراض. ولولا حفظ الله وعنايته لما أبقوا من أهل الإسلام عيناً تطرف[3].

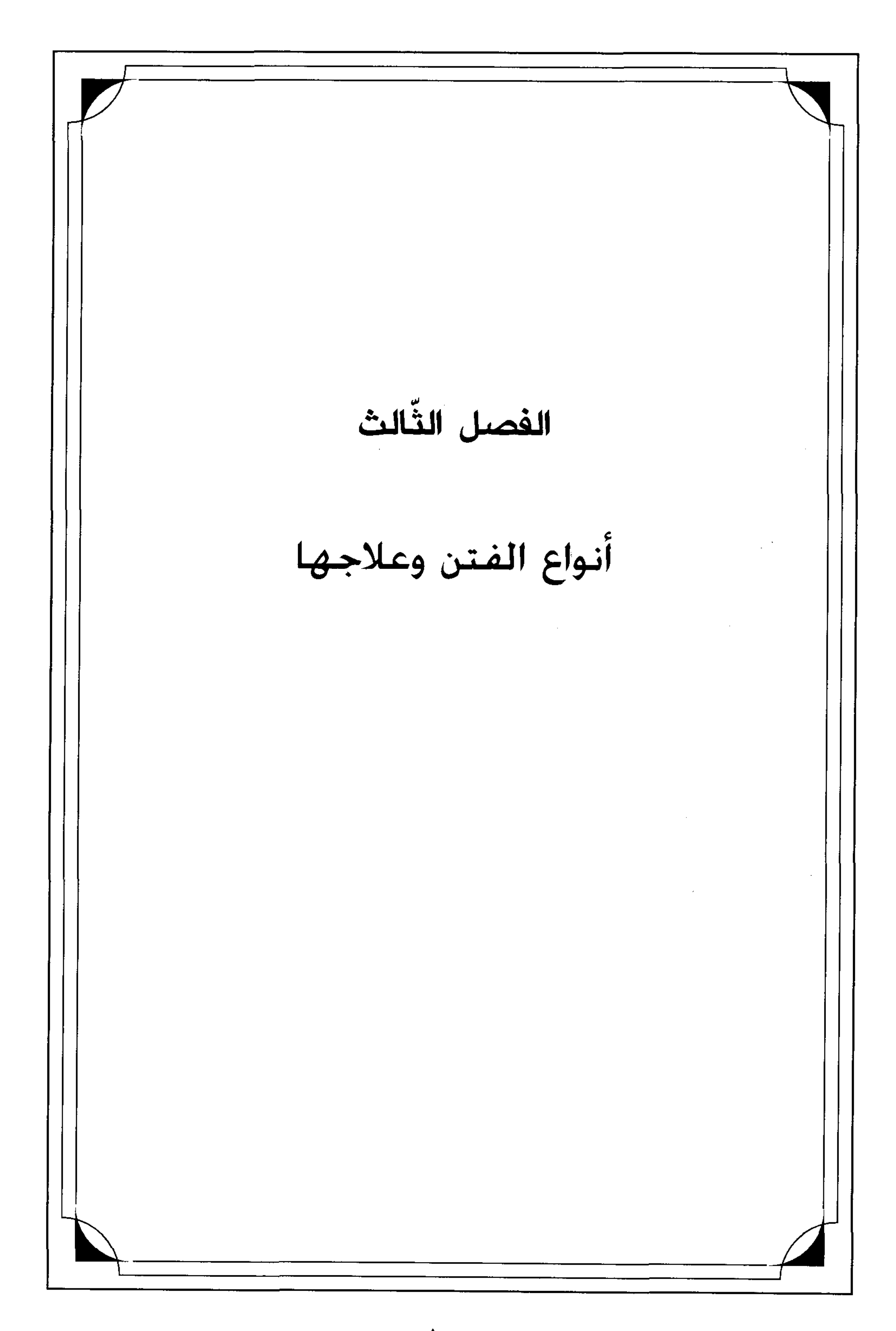
ثمّ تكاثرت الفتن بعد ذلك، وانفرط عقدها، وتشعّب أمرها، حيث يعجز المرء عن حصرها، أو سياق خبرها. والله المستعان.

= عام ٢٩٧هـ، وانتسب خلفاؤه من بعده إلى فاطمة ﷺ، وتسمّوا بالفاطميّين، وقد ذكر أهل العلم أنّهم كذبة فجرة في ذلك، وإنّما نسبهم إلى عبيد بن سعد الجرمي اليهودي الدّعي الكاذب، وقد كانوا زنادقة باطنيّة، روافض، يدينون بدين المجوس، وقد استمرت دولتهم ٢٨٠ سنة، إلى أن أزالها الله على يدي صلاح الدّين يوسف بن أيّوب. وانظر: البداية والنّهاية: ١١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦. وانظر: ١٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨. الموسوعة الميسّرة، ص:٤٦ ـ ٤٧.

(١) انظر: العبر: ١/ ٣٩٩، ٤١١، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٤ ـ ٤٢٥، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٧٤.

(٢) هم طوائف من المغول الّذين يقيمون ببادية أرض الصّين، تملّك عليهم جنكيزخان فأذعنوا له بالطّاعة في كلّ شيء، ولم يكن يتقيّد بدين، فحارب بهم الممالك من حوله فاستولى عليها، فقويت شوكتهم، واشتدّ أمرهم، فعاثوا في الأرض فساداً. وانظر: سير أعلام النّبلاء: ٢٢/ ٢٤٣. البداية والنّهاية: ١٣/ ٣٦، ٤٨، ٨٢، ٨٦، ٨٧.
قال ابن الأثير ﷺ:
«هذا الفصل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى الّتي عقّت الأيّام واللّيالي عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إنّ العالم مذ خلق الله ﷻ آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإنّ التّواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصّر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدّس، وما البيت المقدّس بالنّسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد الّتي كلّ مدينة منها أضعاف البيت المقدّس، وما بنو إسرائيل بالنّسبة إلى من قتلوا؟ فإنّ أهل مدينة واحدة ممّن قتلوا أكثر من بني إسرائيل. ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدّنيا إلّا يأجوج ومأجوج. وأمّا الدّجال فإنّه يبقي على من اتّبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النّساء والرّجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم». ثمّ استفاض ﷺ في الحديث عنهم، وذكر أخبارهم، وابتلاء أهل الإسلام بهم. انظر: الكامل في التّاريخ: ٩/ ٣٢٨ فما بعدها، طبعة: دار الكتاب العربي.

(٣) انظر: طرفاً من أخبارهم في العبر: ٣/ ١٦٨، ١٧٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٢، ٢٠٠، ٢١٨.



الفصل الثّالث

أنواع الفتن وعلاجها

التمهيد

أثر الشّيطان في إثارة الفتن

إنّ الله تعالى خلق آدم عليه السلام، ثمّ شرّفه وكرّمه بأمره للملائكة بالسّجود له. فاستجاب الملائكة لأمر الله فسجدوا جميعاً، ولم يشذ منهم إلّا إبليس ـ عليه لعنة الله ـ فاستكبر وتعالى واغترّ في نفسه، وادّعى أنّه خير من آدم، لأنّه خلق من نار وآدم من طين. ولا يمكن للفاضل أن يسجد للمفضول. فنظر إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى تشريف الله لآدم عليه السلام[1].

فكانت العاقبة أن أبلسه الله من رحمته، وجعله شيطاناً، وأهبطه من جنّته.

فلمّا استيقن اللّعين من إبعاده طلب من الله النّظرة إلى يوم الدّين. فأجابه الله لما طلب، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة الّتي لا تُخَالف ولا تُمَانع. ثّم تمادى الشّيطان في غيّه، معانداً ربّه، متمرّداً عليه بأنّه سوف يقعد على صراط الله المستقيم، وطريقه القويم. فيضلّ كل من خلقه الله من ذرية هذا الّذي أبعد بسببه من الجنّة. فبيّن له الرّب سبحانه أنّه سوف يملأ منه وممن تبعه جهنّم.

وأسكن الله آدم عليه السلام وزوجه حواء الجنّة، وأباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلّا شجرة واحدة اختباراً وامتحاناً لهما. فحسدهما الشّيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة لهما. ليزيل عنهما ما هما فيه من النّعيم المقيم.

---

(١) ولا يسلم لإبليس في دعواه بأنّ عنصر النّار أفضل من عنصر الطّين.

فدلّهما بغرور حتّى ذاقا الشّجرة. وعند ذلك بدت لهما عوراتهما، وسُلبا ذاك النّعيم.

أما آدم وزوجه عليهما السلام فقد تابا إلى الله، وأنابا إليه، فتقبّل الله توبتهما. وأمّا الشّيطان ـ عليه لعنة الله ـ فظلّ على عناده واستكباره. فأنزل الجميع إلى الأرض. وقد استحكمت بينهم العداوة والبغضاء[1].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في آيات كثر أنّ الشّيطان عدوّ شديد العداوة فقال:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ [فاطر: ٦].

وفي هذا تحذير لبني آدم ليأخذوا حذرهم من هذا العدوّ الماكر، الّذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بنيه[2].

كما حذرهم تبارك وتعالى جميعاً من فتنة هذا العدوّ الّذي لا تخمد نار عداوته ولا ينطفئ لهيبها. فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾ [الأعراف: ٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) انظر: البقرة، الآيات: ٣٤ ـ ٣٨. الأعراف، الآيات: ١١ ـ ٢٥. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٩١ ـ ٣٢٩، ٧/ ١٦٨ ـ ١٨١. تفسير القرآن العظيم: ١/ ١١٤ ـ ١٢٤، ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٣٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٢٠٩.

«يحذّر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله[1]، مبيّناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنّة الّتي هي دار النّعم إلى دار التّعب والعناء. والتّسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه. وما هذا إلّا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]»[2].

والشّيطان يدخل من بابين واسعين لفتنة العباد، فيهما تنحصر جميع أنواع الفتن:

أوّلهما: ما يلقي إلى العبد من الشُّبهات والشّكوك القادحة.

والثّاني: ما يلقي إلى العبد من الشَّهوات والإرادات الفاسدة[3].

والنّوع الأول هو أخطر أنواع الفتن، وأشدّها لأنّها قد تؤول إلى الكفر والنّفاق، ويندرج تحتها جميع البدع على اختلاف مراتبها.

ويستغل الشّيطان في ذلك ضعف البصيرة، وقلّة العلم، ولا سيّما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى[4].

والنّوع الثّاني هي فتنة المعاصي بأنواعها الّتي تدفع إليها الشّهوات.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩].

---

(١) القبيل: جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة الّتي يقبل بعضها على بعض. المفردات، ص: ٣٩٢. وانظر: لسان العرب: ١١/ ٥٤٢. القاموس المحيط، ص: ١٣٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٣٤. وانظر: جامع البيان: ١٢/ ٣٧٣، شاكر. زاد المسير: ٣/ ١٢٥. محاسن التّأويل: ٧/ ٢٦٤٩.

(٣) انظر: زاد المعاد: ٣/ ١٠.

(٤) انظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٥.

أي تمتّعوا بنصيبهم من الدّنيا وشهواتها. والخلاق هو النّصيب المقدّر، ثمّ قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩].

فهذا الخوض بالباطل، وهو الشُّبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل. لأنّ فساد الدّين إمّا أن يكون باعتقاد الباطل والتّكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأوّل: هو البدع وما والاها، والثّاني: فسق الأعمال.

فالأوّل فساد من جهة الشّبهات، والثّاني من جهة الشّهوات. ولهذا كان السّلف يقولون: احذروا من النّاس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه»[١].

والشّيطان ـ عليه لعنة الله ـ يسلك مسالك شتّى، ويستخدم أساليب متنوّعة لإلقاء النّاس في فتن الشّبهات والشّهوات.

قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢١].

فهو يضلّ ويصرفهم عن الحقّ، ويزيّن لهم الباطل، ويعدهم بالأماني، ويأمرهم بالتّسويف والتّأخير، ويغرّهم ويخدعهم بأباطيله وترّهاته، ويدفعهم إلى ارتكاب المعاصي كتشقيق آذان الأنعام، وتغيير خلق الله تعالى[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) المصدر السّابق: ٢/١٦٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٣٨٨ ـ ٣٩٥. تفسير القرآن العظيم: ١/٨٤٣ ـ ٨٤٥.

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٥].

فقد زعم أنّه سوف يستولي على بني آدم ويحتويهم، ويستأصلهم بالإغواء والإضلال، فيسوقهم حيث شاء ويقودهم حيث أراد.

وله أن يستزلّ ويستخفّ من استطاع إضلاله، وأن يستعين بكلّ داع يدعو إلى معصية الله، ويجلب عليهم بكلّ راكب وماش في سخط الله، ويشاركهم في ما يملكون من أموال وأولاد بالعمل فيها بما لا يرضي الله، ويعدهم بما شاء من وعود كاذبة، ويخدعهم بما شاء من حيل وخدع، ويجمع كلّ ما يقدر عليه من مكائد لإضلالهم. فإنّ عباد الله المؤمنين لن يصل إلى بغيته منهم أبداً لأنّ الله حافظهم من كيده ومكره[١].

عن جابر ﷺ قال: سمعت النّبي ﷺ يقول: «إنّ الشّيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التّحريش بينهم»[٢].

قال النّووي رحمه الله:

«أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب ولكنّه سعى في التّحريش بينهم بالخصومات والشّحناء والحروب والفتن ونحوها»[٣].

ووسائله كثيرة جدًّا في إضلال العباد وفتنتهم، يضيق هذا المقام عن ذكرها. وهو يستعين بأتباعه من الشّياطين لفتنة الخلق.

عن جابر ﷺ قال: سمعت النّبي ﷺ يقول: «إنّ عرش إبليس على

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠)، باب تحريش الشّيْطان وبعثه سراياه لفتنة النّاس وأنّ مع كلّ إنسان قريناً: (١٦)، برقم: (٢٨١٢)، ٤/ ٢١٦٦.
(٣) شرح النَّووي على مسلم: ١٧/ ١٥٦.

البحر، فيبعث سراياه[1] فيفتنون النّاس، فأعظمهم عنده [وفي الرواية الأخرى: منزلة] أعظمهم فتنة»[2].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثمّ يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت».

قال الأعمش[3]: أراه قال: «فيلتزمه»[4].

وسأتناول بإذن الله تعالى أنواعاً من فتن الشّبهات والشّهوات الّتي يثيرها الشّيطان في نفوس أهل الإسلام.

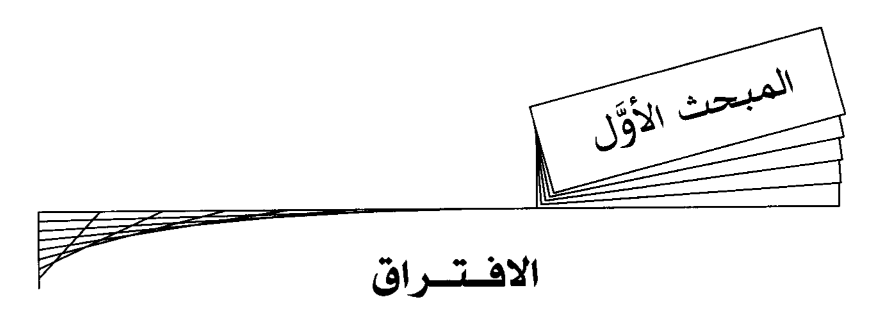
---

(١) سرايا: جمع سريّة، وهي طائفةٌ من الجَيش يبلغُ أقصاها أربعَمائة تُبْعث إلى العَدوّ، سُمُّوا بذلك لأنهم يكونُون خُلاصةَ العسْكر وخيارَهم، من الشّيء السَّرِيِّ النَّفِيس، وقيل: سُمّوا بذلك لأنّهم ينْفذُون سِرًّا وخُفْية.
النهاية في غريب الحديث: ٢/٣٦٣، بتصرُّف يسير.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٨١٣)، ٤/٢١٦٧.

(٣) هو سليمان بن مهران أبو محمّد الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الأعمش، كان رأساً في العلم النّافع والعمل الصّالح، عالماً بالقرآن خبيراً بالقراءات، إماماً في الحديث ثقة حافظاً، ولكنَّه يدلّس، مولده سنة ٦١هـ، ومات سنة ١٤٨ أو ١٤٧هـ.
وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٦/٣٤٢. طبقات خليفة، ص:١٦٤. التّاريخ الكبير: ٤/٣٧. معرفة الثِّقات: ١/٤٣٢. الجرح والتّعديل: ٤/١٤٦. ثقات ابن حبَّان: ٤/٣٠٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/١١١. تاريخ بغداد: ٩/٣. التّعديل والتّجريح: ٣/١١١٦. تهذيب الكمال: ١٢/٧٦. تذكرة الحفَّاظ: ١/١٥٤. الكاشف: ١/٤٦٤. جامع التّحصيل في أحكام المراسيل، ص:١٨٨. التّبيين لأسماء المدلّسين، لإبراهيم بن محمّد بن سبط ابن العجمي، طبعة: مؤسَّسة الرّيان، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، تحقيق: محمّد إبراهيم داود الموصلي، ص:١٠٥. تهذيب الكمال: ٤/١٩٥. تقريب التّهذيب: ١/٢٥٤. لسان الميزان: ٧/٢٣٨. طبقات المدلّسين، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، طبعة: مكتبة المنار، عمّان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، تحقيق: عاصم بن عبد الله القريوتي، ص:٣٣.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠)، باب تحريش الشَّيْطان وبعثه سراياه لفتنة النّاس وأنّ مع كلّ إنسان قريناً: (١٦)، برقم: (٢٨١٣)، ٤/٢١٦٧.



الافــتــراق

إنّ الله تعالى أمر المؤمنين بالاعتصام بحبله، وعدم التّفرّق، فقال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبيَّن أنّ التّفرّق والاختلاف من سنن الأمم الماضية، فعلى أهل الإسلام أن يجتنبوه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال القرطبي رحمه الله:

«فأوجب تعالى علينا التّمسُّك بكتابه وسنّة نبيّه، والرّجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنّة اعتقاداً وعملاً. وذلك سبب اتّفاق الكلمة، وانتظام الشّتات الّذي يتمّ به مصالح الدّنيا والدّين والسّلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الّذي حصل لأهل الكتابين. هذا معنى الآية على التّمام»[1].

بل التّفرق والاختلاف سمة من سمات أهل الشّرك ولذا قال سبحانه: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢].

والآيات في التّحذير من الاختلاف والتّفرّق كثيرة جداً، يقصر هذا المقام عن ذكرها.

كما حذّر رسول الله ﷺ من الافتراق.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٦٤.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا؛ ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السّؤال، وإضاعة المال»(١).

ومن هذا التّحذير أنّ الله ورسوله ﷺ بيّنا أنّ الافتراق سوف يقع في هذه الأمّة، وأنّها سوف تكون شيعاً وأحزاباً.

عن جابر رضي الله عنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر»(٢).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنّة وسبعون في النّار. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النّار وواحدة في الجنّة. والّذي نفس محمّد بيده لتفترقنّ أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنّة وثنتان وسبعون في النّار. قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة»(٣).

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الأقضية: (٣٠)، باب النّهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنّهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حقّ لزمه أو طلب ما لا يستحقّه: (٥)، برقم: (١٧١٥)، ٣/ ١٣٤٠.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]: (٢)، برقم: (٦٨٢٨)، ص:٩٧١. وبلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]: (١١/ ١٢)، برقم: (٧٣١٣)، ص:١٥٣٧. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]: (١٦)، برقم: (٧٤٠٦)، ص:١٥٥٥.

(٣) سنن أبي داود، نحوه في: كتاب السّنّة: (٣٩)، باب شرح السّنّة: (١)، برقم: (٤٥٩٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، وبرقم: (٤٥٩٧)، عن معاوية رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٥٠٣.

سنن التّرمذي نحوه في: كتاب الإيمان: (٣٧)، باب ما جاء في افتراق هذه الأمّة: =

وفي رواية: «وإنّه سيخرج من أمّتي أقوام تَجارَى بهم تلك الأهواء[1] كما يتجارى الكَلَب[2] لصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مِفْصَل إلّا دخله»[3].

وقد وقع الافتراق في الأمّة في عصر الإسلام الأوّل، وأطلّت فرق الأهواء برؤوسها، مع توافر الصّحابة والتّابعين.

= (١٨)، برقم: (٢٦٤٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك، وحديث أبي هريرة حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٢٨.

سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب افتراق الأمم: (١٧)، برقم: (٣٩٩٢). ونحوه عن: أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (٣٩٩١). وأنس بن مالك رضي الله عنه برقم: (٣٩٩٣). قال الألباني رحمه الله عن حديث عوف رضي الله عنه وحديث أنس رضي الله عنه: «صحيح». وعن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «حسن صحيح»، ص:٤٢٩.

مسند أحمد، نحوه عن: أبي هريرة رضي الله عنه، في: ٢/ ٣٣٢. وأنس رضي الله عنه في: ٣/ ١٢٠، ١٤٥. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». (رواية أبي هريرة). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٦/ ١٦٩، برقم: (٨٣٧٧).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه عن: أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (٦٢٤٧)، ١٤/ ١٤٠. قال شعيب الأرناؤوط: «حديث حسن».

مستدرك الحاكم، نحوه عن: أبي هريرة رضي الله عنه في: ١/ ٤٧، ٢١٧. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شواهد». وقال الذّهبي: «على شرط مسلم».

(١) أي يَتواقَعُون في الأهواء الفاسدة، ويَتَداعَوْن فيها تَشْبيهاً بِجَرْي الفَرس. النِّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٦٤.

(٢) قال الخطّابي رحمه الله:
«فإنّ الكَلَبَ داء يصيب الإنسان من عضّة الكَلْب الكَلِب، وهو الّذي قد ضَرِيَ ـ أي اعتاد وولع ـ بلحوم النّاس فإذا أكثر منها أصابه شبه جنون. فيقال: إنّه إذا عقر إنساناً أصابه الكَلَبُ، فيعْوِي عواء الكلْب، ويمزّق على نفسه، ثمّ يأخذه العطاش حتّى يموت، وهو ينظر إلى الماء ولا يشربه». غريب الحديث: ١/ ٥٨٩.
وانظر: الفائق: ٣/ ٢٧٤. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٩٥.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب السّنّة: (٣٩)، باب شرح السّنّة: (١)، برقم: (٤٥٩٧)، عن معاوية رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٥٠٣.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا أنّه قال: «بصاحبه» ـ في: ٤/ ١٠٢.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٢١٨، وصحّح إسناده ووافقه الذّهبي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا أقلّ فتناً من سائر من بعدهم، فإنّه كلّما تأخّر العصر عن النُّبوّة كثر التّفرّق والخلاف. ولهذا لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلمّا قتل وتفرّق النّاس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المكفّرين لعليّ، وبدعة الرَّافِضَة[1] المدّعين لإمامته وعصمته، أو نبوّته أو إلآهيّته. ثمّ لمّا كان في آخر عصر الصّحابة في إمارة ابن الزُّبير وعبد الملك حدثت بدعة المُرْجِئَة[2] والقَدَرِيَّة[3].

---

(١) الرَّافضة: من الرَّفض وأصله التّرك، سمّوا رافضة لتركهم زيد بن عليّ لمّا لم يتبرّأ من الشّيخين أبي بكر الصّدّيق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما ثمّ أصبح يطلق على كلّ من تبرّأ منهما، وكذلك على كلّ من تبرّأ من الصَّحابة، وهم مجمعون على أنّ النّبي ﷺ نصّ على استخلاف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وإنّ أكثر الصَّحابة ضلّوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النّبي ﷺ، وقد ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ولم يجوزوا ثبوتها في غيرهم.

وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:١٦فما بعدها. الفرق بين الفرق، ص:٢٢ فما بعدها. الملل والنّحل: ١/ ١٥٤ فما بعدها. التّعاريف المسمّى التّوقيف على مهمّات التّعاريف، لمحمّد عبد الرؤوف المناوي، طبعة: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، ص:٣٦٩.

(٢) المرجئة: من الإرجاء وهو التّأخير. والمرجئة لقب أطلق على طائفة تؤخّر العمل عن الإيمان، أي أنّهم لا يدخلون العمل في مسمّى الإيمان، ويقصرون الإيمان على المعرفة، وأكثرهم يرى أنّ الإيمان لا يتبعّض، ولا يزيد ولا ينقص. وزعم بعضهم: أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:١٣٢. الفرق بين الفرق، ص:١٩. الملل والنّحل: ١/ ١٣٩ فما بعدها. التّعريفات. لعليّ بن محمّد بن عليّ الجرجاني، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ص:٢٦٨. التَّعاريف، ص:٦٤٩.

(٣) القدريّة: هم الَّذين كانوا يخوضون في قدر الله تعالى، ويذهبون إلى إنكاره، وهم طوائف شتّى، يزعم بعضهم أن العبد يخلق فعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله.

وانظر: الفرق بين الفرق، ص:٩٣ فما بعدها. الملل والنّحل: ١/ ٤٣ فما بعدها. التّعريفات، ص:٩٢.

ثمّ لمّا كان في أوّل عصر التّابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجَهْمِيَّة[1] والمُشَبِّهَة[2] المُمَثِّلَة[3]»[4].

وما ذكره شيخ الإسلام هي أصول فرق المبتدعة. ثمّ انقسمت كلّ فرقة فيما بعد إلى فرق شتّى وطوائف عدّة[5].

---

(١) الجهميّة: هم أتباع جَهْم بن صفوان الَّذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلّها، وزعم أنّ الجنّة والنّار تبيدان وتفنيان، وزعم أيضاً أنّ الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأنّ الكفر هو الجهل به فقط، وقال: لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنّما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. وزعم أيضاً أنّ علم الله تعالى حادث، وامتنع من وصف الله تعالى بأنّه شيء أو حي أو عالم أو مريد. وامتنع عن وصف الباري بصفة يوصف بها خلقه، ووصفه بأنّه قادر وموجود وفاعل وخالق ومحيي ومميت لأنّ هذه الأوصاف مختصّة به وحده. وقال بحدوث كلام الله تعالى كما قالته القدريّة، ولم يسمّ الله تعالى متكلّماً به.
الفرق بين الفرق، ص:٢٩٣، بتصرُّف. وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:٢٧٩ ـ ٢٨٠. المال والنّحل: ١/٨٦ ـ ٨٧.

(٢) المشبّهة: قوم شبّهوا الله بالمخلوقات، ومثّلوه بالمحدثات، وهم صنفان: صنف شبّهوا ذات الباري بذوات غيره، وصنف شبّهوا صفاته بصفات غيره. فيقولون: له وجه كوجه المخلوق، ويد كيده، ونحو ذلك. ومنهم من يزعم أنّ معبودهم جسم ذو أبعاض محدودة. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.
وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:٣١ فما بعدها. الفرق بين الفرق، ص:٢١٤ فما بعدها. الملل والنّحل: ١/١٠٣ فما بعدها. منهاج السّنة النّبويّة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة: مؤسَّسة قرطبة، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: محمّد رشاد سالم: ٢/٥٢٢ ـ ٥٢٣. الكواشف الجليّة عن معاني الواسطيّة، لعبد العزيز المحمّد السّلمان، طبعة: شركة الراجحي للصّرافة، الطَّبعة العاشرة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص:٨٩.

(٣) الممثّلة: هم المشبّهة. انظر: بيان تلبيس الجهميّة: ١/٤٧.

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص:٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٦٠ ـ ١٦٤.
وقد قسَّم تلك الفرق الإمام ابن حزم إلى خمسة فرق وهي: أهل السّنّة والمعتزلة والمرجئة والشّيعة والخوارج.
انظر: الفصل في الملل والنّحل: ٢/١١١.
كما قسّمها الشّهرستاني إلى أربعة فرق وهي: القدريّة والصفاتيّة والخوارج والشيعة.
انظر: الملل والنّحل: ١/١٥.

ولا شك أنّ وجود هذه الفرق كان فتنة لأهل الإسلام. لما تحدثه من نزاعات وخلافات وحروب كلاميّة تصل أحياناً إلى تجريد السّيوف، وسفك الدّماء، أو التّفسيق أو التّبديع أو التّكفير. وقد تقوم دولة بأكملها في نصر فرقة ما أو تأييد طائفة ما. أضف إلى ذلك ما ولّدته هذه الفرق من انحرافات منهجيّة أو عقديّة أو فكريّة أو سياسيّة، أو غير ذلك في دين الله تعالى.

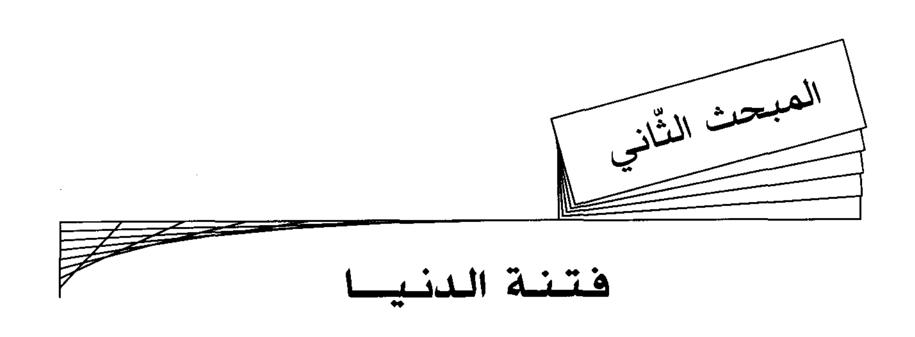
بل كان وجود تلك الفرق والطّوائف عاملاً مؤثّراً في ضعف المسلمين وتفريق كلمتهم، ممّا جعلهم عاجزين عن القيام برسالة الإسلام والاطّلاع بأعبائها، فصاروا أذلّاء أمام أعداء الله تعالى. إضافة إلى ما يحدث من تشويه للإسلام، وتنفير عنه ممّا يصبح حجر عثرة أمام من يريد الانتماء إليه.

بل قد يجد المسلم نفسه حائراً بين الانتماء إلى هذه الطّائفة أو تلك[١]، فيعجز عن تبيّن الحق والوصول إليه فيضطرب أمره، ويتهاوى ثباته، فينحرف وينجرف.



---

(١) وذلك التّفرق والاختلاف نتيجة الجهل والتّعصب والهوى. ويخرج عن ذلك الاختلاف في الفروع الفقهيّة ما لم يبلغ درجة الافتراق والتّعصب والنّزاع.



فتنة الدنيا

ضرب الله تعالى الأمثلة للدّنيا موهّناً لأمرها، محقّراً لشأنها، مدلّلاً على زوالها وانقضائها حتّى لا يفتتن بها العباد، ويغترّ بها من جهل أمرها وانغمس في لذاتها، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠][(١)].

وكذلك حذّر رسول الله ﷺ منها ومن فتنتها، فقال في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إنّ الدّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنّ الله مستخلفُكم فيها فينظرُ كيف تعملون، فاتّقوا الدّنيا واتقوا النّساء، فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء»[(٢)].

فوصفها ﷺ بأنّها حلوة أي لذيذة حسنة، وأنّها ناعمة طريّة سريعة الزّوال

---

(١) وانظر: آل عمران، الآية: ١٤. يونس، الآية: ٢٤. وللوقوف على معاني الآيات. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨، ١٠/ ٤١٢ ـ ٤١٣، ١٧/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١، ٣/ ١٣٩، ٤/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب أكثر أهل الجنّة الفقراء، وأكثر أهل النّار النّساء، وبيان الفتنة بالنّساء: (٢٦)، برقم: (٢٧٤٢)، ٤/ ٢٠٩٨.

كالخضر. وفي ذلك بيان بأنّها تفتن النّاس بلونها وطعمها[1]. ومع ذلك قلّ من ينجو من فتنتها، أو يفلت من براثنها.

عن وبَرَة رَحِمَهُ اللَّهُ[2] قال: «سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما: أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحج؟ فقال: وما يمنعك؟ قال: إنّي رأيت ابن فلان يكرهه، وأنت أحبّ إلينا منه، رأيناه قد فتنته الدّنيا. فقال: وأيّنا ـ أو أيّكم ـ لم تفتنه الدّنيا؟ ثمّ قال: رأينا رسول الله ﷺ أحرم بالحجّ، وطاف بالبيت، وسعى بين الصّفا والمروة، فسنّة الله وسنّة رسوله ﷺ أحقّ أن تتّبع من سنّة فلان. إن كنت صادقاً»[3].

فإذا كان ابن عمر رضي الله عنهما وهو من هو! يرى أنّه فتن بالدّنيا ـ وهذا من تواضعه ـ فكيف بغيره ممّن لم يبلغ مقامه ويصل إلى منزلته؟.

ولأجل هذا حرص الرّسول ﷺ على تعليم الصّحابة الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعاذة به من فتنتها ومكرها.

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان النّبي ﷺ يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تعلّم الكتابة: «اللّهم إنّي أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن،

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي: ٦/ ٣٥٦.
قال النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:
«ومعنى الدّنيا خضرة حلوة: يحتمل أنّ المراد بها شيئان: أحدهما: حسنها للنّفوس ونضارتها ولذّتها كالفاكهة الخضراء الحلوة، فإنّ النّفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدّنيا. والثّاني: سرعة فنائها كالشّيء الأخضر في هذين الوصفين. ومعنى مستخلفكم فيها: جاعلكم خلفاء من القرون الّذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم». شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٥٥.

(٢) هو وبرة بن عبد الرّحمٰن أبو خزيمة، وقيل: أبو العبّاس المسلي، من مذحج، كوفي، تابعي ثقة.
انظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٣١٢. التّاريخ الكبير: ٨/ ١٨٢. الجرح والتّعديل: ٩/ ٤٢. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٤٩٧. تهذيب الكمال: ٣٠/ ٤٢٦. الكاشف: ٢/ ٣٤٨. تهذيب التّهذيب: ١١/ ٩٨.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الحجّ: (١٥)، باب ما يلزم من أحرم بالحجّ ثمّ قدم مكّة من الطّواف والسّعي: (٢٨)، برقم: (١٢٣٣)، ٢/ ٩٠٥ ـ ٩٠٦.

وأعوذ بك أن نردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدّنيا وعذاب القبر»[1].

بل بلغ من خشيته ﷺ من فتنتها أنه حذّر أصحابه رضي الله عنهم في آخر حياته من التنافس فيها، والاقتتال من أجلها.

عن عُقْبَة بن عامر رضي الله عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ على قتلى أحد، ثمّ صعد المنبر كالمودّع للأحياء والأموات فقال: «إنّي فَرَطُكُم على الحوض[2]، وإنّ عرضه كما بين أَيْلَةَ[3] إلى الجُحْفَة[4]، إنّي لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكنّي أخشى عليكم الدّنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا فتَهْلِكوا كما هلك من كان قبلكم».

قال عقبة: فكانت آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر[5].

---

(1) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التّعوّذ من فتنة الدّنيا: (٥٦)، برقم: (٦٣٩٠)، ص:١٣٦١. وبلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب ما يتعوّذ من الجبن: (٢٥)، برقم: (٧٨٢٢)، ص:٥٩٦. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التّعوّذ من عذاب القبر: (٣٧)، برقم: (٦٣٦٥)، ص:١٣٥٧، وفي باب التّعوّذ من البخل: (٤١)، برقم: (٦٣٧٠)، ص:١٣٥٨، ونحوه في: باب الاستعاذة من فتنة الغنى: (٤٥)، برقم: (٦٣٧٤)، ص:١٣٥٩.

(2) أنا فَرَطُكم على الحَوْض أي مُتَقَدِّمُكم إليه. يقال: فَرَط يَفْرِط، فَهُو فارِطٌ وفَرَطٌ إذا تقَدَّم وسَبَق القوم ليَرْتَاد لهم الماء، ويُهَيِئ لهم الدِّلاء والأَرْشِيَة.
النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٣٤. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ٤٥. غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٤٨٩.

(3) أيلة: بفتح أوّله على وزن فعلة، مدينة على شاطئ البحر الأحمر في منتصف ما بين مكّة ومصر، وهي تعدّ من بلاد الشّام، وقيل: سمّيت أيلة ببنت مدين بن إبراهيم عليه السلام، وقد روي أنّها القرية الّتي كانت حاضرة البحر، والّتي جاء ذكرها في القرآن، وينسب إليها جماعة من رواة الأحاديث.
انظر: معجم ما استعجم: ١/ ٢١٦ - ٢١٧. معجم البلدان: ١/ ٢٩٢.

(4) الجُحْفة: قرية جامعة على الطّريق بين المدينة ومكّة، كانت تسمّى مَهيعة، فجاء سيل فاجتحف من فيها فسمّيت الجحفة، جعلها النّبي ﷺ مهلّ أهل الشّام.
انظر: معجم ما استعجم: ١/ ٣٦٧ - ٣٧١. معجم البلدان: ٢/ ١١١.

(5) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب الصّلاة على الشّهيد: (٧٢)، برقم: (١٣٤٤)، ص:٢٨٢. وفي كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٥٩٦)، ص:٧٥٧. وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب غزوة أُحد: (١٧)، برقم: (٤٠٤٢)، ص:٨٤٧، وفي باب «أحد يحبنا»: =

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

«فيه إنذار بما سيقع فوقع كما قال ﷺ، وقد فتحت عليهم الفتوح بعده، وآل الأمر إلى أن تحاسدوا وتقاتلوا، ووقع ما هو المشاهد المحسوس لكلّ أحد ممّا يشهد بمصداق خبره ﷺ، ووقع من ذلك في هذا الحديث إخباره بأنّه فرطهم أي سابقهم وكان كذلك، وأنّ أصحابه لا يشركون بعده فكان كذلك، ووقع ما أنذر به من التّنافس في الدّنيا»[(١)].

وإذا كان التّنافس في الدّنيا، والتّقاتل فيها وقع في عصور الإسلام الأول، فكيف بنا نحن في هذا العصر الّذي انغمس أهله في المادة إلى آذانهم، وتكالبوا على حطام الدّنيا الزّائل؟. فما رفع عندهم إلّا من نال قسطاً منها. إذ العزيز عندهم من كثر ماله، والعظيم عندهم من علا منصبه، وكبرت وظيفته فنال التّيجان والأوسمة، وهتف له النّاس ورفعوا ذكره.

إنّ حبّ الدّنيا واللّهث وراءها سيطر على عقول كثيرين من أهل الإسلام اليوم، حتّى عميت البصائر عن رؤية الحقّ، وضعفت الأمّة وانكسرت شوكتها، وهَزُلت أمام أعدائها، حتّى تداعت عليها أمم الكفر والضّلال فسلبوا الدّيار، وحازوا الأموال، وجثموا على صدر الأمّة يذيقونها الويلات والنّكال.

ولقد صدق قول الرّسول ﷺ في حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يوشك الأمم أن تَدَاعَى عليكم كما تداعى الأكَلَة إلى قَصْعَتِها»، فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غُثَاءٌ[(٢)] كغثاء السّيل، ولَيَنْزَعَنَّ الله

= (٢٨/٢٧)، برقم: (٤٠٨٥)، ص:٨٥٥. وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧)، برقم: (٦٤٢٦)، ص:١٣٦٩، وفي باب الحوض: (٥٣)، برقم: (٦٥٩٠)، ص:١٣٩٧.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفضائل: (٤٣)، باب إثبات حوض نبيّنا ﷺ وصفاته: (٩)، برقم: (٢٢٩٦)، ٤/١٧٩٦، ونحوه في: (٤/ ١٧٩٥).

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٢٠.

(٢) الغثاء: بالضمّ والمدّ ما يجيء فوق السّيل ممّا يحمله من الزّبد والوسخ وغيره. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٤٣.
زاد الخطّابي رَحِمَهُ اللهُ: «يشبّه به كلّ شيء رديء من النّاس وغيرهم». غريب الحديث: ٣/ ٩٧.

من صدور عدوكم المَهَابَةَ[1] منكم ولَيَقْذِفَنَّ الله في قلوبكم الوَهْنَ»[2].

فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حبّ الدّنيا وكراهية الموت»[3].

والدّنيا لا تترك كلّها، ولا تهمل، بل يستمتع بملاذها ونعمها بحيث لا يثلم دين المرء، ولا يضر بآخرته لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

والاعتدال والتّوسط في كلّ ذلك هو الّذي يضمن للعبد السّلامة فيها، والتّحرز من الوقوع في فتنها، والانغماس في شهواتها، ليبقى له دينه، ويسلم من الزّيغ عنه. وسأتناول أعظم فتن الدّنيا في ثلاثة مطالب:

---

(١) المهابة: يقال: هابه يهابه هيبة ومهابة إذا خافه وأجلّه.
انظر: مختار الصّحاح، ص:٧٠٣. القاموس المحيط، ص:١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) الوهْن: هو الضّعف، ويحرّك أيضاً. انظر: مختار الصّحاح، ص:٧٣٨. القاموس المحيط، ص١٥٩٩.
قال العظيم آبادي:
«الوهن أي الضّعف، وكأنّه أراد بالوهن ما يوجبه، ولذلك فسّره بحبّ الدّنيا وكراهية الموت، قاله القاري، وما الوهن؟ أي ما يوجبه وما سببه؟. قال الطّيبي رحمه الله: سؤال عن نوع الوهن، أو كأنّه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن؟ قال: حبّ الدّنيا، وكراهية الموت، وهما متلازمان، فكأنّهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدّنيا في الدّين من العدوّ المبين ونسأل الله العافية». عون المعبود: ١١/٢٧٣.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦)، باب في تداعي الأمم على الإسلام: (٥)، برقم: (٤٢٩٧). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٦٩.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/٢٧٨، ونحوه في: ٢/٣٥٩.
مسند أبي داود الطّيالسي، لسليمان بن داود أبي داود الطّيالسي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، نحوه برقم: (٩٩٢)، ص:١٣٣.
قال شعيب الأرناؤوط عن إسناد الإمام أحمد في: ٥/٢٧٨: «وسنده قوي، فصحّ به».
شرح السّنّة، للحسين بن مسعود البغوي، طبعة: المكتب الإسلامي، الطّبعة الأولى، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م، تحقيق: زهير الشاويش، شعيب الأرناؤوط: ١٥/١٦، ورقمه: (٤٢٢٤)، الهامش.

المطلب الأوّل

فتنة النِّساء

إنّ الله سبحانه حذّر من فتنة النّساء. وجعلهنّ من الشّهوات الّتي تفتن الرّجال، فقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النّفوس إليهنّ، لأنهنّ حبائل الشّيطان، وفتنة الرّجال... ففتنة النّساء أشدّ من جميع الأشياء»[١].

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يخبر تعالى عمّا زيّن للنّاس في هذه الحياة الدّنيا من أنواع الملاذ من النّساء والبنين. فبدأ بالنّساء لأنّ الفتنة بهنّ أشدّ»[٢].

وكذلك حذّر رسول الله ﷺ من الفتنة بهنّ لشدّة خطرها، فقال في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرّجال من النّساء»[٣].

وفي هذا دلالة على أنّ الفتنة بالنّساء أشدّ من الفتنة بغيرهنّ. ولذلك جعلهنّ أضرّ شيء على الرّجال[٤].

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لأنّ الطّباع كثيراً تميل إليهنّ، وتقع في الحرام لأجلهنّ، وتسعى للقتال والعداوة بسببهنّ، وأقلّ ذلك أن ترغّبه في الدّنيا، وأي فساد أضرّ من هذا»[٥].

ولهذا أمر ﷺ باتّقائهنّ خشية الهلاك بسبب فتنتهنّ كما هلك بنو إسرائيل لمّا فتنوا بهنّ، فقال في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إنّ الدّنيا حلوة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٢٦. وانظر: فتح الباري: ١٠/ ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٣) سبق تخريجه. انظر: ص:٣٨.
(٤) انظر: فتح الباري: ١٠/ ١٧٢.
(٥) تحفة الأحوذي: ٨/ ٥٣.

خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتّقوا الدّنيا واتّقوا النّساء فإنّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء»[1].

قال الإمام النّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فاتّقوا الدّنيا: ومعناه تجنّبوا الافتتان بها وبالنّساء. وتدخل في النّساء الزّوجات وغيرهنّ، وأكثرهنّ فتنة الزّوجات، ودوام فتنتهنّ، وابتلاء أكثر النّاس بهنّ»[2].

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤].

ولمّا كانت الفتنة بهنّ عظيمة أحاطهنّ الشّارع الحكيم بجملة من الأحكام الشّرعيّة حتّى تنكفّ فتنتهنّ، ويقلّ الشّر بهنّ.

من ذلك:

١ ـ أمرهنّ بالقرار في البيوت، وعدم الخروج منها إلّا لضرورة أو حاجة. وإذا خرجنّ لحاجتهنّ فلا يتبرجنّ[3].

فقال سبحانه: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال، فذلك تبرّج الجاهليّة».

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إذا خرجتنّ من بيوتكنّ ـ وكانت لهنّ مشية وتكسّر وتَغَنُّج[4] ـ فنهى الله تعالى عن ذلك»[5].

---

(١) سبق تخريجه، ص:١١٨.

(٢) شرح النَّووي على مسلم: ١٧/ ٥٥.

(٣) يتبرّجنّ: من تبرّجت المرأة: إذا أظهرت زينتها ومحاسنها للرّجال.
انظر: مختار الصّحاح، ص:٤٦. القاموس المحيط، ص:٢٣١.

(٤) يقال: غَنِجَت الجارية وتَغَنَّجَت فهي مِغْناج وغَنِجَة: إذا تكسَّرت وتدلَّلت، من الغُنْج الّذي هو التّكسُّر والتَّدلُّل.
انظر: لسان العرب: ٢/ ٣٣٨. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٨٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٦٨.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

«وأنّ المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرّجال، إلى غير ذلك ممّا لا يجوز شرعاً. وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها، فيلزمن البيوت، فإن مسّت الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذّل وتستّر تام»[1].

ويؤيده حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ النّبي ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليَخْرُجْنَ تَفِلات»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١٨٠. التَّبَذُّلُ؛ ترك التزيُّن والتَّهيُّؤ بالهيئة الحسَنة الجميلة على جِهة التواضع.
النِّهاية في غريب الحديث: ١/ ١١١. لسان العرب: ١١/ ٥٠.

(٢) تفلات: من التَّفل وهو الرّيح الكريهة، والمراد يخرجن غير متطيّبات.
انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٩١. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥. غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٩٤. الفائق: ١/ ١٥١.
والحديث في:
سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٢)، باب ما جاء في خروج النِّساء إلى المسجد: (٥٢)، برقم: (٥٦٥). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «حسن صحيح»، ص: ٨٥.
سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: باب النّهي عن منع النِّساء عن المساجد وكيف يخرجن إذا خرجن، برقم: (١٢٧٩)، ١/ ٣٣٠.
مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ٤٣٨، ٤٧٥. عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي: ٦/ ٦٩ ـ ٧٠. عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وزادت: «ولو رأى حالهنّ اليوم منعهنّ».
وبلفظ مقارب في: ٢/ ٥٢٨. عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي: ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣. عن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: «إسناده صحيح». (رواية أبي هريرة الأولى)، مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٨/ ١٩٠، برقم: (٩٦٤٣).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر الزّجر عن منع النِّساء عن إتيان المساجد للصّلاة، برقم: (٢٢١١). عن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ٥/ ٥٨٩، وفي باب ذكر وصف خروج المرأة الّتي أبيح لها شهود العشاء في الجماعة، برقم: (٢٢١٤). عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ٥/ ٥٩٢.
قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»، لكلا الطّريقين.
وأصل الحديث في صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، في: كتاب الصّلاة: (٤)، باب خروج النِّساء إلى المساجد إذا لم يترتّب عليه فتنة، وأنّها لا تخرج مطيّبة: (٣٠)، برقم: (٤٤٢)، ١/ ٣٢٧.

وقال ﷺ: «المرأة عورة فإذا خرجت استَشْرَفَها الشّيطان»[1].

٢ ـ أمرهنّ بالحجاب، وستر جميع أجسادهنّ، وعدم كشف شيء منها للأجانب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار، وروي عن ابن عبّاس وابن مسعود أنّه الرّداء. وقد قيل: إنّه القناع. والصّحيح أنه الثّوب الّذي يستر جميع البدن. . . أمر الله سبحانه النّساء بالستر، وأنّ ذلك لا يكون إلّا بما لا يصف جلدها»[2].

وقال الشّيخ محمد الأمين الشّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن الأدلّة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها جميع بدنها حتّى وجهها.

قوله تعالى ـ فذكر الآية ـ فقد قال غير واحد من أهل العلم أنّ معنى ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]: أنّهنّ يسترن بها جميع وجوههنّ. ولا يظهر منهنّ شيء إلّا عين واحدة تبصر بها»[3].

---

(١) سنن التِّرمذي، بلفظه في: كتاب الرِّضاع: (٩)، باب: (١٨)، برقم: (١١٧٣). عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صحيح»، ص: ٢٠٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان، بلفظ مقارب مع زيادة فيه، في: باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرأة من لزوم قعر بيتها، وله عنده طريقان: الأوّل برقم: (٥٥٩٨)، والثّاني برقم: (٥٥٩٩). قال شعيب الأرناؤوط: عن الأوّل: «رجاله ثقات رجال الصَّحيح لكنَّه منقطع. وعن الثّاني: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ١٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٤٣.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشّيخ محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشّنقيطي، الطَّبعة الثّانية، ١٤٠٠ ـ ١٩٧٩م، طبعة: ابن لادن: ٦/ ٥٨٦. =

٣ ـ حرّم عليهنّ الخلوة بالأجانب، والسّفر إلّا مع ذي محرم.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: سمعت النّبي ﷺ يخطب يقول: «لا يخلونّ رجل بامرأة إلّا ومعها ذو محرم. ولا تسافر المرأة إلّا مع ذي محرم»، فقام رجل فقال: يا رسول الله إنّ امرأتي خرجت حاجّة، وإنّي اكْتُتِبْتُ في غزوة كذا وكذا قال: «انطلق فحجّ مع امرأتك»[1].

وعن جابر رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلونّ بامرأة ليس معها ذو محرم منها، فإنّ ثالثهما الشّيطان»[2].

= والأدلّة على وجوب الحجاب وستر جميع الجسد بما فيه الوجه والكفّان كثيرة جداً، أورد الشّيخ صالح بن إبراهيم البليهي اثنين وأربعين دليلاً، منها أربع آيات وثلاثون حديثاً والبقية من الآثار.

انظر: يا فتاة الإسلام اقرئي حتّى لا تخدعي، دار المسلم، الرّياض، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ص:١٧٩ ـ ٢٥٣.

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الحجّ: (٢٨/٨)، باب حجّ النّساء: (٢٦/١٠٨)، برقم: (١٨٦٢)، ص: ٣٨٨. وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجّة وكان له عذر هل يؤذن له: (١٤٠/١٣٩)، برقم: (٣٠٠٦)، ص:٦٣٢، وفي باب كتابة الإمام للنّاس: (١٨١/ ١٨٠)، برقم: (٣٠٦١)، ص:٦٤٥. وفي كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١)، باب لا يخلون رجل بامرأة إلّا وذو محرم، والدّخول على المغيبة: (١١١/ ١١٢)، برقم: (٥٢٣٣)، ص:١١٥٠.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الحجّ: (١٥)، باب سفر المرأة مع محرم إلى حجّ وغيره: (٧٤)، برقم: (١٣٤١)، ٢/ ٩٧٨.

(٢) مسند أحمد، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: ٣/ ٣٣٩، وأصله مروي عن جماعة. انظر:

سنن التّرمذي، كتاب الأدب: (٤٠)، باب ما جاء في دخول الحمام: (٤٣)، برقم: (٢٨٠١) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاووس عن جابر إلّا من هذا الوجه. وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٤٤٩.

سنن النّسائي، لأبي عبد الرّحمٰن أحمد بن شعيب النّسائي، طبعة: بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، كتاب الغسل والتيمّم: (٤)، باب الرّخصة في دخول الحمام: (٢)، برقم: (٤٠١). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٥٨.

مستدرك الحاكم: ٤/ ٣٢٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم». =

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم والدّخول على النّساء»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحَمُو[1]؟ قال: «الحمو الموت»[2].

٤ ـ حرّم عليهنّ الاختلاط بالرّجال.

عن أبي أُسَيْد الأنصاري رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد. فاختلط الرّجال مع النّساء في الطّريق. فقال رسول الله ﷺ للنّساء: «استَأخِرْنَ فإنّه ليس لكنّ أن تحْقُقْنَ الطّريق، عليكنّ بحافّات الطّريق». فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتّى إنّ ثوبها ليتعلّق بالجدار من لصوقها به[3].

= وله شاهد من حديث عمر رضي الله عنه، في:

سنن التّرمذي: كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء في لزوم الجماعة: (٧)، برقم: (٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه... وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النّبي ﷺ». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦٠.

مسند أحمد: ١/ ١٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد، بتحقيق: أحمد شاكر: ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، برقم: (١١٤).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، برقم (٤٥٧٦). قال شعيب الأرناؤوط عن رجاله: «ثقات من رجال الصّحيح»: ١٠/ ٤٣٦، وبرقم: (٦٧٢٨)، قال: «صحيح»: ١٥/ ١٢٢. وبرقم: (٧٢٥٤)، قال: «إسناده صحيح على شرط الشّيخين»: ١٦/ ٢٣٩.

(١) الحَمُو: أحد الأحماء وهم أقارب الزّوج، والمعنى أنّ خلوّ الحمو بالمرأة كوقوع الموت، لما يترتّب على ذلك من الفساد، فيجب الحذر منه.

انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤. غريب الحديث للخطّابي: ٢/ ٧١. الفائق: ١/ ٣١٨. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٤٨.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١)، باب لا يخلونّ رجل بامرأة إلّا ذو محرم، والدّخول على المغيبة: (١١١/ ١١٢)، برقم: (٥٢٣٢)، ص: ١١٤٩.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب السّلام: (٣٩)، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدّخول عليها: (٨)، برقم: (٢١٧٢): ٤/ ١٧١١.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الأدب: (٤٠)، باب في مشي النّساء مع الرّجال في الطّريق: (١٦٧ ـ ١٦٨)، برقم: (٥٢٧٢). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٥٦٥.

قال أبو داود في سننه:

«باب في اعتزال النّساء في المساجد عن الرّجال».

ثمّ ساق بسنده حديث ابن عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تركنا هذا الباب للنّساء».

قال نافع ﵀[1]:

فلم يدخل منه ابن عمر حتّى مات»[2].

ثمّ قال في سننه: «باب انصراف النّساء قبل الرّجال من الصّلاة».

ثمّ ساق بسنده حديث أمّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلّم مكث قليلاً.

وكانوا يرون أنّ ذلك كيما ينفذ النّساء قبل الرّجال»[3].

---

(١) هو نافع مولى ابن عمر ﵄ أبو عبد الله المدني، قيل: اسم أبيه هرمز، وقيل: كاوس، من أئمّة التّابعين في المدينة، إمام في العلم، ثقة ثبت في الحديث.
قال الإمام مالك بن أنس ﵀: «كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي أن أسمع من غيره»، مات سنة ١١٧هـ أو بعدها.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٨/ ٨٤. معرفة الثّقات: ٢/ ٣١٠. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٤٦٧. تهذيب الكمال: ٢٩/٢٩٨. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٩٩. الكاشف: ٢/ ٣١٥. تهذيب التّهذيب: ١٠/ ٣٦٨. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٥٩.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٢)، باب في اعتزال النّساء في المساجد عن الرّجال: (١٧)، برقم: (٤٦٢). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ٧٤، وفي باب التّشديد في ذلك ـ أي خروج النّساء إلى المسجد: (٥٣)، برقم: (٥٧١). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ٨٥.
مسند أبي داود الطّيالسي: ولفظه: عن ابن عمر ﵄، أنّ رسول الله ﷺ لمّا بنى المسجد جعل باباً للنّساء وقال: «لا يلجنّ من هذا الباب من الرّجال أحد».
قال نافع: «فما رأيت ابن عمر داخلاً من ذلك الباب ولا خارجاً منه»، برقم: (١٨٢٩)، ص: ٢٥١، وهو أقوى في الدّلالة لاشتماله على النّهي الصّريح.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٢)، باب انصراف النّساء قبل الرّجال من الصّلاة: (١٩٦ ـ ١٩٧) برقم: (١٠٤٠)، قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ١٣٠.
والحديث في: صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة (الأذان): (١٠/ ٥)، باب التّسليم: (١٥٢/ ٣٠٣)، برقم: (٨٣٧)، ص: ١٨٣، وفي باب مكث الإمام=

والمرأة كلّما تباعدت عن الرّجال فهو خير لها. لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: «خير صفوف الرّجال أوّلها وشرّها آخرها، وخير صفوف النّساء آخرها وشرّها أوّلها»[1].

قال الإمام النّووي ﷺ:

«وإنّما فضّل آخر صفوف النّساء الحاضرات مع الرّجال لبعدهنّ من مخالطة الرّجال ورؤيتهم، وتعلّق القلب بهم عند رؤية حركاتهم، وسماع كلامهم، ونحو ذلك. وذمّ أوّل صفوفهنّ لعكس، والله أعلم»[2].

لقد شرع الإسلام هذه الأحكام للحفاظ على النّساء، وصيانتهنّ من أن يَفْتِنّ أو يُفْتَنّ. فأقرهنّ في البيوت ليقمن بوظائفهنّ الأساسيّة من تدبير المنزل، وتربية الأطفال، لينشئن مجتمعاً صالحاً خالياً من الانحلال والتّفكك. ولا يخرجن إلّا لضرورة أو حاجة تستدعي خروجهنّ. وإذا خرجن خرجن محتجبات محتشمات بعيدات عن السّفور والتّبرّج والتّهتّك، لا يزاحمن الرّجال ولا يختلطن معهم.

ولكنّ النّساء لم يلتفتن إلى هذه الأحكام ـ إلّا من رحم الله ـ وخاصّة في هذا العصر. فقد خرجن لابسات من الثّياب ما رقَّ وشفَّ، باديات لوجوههنّ بل وشعورهنّ وأعناقهنّ وأرجلهنّ بل وسوقهن. ووضعن الأصباغ والمساحيق

= في مصلاه بعد السّلام: (٣٠٨/١٥٧)، برقم: (٨٤٩)، وبرقم: (٨٥٠)، ص:١٨٥ ـ ١٨٦، وفي باب صلاة النّساء خلف الرّجال: (٣١٥/١٦٤)، برقم: (٨٧٠)، ص:١٨٩ ـ ١٩٠، ونحوه في: باب انتظار النّاس قيام الإمام العالم: (٣١٤/١٦٣)، برقم: (٨٦٦)، ص:١٨٩.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤)، باب تسوية الصّفوف وإقامتها، وفضل الأوّل فالأوّل منها، والازدحام على الصّف الأوّل، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام: (٢٨)، برقم: (٤٤٠)، ٣٢٦/١.
والمراد بالحديث صفوف النّساء اللّواتي يصلّين مع الرّجال، وأمّا إذا صلّين متميّزات، بعيدات عن الرّجال فهنّ كالرّجال، خير صفوفهنّ أوّلها وشرّها آخرها. شرح النّووي على مسلم: ١٥٩/٤.

(٢) المرجع السّابق: ١٥٩/٤ ـ ١٦٠. وانظر: يا فتاة الإسلام اقرئي، ص:٨٧.

على وجوههنّ وأكفهنّ إثارة للفتنة، وأعلين من شعور رؤسهنّ إلغاء للفضيلة، ودعوة للرّذيلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النّار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النّاس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤسهنّ كأسنمة البُخْت[1] المائلة، لا يدخلن الجنّة، ولا يجدن ريحها، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[2].

فهنّ كاسيات في الاسم عاريات في الحقيقة، لأنّهنّ يلبسن ثياباً رقيقة تشفّ عمّا تحتها، أو ثياباً قصيرة لا تستر معظم جسدها. يمشين مائلات متبخترات كمشية البغايا اللائي يردن إغواء الرّجال. يرفعن شعورهنّ ويكوّرنها إلى أعلى فتشبه أسنمة البخت المائلة[3]. إنّه وصف دقيق لنساء هذا الزّمن.

وقد زاحمن الرّجال في ميادين عملهم، واقتحمن مجالات أعمالٍ لم يخلقن لها، وخالطنهم في المدرسة والجامعة والمصنع والمكتب والشّارع.

قال ابن القيم رحمه الله:

«ولا ريب أنّ تمكين النّساء من اختلاطهنّ بالرّجال أصل كلّ بليّة وشرّ،

---

(١) قال ابن منظور رحمه الله:
«البُخْت والبُخْتيَّة: دَخِيل في العربيّة، أعجمي مُعَرَّبٌ، وهي الإبل الخُراسانِيَّة، تُنْتَجُ من بين عربيةٍ وفالِجٍ ـ جمل ضخم ذو سنامين ـ؛ وبعضهم يقول: إنّ البُخْتَ عَرَبي... وهي جمالٌ طوالُ الأَعْناق، ويُجْمَع على بُختٍ وَبَخاتٍ؛ وقيل: الجمع بَخاتيُّ، غير مصروف». لسان العرب: ٢/ ٩.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب اللِّباس والزّينة: (٣٧)، باب النِّساء الكاسيات العاريات المميلات المائلات: (٣٤)، برقم: (٢١٢٨)، ٣/ ١٦٨٠، وفي كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب النّار يدخلها الجبّارون والجنّة يدخلها الضّعفاء: (١٣)، برقم: (٢١٢٨)، ٤/ ٢١٩٢ ـ ٢١٩٣.

(٣) انظر: إتحاف أهل الإيمان بما يعصم من فتن هذا الزّمان، لعبد الله بن جار الله ـ مطابع ابن تيمية بالقاهرة ـ نشر: دار الصّميعي، ص:٤٦، ولبيان معنى الحديث انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٤/ ١١٠، ١٧/ ١٩٠ ـ ١٩١. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٣١٠.

وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامّة، كما أنّه من أسباب فساد أمور العامّة والخاصّة.

واختلاط الرّجال بالنّساء سبب لكثرة الفواحش والزّنا، وهو من أسباب الموت العام والطّواعين المتّصلة... فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزّنا بسبب تمكين النّساء من اختلاطهنّ بالرّجال، والمشي بينهم متبرّجات متجمّلات. ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدّنيا والرّعيّة ـ قبل الدّين ـ لكانوا أشدّ شيء منعاً لذلك»(١).

بل سلكن من السّبل المحرّمة ما يعجز الإنسان عن وصفه. فمنهنّ المذيعة الّتي أبدت مفاتنها من خلال شاشة التّلفاز ليراها القاصي والداني. ومنهنّ الممثّلة الّتي تجوب دور السّينما والمسرح ذاهبة وآيبة. ومنهنّ الرّاقصة الّتي تتمايل أمام الأعين الشّرهة. ومنهنّ المغنيّة الّتي تفسد بصوتها القلوب. بل ومنهنّ عارضة الأزياء الّتي ملئت بصورها العارية المجلات الخليعة.

بل أصبحت المرأة سلعة يستخدمها أصحاب المؤسّسات والدّعايات ترويجاً لتجاراتهم وبضاعاتهم مقابل أجر زهيد يقدّم لها.

فقد انحطّت المرأة من منزلتها الّتي وضعها الله فيها عزيزة مكرّمة، مصونة مطهّرة، وأعطيت من الحقوق ما لا يمكن حصرها ولا تعدادها، ولا توجد في أرقى قوانين الأمم المتمدّنة. ولكنّها أبت كلّ ذلك بدعوى التّحرّر، وتحطيم القيود، وهضم الحقوق الّتي يلهج بها دعاة الشّر والمجون. فعادت سلعة رخيصة كلفت من العمل ما لا تُطيق، مماثلة للمرأة الكافرة في ديار الغرب، بل رجعت إلى الوراء أيّام محنتها واحتقارها في عصور الجاهليّة المظلمة.

فالفتنة بالنّساء عظيمة، والشّر بهنّ جسيم.

---

(١) الطّرق الحكمية في السّياسة الشّرعيّة، لمحمّد بن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة، مطبعة: المدني، القاهرة، تحقيق: محمّد جميل غازي، ص:٤٠٧ ـ ٤٠٨.

المطلب الثّاني

فتنة المال

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يقول تعالى ذكره للمؤمنين: واعلموا أيّها المؤمنون أنّما أموالكم الّتي خوّلكموها الله، وأولادكم الّتي وهبها الله لكم اختبار وبلاء، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حقّ الله عليكم فيها، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ يقول: «واعلموا أنّ الله عنده خير وثواب عظيم على طاعتكم إيّاه فيما أمركم ونهاكم في أموالكم وأولادكم الّتي اختبركم بها في الدّنيا. وأطيعوا الله فيما كلّفكم فيها تنالوا به الجزيل من ثوّابه في معادكم».

ثمّ روى عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: «ما منكم من أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلاّت الفتن»[1].

لقد بيّن الله سبحانه أنّ المال والأولاد فتنة يختبر بهما الإنسان، ويبتلى بهما. فإمّا أن يعمل فيهما بطاعة الله فيسلم، وإمّا أن يعمل فيهما بمعصية الله فيهلك.

والمال أشدّ فتنة وأعظم، خاصة على هذه الأمّة. ولذلك قال

---

(١) جامع البيان: ١٣/٤٨٦ ـ ٤٨٧، طبعة: شاكر: ٢٨/١٢٦، طبعة: الحلبي. وانظر في معنى الآيتين: الكشّاف: ٢/١٢٣، طبعة: المكتبة التّجاريّة. التّفسير الكبير: ٣٠/٢٧. محاسن التّأويل: ٨/ ٢٩٨٠، ١٦/ ٥٨٢٥.

رسول الله ﷺ في حديث كعب بن عياض رضي الله عنه: «إنّ لكل أمّة فتنة، وفتنة أمّتي المال»[1].

أي اللّهو به، لأنّه يشغل الباب عن القيام بالطّاعة وينسي الآخرة[2].

وحذّر من فتنته أصحابه رضي الله عنهم أيّما تحذير. فقال في حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّي أخشى عليكم أن تُبْسَط الدّنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فَتَنَافَسُوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[3].

وقال في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إذا فتحت عليكم فارس والرّوم أيُّ قوم أنتم»؟ قال عبد الرحمٰن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك، تتنافسون، ثمّ تتحاسدون، ثمّ تتدابرون، ثمّ تتباغضون ـ أو نحو ذلك ـ ثمّ تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»[4].

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء أنّ فتنة هذه الأمّة في المال: (٢٦)، برقم: (٢٣٣٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٨٥. وهو في السّلسلة الصّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م: ٢/ ١٤١، برقم: (٥٩٢).
مسند أحمد، بلفظه ـ إلا أنّه قال: «وإن فتنة أمّتي» ـ في: ٤/ ١٦٠.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر تخوّف المصطفى ﷺ على أمّته من التّكاثر في الأموال والتّعمّد في الأقوال، برقم: (٣٢٢٣). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي»: ٨/ ١٧.
مستدرك الحاكم، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «وإنّ فتنة أمّتي» ـ في: ٤/ ٣٥٤، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».

(٢) تحفة الأحوذي: ٦/ ٥١٨.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة: (٥٨/ ٣٤)، باب وما جاء في أخذ الجزية من اليهود والنّصارى والمجوس والعجم، برقم: (٣١٥٨)، ص:٦٦٧.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، برقم: (٢٩٦١)، ٤/ ٢٢٧٤ (وهو جزء من حديث).

(٤) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، برقم: (٢٩٦٢)، ٤/ ٢٢٧٥.

فقد أبان ﷺ أنّ فتنة المال تولّد الشّقاق والخصام بين النّاس، فيتقاطعون من أجله، ويتحاسدون، ويتباغضون، بل ويتقاتلون، ومن أجله يهلكون.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها، أمثال الأسطوان من الذّهب والفضّة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السّارق فيقول: في هذا قطعت يدي. ثمّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[1]. وفي رواية: «وتقي الأرض أفلاذ كبدها من الذّهب والفضّة، ولا ينتفع بها بعد ذلك اليوم. يمرُّ بها الرّجل فيضربها برجله، ويقول: في هذه كان يقتتل من كان قبلنا، وأصبحت اليوم لا ينتفع بها»[2].

والنّفس البشريّة مجبولة على حبّ المال، والسّعي في طلبه بكلّ وجه. وأنّها لا تشبع منه، إلّا من عصمها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]، أي كثيراً فاحشاً[3]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨]. والخير هو المال[4].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً. ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التّراب، ويتوب الله على من تاب»[5]. وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم وتَشِبّ منه

---

(١) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب التّرغيب في الصّدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها: (١٨)، برقم: (١٠١٣)، ٢/ ٧٠١.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه ـ وهو جزء من حديث ـ في باب ذكر الإخبار عن وصف الرّيح الّتي تجيء تقبض أرواح النّاس في آخر الزّمان، برقم: (٦٨٥٣)، ١٥/ ٢٦٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٨٠٥.

(٤) انظر: المرجع السّابق: ٤/ ٨٦١. والكنود هو الكَفور الجحود. انظر: المرجع السّابق: ٤/ ٨٦٠.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «لابتغى ثالثاً» ـ في: كتاب الرّقاق: =

اثنتان: الحرص على المال والحرص على العمر»[1].

والمال لا يمدح نيله بإطلاق، كما لا يذمّ بإطلاق. فمن أخذه بوجه طيّب حلال لا ظلم فيه ولا عدوان، وناله بطريق مشروع بعيداً عن الحرام، ولم يغتر به ويبالغ في استقصائه ونيله، وصرفه في أوجهه المشروعة، وأعطى حقّ الله فيه، واستعان به على ما ينفعه في دنياه وآخرته، ولم يشغله عن طاعة الله والقيام بأمور دينه. وكان كما قال الله تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

وتوسّل به إلى فعل القربات، وأعان به المحتاجين، ولم يسرف في إنفاقه ولم يقتر، وإنّما كان عدلاً وسطاً، كما قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

= (٨١/ ٥٥)، باب ما يتّقى من فتنة المال: (١٠)، برقم: (٦٤٣٦)، ص: ١٣٧٠. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ونحوه عنه برقم: (٦٤٣٧)، ص: ١٣٧١.
صحيح مسلم، بلفظه عن أنس رضي الله عنه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب لو أنّ لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً: (٣٩)، برقم: (١٠٤٨)، ٢/ ٧٢٥، ونحوه عنه بالرقم السّابق. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، برقم: (١٠٤٩).

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]: (٥)، برقم: (٦٤٢٠)، ص: ١٣٦٨. وبمعناه عن أبي هريرة رضي الله عنه بنفس الرّقم والصّفحة.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة (١٢)، باب كراهة الحرص على الدّنيا: (٣٨)، برقم: (١٠٤٧)، ٢/ ٧٢٤، ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (١٠٤٦).

فهذا الصنف من النّاس الّذين لم يفتنهم المال، ولو ملكوا منه ما ملكوا.

وفي حديث أبي ذر ﷺ أنّ ناساً من أصحاب النّبي ﷺ قالوا للنّبي ﷺ: «يا رسول الله ذهب أهل الدّثور[1] بالأجور، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم...» الحديث[2].

فقد غبط الصّحابة إخوانهم أصحاب الأموال لمّا رأوا ما يقومون به من طاعة الله في أموالهم، الّتي لم تلفتهم كثرتها عن اتّباع أمر الله فيها.

بل دعا رسول الله ﷺ لأنس بن مالك ﷺ بأن يكثّر الله ماله وولده[3]. فلو كان التّكثير من ذلك شرًّا محضاً لما دعا له.

قال أنس ﷺ: فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلّا دعا لي به، قال: «اللّهم

---

(١) الدّثور: جمع دَثْر وهو المال الكثير. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ٤٦٠. الفائق: ١/ ٤١١. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٠٠.

(٢) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الصّلاة (الأذان): (١٠/ ٥)، باب الذّكر بعد الصّلاة: (١٥٥/ ٣٠٦)، برقم: (٨٤٣)، ص: ١٨٤، وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب الدّعاء بعد الصّلاة: (١٨)، برقم: (٦٣٢٩)، ص: ١٣٥٠ ـ ١٣٥١. عن أبي هريرة ﷺ، وهو جزء من حديث.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب بيان إنّ اسم الصّدقة يقع على كلّ نوع من المعروف: (١٦)، برقم: (١٠٠٦)، ٢/ ٦٩٧، ونحوه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب استحباب الذّكر بعد الصّلاة وبيان صفته: (٢٦)، برقم: (٥٩٥)، ١/ ٤١٦، وفي: ١/ ٤١٧. عن أبي هريرة ﷺ، وهو جزء من حديث.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصّوم: (٣٠/ ٩)، باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم: (٦١)، برقم: (١٩٨٢)، ص: ٤١٣ ـ ٤١٤، وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التّوبة: ١٠٣]، ومن خصّ أخاه بالدّعاء دون نفسه: (١٩)، برقم: ٦٣٣٤)، ص: (١٣٥٢)، وفي باب دعوة النّبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله: (٢٦)، برقم: (٦٣٤٤)، ص: ١٣٥٣، وفي باب الدّعاء بكثرة المال مع البركة: (٤٧)، برقم: (٦٣٧٨) (٦٣٨٠) (٦٣٨١)، ص: ١٣٥٩ ـ ١٣٦٠.
صحيح مسلم في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب جواز الجماعة في النّافلة، والصّلاة على حصير وحمرة وثوب وغيرها من الطّاهرات: (٤٨)، برقم: (٦٦٠)، ١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨، وفي كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب فضائل أنس بن مالك ﷺ: (٣٢)، برقم: (٢٤٨٠) (٢٤٨١)، ٤/ ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩.

ارزقه مالاً وولداً، وبارك له فيه»، فإنّي لمن أكثر الأنصار مالاً. وحدثتني ابنتي أُمَيْنَة[1] أنّه دفن لصلبي مقدم الحجّاج[2] البصرة بضع وعشرون ومائة»[3].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي هذا الحديث. . . الدّعاء بكثرة المال والولد، وأنّ ذلك لا ينافي الخير الأخروي، وأنّ فضل التّقلّل من الدّنيا يختلف باختلاف الأشخاص»[4].

ولا شك أنّ المقتصد الّذي يأخذ من المال بقدر حاجته، وما يسدّ به الرّمق ممدوح على لسان النّبي ﷺ.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورُزِق كَفَافاً[5]، وقنَّعه الله بما آتاه»[6].

قال الإمام النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الكفاف الكفاية بلا زيادة ولا نقص، وفيه فضيلة هذه الأوصاف. وقد يحتجّ به لمذهب من يقول الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى»[7].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهم اجعل رزق آل محمّد قوتاً»[8]. والقوت ما يسدّ به الرّمق. وفي الحديث فضل التّقلّل من

---

(١) أُمَيْنَة: هي بنت أنس بن مالك الأنصاريّة، روى عنها أبوها، مقبولة الحديث.
انظر: تهذيب الكمال: ٣٥/ ١٣٢. الكاشف: ٢/٥٠٣. تهذيب التّهذيب: ١٢/ ٤٣٠. تقريب التّهذيب: ١/ ٧٤٣.

(٢) الحجّاج: هو ابن يوسف الثّقفي. سبقت ترجمته. انظر: ص:٩٦.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه ـ مع زيادة في أوّله ـ في كتاب الصّوم: (٣٠/٩)، باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم: (٦١)، برقم: (١٩٨٢)، ص:٤١٣ ـ ٤١٤.

(٤) فتح الباري: ٤/ ٧٥٢.

(٥) الكَفَاف: هو الّذي لا يَفْضُل عن الشّيء ويكون بقَدْرِ الحاجَة إليه. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٩١. وانظر: الفائق: ٣/ ٢٧٢.

(٦) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب في الكفاف والقناعة: (٤٣)، برقم: (١٠٥٤)، ٢/ ٧٣٠.

(٧) شرح النّووي على مسلم: ٧/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٨) انظر: المرجع السّابق: ٧/١٤٦. والحديث في: صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب كيف كان عيش النّبي ﷺ وأصحابه وتخلّيهم من=

الدّنيا، والاقتصار منها على ما يكفي الحاجة، والدّعاء بذلك[1].

وإن كان الخلاف دائراً بين العلماء أيّهما أفضل الغنى أم الكفاف؟ وهو ما ألمح إليه الإمام النّووي رَحِمَهُ اللهُ في قوله السّابق. إلّا أنّ الأمر يختلف من شخص إلى شخص ومن حال إلى حال، وذلك ما أشار إليه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ.

ولعلّ السّر في مدح الكفاف ما جاء بيانه في حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ النّبي ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلّة المال، وقلّة المال أقلّ للحساب»[2].

وما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد مالي، مالي، إنّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطي فاقْتَنَى[3]. وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للنّاس»[4].

فلا يحاسب الإنسان إلّا بما ملك. ولا ينتفع إلّا بما أكل، أو لبس، أو تصدّق.

والّذي يذم المال في حقّه فهو الّذي أخذه من غير وجه صحيح، ولم

= الدّنيا: (١٧)، برقم: (٦٤٦٠)، ص: ١٣٧٥.
وفي صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب في الكفاف والقناعة: (٤٣)، برقم: (١٠٥٥)، ٢/ ٧٣٠، وفي كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، بالرّقم السّابق: ٤/ ٢٢٨١.

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٧/ ١٤٦.

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٤٢٧.
قال الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ: «رجاله رجال الصحيح». مجمع الزّوائد: ٢/ ٣٢١. وانظر: ١٠/ ٢٥٧.
وقال المنذري رَحِمَهُ اللهُ: «رواه أحمد بإسنادين، رواة أحدهما محتجّ بهما في الصّحيح».
التّرغيب والتّرهيب، لأبي محمّد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ: ٤/ ٧٣.

(٣) قال النّووي رَحِمَهُ اللهُ: «أو أعطى فاقتنى»: هكذا هو في معظم النّسخ، ولمعظم الرّواة «فاقتنى» بالتّاء، ومعناها: ادّخره لآخرته، أي: ادّخر ثوابه. وفي بعضها: «فأقنى» بحذف التّاء، أي: أرضى». شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٩٤ ـ ٩٥.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، برقم: (٢٩٥٩)، ٤/ ٢٢٧٣.

يعمل بحقّ الله فيه، وصرفه في غير حقّه، فهو لا يبالي أمن حلال أخذ أم من حرام؟ بل الحلال عنده ما ملكه بيده وحازه، والحرام ما منع ولم يستطع الوصول إليه. وهو قد يسلك في كسبه أي طريق أتيح له، ويستخدم كلّ وسيلة تمكّنه من الحصول عليه، كالغشّ والخداع والمكر والكذب والجحود. ولا يعبأ إن كان ذلك مال رباً، أو مال أيتام، أو مغصوب، أو سرقة، أو جاء إليه عن طريق الرّشوة[1]، أو غلّه[2] من المال العام.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّها النّاس إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً. وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثمّ ذكر الرّجل يطيل السّفر، أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السّماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟»[3].

وهو مع ذلك شديد الطّمع، كثير الحرص، شره النّفس، لا يهمّه إلّا جمع المال وتكديسه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عبد الدّينار والدّرهم والقَطِيفَة[4] والخَمِيصَة[5]، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»[6].

---

(١) الرِّشوة: هي ما يعطى لإبطال حقّ، أو لإحقاق باطل. التّعريفات، ص:١٤٨. التّعاريف: ١/ ٣٦٥.

(٢) غلَّ: من الغُلُول وهو الخيانة. انظر: مختار الصّحاح، ص:٤٧٩. القاموس المحيط، ص١٣٤٣.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب وتربيتها: (١٩)، برقم: (١٠١٥)، ٢/ ٧٠٣.

(٤) القطيفة: كساء له خَمْل. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٨٤.

(٥) الخميصة: وهي ثَوْب خَزّ أو صُوف مُعْلَم، وقيل: لا تُسَمَّى خَمِيصةً إلا أن تكون سَوْدَاء مُعْلَمة، وكانت من لِبَاس النّاس قدِيماً، وجَمْعُها الخمَائِصُ. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٨١. وانظر: الفائق: ٢/ ١٦٧.

(٦) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب الحراسة في الغزو=

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قوله: «عبد الدّينار»، أي طالبه وخادمه والحريص على جمعه والقائم على حفظه فكأنّه لذلك عبده».

ونقل عن الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ **أنّه قال:**

«خصّ العبد بالذّكر ليؤذن بانغماسه في محبّة الدّنيا وشهواتها، كالأسير الّذي لا يجد خلاصاً»[1].

وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النّبي ﷺ فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ قال: «إنّ هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالّذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السّفلى»[2].

فوصفه بأنّه «خضرة حلوة» للرّغبة فيه والميل إليه، وحرص النّفوس عليه. وإشراف النّفس: تطلّعها إليه، وتعرّضها له، وطمعها فيه[3].

= في سبيل الله: (٧٠/ ٦٩)، برقم: (٢٨٨٦)، ص:٦٠٨، ثمّ أردف ذلك برواية مقاربة مع زيادة فيها في نفس الموضع، برقم: (٢٨٨٧)، ص:٦٠٨ - ٦٠٩، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب ما يتّقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]: (١٠)، برقم: (٦٤٣٥)، ص:١٣٧٠.

(١) عمدة القاري: ٢٣/ ٤٥.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧)، باب الاستعفاف عن المسألة: (٥٠)، برقم: (١٤٧٢)، ص:٣١١ - ٣١٢، وفي كتاب الوصايا: (٥٥/ ٣١)، باب قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النّساء: ١٢]: (٩)، برقم: (٢٧٥٠)، ص:٥٧٩، وفي كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣)، باب ما كان النّبي ﷺ يعطي المؤلّفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه: (١٩)، برقم: (٣١٤٣)، ص:٦٦٣ - ٦٦٤، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب قول النّبيّ ﷺ: «هذا المال خضرة حلوة»: (١١)، برقم: (٦٤٤١)، ص:١٣٧١.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب بيان إنّ أفضل الصّدقة صدقة الصّحيح الشّحيح: (٣١)، برقم: (١٠٣٥)، ٢/ ٧١٧.

(٣) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٧/ ١٢٦.

وقد أخذ المال فكره، وشغل قلبه، وأصبح أكبر همّه لا يفارق باله، ولو كان في عبادة ربّه.

عن مالك رَحِمَهُ اللهُ عن عبد الله بن أبي بكر[1] أنّ رجلاً من الأنصار كان يصلّي في حائط له بالقُف[2] ـ واد من أودية المدينة ـ في زمان الثّمر، والنّخل قد ذلّلت فهي مطوّقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها، ثمّ رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلّى؟ فقال: «لقد أصابتني في مالي هذا فتنة». فجاء عثمان بن عفّان، وهو يومئذ خليفة، فذكر له ذلك وقال: هو صدقة فاجعله في سبل الخير، فباعه عثمان بن عفّان بخمسين ألفاً، فسمّى ذلك المال الخمسين»[3].

فهذا لمّا شغله المال وفتنه عن عبادة ربّه في حادثة واحدة قدّمه كلّه لله. فكيف بمن كان المال لا يفارق مخيلته كأنّه خلق من أجله. وما جمعه من مال إنّما جمعه للذّات الدّنيا وشهواتها، مشابهاً حال الكفار في قول الله تعالى لهم:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

فكما كسبه بغير وجه شرعي، أنفقه في غير وجه شرعي. فلم ينفقه على مسكين ولا يتيم ولا محتاج، ولا على من لزمه الإنفاق عليه، وإن فعل فإنّما فعل رياء ومنًّا. وقد حجب حقّ الله تعالى فيه، فلم تطرق باب ماله زكاة، ولا تمرّ بخلده صدقة. بخيل في أوجه الخير، مبذّر مسرف في أوجه الشّر. إكثاره منه قلّة، ووجوده عنده استدراج.

---

(١) هو عبد الله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم أبو محمّد ويقال: أبو بكر الأنصاري المدني القاضي، تابعي ثقة، من سادات النّاس وفقهائهم، مات سنة ١٣٥هـ.

انظر: التّاريخ الكبير: ٥/ ٥٤. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٣. الجرح والتّعديل: ٥/ ١٧. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٦، ٧/ ١٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٨. تهذيب الكمال: ١٤/ ٣٤٩. تهذيب التّهذيب: ٥/ ١٤٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٩٧.

(٢) القف: علم لواد من أودية المدينة عليه مال لأهلها. معجم البلدان: ٤/ ٣٨٣.

(٣) الموطأ، للإمام مالك بن أنس، مطبعة: دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، تصحيح وترقيم: محمّد فؤاد عبد الباقي: كتاب الصّلاة: (٣)، باب النّظر في الصّلاة إلى ما يشغله عنها: (١٨)، برقم: (٧٠)، ١/ ٩٩. وهنالك رواية عن أبي طلحة رضي الله عنه منقطعة: ١/ ٩٨.

عن أبي ذرّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ المكثرين هم المقلّون يوم القيامة، إلّا من أعطاه الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله[1]، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً»[2].

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله:

«يعني أيظن هؤلاء المغرورون أنّ ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزّتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]. لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنّما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء»[3].

فهذا الّذي ذُمّ المال في حقّه، وهو الّذي فتن بالمال. فالمال له فتنة وليس بنعمة.

ولقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً مبيّناً فيه حال المفرط في جمع المال، المانع من حقّه، المفتتن به، وحال المقتصد المنتفع به.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدّنيا»، قالوا: وما زهرة الدّنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»، قالوا: يا رسول الله وهل يأتي الخير بالشّرّ؟ قال: «لا يأتي الخير إلّا بالخير، لا يأتي الخير إلّا بالخير، لا يأتي الخير إلّا بالخير. إنّ

---

(١) قال ابن الأثير رحمه الله: «نفح فيه يمينه وشماله: أي ضرب يديه فيه بالعطاء. النّفح: الضّرب والرّمي». النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٨٩.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه ـ وهو جزء من حديث ـ في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب المكثرون هم المقلّون: (١٣)، برقم: (٦٤٤٣)، ص: ١٣٧٢، وبلفظ مقارب في: باب قول النّبي ﷺ: «ما أحبّ أنّ لي مثل أحد ذهباً»: (١٤)، برقم: (٦٤٤٤)، ص: ١٣٧٢ ـ ١٣٧٣. صحيح مسلم، بلفظه ـ وهو جزء من حديث ـ في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب التّرغيب في الصّدقة: (٩)، برقم: (٩٤)، ٢/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٩٦.

كلّ ما أنبت الرّبيع يقتل أو يُلِمُّ، إلا آكِلَة الخَضِر، فإنّها تأكل حتّى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت الشّمس، ثمّ اجْتَرَّتْ وبالت وثَلَطت، ثمّ عادت فأكلت. إنّ هذا المال خَضِرة حُلْوة، فمن أخذه بحقّه، ووضعه في حقّه، فنعم المَعُونة هو، ومن أخذه بغير حقّه كان كالّذي يأكل ولا يشبع»[1].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧)، باب الصّدقة على اليتامى: (٤٧)، برقم: (١٤٦٥)، ص:٣١٠، وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب فضل النّفقة في سبيل الله: (٣٧)، برقم: (٢٨٤٢)، ص:٦٠٠، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧)، برقم: (٦٤٢٧)، ص:١٣٦٩.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب تخوّف ما يخرج من زهرة الدّنيا: (٤١)، برقم: (١٠٥٢)، ٢/ ٧٢٨، وبلفظ مقارب في: ٢/ ٧٢٧ ـ ٧٢٨.

قال ابن الأثير رحمه الله:

«هذا الحديث يحتاج إلى شَرْح ألْفاظه مُجْتمعةً فإنه إذا فُرّق لا يكاد يُفهم الغرض منه. الحبَط ـ هذه العبارة وردت في بعض رواياته ـ بالتّحريك الهلاك يقال: حَبِطَ يَحبَط حبطاً... ويُلِمّ: يَقْرُب أي يَدْنُو من الهلاك. والخضِرُ: بكسر الضّاد نوع من البُقول ليس من أحرارها وجَيّدها. وثَلط البعير يُثْلِط: إذا ألقى رَجيعه سَهْلاً رَقيقاً.

ضَرَب في هذا الحديث مَثَلين: أحَدُهما لِلْمُفْرط في جَمْع الدّنيا، والمَنْع من حقّها، والآخر للْمُقْتَصِدِ في أخْذِها والنَّفع بها. فقوله: «إنَّ ممَّا يُنْبِتُ الرّبيعُ ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمُّ»: فإنّه مَثَل للمُفرط الَّذي يَأْخُذ الدّنيا بغير حقها، وذلك أنّ الرّبيع يُنْبِتُ أحرار البُقول فَتَسْتَكْثِر الماشِية منه لاستطابها إيّاه، حتّى تَنْتَفِخَ بُطُونُها عند مُجَاوَزتِها حدّ الاحْتمالِ، فَتَنْشَقّ أمعاؤُها من ذلك فتهْلَك، أو تُقَارب الهلاك. وكذلك الَّذي يَجْمَع الدّنيا من غير حِلّها، ويَمْنَعُها مُسْتَحقّها قد تَعرّض للهلاك في الآخرة بدخول النّار، وفي الدّنيا بأذَى النّاس له، وحَسدهم إيَّاه، وغير ذلك من أنواع الأذَى. وأمّا قوله: «إلا آكلِة الخَضِر»: فإنّه مَثَلٌ للمُقْتَصِد، وذلك أنّ الخضر ليس من أحْرار البُقول وجَيّدِها الّتي يُنْبتُها الرّبيعُ بتوالي أمْطاره فتحْسُنُ، وتَنْعُمُ، ولكنّه من البُقول الّتي ترعاها المواشي بعد هَيْج البُقول ويُبسِها، حيث لا تَجِدُ سواها، وتُسمِّيها العَربُ الجَنَبة، فلا تَرى الماشِية تُكْثر من أكلها، ولا تَسْتَمْرِئها، فضرب آكِلة الخضر من المواشي مثلاً لمن يَقْتصد في أخْذِ الدّنيا وجَمْعها، ولا يَحْمله الحِرْصُ على أخْذها بغير حقّها، فهو بنَجْوةٍ من وبالها كما نَجتْ آكلة الخضر. =

فقد بين النّبي ﷺ أنّ نبات الرّبيع وخضره يقتل بالتّخمة إذا أكثر منه، أو يقرب أن يقتله. وأمّا المقتصر منه على ما تدعو إليه الحاجة فإنّه لا يضرّه، وهكذا المال فهو كنبات الرّبيع تشتاق إليه النّفوس وتميل إليه لحسنه. فمن أكثر منه، واستغرق في جمعه، ولم يصرفه في وجوهه، فهذا يهكله أو يقارب هلاكه؛ أمّا المقتصد الّذي أخذ يسيراً أو أخذ كثيراً ولكن فرّقه في وجوهه، فهذا لا يضرّه[1].

المطلب الثّالث

فتنة الأولاد

إنّ الله سبحانه جعل حبّ الأولاد فطرة في النّفس، جبلت عليه. وهو من الشّهوات الّتي تميل إليها، وترغب فيها. فقال سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

ولكن قد يصل الأمر بميل النّفس إليهم إلى الإلهاء بهم عن طاعة الله ﷻ، أو الإتيان بما يخلّ بتلك الطّاعة. أو الوقوع في المعصية وارتكاب الإثم من أجلهم. ولذا قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ

= ألا تراه قال: «أكَلَت، حتى إذا امتدّت خاصِرَتاها اسْتَقْبَلت عين الشّمس فَثَلَطت، وبالت». أراد أنّها إذا شَبِعَت منها برَكَت مُسْتَقْبِلةً عين الشّمس تَسْتَمْرِئُ بذلك ما أكلَتْ، وتَجْتَرُّ وَتَثْلِطُ، فإذا ثَلَطت فقد زال عنها الحَبَطُ، وإنّما تَحْبط الماشية لأنّها تَمتلئ بُطُونها ولا تَثْلِطُ، ولا تَبُول، فتَنْتَفِخُ أجْوَافها فَيُعْرِض لها المَرضُ فتَهْلِك. وأراد بزَهْرة الدّنيا: حُسْنَها وبَهْجَتَها. وببرَكات الأرضِ: نَماءَها، وما يخرج من نَبَاتِها». النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٠ ـ ٤١.

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٧/١٤٣.

فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨][1].

قال الإمام الرّازي رَحِمَهُ اللهُ:

«قال ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لا تطيعوهم في معصية الله تعالى». وفتنة: أي بلاء وشغل عن الآخرة... فإنّ الإنسان مفتون بولده لأنّه ربّما عصى الله تعالى بسببه، وباشر الفعل الحرام لأجله، كغصب مال الغير وغيره. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي جزيل، وهو الجنّة... والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم»[2].

عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان النّبي ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وعليهما قميصان أحمران، يعثران فيهما، فنزل النّبي ﷺ فقطع كلامه، فحملهما، ثمّ عاد إلى المنبر، ثمّ قال: «صدق الله: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيت هذين يعثران في قميصيهما، فلم أصبر حتّى قطعت كلامي فحملتهما»[3].

---

(١) انظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٠. (٢) التّفسير الكبير: ٣٠/ ٢٧.

(٣) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٢)، باب الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث: (٢٢٥ ـ ٢٢٧)، برقم: (١١٠٩). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:١٣٦.
سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٤٥)، باب مناقب (الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (٣٠)، برقم: (٣٧٧٤)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:٥٨٧ ـ ٥٨٨.
سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجمعة: (١٤)، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ورجوعه إليه يوم الجمعة: (٣٠)، برقم: (١٤١٣). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:١٦٦، وبلفظ مقارب في: كتاب صلاة العيدين: (١٩)، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة: (٢٧)، برقم: (١٥٨٥). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:١٨٧.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب اللّباس: (٣٢)، باب لبس الأحمر للرّجال: (٢٠)، برقم: (٣٦٠٠). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:٣٨٨.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/ ٣٥٤.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب، برقم: (٦٠٣٨). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ١٣/ ٤٠٢، وبرقم: (٦٠٣٩)، ١٣/ ٤٠٣.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٤٢٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط=

لقد قطع النّبي ﷺ خطبته، ونزل من المنبر فحمل الحسن والحسين رضي الله عنهما وسمّى ذلك فتنة. والسبب في هذا الفعل محبّته لهما. وفي هذا دلالة على أنّ الفتنة بالولد مراتب، وأنّ ما حدث من أدناها، ولكنّها قد تجرّ إلى ما فوقها(١).

فمن الفتنة بهم اشتغال الإنسان بهم عن كثير من الخير، أو التّفريط عمّا يلزمه من القيام بحقوقهم، كالتّأديب والتّعليم والتّربية والنّصح، لأنّ الإنسان مسئول عمّا استرعاه الله عليه(٢).

ومن ذلك الاستجابة لرغباتهم، والامتثال لطلباتهم، ولو أدّى ذلك إلى سخط الله تعالى أو مخالفة أمره. ولا شك أنّ حبّ الله ورسوله مقدّم على حبّ الأولاد.

كما جاء عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده، وولده، والنّاس أجمعين»(٣).

ومنها موالاتهم، وموِدّتهم مع عدم إيمانهم.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ

= مسلم ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم»، وفي: ٤/ ٢١٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط البخاري ومسلم».

(١) انظر: فتح الباري: ١/ ٣٣.
الرّسول ﷺ معصوم عن الوقوع في الفتن، ولكنّه أراد أن يبيّن لأصحابه أنّ قطع الخطبة لمثل هذه الأمور جائز، وأنّ الأولاد فتنة حقًّا. وانظر: المرجع السّابق: ١٣/ ٣٣.

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٧١.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الإيمان: (٢)، باب حبّ الرّسول ﷺ من الإيمان: (٨)، برقم: (١٥)، ص:١٧. عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (١٤)، ص:١٧.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب وجوب محبّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والنّاس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبّه هذه المحبّة: (١٦)، برقم: (٤٤)، ١/ ٦٧. عن أنس رضي الله عنه.

﴿... فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

ومن الأولاد من تبلغ فتنته بأن يصبح عدوًّا لوالده، وذلك بصرفه عن الطّاعات، وحمله على المعاصي. ولذلك حذّر الله تعالى من هؤلاء فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن: ١٤].

سأل رجل ابن عبّاس ﵄ عن هذه الآية فقال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكّة، وأرادوا أن يأتوا النّبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النّبي ﷺ، فلمّا أتوا النّبي ﷺ رأوا النّاس قد فقِهوا في الدّين همّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى. الآية»(١).

والآية عامّة في كلّ معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم(٢).

ولذا قال مجاهد ؒ:

«يحمل الرّجل على قطيعة الرّحم، أو معصية ربّه، فلا يستطيع الرّجل مع حبّه إلّا أن يطيعه».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٤١. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٨٨.

والأثر في: سنن التِّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة التّغابن: (٦٤)، برقم: (٣٣١٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني ؒ: «حسن»، ص: ٥٢٥.

ومستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/ ٥٣٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي ؒ: «صحيح».

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٤٢.

وقال: «ما عادوهم في الدّنيا، ولكن حملتهم مودّتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم»[1].

وقد يغترّ الإنسان بكثرة الأموال والأولاد، ويعتقد أنّ ذلك دلالة على محبّة الله له، واعتنائه به، وأنّه ما أعطي ذلك إلّا لقربه من الله.

ولكنّ الله تعالى أكذب هذا النّوع من البشر، وبيّن أنّه يعطي المال والأولاد من يحبّ ومن لا يحبّ، وله في ذلك الحكمة التّامّة، والحجّة البالغة، وإنّما الّذي يقرب إلى الله الإيمان والعمل الصالح.

قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٥ ـ ٣٧][2].

إنّ كثرة الأموال والأولاد قد تكون استدراجاً أو عذاباً؟ كما قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

ولا يعني هذا أن يمتنع الإنسان من أن يطلب من ربّه أن يرزقه الأولاد بحجّة أنّهم فتنة له. ذلك لأنّ طلب الأولاد من سنّة المرسلين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٨٨.

(٢) وانظر: معنى الآيات في: المرجع السّابق: ٣/٨٦٠.

وقال ﷺ: «تزوّجوا الوَدُود[1] الولود، إنّي مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة»[2]. ودعا لأنس رضي الله عنه فقال: «اللّهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له»[3].

وفي ذلك حثّ منه ﷺ على التّكثير من النّسل[4]. والعبرة في ذلك بصلاح الأولاد واستقامتهم. فأولئك وإن كثروا نفعوا والديهم في الدّنيا والآخرة، ولم يكونوا لهم فتنة ولا أعداء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة: إلّا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[5].

---

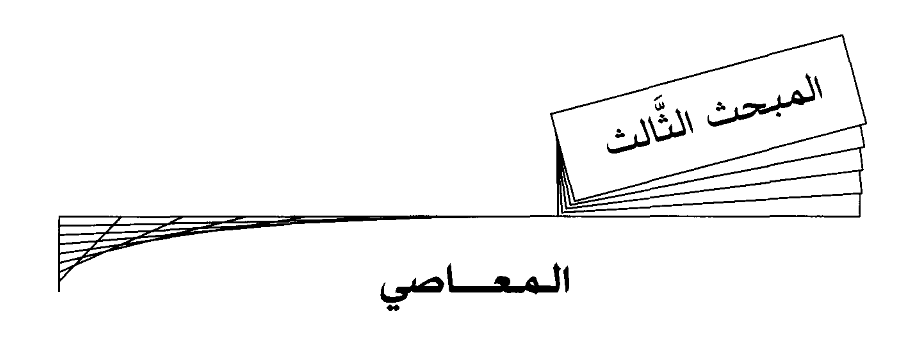
(١) الودود: لفظ يطلق على الرّجل والمرأة. والمراد: المُحِبَّة، من الودّ وهو الحبّ. انظر: لسان العرب: ٣/ ٤٥٤. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٦٤.

(٢) سنن أبي داود، نحوه في: كتاب النّكاح: (١٢)، باب النّهي عن تزويج من لم يلد من النّساء، برقم: (٢٠٥٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص:٢٣٤. عن معقل بن يسار رضي الله عنه.
سنن النّسائي، بلفظ مقارب في: كتاب النّكاح: (٢٦)، باب كراهة تزويج العقيم: (١١)، برقم: (٣٢٢٧). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص:٣٤٢. عن معقل رضي الله عنه.
سنن ابن ماجه، نحوه في: كتاب النّكاح: (٩)، باب ما جاء في فضل النّكاح: (١)، برقم: (١٨٤٦). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٢٠١. عن عائشة رضي الله عنها. وفي باب تزويج الحرائر والولود: (٨)، برقم: (١٨٦٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٢٠٢ ـ ٢٠٣. عن أبي هريرة رضي الله عنه.
مسند أحمد، بلفظه في: ٣/ ٢٤٥، وبلفظ مقارب في: ٣/ ١٥٨. عن أنس رضي الله عنه.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب برقم: (٤٠٢٨). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح لغيره»: ٩/ ٣٣٨. عن أنس رضي الله عنه.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٢/ ١٧٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السّياقة». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح»، عن معقل رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه. انظر: ص:١٣٧.

(٤) إنّ دين الإسلام حثّ أتباعه على الإكثار من النّسل، كما وردت بذلك النّصوص أعلاه. فعلى المسلم أن لا يلتفت إلى الدّعوة المغرضة الآثمة الّتي ينعق بها دعاة الغرب وأذنابهم من أبناء الشّرق الّذين ينادون بتحديد النّسل، ويحذّرون من تكثيره ممتطين أسباباً واهية لا وزن لها عند العقلاء، ولا يضاهى بها مقاصد الشّرع الحنيف.

(٥) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الوصية: (٢٥)، باب ما يلحق الإنسان من الثّواب بعد وفاته: (٣)، برقم: (١٦٣١)، ٣/ ١٢٥٥. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٧٢ ـ ٧٣، ١١/ ٨.



المعـــاصي

لقد سبق بيان إطلاق الفتنة على المعصية والإثم(١).

ولا شك أنّ المعصية فتنة، لأنّ المرء بارتكابها وفعلها ينصرف عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ. إضافة إلى أنّ المعصية تدفع إلى فعلها الشّهوة، والحديث عن الشّهوات ذكر آنفاً(٢).

ولقد بيّن النّبي ﷺ أنّ هذه الأمّة سوف تظهر فيها كثير من المعاصي. وقد ظهر الكثير منها كما نبّأ بذلك رسول الله ﷺ. ولا زال بعضها في ازدياد واستشراء. وقد يكون في المستقبل أكثر ممّا هو في الماضي.

ولا يمكن أن نحصر هنا جميع تلك المعاصي، ولكن نورد بعضاً منها في أربعة مطالب على سبيل التّمثيل مع شيء من الإيجاز.

المطلب الأوّل

القول على الله تعالى بغير علم

حرّم الله ﷻ على العبد أن يقول عليه سبحانه وعلى رسوله ﷺ ما ليس له به علم، أو يتكلّم ويفتي في دين الله تعالى بجهل، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

بل جعل القول عليه بغير علم من أعظم المحرّمات، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا

---

(١) انظر: ص: ٣٥.

(٢) انظر: ص: ١٠٨ فما بعدها.

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فذكر سبحانه في الآية أنواع المحرّمات بدءاً بالأخف متدرّجاً إلى الأثقل.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد حرّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرّمات، بل جعله في المرتبة العليا منها ـ فذكر الآية السّابقة ـ فرتّب المحرّمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثمّ ثنّى بما هو أشدّ تحريماً منه وهو الإثم والظّلم. ثمّ ثلّث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشّرك به سبحانه، ثمّ ربّع بما هو أشدّ تحريماً من ذلك كلّه وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعمّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[1].

ولمّا كان القول على الله بغير علم يتصدّر المحرّمات جميعاً، حذّر الرّسول ﷺ من أناس يتكلّمون في دين الله بجهل، فيحرّمون ما أحلّ الله تعالى، أو يحلّون ما حرّم، متجنّين على شريعة الله، يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى من غير مراقبة لله تعالى ولا خوف منه. لا همّ لهم إلّا حبّ المناصب، والتّسلّط على رقاب الخلق.

أولئك حذّر منهم رسول الله ﷺ كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ـ فذكر الحديث ـ وفيه: «قوم يستنّون بغير سنّتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. فقلت: هل بعد ذلك الخير من شرّ؟ قال: «نعم دعاة على أبواب جهنّم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»، فقلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «نعم قوم من جلدتنا ويتكلّمون بألسنتنا» الحديث[2].

---

(١) إعلام الموقّعين: ١/ ٣٨.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٠٦)، ص: ٧٥٩، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة: (١١)، برقم: (٧٠٨٤)، ص: ١٤٩٤. =

فهؤلاء الدّعاة هم الّذين يتبوّأون مناصب العلماء وليسوا بعلماء، ويوقّعون عن الله ورسوله ﷺ جهلاً وافتراء فيَضِلّون ويُضِلّون. وبسببهم ينزع علم الشّرع من الأرض، ويَحِلّ الجهل بالعباد، فلا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك[1] وذلك عند استحكام الجهل واستشرائه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من النّاس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتّى إذا لم يترك عالماً اتخذ النّاس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»[2].

= صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كلّ حال، وتحريم الخروج على الطّاعة، ومفارقة الجماعة: (١٣)، برقم: (١٨٤٧)، ٣/ ١٤٧٥ ـ ١٤٧٦، وبمعناه في: ٣/ ١٤٧٦.

(١) ورد ذلك في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْرُسُ ـ أي يعفى ويذهب ـ الإسلام كما يدرس وَشْي ـ نقش ـ الثّوب حتّى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولَيُسْرَى على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من النّاس، الشّيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلّا الله فنحن نقولها». فقال له صِلَةُ ـ ابن زُفر التّابعي ـ: ما تغني عنهم لا إله إلّا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثمّ ردّها عليه ثلاثاً كلّ ذلك يعرض عنه حذيفة، ثمّ أقبل عليه في الثّالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النّار ثلاثاً».

سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب ذهاب القرآن والعلم: (٢٦)، برقم: (٤٠٤٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٣٥، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ١/ ١٢٧، برقم: (٨٧).

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٥٢٠، ٥٨٧، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم». وانظر: فتح الباري: ١٤/ ٥٠٧.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣)، باب كيف يقبض العلم: (٣٤)، برقم: (١٠٠)، ص:٤٠، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب ما يذكر من ذمّ الرّأي وتكلّف القياس: (٨/٧)، برقم: (٧٣٠٧)، ص:١٥٣٦.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب العلم: (٤٧)، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥)، برقم: (٢٦٧٣)، ٤/ ٢٠٥٨.

قال الإمام النّووي رحمه الله:

«هذا الحديث يبيّن أنّ المراد بقبض العلم في الأحاديث السّابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفّاظه، ولكن معناه أنّه يموت حملته ويتّخذ النّاس جهّالاً يحكمون بجهالتهم فيضلّون ويضلّون»[(١)].

ويريد النّووي رحمه الله بالأحاديث المطلقة الأحاديث الّتي ورد فيها رفع العلم، وانتشار الجهل. كحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزّنا»[(٢)]. وفي الرّواية الأخرى: «إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل...»[(٣)].

وفي حديث عبد الله وأبي موسى رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إنّ بين يدي السّاعة أيّاماً يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل»[(٤)].

---

(١) شرح النّووي على مسلم: ١٦/٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: إنّ من أشراط السّاعة ـ في: كتاب العلم: (٣)، باب رفع العلم وظهور الجهل: (٢١)، برقم: (٨٠)، ص:٣٥، وبلفظ مقارب في: الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٨١)، ص:٣٥، وفي كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١)، باب يقلّ الرّجال ويكثر النّساء: (١١٠/ ١١١)، برقم: (٥٢٣١)، ص:١١٤٩، وفي كتاب الأشربة: (٧٤/ ٤٨)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]: (١)، برقم: (٥٥٧٧)، ص:١٢١٦ ـ ١٢١٧، وفي كتاب الحدود: (٨٦/ ٦١)، باب إثم الزّنا: (٢٠/ ٦)، برقم: (٦٨٠٨)، ص:١٤٣٨.
صحيح مسلم، بلفظه في كتاب العلم: (٤٧)، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥)، برقم: (٢٦٧١)، ٤/ ٢٠٥٦.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: من أشراط السّاعة ـ في كتاب الحدود: (٨٦/ ٦١)، باب إثم الزّنا: (٢٠/ ٦)، برقم: (٦٨٠٨)، ص:١٤٣٨.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب العلم: (٤٧)، رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥)، برقم: (٢٦٧١)، ٤/ ٢٠٥٦.

(٤) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ظهور الفتن: (٥)، برقم: (٧٠٦١، ٧٠٦٢، ٧٠٦٣، ٧٠٦٤، ٧٠٦٥، ٧٠٦٦)، ص:١٤٩١. =

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

«معناه أنّ العلم يرتفع بموت العلماء، فكلّما مات عالم ينقص العلم بالنّسبة إلى فقد حامله، وينشأ عن ذلك الجهل بما كان ذلك العالم ينفرد به عن بقية العلماء»[1]. فإذا قبض أهل العلم الصّادقون، وحلّ مكانهم أدعياء العلم ذهب العلم، وانتشر الجهل.

ولا شك أنّ الفتنة بدعاة السّوء القائلين على الله وعلى رسوله ﷺ بغير علم عظيمة جداً، لما يحدث من إضلال للخلق، وإبعاد عن الحقّ، وانتشار الأقوال والفتاوى الباطلة، وما ينتج عن ذلك من تفرّق الأمّة، وتشتّت شملها كما هو مشاهد ممّن نصّبوا أنفسهم منظّرين وزعماء، واقتطع كلّ واحد منهم قطعة من المجتمع يبثّ بينهم انحرافاته وضلالاته، فيستجيبون له وينصاعون لأمره، بل ويدافعون عنه، ويبرّرون لأقواله وأفعاله. حتّى طفح الكيل، وبلغ السّيل الزّبى[2]، وعانى أهل الإسلام من أولئك أبلغ المعاناة.

ولذا كان خوف النّبي ﷺ منهم على الأمّة عظيماً. فقال في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإنّما أخاف على أمّتي الأئمّة المضلّين»[3].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«علماء السّوء جلسوا على باب الجنّة، يدعون إليها النّاس بأقوالهم،

= صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب العلم: (٤٧)، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥)، برقم (٢٦٧٢)، ٤/ ٢٠٥٦. وعبد الله هو ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) فتح الباري: ١٤/ ٥١٠.

(٢) الزُبى: جمع زُبْيَة وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرّابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السّيل كان جارفاً مجحفاً، يضرب لما جاوز الحد.
مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمّد الميداني، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة، بيروت: ١/ ٩١. وانظر: كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٨م: ١/ ٢٢٠. المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٧م: ٢/ ١٤.

(٣) سبق تخريجه. انظر: ص: ٦٢.

ويدعونهم إلى النّار بأفعالهم، فكلّما قالت أقوالهم للنّاس هلمّوا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أوّل المستجيبين له، فهم في الصّورة أدلاّء، وفي الحقيقة قطّاع الطّرق»[1].

المطلب الثّاني

ظهور الشّرك

الشِّرك هو أن يُتَّخذ ندٌّ مع الله، فيدعى أو يرجى أو يخاف منه أو يحبّ كمحبّة الله، أو يصرف له أيُّ عبادة من العبادات، أو يعطى حقّ التّشريع[2].

فمن فعل شيئاً من ذلك معتقداً لما فعل فقد وقع في الشّرك.

والشّرك أعظم ظلم وقع في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

لأنّه صرف لحقّ الله لغيره. وحقّه سبحانه العبادة، ولا يجوز أن يصرف منها شيء إلى سواه سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وقد سمّى الله ﷻ الشّرك فتنة كما سلف ذكره[3]. وحذّر من الوقوع فيه، لأنّه يحبط جميع عمل العبد، ولا تصلح معه طاعة. وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. ويقول عزّ في علاه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]. وحرّم سبحانه جنّته على كلّ من قدم إليه يوم القيامة متلبّساً به.

---

(١) الفوائد لابن قيّم الجوزيّة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، ص: ٦١.

(٢) انظر: الكواشف الجلية، ص: ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

(٣) انظر: ص: ٢٧ ـ ٢٨.

فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فالشّرك أمره عظيم، وخطره جسيم، وشرّه عميم، ومرتعه وخيم. فلا يفلح العبد ولا يسلم إلّا باجتنابه، والبعد عنه، والحذر من ولوج بابه، أو القرب من أسبابه.

ولكنّ رسول الله ﷺ أخبرنا! ويا أسفاً على ما أخبرنا عنه. لقد أخبرنا أنّ هذه الأمّة سوف تقع في الشّرك، بل وتنغمس فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم السّاعة حتّى تضطّرب ألَيَات نساء دَوْسٍ على ذي الخَلَصَة[1]». وذو الخلصة طاغية دوس

---

(١) قال ياقوت الحموي رحمه الله: «ذو الخلصة: الخلصة مضاف إليها ذو بفتح أوّله وثانيه، ويروى بضمّ أوّله وثانيه، والأوّل أصح. والخلصة في اللُّغة نبت طيّب الرّيح يتعلّق بالشّجر، له حبّ كعنب الثّعلب، وجمع الخلصة خُلّص، وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتَبَالة، وهو صنم لهم، فأحرقه جرير بن عبد الله البجلي حين بعثه النّبي ﷺ، وقيل: كان لعمرو بن لحي بن قمعة، نصبه أعني الصّنم بأسفل مكّة حين نصب الأصنام في مواضع شتّى، فكانوا يلبسونه القلائد، ويعلّقون عليه بيض النّعام، ويذبحون عنده، وكان معناهم في تسميتهم له بذلك أنّ عباده والطّائفين به خلصة. وقيل: هو الكعبة اليمانية الّتي بناها أبرهة بن الصّباح الحميري، وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم. وقيل: كان ذو الخلصة يسمّى الكعبة اليمانية، والبيت الحرام الكعبة الشّامية... وقال أبو المنذر: «ومن أصنام العرب ذو الخلصة، وكانت مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التّاج، وكانت بتبالة بين مكّة واليمن على مسير سبع ليال من مكّة، وكان سدنتها بني أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظّمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السّراة ومن قاربهم من بطون العرب ومن هوازن... فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة، وأسلمت العرب، ووفدت عليه وفودها، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً، فقال له: «يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى، فوجّهه إليه، فخرج حتّى أتى بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه، فقاتلته خثعم، وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم، وظفر بهم وهزمهم، وهدم بنيان ذي الخلصة، وأضرم فيه النّار فاحترق». معجم البلدان: ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

الّتي كانوا يعبدون في الجاهليّة»[1].

والمراد أنّ النّاس يرجعون إلى الجاهليّة وعبادة الأوثان[2]. وعبّر عن ذلك بطواف نساء دوس حول ذي الخلصة حتّى ترتج أعجازهن[3].

وقد ورد ذلك صراحة في حديث ثوبان ﷺ، وفيه: «ولا تقوم السّاعة حتّى تلحق قبائل من أمّتي بالمشركين، وحتّى تعبد قبائل من أمّتي الأوثان»[4].

وعن عائشة ﵂ قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنّهار حتّى تعبد اللّات[5] والعزّى»[6]، فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظنّ

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب تغيّر الزّمان حتّى يعبدوا الأوثان: (٢٣/ ٢٤)، برقم: (١١٦)، ص: ١٥٠٠.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السَّاعة حتّى تعبد دوس ذا الخلصة: (١٧)، برقم: (٢٩٠٦)، ٤/ ٢٢٣٠.

(٢) الوَثَن: هو الصّنم الَّذي اتُّخذ إلهاً من دون الله ولم يكن له جسم أو صورة.
انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٥٦. لسان العرب: ١٢/ ٣٤٩.
قال ابن الأثير ﷺ:
«الفرق بين الوَثَن والصَّنَم أنّ الوَثَن كلّ مَا لَه جُثَّة مَعْمولة من جَواهِر الأرْض، أو من الخَشَب والحجارة كصُورةِ الآدميّ، تُعْمَل وتُنْصَب فتُعْبَد، والصَّنَم الصُّورَةِ بِلا جُثَّة، وَمِنْهُم من لَمْ يُفَرِّق بَيْنَهما وأطلقها على المَعْنَيين، وقَد يُطْلَق الوَثَن على غَير الصُّورة».
النِّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٥١.
ويجمع على أوثان. والأوْثان عند العرب كلّ تِمْثالٍ من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضَّة أو نحاس أو نحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها. لسان العرب: ١٣/ ٤٤٣.

(٣) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٣٣. التَّذكرة، ص: ٧٢١. عمدة القاري: ٢٤/ ٢١١.

(٤) سبق، ص: ٦٢.

(٥) اللَّات: اسم صنم كانت تعبده ثقيف، وقيل: اسم صخرة كان يجلس عليها رجل يلتُّ السّويق للحاج، فلمّا مات بنوا على تلك الصّخرة بيتاً وعبدوه، فبعث النّبي ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ﵄ فهدماه، وهي الّتي جاء ذكرها في القرآن.
انظر: معجم البلدان: ٥/ ٤.

(٦) العُزَّى: قال ياقوت الحموي ﷺ:
«العُزَّى بضمّ أوّله... صنم كان لثقيف، والعزّى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة، فبعث النّبي ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت، وأحرق السّمرة، والعزّى تأنيث الأعز، مثل الكبرى تأنيث الأكبر، والأعز بمعنى=

حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣] أنّ ذلك تامّاً قال: «إنّه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثمّ يبعث الله ريحاً طيّبة فتوفّي كلّ من في قلبه مثقال حبّة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»[١].

ولا يعني حديث عائشة رضي الله عنها أنّ الشّرك لا يقع في الأمّة إلّا بعد الرّيح الّتي تقبض أرواح المؤمنين. وإنّما يعني الحديث استحكام ذلك وغلبته في الأمّة. وهو ما جاء مبيّناً في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وفيه: «ثمّ يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشّام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرّة من خير أو إيمان إلّا قبضته. حتّى لو أنّ أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتّى تقبضه»، قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار النّاس في خفّة الطّير وأحلام السّباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. فيتمثّل لهم الشّيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسن عيشهم. ثمّ ينفخ في الصُّور[٢]...»[٣] الحديث.

ويؤيّده حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السّاعة حتّى

= العزيز، والعزّى بمعنى العزيزة. وقال ابن حبيب: العزّى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان، وسدنتها من بني صرمة بن مرّة... وكانت العرب وقريش تسمّي بها عبد العزّى، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها، ويتقرّبون عندها بالذّبائح». المرجع السّابق: ٤/ ١١٦.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السَّاعة حتّى تعبد دوس ذا الخلصة: (١٧)، برقم: (٢٩٠٧)، ٤/ ٢٢٣٠.

(٢) الصّور: هو القرن الّذي ينفُخ فيه ملك الموت عليه السلام عند بَعْثِ المَوتى إلى المحشَر. وقال بعضُهم: إنَّ الصُّور جمع صُورَة، يُريد صُوَر الموْتَى يَنْفُخُ فيها الأرواحَ. والصَّحيح الأوّل، لأنّ الأحاديث تعاضَدَت عليه، تارةً بالصُّور، وتارة بالقَرْن. النِّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٦٠، بتصرُّف يسير.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب في خروج الدَّجّال: (٢٣)، برقم: (٢٩٤٠)، ٤/ ٢٢٥٨ ـ ٢٢٥٩.

لا يقال في الأرض: الله الله»[1].

وفي الرّواية الأخرى: «لا تقوم السّاعة على أحد يقول: الله، الله»[2].

وفي رواية: «لا تقوم السّاعة حتّى لا يقال في الأرض لا إله إلّا الله»[3].

وهذا عند فساد الزّمان، واستعلاء الكفر وكثرته، وبقاء الأشرار واستشراء الفسقِ والمعاصي[4].

ومظاهر الشّرك في الأمّة جلية بيّنة لا لبس فيها ولا غموض. فكم من مشهد بني على قبر وقصد للدّعاء والتّعظيم والتّبرّك والنّذر. وكم من وثن طيف به كما يطاف ببيت الله، وقدّمت له القرابين، وأقيمت له الأعياد.

وكم من شخص عظّم وقدّس، وخلع عليه لباس الولاية حقًّا كان أم باطلاً، ودعي في الشّدائد لكشف الملمّات وقضاء الحاجات. وكم من طاغوت[5] نصّب نفسه نداً لله تعالى، وشرع من الدّين ما لم يأذن به الله،

---

(١) المرجع السَّابق، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب ذهاب الإيمان آخر الزّمان: (٦٦)، برقم: (١٤٨)، ١/ ١٣١.

(٢) المرجع السّابق، بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين، وبالرّقم والصّفحة السّابقة.

(٣) مسند أحمد، بلفظه في: ٣/ ٢٦٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان، ولفظه: «لا تقوم السَّاعة على أحد يقول: لا إله إلّا الله»، في باب ذكر الإخبار عن وصف النّاس الّذين يكون قيام السَّاعة على رءوسهم، برقم: (٦٨٤٨). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١٥/ ٢٦٢.

مستدرك الحاكم، بلفظه في: ٤/ ٥٤٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه»، وبلفظ مقارب في نفس الصّفحة، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٤) انظر: النّهاية في الملاحم والفتن: ١/ ٢٤١.

(٥) طاغوت: هو ما عبد من دون الله ﷻ، وكلّ رأس في الضّلال طاغوت، وقيل: الطّاغوت الأصنام، وقيل: الشَّيْطان، وقيل: الكهنة، وقيل: مردة أهل الكتاب. لسان العرب: ٨/ ٤٤٤.

وقال الرَّاغب رحمه الله:

«الطَّاغوت عبارة عن كلّ متعدّ، وكلّ معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع». المفردات، ص: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

وأصدر من الأحكام والقوانين ما يضاهي به شريعة الله سبحانه، وألزم النّاس بالتّحاكم إليها. كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

عن عدي بن حاتم ﷺ قال: أتيت النّبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب: فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن». وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: «أما إنّهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنّهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»(١).

فالأمّة فتنت في أعزّ ما تملك، وهي العقيدة الصّافية الصّحيحة الّتي سادت بها أمم الضّلال والكفر من قبل، ونالت بها العزّة والنّصر والتّمكين في الأرض كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

ولكنّها لمّا تنكّبت الطّريق، واختلت العقيدة في القلوب، وبسط الشّرك أطنابه في بلدان المسلمين ـ إلّا ما قلّ وندر ـ ارتبك أمر الأمّة، وانهار كيانها، فأصبحت مهضومة الحقوق، مكسورة الجناح، مضعضعة الأوصال.

ولا سعادة ولا فلاح إلّا بتصحيح المعتقد، وإقامة الأساس، الّذي هو توحيد الله تعالى، ومحق الشّرك، وإزالة مظاهره من الوجود.

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة التوبة: (٩)، برقم: (٣٠٩٥). قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص:٤٩٢.
سنن البيهقي الكبرى نحوه، برقم: (٢٠١٣٧)، (٢٠١٣٨)، ١٠/١١٦.
معجم الطّبراني الكبير نحوه، برقم: (٢١٨)، ١٧/٩٢.

المطلب الثّالث

انتشار الزنا

إنّ الله تعالى حرّم الزّنا، ونهى عباده عنه وعن قربه والدّنوّ منه وعن أسبابه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد أخبر النّبي ﷺ أنّ الزّنا سيفشو في هذه الأمّة، وأنّ فشوه من أشراط السّاعة وعلاماتها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ألّا أحدّثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدّثكم أحد بعدي سمعه منه: «إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزّنا، ويشرب الخمر، ويذهب الرّجال، ويبقى النّساء حتّى يكون لخمسين امرأة قيّم واحد»[(١)].

ولا يقف الأمر عند فشو الزّنا وانتشاره، بل يتعدّى ذلك إلى استحلاله.

فعن أبي مالك رضي الله عنه [(٢)] أنّ النّبي ﷺ قال: «لَيَكُونَنَّ من أمّتي أقوام يستحلُّون الْحِرَ[(٣)] والحرير والخمر والمَعَازِف[(٤)]»[(٥)].

وأمّا في آخر الزّمان، وبعد ذهاب الخيِّرين وبقاء الأشرار، فإنّ الزّنا يصبح علناً مشاعاً يفعل أمام أعين النّاس من غير خفاء ولا تستر.

---

(١) سبق، ص: ١٥٤. وقيِّم المرأة هو الّذي يقوم بأمرها وما تحتاج إليه. انظر: النِّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٣٥.

(٢) هو أبو مالك الأشعري الصّحابي، مشهور بكنيته مختلف في اسمه، قيل: اسمه عمرو بن عاصم، وقيل: كعب بن عاصم، وقيل: عبيد. وانظر: الإصابة: ٤/ ٦٥٤، ٥/ ٥٩٧، ٧/ ٣٥٦. فتح الباري: ١٠/ ٥٥، طبعة: دار المعرفة.

(٣) الحِر: هو الفرج، وذلك كناية عن الزّنا. وانظر: النِّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٦٦.

(٤) المعازف: هي الملاهي كالعود والطّنبور، واحدها مِعْزَف ومِعْزَفة. وانظر: لسان العرب: ٩/ ٢٤٤. القاموس المحيط، ص: ١٠٨٢.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه ـ وهو جزء من حديث ـ في: كتاب الأشربة: (٧٤/ ٤٨)، باب ما جاء فيمن يستحلّ الخمر ويسمّيه بغير اسمه: (٦)، برقم: (٥٥٩٠)، ص: ١٢١٨ ـ ١٢١٩.

عن النَّوَّاس بن سَمْعَان رضي الله عنه ـ فذكر الحديث ـ وفيه قال ﷺ: «ويبقى شرار النّاس، يَتَهَارَجُون[1] فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم السّاعة»[2].

قال الإمام النّووي رحمه الله:

«أي يجامع الرِّجال النِّساء بحضرة النّاس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك»[3].

ويؤيّد ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السّاعة حتّى تَتَسَافَدُوا[4] في الطّريق تسَافُد الحمير»، قلت: إنّ ذاك لكائن؟ قال: «نعم ليكوننّ»[5].

وهذا إنّما يكون عند تردّي الإنسانية إلى الحضيض، وغياب من يقوم بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وانتشار الفواحش، ورضا النّاس بذلك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «والّذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمّة حتّى يقوم الرّجل إلى المرأة، فيفترشها في الطّريق، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريتها وراء هذا الحائط»[6].

---

(١) يتهارجون: أي يتجامعون، يقال: بات فلان يَهْرِجها إذا بات يجامعها، والهَرْج في غير هذا الاختلاط والقتل. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ٧٧. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٥٦.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه ـ وهو جزء من حديث طويل ـ في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجَّال وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (٢٩٣٧)، ٤/ ٢٢٥٥.

(٣) شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٧٠.

(٤) تتسافدوا: السِّفاد هو نزو الذّكر على الأنثى. لسان العرب: ٣/ ٢١٨. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٣٦٩.

(٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان، بلفظه في: باب ذكر الإخبار عن ظهور الزّنا، وكثرة الجهر به في آخر الزّمان، برقم: (٦٧٦٧). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١٥/ ١٧٠.

(٦) مسند أبي يعلى، بلفظه برقم: (٦١٨٣). قال المحقّق حسين أسد: «إسناده قوي»: ١١/ ٤٣. وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصَّحيح». مجمع الزّوائد: ٧/ ٣٣١.
وقد أخبرني الشَّيخ سيّد سابق رحمه الله: أنّ ذلك وقع فعلاً في بعض دول أوروبا، أعاذنا الله.

وإن كانت الأمّة الإسلاميّة لم تصل الآن إلى هذا المستوى من التّردّي والانحراف الّذي أشار إليه النّبي ﷺ إلّا أنّ الزّنا يمارس في المجتمعات الإسلاميّة في جنح الخفاء، وقد يكثر في بعضها دون البعض الآخر، وهذا أمر لا يخفى على عاقل.

وخطر الزّنا لا يقف عند فاعله بل يتعدّاه إلى غيره، وذلك بإحداثه كثيراً من المفاسد والشّرور الّتي تؤدّي إلى الفتك بالأمّة وتدهورها، كتفكك الأسر، وتدنّي الأخلاق بانتشار الرّذيلة، واختلاط الأنساب، ووجود أفراد في المجتمع لم ينشأوا تحت مظلّة أسرة واقية وكنف أب راعٍ ممّا يجعلهم وبالاً على ذلك المجتمع. أضف إلى ذلك انتشار الأوبئة الفتّاكة الّتي تنخر في عظام الأمة فتعطل سيرها، وتضعف قوّتها، وتحدث من الهلع والخوف في النّفوس الشّيء الكثير.

وما الإيدز[1] الّذي أصبح مصدر ذعر للعالم اليوم إلّا نتيجة ممّا أفرزته فاحشة الزّنا.

وقد صدق رسول الله ﷺ عندما قال في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابْتُلِيتُم بهنّ، وأعوذ بالله أن تُدْرِكُوهُنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتّى يُعْلِنُوا بها إلّا فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن مضت في أسلافهم الّذين مضوا...» الحديث[2].

والفاحشة هي الزّنا.

---

(١) الإيدز: هو نقص المناعة في الجسم ممّا يعرّضه للأمراض.

(٢) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب العقوبات: (٢٢)، برقم: (٤٠١٩). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٤٣٢. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ١/ ١٦٧، برقم: (١٠٦).

وتمام الحديث: «ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أخذوا بالسّنين ـ أي الجدب والقحط ـ وشدّة المؤونة، وجور السّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا منعوا القطر من السّماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيّروا ـ أي يطلبوا الخير ـ ممّا أنزل الله إلّا جعل الله بأسهم بينهم».

المطلب الرّابع

توسيد الأمر إلى غير أهله

من الفتن الشّائكة الّتي حلّت بأهل الإسلام تولّي أمر النّاس رُذَالتهم وسفهائهم وأسافلهم، واستئثارهم بمواطن القيادة والمسؤولية في الأمّة، دون أهل الصّلاح والتّقوى. حيث أصبح أولئك قادة النّاس وسادتهم، فتربّعوا على عروش مصالح العباد. وأقصي أهل الخير والإيمان وأبعدوا، فأصبحوا لا حول لهم ولا قوّة.

وهذا أمر حذّر منه رسول الله ﷺ، وحذّر من مغبّته وخطره على أمّة الإسلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النّبي ﷺ في مجلس يحدّث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى السّاعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتّى إذا قضى حديثه قال: «أين أُرَاه السّائل عن السّاعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله.

قال: «فإذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة»[1].

قال العيني رحمه الله:

«قوله: «إذا وسِّد الأمر»: المراد به جنس الأمور الّتي تتعلّق بالدّين، كالخلافة والقضاء والإفتاء ونحو ذلك، ويقال: أي بولاية غير أهل الدّين والأمانات ومن يعينهم على الظّلم والفجور. وعند ذلك تكون الأئمة قد ضيّعوا الأمانة الّتي فرض الله عليهم. حتّى يؤتمن الخائن ويخوَّن الأمين. وهذا إنّما يكون إذا غلب الجهل، وضعف أهل الحقّ عن القيام به»[2].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣)، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتمّ الحديث ثمّ أجاب السّائل: (٢)، برقم: (٥٩)، ص:٢٨، ونحوه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب رفع الأمانة: (٣٥)، برقم: (٦٤٩٦)، ص:١٣٨١.

(٢) عمدة القاري: ٢/ ٧. وانظر: التّذكرة، ص:٧٢٧. جامع العلوم والحكم في شرح=

فالّذي يتولّى أمر النّاس ومصالحهم في دينهم ومعاشهم يجب أن يكون أميناً مؤتمناً على ما كلّف به، ناصحاً للأمّة، صادقاً في قوله وفعله، بعيداً عن الخيانة والظّلم والأثرة. وهذا لا يتأتّى إلا لأهل الإيمان والتّقوى، القائمين بحدود الله، الملتزمين بأمره، المجتنبين لنهيه. وهم الّذين يجب على الأمّة أن تسلّم لهم قيادها، وتولّيهم شؤونها. لأنّ حياة البشر لا تصلح، ولا تقوم لها قائمة إلّا إذا تقلّد المناصب فيها أهل الكفاءة من أصحاب الصّلاح، الّذين يستشعرون همَّ المسؤولية في نفوسهم قبل غيرهم.

وذلك ما كان عليه أمر الأمّة من قبل، حيث كان بيدي أهل الخير والصّلاح فكانت الأمّة تتبوّأ مركز الصّدارة بين الأمم وقتها، رفيعة المنزلة، عزيزة الجانب، يسودها العدل، ويكتنف جوانبها الأمن، لا ظلم ولا خيانة، لا كذب ولا خداع، يجد كلّ صاحب حقّ حقّه، ويردع كلّ صاحب باطل عن باطله.

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: «حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدّثنا «أنّ الأمانة نزلت في جَذْر[1] قلوب الرّجال، ثمّ نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنّة». ثمّ حدّثنا عن رفع الأمانة، قال: «ينام الرّجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الْوَكْت[2]، ثمّ ينام النّومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المَجْل[3]،

= خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لزين الدّين بن رجب الحنبلي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص: ٤١.

(١) جذر: الجَذْر هو الأصل من كلّ شيء. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ١١٧. الفائق: ١/ ٢٠٠.

(٢) الوَكْت: هو أثر يسير في الشّيء من غير لونه. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ١١٨. الفائق: ١/ ٢٠٠. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢١٧.

(٣) المَجْل: هو أثر العمل في الكفّ، يعالج بها الإنسان الشّيء حتّى يغلظ جلدها. غريب الحديث للهروي: ٤/١١٩. انظر: الفائق: ١/٢٠١. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٠٠.

كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط[1]، فتراه مُنْبَتِراً[2] وليس فيه شيء ـ ثمّ أخذ حصى فدحرجه على رجله ـ فيصبح النّاس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة، حتّى يقال: إنّ في بني فلان رجلاً أميناً. حتّى يقال للرّجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان». ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيّكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردّنّه عليّ دينه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنّه عليّ ساعيه[3]، وأمّا اليوم فما كنت لأبايع منكم إلّا فلاناً وفلاناً»[4].

فقد بيّن حذيفة رضي الله عنه أنّ الأمّة كانت بخير، وأنّ الثّقة كانت متوفّرة، والأمانة قائمة، والعهود مصانة، لأنّ كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ هما الحكماء على العباد حينها. ولكن بدأ الوهن يدبّ إلى النّفوس، والتفلّت عن حكم الكتاب والسنّة يخالط القلوب، والحال يتغيّر شيئاً فشيئاً ممّا دفع حذيفة رضي الله عنه أن يقف موقف الحيطة والحذر، ولا يقدم إلّا على معاملة من يعرف حاله[5].

إذا كان هذا في عهد حذيفة رضي الله عنه فكيف بنا اليوم؟ لا شك إنّنا في بعد ساحق، وبون شاسع عن الصّفات الّتي يتّسم بها الأخيار الّذين يقودون الأمّة،

---

(١) نَفِط: أي انتفخ وارتفع الجلد عن اللّحم فكان بينهما ماء من أثر العمل. وانظر: لسان العرب: ٧/ ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٢) مُنْتَبِراً: أي متنفّخاً مرتفعاً وليس فيه شيء. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ١١٩. الفائق: ١/ ٢٠١. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٦ ـ ٧.

(٣) قال الهروي رحمه الله:
«وقوله: ليردّنّه عليّ ساعيه ـ يعني الوالي الّذي عليه، يقول: يُنصفني منه إن لم يكن له إسلام، وكلّ من ولي شيئاً على قوم فهو ساع عليهم، وأكثر ما يقال ذلك في ولاة الصّدقة». غريب الحديث للهروي: ٤/ ١٢٠.

(٤) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب رفع الأمانة: (٣٥)، برقم: (٦٤٩٧)، ص:١٣٨١ ـ ١٣٨٢، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب إذا بقي في حثالة من النّاس: (١٣)، برقم: (٧٠٨٦)، ص:١٤٩٥.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب: (٦٤)، برقم: (١٤٣)، ١/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٥) وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٧٠.

ويسيّرون أمرها بأفضل الطّرق وأمثل الوجوه، إلّا من رحم ربّك، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقوله ﷺ: «حتّى يقال للرّجل: ما أجلده، ما أظرفه». أشار إليه بكثرة العقل والظرافة والجلادة، وقد خلا قلبه من الإيمان[١].

إنّها مقاييس ومظاهر دنيوية لا تكفل لصاحبها تولّي أمور النّاس. ولكنّها في الحقيقة أصبحت هي السّمات الّتي ينطلق منها في اختيار أرباب المناصب، وأصحاب المسؤوليات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على النّاس سنوات خدّاعات يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكَذَّبُ فيها الصّادق، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائن ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيْبِضَة[٢]»، قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرّجل التَّافِه[٣] في أمر العامّة»[٤].

---

(١) وانظر: تحفة الأحوذي: ٦/٣٣٨ ـ ٣٣٩. وانظر: أشراط السَّاعة، ليوسف بن عبد الله الوابل، دار طيبة، نشر: مكتبة ابن الجوزي، الدّمام، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص: ١٤٠.

(٢) الرّويبضة: تصغير رابضة، وهو العاجز الَّذي ربض عن معالي الأمور، وجثم عن طلبها، وزيادة التّاء للمبالغة. الفائق: ٢/ ٢٧.

(٣) التّافه: هو الخسيس الحقير الخامل من النّاس. انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ١٥٣. الفائق: ٢/ ٢٧. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٩٢.

(٤) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب شدّة الزّمان: (٢٤)، برقم: (٤٠٣٦). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٣٤. وهو في السِّلسلة الصَّحيحة: ٤/ ٥٠٨، برقم: (١٨٨٧).

مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٩١. قال الشّيخ أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده حسن ومتنه صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٥/ ٣٧ ـ ٣٨، برقم: (٧٨٩٩)، وفي: ٢/ ٣٣٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد، بتحقيق: أحمد شاكر: ١٦/ ١٩٤، برقم: (٨٤٤٠). عن أنس رضي الله عنه، في: ٣/ ٢٢٠.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٥١٢، ٥٥٧، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذَّهبي رحمه الله: «صحيح».

مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب برقم: (٣٧١٥). عن أنس رضي الله عنه. قال المحقّق: «رجاله ثقات»: ٦/ ٣٧٨.

والّذي يلقي بنظرة فاحصة في عالم اليوم يجد أنّ هذه الأوصاف تنطبق تماماً فيه، فالكذب عمّ البلاء به، والخيانة طمّت وعمّت، وأصبح أهل الكفر والفجور هم الّذين يتصدّرون القافلة، ويملكون من الوسائل المرئية والمسموعة والمقروءة ما يشيعون به الكذب، ويصدّرونه إلى أنحاء العالم المختلفة، فيتلقّف السّذج ذلك الكذب فيصدّقونه، ويروِّجونه. بل ويرتمون في أحضان أولئك الكفرة بزعم أنّهم أهل الصّدق والأمانة، وأهل العدل والإنصاف، الّذين يحلّون مشاكل الأمّة، ويعيدون لها ما سلب من حقوق.

وقد تكلّم في شؤون العلم التّافهون من الرّجال، الّذين يوشكون بقيادتهم له أن يدمّروا جميع البشريّة[1].

عن حذيفة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «لا تقوم السّاعة حتّى يكون أسعد النّاس بالدّنيا لُكَعُ[2] بن لُكَعٍ»[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنقضي الدّنيا حتّى تكون عند لكع بن لكع»[4].

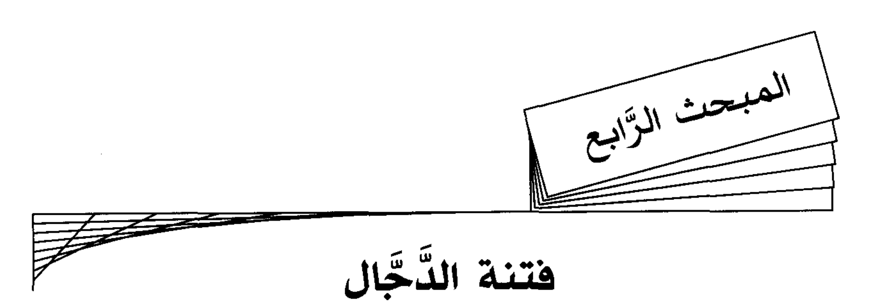
---

(١) انظر: اليوم الآخر: (١)، ص:١٩٣.

(٢) لُكَع: هو السّافل من النّاس أو اللّئيم، وقد يطلق على الصّغير. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ١٥٤. غريب الحديث للخطّابي: ٣/١٠٣. الفائق: ٣/٣٢٩.
قال ابن الأثير: «اللّكع عند العرب العبد، ثمّ استعمل في الحمق والذّم، يقال: للرّجل لكع، وللمرأة لكاع». النّهاية في غريب الحديث: ٤/٢٦٨.

(٣) سنن الترّمذي، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠)، باب: (٣٧)، برقم: (٢٢٠٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٦٦، وهو في صحيح الجامع، برقم: (٧٤٣١)، ٢/١٢٣٨.
مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٣٨٩.

(٤) المرجع السّابق، بلفظ مقارب في: ٢/٣٢٦، ٣٥٨. عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي: ٣/ ٤٦٦. عن ابن نيار رضي الله عنه. وفي: ٥/ ٤٣٠ عن بعض الصّحابة.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر الإخبار بأنّ الدّنيا يملكها من لا حظّ له في الآخرة، برقم: (٦٧٢١). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١٥/١١٦.
وانظر: مجمع الزّوائد، ١٤٠٧هـ: ٧/ ٣٢٥.



المبحث الرَّابع

فتنة الدَّجَّال

هنالك علامات وأحداث تقع في هذا الكون تدلّ على قرب قيام السّاعة. منها علامات صغرى قد تناولت بعضها فيما سبق. ومنها علامات كبرى وهي الّتي ورد ذكرها في حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاريِّ ﵁ قال: اطّلع النّبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون»؟ قالوا: نذكر السّاعة، قال: «إنّها لن تقوم حتّى ترون قبلها عشر آيات: فذكر الدُّخان[1] والدَّجَّال، والدَّابَّة،[2]

---

(١) الدّخان: هو الّذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدّخان: ١٠ ـ ١١]. وهل وقع الدّخان أم هو آية مرتقبة؟ قولان لأهل العلم.

قال النَّووي ﵀:

«هذا الحديث يؤيّد قول من قال: إنّ الدّخان دخان يأخذ بأنفاس الكفّار، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزّكام، وأنّه لم يأت بعد، وإنَّما يكون قريباً من قيام السَّاعة. وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا، وإنكار ابن مسعود عليه، وأنّه قال: إنَّما هو عبارة عمّا نال قريشاً من القحط حتّى كانوا يروا بينهم وبين السّماء كهيئة الدّخان، وقد وافق ابن مسعود جماعة، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن. ورواه حذيفة عن النّبي ﷺ وأنّه يمكث في الأرض أربعين يوماً، ويحتمل أنّهما دخانان للجمع بين هذه الآثار». شرح النَّووي على مسلم: ١٨/٢٧. وانظر: التَّذكرة للقرطبي، ص:٧٤١.

وقد رجّح ابن كثير ﵀: أنّه من الآيات المنتظرة الدّالة على قرب قيام السَّاعة. وأيّد ذلك بظاهر القرآن، وأحاديث مرفوعة، وآثار من الصحابة. انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٢١١ ـ ٢١٣. وانظر: النِّهاية في الفتن: ١/٢٢٤. اليوم الآخر، ص:٢٢١ ـ ٢٢٣. أشراط السَّاعة، ص:٢٩٩ ـ ٣٠٤.

(٢) الدّابّة: هي الّتي ورد ذكرها في قول الله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النّمل: ٨٢]. =

وطلوع الشّمس من مغربها(١)، ونزول عيسى بن مريم ﷺ(٢)، ويأجوج

= وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، طلوع الشّمس من مغربها، والدَّجّال ودابّة الأرض». صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب بيان الزّمن الّذي لا يقبل فيه الإيمان: (٧٢)، برقم: (١٥٨)، ١/١٣٨.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه يرفعه إلى النّبي ﷺ قال: «تخرج الدّابّة فتسم النّاس على خراطيمهم، ثمّ يغمرون ـ أي يكثرون ـ فيكم حتّى يشتري الرّجل البعير فيقول: ممّن اشتريته؟ فيقول: من أحد المخطّمين». مسند أحمد: ٥/٢٦٨. مجمع الزّوائد: ٨/٦، وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصَّحيح غير عمر بن عبد الرّحمٰن بن عطيّة وهو ثقة». وهو في السِّلسلة الصَّحيحة: ١/٥٧٦، برقم: (٣٢٢). صحيح الجامع، برقم: (٢٩٢٧)، ١/٥٦٤.

وهذه الدّابّة تخرج في آخر الزّمان عند فساد النّاس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدّين الحقّ، قيل: تخرج من مكّة، وقيل: من غيرها، فتكلّم النّاس أي تخاطبهم مخاطبة، تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. تفسير القرآن العظيم: ٣/٥٩٨.

(١) طلوع الشّمس من مغربها: هو الّذي ورد ذكره في قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

بذلك فسّرها رسول الله ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم السَّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها آمن النّاس كلّهم أجمعون، فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».

صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب بيان الزّمن الَّذي لا يقبل فيه الإيمان: (٧٢)، برقم: (١٥٧)، ١/١٣٧.

فمن كان مؤمناً مصلحاً في عمله قبل طلوع الشّمس من مغربها نفعه إيمانه، وأمّا من كان كافراً فأنشأ إيماناً، أو عاصياً فأحدث توبة لا يقبل منه لأنّ تلك العلامة من أكثر أشراط السَّاعة الدّالة على اقترابها ودنوّها، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة.

انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/٣١٣. النّهاية في الفتن: ١/٢٢٢.

(٢) لقد بيّن الله سبحانه أنّ عيسى عليه السلام رفع من الأرض إلى السّماء، وأنّ اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ لم يقتلوه ولم يصلبوه كما اعتقد ذلك النّصارى، وأنّه رفع بروحه وجسده، وهو حي عند الله تعالى.

فقال سبحانه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن =

ومأجُوج[1]، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة

= شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾﴾ [النِّساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

وسوف ينزل بمشيئة الله في آخر الزّمان دلالة وعلامة على قرب قيام السَّاعة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١].

وحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

وينزل حاكماً بشريعة محمّد ﷺ لا ناسخاً لها، ولا ينزل برسالة مستقلّة، فيكسر الصّليب إبطالاً لما يزعمه النّصارى من تعظيمه، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية فلا يقبل من الكفّار إلّا الإسلام، ويقتل الدَّجّال، ويفيض المال ويكثر، وتنزل البركات والخيرات بسبب العدل وعدم التّظالم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والّذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم ﷺ حكماً مقسطاً، فيكسر الصّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتّى لا يقبله أحد».

صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦)، باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام: (٤٩/ ٥٠)، ص:٧٣١. صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا ﷺ: (٧١)، برقم: (١٥٥)، ١/ ١٣٥.

وانظر في نزول عيسى عليه السلام:

تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، تصحيح: محمّد زهدي النّجار، النّاشر: مكتبة الكليّات الأزهرية، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، ميدان الأزهر، ص:١٨٨. شرح النَّووي على مسلم: ٢/ ١٩٠ ـ ١٩١. التّذكرة، ص:٧٦٣ ـ ٧٦٤. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ١٠ ـ ١١. النّهاية في الفتن: ١/ ١٨٣، ١/ ١٩٣. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٧٢ ـ ٨٨٩. القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط السَّاعة، لمحمّد بن عبد الرّحمٰن السّخاوي، تحقيق: مجدي السّيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص:٢٨. لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة شرح الدّرة المضيَّة في عقيدة الفرق المرضيّة، لمحمّد بن أحمد السّفاريني، نشر: مكتبة أسامة، الرّياض، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت: ٢/ ٩٤ ـ ٩٥. موقف المدرسة العقليّة من السّنّة النّبويّة للباحث، طبعة: مكتبة الرشد، الرّياض، الطَّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م: ٢/ ٢١٤ ـ ٢٣٠.

(١) إنّ يأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد من ذرية آدم، كانوا يخرجون على بلاد التّرك فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنّسل، فلمّا بلغ ذو القرنين تلك البلاد طلب=

العرب، وآخر ذلك نار[1] ....

= أهلها منه أن يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا ففعل، وقد جاء خبر ذلك السّد في الآيات: ٩٣ ـ ٩٩ من سورة الكهف.
كما بيّن النّبي ﷺ في حديث زينب بنت جحش أنّه قد فتح في عهده من ذلك السّد حلقة صغيرة (انظر: الحديث، ص:٤٩) ولكنَّهم لا يتمكّنون من الخروج حتّى يأذن الله لهم به في آخر الزّمان قرب قيام السَّاعة فيندك السّد ويخرجون في عدد هائل لا طاقة لأهل الأرض بهم، فيعيثون في الأرض فساداً.
قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].
وفي حديث النّواس بن سمعان رضي الله عنه قال ﷺ: «إذ أوحى الله إلى عيسى إنّي قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرّز عبادي إلى الطّور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدب ينسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبريّة فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرّة ماء، ويحصد نبي الله عيسى وأصحابه حتّى يكون رأس الثّور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغف ـ دود يكون في أنوف الإبل والغنم ـ في رقابهم فيصبحون فرسى ـ قتلى ـ كموت نفس واحدة» الحديث، سبق تخريجه، انظر: ص:١٦٣.
انظر في شأن يأجوج ومأجوج:
الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٥٥ ـ ٦٥. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٦٨ ـ ١٧٢، ٣١١ ـ ٣١٥. النّهاية في الفتن: ١/ ٢٠١. اليوم الآخر، ص:٢٧١ ـ ٢٧٦. أشراط السَّاعة، ص:٢٨٥ ـ ٢٩٦.

(١) هذه النّار الحاشرة هي آخر أشراط السَّاعة الكبرى، وأوّل آية تدّل على قيام السَّاعة.
وقد جاء في رواية عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه تحديد موطن خروجها، قال ﷺ: «ونار تخرج من قعر عدن ترحّل النّاس».
صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب في الآيات الّتي تكون قبل السَّاعة: (١٣)، برقم: (٢٩٠١)، ٤/ ٢٢٢٦.
وجاء عن أنس رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال: «أوّل أشراط السَّاعة نار تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب».
صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريّته: (١)، برقم: (٣٣٢٩)، ص:٦٩٩.
ويجمع بينهما أنّ آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات، وأوّليتها بأنها أوّل الآيات=

= الّتي لا شيء بعدها من أمور الدّنيا أصلاً، بل يقع بانتهائها النّفخ في الصّور، بخلاف ما ذكر معها فإنّه يبقى بعد كلّ آية منها أشياء من أمور الدّنيا. فتح الباري: ١٣/ ٨٢، طبعة: دار المعرفة، القناعة، ص:٤٨.

وهذا الحشر ليس المراد به حشر النّاس يوم القيامة بعد البعث من القبور، وإنّما حشر يكون في آخر الدّنيا قبيل يوم القيامة. وقد جاء وصفه في حديث أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: «يحشر النّاس على ثلاث طرائق راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النّار، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا».

صحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب فناء الدّنيا وبيان الحشر يوم القيامة: (١٤)، برقم: (٢٨٦١)، ٤/ ٢١٩٥.

انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٧/ ١٩٤ ـ ١٩٥. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢ ـ ٣. النّهاية في الفتن: ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

وقد صح في الحديث أنّ ذلك الحشر يكون إلى أرض الشّام كما جاء في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ههنا» ونحا بيده نحو الشّام»: «إنّكم محشورون رجالاً وركباناً، وتجرون على وجوهكم». سنن التّرمذي، كتاب صفة القيامة والرّقاق والورع، باب ما جاء في شأن الحشر، برقم: (٢٤٢٤)، ص:٣٩٧. مسند أحمد: ٥/ ٣ ـ ٤. مستدرك الحاكم: ٤/ ٦٠٨. وانظر: صحيح الجامع، برقم: (٢٣٠٢)، ٢/ ٤٥٦.

وورد أنّه يكون إلى بيت المقدس. كما جاء في حديث ميمونة ﷺ أنّه لمّا سئل ﷺ عن بيت المقدس قال: «أرض المحشر والمنشر»، ولكن الحديث لم يصح. سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصّلاة، باب ما جاء في الصّلاة في مسجد بيت المقدس، ص:١٥٦، برقم: (١٤٠٧). مسند أحمد: ٦/ ٤٦٣.

وهذه النّار ليست نار الحجاز الّتي ورد ذكرها في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم السَّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصْرَى». صحيح البخاري، كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب خروج النّار: (٢٤/ ٢٥)، برقم: (٧١١٨)، ص:١٥٠٠. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السَّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز: (١٤)، برقم: (٢٩٠٢)، ٤/ ٢٢٢٧ ـ ٢٢٢٨.

فتلك ظهرت في القرن السّابع الهجري.

قال النَّووي ﷺ: «وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، =

تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم»[1].

ومن تلك العلامات الكبرى الدّجّال. وهو رجل من بني آدم خلقه الله ﷻ، وأقدره على أشياء من الخوارق ليكون فتنة للنّاس وبلاء في آخر الزّمان، فيضلّ الله به كثيراً من العباد، ويزداد الّذين آمنوا إيماناً[2].

وقد تواترت الأخبار الصّحيحة عن رسول الله ﷺ بذكره، فهو حقيقة خلافاً لمن أنكره[3].

وفتنته ـ قبّحه الله ـ من أعظم الفتن الّتي عرفتها البشريّة قاطبة، ولذلك حذّر منه رسل الله كافّة.

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدّجّال وحذّرناه. فكان من قوله أن قال: «إنّه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدّجّال، وإنّ الله لم يبعث نبيًّا إلّا حذّر أمّته الدّجّال، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة، وإن يخرج وأنا بين ظَهْرَانَيْكم[4] فأنا حجيج لكلّ مسلم، وإن يخرج

= وكانت ناراً عظيمة جدًّا من جنب المدينة الشّرقي وراء الحرّة، تواتر العلم بها عند جميع الشّام، وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة». شرح النّووي على مسلم: ١٨/٢٨. وانظر: التّذكرة، ص:٧٢١ ـ ٧٢٢. النّهاية في الفتن: ١/٢٧. فتح الباري: ١٤/٥٨٧.

والحديث أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب في الآيات الّتي تكون قبل السّاعة: (١٣)، برقم: (٢٩٠١)، ٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب في الآيات الّتي تكون قبل السّاعة: (١٣)، برقم: (٢٩٠١)، ٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦، ونحوه في: ٤/ ٢٢٢٦.

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/٥٨. النّهاية في الفتن: ١/ ١٦٤، ١٧٢. عمدة القاري: ٢٤/٢١٦.

(٣) انظر: النّهاية في الفتن: ١/ ١٦٤. وممن أنكره: الخوارج والجهميّة وبعض المعتزلة وبعض المُحْدَثين. انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/٥٨. التّذكرة، ص:٧٥١. النّهاية في الفتن: ١/ ١٦٤. أشراط السّاعة، ص:٢٤٦.

(٤) ظَهْرَاني: بين أظهرهم، أي بينهم. انظر: الفائق: ١/٤١. النّهاية في غريب الحديث: ٣/١٦٦.

من بعدي فكلّ امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كلّ مسلم...» الحديث[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: فقام رسول الله في النّاس فأثنى على الله بما هو أهله. ثمّ ذكر الدّجّال فقال: «إنّي لأُنْذِرُكُمُوه، ما من نبيّ إلّا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ لقومه، تَعَلَّمُوا أنّه أعور، وأنّ الله تبارك وتعالى ليس بأعور»[2].

ولمّا عظمت فتنته أكثر النّبي ﷺ من ذكر أوصافه حتّى ينجلي أمره، ويتّضح خبره، ويعرف ضلاله، وينجو المؤمنون من فتنته، ولا يهلك فيه إلّا من كتب الله عليه الهلاك.

---

(١) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب فتنة الدَّجّال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج: (٣٣)، برقم: (٤٠٧٧)، ص:٤٣٩ ـ ٤٤٠.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٥٨٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السّياقة». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم».

وانظر: التَّصريح بما تواتر في نزول المسيح، للشَّيخ محمّد أنور شاه الكشميري، ترتيب: محمّد شفيع، تحقيق: عبد الفتّاح أبو غدة، النّاشر: مكتبة المطبوعات الإسلاميّة بحلب، ودار القرآن الكريم، بيروت، الطَّبعة الثّالثة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إنّها ليست من فتنة صغيرة ولا كبيرة إلّا تتّضع لفتنة الدَّجّال». الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ١٥/ ٢١٨. وانظر: مسند أحمد: ٥/ ٣٨٩. مجمع الزَّوائد: ٧/ ٣٣٥.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسِّير: (٥٦/ ٣٢)، باب كيف يعرض الإسلام على الصّبي: (١٧٨/ ١٧٧)، برقم: (٣٠٥٧)، ص:٦٤٤، وفي كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح: ١]: (٣)، برقم: (٣٣٣٧)، ص:٧٠١، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٢)، ص:٩١٥، وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب قول الرّجل للرّجل: اخسأ: (٩٧)، برقم: (٦١٧٥)، ص:١٣٢٠، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدَّجّال: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٧١٢٧)، ص:١٥٠١ ـ ١٥٠٢.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب ذكر ابن صيّاد: (١٩)، برقم: (١٦٩)، ٤/ ٢٢٤٥.

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً منها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ ذكر الدّجّال بين ظهراني النّاس فقال: «إنّ الله تعالى ليس بأعور، ألّا وإنّ المسيح الدّجّال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة[1]»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدّجّال ممسوح العين مكتوب بين عينيه كافر». ثمّ تَهَجَّاها «ك ف ر، يقرؤه كلّ مسلم»[3].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدّجّال أعور العين

---

(١) طافئة: رويت بالهمز وتركه وكلاهما صحيح، فالمهموزة هي الّتي ذهب نورها، وغير المهموزة هي الّتي نتأت وارتفعت وفيها ضوء. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٦٠. القناعة، ص:٢٥. وانظر: النّهاية في الفتن: ١/ ١٦٥.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: ١٦]: (٤٨/ ٤٩)، برقم: (٣٤٣٩)، ص:٧٣٠، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٢)، ص:٩١٥، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدجال: (٢٦/ ٢٧)، برقم (٧١٢٣) ص: ١٥٠١. ونحوه في كتاب التوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]: (١٧)، برقم: (٧٤٠٧)، ص:١٥٥٥.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجّال وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (١٦٩)، ٤/ ٢٢٤٧، وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدَّجّال: (٧٥)، برقم: (١٦٩)، ١/ ١٥٥.

(٣) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]: (١٧)، برقم: (٧٤٠٨)، ص:١٥٥٥، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدَّجّال: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٧١٣٧)، ص:١٥٠٢.
صحيح مسلم، بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجّال وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (٢٩٣٣)، ٤/ ٢٢٤٨.
قال النّووي رحمه الله:
«الصّحيح الّذي عليه المحقّقون أنّ هذه الكتابة على ظاهرها، وأنّها كتابة حقيقيّة جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها الله تعالى لكلّ مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمّن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك». شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٦٠. وانظر: النّهاية في الفتن: ١/ ١٦٥.

اليسرى، جُفَال الشّعْر[1]، معه جنّة ونار، فناره جنّة، وجنّته نار»[2].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّي قد حدثتكم عن الدّجّال حتّى خشيت أن لا تعقلوا. إنّ مسيح الدّجّال رجل قصير أفْحَجُ[3] جَعْدٌ[4] أعور مطموس العين، ليس بناتئة ولا حَجْراء[5]، فإن أُلْبِس عليكم فاعلموا أنّ ربّكم ليس بأعور»[6].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «الدّجّال عينه خضراء كزجاجة، وتعوّذوا بالله من عذاب القبر»[7].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ ذكر المسيح ابن مريم فوصفه، ثمّ وصف الدّجّال فقال: «رجل جسيم أحمر جعد الرأس، أعور العين

---

(١) جُفَال الشّعر: أي كثير الشّعر مجتمعه. انظر: الفائق: ١/ ٢١٨. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ١٦٣. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٨٠.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجّال وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (٢٩٣٤)، ٤/ ٢٢٤٨ ـ ٢٢٤٩.

(٣) أفْحَج: أي متباعد ما بين الفخذين. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٣٥٢. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤١٥.

(٤) جعد: أي قصير، أو المراد: جعد الشّعر: أي شعره متعقّد ومنقبض ليس بسَبْط، والسّبط هو الممتدّ المنبسط.
وانظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ٢٧. غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٣٠٣. الفائق: ١/ ١١٣، ٤٤٤. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٧٥، ١/ ٣٣٤.

(٥) حجراء: أي ليست بصلبة متحجّرة، لكنّها رخوة لينة، وعلى تقديم الجيم: أي غائرة. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٣٥٢. الفائق: ٢/ ٣٦٨. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٤٣.

(٦) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦)، باب خروج الدَّجّال: (١٤)، برقم: (٤٣٢٠). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٧١. وانظر: صحيح الجامع، برقم: (٢٤٥٩)، ١/ ٤٨٣.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/ ٣٢٤.

(٧) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر الإخبار عن العلامة الّتي يعرف بها الدَّجّال عند خروجه، برقم: (٦٧٩٥). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١٥/ ٢٠٦. وهو في السِّلسلة الصَّحيحة، برقم: (١٨٦٣)، ٤/ ٤٧٧.

كأن عينه عنبة طافية»[1].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ أنّه ذكر الدّجّال فقال: «أعور هِجَانٌ[2] أزْهَرُ[3]، كأنّ رأسه أصَلَةٌ[4]، أشبه النّاس بعبد العُزّى بن قَطَن[5]، فإن هلك الهُلَّكُ[6]، فإنّ ربّكم ليس بأعور»[7].

---

(1) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب ذكر الدَّجّال: (٢٦/٢٧)، برقم: (٧١٢٨)، ص:١٥٠٢، وبلفظ مقارب في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦)، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]: (٤٨/٤٩)، برقم: (٣٤٤١)، ص:٧٣٠، وفي كتاب التّعبير: (٩٨/٦٦)، باب رؤيا اللّيل: (١١)، برقم: (٦٩٩٩)، ص:١٤٧٨، ونحوه في: كتاب اللّباس: (٧٧/٥١)، باب الجعد: (٦٨)، برقم: (٥٩٠٢)، ص:١٢٧٣.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدَّجّال: (٧٥)، برقم: (١٦٩)، (١٧١)، ١/١٥٦.

(2) هجان: أي أبيض. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/٣٠٧. الفائق: ٢/١٣٨. النّهاية في غريب الحديث: ٤/١٠٧، ٥/٢٤٧.

(3) أزهر: الأزهر هو الأبيض الّذي يخالط بياضه حمرة. انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/٢٧. الفائق: ٢/١٣٧. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٣٢١.

(4) أصلة: هي حيّة كبيرة الرّأس. انظر: الفائق: ٢/١٣٨. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/٣٠٧.

(5) عبد العزّى بن قطن بن عمرو بن جندب، رجل من خزاعة هلك في الجاهليّة، وأمّه هالة بنت خويلد. انظر: فتح الباري: ٦/٤٨٨، طبعة: دار المعرفة. وذكر الألباني رحمه الله: أنّه من الصّحابة. انظر: سلسلة الأحاديث الصّحيحة: ٣/١٩١، ولم أقف عليه بين أسماء الصّحابة رضي الله عنهم. فلعلّ الشّيخ رحمه الله وهم في ذلك، أو اختلط عليه أمر أكثم بن أبي الجون رضي الله عنه وهو صحابي. فقد روي أنّ رسول الله ﷺ شبّهه بالدّجّال، ولكنّ الخبر بذلك لم يصح، وإنّما الّذي صحّ تشبيه الرّسول ﷺ لأكثم بعمرو بن لحي الخزاعي. وانظر: الاستيعاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر، تحقيق: علي محمّد البجاوي، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ: ١/١٤٢. الإصابة: ١/١٠٦ ـ ١٠٧. وانظر: الطبقات الكبرى: ٤/٢٩٢.

(6) الهُلَّك: جمع هالك: أي إن هلك به ناس جاهلون وضلّوا فاعلموا أنّ الله ليس بأعور. وفي الرّواية الأخرى: الهُلْك كلّ الهُلْك: أي الهلاك كلّ الهلاك. انظر: الفائق: ٢/١٣٨. النّهاية في غريب الحديث: ٥/٢٦٩. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/٣٠٨.

(7) مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/٢٤٠. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». =

وهذه الصفات الّتي ذكرها رسول الله ﷺ: كلّها صفات ذميمة أو معظمها، وهي تبيّن كذب الدّجّال في دعواه الإلهيّة، وإنّه عاجز عن إزالة ما به من عيب ونقص، والإله سبحانه يتعالى عن النّقص. ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه فهو أعجز عن نفع غيره أو مضرّته. فلا يغتر به إلّا من لم يوفّق للهداية[1].

وقد ركّز الرّسول ﷺ على عور الدّجّال لأنّه علامة بيّنة بديهيّة يدركها كلّ أحد من الخلق عالماً كان أو عاميًّا[2].

والدّجّال يعطى من الأمور الخارقة الشّيء العظيم، وهي العوامل المؤدّية إلى فتنة النّاس وإضلالهم، فهو ينتقل في الأرض بسرعة فائقة كسرعة الغيث إذا استدبرته الرّيح، فلا يتمكّن ضعفاء العقول من الوقوف على حاله. وأنّ معه ما

= مسند أحمد، بتحقيق: أحمد شاكر: ٤/١٨ ـ ١٩، برقم: (٢١٤٨)، ونحوه في: ١/ ٣١٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد، بتحقيق: أحمد شاكر: ٤/٣٠٧، برقم: (٢٨٥٤).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر الإخبار عن وصف خلقة الدَّجَّال، ومن كان يشبه من هذه الأمّة، برقم: (٦٧٩٦). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح»: ١٥/٢٠٧. وانظر: السّلسلة الصَّحيحة برقم: (١١٩٣)، ٣/ ١٩٠.

(١) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٥٩. التَّذكرة، ص:٧٤٩.

(٢) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ٦٠. فتح الباري: ١٤/٦٠٧. عمدة القاري: ٢٤/١٧. اليوم الآخر: (١)، ص:٢٣٣.

وأمّا ما جاء من تعارض في وصف كلّ واحدة من العينين بالعور، وانطباق بقية الصّفات عليهما، وفّق بين كلّ ذلك القاضي عياض رحمه الله فيما نقله عنه الإمام النَّووي رحمه الله واستحسنه، قال:

«يجمع بين الأحاديث وتصحّح الرّوايات جميعاً بأن تكون المطموسة والممسوحة الّتي ليست بحراء ولا ناتئة هي العوراء الطّافئة بالهمز، وهي العين اليمنى كما جاء هنا، وتكون الجاحظة والّتي كأنّها كوكب، وكأنّها نخاعة هي الطّافية بغير همز، وهي العين اليسرى كما جاء في الرّواية الأخرى، وهذا جمع بين الأحاديث والرّوايات في الطَّافية بالهمز وبتركه، وأعور العين اليمنى واليسرى لأنّ كلّ واحدة منهما عوراء، فإنّ الأعور من كلّ شيء المعيب، لا سيما ما يختصّ بالعين، وكلا عيني الدّجّال معيبة عوراء، إحداهما بذهابها والأخرى بعيبها». شرح النَّووي على صحيح مسلم: ٢/ ٢٣٥. وانظر: كلام الحافظ ابن حجر رحمه الله في الجمع بين الرّوايات في فتح الباري: ١٤/٦٠٩ ـ ٦١٠.

يشبه الجنّة والنّار، فناره جنّة وجنّته نار. ومعه أنهار من الماء وجبال من الخبز. ويأمر السّماء فتمطر والأرض فتنبت، ويأمر خرائب الأرض فتتبعه كنوزها كيعاسيب[1] النّحل. ويقتل رجلاً مؤمناً ثمّ يحييه أمام أعين النّاس، ويستعين بالشّياطين ليروِّج بهم إفكه وضلاله. وكلّ ذلك من الأمور الّتي تفتن الخلق فتنة عظيمة.

وقد وردت الأحاديث الصّحيحة بما سبق ذكره، من ذلك:

ما جاء في حديث النّواس بن سمعان ﵁ وفيه: قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الرّيح. فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السّماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارِحَتُهم أطول ما كانت ذُراً[2]، وأسبغه ضروعاً، وأمدّه خواصر[3]. ثمّ يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلِين[4]، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخَرِبَة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النّحل، ثمّ يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسّيف فيقطعه جَزْلَتَيْن[5] رمية الغَرَض[6]، ثمَّ يدعوه فيقبل ويتهلّل وجهه يضحك». الحديث[7].

---

(١) يعاسيب: جمع يَعْسُوب وهو السّيّد والرّئيس والمقدّم، وأصله فحل النّحل، والمعنى أي تظهر له وتجتمع عنده كما تجتمع النّحل على يعاسيبها. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢/ ٩. الفائق: ٢/ ٤٣١.

(٢) ذُراً: جمع ذروة وهي ما علا وارتفع من السّنام. انظر: الفائق: ٢/ ٨ ـ ٩. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) وأمدّه خواصر: أي أوسعها وأتمّها. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٠٩.

(٤) ممحلين: من المَحْل وهو الجدب ويبس الأرض من الكلأ لانقطاع المطر عنها. انظر: مختار الصّحاح، ص٦١٦. لسان العرب: ١١/ ٦١٧. القاموس المحيط، ص: ١٣٦٥.

(٥) جَزْلَتين: أي قطعتين، مفردها جِزْلة. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٢٠٣. الفائق: ١/ ٢١٠. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٦) رمية الغَرَض: الغَرَض الهَدف، أراد أنّه يكون بُعْدُ ما بين القِطْعَتَين بِقَدْر رَمْيَة السَّهْم إلى الهَدَف، وقيل: معناه وَصْف الضَّرْبة، أي تُصيبُه إصابَة رَمْيَة الغَرَض. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٦٠. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٢٠٣. الفائق: ١/ ٢١٠.

(٧) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجّال=

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإنّه يجيء معه مثل الجنّة والنّار، فالّتي يقول إنّها الجنّة هي النّار»(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدّجّال منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجّج، فإمّا أدركنّ أحد فليأت النّهر الّذي يراه ناراً وليُغمّضْ، ثمّ ليطأطئ رأسه فيشرب منه فإنّه ماء بارد. . .» الحديث(٢).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: ما سأل أحد النّبي ﷺ عن الدّجّال أكثر ممّا سألته. قال: «وما سؤالك؟»، قال قلت: إنّهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء قال: «هو أهون على الله من ذلك»(٣).

= وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (٢٩٣٧)، ٤/ ٢٢٥٢ ـ ٢٢٥٣.

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «بمثال» ـ في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح: ١]: (٣٣)، برقم: (٣٣٣٨)، ص:٧٠١.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجّال وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (٢٩٣٦)، ٤/ ٢٢٥٠، جزء من حديث.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:
«إمّا أن يكون الدَّجّال ساحراً فيخيّل الشّيء بصورة عكسه، وإمّا أن يجعل الله باطن الجنّة، الّتي يسخّرها الدَّجّال ناراً، وباطن النّار جنّة، وهذا الرّاجح. وإمّا أن يكون ذلك كناية عن النّعمة والرّحمة بالجنّة، وعن المحنة والنّقمة بالنّار، فمن أطاعه فأنعم عليه بجنّته يؤول أمره إلى دخول نار الآخرة وبالعكس، ويحتمل أن يكون ذلك من جملة المحنة والفتنة، فيرى النّاظر إلى ذلك من دهشته النّار فيظنّها جنّة وبالعكس».
فتح الباري: ١٤/ ٦١٢.
وما رجّحه الحافظ هو الأولى، فلا مدعاة إلى التّأويل.

(٢) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥٠/ ٥١)، برقم: (٣٤٥٠)، ص:٧٣٢، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدَّجّال: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٧١٣٠)، ص:١٥٠٢.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب ذكر الدَّجّال وصفته وما معه: (٢٠)، برقم: (٢٩٣٤) (٢٩٣٥)، ٤/ ٢٢٤٩، وهو جزء من حديث.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدَّجّال: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٧١٢٢)، ص:١٥٠١. =

وعن أبي سعيد الخدري قال: حدّثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدّجّال فكان فيما حدّثنا قال: «يأتي وهو محرّم عليه أن يدخل نِقَاب[1] المدينة، فينتهي إلى بعض السِّبَاخ[2] الّتي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير النّاس أو من خير الناس فيقول له: أشهد أنّك الدّجّال الّذي حدّثنا رسول الله ﷺ حديثه. فيقول الدّجّال: أرأيتم إن قتلت هذا ثمّ أحييته أتشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا، قال: فيقتله ثمّ يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قطّ أشدّ بصيرة منّي الآن، قال: فيريد الدّجّال أن يقتله فلا يسلّط عليه»[3].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ـ فذكر الحديث ـ وفيه: قال ﷺ: «وإنّ من فتنته أنّ معه جنّة وناراً، فناره جنّة وجنّته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النّار على إبراهيم. وإنّ من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمّك أتشهد أنّي ربّك؟ فيقول: نعم، فيتمثّل له شيطانان في صورة أبيه وأمّه، فيقولان: يا بني اتبعه فإنّه ربّك.

= صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب في الدَّجَّال وهو أهون على الله ﷻ: (٢٢)، برقم: (٢٩٣٩)، ٤/ ٢٢٥٧ ـ ٢٢٥٨، وبلفظ مقارب في: كتاب الآداب: (٣٨)، باب جواز قوله لغير ابنه: يا بني، واستحبابه للملاطفة: (٦)، برقم: (٢١٥٢)، ٣/ ١٦٩٣.

ومعنى أهون على الله من ذلك: أي هو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله تعالى على يده مضلًّا للمؤمنين ومشكّكاً لقلوبهم، بل إنّما جعله له ليزداد الّذين آمنوا إيماناً، ويثبّت الحجّة على الكافرين والمنافقين ونحوهم، وليس معناه أنّه ليس معه شيء من ذلك. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٧٤ ـ ٧٥. وانظر: فتح الباري: ١٤/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

(١) نقاب: جمع نَقْب وهو الطّريق بين الجبلين. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٠٢.

(٢) السِّباخ: جمع سَبَخة وهي الأرض الّتي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلّا بعض الشّجر. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٣٣.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الحجّ (فضائل المدينة): (٢٩/ ٨)، باب لا يدخل الدَّجَّال المدينة: (٩/ ٢١٨)، برقم: (١٨٨٢)، ص: ٣٩٢، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدَّجَّال: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٧١٣٢)، ص: ١٥٠٢.

صحيح مسلم، بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب في صفة الدَّجَّال وتحريم المدينة عليه، وقتله المؤمن وإحيائه: (٢١)، برقم: (٢٩٣٨)، ٤/ ٢٢٥٦.

وإنّ من فتنته أن يسلّط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار، حتّى يلقى شقتين ثمّ يقول: انظروا إلى عبدي هذا فإنّي أبعثه الآن، ثمّ يزعم أنّ له ربًّا غيري. فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربّك؟ فيقول: ربّي الله، وأنت عدوّ الله، أنت الدّجّال، والله ما كنت بعد أشدّ بصيرة بك منّي اليوم. . .

وإنّ من فتنته أن يأمر السّماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت.

وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحي فيكذّبونه فلا تبقى لهم سَائِمَة[1] إلّا هلكت.

وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحي فيصدّقونه فيأمر السّماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، حتّى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصر وأدرّه ضروعاً. . » الحديث[2].

والنّبي ﷺ من رحمته بهذه الأمّة ورأفته بها أرشدها إلى المسالك الّتي تنجو بها من فتنة الدّجّال وشرّها، لعظم تلك الفتنة وخطرها على عباد الله.

فذكر ﷺ صفاته السّابقة ليعرف حاله، ويظهر أمره. وكشف عن عوامل فتنته ليكون العبد من أمره على بصيرة، ولم يكتف بذلك ﷺ بل وجّه الأمّة إلى ما يعصمها من فتنته، وينجيها من محنته.

* أمر بالتعوّذ والالتجاء إلى الله والاحتماء به من فتنته. وكان يداوم على ذلك في صلاته.

عن عائشة زوج النّبي ﷺ أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو في الصّلاة: «اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات. . » الحديث[3].

---

(١) سائمة: من السَّوْم وهو الرّعي، يقال: سامت الماشية إذا رعت فهي سائمة. غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٦٤٣. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٢٦.

(٢) سبق قريباً. انظر: ص: ١٧٥.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الصّلاة (الأذان): (١٠/ ٥)، باب الدّعاء قبل السّلام: (١٤٩/ ٣٠٠)، برقم: (٨٣٢)، ص: ١٨٢، ونحوه في: كتاب الدَّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التَّعوّذ من المأثم والمغرم: (٣٩)، برقم: (٦٣٦٨)، ص: ١٣٥٧، =

* أمر ﷺ بالبعد عنه، والفرار من وجهه لما معه من الشّبهات، وإن وثق المؤمن في نفسه.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدّجّال فلينأ عنه، فوالله إنّ الرّجل ليأتيه وهو يحسب أنّه مؤمن فيتبعه ممّا يبعث به من الشّبهات، أو لما يبعث به من الشّبهات»(١).

* أمر ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف، أو يحفظ عشر آيات منها.

عن النّواس بن سمعان رضي الله عنه في حديثه الطويل، قال ﷺ: «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»(٢).

وعن أبي الدّرداء رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عصم من الدّجّال»(٣).

= وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر، ومن فتنة الدّنيا وفتنة النّار: (٤٤)، برقم: (٦٣٧٥)، ص:١٣٥٩، وفي باب الاستعاذة من فتنة الغنى: (٤٥)، برقم: (٦٣٧٦)، ص:١٣٥٩، وفي باب التّعوّذ من فتنة الفقر: (٤٦)، برقم: (٦٣٧٧)، ص:١٣٥٩.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب ما يستعاذ منه في الصّلاة: (٢٥)، برقم: (٥٨٩)، ١/ ٤١٢، ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (٥٨٨)، ١/ ٤١٢. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما، برقم: (٥٩٠)، ١/ ٤١٣. وعن عائشة رضي الله عنها، برقم: (٥٨٩)، في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب التّعوّذ من شرّ الفتن وغيرها: (١٤)، ٤/ ٢٠٧٨ ـ ٢٠٧٩.

(١) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦)، باب خروج الدَّجّال: (١٤)، برقم: (٤٣١٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٧١، وهو في صحيح الجامع، برقم: (٦٣٠١)، ٢/ ١٠٨٠.

مسند أحمد، نحوه في: ٤/ ٤٣١، ٤٤١.

مستدرك الحاكم، نحوه في: ٤/ ٥٧٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وسكت عنه الذّهبي.

(٢) سبق، ص:١٨١.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب صلاة المسافرين: (٦)، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي: (٤٤)، برقم (٨٠٩). قال مسلم: «قال شعبة: من آخر الكهف. وقال همّام: من أوّل الكهف»: ١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦. =

* أرشد ﷺ إلى سكنى المدينة ومكّة لأنّ الدّجّال لا يدخلهما[1].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلّا سيطؤه الدّجّال إلّا مكّة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلّا عليه الملائكة صافّين تحرسها. فينزل بالسَّبخة[2] فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كلّ كافر ومنافق»[3].



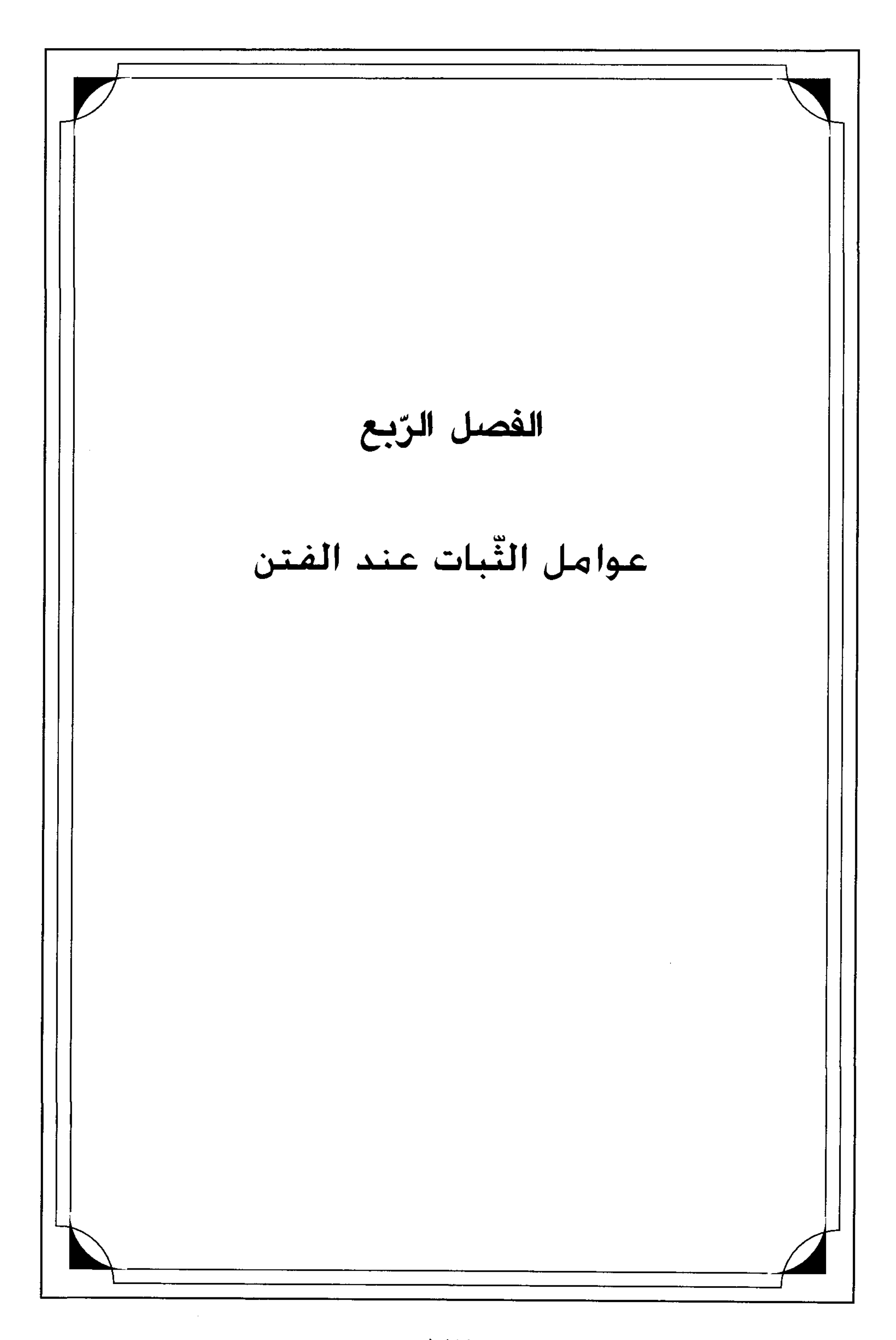
= قال النَّووي رحمه الله:

«سبب ذلك ما في أوّلها من العجائب والآيات، فمن تدبّرها لم يفتتن بالدَّجَّال، وكذا في آخرها قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ﴾ [الكهف: ١٠٢]: ٦/ ٩٣.

(١) انظر: النِّهاية في الفتن: ١/ ١٧١.

(٢) السَّبَخَةُ: أرض ذات ملح، ولا تكاد تُنْبِتُ إلَّا بعضَ الشّجر. انظر: لسان العرب: ٣/ ٢٤.
وقال أبو عبيد الأندلسي: «السّبخة: بفتح أوّله وثانيه وبالخاء المعجمة، موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين سلع الجبل المتّصل بالمدينة». معجم ما استعجم: ٣/ ٧١٧.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الحجّ (فضائل المدينة): (٢٩/ ٨)، باب لا يدخل الدَّجَّال المدينة: (٩/ ٢١٨)، برقم: (١٨٨١)، ص: ٣٩٢، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب ذكر الدَّجَّال: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٧١٢٤)، ص: ١٥٠١، ونحوه في باب لا يدخل الدَّجَّال المدينة: (٢٧/ ٢٨)، برقم: (٧١٣٤)، ص: ١٥٠٢، وفي كتاب التَّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: (٣١)، برقم: (٧٤٧٣)، ص: ١٥٦٩.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب قصّة الجسّاسة: (٢٤)، برقم: (٢٩٤٣)، ٤/ ٢٢٦٥.
وقد ألحق بعض العلماء بيت المقدس بمكّة والمدينة في عدم دخول الدَّجَّال إليه، وأوردوا في ذلك بعض الأحاديث الّتي أشاروا إلى صحّة بعضها. انظر: فتح الباري: ١٣/ ١٠٥، طبعة: دار المعرفة. القناعة، ص: ٢٩ ـ ٣٠.



الفصل الرّابع

عوامل الثّبات عند الفتن

التمهيد

عرض الفتن على القلوب

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤]. إنّ الله ﷻ بيّن في هذه الآيات أنّه يجعل ما يلقي الشّيطان من شبه وشكوك فتنة لطائفتين من النّاس:

الأولى: أصحاب القلوب المريضة الّتي بها ضعف وعدم إيمان تامّ وتصديق جازم، فتتأثر بما يلقيه الشّيطان من شبه فيدخلها الرّيب والشّك فتفتتن بذلك.

الثانية: أصحاب القلوب القاسية الغليظة، الّتي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تعي عن الله ورسوله لصلابتها وقسوتها؛ فإذا سمعت ما ألقاه الشّيطان جعلته حجّة على باطلها، ومشاقّة لله ومعاندة للحقّ، فتفتن بذلك.

وأمّا الطّائفة الثّالثة الّتي ورد ذكرها في الآيات فهم أصحاب القلوب المخبتة المتواضعة لله، المطمئنّة بما جاءها عن الله ورسوله، الخاضعة لأمر الله. فإذا سمعت ما ألقاه الشّيطان علمت أنّه باطل فتمسّكت بالحقّ، وتشبّثت بالصّراط المستقيم، وثبتت على ذلك، فلم تؤثر فيها شبهات الشّيطان ولا شكوكه[1].

---

(١) انظر: كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتّعليل، للإمام=

فالقلوب في الآية ثلاثة: قلبان مفتونان: القلب الأوّل: قلب مريض غلبت عليه العلّة فمال إلى العطب وجانب السّلامة، كقلوب أهل النّفاق الّتي فتنت بمرض الشّبهات.

كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقلوب أهل المعاصي الّتي فتنت بمرض الشّهوات.

كما قال سبحانه: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠].

والقلب الثّاني: قلب قاسي ميّت لا حياة به، يحكمه الهوى، وتقوده الشّهوة، ويسوقه الجهل، وتدفعه الغفلة، أسكرته دنياه فغاب عن آخرته[١]. فهو قلب يابس يفوق الحجارة صلابة. كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. وهو قلب أغلف مطبوع مختوم عليه، استحوذ عليه الشّيطان فلا يبصر هدى، ولا يسمع حقّاً، ولا يفقه أمراً، ولا يعقل شرعاً، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٧].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: الطّبع، ثبتت الذّنوب على القلب فحفّت به من كلّ نواحيه حتّى تلتقي عليه، التقاؤها عليه الطّبع، والطّبع الختم»[٢].

والقلب الثّالث: هو القلب المؤمن، المخبت إلى الله المطمئن، الّذي سلم من كلّ شهوة تخالف أمر الله ونهيه، وكلّ شيء تعارض خبره. خلصت

= ابن القيّم، صحّحه: محمّد بدر الدّين أبو فراس النّفساني الحلبي، مكتبة الرّياض الحديثة، الطّبعة الأولى، ١٣٢٣هـ، ص:١٠٦، ١٩٢. إغاثة اللّهفان: ١/١٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤٩١ ـ ٤٩٢.

(١) انظر: إغاثة اللّهفان: ١/١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/٧١.

عبوديته لله وخلص عمله له، وسلّم قياده لرسول الله ﷺ، فهو يسير على خطاه، ويتتبّع آثاره. فجرّد الإخلاص لله، وحقّق المتابعة لرسوله ﷺ. وتلك سمات القلب السّليم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].[1]

قال سعيد بن المسيّب رحمه الله:

«القلب السّليم هو القلب الصّحيح، وهو قلب المؤمن، لأنّ قلب الكافر والمنافق مريض»[2].

وقال ابن القيّم رحمه الله:

«القلب السّليم هو الّذي سلم من الشّرك والغل والحقد والحسد والشّح والكبر وحبّ الدّنيا والرّياسة، فسلم من كلّ آفة تبعده من الله، وسلم من كلّ شبهة تعارض خبره، ومن كلّ شهوة تعارض أمره، وسلم من كلّ إرادة تزاحم مراده، وسلم من كلّ قاطع يقطعه عن الله. فهذا القلب السّليم في جنّة معجّلة في الدّنيا، وفي جنّة في البرزخ، وفي جنّة يوم المعاد، ولا يتمّ له سلامته مطلقاً حتّى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التّوحيد، وبدعة تخالف السّنّة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذّكر، وهوى يناقض التّجريد والإخلاص»[3].

فلمّا صحّ هذا القلب وسلم لله إخلاصاً ومحبّة وتوكّلاً وإخباتاً وخشية، ولرسوله ﷺ انقياداً وتحكيماً، وطاعة والتزاماً، وعلم الله صدقه ووفائه أنزل الطمأنينة والثّبات عليه، كما قال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨][4].

فلا تضرّ صاحبه فتنة، ولا تؤثر فيه شبهة، ولا يحدث له شكّ ولا ريب، ولو عرضت عليه الفتن عرضاً.

---

(١) وانظر: إغاثة اللّهفان: ١/٧. (٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/٥٤٢.

(٣) كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدّواء الشّافي، لابن القيّم، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ص: ٨٤.

(٤) وانظر معنى الآية في: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٧٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٩٣.

عن حذيفة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحَصِير[1] عوداً عوداً، فأيّ قلب أُشْرِبَها نكت[2] فيه نُكْتَةٌ سوداء، وأيّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتّى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصَّفا[3] فلا تضرُّه فتنة ما دامت السّماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادّاً[4] كالكُوز[5] مُجَخِّياً[6] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلّا ما أُشرب من هواه»[7].

لقد شبّه الرّسول ﷺ عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير عوداً عوداً، وذلك أنّ ناسج الحصير كلّما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه. فشبّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً تلو الآخر. وقسّم القلوب إلى قسمين:

قلب كلّما عرضت عليه فتنة أشربها، ودخلت فيه دخولاً تامّاً، وحلّت منه محلّ الشّراب. فلا يزال يشرب كلّ فتنة تعرض عليه حتّى يسود وينتكس، فلا يعلق به خير ولا حكمة، مثل الكوز المنكوس، فيشتبه عند ذلك عليه المعروف بالمنكر فلا يميّز بينهما، بل قد يعتقد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ويتحكّم فيه هواه فينقاد له ويتبعه.

---

(١) الحصير: هو البساط الصّغير المنسوج من النّبات. انظر: لسان العرب: ٤/ ١٩٦.

(٢) نكت: يقال: نكت الأرض بقضيب: هو أن يضربها بطرفه فيؤثّر فيها، والنّكتة أثر قليل كالنّقطة. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١١٢ ـ ١١٣.

(٣) الصّفا: جمع صفاة، وهي الصّخرة والحجَر الأملس. المرجع السّابق: ٣/ ٤١.

(٤) مربادًا: من الرُّبْدة وهي لون الرّماد، أو لون بين السّواد والغبرة. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ١٢١. الفائق: ٢/ ٤١٨. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٨٣.

(٥) الكُوز: من الأواني معروف، وهو كوب له عروة، من اكتاز الماء: أي اغترفه. انظر: لسان العرب: ٥/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٦) مُجَخِّياً: أي مائلاً. غريب الحديث للهروي: ٤/ ١٢٠ ـ ١٢١. الفائق: ٢/ ٤١٨.
قال ابن الأثير ﵀: «المجخّي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشَبَّه القَلْب الَّذي لا يعي خَيْراً بالكُوز المائل الَّذي لا يَثْبُت فيه شيء. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٤٢.

(٧) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنّه يأرز بين المسجدين: (٦٥)، برقم: (١٤٤)، ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

وقلب أبيض تلألأ نور الإيمان فيه، وأشرقت فيه شمسه، وكان كالصّخر الأملس الّذي قوي وصلب، وسلم من الخلل فلا يعلق به شيء. وهكذا هذا القلب لا تلصق به الفتن ولا تؤثّر فيه، وإذا عرضت عليه أنكرها وردّها، وزاد إيمانه، وقوي نوره. فالأوّل قلب من افترسته الفتن وأهلكته، والثّاني قلب من ثبت عندها فلم يتزعزع ولم يتضعضع[1].

وهنالك عوامل معينة ومساعدة على الثّبات عند الفتن يلجأ إليها المؤمن أو إلى بعضها متى ما عرضت عليه الفتن أو دهمته. ومنها أمور يحتاط بها المؤمن تجنّباً للفتنة قبل حلولها عليه، أتناول منها بإذن الله ما يمكن تناوله في المباحث الآتية:

(١) انظر معنى الحديث في: شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٧١ ـ ١٧٤. إغاثة اللّهفان: ١/ ١٢.



التَّعوّذ من الفتن

إنّ المسلم لا بد أن يلجأ إلى الله، ويستعيذ به لدفع الفتن عنه. فإنّه متى ما طرح نفسه بين يدي ربّه سبحانه مستعيناً به، راغباً إليه، ملتجئاً إلى جنابه، مفتقراً إليه، أعاذه ربّه من شرّها، وحماه من مفاسدها، وثبّته على الإسلام.

وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ، ويأمر غيره بالاستعاذه منها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النّبي ﷺ يقول: «اللّهم إنّي أعوذ بك من فتنة النّار وعذاب النّار، وفتنة القبر وعذاب القبر، وشرّ فتنة الغنى وشرّ فتنة الفقر، اللّهم إنّي أعوذ بك من شرّ فتنة المسيح الدّجّال...» الحديث[1].

وعنها رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو في الصّلاة: «اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللّهم إنّي أعوذ بك من المأثم والمغرم[2]». فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟ فقال: «إنّ الرّجل إذا غرم حدّث فكذب ووعد فأخلف»[3].

---

(١) الحديث سبق ص: ١٨٤. إلا أنّ هذه الرّواية بهذا اللّفظ في صحيح البخاري، كتاب الدَّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التَّعوّذ من فتنة الفقر: (٤٦)، برقم: (٦٣٧٧)، ص: ١٣٥٩.

(٢) قال ابن الأثير رحمه الله:
«المَغْرَم: مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضع الاسم، ويُريدُ به مَغْرَم الذُّنوب والمَعاصي، وقيل: المَغْرَم كالغُرْم وهو الدَّيْن، ويُريدُ به ما اسْتُدين فيما يكْرَهُه الله أو فيما يَجُوز ثمّ عَجز عن أدائه، فأمّا دَيْنٌ احتاج إليه وهو قادر على أدائه فلا يُسْتَعاذُ منه». النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٦٣.

(٣) الحديث سبق ص: ١٨٤.

وفي رواية: «وأعوذ بك من فتنة الدّنيا»[1].

وعن عمّار بن ياسر ﵄ ـ فذكر الحديث ـ وفيه: «وأعوذ بك من ضرّاء مضرّة، وفتنة مضلّة»[2].

وعن زيد بن ثابت ﵁ ـ فذكر الحديث ـ وفيه: قال ﷺ: «تعوّذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، قال: «تعوّذوا بالله من فتنة الدّجال»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدّجّال»[3].

وعن أنس ﵁ عندما أكثروا على النّبي ﷺ في المسألة، وفيه: ثم أنشأ عمر فقال: «رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن»[4].

---

(١) هذه الرّواية وردت من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ في صحيح البخاري، في كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التّعوّذ من عذاب القبر: (٣٧)، برقم: (٦٣٦٥)، ص:١٣٥٧، وفي باب التّعوّذ من البخل: (٤١)، برقم: (٦٣٧٠)، ص:١٣٥٨، وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدّنيا وفتنة النّار: (٤٤)، برقم: (٦٣٧٤)، ص:١٣٥٩، ونحوه في باب التّعوّذ من فتنة الدّنيا: (٥٦)، برقم: (٦٣٩٠)، ص: ١٣٦١.

(٢) سنن النّسائي، بلفظه ـ جزء من حديث طويل ـ في: كتاب السّهو: (١٣)، باب نوع آخر من الدّعاء: (٦٢)، برقم: (١٣٠٦)، وبلفظ مقارب برقم: (١٣٠٥). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ١٥٤.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «ومن فتنه» ـ في: ٤/ ٢٦٤.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر جواز دعاء المرء في الصّلاة بما ليس في كتاب الله، برقم: (١٩٧١). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي»: ٥/ ٣٠٥.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٧٠٥، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) صحيح مسلم، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب عرض مقعد الميّت من الجنّة أو النّار عليه، وإثبات عذاب القبر والتّعوّذ منه: (١٧)، برقم: (٢٨٦٧)، ٤/ ٢١٩٩ ـ ٢٢٠٠.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا أنه قال: «من الفتن» ـ في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب التّعوّذ من الفتن: (١٥)، برقم: (٧٠٨٩)، ص:١٤٩٥، ونحوه في كتاب مواقيت الصّلاة: (٩/ ٥)، باب وقت الظّهر عند الزّوال: (١١/ ١٢٠)، برقم: (٥٤٠)، =

وفي الرّواية الأخرى: قال: «عائذاً بالله من شرّ الفتن»[1].

قال ابن بطّال رَحِمَهُ اللَّهُ: **عند قوله** ﷺ: «أعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات»:

«هذه كلمة جامعة لمعان كثيرة، وينبغي للمرء أن يرغب إلى ربّه في رفع ما نزل، ودفع ما لم ينزل، ويستشعر الافتقار إلى ربّه في جميع ذلك، وكان ﷺ يتعوّذ من جميع ما ذكر دفعاً عن أمّته، وتشريعاً لهم ليبيّن لهم صفة المهمّ من الأدعية»[2].

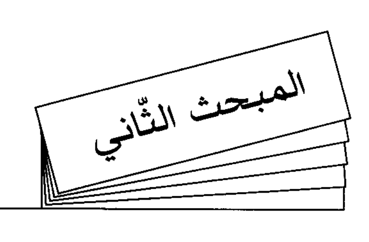
فلا تدفع الفتن بأعظم من الالتجاء إلى المولى سبحانه، والاعتماد عليه، والاستعانة به في كشف شرورها، والتّحرّز من الوقوع فيها، فمن لجأ إليه، واعتمد عليه، واستعان به فقد أوى إلى ركن ركين، ومعين لا يغلب، وناصر لا يهزم.



= ص:١٢٨، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/٧١)، باب ما يكره من كثرة السّؤال وتكلّف ما لا يعنيه: (٣/٤)، برقم: (٧٢٩٤)، ص:١٥٣٣.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل: (٤٣)، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤال: عمّا لا ضرورة إليه، أو لا يتعلّق به تكليف، وما لا يقع ونحوه ذلك: (٣٧)، برقم: (٢٣٥٩)، ٤/١٨٣٤، ونحوه في: (٤/١٨٣٢).

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب التّعوّذ من الفتن: (١٥)، برقم: (٧٠٩١)، ص:١٤٩٦، ونحوه برقم: (٧٠٩٠).

(٢) نقلاً عن فتح الباري: ١٢/٤٦٨.



تجنّب الفتن والفرار منها

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

روى ابن جرير رحمه الله بسنده إلى الحسن[1] وقتادة رحمهما الله وغيرهما أنّ هذه الآية نزلت في عليّ وعثمان وطلحة والزّبير رضي الله عنهم.

قال الزّبير رضي الله عنه:

«قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيّون بها»[2].

عن مطرّف رحمه الله[3] قال:

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد البصري، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، ثقة فقيه فاضل مشهور، رأس في العلم والعمل، كان يرسل كثيراً ويدلّس، توفي سنة ١١٠هـ.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٢/ ٢٨٩. الجرح والتّعديل: ٣/ ٤٠. ثقات ابن حبّان: ٤/ ١٢٢. تهذيب الكمال: ٦/ ٩٥. الكاشف: ١/ ٣٢٢. جامع التّحصيل، ص:١٦٢. تهذيب التّهذيب: ٢/ ٢٣١. تقريب التّهذيب: ١/ ١٦٠. طبقات المدلّسين، ص:٢٩.

(٢) جامع البيان: ١٣/ ٤٧٣، طبعة: شاكر.

(٣) هو مطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير أبو عبد الله العامري الحَرَشي البصري، من خيار التّابعين، وأبوه صحابي، ثقة فاضل مشهور، عابد، زاهد، رأس في العلم والعمل، توفي سنة ٩٥هـ، وقيل غير ذلك.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ١٤١. طبقات خليفة، ص:١٩٧. التّاريخ الكبير: ٧/ ٣٩٦. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٨٢. الجرح والتّعديل: ٨/ ٣١٢. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٤٢٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٨. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٧٣٤. تهذيب الكمال: ٢٨/ ٦٧. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٦٤. الكاشف: ٢/ ٢٦٩. الإصابة: ٦/ ٢٦٠. تهذيب التّهذيب: ١٠/ ١٥٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٣٤.

«قلنا للزّبير رضي الله عنه: يا أبا عبد الله ما جاء بكم، ضيّعتم الخليفة حتّى قتل، ثمّ جئتم تطلبون بدمه؟ قال الزّبير رضي الله عنه:

«إنّا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ لم نكن نحسب أنّا أهلها حتّى وقعت منّا حيث وقعت»[1].

وعن السُّدِّي رحمه الله[2] **قال:**

«هذه نزلت في أهل بدر خاصة، وأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما **قال:**

«أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم الله بالعذاب».

وعن مجاهد رحمه الله **قال:**

«هي أيضاً لكم»[3].

قال ابن كثير رحمه الله في قول ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«هذا تفسير حسن جدّاً». وعضّده بقول مجاهد رحمه الله.

ثمّ قال: «والقول بأنّ هذا التّحذير يعمّ الصّحابة وغيرهم وإن كان

---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ١/ ١٦٥. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٣/ ٩، برقم: (١٤١٤)، ونحو في: ١/ ١٦٧. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٣/ ٢٣، برقم: (١٤٣٨).
مسند الطّيالسي، نحوه برقم: (١٩٢)، ص: ٢٧.

(٢) السُّدِّي هو إسماعيل بن عبد الرّحمٰن بن أبي كريمة أبو محمّد القرشي الكوفي الأعور، كان يقعد في سدّة باب الجامع بالكوفة فسمّي السّدّي، وهو السّدّي الكبير، روى عن بعض الصّحابة، وهو صدوق يهم، وقد رمي بالتّشيّع، توفي سنة ١٢٧هـ.
انظر: طبقات ابن سعد: ٦/ ٣٢٣. ضعفاء العقيلي: ١/ ٨٧. الجرح والتّعديل: ٢/ ١٨٤. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١١١. تهذيب الكمال: ٣/ ١٣٢. الكاشف: ١/ ٢٤٧. سير أعلام النُّبلاء: ٥/ ٢٦٤. تهذيب التّهذيب: ١/ ٢٧٣. تقريب التّهذيب: ١/ ١٠٨.

(٣) جامع البيان: ١٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥، طبعة: شاكر.

الخطاب معهم هو الصّحيح، ويدلّ عليه الأحاديث الواردة في التّحذير من الفتن»[1].

ففي الآية تحذير من الله لعباده المؤمنين باجتناب أصحاب المعاصي والذّنوب لأنّ العقاب والمحن إذا وقعت عمّت المسيء وغيره، ولا تخصّ من باشر الذّنب، ما دام أقرّ، ولم يدفع ولم يرفع[2].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ الله:

«ومقصود الآية: واتّقوا فتنة تتعدّى الظّالم، فتصيب الصّالح والطّالح»[3].

وهذا المعنى هو الّذي تعضّده الأحاديث المتكاثرة عن رسول الله ﷺ.

من ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: عَبِثَ رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله. فقال: «العجب إنّ ناساً من أمّتي يؤُمُّون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت، حتّى إذا كانوا بالبَيْدَاء خسف بهم»، فقلنا: يا رسول الله إنّ الطّريق قد يجمع النّاس، قال: «نعم، فيهم المستبصر، والمجبور، وابن السّبيل، يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدرون مصادر شتّى، يبعثهم الله على نيّاتهم»[4].

قال الإمام النّووي رَحِمَهُ الله:

«وفي هذا الحديث من الفقه: التّباعد من أهل الظّلم، والتّحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين، لئلّا يناله ما يعاقبون به. وفيه

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٧١.

(٢) انظر: المرجع السّابق: ٢/ ٤٧١. محاسن التأويل: ٨/ ٢٩٧٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٩٣.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب الخسف بالجيش الّذي يؤمّ البيت: (٢)، برقم: (٢٨٨٤)، ٤/ ٢٢١٠ ـ ٢٢١١.
معنى: يؤمّون: أي يقصدون. والبيداء: الأرض الملساء الّتي لا شيء بها، والمراد بها بيداء المدينة وهي الّتي أمام ذي الحليفة إلى جهة مكّة، والمستبصر: المستبين لذلك القاصد له عمداً. والمجبور: المكره، ويهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتّى: أي يقع الهلاك في الدّنيا على جميعهم، ثمّ يبعثون مختلفين على قدر نيّاتهم فيجازون بحسبها. انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٥ ـ ٧.

أنّ من كثّر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدّنيا»[1].

ولهذا أمر النّبي ﷺ باجتناب الفتن، والابتعاد عنها وعن أهلها، حتّى لا يصاب المسلم بشرّها، فيدخل فيمن دخل فيها، أو يهلك فيمن هلك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السّاعي. من تَشَرَّفَ لها تَسْتَشْرِفْهُ[2] فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به»[3].

وفي الرّواية الأخرى: «تكون فتنة النّائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من السّاعي. فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليستعذ»[4].

فقد حثّ النّبي ﷺ على تجنّب الفتن، والبعد عنها، والهرب منها، وعدم التّشبّث بشيء منها. وأنّ شرّها يكون على حسب التّعلّق بها[5].

نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن الدّاودي أنّه قال:

«إنّ المراد من يكون مباشراً لها في الأحوال كلّها، يعني أنّ بعضهم في

---

(١) المرجع السّابق: ١٨/٧.

(٢) أي من تطلّع إليها وتعرّض لها واتته فوقع فيها. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٤٦٢.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم: (٩)، برقم: (٧٠٨١)، ص:١٤٩٣، وبلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٠١)، ص:٧٥٨، وفي كتاب الفتن: (٩٢/٦٧)، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم: (٩)، برقم: (٧٠٨٢)، ص:١٤٩٣ ـ ١٤٩٤.

صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «ومن وجد» ولم يذكر: «معاذاً» ـ في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣)، برقم: (٢٨٨٦)، ٤/ ٢٢١١ ـ ٢٢١٢.

(٤) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢)، باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣)، برقم: (٣٨٨٦)، ٤/٢٢١٢.

(٥) انظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/٩. مختصر سنن أبي داود مع معالم السّنن وتهذيب ابن القيّم: ٦/١٤٩. فتح الباري: ١٤/٥٢٦. عون المعبود: ١١/٢٢٤. الإذاعة، ص:٢٣ ـ ٢٤.

ذلك أشدّ من بعض. فأعلاهم في ذلك السّاعي فيها بحيث يكون سبباً لإثارتها، ثمّ من يكون قائماً بأسبابها وهو الماشي، ثمّ من يكون مباشراً لها وهو القائم، ثمّ من يكون مع النّظّارة ولا يقاتل وهو القاعد، ثمّ من يكون مجتنباً لها ولا يباشر ولا ينظر، وهو المضطجع اليقظان، ثمّ من لا يقع منه شيء من ذلك ولكنّه راضي وهو النّائم، والمراد بالأفضليّة في هذه الخيريّة من يكون أقلّ شرّاً ممن فوقه على التّفصيل المذكور»[1].

وكلّما بعد الإنسان من الفتن كان أفضل ممّن قرب منها، وأسلم له في دينه. يوضّح ذلك ما جاء من زيادة في رواية أبي بكرة رضي الله عنه: قال ﷺ: «فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه..» الحديث[2].

وعن أمّ مالك البَهْزِيَّة قالت: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرّبها قالت: قلت يا رسول الله من خير النّاس فيها؟ قال: «رجل في ماشيته يؤدّي حقّها ويعبد ربّه، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدوّ ويخيفونه»[3].

وعند أحمد والطّبراني رحمهما الله: «رجل معتزل في ماله يعبد ربّه ويؤدّي حقّه»[4].

وقد جاءت الرّوايات تترى عن النّبي ﷺ، وبصيغ متعدّدة تحذّر من الدّنو من الفتن، وتأمر بالابتعاد عنها. من ذلك:

---

(١) فتح الباري: ١٤/٥٢٦.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣)، برقم: (٢٨٨٧)، ٤/٢٢١٢ ـ ٢٢١٣.

(٣) سنن التّرمذي، كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء كيف يكون الرّجل في الفتنة: (١٥)، برقم: (٢١٧٧). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦١ ـ ٣٦٢. انظر: «السّلسلة الصّحيحة»: ٢/٣١٨، برقم: (٦٩٨). وانظر: صحيح البخاري، كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥)، باب العزلة راحة من خلاط السّوء: (٣٤)، برقم: (٦٤٩٤)، ص: ١٣٨١.

(٤) مسند أحمد، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: ٦/٤١٩.
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه برقم: (٣٦٠)، ٢٥/١٥٠.

* الدّعوة إلى اجتنابها، والسّعادة لمن جنّبها:

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: أيْمُ الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ السّعيد لمن جنّب الفتن، إنّ السّعيد لمن جنّب الفتن، إنّ السعيد لمن جنّب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فَوَاها[1]»[2].

* الأمر باعتزالها:

عن كُرْز الخُزَاعي قال: أتى النّبيّ ﷺ أعرابيّ فقال: يا رسول الله هل لهذا الأمر من منتهى؟ قال: «نعم! فمن أراد الله خيراً من أعجم أو عرب أدخله عليهم ثمّ تقع فتن كالظُّلَل[3] يعودون فيها أساود صُبّاً[4]، يضرب بعضكم رقاب بعض، وأفضل النّاس يومئذ مؤمن معتزل في شعب[5] من الشّعاب يتّقي ربّه تبارك وتعالى ويدع النّاس من شرّه»[6].

---

(١) فواها: كلما تقال للتَّلَهف، وقد توضع موضع الإعجاب بالشّيء، وقد ترد بمعنى التّوجّع، وقيل: التّوجّع يقال فيه: آها. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/١٤٣. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) سنن أبي داود، بلفظ في: كتاب الفتن والملاحم: (٣٤)، باب في النّهي عن السّعي في الفتنة: (٢)، برقم: (٤٢٦٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٦٥. وانظر معنى الحديث في: عون المعبود: ١١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢. إتحاف الجماعة: ١/ ٦٥.

(٣) الظُّلل: جمع ظُلَّة وهي: كلّ ما أظلّك، أراد كأنّها الجبال أو السّحب. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٦٠.

(٤) الأسود أخبث الحيّات وأعظمها. والصّبّ: جمع صَبُوب. وأصله إنّ الأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع ثمّ انصبّ على الملدوغ، شبّه سرعتهم في الدّخول للفتن كسرعة انصباب الأسود إذا نهش. وقيل: الأساود جمع أُسودة، وأسودة جمع سَواد من النّاس وهم الجماعة وصُبَّى بوزن عُزَّى، جمع صاب من الصَّبْوة، أي جماعات مائلة إلى الدّنيا متشوّفة إليها، أو تخفيف صابئ من صبا عليه إذا أُنْذِرَ من حيث لا يحتسب، أي إنّهم يميلون إلى الفتن جماعات كثيرة. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢/٤٢٨. الفائق: ٢/٢٠٨. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٤١٩، ٣/٥، ١١.

(٥) الشِعْب والشُّعْبة: هو ما تشعّب من الشّيء أي تفرّع منه، وشُعب الجبال ما تفرّق من رؤوسها. انظر: الفائق: ٢/ ٢٥١.

(٦) مسند أحمد، بلفظه في: ٣/٤٧٧. قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح». =

*** الدّعوة إلى الفرار منها:**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعْف[1] الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن»[2].

*** الأمر بلزوم البيت، وكفّ اللّسان، والاهتمام بأمر نفسه، وترك غيره:**

وفي ذلك دعوة إلى اعتزال الفتن وأهلها، وإغلاق كلّ المسالك الّتي تؤدّي إليها.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بينما نحن حول رسول الله إذ ذكر الفتنة فقال: «إذا رأيتم النّاس قد مَرِجَت[3] عهودهم، وخفّت أماناتهم، وكانوا هكذا» وشبّك بين أصابعه قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: «الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف،

= شرح السّنّة: ١٥/ ٢٩، هامش (٢). وانظر: الموسوعة الحديثيّة، مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٥/ ٢٦٢، هامش: (١).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه برقم: (٥٩٥٦). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ١٣/ ٢٨٧.

مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ٨٩، وقال: «هذا حديث صحيح وليس له علّة ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «لم يخرجاه لتفرّد عروة عن كرز وهو صحابي».

مسند أبي داود الطّيالسي، نحوه برقم: (١٢٩٠)، ص١٨٢.

(١) شَعْف: شعف كلّ شيء أعلاه، وجمعه شِعاف، والمراد رأس الجبال. انظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ٧. الفائق: ٢/ ٢٤٨. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٨١.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الإيمان: (٢)، باب من الدّين الفرار من الفتن: (١٢)، برقم: (١٩)، ص:١٨، وفي كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال: (١٥)، برقم: (٣٣٠٠)، ص:٦٩٤، إلّا إنّه قال: «مال الرّجل»، وفي كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب التّعرّب في الفتنة: (١٤)، برقم: (٧٠٨٨)، ص:١٤٩٥، وبلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٠٠)، ص:٧٥٨، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب العزلة راحة من خلاط السّوء: (٣٤)، برقم: (٦٤٩٥)، ص:١٣٨١.

(٣) مَرِجَت: أي اختلطت وفسدت، وأصل المَرَج أن يقلق الشّيء فلا يستقر. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٣٦٨. الفائق: ١/ ٢٦٠. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣١٤.

ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصّة نفسك، ودع عنك أمر العامّة»[1].

* والأحاديث دالّة على اعتزال الفتن واجتناب أهلها. وقد أدّى ذلك إلى اختلاف السّلف رحمهم الله في أصل العزلة، وهل هي جائزة مطلقاً لهذه الأحاديث أم مقيّدة بشروط أخرى؟.

فذهب الجمهور إلى أن الاختلاط بالنّاس أولى، لما يترتّب على ذلك من الفوائد الدّينيّة، كالقيام بشعائر الإسلام، وتكثير سواد المسلمين، وإيصال الخير إليهم.

وذهب قوم إلى أنّ العزلة أولى لتحقّق السّلامة فيها.

وذهب البعض إلى تفضيل المخالطة لمن غلب على ظنّه أنّه لا يقع في معصية، فإن أشكل عليه الأمر فالعزلة أولى.

---

(١) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦)، باب الأمر والنّهي: (١٧)، برقم: (٤٣٤٣). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ونحوه برقم: (٤٣٤٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٧٤.
سنن ابن ماجه، نحوه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب التّثبّت في الفتنة: (١٠)، برقم: (٣٩٥٧). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٢٥. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ١/ ٣٦٧، برقم: (٢٠٥).
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٢/ ٢١٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح».
مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١١/ ١٧٢ ـ ١٧٣، برقم: (٢٩٨٧)، ونحوه في: ٢/ ١٦٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١٠/ ٩ ـ ١٣، برقم: (٦٥٠٨)، ونحوه في: ٢/ ٢٢٠. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١٢/ ١٢، برقم: (٧٠٤٩).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه برقم: (٥٩٥٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم». عن أبي هريرة رضي الله عنه: ١٣/ ٢٧٩، ونحوه عنه برقم: (٥٩٥١)، ١٣/ ٢٨١، وبرقم: (٦٧٣٠)، ١٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٢/ ١٧١، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه بهذه السّياقة». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط البخاري ومسلم»، ونحوه في: ٤/ ٤٨١، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح». مسند أبي يعلى، نحوه برقم: (٥٥٩٣).
وانظر: شرح السّنّة: ١٥/ ١٣، برقم: (٤٢٢١). وانظر: شرح الحديث في: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ١٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١. عون المعبود: ١١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وذهب آخرون: إلى أنّ الأمر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فمنهم من يتحتّم عليه المخالطة، ومنهم من تترجّح المخالطة في حقّه، ومنهم من يستوي عنده الأمران، فلا يتحقّق أحدهما من الآخر، ومنهم من تترجّح عنده العزلة.

وهذا كلّه حيث لا تكون فتنة عامّة، فإن وقعت الفتنة ترجّحت العزلة، لما يحدث في الغالب من الوقوع في المحذور، ووقوع العقوبة على أصحاب الفتن وغيرهم[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والمقصود أنّه إذا ظهرت الفتن فإنّه يسوّغ اعتزال النّاس حينئذ»[(٢)].

وقال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ اعتزال النّاس عند ظهور الفتن والهرب عنهم أسلم للدّين من مخالطتهم»[(٣)].

وقد أمر النّبيّ ﷺ بعض الصّحابة رضي الله عنهم باعتزال الفتن وتجنّبها. وقد فعلوا رضي الله عنهم فلم يخوضوا في الفتن الّتي وقعت في عصرهم. من أولئك:

* **أبو ذر** رضي الله عنه:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر»، قلت: لَبَّيْك يا رسول الله وسَعْدَيْك[(٤)] ـ فذكر الحديث ـ قال فيه: «كيف أنت إذا أصاب

---

(١) انظر: فتح الباري: ١٤/ ٥٤١. وانظر: ١٣/ ١٣٢.

(٢) النّهاية في الفتن: ١/ ٣٧.

(٣) عمدة القاري: ٢٣/ ٨٣.

(٤) لبيك: من التّلبية، مأخوذة من لبّ فلان بالمكان إذا لزمه. ومعنى لبيك: أي أنا مقيم على طاعتك وأمرك، وإنّما تنوّه للتّوكيد لأنّهم أرادوا به: إقامة بعد إقامة، وطاعة مع طاعة، وإجابة بعد إجابة.

انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ١٥ ـ ١٦، ٤/ ٤٠٢. غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٢٢٠، وقيل معناه: إجابة ومساعدة، والمساعدة المطاوعة، أي: أجيبك إجابة وأطيعك طاعة، والمراد بالتّثنية التّكرير والتّكثير. انظر: الفائق: ٢/ ١٧٩. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٦٦.

النّاس موت يكون البيت فيه بالوَصِيف[1]» ـ يعني القبر ـ قلت: الله ورسوله أعلم. أو قال: ما خار الله لي ورسوله؟ قال: «عليك بالصّبر»، أو قال: «تصبر»، ثمّ قال لي: «يا أبا ذر» قلت: لبيك وسعديك، قال: «كيف أنت إذا رأيت أحجار الزّيت[2] قد غرقت بالدّم»؟ قلت: ما خار الله لي ورسوله؟ قال: «عليك بمن أنت منه»، قلت: يا رسول الله أفلا آخذ سيفي وأضعه على عاتقي[3]؟ قال: «شاركت القوم إذن»، قلت: فما تأمرني؟ قال: «تلزم بيتك». قلت: فإن دخل عليّ بيتي؟ قال: «فإن خشيت أن يبهرك شعاع السّيف فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه»[4].

*** محمّد بن مسلمة رضي الله عنه:**

عن أبي بردة[5] قال: دخلت على محمّد بن مسلمة فقال: إنّ رسول الله ﷺ

---

(١) الوصيف: هو العبد، والأمة وصيفة، وجمعها وصفاء ووصائف، يريد يكثر الموت حتّى يصير موضع قبر يشترى بعبد من كثرة الموت، وقبر الميّت بيته. النّهاية في غريب الحيث: ٥/ ١٩١.

(٢) أحجار الزّيت: جمع حجر منسوبة إلى الزّيت الّذي يؤتدم به، موضع متّصل بالمدينة قريب من الزّوراء، إليه كان يبرز رسول الله ﷺ إذا استسقى. معجم ما استعجم: ١/ ٤٢٦. وانظر: معجم البلدان: ١/ ١٠٩.

(٣) العاتق: هو المَنْكِب. انظر: القاموس المحيط، ص١١٧٠.

(٤) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الفتن والملاحم: (٣٤)، باب في النّهي عن السّعي في الفتنة: (٢)، برقم: (٤٢٦١). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٦٥، ونحوه في: كتاب الحدود: (٣٧)، باب في قطع النّبّاش: (٢٠)، برقم: (٤٤٠٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٨٢.
سنن ابن ماجه، نحوه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب التّثبّت في الفتنة: (١٠)، برقم: (٣٩٥٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٢٥.
مسند أحمد، نحوه في: ٥/ ١٤٩، ١٦٣.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٢/ ١٦٩، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط البخاري ومسلم»، ونحوه في: ٤/ ٤٧٠.
مسند الطّيالسي، نحوه برقم: (٤٥٩).
وانظر: شرح السّنّة، برقم: (٤٢٢٠)، ١٥/ ١٢.

(٥) أبو بردة: هو ابن عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري، قيل: اسمه عامر ـ وعليه الأكثرية ـ وقيل: الحارث، وقيل: اسمه كنيته، تابعي، روى عن جماعة من الصّحابة، =

قال: «إنّها ستكون فتنة وفرقة واختلاف، فإذا كان كذلك فأت بسيفك أحداً فاضربه حتّى ينقطع، ثمّ اجلس في بيتك حتّى تأتيك يد خاطئة، أو مَنِيَّةٌ[1] قاضية». فقد وقعت، وفعلت ما قال رسول الله ﷺ»[2].

ومحمّد بن مسلمة رضي الله عنه هو الّذي قال عنه حذيفة رضي الله عنه: «إنّي لأعرف رجلاً لا تضرّه الفتن شيئاً، قال[3]: فخرجنا فإذا فسطاط مضروب، فدخلنا فإذا فيه محمّد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك فقال: ما أريد أن يشتمل عليّ شيء من أمصاركم حتّى تنجلي عمّا انجلت»[4].

*** أهبان بن صيفي الغفاري رضي الله عنه:**

عن عُدَيْسَة بنت أهبان[5] قالت: لمّا جاء عليّ بن أبي طالب ههنا البصرة

= ثقة، فقيه، من نبلاء العلماء، كثير الحديث، تولّى القضاء بالكوفة، توفي سنة ١٠٤هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٢٦٨. طبقات خليفة، ص:١٥٨. التّاريخ الكبير: ٦/ ٤٤٧. معرفة الثّقات، ص:٢/ ٣٨٧. الجرح والتّعديل: ٦/ ٣٢٥. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٨٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٠٤. تهذيب الكمال: ٣٣/ ٦٦. التّعديل والتّجريح: ٣/ ٩٩٠. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٩٥. الكاشف: ٢/ ٤٠٧. جامع التّحصيل، ص:٢٠٤. تهذيب التّهذيب: ١٢/ ٢١. تقريب التّهذيب: ١/ ٦٢١.

(١) المنيّة: هي الموت أو قدر الموت. انظر: لسان العرب: ١٥/ ٢٩٤. القاموس المحيط، ص:١٧٢١. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٣٠٧.

(٢) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب التّثبّت في الفتنة: (١٠)، برقم: (٣٩٦٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٢٦. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٣/ ٣٦٩.
مسند أحمد، نحوه في: ٣/ ٤٩٣.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٣/ ١٢٧.

(٣) القائل هو: ثعلبة بن ضبيعة راوي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه.

(٤) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب السّنّة: (٣٩)، باب ما يدلّ على ترك الكلام في الفتنة: (١٢)، برقم: (٤٦٦٤). قال الألباني رحمه الله: «صحيح لغيره»، ص:٥٠٩.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٣/ ٤٩١ ـ ٤٩٢، وقال: «هذه فضيلة كبيرة بإسناد صحيح». وقال الذهبي رحمه الله: «صحيح».

(٥) عديسة ـ بالتّصغير ـ بنت أهبان بن صيفي الغفاري، تابعيّة، وأبوها من الصّحابة رضي الله عنهم، روت عنه وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قال عنها ابن حجر رحمه الله: «مقبولة».
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٨/ ٤٨١. تهذيب الكمال: ٣٥/ ٢٤٠. الكاشف: ٢/ ٥١٤. تهذيب التّهذيب: ١٢/ ٤٦٥. تقريب التّهذيب: ١/ ٧٥٠.

دخل على أبي فقال: يا أبا مسلم ألّا تعينني على هؤلاء القوم؟ قال: بلى، قال: فدعا جارية له، فقال: يا جارية أخرجي سيفي، قال: فأخرجته، فسلّ منه قدر شبر فإذا هو خشب. فقال: إنّ خليلي وابن عمّك ﷺ عهد إليّ إذا كانت بين المسلمين فأتّخذ سيفاً من خشب، فإن شئت خرجت معك، قال: لا حاجة لي فيك، ولا في سيفك»[1].

وقد اعتزل الفتن جماعة من الصّحابة غير ما ذكر. منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو بكرة وعمران بن حصين وغيرهم رضي الله عنهم[2].

وقد احتجّت طائفة من أهل العلم بهذه الأحاديث على اعتزال الفتنة، ولزوم البيت، وتسليم النفس للقتل عند جميع الفتن. وأنّه لا يجوز للمسلم أن ينهض في شيء منها، ولو أدى ذلك إلى إزهاق نفسه فليس له أن يدفع عنها.

وذهب جماعة إلى الاعتزال ولزوم البيوت، ولكن إذا أراد أحد نفسه أو ماله فعليه بدفع ذلك عنه، سواء كان المريد لذلك متعمّداً أو متأوّلاً.

وهو الصّحيح من القولين. ويسنده حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله» قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النّار»[3].

---

(1) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦)، باب التّثبّت في الفتنة: (١٠)، برقم: (٣٩٦٠). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٢٦. وهو في السّلسلة الصَّحيحة: ٣/ ٣٦٨.
مسند أحمد، نحوه في: ٥/ ٦٩.

(2) انظر: التَّذكرة، ص:٦٥٧. فتح الباري: ١٤/ ٥٣٠.

(3) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب الدّليل على أنّ من قصد أخذ مال غيره بغير حقّ كان القاصد مهدر الدّم في حقّه، وإن قتل كان في النّار، وأنّ من قتل دون ماله فهو شهيد: (٦٢)، برقم: (٦٤٠)، ١/ ١٢٤.
وانظر: شرح النَّووي على مسلم: ١٨/ ١٠. التَّذكرة، ص٦٥٦ ـ ٦٥٧. فتح الباري: ١٤/ ٥٠. وأمّا القتال في الفتنة لنصر المحقّ، ودفع الفئة الباغية، والخلاف في ذلك، وذكر الرّاجح. سبق الحديث عنه. انظر: ص٨٨.

* كما أنّ الأحاديث السّابقة دالّة في مضمونها على الهجرة من مواطن الفتن إلى المواطن الّتي يأمن المسلم فيها على دينه.

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذه الآية الكريمة عامّة في كلّ من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكّناً من إقامة الدّين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنصّ هذه الآية»[1].

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي هذه الآية دليل على هجران الأرض الّتي يعمل فيها بالمعاصي»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٤٦.

وفي الآية أيضاً تحذير بالغ للّذين يقيمون في بلاد الكفر بحجّة أنّ بلاد الإسلام غير صالحة للإقامة فيها، إمّا لضيق العيش، أو عدم توفّر فرص للعمل، أو لضغوط سياسيّة، أو غير ذلك.

عن أبي الأسود رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة فأخبرته، فنهاني أشدّ النّهي، ثمّ قال: أخبرني ابن عبّاس أنّ أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السّهم فيُرمى فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضربه فيقتله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

صحيح البخاري، كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب من كره أن يكثّر سواد الفتن والظُّلم: (١٢)، برقم: (٧٠٨٥)، ص: ١٤٩٤ ـ ١٤٩٥، وبلفظ مقارب في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النّساء: ٩٧]، برقم: (٤٥٩٦)، ص: ٩٦٢.

وعن بهز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده رحمهم الله مرفوعاً: «لا يقبل الله ﷻ من مشرك بعدما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين». =

ولا يعكّر على هذا ما جاء في حديث عائشة ﵂ قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استُنفرتم فانفروا»[1].

وقد أجيب على هذا الحديث بأجوبة، يتوجّه منها جوابان:

أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكّة لأنّها صارت دار الإسلام.

والثّاني: لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضل الهجرة قبل الفتح.

والمراد بالفتح فتح مكّة[2].

= سنن النّسائي، كتاب الزّكاة: (٢٣)، باب من سأل بالله ﷻ: (٧٢)، برقم: (٢٥٦٨). قال الألباني ﵀: «حسن»، ص:٢٧٧. سنن ابن ماجه بلفظ قريب، في كتاب الحدود: (٢٠)، باب المرتدّ عن دينه: (٢)، برقم: (٢٥٣٦). قال الألباني ﵀: «حسن»، ص:٢٧٦.

وعن جرير بن عبد الله ﵁ قال: قال ﷺ: «أنا بريء من كلّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: «لا تراءى نارهما».

سنن أبي داود، كتاب الجهاد: (١٥)، باب النّهي عن قتل من اعتصم بالسّجود، برقم: (٢٦٤٥). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص:٢٩٨. سنن التّرمذي، بلفظ قريب، في: كتاب السّير: (١٨)، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين: (٤٢)، برقم: (١٦٠٤). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص:٢٨٠.

والأحاديث في ذلك كثيرة وكلّها ذامّة لمن أقام بين ظهراني الكفّار لغير سبب شرعي كالدّعوة إلى الله، أو طلب علمي ضروري يحتاج إليه أهل الإسلام، ونحو ذلك.

ولذا قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وفيه ـ أي حديث أبي الأسود ـ تخطئة من يقيم بين أهل المعصية باختياره لا لقصد صحيح من إنكار عليهم مثلاً، أو رجاء إنقاذ مسلم من هلكة، وأنّ القادر على التّحول عنهم لا يعذر كما وقع للّذين كانوا أسلموا ومنعهم المشركون من أهلهم من الهجرة..». فتح الباري: ١٤/ ٥٣٥.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب فضل الجهاد والسّير: (١)، برقم: (٢٧٨٣)، ص:٥٨٨. عن ابن عبّاس ﵄، وعنه في باب وجوب النّفير، وما يجب من الجهاد والنّيّة: (٢٧)، برقم: (٢٨٢٥)، ص:٥٩٧، وبلفظ مقارب عنه أيضاً في: باب لا هجرة بعد الفتح: (١٩٤/ ١٩٣)، برقم: (٣٠٧٧)، ص:٦٤٨.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب المبايعة بعد فتح مكّة على الإسلام والجهاد والخير، وبيان: «لا هجرة بعد الفتح»: (٢٠)، برقم: (١٨٦٤)، ٣/ ١٤٨٨.

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٩/ ١٢٣، ١/ ٨، الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٥٠. وانظر: فتح الباري: ٦/ ١٢٢، ٧/ ٦٣٥.

وعن عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] قال: زرت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مع عُبَيد بن عُمَير اللّيثيّ[2]، فسألناها عن الهجرة فقالت: «لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه، فأمّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربّه حيث شاء، ولكن جهاد ونية»[3].

فقد بيّنت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنّ الهجرة سببها الخوف من الفتنة. والحكم يدور مع علّته وجوداً وعدماً. فمتى ما وجدت الفتنة وعجز الإنسان عن القيام بما يجب عليه وجبت عليه الهجرة[4].

وقد أذن النّبي ﷺ لسلمة بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في سكن البادية بعد هجرته إلى المدينة.

---

(١) هو عطاء بن أبي رباح ـ وأبو رباح اسمه أسلم ـ أبو محمّد القرشي مولاهم اليماني نزيل مكّة، من أئمة التّابعين وسادتهم، ثقة فقيه فاضل لكنّه كثير الإرسال، كان مفتي مكّة في زمانه ومحدّثهم، سمع طائفة من الصّحابة، مات سنة ١١٤هـ على المشهور.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢/ ٣٨٦، ٥/ ٤٦٧. طبقات خليفة، ص: ٢٨٠. التّاريخ الكبير: ٦/ ٤٦٣. معرفة الثّقات: ٢/ ١٣٥. الجرح والتّعديل: ٦/ ٣٣٠. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٩٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨١. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠٠١. تهذيب الكمال: ٢٠/ ٦٩. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٩٨. الكاشف: ٢/ ٢١. جامع التّحصيل، ص: ٢٣٧. تهذيب التّهذيب: ٧/ ١٧٩. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٩١. لسان الميزان: ٧/ ٣٠٥.

(٢) هو عبيد بن عمير بن قتادة اللّيثيّ، أبو عاصم المكّي، لأبيه صحبة، من كبار التّابعين، وروى عن جماعة من الصّحابة، قاضي أهل مكّة، كان عالماً واعظاً بليغاً فصيحاً كبير القدر، كثير الحديث، مجمع على ثقته، مات سنة ٧٤هـ، وقيل ٦٨هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٤٦٣. طبقات خليفة، ص: ٢٧٩. التّاريخ الكبير: ٥/ ٤٥٥. معرفة الثّقات: ٢/ ١١٨. الجرح والتّعديل: ٥/ ٤٠٩. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٣٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٢. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٩٢٥. تهذيب الكمال: ١٩/ ٢٢٣. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٥٠. الكاشف: ١/ ٦٩١. جامع التّحصيل، ص: ٢٣٤. الإصابة: ٥/ ٦٠. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٦٥. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٧٧.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب مناقب الأنصار: (٦٣/ ٣٧)، باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (٤٥/ ١٠٥)، برقم: (٣٩٠٠)، ص: ٨١٥، وبلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب لا هجرة بعد الفتح: (١٩٤/ ١٩٣)، برقم: (٣٠٨٠)، ص: ٣٤٩، ونحوه في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب: (٥٣/ ٥٤)، برقم: (٤٣١٢)، ص: ٨٩٥.

(٤) انظر: فتح الباري: ٧/ ٦٣٥.

وقد أجمعت الأمّة على تحريم ترك المهاجر هجرته إلى وطنه، وعلى أنّ ارتداد المهاجر أعرابياً[1] من الكبائر[2]. ولذلك قال الحجّاج لسلمة ﵁: «يا ابن الأكوع ارتددت على عقيبك؟ تَعَرّبْت[3]؟ قال: لا، ولكنّ رسول الله ﷺ أذن لي في البدو»[4].

وقد كان ﵁ خرج إلى الرَّبَذَة[5] لمّا قتل عثمان بن عفّان ﵁، وتزوّج هناك امرأة وولدت له، فلم يزل بها حتّى أقبل قبل أن يموت بليال فنزل المدينة[6].

فيتبيّن ممّا سبق أنّ إذن النّبيّ ﷺ لسلمة ﵁ بالتّعرّب والهجرة عند حلول الفتن. ولذلك عنون البخاري له بباب التّعرّب في الفتنة.

قال الإمام القرطبي ﵀:

«قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكلّ وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التّغيير، وإذا لم تُغّير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها»[7].

---

(١) الأعرابي: هو ساكن البادية الّذي يقيم في الأمصار ولا يدخلها إلّا لحاجَة، والجمع أعراب.
انظر: لسان العرب: ١/ ٥٨٧.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٦.

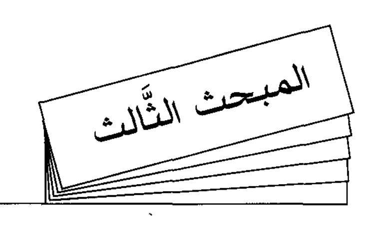
(٣) تَعَرَّب: أي صار أعرابياً فعاد للبادية وأقام بها مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً.
انظر: لسان العرب: ١/ ٥٨٧.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب التّعرّب في الفتنة: (١٤)، برقم: (٧٠٨٧)، ص:١٤٩٥.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه: (١٩)، برقم: (١٨٦٢)، ٣/ ١٤٨٦.

(٥) الرَّبَذَة: أصلها الشّدَّة، وقيل: هي خفّة القوائم في المشي، وخفّة الأصابع في العمل، وهي قرية معروفة من قرى المدينة النّبويّة، وهي الّتي أقام فيها أبو ذر الغفاري ﵁ حتّى مات وقبر بها. انظر: معجم البلدان: ٣/ ٢٤.

(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب التّعرّب في الفتنة: (١٤)، برقم: (٧٠٨٧)، ص:١٤٩٥.

(٧) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٩٢. التّذكرة، ص:٦١١ ـ ٦١٢، وفيه اختلاف يسير.



الصّبر عند وقوع الفتن

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

أي أحسب الّذين ادّعوا أنّهم مؤمنون وقالوا ذلك بأفواههم أنّنا نقنع منهم بما قالوا دون اختبار وامتحان يتبيّن من خلاله صدق الصّادق في قوله. الّذي رسخ قدمه في الإيمان، وثبت على دينه، وصبر عند الفتن فلم يتزعزع ولم يتضعضع. من كذب الكاذب في دعواه، الّذي لم يستقر الإيمان في قلبه، ولم يصبر عند المحن، ولم يثبت عند الفتن، فدعواه خالية من الحقيقة، لا وزن لها ولا قيمة.

وليس هذا التمحيص متعلّقاً بهذه الأمّة فحسب، بل هو حكم أجري على الأمم السابقة. فقد محّصهم الله وامتحنهم ليتبيّن صدق صادقهم من كذب كاذبهم[1]..

قال الزمخشري:

«أحسب الّذين أجروا كلمة الشّهادة على ألسنتهم، وأظهروا القول بالإيمان: أنّهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بضروب المحن حتّى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحّة عقائدهم، ونصوع نيّاتهم، ليتميّز المخلص من غير المخلص، والرّاسخ في الدّين من المضطّرب، والمتمكّن من

(١) انظر معاني الآيات في: جامع البيان: ٢٠/١٢٨ ـ ١٢٩، طبعة: الحلبي. معاني القرآن للزّجاج: ٤/١٥٩ ـ ١٦٠. الجامع لأحكام القرآن: ١٣/٣٢٤. تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٤٤.

العابد على حرف»[1]، وقال القاسمي رحمه الله بعد إيراده لمجموعة من الآيات الّتي تفيد المعاني السّابقة، قال:

«وكلّ هذه الآيات وأمثالها ممّا نزل بمكّة في تثبيت قلوب المؤمنين، وتصبيرهم على ما كان ينالهم من أذى المشركين ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من أتباع الأنبياء عليهم السّلام بضروب من الفتن من أعدائهم، كما دوّن التّاريخ اضطهادهم. أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتّى علت كلمة الله»[2].

فالفتن إنّما تأتي لتمحّص العباد، وتختبر إيمانهم، فمن صبر فذاك الّذي اجتاز المحنة بصدق وثبات، ومن وهن عن الصّبر فذاك الّذي رسب في ما اختبر به.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله:

«فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصّبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحّصة له، ومخلّصة من الذّنوب، كما يخلّص الكير[3] خبث الذّهب والفضّة. فالفتنة كير القلوب، ومحكّ الإيمان، وبها يتبيّن الصّادق من الكاذب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفتنة قسّمت النّاس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيّب وخبيث. فمن صبر عليها كانت رحمة في حقّه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشدّ منها»[4].

---

(١) الكشّاف: ٣/ ٣٤٥، مطبعة الاستقامة.
قوله: العابد على حرف: أصل الحَرْف من كلّ شيء: طرفه وشفيره وحدّه، ومن الجبل أعلاه المحدّد. والمراد هنا: أي أنّه يعبد الله على وجه، كأن يعبده على السّراء لا على الضرّاء، أو على شكّ، أو على غير طمأنينة على أمره: أي لا يدخل في الدّين متمكّناً. انظر: القاموس المحيط، ص:١٠٣٢ ـ ١٠٣٣.

(٢) محاسن التّأويل: ١٣/ ٤٧٣٦ ـ ٤٧٣٧.

(٣) كير: الكِيرُ: كير الحدّاد، وهو زِق أو جلد غليظ ذو حافّات. لسان العرب: ٥/ ١٥٧. انظر: مختار الصّحاح، ص:٥٨٥. القاموس المحيط، ص:٦٠٨. وهو إنّما يستخدمه الحدّاد لينفخ به النّار ليليّن بها الحديد ويجلو صدأه. والمراد هنا: أنّ الابتلاء يجلو العبد المؤمن ويطهّره من أدران المعاصي كما يجلو الكير صدأ الحديد.

(٤) إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٢.

ولمّا كان الصّبر ذا أثر عظيم في الثّبات عند الفتن قرنه الله ﷻ بالفتنة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

أي إنّ ربّك لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وترك دياره وأمواله مبتغياً رضوان الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر ولكنّه ثبت على إيمانه، وجاهد أعداء الله وصبر، فإنّه ينال بذلك مغفرة الله لذنوبه ورحمته له(١).

كما قرن سبحانه بين الفتنة والصّبر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

أي إنّ الله ﷻ فتن العباد بعضهم ببعض. ففتن الرّسل بالمرسل إليهم في دعوتهم، والصّبر على أذاهم، وحمل مشاق تبليغ رسالات الله. وفتن المرسل إليهم بالرّسل هل يطيعونهم وينصرونهم، أم يخالفونهم ويكفرون بهم؟. وفتن العلماء بالجهّال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على ذلك؟. وفتن الجهّال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟. وفتن الملوك بالرّعيّة، والرّعيّة بالملوك. والأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء. والضّعفاء بالأقوياء والأقوياء بالضّعفاء. والسّادة بالأتباع، والأتباع بالسّادة. والرّجل بامرأته، والمرأة بزوجها. والمؤمن بالكافر، والكافر بالمؤمن. والمعافى بالمبتلى، والمبتلى بالمعافى(٢).

وهكذا فتن الخلق بعضهم ببعض تمحيصاً واختباراً لهم ليعلم مدى صبرهم على الحقّ وثباتهم فيما فتنوا به.

ولذلك كان تخصيص رسول الله ﷺ بكرامة النُّبوة لأشراف النّاس من الكفّار في عصره.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٠٢. وانظر في معنى الآية وأسباب نزولها: جامع البيان: ١٤/ ١٨٣، طبعة: الحلبي. معاني القرآن للزّجاج: ٣/ ٢٢٠. التّفسير الكبير: ٢٠/ ١٢٥ ـ ١٢٦. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩١٣. محاسن التّأويل: ١٠ج٣٨٦٦ ـ ٣٨٦٧.

(٢) انظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١. وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١٨/ ١٩٤ ـ ١٩٥، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ٢٤/ ٦٥ ـ ٦٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٨ ـ ١٩. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٠٠. تفسير الكريم الرّحمٰن: ٦/ ٧٠.

ولذا اعترضوا فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][١].

وذلك ليس لهم، بل هو لله، فهو أعلم حيث يجعل رسالته. فينتقي لها أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً، ولذا رد عليهم فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢][٢].

كما كان إيمان الضّعفاء من الرّجال والنّساء، والعبيد والإماء في أوّل مبعث النّبيّ ﷺ فتنة للأشراف. إذ استنكر هؤلاء أن يخصّ الضّعفاء من بينهم بإصابة الحقّ، وهداية الإيمان دونهم، وهم كما يزعمون أولى بالخير من أولئك الضّعفاء كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأحقاف: ١١].

فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣][٣]. فالله أعلم بمن يستحقّ نعمة الهداية فيشكره عليها، ومن أغفل قلبه ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد صبر أولئك الضّعفاء، وثبتوا على إيمانهم فلم تؤثّر فيهم مزاعم الكفّار وترّهاتهم واستحقارهم واستهزاؤهم بهم. فكان جزاؤهم عند الله عظيماً، ألا وهو الفوز بالجنّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾

---

(١) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٨.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٩٢.

(٣) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١١/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، طبعة: شاكر. زاد المسير: ٣/ ٣٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢١٦. محاسن التّأويل: ٦/ ٢٣٢٦ ـ ٢٣٢٧. إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩ ـ ١١١][1].

فالكافر مفتون بالكافر.

ولهذا جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين الّذين أمر الله المؤمنين من هذه الأمّة بالتأسي بهم فيه:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: ٥].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله:

«يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل إبراهيم خليله والّذين معه: يا ربّنا لا تجعلنا فتنة للّذين كفروا بك، فجحدوا وحدانيتك، وعبدوا غيرك بأن تسلّطهم علينا فيروا أنّهم على حقّ، وأنا على باطل. فتجعلنا بذلك فتنة لهم».

ثمّ روى بسنده عن مجاهد رحمه الله قال: «لا تعذّبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا».

وروى عن قتادة رحمه الله أنّه قال: «لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك، يرون أنّهم إنّما ظهروا علينا لحقّ هم عليه».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: « لا تسلّطهم علينا فيفتنونا»[2].

وقد دعا بذلك أصحاب موسى عليه السلام: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يونس: ٨٥][3].

فالمؤمن في هذه الحياة معرّض للفتن بشتّى أنواعها، فإذا أصيب بدائها فعليه أن يلجأ إلى الصّبر فإنّه العلاج النّاجع الّذي يكشف داء الفتن. وهو أعظم العوامل تأثيراً في الثّبات عندها.

---

(١) وانظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٢.

(٢) جامع البيان: ٢٨/ ٦٤، طبعة: الحلبي. وانظر: التّفسير الكبير: ٢٩/ ٣٠٢. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٥٧. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٤٤. محاسن التّأويل: ١٦/ ٥٧٦٦ ـ ٥٧٦٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٩٤.

(٣) انظر في معنى الآية: زاد المسير: ٤/ ٧٤. التّفسير الكبير: ١٧/ ١٤٦ ـ ١٤٧. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٦٣. وانظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٦٤.

ولذلك وجّه رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه للتّمسّك بالصّبر متى ما حلّت به الفتن، فقال له: «كيف أنت إذا أصاب النّاس موت يكون البيت فيه بالوصيف»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. أو قال: ما خار الله لي ورسوله؟ قال: «عليك بالصّبر» أو قال: «تصبر»[1].

بل أرشدّ ﷺ النّاس جميعاً إلى الصّبر عند الفتن، وإن كان في ذلك مشقّة بالغة تبلغ مشقّة من يصبر على قبض الجمر.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على النّاس زمان الصّابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[2].

ولهذا لمّا شكا النّاس إلى أنس بن مالك رضي الله عنه ما يلقون من فتنة الحجّاج دلّهم رضي الله عنه على الصبّر اقتداء وتأسياً بحديث النّبيّ ﷺ السّابق.

عن الزُّبير بن عدي رحمه الله[3] قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجّاج فقال: «اصبروا فإنّه لا يأتي عليكم زمان إلّا الّذي بعده شرّ منه حتّى تلقوا ربّكم»، سمعته من نبيّكم ﷺ[4].



(١) سبق، ص: ٢٠٥.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠)، باب: (٧٣)، برقم: (٢٢٦٠)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٧٤. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٢/ ٦٨٢، برقم: (٩٥٧). وانظر: تحفة الأحوذي: ٦/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٣) هو الزُّبير بن عدي أبو عبد الله أو أبو عدي الأيامي الهمداني الكوفي، قاضي الرّي، تابعي، ثقة، ثبت، فقيه عابد، صاحب سنّة، توفي سنة ١٣١هـ.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٣/ ٤١٠. معرفة الثّقات: ١/ ٣٦٨. الجرح والتّعديل: ٣/ ٥٧٩. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٦٢. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٥٨٩. تهذيب الكمال: ٩/ ٣١٥. الكاشف: ١/ ٤٠٢. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٢٧٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٢١٤. لسان الميزان: ٧/ ٢١٩، ٤٩٧.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب لا يأتي زمان إلّا الّذي بعده شرّ منه: (٦)، برقم: (٧٠٦٨)، ص: ١٤٩٢.



المبادرة إلى الطّاعات عند حلول الفتن

إنّ الاشتغال بطاعة الله تعالى، والانصراف إلى عبادته حال حلول الفتن من أعظم العوامل الدّاعية إلى الثّبات؛ لأنّ العبادة تربط العبد بربّه ومولاه الّذي يعصمه من الفتن ويحميه منها، وهي تقوّي إيمانه فلا تجد الفتن منفذاً إلى قلبه الّذي عمر بالإيمان لملازمة صاحبه على الطّاعات، مهما عظم شأن تلك الفتن واشتدّ أوارها.

ولذا حثّ النّبيّ ﷺ إلى المسارعة إلى الأعمال الصّالحة عند وقوع الفتن. فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع اللّيل المظلم، يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع أحدهم دينه بعرض من الدّنيا»(١).

وإن كانت المبادرة إلى الطّاعات، والمسابقة إلى الصّالحات، والمسارعة إلى القربات أمر مرغَّب فيه من قبل الشّارع الحكيم في كلّ وقت وحين، ولو لم تكن هنالك فتنة.

وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال ﷻ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٥٠.
وانظر معناه في: شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٣٣. تحفة الأحوذي: ٦/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ١٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ الهامش.

والمسارعة والمسابقة إلى الجنّة إنّما تكون بالطّاعات والأعمال الصّالحات.

ولذلك مدح سبحانه بعض أنبيائه بمسارعتهم إلى الأعمال الصّالحة فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

بل مدح المؤمنين الطّائعين المسارعين في القربات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

ولكنّ المسارعة بالطّاعات عند مداهمة الفتن آكد، والفرار إليها أقوم وأرشد، لأنّ الفتن مزلق عظيم، ووقعها على النفوس خطير، قلّ أن ينجو العبد عندها، ويسلم من ضررها. ولذا يعجّل بالتّشبّث بالطّاعة كي يجتاز عقبتها، ويسلم من وهدتها.

ولذلك دعا ﷺ أزواجه رضي الله عنهنّ إلى الصّلاة والاشتغال بها حال الفتن ليتقوّين بذلك على دفعها والخروج من شرّها.

عن أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: «سبحان الله! ما أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات ـ يريد أزواجه ـ لكي يصلّين، ربّ كاسية في الدّنيا عارية في الآخرة»[١].

ولمّا كانت العبادة من أعظم العوامل المعينة على الثّبات عند الفتن خشي النّبيّ ﷺ من التّفريط فيها، والاشتغال عنها بغيرها، فبيّن عظم أجرها عند وقوع الفتن.

فعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إليّ»[٢].

---

(١) سبق، ص:٤٢. وانظر معناه في: عمدة القاري: ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٥.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب فضل العبادة في الهرج: (٢٦)، برقم: (٢٩٤٨)، ٤/ ٢٢٦٨.

وفي الرّواية الأخرى: «العبادة في الفتنة كالهجرة إليّ»[١].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله:

«وسبب ذلك أنّ النّاس في زمن الفتن يتّبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين، فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهليّة، فإذا انفرد من بينهم من يتمسّك بدينه ويعبد ربّه ويتّبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهليّة إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متّبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه»[٢].

وقال النّووي رحمه الله:

«وسبب كثرة فضل العبادة فيه أنّ النّاس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلّا الأفراد»[٣].

وإذا كانت الطّاعات والمبادرة إليها من العوامل الجالبة للثّبات عند الفتن فإنّ المعاصي من المؤثّرات المانعات منه عندها.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فمخالفة أمر الرسول ﷺ وعصيانه، وتنكّب سبيله ومنهاجه يوقع في الفتنة أيّاً كان نوعها، كفراً أو شركاً أو نفاقاً أو بدعة أو قتلاً أو زلازل وأهوالاً أو سلطاناً جائراً أو طبعاً على القلب أو غير ذلك[٤]. وبذلك يحرم العاصي من الثّبات على الحقّ فينجرف مع تيار الفتن فيهلك فيمن هلك.

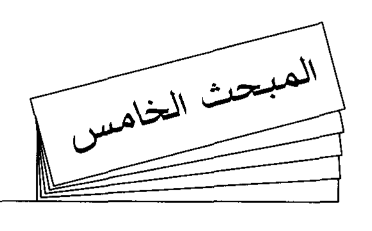
---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٢٧. عن معقل رضي الله عنه أيضاً.
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «كهجرة» ـ برقم: (٤٩٢)، (٤٩٣)، ٢٠/ ٢١٣.

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، للحافظ أبي الفرج زين الدّين عبد الرّحمٰن بن رجب الحنبلي، ضبط ومراجعة: إبراهيم رمضان، وسعيد اللّحام، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص: ١٥٦.

(٣) شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٨٨.

(٤) وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٨/ ١٧٨، الحلبي. الكشّاف: ٣/ ٢٠٥، الاستقامة. التّفسير الكبير: ٢/ ٤٢. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٣٢٣. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٩١.



تمنّي الموت عند حلول الفتن

لا شكّ إنّ للفتن وقعاً عظيماً على نفس المؤمن وقلبه، وقد تبلغ إلى الحد الّذي تذهب دينه وإيمانه، وتلك خسارة عظيمة وهلاك كبير. وخير لهذا المؤمن أن يطلب من ربّه استعجال الموت ليموت وهو ثابت على إيمانه، باقٍ على دينه؛ لأنّ الموت خير من الفتنة الّتي تذهب دين الإنسان. وبذلك نطق النّبيّ ﷺ.

فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلّة المال وقلّة المال أقلّ للحساب»[1].

وقد جاءت الأدلّة الدالة على تمنّي الموت عند حلول الفتن، من ذلك:

قال تعالى في شأن مريم عليها السلام: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣].

إنّ مريم عليها السلام خافت من قالة النّاس فيها، وخشيت عدم ثباتها على دينها وصبرها عليه، فتمنّت الموت قبل الّذي حدث لها، وأنّها لو كانت شيئاً لا يؤبه له.

قال القرطبي رحمه الله:

«تمنّت مريم عليها السلام الموت من جهة الدّين لوجهين:

أحدهما: أنّها خافت أن يظنّ بها الشرّ في دينها وتعيّر فيفتنها ذلك.

(١) سبق تخريجه. انظر: ص:١٣٩.

الثّاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنّسبة إلى الزّنا وذلك مهلك. وهو على هذا الحد يكون تمني الموت جائزاً»[1].

والأوّل أوجه، ولذلك:

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«وقوله تعالى إخباراً عنها ـ فذكر الآية ـ فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة، فإنّها عرفت أنّها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الّذي لا يحمل النّاس أمرها فيه على السّداد، ولا يصدّقونها في خبرها. وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنّون عاهرة زانية. فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾، أي قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾: أي لم أخلق، ولم أك شيئاً. قاله ابن عبّاس»[2].

واستدلّ بعضهم على جواز تمنّي الموت بقول الله تعالى في شأن يوسف عليه السلام: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

قال قتادة رحمه الله:

«لم يتمنّ الموت أحد نبي ولا غيره إلّا يوسف عليه السلام. حين تكاملت عليه النّعم، وجمع له الشّمل اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل»[3].

وذكر نحو هذا عن ابن عبّاس رضي الله عنهما[4].

والصّحيح أنّ يوسف عليه السلام لم يتمنّ الموت، وإنّما تمنّى الوفاة على الإسلام، وأن يتوفّاه الله حين يتوفّاه مسلماً. وعلى ذلك جمهور أهل العلم[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٩٢. التّذكرة، ص:٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٩. وانظر معنى الآية في: الكشّاف ٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩. محاسن التّأويل: ١١/ ٤١٣٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٦٩. التّذكرة، ص:٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٦١.

(٥) انظر: زاد المسير: ٤/ ٢١٨. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٦٩. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٦٠ ـ ٧٦١. محاسن التّأويل: ٩/ ٣٥٩٧.

وفي دعائه ﷺ طلب الثّبات على الإسلام، والاستمرار عليه حتّى يتوفّاه الله على ذلك[1].

وممّا يدلّ على جواز سؤال الموت عند الفتن:

حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما في اختصام الملأ الأعلى وفيه قال ﷺ: «اللّهم إنّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[2].

وفي رواية معاذ بن جبل رضي الله عنه: «وإذا أردت فتنة في قوم فتوفّني غير مفتون»[3]. فهو صريح في تمنّي الموت حال الفتنة.

واستدلّ بعضهم بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال:

«لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيقول يا ليتني مكانه»[4].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣٦١.

(٢) انظر: التّذكرة، ص:٧. النّهاية في الملاحم والفتن: ١/ ٣٨. والحديث في:
سنن التّرمذي، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة [ص]: (٣٨)، برقم: (٣٢٣٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٥١٣.
موطّأ مالك، بلفظ مقارب في: كتاب القرآن: (١٥)، باب العمل في الدّعاء: (٩)، برقم: (٤٠)، ١/ ٢١٩. بلاغاً مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/ ٣٦٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٥/ ١٦٢ ـ ١٦٣، برقم: (٣٤٨٤).
مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ٧٠٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». عن عبد الرّحمٰن بن عايش الحضرمي رضي الله عنه.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «فتنة قوم»، وهو جزء من حديث ـ في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة [ص]: (٣٨)، برقم: (٣٢٣٥). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٥١٤.
مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٢٤.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧)، باب لا تقوم السّاعة حتّى يغبط أهل القبور (٢٢/ ٢٣)، برقم: (٧١١٥)، ص:١٥٠٠.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨)، برقم: (١٥٧)، ٤/ ٢٢٣١.

نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال:

«تغبيط أهل القبور، وتمنّي الموت عند ظهور الفتن إنّما هو خوف ذهاب الدّين بغلبة الباطل وأهله، وظهور المعاصي والمنكر»[1].

ولكن ليس في الحديث ما يدلّ على جواز ذلك لأنّه لم يتعرّض للحكم وإنّما سيق مساق الإخبار بأنّ ذلك سوف يقع في آخر الزّمان عند اشتداد الأمر بالنّاس وفساد الحال، وقد لا يكون ذلك التّمنّي من خوف ذهاب الدّين، وإنّما لضرّ نزل بالإنسان.

وقد جاء ذلك صراحة في رواية مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والّذي نفسي بيده لا تذهب الدّنيا حتّى يمرّ الرّجل على القبر فيتمرّغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر وليس به الدّين إلّا البلاء»[2].

وقد تمنّى بعض السّلف رحمهم الله الموت منهم عمر بن الخطّاب وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعمر بن عبد العزيز[3] والبخاري رحمهم الله[4].

---

(١) فتح الباري: ١٤/ ٥٨١. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٦٢. عمدة القاري: ٢٤/ ٢١١.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢)، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨)، برقم: ١٥٧)، ٤/ ٢٢٣١. وانظر: التّذكرة، ص: ٧. فتح الباري: ١٤/ ٥٨٢.

(٣) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو حفص الأموي القرشي، المدني ثمّ الدّمشقي، الإمام العادل والخليفة الصّالح، وأمّه أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولي إمرة المدينة للوليد بن عبد الملك، وكان مع سليمان كالوزير، وولي الخلافة بعده، فأحيا ما أميت قبله من السنن، وسلك مسلك من تقدّمه من الخلفاء الرّاشدين، عدّه الشّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ الخليفة الرّاشد الخامس.
قال عنه الذّهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان إماماً فقيهاً مجتهداً عارفاً بالسنن كبير الشّأن ثبتاً حجّة حافظاً قانتاً لله أوّاهاً منيباً»، توفي سنة ١٠١هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٣٣٠. التّاريخ الكبير: ٦/ ١٧٤. الجرح والتّعديل: ٦/ ١٢٢. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٥١. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٧٨. التّعديل والتّجريح: ٣/ ٩٤١. تهذيب الكمال: ٢١/ ٤٣٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١١٨. الكاشف: ٢/ ٦٥. جامع التّحصيل، ص: ٢٤٢. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٤١٨. تقريب التّهذيب: ١/ ٤١٥.

(٤) وانظر: التّذكرة، ص: ٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٦٢. فتح الباري: ١٤/ ٥٨٢.

ولا يعكّر على ما سبق ما ورد من نهي عن تمنّي الموت في بعض الأحاديث والآثار. من ذلك:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنّه لا يزيد المؤمن عمره إلّا خيراً»[2].

قال أنس رضي الله عنه:

«لولا أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّين أحدكم الموت»، لتمنّيته»[3].

وعن قيس بن أبي حازم رحمه الله[4] قال: دخلنا على خبّاب وقد اكتوى سبع

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «أحد منكم»، وقال: «متمنّياً للموت» ـ في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب الدّعاء بالموت والحياة: (٣٠)، برقم: (٦٣٥١)، ص:١٣٥٤، وبلفظ مقارب في: كتاب المرضى: (٧٥/٤٩)، باب تمنّي المريض الموت: (١٩)، برقم: (٥٦٧١)، ص:١٢٣٣.
صحيح مسلم، بلفظ في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب تمنّي كراهة الموت لضرّ نزل به: (٤)، برقم: (٢٦٨٠)، ٤/ ٢٠٦٤.

(٢) المرجع السّابق، في الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٦٨٢)، ٤/ ٢٠٦٥.

(٣) المرجع السّابق، في الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٦٨٠)، ٤/ ٢٠٦٤.

(٤) هو قيس بن أبي حازم ـ واسم أبي حازم عوف بن الحارث على قول الأكثر ـ أبو عبد الله البجلي الكوفي، ولأبيه صحبة، أسلم في عهد النّبي ﷺ، وهاجر إلى المدينة فقبض النّبي ﷺ قبل أن يلقاه، ثقة مخضرم، وقيل: له رؤية ولم تثبت، روى عن كبار الصّحابة، مات بعد التّسعين أو قبلها، وقد جاز المائة وتغيّر.
وانظر: الطّبقات الكبرى: (٦/ ٦٧. طبقات خليفة، ص:١٥١. التّاريخ الكبير: ٧/ ١٤٥. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٢٠. الجرح والتّعديل: ٧/ ١٠٢. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٣٠٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٠٢. تاريخ بغداد: ١٢/ ٤٥٢. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠٥٩. تهذيب الكمال: ٢٤/ ١٠. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٦١. الكاشف: ٢/ ١٣٨. جامع التّحصيل، ص:٢٥٧. الإصابة: ٥/ ٥٣١. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٣٤٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٥٦. لسان الميزان: ٧/ ٣٤٣.

كيّات في بطنه، فقال: «لو ما أنّ رسول الله ﷺ نهانا أن ندعوا بالموت لدعوت به»[1].

ويوفّق بين هذه الأحاديث بأنّ تمنّي الموت إنّما يكون عند حلول الفتن، والخشية من ذهاب الدّين وضياعه. والنّهي ينصب على ضرّ أصاب الإنسان في نفسه أو ماله أو غير ذلك. فهذا عليه بالصّبر ليعظم له الأجر.

ولذا قال الإمام النّووي رحمه الله في بيانه لحديث أنس رضي الله عنه السّابق:

«فيه: التّصريح بكراهة تمنّي الموت لضرّ نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدوّ أو نحو ذلك من مشاق الدّنيا. فأمّا إذا خاف ضرراً في دينه، أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره. وقد فعل هذا الثّاني خلائق من السّلف عند خوف الفتنة في أديانهم.

وفيه: أنّه إن خاف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللّهم أحيني إن كانت الحياة خيراً لي... إلخ. والأفضل الصّبر والسّكون للقضاء»[2].

وهذا توفيق حسن منه رحمه الله بين الأدلّة الّتي يظهر منها التّعارض.

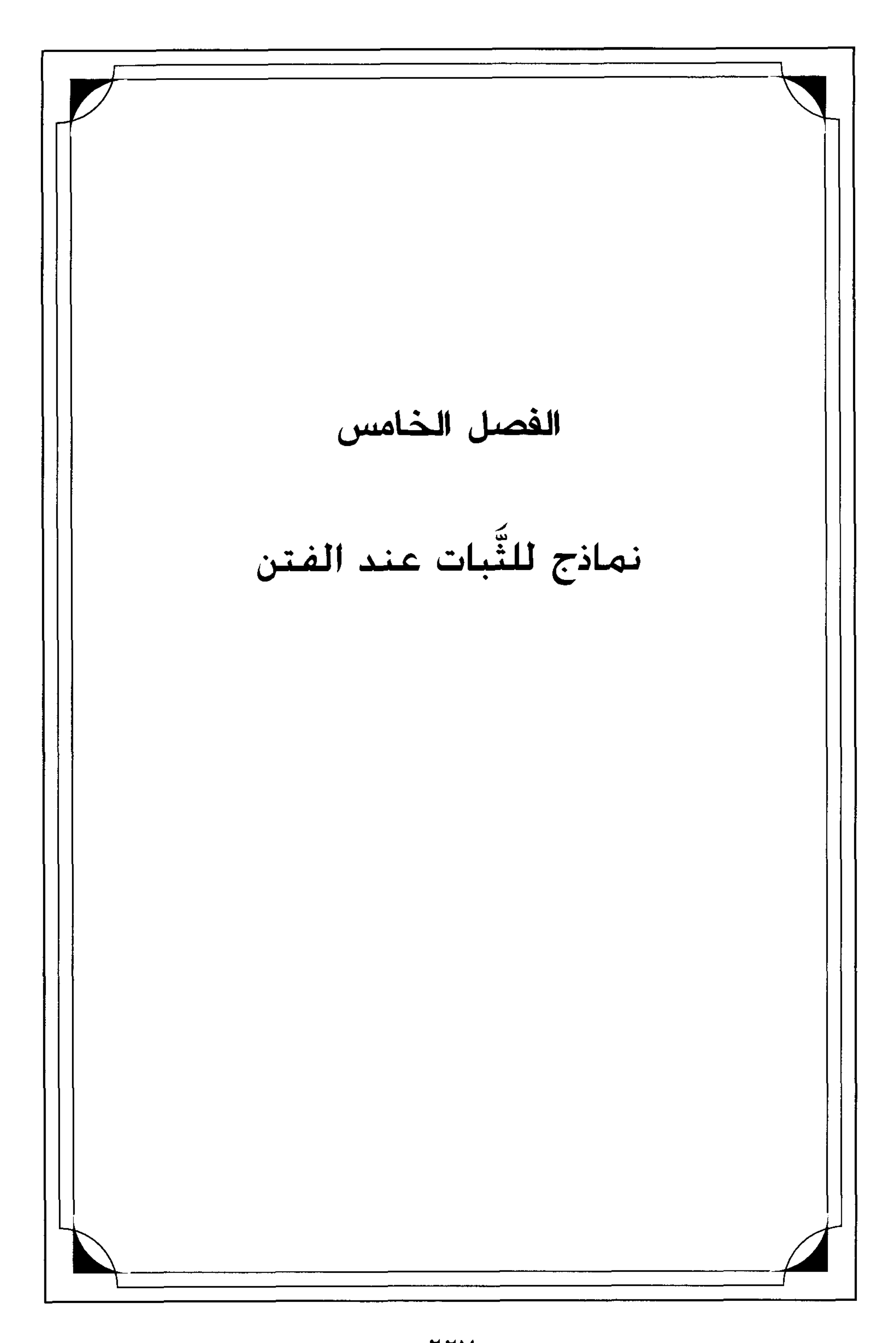


---

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب تمنّي المريض الموت: (١٩)، برقم: (٥٦٧٢)، ص:١٢٣٣، وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب الدّعاء بالموت والحياة: (٣٠)، برقم: (٦٣٤٩ : ٦٣٥٠)، ص:١٣٥٤، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧)، برقم: (٦٤٣٠)، ص:١٣٦٩، وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/ ٦٩)، باب ما يكره من التّمنّي: (٦)، برقم: (٧٢٣٤)، ص:١٥٢٣.

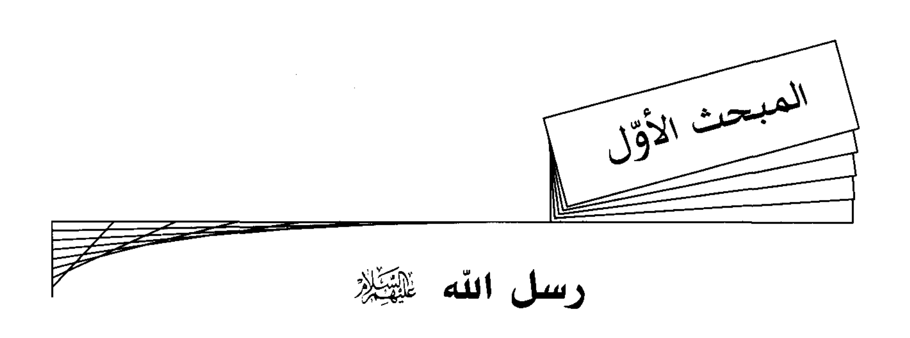
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب تمنّي كراهة الموت لضرّ نزل به: (٤)، برقم: (٢٦٨١)، ٤/ ٢٠٦٤.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٧ ـ ٨.



الفصل الخامس

نماذج للثَّبات عند الفتن



رسل الله عليهم السلام

إنّ رسل الله وأنبياءه صفوة البشريّة، وخيرتهم عند الله تعالى. قوم اختارهم الله لحمل رسالته وتبليغها للخلق، وقذف في قلوبهم الإيمان، وغرس في نفوسهم اليقين، وجبلهم على مكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم، وهيّأهم لحمل الأمانة وأداء الرّسالة، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد أدّوا ما كلّفوا به تمام الأداء، وقاموا بذلك خير قيام، وواجهوا أقوامهم بكلّ جرأة وثبات. فلم تؤثر فيهم أراجيف أعداء الله، ولم تضعف نفوسهم أمام كيدهم، ولم تهن قواهم أمام مكرهم، ولم يذلّوا أمام جبروتهم، ولم يتضعضعوا أمام فتنهم. بل ثبتوا على الحقّ ثبات الجبال الرواسي، حتّى شهد الله سبحانه لهم بذلك فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ(١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ(٢) وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

وقد جعل سبحانه ثباتهم أنموذجاً للثّبات الصّادق، وصبرهم مثالاً للصّبر

(١) رِبِّيُّون: جمع رِبِّي وهو الرَّبَّاني، والرَّبَّاني هو الَّذي يربّي نفسه بالعلم. انظر: المفردات، ص: ١٨٤.

(٢) استكانوا: أي خضعوا وذلّوا، من الاستكانة وهي الذّلّة والخضوع. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٣٠. وانظر: لسان العرب: ١٣/ ٢١٨.

الحقّ. به يقتدي الثّابتون، ومنه يأخذ الأسوة الصّابرون، وعلى ضوئه يستنير المهتدون.

ولو لم يبلغ ثباتهم ذلك المبلغ ما أُمر إمام الهدى وسيّد المرسلين أن يتأسّى بهم في الثّبات.

وذلك حين قال له المولى ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يقول تعالى: وكلّ أخبار نقصُّها عليك من أنباء الرّسل المتقدّمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجّات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التّكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين. كلّ هذا ممّا نثبّت به فؤادك أي قلبك يا محمّد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة»(١).

فمن قصصهم تُؤخذ العبر، ومن أخبارهم تُلتقط الدّرر، وفي حوادثهم تُحار الفِكَر. ولكن ذلك لأهل العقول النيِّرة، والقلوب الخيِّرة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

عجزت الفتن أن تنال منهم بغيتها، وتهاوت المحن أن تصل منهم إلى غايتها، وتساقطت الخطوب أن تجد فيهم رغبتها. ويكفيهم شرفاً وفخراً أنّهم رسل الله، واسطة بين الله وعباده في تبليغ دينه، وإقامة شرعه. فكيف لا يكونون قدوة في الثّبات؟ وكيف لا يكونون أسوة في الصّبر عند الشّدائد والملمّات، مهما تكاثرت حولهم الفتن، ومهما تفاقمت حولهم المحن؟.

وهذه نماذج رائعة، أقتطفها من رياض رسل الله اليانعة، تبرز عظيم ثباتهم في الفتن، وجليل صبرهم فيها، أضمّنها مطالب أربعة:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٢٠.

المطلب الأوّل

محمّد بن عبد الله ﷺ

إنّ الله تعالى قدّمه على الرّسل جميعاً فقدّمته، وفضّله عليهم طرّة ففضّلته، وختمهم به فبدأت به ﷺ.

لقد حاول أعداؤه من المشركين أن يفتنوه عن بعض ما أنزل إليه، متّخذين في ذلك شتّى الوسائل، وسالكين لذلك كلّ السّبل من كيد ومكر وعداوة وتعنّت وأذى، بأنواع الأساليب المختلفة، وضروب الحيل المتعدّدة. ولكنّه ﷺ ثبت على الحقّ فلم يزل عنه، وظلّ على الاستقامة فلم ينحرف عنها ولو في جزئية يسيرة من أمر دينه، لتثبيت الله له وعنايته به، وحفظه من كيد الأعداء وفتنهم. فباءت جميع محاولاتهم بالفشل، وذهبت جميع مساوماتهم أدراج الرياح.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

ذكر الإمام ابن الجوزي رحمه الله أنّ سبب نزول هذه الآيات ينحصر في أربعة أقوال:

أوّلها: إنّ وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: متّعنا باللّات سنة، وحرّم وادينا كما حرّمت مكّة، فأبى ذلك. فأقبلوا يكثرون مسألتهم، وقالوا: إنّا نحبّ أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن خشيت أن يقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك. فأمسك رسول الله ﷺ عنهم ودخلهم الطّمع، فنزلت هذه الآية. رواه عطاء رحمه الله **عن ابن عبّاس** رضي الله عنهما.

وروى عطيّة رحمه الله[1] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّهم قالوا: أجّلنا سنة ثمّ نسلم

(١) هو عطيّة بن سعد بن جُنادة أبو الحسن العوفي الجَدلي القيسي الكوفي، تابعي=

ونكسر أصنامنا، فهمّ أن يؤجّلهم فنزلت هذه الآية.

الثّاني: إنّ المشركين قالوا للنّبيّ ﷺ: لا نكفّ عنك إلّا بأن تُلِمّ[1] بآلهتنا، ولو بأطراف أصابعك. فقال رسول الله ﷺ: «ما عليّ لو فعلت والله يعلم أنّي لكاره»؟ فنزلت هذه الآية. قاله سعيد بن جبير رحمه الله[2].

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله أنّ هذا باطل، وما ذكر أيضاً عن عطية رحمه الله. لأنّ كلّ ذلك مخالف في حقّه ﷺ.

الثّالث: إنّ قريشاً خلت برسول الله ﷺ ليلة إلى الصّباح يكلّمونه ويفخّمونه ويقولون: أنت سيّدنا وابن سيّدنا، وما زالوا به حتّى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثمّ عصمه الله من ذلك. ونزلت هذه الآية.

الرّابع: إنّ بعض زعماء قريش قالوا لرسول الله ﷺ: اطرد عنا سُقّاط[3] النّاس ومواليهم، وهؤلاء الّذين رائحتهم رائحة الضّأن ـ وذلك أنّهم كانوا

= معروف، ضعيف الحفظ، مشهور بالتّدليس القبيح. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «صدوق يخطئ كثيراً وكان شيعيّاً مدلّساً»، توفي سنة ١١١هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٣٠٤. طبقات خليفة، ص: ١٦٠. التّاريخ الكبير: ٧/ ٨. ضعفاء العقيلي: ٣/ ٣٥٩. الجرح والتّعديل: ٦/ ٣٨٢. المجروحين: ٢/ ١٧٦. الكامل في ضعفاء الرّجال: ٥/ ٣٦٩. تهذيب الكمال: ٢٠/ ١٤٥. الكاشف: ٢/ ٢٧. تهذيب التّهذيب: ٦/ ٢٠٠. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٩٣. لسان الميزان: ٧/ ٥١٥. طبقات المدلّسين، ص: ٥٠.

(١) تلمّ: أي تجتمع بها. وانظر: لسان العرب: ١٢/ ٥٤٩.

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام أبو عبد الله أو أبو محمّد الأسدي الكوفيّ الوالبي مولاهم المقرئ، أحد أعلام التّابعين، كان ثقة ثبتاً فقيهاً عابداً ورعاً فاضلاً، خرج مع ابن الأشعث فقتله الحجّاج سنة ٩٥هـ وله ٥٧ سنة، وقيل ٤٩ سنة.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٢٥٦. طبقات خليفة، ص: ٢٨٠. التّاريخ الكبير: ٣/ ٤٦١. معرفة الثّقات: ١/ ٣٩٥. الجرح والتّعديل: ٤/ ٩. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٧٥. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٢. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠٧٥. تهذيب الكمال: ١٠/ ٣٥٨. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٧٦. الكاشف: ١/ ٤٣٣. تهذيب التّهذيب: ٤/ ١١. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٣٤. إسعاف المبطأ، ص: ١٢.

(٣) سقّاط: جمع ساقط، وهم رُذالة النّاس وأدوانهم. انظر: لسان العرب: ٧/ ٣١٩.

يلبسون الصّوف ـ حتّى نجالسك ونسمع منك. فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم فنزلت هذه الآيات[1].

والأولى أن تحمل الآيات على العموم من غير نظر إلى سبب معيّن لنزولها لأنّ فتن المشركين برسول الله ﷺ لا تنحصر. وهم الّذين دأبوا صباح مساء باذلين أقصى ما عندهم من جهد لإطفاء دينهم وإخماد دعوته.

ولذا قال الإمام ابن جرير رحمه الله بعد ذكره لبعض أسباب النّزول السّابقة:

«الصّواب من القول في ذلك أن يقال: إنّ الله تعالى ذكره أخبر عن نبيّه ﷺ أنّ المشركين كادوا أن يفتنوه عمّا أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله. وجائز أن يكون كان ذلك ما ذكر عنهم من ذكر أنّهم دعوه إلى أن يمسّ آلهتهم ويُلمّ بها، وجائز أن يكون كان ذلك ما ذُكر عن ابن عبّاس من أمر ثقيف ومسألتهم إياه ما سألوه ممّا ذكرنا، وجائز أن يكون غير ذلك. ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي ذلك كان. والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره حتّى يأتي خبر يجب التّسليم له ببيان ما عُني بذلك منه»[2].

وفي الآية منّة وفضل لله على رسوله ﷺ في تثبيته على الحقّ، وعصمته من الفتنة، ولولا ذلك لركن إلى المشركين وأجابهم إلى ما سألوه، وحينئذ يذيقه الله ضعف عذاب الدّنيا وضعف عذاب الآخرة. ولكن ثبّته وقوّى أمره بسبب قوّة إيمانه وصدق توكّله.

قال ابن كثير رحمه الله:

«يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته

---

(١) زاد المسير: ٥/٤٩. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٢٩٩ ـ ٣٠٠. والأقوال الثّلاثة الأولى أوردها ابن جرير رحمه الله بأسانيده في جامع البيان: ١٥/١٢٩ ـ ١٣٠، طبعة: الحلبي. والقول الرّابع ذكره الزّجاج في معاني القرآن: ٣/٢٥٤. والنّحاس في معاني القرآن: ٤/١٧٩.

(٢) جامع البيان: ١٥/١٣٠، طبعة: الحلبي. وانظر: التّفسير الكبير: ٢١/٢٢ ـ ٢٣. محاسن التّأويل: ١٠/٣٩٥٥ ـ ٣٩٥٦.

وسلامته من شرّ الأشرار وكيد الفجار، وأنّه تعالى هو المتولّي أمره ونصره، وأنّه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليّه وحافظه وناصره ومؤيّده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدّين»[1].

وقد حاول اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة ـ أن يسلكوا مسلك إخوانهم المشركين فيكيدوا رسول الله ﷺ فيفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، ويصرفوه عن دين الله تعالى فيفوزوا بغاية ما يتمنّون، وينالوا غاية ما يرجون، إذ همّهم إطفاء نور هذا الإسلام الّذي شرقوا به، وغصّت به حلوقهم، وأديل عليهم به.

وما فتئوا يبحثون عن كلّ ثغرة ليلجوا من خلالها إلى جسد الإسلام الشّامخ المنيع فيبثّوا شرورهم وينفّسوا عن أحقادهم، وأنّى لهم ذلك؟.

فالله قد عصم رسوله ﷺ منهم، وحماه من مكرهم، وحفظه من حسدهم، ووقاه من كيدهم. فلم يفلحوا في صرفه ولو عن جزء يسير من شرع الله. وقد أكثروا المحاولة في ذلك فما نجحوا، وبذلوا غاية الجهد فما أفلحوا، لتثبيت الله لرسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

قال ابن جرير رحمه الله:

«يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: احذر يا محمّد هؤلاء اليهود الّذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك فيصدّوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه، فيحملوك على ترك العمل به واتّباع أهوائهم».

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٧ ـ ٨٨. وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤١٥ ـ ٤١٦. وقد أشار رحمه الله إلى أمر مهمّ جداً وهو افتقار العبد إلى تثبيت الله له. في ظلال القرآن، للشّيخ سيّد قطب، طبعة: دار الشّروق، الطّبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م: ٤/ ٢٢٤٥.

ثمّ روى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمّد لعلّنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمّد إنّك قد عرفت أنّا أحْبَار[1] يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنّا إن اتّبعناك اتّبعنا يهود ولم يخالفونا، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدّقك. فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»[2].

لقد اجتاز رسول الله ﷺ فتنتهم بثبات كما اجتاز فتن المشركين من قبل بثبات وصبر. وما برح أعداء الله يرسلون إليه الفتنة عقب الفتنة، والمحنة تلو المحنة وهو ثابت، يفوق بثباته الجبل الأشم حتّى فارق هذه الحياة وهو كذلك ﷺ.

المطلب الثّاني

موسى بن عمران عليه السلام

لقد مرّ عليه السلام بفتن كثيرة ومحن عظيمة، من ابتداء أمره إلى منتهاه. فحفظه الله منها، وعصمه عنها، فما وجدت إليه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: ٤٠].

سأل سعيد بن جبير رحمه الله ابن عبّاس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ فقال: «نستأنف لها النّهار». ثمّ لمّا أصبح أخذ ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من أوّل أمره. فأورد قصّة فرعون وقتله لأولاد بني إسرائيل الذّكور، وأنّ موسى عليه السلام ولد في السّنة الّتي يقتل فيها الأولاد. وأنّ أمّه خافت عليه فوضعته في تابوت وألقته في اليمّ فالتقطه آل

---

(١) أحبار: جمع حَبْر أو حِبْر وهو العالم. انظر: لسان العرب: ٤/ ٣١٧.

(٢) جامع البيان: ١٠/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، طبعة: شاكر. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢١٣.

فرعون. وامتنع من الارتضاع من الأجانب. وأنّه أخذ بلحية فرعون فجرّها فأراد فرعون قتله فاختبره بجمرة ودرّة فأخذ الجمرة. ثمّ قتل القبطي فأرادوا قتله فخرج من مصر خائفاً يترقّب، وهرب إلى مدين فصار أجيراً، ثمّ عاد إلى مصر وقد أخطأ الطّريق في ليلة مظلمة. ثمّ ذكر ما كان من شأن النّار والعصا ويده، وخوفه من العصا. ثمّ ما كان من أمر فرعون والسّحرة. وانفلاق البحر، وإتمامه لميعاد ربّه، وعبادة قومه للعجل. إلى آخر ما ذكر.

وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما يقول عند كلّ بليّة: «وهذا من الفتون يا ابن جبير»[1].

وفي كلّ هذه الفتن ثبّت الله نبيّه موسى عليه السلام فلم تؤثر فيه، ولم يستجب لفتنة منها. فكان مثالًا يحتذى به في الثّبات عند الفتن، ونبراساً يستضاء بصبره عند المصاعب والمحن.

المطلب الثّالث

داود عليه السلام

مثّل موسى عليه السلام نبي الله عليه السلام فقد اجتاز الفتنة والمحنة الّتي مرّت به بثبات ويقين وصدق وإيمان، قائماً بأمر ربّه، عابداً له منيباً إليه، حتّى نال من الدّرجات ما عظم، ومن المراتب ما علا.

---

(١) هذا الأثر أورده بطوله النّسائي في سننه الكبرى، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، كتاب التّفسير، حديث الفتون، برقم: (١١٣٢٦): ٣٩٦/٦ - ٤٠٥. وأبو يعلى في مسنده: ١٠/٥، برقم: (٢٦١٨). قال عنه المحقّق: «رجاله ثقات».
وأورده جماعة من المفسّرين عند تفسيرهم للآية السّابقة، وأشار بعضهم إليه إجمالاً.
انظر: جامع البيان: ١٦٤/١٦ - ١٦٧، طبعة: الحلبي. الكشّاف: ٤٣٤/٢. زاد المسير: ١٩٩/٥. التّفسير الكبير: ٥٥/٢٢. الجامع لأحكام القرآن: ١٩٨/١١. تفسير القرآن العظيم: ٢٣٨/٣ - ٢٤٥. ونسبه للإمام النّسائي في سننه الكبرى ثمّ قال عقبه: «وهو موقوف من كلام ابن عبّاس، وليس فيه مرفوع إلّا قليل منه، وكأنّه تلقّاه ابن عبّاس رضي الله عنهما ممّا أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار، أو غيره. والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجّاج المزّي يقول ذلك أيضاً».اهـ. وكثير ممّا أورده ابن عبّاس رضي الله عنهما في هذا الأثر جاء ذكره في القرآن الكريم.

قال تعالى في شأنه:

﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾ [صٓ: ٢١ ـ ٢٥].

ولكن ما هي الفتنة الّتي وقع فيها داود ﷺ ثمّ تعدّاها بثبات وصبر؟

للمفسّرين في هذه الفتنة أقوال كثيرة، وآراء متنوّعة ترجع في جملتها إلى قولين:

قول من يرى أنّ داود ﷺ ألمّ بذنب ثمّ غفر له.

وقول من يرى أنّ ما وقع عبارة عن حكومة جرت بين خصمين لا علاقة لها بما سبق[١].

وأصحاب القول الأوّل يطيلون في ذكر قصّة هنا. حاصل كلامهم فيها:

إنّ داود ﷺ عشق امرأة رجل من جنده يدعى أوريا، وكان لداود ﷺ تسع وتسعون امرأة. فاحتال على أوريا بأوجه كثيرة حتّى قتل، ثمّ تزوّج بامرأته. فأرسل الله له ملكين في صورة متخاصمين في حادثة شبيهة بتلك الحادثة. فحكم داود ﷺ بحكم يلزم منه وقوعه في الذّنب، فلجأ عند ذلك إلى التّوبة والاستغفار[٢].

والّذي يدين الإنسان ربّه به أنّ داود ﷺ نبيّ معصوم من الله تعالى، حاشاه أن يقع منه أمثال هذه الحثالات الّتي يترفّع عن مثلها سائر المسلمين.

ثمّ أين في سياق الآيات ما يدلّ على هذا الّذي قيل؟ بل المتفحّص للآيات يرى أنّ فيها مدحاً وثناء على داود ﷺ.

---

(١) انظر: محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٨٨.   (٢) انظر: التّفسير الكبير: ٢٦/١٨٩.

بل يكفي داود عليه السلام فخراً أن أمر الله رسوله محمّداً ﷺ بالتّأسّي به والاقتداء به في المصابرة ومكابدة المشاق، وتحمّل أذى قومه له كما تحمّل داود عليه السلام أذى قومه وسفههم وشططهم وصبر على ذلك وثبت[1].

فذكر هذه الحادثة جاء في سياق الاقتداء والتّأسي في الصّبر والثّبات. ولذا قال تعالى مفتتحاً إيّاها بقوله لمحمّد ﷺ:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [صٓ: ١٧]. ولو كان الأمر كما ذكر ما صلح ذلك التّأسّي ولا الاقتداء. فكيف يمدح الله داود عليه السلام بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [صٓ: ٢٥]. وقد صدر منه ذلك الجرم؟.

وكيف يفوّض له خلافة الأرض والحكم بين النّاس بالحقّ بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [صٓ: ٢٦]. وقد صدر منه ذلك الظّلم؟ والله لم يورد في الآيات هذا الذّنب المزعوم، ولم يكشف النّقاب عنه، فلِمَ النّبش عن ذلك، والتّكلّف الّذي لا فائدة فيه؟.

والفائدة إنّما تكمن فيما قصّه الله علينا من توبته وإنابته، وأنّه قد تبوّأ منزلة عظيمة بذلك[2]. فلا حاجة للدّخول في مضايق لا يسلم الإنسان من ذكرها.

وأمّا الاستغفار والتّوبة فلا يلزم منهما وقوع ذنب أو معصية. وها هو رسول الله ﷺ الّذي غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر[3].

يقول في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «والله إنّي لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرّة»[4].

---

(١) انظر: المرجع السّابق: ٢٦/١٨٩ ـ ١٩٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٥٧.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١ ـ ٢].

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب استغفار النّبي ﷺ في اليوم واللّيلة: (٣)، برقم: (٦٣٠٧)، ص:١٣٤٦.

ولذا قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ:

«وأمّا استغفاره وخروره ساجداً، ومغفرة الله تعالى له، فالأنبياء عليهم السلام أولى النّاس بهذه الأفعال الكريمة. والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبيّ ولا من مذنب ولا من غير مذنب. فالنّبيّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض، والملائكة كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

وأمّا قوله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥].

فقد ظنّ داود عليه السلام أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في أن يثبّت الله قلبه على دينه[1]. فاستغفر الله تعالى من هذا الظّنّ فغفر الله تعالى له هذا الظّنّ إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة»[2].

والقصّة مع كثرة من ذكرها من المفسّرين لم تثبت، وإنّما كانت من ترّهات اليهود ليطعنوا بها في نبي الله عليه السلام كشأنهم دائماً مع أنبياء الله تعالى.

ولذا قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

«قد ذكر المفسّرون هاهنا قصّة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتّباعه... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصّة وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل، فإنّ القرآن حق، وما تضمّن فهو حقّ»[3].

فالرّواية لم تثبت لها صحة، ولم تقم لها قائمة. وذلك تناولها علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالرّد والتّضعيف، وأبانوا عوارها، وكشفوا عن زيفها

---

(١) تأتي الأدلّة على ذلك.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٤/١٨ ـ ١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٧.

سنداً ومتناً، وشرعاً وعقلاً، فبطل الاستناد عليها واللّجؤ إليها[1].

والمراد هنا أنّ داود عليه السلام ظنّ أنّه مرّ بفتنة، ولكنّه اجتاز ذلك الظّن بصبر وثبات ممّا أدّى إلى مدح الله له وثنائه عليه، فصار بعد ذلك في مقام أسمى من الّذي كان فيه.

المطلب الرّابع

سليمان بن داود عليهما السلام

مثّل داود عليه السلام ابنه سليمان عليه السلام الذي احتوشته فتنة، الله أعلم بها وبشأنها؟. فصبر كما صبر أبوه من قبل، وثبت عندها فلم تصل إلى غايتها منه. بل عاد منها ظافراً منتصراً نال من الملك ما لا ينبغي لأحد بعده، وسخّرت له الرّيح تسير بأمره حيث شاء، والشّياطين يعملون بأمره فيما أراد وشاء، ويعطي من يريد ويمنع من يشاء بإذن الله تعالى، ولا حساب عليه. وفوق كلّ ذلك له يوم القيامة القربة من الله تعالى، والمرجع الحسن، وهو الدّرجات العالية في الجنّة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

---

(١) من أولئك:
الإمام ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٤/١٨ ـ ١٩. القاضي عياض في الشّفا بتعريف حقوق المصطفى، طبعة: المكتبة التّجاريّة الكبرى، وتوزيع: دار الفكر، بيروت، ٢/١٦٣ ـ ١٦٤. الإمام الرّازي في التّفسير الكبير: ٢٦/١٨٨ ـ ١٩٩ وقد أطال رحمه الله في الرّد عليها. الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥/١٧٥. أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط في التّفسير، مراجعة: صدقي محمّد جميل، طبعة: دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ٩/١٤٦ ـ ١٥٢. السّيوطي في الإكليل في استنباط التنّزيل، مراجعة: أبي الفضل عبد الله محمّد الصّديق الغماري، مطابع: دار الكتاب العربي بالقاهرة، ص: ١٨٤ ـ ١٨٦. القاسمي في محاسن التّأويل: ١٤/ ٥٠٨٨ ـ ٥٠٩٣. سيّد قطب في ظلال القرآن: ٥/٣٠١٨ وغيرهم الكثير.

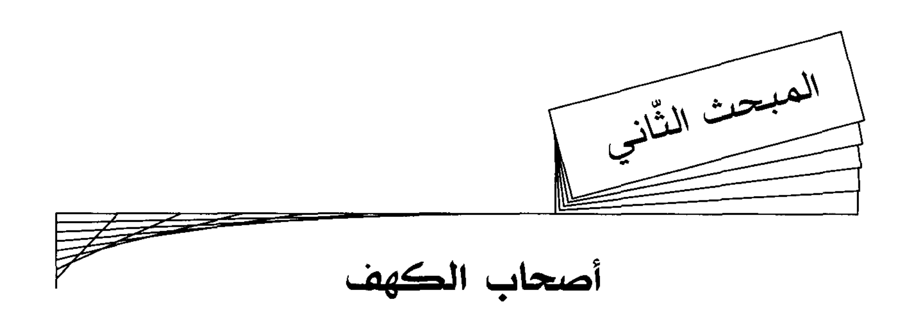
﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾ [صۤ: ٣٤ ـ ٤٠].

وما ذكره العلماء هنا من قصّة مطوّلة في فتنة سليمان عليه السلام تتلخّص في أنّ شيطاناً سلبه ملكه مدّة من الزّمن ثمّ رجع إليه ملكه. فهي مأخوذة عن أخبار بني إسرائيل، وفيهم من لا يعتقد بنبوّته عليه السلام. وفي القصّة ما ينكر، وبعضها كذب[1].

فالدّرس الّذي يستفاد، والعبرة الّتي تؤخذ أن سليمان عليه السلام حلّت به فتنة فثبت عندها وصبر، فنال جزاء ذلك في الدّنيا والآخرة كما سبق بيانه في معاني الآيات. فهو عليه السلام أنموذج رابع يوضّح ثبات الرّسل عليهم السلام كانوا جميعاً أثبت النّاس عند فتنة، وأصبرهم عند محنة. ولكن راعيت في ذكر هؤلاء اقتران أسمائهم بلفظ الفتنة في القرآن ليكون ذلك أقرب للاستدلال.



(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٤ ـ ٥٥. وانظر في بيان عدم ثبات تلك القصّة والرّد عليها: الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٤/ ١٩ ـ ٢٠. الشّفا: ٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧. التّفسير الكبير: ٢٦/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٠١. البحر المحيط: ٩/ ١٥٥ ـ ١٥٦. محاسن التّأويل: ١٤/ ٥١٠٤ ـ ٥١٠٥. في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠٢٠.



أصحاب الكهف

إنّ قصّة أصحاب الكهف من القصص العجيبة الّتي أوردها الله في قرآنه. تتمثّل فيها قوّة الإيمان الصّادق الّذي يطمئن النّفوس، ويقذف في القلوب الثّبات واليقين، ويهوّن أمر هذه الدّنيا ببهرجها وزينتها على أصحابها، فيلجأ أصحابه إلى الله فارّين بدينهم إليه من الفتن، معتزلين المجتمع بأسره، حفاظاً على دينهم، وحماية لعقيدتهم. فيحيط الله أولئك بكنفه، ويرعاهم بحفظه، وتشملهم رحمته، ويهيّئ لهم من الأسباب الحامية المانعة ما يكفّ عنهم شرّ كلّ ذي شرّ وأذى كلّ ذي أذى.

إنّ أصحاب الكهف جماعة من الشّباب جمعت بينهم العقيدة، ووحّدت بين قلوبهم كلمة التّوحيد فعلموا ألّا إله إلّا الله، وألّا ربّ يعبد سواه، ورأوا في قومهم انحرافاً عن هذه الحقيقة، وانغماساً في أدناس الكفر والشّرك. فواجهوهم بالحقّ، وصدعوا بالأمر بكلّ جرأة وثبات. لا يخافون في الله لومة لائم. ولكنّ قومهم أجمعوا أمرهم على الكيد بهم، وأرادوا صدّهم عمّا هم فيه، وفتنتهم عن دينهم الحقّ.

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾:

قال ابن جرير رحمه الله:

«وزدناهم إلى إيمانهم بربّهم إيماناً وبصيرة بدينهم حتّى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه إلى خشونة المكث في كهف الجبل»[1].

وقال الزمخشري:

«بالتوفيق والتّثبيت»[2].

وقال ابن الجوزي رحمه الله:

«أي ثبّتناهم على الإيمان»[3].

وقال القرطبي رحمه الله:

«أي يسّرناهم للعمل الصّالح،من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة النّاس، والزّهد في الدّنيا. وهذه زيادة على الإيمان»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

قال ابن جرير رحمه الله:

«وألهمناهم الصّبر وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتّى عزفت أنفسهم عمّا كانوا عليه من خفض العيش»[5].

وقال النّحّاس رحمه الله:

«والمعنى عند أهل اللّغة: صبّرناهم وثبّتناهم»[6]]

وقال الزمخشري:

«وقويّناها بالصّبر على هجر الأوطان والنّعيم، والفرار بالدّين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحقّ والتّظاهر بالإسلام»[7].

---

(١) جامع البيان: ١٥/ ٢٠٧، طبعة: الحلبي.

(٢) الكشّاف: ٢/ ٣٨٢.

(٣) زاد المسير: ٥/ ٨٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٦٥.

(٥) جامع البيان: ١٥/ ٢٠٧، طبعة: الحلبي.

(٦) معاني القرآن: ٤/ ٢٢٢.

(٧) الكشّاف: ٢/ ٣٨٢، الطبعة التجارية.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي ألهمناها الصّبر»(١).

وقال الرّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي ألهمناها الصّبر وثبّتناها»(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«عبارة عن شدّة عزم وقوّة صبر، أعطاها الله لهم حتّى قالوا بين يدي الكفّار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ ولمّا كان الفزع وخور النّفس يُشبه بالتّناسب الانحلال حَسُن في شدّة النّفس وقوّة التّصميم أن يشبه الرّبط»(٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وصبّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرّغيد والسّعادة والنّعمة، فإنّه قد ذكر غير واحد من المفسّرين من السّلف والخلف أنّهم كانوا من أبناء ملوك الرّوم وسادتهم»(٤).

وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي قوّيناها بالصّبر على المجاهدة. وشجّعناهم على محاربة الشّيطان، والفرار بالدّين إلى بعض الغيران، ومخالفة النّفس، وهجر المألوفات الجسمانيّة، واللّذّات الحسيّة، والقيام بكلمة التّوحيد»(٥).

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي صبّرناهم وثبّتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنّة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبرّه، أن وفّقهم للإيمان والهدى والصّبر والثّبات والطمأنينة»(٦).

---

(١) زاد المسير: ٥/ ٨٠.

(٢) التّفسير الكبير: ٢١/ ٩٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٢١.

(٥) محاسن التّأويل: ١١/ ٤٠٢٨.

(٦) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٢٢.

وقال سيّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإذا هي ثابتة راسخة، مطمئنّة إلى الحقّ الّذي عرفت، معتزّة بالإيمان الّذي اختارت»(١).

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والرّبط على قلوبهم يتضمّن الشّدّ عليها بالصّبر والتّثبت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتّى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش، وفرّوا بدينهم إلى الكهف»(٢).

وكلّ هذه الأقوال تفيد رباطة جأش أولئك الفتية المؤمنين، وقوّة عزائمهم، وشدّة صبرهم، وصلابتهم في الحقّ. وذلك كلّه يترجم ثباتهم رحمهم الله.

ولمّا خاف أولئك الفتية من قومهم أن يفتنوهم فرّوا بدينهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا فيه. فقالوا حين دخلوه سائلين الله من رحمته ولطفه، وأن يحفظهم من كلّ شرّ، ويوفّقهم لكلّ خير، وييسّر لهم كلّ سبب موصل إلى الرّشد، ويصلح لهم دينهم ودنياهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

فجمعوا بين السّعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرّعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتّكالهم على أنفسهم وعلى الخلق.

فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيّض لهم ما لم يكن في حسابهم. قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: ١١]، أي: أنمناهم سنين عدداً، وهي ثلاثمائة وتسع سنين. وفي النّوم حفظ لقلوبهم من

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٦٢.

(٢) مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، للإمام ابن قيّم الجوزيّة، مطبعة: السّنّة المحمّديّة، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: محمّد حامد الفقي: ٣/ ٦٧.

الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم[1].

وأحاطهم الله ﷻ بسياج سميك من الحماية والرّعاية والعناية، وهيّأ لهم من أسباب الحفظ ما يكفل بقاء أجسامهم هذه المدّة الطّويلة.

فحفظهم من الشّمس، فإذا طلعت مالت عنهم يمنة، وإذا غربت مالت عنهم يسرة، فلا تؤثّر حرارتها في أبدانهم. وهم في موضع متّسع من ذلك الغار فلا يتأذّون بضيق المكان ولا بقلّة الهواء.

ومن رآهم حسبهم أيقاظاً وهم رقود. وهم في نومهم يتقلّبون ذات اليمين وذات الشّمال حتّى لا تفسد الأرض أجسامهم. وقد ألقيت عليهم المهابة فلا يتأتى لأحد قربهم والدّنو منهم، بل يتملّكه الخوف ويمتلئ قلبه ذعراً فيلوذ بالفرار خوفاً ورعباً.

قال تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٧ ـ ١٨][2].

ثمّ بعثهم الله ليكونوا آية للعالمين، وبصيرة ويقيناً للمؤمنين، وحجّة ودليلاً على الجاحدين الكافرين.

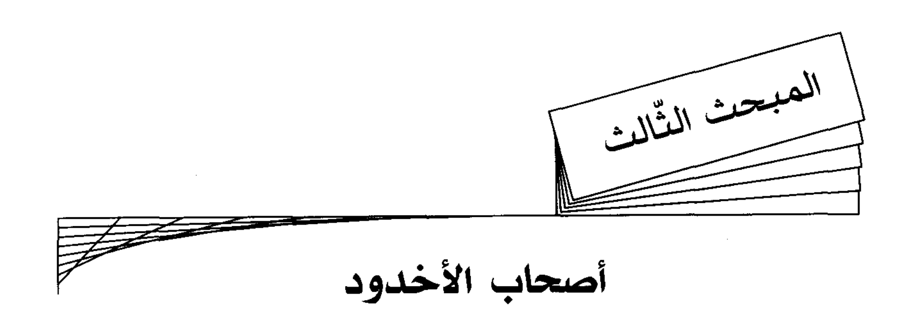
قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

وليقف أهل الإيمان على خبرهم فيتعلّموا منهم الثّبات على الدّين، والاعتصام بالله واللّجوء إلى جنابه، وتحمّل كلّ أذى في سبيله وابتغاء مرضاته، ولو أدّى ذلك إلى اعتزال المجتمع والفرار منه ما دام الغاية أن يبقى للإنسان دينه، وتسلم له عقيدته.

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٢١، بتصرُّف يسير.

(٢) وانظر معاني الآيات في: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٢٤ ـ ١٢٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٢٢.



أصحاب الأخدود

إنّهم فئة من المؤمنين في أمّة سابقة، آمنوا بالله تعالى، ورسخت عقيدة الإيمان في قلوبهم. فتسلّط عليهم طغاة من أهل الكفر والإلحاد والظّلم، وأرادوهم أن يقلعوا عن عقيدتهم ويرتدّوا عن دينهم فأبوا، فعمد الطّغاة والجبّارون فشقّوا شقوقاً في الأرض، وأجّجوا فيها النّيران، ثمّ قذفوا المؤمنين فيها على مشهد ومرأى من الظّلمة وأعوانهم. ولم يكن لأولئك المؤمنين جريرة ارتكبوها ولا ذنب قارفوه عند هؤلاء إلّا إيمانهم بالله العزيز الحميد.

فثبت المؤمنون على إيمانهم، فلم ينثنوا عن عقيدتهم، ولم يستجيبوا لفتنة أولئك مع شدّة العقاب وهول العذاب.

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ٤ ـ ١٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«هذا خبر عن قوم من الكفّار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عَزَّ وَجَلَّ، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأجّجوا فيه ناراً، وأعدّوا لها وقوداً يسعّرونها به، ثمّ أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها... وما كان لهم عندهم ذنب إلّا

إيمانهم بالله العزيز الّذي لا يضام من لاذ بجنابه، المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره»[1].

والقصّة سيقت لبيان ثبات أولئك القوم على دينهم، ولكي يأخذ المؤمنون العبرة والعظة، ويتأسّوا بهم في الصّبر على الحقّ.

ولذا قال الزّمخشري:

«إنّ السّورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكّة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدّمهم من التّعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى، وصبرهم وثباتهم حتّى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أنّ كفّارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذِّبين المحرِّقين بالنّار ملعونون أحقّاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش كما قيل: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧][2].

وقد أشار النّبيّ ﷺ إلى قصّة أصحاب الأخدود في حديث طويل، مبيّناً فيه ثبات أولئك القوم على دينهم، وصبرهم على العذاب في ذات الله تعالى، وكيف جادوا بأنفسهم حفاظاً على إيمانهم.

عن صهيب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلمّا كبر قال للملك: إنّي قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلّمه السّحر[3]،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٧٦.

(٢) الكشّاف: ٤/ ٢٣٧، الطبعة: الحلبية.

(٣) السِّحر: هو كلّ ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر. انظر: مختار الصِّحاح، ص:٢٨٨. لسان العرب: ٤/ ٣٤٨. القاموس المحيط، ص:٥١٩.
وهو في الشّرع عمل يتقرّب فيه إلى الشّيْطان ويتمّ بمعونة منه، وأصله صرف الشّيء عن حقيقته إلى غيره. انظر: لسان العرب: ٤/ ٣٤٨.
وقيل: لفظ السّحر في عرف الشّرع يختصّ بكلّ أمر يخفى سببه ويتخيّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التّمويه والخداع، وإذا أطلق ذمّ فاعله، وقد يستعمل مقيّداً فيما يمدح ويحمد. التّعاريف: ١/ ٣٩٩. والسّحر ليس كلّه تخيّل، بل منه ما هو حقيقة وما هو تخيّل.
وهو يقال على معان: الأوّل: تخيّلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ. الثّاني: =

فبعث إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب[1]، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى السّاحر مرّ بالرّاهب وقعد إليه، فإذا أتى السّاحر ضربه، فشكا ذلك إلى الرّاهب، فقال: إذا خشيت السّاحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني السّاحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبست النّاس. فقال: اليوم أعلم السّاحر أفضل أم الرّاهب أفضل؟. فأخذ حجراً فقال: «اللّهم إن كان أمر الرّاهب أحبَّ إليك من أمر السّاحر فاقتل هذه الدّابّة حتّى يمضي النّاس. فرماها فقتلها ومضى النّاس، فأتى الرّاهب فأخبره، فقال له الرّاهب: أي بني أنت اليوم أفضل منّي، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنّك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ. وكان الغلام يبرئ الأكْمَه[2] والأبرص ويداوي النّاس من سائر الأدواء[3].

فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إنّي لا أشفي أحداً إنّما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله، فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربّي. قال: ولك ربّ غيري؟ قال: ربّي وربّك الله. فأخذه فلم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الغلام،

= استجلاب معاونة الشّيْطان بضرب من التّقرُّب إليه، الثّالث: ما يغيّر الصّور والطّبائع كجعل الإنسان حماراً. انظر: المفردات، ص: ٢٢٦.

(١) الرَّاهب: هو المتعبّد، وجمعه رُهْبان، وأصله من التَّرَهُّب وهو استعمال الرّهبة ـ وهي الخوف ـ في العبادة. ويطلق على ذلك الفعل: رَهْبَانية وهي: غلو في تحمّل التّعبد من فرط الرّهبة. وانظر: المفردات، ص: ٢٠٤.
لسان العرب: ١/ ٤٣٧. ورهبانيّة النّصارى الّتي عرفوا بها: أنّهم كانوا يترهّبون بالتّخلّي من أشغال الدّنيا وترك ملاذها والزّهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعمّد مشاقّها، حتّى إنّ منهم من كان يخصي نفسه ويضع السّلسلة في عنقه. وغير ذلك. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٨٠، بتصرُّف يسير.

(٢) الأكْمَه: هو الأعمى، وقيل: هو الّذي ولد أعمى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٢٠١.

(٣) الأدواء: جمع داء وهو المرض. انظر: مختار الصّحاح، ص: ٢١٤. لسان العرب: ١/ ٧٩.

فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إنّي لا أشفي أحداً، إنّما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الرّاهب، فجيء بالرّاهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمِئشار[1]، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقّه حتّى وقع شقّاه، ثمّ جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقّه به حتّى وقع شقّاه. ثمّ جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلّا فاطرحوه. فذهبوا به، فصعدوا به الجبل فقال: اللّهم اكفينهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور[2]، فتوسّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلّا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللّهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السّفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنّك لست بقاتلي حتّى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع النّاس في صعيد[3] واحد، وتصلبني على جذع، ثمّ خذ سهماً من كنانتي[4]، ثمّ ضع السّهم في كبد القوس، ثمّ قل: باسم الله ربّ الغلام، ثمّ ارمني، فإنّك إذا فعلت ذلك قتلتني.

---

(١) المئشار: بهمزة بعد الميم وهو الأفصح، ويجوز تخفيف الهمزة ياء، ويجوز المنشار بالنون، وعلى هذا يقال: نشرت الخشبة، وعلى الأوّل يقال أشرتها. شرح النّووي على صحيح مسلم: ١٨/ ٧٤ بتصرُّف.

(٢) قُرْقُور: هو السّفينة العظيمة وجَمْعُها قَراقِير. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٤٨.

(٣) الصعيد: هو التّراب، ويطلق على وجه الأرض وعلى الطّريق، والجمع صُعُد وصُعْدان. انظر: لسان العرب: ٣/ ٢٥٤. وانظر: المرجع السّابق: ٣/ ٢٩.

(٤) الكنانة: أصلها من الكِنّ وهو السّتر والوقاء، وهي جعْبة السّهام الّتي توضع فيها، وتتّخذ من جلود أو خشب. انظر: لسان العرب: ١٣/ ٣٦٠ ـ ٣٦١. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ١١٢. مختار الصّحاح، ص: ٥٨٠. القاموس المحيط، ص: ١٥٨٥.

فجمع النّاس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثمّ أخذ سهماً من كنانته، ثمّ وضع السّهم في كبد القوس، ثمّ قال باسم الله ربّ الغلام، ثمّ رماه فوقع السّهم في صُدْغِه[1]، فوضع يده في صدغه في موضع السّهم فمات. فقال النّاس: آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام. فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك[2]، قد آمن النّاس. فأمر بالأخدود في أفواه السِّكك[3] فخدّت، وأضرم النّيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأَحْمُوه[4] فيها. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا، حتّى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست[5] أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه اصبري فإنّك على الحقّ»[6].

لقد أضحى هؤلاء المؤمنون مثالاً يحتذى به لكلّ مفتون في الأرض من أهل الإيمان من أجل دينهم وعقيدته، مهما بلغت تلك الفتنة، ولو أدّت إلى إزهاق الأرواح وسفك الدّماء، بل والحرق بالنّار كما حدث لهؤلاء. لأنّ كلّ شيء في ذات الله يهون، وكلّ صعب من أجله يسهل. وما أعدّه للصّابرين

---

(١) الصُّدْغ: هو ما بين العين إلى شحمة الأذن. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٧.

(٢) نزل بك حذرك: أي ما كنت تحذر وتخاف. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١٣٣.

(٣) السِّكَك: هي الطّريقة المستوية المصطفى من النَّخل، ومنها قيل للأزقّة سكك لاصطفاف الدّور فيها. غريب الحديث للهروي: ١/ ٣٤٩. الفائق: ٢/ ١٨٩. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٨٤.
وقال النَّووي رحمه الله: «السّكك: الطّرق، وأفواهها: أبوابها». شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١٣٣.

(٤) يقال: حَمِي الشّمس وحَمْوها: اشتداد حرّها، ويقال: حِمَى المسمار وغيره في النّار حَمْياً وحُمُوّاً: سَخُنَ. انظر: مختار الصّحاح، ص:١٥٨. لسان العرب: ١٤/ ٢٠١.
والمراد: ارموه فيها حتّى يحترق. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١٣٣.

(٥) فتقاعست: أي تأخّرت. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٨٧.
وقيل: توقّفت ولزمت موضعها وكرهت الدّخول في النّار. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١٣٣.

(٦) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، باب قصّة أصحاب الأخدود والسّاحر والرّاهب والغلام: (١٧)، برقم: (٣٠٠٥)، ٤/ ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١.

الثّابتين على الحقّ يفوق كلّ ما يتصوّر من عظيم الثّواب وفائق الأجر.

ولذا حرص رسول الله ﷺ أن يورد هذه الحادثة بطولها ليدفع أهل الإيمان على الثّبات عند شدائد الفتن بذكره لهم أخبار السّابقين من الأمم، وما عانوه من مشاقّ من أجل دينهم.

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قال علماؤنا: أعلم الله ﷻ المؤمنين من هذه الأمّة في هذه الآية ما كان يلقاه من وحّد قبلهم من الشّدائد يؤنسهم بذلك. وذكر لهم النّبيّ ﷺ قصّة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقّات الّتي كانوا عليها ليتأسّوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلّبه في الحقّ وتمسكّه به، وبذله نفسه في حقّ إظهار دعوته، ودخول النّاس في الدّين مع صغر سنّه وعظم صبره. وكذلك الرّاهب صبر على التّمسّك بالحقّ حتّى نشر بالمنشار. وكذلك كثير من النّاس لمّا آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطّرح في النّار ولم يرجعوا في دينهم»[1].

إنّ الثّبات على العقيدة يمثّل انتصاراً للحقّ على الباطل، واستعلاء للإيمان وأهله على الحياة المادّيّة الفانية. إنّ فقد النّفوس، وضياع الأجساد لا يوازن بضياع الإيمان والدّين، إذ خسارة الأجساد خسارة دنيا زائلة بينما خسارة الاعتقاد خسارة أخرى باقية، والفرق بين ذلك شاسع وبعيد.

إنّ وهج النّار ولفحها لم يزل إلّا الأبدان، وأمّا الإيمان الّذي استقرّ في القلوب فإنّه لم يصل إليه، وهو الّذي ضمن لأولئك القوم السّعادة الأبديّة في الجنان الوارفة.

ولو نجت تلك النّفوس المؤمنة من تلك النّار الحارقة في مساومة مع الإيمان لخسرت خسارة لا تجبر، وفقدت سعادة لا تقوّم.

وتعجبني كلمة الشّيخ سيّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في روعة سياقها، وعذوبة معناها، أعضّد بها ما ذكرت، وأذيّل بها هذه الجزئيّة من البحث، يقول:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ٢٩٣.

«تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالرّوعة. روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرّد من أوهاق[1] الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدّنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشريّة كلّها تخسر؟

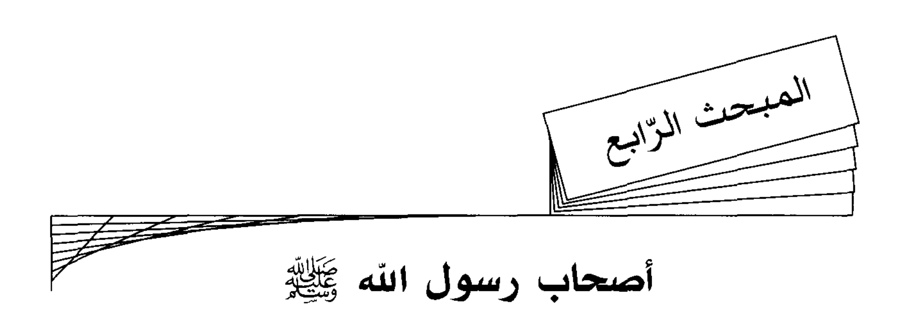
كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حريّة، وانحطاطها حين يسيطر الطّغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد!

إنّه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً هذا الّذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مسّ النّار، فتحترق أجسادهم وينتصر هذا المعنى الكريم الّذي تذكيه النّار، وبعد ذلك لهم عند ربّهم حساب، ولأعدائهم الطّاغيين حساب يعقب به السّياق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١٠ ـ ١١][2].



(١) الأوهاق: جمع وَهَق بالتّحريك وقد يسكن، وهو حبل كالطّوَل تشدّ به الإبل والخيل لئلا تَنِدَّ. لسان العرب: ١٠/٣٨٦.
فلعله أراد بقوله: والانطلاق المتجرّد من أوهاق الجسم: أي الانطلاق المتجرّد من تقيدات الجسم، لأنّ الوهق يُقَيّدُ به.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٨٧٤.



أصحاب رسول الله ﷺ

إنّ أصحاب رسول الله ﷺ هم الفئة المختارة من هذه الأمّة بعد نبيّها ﷺ، جعلهم الله وزراء نبيّه يدافعون عن دينه، وينافحون عن شرعه، وامتدحهم في قرآنه في آيات كثر.

فقال تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال ﷻ: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨ ـ ٨٩].

ولا سيّما السّابقون على الإسلام منهم، وفيهم يقول المولى سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأثنى عليهم رسول الله ﷺ جملة في قوله: «خير النّاس قرني ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم»[١].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الشّهادات: (٥٢/٢٨)، باب لا يشهد على شهادة=

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:

«من كان منكم مستنّاً فليستنّ بمن قد مات، فإنّ الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمّد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمّة، أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلّفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينهم، فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم في آثارهم، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم»[1].

إنّهم لم يبلغوا المنزلة العظيمة، والتّكرمة الرّفيعة، والثّناء العاطر إلّا لصدقهم في حمل هذا الدّين، علماً وعملاً ودعوة. حملوه بقلوب لا تعرف الملال، وأجساد لا تعرف الكلال، وصبر وثبات كثبات الرّاسيات من الجبال. وذلك في وقت قلّ فيه المعين من البشر وندر فيه النّاصر، وطغى فيه سلطان الكفر والشّرك، وكشّر عن أنياب العداء السّافر لحملة الحقّ من الصّحابة

= جور إذا أشهد: (٩). عن عمران بن حصين رضي الله عنه، برقم: (٢٦٥١)، إلّا إنّه قال: «خيركم». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، برقم: (٢٦٥٢)، ص:٥٥١، وفي كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ: (٦٢/ ٣٧)، باب فضائل أصحاب النّبي ﷺ: (١/ ٢٩)، عن عمران رضي الله عنه، برقم: (٣٦٥٠)، إلّا إنّه قال: «خير أمّتي». وعن عبد الله رضي الله عنه، برقم: (٣٦٥١)، ص:٧٦٧، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧). عن عمران رضي الله عنه، برقم: (٦٤٢٨)، إلّا إنّه قال: «خيركم». وعن عبد الله رضي الله عنه، برقم: (٦٤٢٩)، ص:١٣٦٩، وفي كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/ ٥٧)، باب إثم من لا يفي بالنّذر: (٢٧)، برقم: (٦٦٩٥)، إلّا إنّه قال: «خيركم»، ص:١٤١٦، وبلفظ مقارب عن: عبد الله رضي الله عنه في باب إذا قال أشهد بالله، أو شهدت بالله: (١٠)، برقم: (٦٦٥٨)، ص:١٤٠٩.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب فضل الصّحابة ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم: (٥٢). عن عبد الله رضي الله عنه، برقم: (٢٥٣٣)، ٤/ ١٩٦٣، وبلفظ مقارب عن عمران رضي الله عنه، برقم: (٢٥٣٥)، ٤/ ١٩٦٤.

(١) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٤٣٢، طبعة: المكتب الإسلامي، وقد أورد أبو نعيم قريباً منه من قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. حلية الأولياء، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠٥هـ: ١/ ٣٠٥ _ ٣٠٦.

وانظر: الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد الشّاطبي، طبعة: المكتبة التّجاريّة، مصر، تعريف: محمّد رشيد رضا: ١/ ٣٣٧.

الميامين. وكلّ ذلك لم يثن عزائمهم، ولم يضعضع قواهم، بل واجهوا جحافل الشّرك بقلوب ثابتة، وإيمان راسخ.

لقد ثبتوا على هذا الدّين منذ بزوغ فجره عندما كانوا في قلّة من العدد وضعف من العُدد. يحتوشهم مجتمع بلغ في الطّغيان منتهاه، وفي الظّلم أعلاه، وفي العدوان غايته. جرّدت قلوب أصحابه من الشّفقة، وأرواحهم من الرّحمة؛ لأنّها قلوب دنّست بوحل الشّرك، وأرواح لطّخت بظلم الكفر. فانبروا لأولئك الضعفة يذيقونهم الأمرّين، تفنّناً في التّنكيل، وتنوّعاً في التّعذيب. والقصد أن يفتن أولئك المؤمنون عن دينهم، ويرتدّوا عن توحيدهم.

وبذل أولئك القساة كلّ جهد يملكونه، وكلّ أسلوب يعرفونه لينالوا من تلك الفئة الثّابتة. واشتدّت وطأة تعذيبهم عليهم فما استجاب لها إلّا النّزر اليسير، وبعضهم مكرهاً. وثبُت الجلّ الكثير فلم ينتكس.

قال ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ثمّ إنّهم ـ أي المشركون ـ عدو على من أسلم، واتّبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضّرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحرّ، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم. فمنهم من يفتن من شدّة البلاء الّذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم»[(١)].

وأولئك الّذين أجابوا المشركين في بعض ما أرادوا إنّما أجابوا دفعاً للتّعذيب، وإكراهاً على الكفر، وليس رضًى به.

وفي شأنه يقول الله ﷻ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦][(٢)].

---

(١) السّيرة النّبويّة، لابن هشام: ١/ ١٩٤، ولم أقف على النّص كاملاً كما ذكره ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سيرة ابن إسحاق المسمّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق: محمّد حميد الله، طبعة: معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب: ٤/ ١٧٠.

(٢) وانظر في معنى الآية: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٨٠ ـ ١٩١ وفيه تفصيل جامع=

عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قلت لعبد الله بن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: «نعم والله؟ إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشّونه حتّى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الضّرّ الّذي نزل به، حتّى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتّى يقولوا له اللّات والعزّى إلٰهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتّى إنّ الجعلَ ليمرّ بهم، فيقولون: له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم ممّا يبلغون من جهده»[1].

وقد غفر الله لهم ذلك كلّه بعد هجرتهم وجهادهم وصبرهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

يقول الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يقول تعالى ذكره: ثمّ إنّ ربّك يا محمّد للّذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم من بعدما فتنهم المشركون الّذي كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم، ثمّ جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسّيف، وبألسنتهم بالبراءة منهم وممّا يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول: إنّ ربّك من بعد فعلتهم هذه لهم لغفور. يقول: لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون. رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم»[2].

= في معنى الإكراه، وحدّه، وتطبيقه في الفروع الفقهيّة، ومذاهب أهل العلم في ذلك.

(١) السّيرة النّبويّة، لابن هشام: ١/١٩٦.

(٢) جامع البيان: ١٤/١٨٣، طبعة: الحلبي. وانظر: معاني القرآن للزّجّاج: ٣/٢٢٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/٩١٣. محاسن التّأويل: ١٠/٣٨٦٦. وفي الآية أقوال أخرى. انظر: التّفسير الكبير: ٢٠/١٢٥ ـ ١٢٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٨٠ ـ ١٨١ وقد ذكر أسماء من فتن، ومن لم يجب المشركين في تلك الفتنة.

ولمّا رأى النّبيّ ﷺ ما أصاب أصحابه من الشدَّة والبلاء والفتنة، وأنّه لا يقدر على منعهم وحمايتهم أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة لأنّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، حتّى يجعل الله لهم مخرجاً ممّا هم فيه. فخرجوا إليها مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم إلى الله[1].

وفي ذلك يقول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنّجاشي[2]، بعد أن عدّد له أمور الإسلام:

«فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا، وشقّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيّها الملك»[3].

ثمّ لمّا بلغهم أنّ قريشاً كفّت أذاها عن من أسلم رجعوا إلى مكّة. وازداد عدد المسلمين بها، فعاود المشركون الكرّة، واشتدّ العذاب والفتنة على المسلمين، فأمرهم النّبيّ ﷺ بالهجرة إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن.

وفي ذلك يقول عروة بن الزّبير رحمه الله[4]:

---

(١) انظر: السّيرة النّبويّة، لابن هشام: ١/ ١٩٧.

(٢) النَّجاشي: هو أصحمة بن أبحر النّجاشي ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطيّة والنّجاشي لقب له، أسلم على عهد النّبي ﷺ ولم يهاجر إليه، وكان ردءاً للمسلمين نافعاً، أحسن إلى من هاجر إليه في صدر الإسلام، صلّى عليه النّبي ﷺ صلاة الغائب. انظر: الإصابة: ١/ ٢٠٥.

(٣) مسند أحمد، بلفظه ـ وهو جزء من حديث أمّ سلمة رضي الله عنها الطّويل في شأن الهجرة الأولى إلى الحبشة ـ في: ١/ ٢٠٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٣/ ١٨٠ ـ ١٨٥، برقم: (١٧٤٠)، وبلفظه عدا أحرف يسيرة في: ٥/ ٢٩١.

(٤) هو عروة بن الزُّبير بن العوام بن خويلد أبو عبد الله الأسدي القرشي المدني، وأمّه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، من أئمة التّابعين وفقهائهم الأفاضل، كان ثقة عابداً صالحاً، كثير الحديث، ولم يدخل في شيء من الفتن، توفي سنة ٩٤هـ على الصَّحيح. وانظر: الطَّبقات الكبرى: ٥/ ١٧٨. طبقات خليفة، ص: ٢٤١. التَّاريخ الكبير: ٧/ ٣١. معرفة الثِّقات: ٢/ ١٣٣. الجرح والتّعديل: ٦/ ٣٩٥. ثقات ابن حبَّان: ٥/ ١٩٤.=

«وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفراراً ممّا كانوا فيه من الفتن والزّلازل، فلمّا استُرخي عنهم، ودخل في الإسلام من دخل منهم، تُحُدِّث باسترخائهم عنهم. فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنّه استُرخي عمّن كان منهم بمكّة، وأنّهم لا يفتنون. فرجعوا إلى مكّة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وأنّه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكّة. فلمّا رأت ذلك قريش تذامرت»[1] على أن يفتنوهم ويشتدّوا عليهم. فأخذوهم، وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد. وكانت الفتنة الآخرة، فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة... وفتنة لمّا رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة»[2].

والقصد أنّ أصحاب رسول الله ﷺ داهمتهم فتن مدلهمّة، وأصابتهم محن وشدائد عظيمة، فصبروا وثبتوا على دين الله، وظلّوا يكافحون وينافحون مع رسول الله ﷺ لنصرة هذا الدّين وإعلاء رايته. حتّى نصر الله الدّين بهم، ورفع شأنه بثباتهم، وقوّى أمره بصبرهم. وأبدلهم بعد الضّعف قوّة، وبعد الذّل عزّة، وبعد الغلبة نصرة، وبعد الفقر غنًى. وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ

= مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٤. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠٢٠. تهذيب الكمال: ٢٠/ ١١. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٦٢. الكاشف: ٢/ ١٨. جامع التّحصيل، ص: ٢٣٦. تهذيب التّهذيب: ٧/ ١٦٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٨٩. إسعاف المبطأ، ص: ٢١.

(١) تذامرت: أي تحاضّت على القتال. انظر: القاموس المحيط، ص: ٥٠٩.

(٢) هذا الأثر أورده الإمام ابن جرير رحمه الله مطوّلاً عن عروة بن الزُّبير رحمه الله فيما كتبه إلى عبد الملك بن مروان، في جامع البيان: ١٣/ ٥٣٩ ـ ٥٤٢، طبعة: شاكر، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].
وأشار الشّيخ أحمد شاكر رحمه الله إلى أنّه أورده في مواضع متفرّقة من التّفسير والتّاريخ، وذكر أنّ إسناده صحيح. انظر: جامع البيان: ١٣/ ٥٤٢ هامش: (٣)، كما أورده الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره بطوله عند تفسير الآية السّابقة وقال: «وهذا صحيح على عروة رحمه الله». تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٨٧.

﴿قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وظهر الإسلام بعد أن كان خافياً، ووضح الحقّ بعد أن كان عافياً.

قالت عائشة رضي الله عنها:

«لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه، فأمّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربّه حيث شاء، ولكن جهاد ونية»[(١)].

هذا عن الصّحابة في الجملة. وأمّا الأفراد فهناك نماذج مشرقة لصحابة رسول الله ﷺ ضربوا بها أروع الأمثلة في الثّبات عند الفتن، والصّبر على المحن، وعطّروا بها تاريخ الإسلام الحافل بالبطولات النّادرة، وورّثوها للأجيال من بعدهم لتكون نبراساً يضيء لهم الطّريق متى ما استشفّوا القدوة منها، وتعلّقوا بالأسوة فيها.

وقد اخترت من أولئك أنموذجين رائعين من نماذج شتّى، ومثلين فذّين من أمثال عدّة، تأكيداً لما سبق، وتأييداً لما مضى. وليكونا في مطلبين.

المطلب الأوّل

بلال بن رباح رضي الله عنه

إنّه مؤذّن رسول الله ﷺ، ومن السّابقين الأوّلين الّذين عذّبوا في الله تعالى.

كان مولى لبعض بني جمح[(٢)]، مولّداً من مولّديهم، فهو من المستضعفين فيهم. وقر الإيمان في قلبه، فصدق مع الله حقّ الصّدق، فأعلنها مدويّة في

---

(١) سبق، ص: ٢١٠.

(٢) بنو جمح: بطن من قريش، وهو بنو جمح بن عمرو، من مضر من العدنانية. انظر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، لعمر رضا كحالة، طبعة: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثّانية، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م: ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣. معجم قبائل الحجاز، لعاتق بن غيث البلادي: ١/ ٨٦.

سماء مكّة: ألّا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله. فجمح إليه مواليه يذيقونه حرّ العذاب، وعظيم الأذى ووافر العقاب. يريدون أن يفتنوه عن دينه، ويطفئوا النّور الّذي ملأ جوانح صدره، واستقرّ في سويداء قلبه ليعود مرّة أخرى إلى ظلام الوثنية، وضلال الشّرك.

كانوا يخرجونه إذا حميت الظّهيرة، واشتدّ حرّها، فيطرحونه على ظهره في بطحاء مكّة وبين صخورها، ثمّ يأتون بالصّخرة العظيمة فتوضع على صدره. كلّ ذلك من أجل أن يكفر بمحمّد ﷺ، ويعبد اللّات والعزّى. ولكنّهم لا يجدون عنده ما يطمعون، ولا يصلون منه إلى ما يتمنّون، وإنّما يصكّ آذانهم بقوله: أحد، أحد[1].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«كان أوّل من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمّار وأمّه سميّة وصهيب وبلال والمقداد. فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب[2]، وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأمّا سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشّمس. فما منهم من أحد إلّا وقد واتاهم[3] على ما أرادوا إلّا بلالاً فإنّه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكّة وهو يقول: أحد أحد»[4].

---

(١) انظر: السّيرة النّبويّة، لابن هشام: ١/ ١٩٤.

(٢) أبو طالب اسمه: عبد مناف بن عبد المطّلب بن هاشم، القرشي الهاشمي، والد عليّ رضي الله عنه، وعمّ رسول الله ﷺ وكافله ومربّيه وناصره وحاميه. من أبطال قريش وعقلائهم وزعمائهم وخطبائهم وشعرائهم، دعاه النّبيّ ﷺ للإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيّره العرب، ووعده بالنّصر والحماية، وظلّ على ذلك حتّى توفي قبل الهجرة النّبويّة بثلاثة أعوام، والشّيعة تزعم أنّه أسلم وكتم إسلامه، وذلك مخالف للنّصوص. انظر: الأعلام: ٤/ ١٦٦.

(٣) واتاهم: أي أعطاهم. انظر: مختار الصّحاح، ص: ٥.

(٤) سنن ابن ماجه، بلفظه في: المقدّمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، برقم: (١٥٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٣٢. =

إنّ ذلك العذاب كلّه لم يؤثّر في ثبات بلال رضي الله عنه، هانت عليه هذه الدّنيا، وهانت عليه هذه النّفس، فلم يعبأ بما يصيبها من الأذى، ولو قطّعت أو أزهقت.

فثبت ثبات الجبال الشّم الّتي لا تؤثّر فيها العواصف المزمجرة، ولا السّيول العاتية. إنّه الإيمان الصّادق، واليقين الخالص الّذي استقرّ في ذلك القلب الطّاهر فلم يتّجه إلى غير الله، ولم يذكر سوى الله حتّى أعجز قومه أن يفتنوه عن دينه، فسعوا في الخلاص منه. فخلّصه أبو بكر رضي الله عنه.

قال ابن سيرين[(١)] رحمه الله:

«إنّ بلالاً لمّا ظهر مواليه على إسلامه مَطُّوه في الشمس، وعذّبوه، وجعلوا يقولون: إلهك اللّات والعزّى. وهو يقول: أحد، أحد. فبلغ أبا بكر فأتاهم، فقال: علام تقتلونه؟ فإنّه غير مطيعكم. قالوا: اشتره. فاشتراه بسبع أواق، فأعتقه»[(٢)].

= مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/ ٤٠٤. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٥/٣١٩، برقم: (٣٨٣٢).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه: إلّا أحرف يسيرة في: باب ذكر بلال بن رباح المؤذّن رضي الله عنه، برقم: (٧٠٨٣). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ١٥/ ٥٥٨. مستدرك الحاكم، نحوه في: ٣/ ٣٢٠، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».

(١) هو محمّد بن سيرين أبو بكر الأنصاري، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، من أئمّة التّابعين وفقهاء أهل البصرة وعبّادهم، رأى ثلاثين من الصّحابة، وكان إماماً ربّانياً عالياً رفيعاً كثير العلم كبير القدر، ثقة ثبتاً، علّامة في التّعبير، رأساً في الورع، وكان به صمم، توفي سنة ١١٠هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ١٩٣. طبقات خليفة، ص: ٢١٠. التّاريخ الكبير: ١/ ٩٠. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٤٠. الجرح والتّعديل: ٧/ ٢٨٠. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٣٤٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٨. تاريخ بغداد: ٥/ ٣٣١. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٦٧٦. تهذيب الكمال: ٢٥/ ٣٤٤. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٧٧. الكاشف: ٢/ ١٧٨. جامع التّحصيل، ص: ٢٦٤. تهذيب التّهذيب: ٩/ ١٩٠. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٨٣. إسعاف المبطأ، ص: ٢٥.

(٢) سير أعلام النّبلاء: ١/ ٣٥٣.

المطلب الثّاني

عبد الله بن حذافة السّهمي رضي الله عنه

إنّ هذا الصّحابي الجليل، الّذي كان أحد السّابقين إلى الإسلام، ومن مهاجري الحبشة الأول ضرب أروع الأمثلة في الثّبات على الحقّ. جابهته الفتن في أعتى صورها فلم تزعزعه عن دينه، وواجهته في أسوأ أشكالها فلم تردّه عن يقينه بهذا الإسلام. خبره من أعجب ما يروى وأغرب ما يذكر.

إنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وجّه جيشاً إلى الرّوم فيه عبد الله بن حذافة رضي الله عنه، فقدّر الله له أن يقع أسيراً في أيديهم، فذهبوا به إلى ملكهم وأخبروه أنّه من أصحاب محمّد ﷺ. فدعاه الملك إلى دين النّصرانية، وساومه بأن يعطيه نصف ملكه، ويزوّجه ابنته. فقال بصدق وثبات: «لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمّد ﷺ طرفة عين ما فعلت».

فقال: إذاً أقتلك، فقال: «أنت وذاك». فأمر به فصلب، ثمّ أمر الرّماة أن يرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النّصرانية فيأبى. ثمّ دعا بقدر صب فيها ماء، وأحمي عليه حتّى احترق، ثمّ دعا بأسير أو أسيرين من المسلمين فألقيا فيها فإذا هما عظام تلوح. وعبد الله ينظر إلى ذلك، فعرض عليه النّصرانية مرّة أخرى وهو يأبى. فأمر به أن يلقى في القدر فبكى، فظنّ الملك أنّه قد جزع، وطمع فيه. فقال: ردّوه ثمّ سأله عن سبب بكائه فقال: «إنّي إنّما بكيت لأنّ نفسي إنّما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر السّاعة في الله فتذهب، فأحببت أن يكون لي بعدد كلّ شعرة في جسدي نفس تعذّب هذا العذاب في الله».

وفي بعض الرّوايات إنّ الملك سجنه في بيت، ومعه خمر ولحم خنزير ثلاثاً وهو لا يأكل حتّى كاد أن يهلك. فلمّا أخرج سأله الملك: ما منعك أن تأكل وتشرب؟ قال: «أما إنّ الضّرورة كانت قد أحلّتها لي، ولكن كرهت أن أشمّتك بالإسلام». فقال الملك: قبّل رأسي وأنا أطلقك، قال: «وتطلق معي

جميع أسارى المسلمين»، قال: نعم، فقبّل رأسه. فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين. فلمّا رجع إلى عمر ﷺ وعلم الخبر قال: «حقّ على كلّ مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ»، فقام فقبّل رأسه[1].

إنّ عبد الله ﷺ لم يصدّه عن الثّبات ما هدّد به من قتل وإزهاق نفس، ولو كان ذلك بأسوأ الأساليب، وأقبح الوسائل. ولم تلن عريكته، ولم يفتّ في عضده شدّة الجوع والظّمأ، والطّعام والشّراب على مقربة منه، وقد أباح له الشّرع حال الضّرورة ما لم يبحه له في غيره.

وليس الأمر أن تزول نفسه، وتذهب روحه كي لا يزول الإسلام أو يدمّر. وإنّما الأمر أن تزول نفسه كي لا يشمت فقط في الإسلام!.

أعظم به من موقف مشرّف جليل القدر. أين هو من مواقف متخاذلة من كثيرين انتموا إلى هذا الدّين العظيم، ولكنّهم جهلوا قدره أو تجاهلوه؟. لم يقنعهم ما يرونه من سعي حثيث من أعداء الله ﷻ من اليهود والنّصارى لتدمير الإسلام وكتم أنفاسه، وسفك دماء أبنائه، وإذلالهم وتشريدهم، وسلب حقوقهم. لم يقنعهم كلّ ذلك فراحوا يساومون على حساب دين الله الّذي أزهقت نفوس من أجله، وقطّعت أعضاء في سبيله، وذهبت أموال في نصرته، وأبيدت جيوش من أجل حمايته. يساومون إرضاء لأعداء الله. ولو دعاهم ذلك إلى تحريف النّصوص، وتغيير أحكام الشّرع الثّابتة لفعلوا. أما سمع هؤلاء قول الله ﷻ لأمثالهم من قبل:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

---

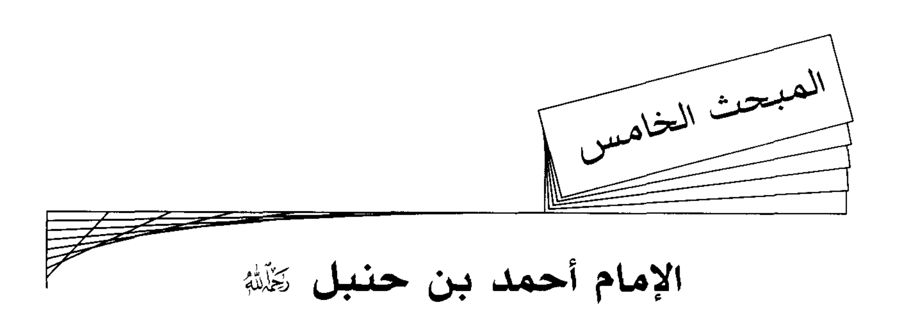
(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، لأبي الحسن عليّ بن محمّد عز الدّين بن الأثير، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، تحقيق: خليل مأمون شيحا: ٢/٥٧٨. سير أعلام النّبلاء: ٢/١٤ ـ ١٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/٩١٢. الإصابة: ٤/٥٨.

أم يظنّ هؤلاء المتخاذلون أنّ أعداء الله يرضيهم ذلك منهم؟ فإن ظنّوا ذلك فليستمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وهذه مواقف ينأى عنها أصحاب رسول الله ﷺ الّذين كانوا نماذج فذّة في الثّبات على الدّين، ومصابرة الشّدائد ومغالبة الأهوال حيث لا يرضى أحدهم أن يتنازل عن جزء يسير من دين الله، أو يرضخ لفتنة من الفتن تمسّ جسد الإسلام ولو كان فيها هلاك نفسه، وذهاب روحه.

لقد تركوا آثاراً مضيئة في الثّبات تفوق حدّ الوصف، ويعجز اليراع أن يحيط بها أو يأتي عليها جميعاً. وما ذكر إنّما هو قليل من كثير؛ ونزر يسير يقصد به التّمثيل وليس الحصر.





الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ

إنّ تاريخ الإسلام حافل بالنّماذج الفريدة في الثّبات على الحقّ. وقد ترك المخلصون من هذه الأمّة بصمات خالدة، وخلّدوا آثاراً عظيمة تدلّ على صدقهم في التّمسّك بدين الله القويم، والصّبر على الأذى فيه، وتحمّل المشاقّ من أجل إعزازه ونصرته.

وقد طفحت كتب السّير والتّاريخ بذكر أخبارهم، ودوّنت آثارهم، ممّا يعجز جميع الأمم الأخرى أن توجد أمثالهم، أو تبرز أشباههم.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع[1]

ولعلّي أختار من بين أولئك أنموذجاً فذّاً، ضرب بأطنابه في أعماق الثّبات على الحقّ، وسلك طريقاً في مجابهة الفتن والصّبر عندما عجز عن السّير عليه كثير من السّالكين. نصر الله بثباته الدّين، وأبان الحقّ وأزهق الباطل. ورُفع علم السّنّة ونُكِّست رايات البدع. إنّه: إمام أهل السّنّة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال عنه الشّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«خرجت من بغداد فما خلّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه، ولا أتقى من أحمد بن حنبل»[2].

---

(١) بيت الشّعر للفرزدق، وهو في ديوانه، شرح وضبط وتقديم: الأستاذ عليّ فاعور، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص: ٣٦٠.

(٢) سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ١٩٥. انظر: طبقات الحنابلة، للقاضي أبي الحسين محمّد بن أبي يعلى، طبعة: دار المعرفة، بيروت، توزيع: دار المؤيّد، الرّياض: ١/ ١٨.

وقال أبو عمر بن النّحّاس رحمه الله عنه:

«في الدّين ما كان أبصره، وعن الدّنيا ما كان أصبره، وفي الزّهد ما كان أخبره، وبالصّالحين ما كان ألحقه، وبالماضين ما كان أشبهه، عرضت عليه الدّنيا فأباها، والبدع فنفاها»(١).

وقال الذّهبي رحمه الله:

«وإلى الإمام أحمد المنتهى في معرفة السّنّة علماً وعملاً، وفي معرفة الحديث وفنونه، ومعرفة الفقه وفروعه. وكان رأساً في الزّهد والورع والعبادة والصّدق»(٢).

وأقوال العلماء في مدحه والثّناء عليه كثيرة جداً.

لقد ثبت هذا الإمام رحمة الله عليه عند تلك الفتنة المظلمة الّتي أوشكت أن تقتلع جذور العقيدة الإسلاميّة من نفوس المسلمين، وثبتّ البدع والضلال بينهم. وهي فتنة خلق القرآن الّتي تحالف على نصرتها وحمايتها قوّة السّلطان مع علماء الضّلال والابتداع. والّذي تولّى كبرها الخليفة العبّاسي المأمون. ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أميّة وبني العبّاس خليفة إلّا على مذهب السّلف ومنهاجهم في أنّ القرآن كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله، لا يعرفون غير ذلك. فظهر المأمون وكان متكلّماً، فاستجلب كتب الأوائل، وعرّب كتب اليونان، والتفّ حوله جماعة من المعتزلة(٣). والجهميّة،

---

(١) البداية والنّهاية: ١٠/٣٣٦.

(٢) سير أعلام النّبلاء: ١١/٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٣) المعتزلة فرقة من الفرق الكلاميّة الّتي تمجّد العقل، وتعطيه منزلة فوق منزلة النّصوص الشّرعيّة، ممّا حدا بها إلى الانحراف في كثير من جوانب الاعتقاد السّليم الّذي كان عليه سلف الأمّة رحمهم الله تعالى.
وقد بيّنت كثيراً من جوانب انحراف هذه الفرقة في كتابي موقف المدرسة العقليّة من السّنّة النّبويّة. انظر: ١/٩٥ فما بعدها.
وقد أشار الإمام الشّهرستاني إلى سبب تسميتهم بالمعتزلة فقال:
«دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام الدّين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملّة، وهم وعيديّة=

والشّيعة[1]، وزيّنوا له القول بخلق القرآن، وحملوه على ذلك. فقام في هذه البدعة قيام معتقد متعبّد بها. وآل به الحال إلى أن حمل الأمّة على ذلك، وكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[2] يأمره أن يدعو النّاس إليها، وأن يمتحن العلماء عليها، ويتهدّدهم بالضّرب وقطع الأرزاق بل والقتل. فعظمت المصيبة، واشتدّ البلاء، وعمّ الخطب. وأجاب أكثر العلماء على سبيل الإكراه، وتوقّف بعضهم ثمّ أجاب تحت وطأة التّعذيب. وثبت قلّة فلم يجيبوا.

= الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمّة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً، فكّر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر، ثمّ قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرّر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسمّي هو وأصحابه معتزلة». الملل والنّحل: ١/ ٤٨.

(١) الشّيعة: هم الّذين شايعوا عليّاً ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصية، إمّا جليّاً وإمّا خفيّاً، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحيّة تناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصوليّة، وهي ركن الدّين، لا يجوز للرّسل عليهم الصّلاة والسّلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله.
وهم فرق شتّى يجمعهم القول بوجوب التّعيين والتّنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوباً عن الكبائر والصّغائر، والقول بالتّولّي والتّبرّي قولاً وفعلاً وعقداً إلّا في حال التّقية، ويخالفهم بعض الزّيديّة في ذلك، ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير، وعند كلّ تعدية وتوقّف مقالة ومذهب وخبط.
وأصول فرقهم خمس: كيسانيّة وزيديّة وإماميّة وغلاة وإسماعيليّة، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السّنّة، وبعضهم إلى التّشبيه. الملل والنّحل: ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧، بتصرّف يسير. وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:٥ فما بعدها. التّعريفات، ص: ١٧١. التّعاريف: ٢/ ٤٤٣.

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي أمير بغداد نحواً من ثلاثين سنّة، وعلى يده امتحن العلماء بأمر المأمون في خلق القرآن، وكان صارماً سائساً حازماً، توفي سنة ٢٣٥هـ. انظر: سير أعلام النّبلاء: ١١/ ١١٧. العبر: ١/ ٣٣٠. شذرات الذّهب: ٣/ ١٦٤.

منهم إمام أهل السّنّة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ[١].

فلمّا لم يجب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ فيمن أجاب حمل إلى المأمون على بعير مثقلاً بقيود الحديد، وقد أقسم المأمون إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنّه. فدعا الإمام أحمد ربّه ألّا يراه. فهلك قبل قدومه عليه[٢].

وتولّى الخلافة بعده أخوه المعتصم، الّذي نهج نهج أخيه في امتحان النّاس، وفتنتهم بتلك القولة المبتدعة.

ولمّا حمل إليه الإمام أحمد في قيوده دعا علماء المبتدعة لمناظرته. فناظرهم أمام المعتصم بقلب ثابت وحجج نافذة كسر بها حججهم، ودحض بها باطلهم[٣].

قال ابن مصعب[٤]:

«ما رأيت أحداً لم يداخل السّلطان، ولا خالط الملوك، كان أثبت قلباً من أحمد يومئذ، ما نحن في عينه إلّا كأمثال الذّباب»[٥].

وقال ابن أبي دؤاد[٦]:

---

(١) انظر: سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٣٦. العبر: ١/ ٢٩٣. البداية والنّهاية: ١٠/ ٣٣٤.
قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:
«وكان الّذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلّية أربعة: أحمد بن حنبل وهو رئيسهم، ومحمّد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري ومات في الطّريق، ونعيم بن حمّاد الخزاعي وقد مات في السّجن، وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن وكان مثقلاً بالحديد، وأحمد بن نصر الخزاعي». البداية والنّهاية: ١٠/ ٣٣٥.

(٢) انظر: سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٤١.

(٣) انظر: ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل، جمع: أبي عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل، دراسة وتحقيق: د. محمّد نغس، الطّبعة الأولى، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، مطبعة: دار نشر الثّقافة، القاهرة، ص:٦٦. سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٤٥.

(٤) هو محمّد بن إبراهيم بن مصعب صاحب شرطة المعتصم بعد أخيه إسحاق بن إبراهيم.
انظر: سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٤٠.

(٥) المرجع السّابق: ١١/ ٢٤٠.

(٦) هو أحمد بن فرج بن كَرِيز أبو عبد الله بن أبي دُؤاد الإيادي البصري ثمّ البغدادي، الجهمي، القاضي، كان داعية إلى خلق القرآن، وهو من ألّب المأمون على امتحان العلماء على القول بخلقه، مات سنة ٢٤٠هـ. =

«ما رأيت أحداً أشدّ قلباً من هذا. يعني: أحمد، جعلنا نكلّمه، جعل الخليفة يكلّمه، يسمِّيه مرّة ويَكْنيه مرّة، وهو يقول: يا أمير المؤمنين، أوجدني شيئاً من كتاب الله أو سنّة رسوله حتّى أجيبك إليه»[1].

ولمّا عجز أولئك عن مناظرته أغروا الخليفة على تعذيبه وضربه، بل وزيّنوا له قتله. والخليفة يتودّد إليه بكلّ ما يمكن. فلمّا يئس عن إجابته أمر به فضرب ضرباً مبرحاً حتّى ذهب عقله مراراً تحت ألم الضّرب، وكبّ على وجهه، وسحب وخلع وديس عليه، وهو مع ذلك صائم فلم يفطر[2].

قال أحد جلّاديه:

«ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً، لو ضربته قيلاً لهدمته»[3].

ثمّ ألقي في السّجن، وزيد في قيوده، وكان يخرج فيضرب ثمّ يعاد. وهو مع ذلك ثابت لم يجد منه أعداؤه ما يتمنّون.

وظلّ في الحبس مدّة تربو على ثلاثين شهراً، ذاق فيها الأمرّين حتّى يئس من إجابته المعتصم فأطلقه[4].

ولمّا هلك المعتصم وتولّى الأمر الواثق تبع أباه في امتحان النّاس بخلق القرآن، وضيّق على الإمام أحمد تضييقاً عظيماً، فأرسل إليه بأن لا يجتمعنّ إليه أحد، ولا يساكنه بأرض ولا مدينة هو فيها، وأن يذهب حيث شاء من أرض الله.

فاختفى رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقية حياة الواثق، لاقى في أثناء ذلك محناً عظيمة وفتناً بالغة[5].

= وانظر: تاريخ بغداد: ٤/ ١٤١. وفيات الأعيان: ١/ ٨١. سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ١٦٩. العبر: ١/ ٣٣٩. شذرات الذَّهب: ٣/ ١٧٩.

(١) سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٩٥.

(٢) انظر: ذكر المحنة الإمام أحمد، ص٦٠، ٦٣، ٦٤. سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٤٧، ١١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢.

(٣) ذكر المحنة، ص: ١٢.

(٤) انظر: المرجع السّابق، ص: ١٢. سير أعلام النُّبلاء: ص: ٢٤٣.

(٥) انظر: ذكر المحنة، ص: ٨٤. سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٦٤.

فلمّا ولي المتوكّل بعد الواثق رفع المحنة عن النّاس، وأظهر السّنّة وأمات البدعة، وأطلق من اعتقل بسبب تلك المقالة، وعاقب من يقول بها، ثمّ استدعى الإمام أحمد فأكرمه وعظّمه وأجلّه(١).

لقد ثبت الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في تلك الفتنة ثباتاً عظيماً، وصبر صبراً جميلاً حتّى نال بذلك إمامة الدّين، فلا يذكر اسمه إلّا مقروناً بذكرها.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

لقد ذاق أصنافاً من العذاب: قيّد بثقيل الحديد، وحبس في غياهب السّجون، وضرب بأقسى أنواع الضّرب حتّى ظلّ أثره في مواضع من جسده يجد ألمه حتّى توفي، وخلعت يداه، وديس عليه، وهدّد بالقتل، وضيّق عليه بالنفي والتّشريد. وهو ما ذلك صابر لا يجيبهم إلى شيء ممّا طلبوه.

قال بشر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ(٢):

«قام أحمد مقام الأنبياء، وأحمد عندنا امتحن بالسّراء والضرّاء، فكان فيهما معتصماً بالله»(٣).

ولو أجاب رَحِمَهُ اللَّهُ لانفتح باب شرّ عظيم على الأمّة، لأنّه إمام يقتدى به،

---

(١) انظر: ذكر المحنة، ص:١٣. سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٦٥. العبر: ١/ ٣٢٥. البداية والنِّهاية: ١٠/ ٣٣٧.

(٢) هو بشر بن الحارث بن عبد الرّحمٰن بن عطاء بن هلال، أبو نصر المعروف بالحافي، الزّاهد الجليل المشهور، نزيل بغداد، طلب الحديث في أوّل أمره ثمّ أقبل على العبادة واعتزل النّاس فلم يحدّث، ثقة قدوة.
قال عنه الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان ممّن فاق أهل عصره في الورع والزّهد، تفرّد بوفور العقل وأنواع الفضل، وحسن الطّريقة، واستقامة المذهب، وعزوف النّفس، وإسقاط الفضول»، توفي سنة ٢٢٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٣٤٢. الجرح والتّعديل: ٢/ ٣٥٦. ثقات ابن حبّان: ٨/ ١٤٣. تاريخ بغداد: ٧/ ٦٧. تهذيب الكمال: ٤/ ٩٩. سير أعلام النُّبلاء: ١٠/ ٤٦٩. تهذيب التّهذيب: ١/ ٣٨٩. تقريب التّهذيب: ١/ ١٢٢.

(٣) سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٠٢.

ويتمسّك النّاس وخاصّة العوام بهديه. فلو أجاب لظنّوا أنّ ذلك حقّ. وعندئذ يلتبس الحقّ بالباطل. وكان رَحِمَهُ اللهُ يعرف هذه الحقيقة كما كان يعرفها معاصروه من العلماء.

قال حنبل رَحِمَهُ اللهُ[1]:

«قال أبي[2]: فدخلت على أبي عبد الله، ومعي حاجبه فقلت له: يا أبا عبد الله، قد أجاب أصحابك، وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وقد أجاب أصحابك والقوم، وبقيت أنت في الحبس والضّيق. فقال لي: يا عم إذا أجاب العالم تقيّة[3] والجاهل يجهل، فمتى نتبيّن الحقّ؟ قال أبي: فأمسكت»[4].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ:

«ما رأيت أحداً على حداثة سنّه، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمّد بن نوح[5]، إنّي لأرجو أن يكون قد ختم له بخير. قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنّك لست مثلي. أنت رجل يقتدى بك. قد مدّ الخلق

---

(١) هو حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو عليّ الشّيباني، ابن عم الإمام أحمد وتلميذه، حافظ، ثقة، ثبت، مصنّف، سمع المسند من الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.
وانظر: طبقات الحنابلة: ١/ ١٤٠. تاريخ بغداد: ٨/ ٢٨٦. تذكرة الحفّاظ: ٢/ ٦٠٠. سير أعلام النّبلاء: ١٣/ ٥١. العبر: ١/ ٣٩٤. البداية والنّهاية: ١١/ ٥٢. شذرات الذّهب: ١/ ٣٠٧.

(٢) أبوه هو: إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو يعقوب الشّيباني، عم الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، وكان يلازمه في أكثر أوقاته، ونقل عنه كثيراً، وهو ثقة، توفي سنة ٢٥٣هـ.
وانظر: طبقات الحنابلة: ١/ ١١١. تاريخ بغداد: ٦/ ٣٦٩.

(٣) تَقِيَّة: من الوقاية وهي الحذر والحماية. انظر: لسان العرب: ١٥/ ٤٠١.
والمراد أن يجيب الإمام إجابة يدفع بها المكروه عن نفسه.

(٤) ذكر المحنة، ص: ٤٤.

(٥) هو محمّد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبي الرّجال العجلي، المعروف والده بالمضروب، كان أحد المشهورين بالسّنّة، أثنى عليه الإمام أحمد ووثّقه، توفي سنة ٢١٨هـ في الطّريق وهو محمول مع الإمام أحمد إلى المأمون.
وانظر: تاريخ بغداد: ٣/ ٣٢٢. العبر: ١/ ٢٩٦. البداية والنّهاية: ١٠/ ٢٧٤.

أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتّق الله واثبت لأمر الله. أو نحو هذا. فمات، وصلّيت عليه، ودفنته»[1].

لقد خشي أبو عبد الله رَحِمَهُ اللهُ أن يفتح ثلمة في دين الله فثبت وصبر، متجرّعاً غصص العذاب وويلات العقاب نصرة لدين الله، وإعلاء لكلمة الله.

فصدق فيه قول علي بن المديني رَحِمَهُ اللهُ[2]:

«أعزّ الله الدّين بالصّدّيق يوم الردّة، وبأحمد يوم المحنة»[3].

إنّه أنموذج عزيز في الثّبات يضاف إلى رصيد عظيم وحصيلة وافرة لنماذج مدّخرة ثبتت على هذا الدّين الخاتم، وحملته بصدق وإخلاص، وتجرّعت من أجله غصص العذاب، وويلات الألم، ولكنّها ظلّت شموساً شامخة في الثّبات، وأعلاماً راسخةً في الصّبر، لتلفت انتباه كثرة كاثرة من أبناء هذه الأمّة الفاضلة كي يحملوا هذا الدّين بحقّ وصدق، وثبات وصبر، لتعرف الأمم مقامه، وتقرّ بعظمته، ويبان لها فضله، وتتّضح لها عزّته، فتأتي إليه خاضعة لأوامره، متمسّكة بهديه، مجانبة لنهيه، لتتحقّق لها السّعادة في هذه الدّنيا، وتنال الفلاح في الآخرة.

---

(١) سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ٢٤٢. وذكر نحوه عن أبي جعفر الأنباري: ١١/ ٢٣٩. وانظر: ذكر المحنة، ص: ٤٠.

(٢) هو عليّ بن عبد الله بن جعفر بن نجيح أبو الحسن التّميمي السّعدي مولاهم المديني ثمّ البصري، حافظ العصر وصاحب التّصانيف، ثقة ثبت إمام، أعلم أهل عصره بالحديث وعلله. قال عنه البخاري: «ما استصغرت نفسي إلّا عند عليّ بن المديني»، توفي سنة ٢٣٤هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٣٠٨. التّاريخ الكبير: ٦/ ٢٨٤. الجرح والتّعديل: ٦/ ١٩٣. ثقات ابن حبّان: ٨/ ٤٦٩. تاريخ بغداد: ١١/ ٤٥٨. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٩٦٢. تهذيب الكمال: ٢١/ ٥. تذكرة الحفّاظ: ٢/ ٤٢٨. الكاشف: ٢/ ٤٢. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٣٠٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٠٣. لسان الميزان: ٧/ ٣١٢.

(٣) سير أعلام النُّبلاء: ١١/ ١٩٦.

الباب الثّاني

الثبات عند الابتلاء

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: معاني الابتلاء في اللّغة والشّرع.

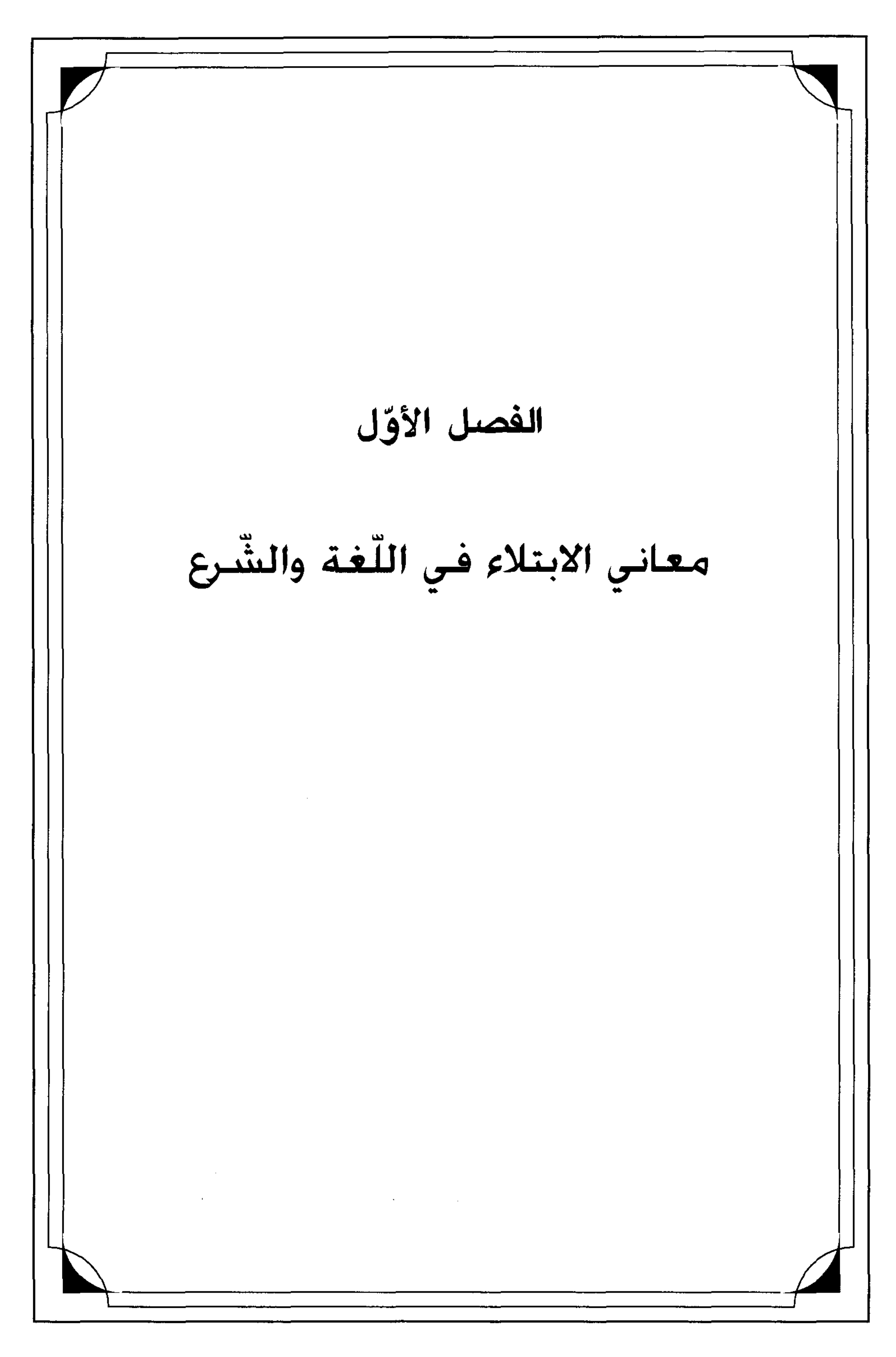
الفصل الثّاني: ابتلاء الإنسان سنّة من سنن الله في الكون.

الفصل الثّالث: أنواع الابتلاء والحكمة منها.

الفصل الرّابع: عوامل الثّبات عند الابتلاء.

الفصل الخامس: نماذج للثّبات عند الابتلاء.





الفصل الأوّل

معاني الابتلاء في اللّغة والشّرع



معاني الابتلاء في اللّغة

يقال: بَلَوْتُ الرّجل بَلْواً وبلاءً، وابتليته ابتلاء: إذا جرّبته واختبرته وامتحنته[(١)]. وبلاه يَبْلُوه بَلْواً: إذا جرّبه واختبره[(٢)].

ومن ذلك قول القائل:

بُليتُ وفُقْدانُ الحبيب بَلِيَّةٌ ... وكم كريم يُبْتَلى ثمّ يصبرُ[(٣)]

وبُلي الشّيء بلاء وابتُلي ابتلاء إذا اختبر. والاسم: البَلْوَى والبِلْوَةُ والبِلْيَةُ والبَلِيَّةُ والبلاء[(٤)]. فالبلاء والابتلاء هو الامتحان والاختبار، ويكون في الخير والشّر[(٥)]. يقال: ابتليته بلاءً حسناً وبلاءً سيّئاً.

ويقال: بلاه الله وأبلاه وابتلاه: إذا اختبره وامتحنه بالخير والشّر ليُعلم

---

(١) انظر: تهذيب اللُّغة: ١٥/ ٣٩٠. الصّحاح: ٦/ ٢٢٨٥. لسان العرب: ١٤/ ٨٣. المصباح المنير، لأحمد بن محمّد بن عليّ المقري الفيومي، تصحيح: مصطفى السّقا، طبعة: مصطفى الحلبي بمصر: ١/ ٦٩. القاموس المحيط، ص:١٦٣٢. تاج العروس: ١٩/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٨٣. معجم متن اللّغة: ١/ ٣٤٦. المعجم الوسيط لجماعة من العلماء: ١/ ٧١.

(٣) معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٣، وهو لحسان بن ثابت رضي الله عنه في ديوانه، ص:٩٩، وأوله: بلاء.

(٤) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٨٤. القاموس المحيط، ص:١٦٣٢. تاج العروس: ١٩/ ٢١٧. معجم متن اللّغة: ١/ ٣٤٦.

(٥) انظر: تهذيب اللّغة: ١٥/ ٣٩١. معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٣. مجمل اللّغة: ١/ ١٣٣. الصّحاح: ٦/ ٢٢٨٥. لسان العرب: ١٤/ ٨٤. معجم متن اللّغة: ١/ ٣٤٦.

شكره وصبره[1]. فالبلاء: الشّدّة والمحنة تنزل بالمرء ليختبر بها[2].

والبلاء: الإنعام.

ومنه قول زهير[3]:

رأى اللّه بالإحسان ما فعلا بكم   فأبلاهما خير البلاء الّذي يَبْلُو[4]

أي أعطاهما خير العطاء أو الصّنيع الّذي يبلو به عباده[5].

والبلاء: الغم. لأنّه يبلي الجسم[6]. والحزن أيضاً يسمّى بلاء[7].

والبلاء: الإخبار. يقال: ابتليته فأبلاني: إذا استخبرته فأخبرني[8].

والبلاء: الحَلْف. يقال: بليت فلاناً وأبليته يميناً: إذا حلفت له بيمين طيّبت بها نفسه[9].

من ذلك قول أوْس بن حُجْر[10]:

كأنّ جديدَ الأرض يُبْليك عنهمُ   تقيِّ اليمين بعد عَهْدِك حالِفُ[11]

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٣. لسان العرب: ١٤/ ٨٤.

(2) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٧١.

(3) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، حكيم الشّعراء في الجاهليّة، وأحد شعراء المعلّقات، أسلم أبناه كعب وبجير، وله ديوان شعر مطبوع. الأعلام: ٣/ ٥٢.

(4) ديوان زهير بن أبي سلمى، طبعة: دار صادر، بيروت، ص: ٦١.

(5) انظر: تهذيب اللّغة: ١٥/ ٣٩٠. معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٤. الصّحاح: ٦/ ٢٢٨٥. لسان العرب: ١٤/ ٨٤. تاج العروس: ١٩/ ٢٢٠.

(6) انظر: القاموس المحيط، ص: ١٦٣٢. تاج العروس: ١٩/ ٢١٧. معجم متن اللّغة: ١/ ٣٤٨. المعجم الوسيط: ١/ ٧١.

(7) انظر: المرجع السّابق: ١/ ٧١.

(8) انظر: معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٤. لسان العرب: ١٤/ ٨٣. القاموس المحيط، ص: ١٦٣٢. تاج العروس: ١٩/ ٢١٦. معجم متن اللّغة: ١/ ٣٤٦.

(9) انظر: مجمل اللّغة: ١/ ١٣٤. الصّحاح: ٦/ ٢٢٨٥. لسان العرب: ١٤/ ٨٤، ٨٦. تاج العروس: ١٩/ ٢١٧. معجم متن اللّغة: ١/ ٣٤٦.

(10) هو أوس بن حجر بن مالك التّميمي أبو شريح، شاعر تميم في الجاهليّة، عمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام، له ديوان شعر مطبوع. انظر: الأعلام: ٢/ ٣١.

(11) تهذيب اللّغة: ١٥/ ٣٩٠. معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٤. لسان العرب: ١٤/ ٨٦. تاج=

والبلاء: الجهد الشّديد[1].

وأبلى فلان: إذا اجتهد في صفة حرب أو كرم. فيقال: أبلى فلان ذلك اليوم بلاءً حسناً[2].

والبلاء: التّكليف، لأنّ فيه جهد ومشقّة[3]. فيقال: ابتلاءه بكذا: أي كلّفه[4].

والبلاء: الاختيار. تقول: ابتليت فلاناً إذا اخترته[5]. وأصله من الاختبار[6].

والبليّةُ والبلِيُّ: النّاقة الّتي صارت نِضْواً[7] هالكاً[8]. والجمع: البلايا. فيقال: ناقةٌ بِلْوُ سَفَر. وهي الّتي أبلاها السّفر وأجهدها[9].

والبَليَّةُ أيضاً: النّاقة الّتي كانت تُعقل في الجاهليّة عند قبر صاحبها، فلا تعلف ولا تسقى حتّى تموت، أو يحفر لها حفرة وتترك فيها إلى أن تموت. لأنّهم كانوا يزعمون: أنّ النّاس يحشرون ركباناً على البلايا، ومشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم[10].

= العروس: ١٩/٢١٧، أي يحلف لك جديد الأرض أنّه ما حلّ بهذه الدّار أحدٌ لدروس معاهدها. المرجع السّابق: ١٩/٢١٧.

(١) انظر: المعجم الوسيط: ١/٧١.

(٢) انظر: تهذيب اللّغة: ١٥/٣٩١. لسان العرب: ١٤/٨٤. تاج العروس: ١٩/٢٢٠.

(٣) انظر: القاموس المحيط، ص: ١٦٣٢. تاج العروس: ١٩/٢١٧. معجم متن اللّغة: ١/٣٤٨.

(٤) انظر: المرجع السّابق: ١/٣٤٦.

(٥) انظر: تهذيب اللّغة: ١٥/٣٩١. لسان العرب: ١٤/٨٤. تاج العروس: ١٩/٢١٦.

(٦) انظر: لسان العرب: ١٤/٨٤.

(٧) نضواً: النّضْوُ بالكسر: البَعير المهزول، وقيل: هو المهزول من جميع الدّواب، وهو أكثر، والجمع أنضاء، وقد يستعمل في الإنسان. لسان العرب: ١٥/٣٣٠. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٧٢٦.

(٨) انظر: تاج العروس: ١٩/٢٢٠. معجم متن اللّغة: ١/٣٤٦.

(٩) انظر: تهذيب اللّغة: ١٥/٣٩١. معجم مقاييس اللّغة: ١/٢٩٣. الصّحاح: ٦/٢٢٨٤. لسان العرب: ١٤/٨٥. تاج العروس: ١٩/٢١٥.

(١٠) الصّحاح: ٦/٢٢٨٥. وانظر: تهذيب اللّغة: ١٥/٣٩١. لسان العرب: ١٤/٨٥. القاموس المحيط، ص: ١٦٣٢. تاج العروس: ١٩/٢١٦. معجم متن اللّغة: ١/٣٤٦ ـ ٣٤٨. المعجم الوسيط: ١/٧١.

قال أبو زُبيد[1]:

كـالـبـلايـا رؤوسـهـا فـي الـوَلايـا   مانحاتِ السّموم حُرَّ الخدود[2]

والبِلاء: لغة في البِلَى وهو إخلاق الشّيء. يقال: بَلِي الثّوبُ يَبْلى بِلَيّ أي خلق، فإذا فتحت الباء قلت: بَلاء.

ومن ذلك قول العَجّاج[3]:

والـمـرء يُـبـلـيـه بَـلاء الـسِّـربـال   مرُّ اللّيالي واختلافُ الأحوال[4]

وهذه المعاني لا تخرج عن أصل معنى الابتلاء الّذي هو الاختبار والامتحان، لأنّ الابتلاء كما سبق إمّا أن يكون بالمنحة وهي النّعمة، أو المحنة وهي الشّدة. فالإخبار والاختيار والحلف وإخلاق الثّوب لا تخرج عن ذلك. لأنّها يمكن أن تتأتّى عن طريق الاختبار والتّمحيص. ويتّضح ذلك من خلال المعنى الشّرعي للابتلاء.



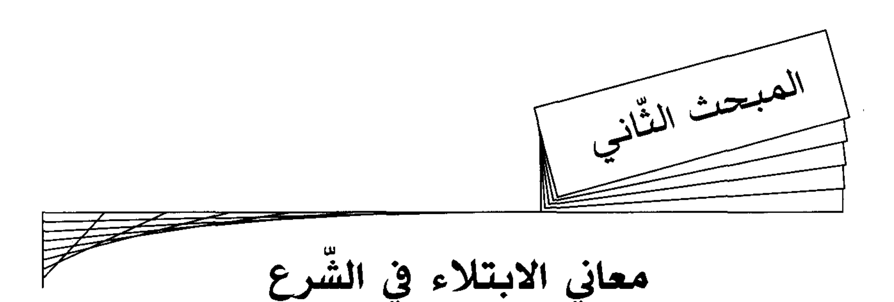
---

(١) هو حرملة بن المنذر بن معدي كرب الكندي الطّائي، أبو زبيد، مشهور بكنيته، قيل: كان نصرانيّاً، واختلفوا في إسلامه، عاش في الجاهليّة والإسلام، توفي نحو سنة ٦٢هـ، وهو في المعمّرين.
وانظر: الإصابة: ٢/ ١٦٢، ١٧٠. الأعلام: ٢/ ١٧٤.

(٢) تهذيب اللّغة: ١٥/ ٣٩١. معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣. لسان العرب: ١٤/ ٨٦. تاج العروس: ١٩/ ٢١٩.

(٣) هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السّعدي التّميمي أبو الشّعساء، راجز مجيد، ولد في الجاهليّة وأسلم وعاش إلى أيّام الوليد بن عبد الملك، وهو والد رؤبة بن العجّاج الرّاجز المشهور، وله ديوان شعر مطبوع. الأعلام: ٤/ ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) انظر: تهذيب اللّغة: ١٥/ ٣٩٠. معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٢٩٢. مجمل اللّغة: ١/ ١٣٣. الصّحاح: ٦/ ٢٢٨٥. لسان العرب: ١٤/ ٨٥. تاج العروس: ١٩/ ٢١٤ ـ ٢١٥.
والسّرْبال هو: القَميص والدّرع، وقيل: كُلّ ما لُبِسَ فهو سِرْبالٌ، وقد تَسَرْبَل به، سَرْبَلَه إِياه، سَرْبَلْتُه فتَسَرْبَل: أي أَلبسته السّرْبالَ. لسان العرب: ١١/ ٣٣٥. وانظر: مختار الصِّحاح، ص:٢٩٣. القاموس المحيط، ص:١٣١١.



معاني الابتلاء في الشّرع

الابتلاء في الأصل هو الاختبار والامتحان، وقد ورد ذلك في القرآن كثيراً، من ذلك قوله تعالى:

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦](١).

والمراد أن يختبر الأولياء اليتامى في عقولهم وأفهامهم وحسن تصرّفهم فيما يؤول إليهم من أموال، فإن تبيّن صلاحهم وحسن تصرّفهم ورشدهم دفعت إليهم أموالهم، وإلّا منعوا من تسلّمها(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، أي اختبرناهم بالخصب والعافية والجدب والشّدائد ليرجعوا عن كفرهم(٣).

وحقيقة الابتلاء أن يظهر بالفعل أو التّرك أمر يستحسن أو يستقبح.

ولذا قال الرّازي رحمه الله:

«والتّحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص:٤٦٩، كتاب الغريبين: غريب القرآن والحديث، لأبي عبيد أحمد بن محمّد بن محمّد الهروي، رواية: أبي سعيد المالييني، تحقيق: محمود محمّد الطّناحي، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، مطابع: الأهرام التّجارية، القاهرة: ١/ ٢١٠.

(٢) انظر: جامع البيان: ٧/ ٥٧٤، طبعة: شاكر. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٤. محاسن التّأويل: ٥/ ١١٢٧. تيسير الكريم الرّحمن، ص:١٣١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣١٠. وانظر: تأويل مشكل القرآن، ص:٤٦٩.

متعيّن عند العقلاء بالنّظر إليه قصداً إلى ظهوره»[1].

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والابتلاء في الأصل الاختبار، أي تطلّب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشقّ عليه غالباً فعله أو تركه»[2].

وقال الرّاغب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إذا قيل: ابتلى فلان كذا وأبلاه. فذلك يتضمّن أمرين: أحدهما: تعرّف حاله، والوقوف على ما يجهل من أمره.

والثّاني: ظهور جودته ورداءته. وربّما قصد به الأمران، وربّما يقصد به أحدهما. فإذا قيل في الله تعالى: بلا كذا أو أبلاه: فليس المراد منه إلّا ظهور جودته ورداءته، دون التّعرّف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره، إذ كان الله علّام الغيوب»[3].

فالابتلاء من الإنسان لظهور ما جهل، وأمّا من الله تعالى فهو لإظهاره ما علم لأنّه لا تخفى عليه خافية سبحانه.

وقد جاء الابتلاء في القرآن والسّنّة مستوعباً لمعانيه السّابقة في اللّغة، والّتي في الحقيقة لا تخرج عن معنى الاختبار والامتحان. وهو يكون حسناً ويكون سيّئاً لأنّه يكون بالخير ويكون بالشّر. فاللّه يبتلي عباده بالمحن والشّدائد الّتي يكرهونها ليظهر صبرهم، كما يبتليهم بالنّعم والصّنع الجميل ليظهر شكرهم.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ونختبركم أيّها النّاس بالشّر، وهو الشّدة نبتليكم بها، وبالخير وهو الرّخاء والسّعة والعافية فنفتنكم به»[4].

---

(١) التّفسير الكبير: ٢٨/ ٤٦.

(٢) محاسن التّأويل: ٢/ ٢٤٤.

(٣) المفردات، ص: ٦١ ـ ٦٢.

(٤) جامع البيان: ١٧/ ٢٤، طبعة: الحلبي: ٢/ ٤٩، طبعة: شاكر.

وقال ابن عطيّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والظّاهر أنّ المراد من الخير والشّر هنا كلّ ما يصحّ أن يكون فتنة وابتلاء، وذلك خير المال وشرّه، وخير البدن وشرّه، وخير الدّنيا في الحياة وشرّها»[1].

وقد ورد الابتلاء بمعنى الإنعام والعطاء الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩][2].

ففي الآية يعدّد الله نعمه على بني إسرائيل ويذكّرهم بها، حيث خلّصهم من عدوّهم فرعون وملئه، إذ كانوا يبطشون بهم فيذيقونهم أشدّ العذاب والنّكال، وذلك بتسخيرهم في الأعمال الشّاقة، وتذبيح الأبناء الذّكور وتقتيلهم، وإبقاء النّساء على قيد الحياة على سبيل المنّة والإهانة. فأهلك عدوّهم وأنجاهم من كلّ ذلك. وتلك نعمة عظيمة تستوجب الشّكر.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ تعود إلى ما كانوا فيه من العذاب، وذبح الأبناء، واستحياء النّساء إلى غير ذلك. فيكون البلاء ههنا بمعنى المحنة والشّدّة.

والأولى المعنى الأوّل، لأنّ الآية ذكرت في تعداد النّعم. وقد ورد ذلك عن ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، وابن جُريج[3]، وغيرهم، فيما رواه

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمّد عبد الحق بن عطيّة الأندلسي، تحقيق جماعة من العلماء، الطّبعة الأولى، الدّوحة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م: ١٠/١٤٦ - ١٤٧. وانظر معنى الآية في: تأويل مشكل القرآن، ص:٤٦٩. الكشّاف: ٣/٩٢، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ٢٢/١٦٩. الجامع لأحكام القرآن: ١١/٢٨٧. تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٨٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، لشهاب الدّين محمود الألوسي البغدادي، إدارة الطّباعة المنيريّة، دار إحياء التّراث العربي، بيروت: ١٧/٤٧.

(٢) ونحوها في سورة الأعراف الآية: ١٤١. وسورة إبراهيم الآية: ٦.

(٣) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد، ويقال: أبو خالد، الرّومي، الأموي، القرشي، مولاهم المكّي، من فقهاء أهل مكّة وقرائهم، وممّن جمع العلم=

ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم[1].

وأصرح من هذه الآية قوله تعالى في سياق غزوة بدر: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

أي: لينعم على المؤمنين نعمة عظيمة، ويعطيهم عطاءً حسناً يتمثّل في الظّفر بأعدائهم، وغنيمة ما معهم، ويكتب لهم أجور جهادهم، وثواب أعمالهم.

فالبلاء هنا الإنعام والعطاء الحسن[2].

ومن الأحاديث: قول كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطّويل، قال كعب: «وقلت: يا رسول الله إنّ الله إنّما أنجاني بالصّدق، وإنّ من توبتي أن لا أحدّث إلّا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أنّ أحداً من المسلمين أبلاه الله في

= وصنّف فيه، ومن العبّاد، ثقة كثير الحديث جداً، وكان يدلّس ويرسل، أدرك صغار الصّحابة، وتوفي سنة ١٥٠هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/٤٩١. طبقات خليفة، ص:٢٨٣. التّاريخ الكبير: ٥/٤٢٢. الجرح والتّعديل: ٥/٣٥٦. ثقات ابن حبّان: ٧/٩٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/١٤٥. تاريخ بغداد: ١٠/٤٠٠. التّعديل والتّجريح: ٢/٩٠٤. تهذيب الكمال: ١٨/٣٣٨. تذكرة الحفّاظ: ١/١٦٩. الكاشف: ١/٦٦٦. جامع التّحصيل، ص:٢٢٩. تهذيب التّهذيب: ٦/٣٥٧. تقريب التّهذيب: ١/٣٦٣. طبقات المدلّسين، ص:٤١.

(١) جامع البيان: ٢/٤٨ ـ ٤٩، طبعة: شاكر. وانظر في معنى الآية: تأويل مشكل القرآن، ص:٤٧٠، كتاب الغريبين: ١/٢٠٩. إصلاح الوجوه والنّظائر، ص:٧٧، الطّبعة الأولى، ١٩٧٠م. المفردات، ص:٦١. المحرر الوجيز: ١/٢٨٦. التّفسير الكبير: ٣/٧٠. الجامع لأحكام القرآن: ١/٣٨٧. تفسير القرآن العظيم: ١/١٣٦ ـ ١٣٧. تفسير أبي السّعود المسمّى «إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم»، لأبي السّعود محمّد بن محمّد العمادي، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت: ١/١٠٠. روح المعاني: ١/٢٥٤. محاسن التّأويل: ٢/١٢٢ ـ ١٢٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٤.

(٢) انظر: جامع البيان: ١/٤٤٨، طبعة: شاكر. الكشّاف: ٢/١٦٢، طبعة: الاستقامة. المحرر الوجيز: ٦/٢٥١. التّفسير الكبير: ١٥/١٤١. تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٦٧. تفسير أبي السّعود: ٤/١٣. روح المعاني: ٩/١٨٧. محاسن التّأويل: ٨/٢٩٦٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢٧٩.

صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن ممّا أبلاني الله به». الحديث[1].

قال الإمام النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أي أنعم عليه. والبلاء والإبلاء يكون في الخير والشّر، لكن إذا أطلق كان للشّر غالباً، فإذا أريد الخير قيّد كما قيّده هنا، فقال: أحسن ممّا أبلاني»[2].

ومن ذلك حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبي ﷺ قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»[3].

أي من أعطي نعمة أو عطاء حسن فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره. فالبلاء هنا الإنعام والإحسان[4].

كما يأتي البلاء بمعنى المشقّة والجهد الشّديد.

---

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨]: (٧٩/ ٨٠)، برقم: (٤٤١٨)، ص: ٩٢٠.

صحيح مسلم، بلفظ في: كتاب التّوبة: (٤٩)، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه: (٩)، برقم: (٢٧٦٩)، ٤/ ٢١٢٧.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٩٧. وانظر: فتح الباري: ٨/ ٤٦٥. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٥٥.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الأدب: (٤٠)، باب في شكر المعروف: (١١)، برقم: (٤٨١٤). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص: ٥٢٤. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٢/ ١٨٢، برقم: (٦١٨).

(٤) انظر: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، للحافظ أبي موسى محمّد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار المدني: ١/ ١٩٠. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٥٥. عون المعبود: ١٣/ ١١٥، الطّبعة الثّانية، ١٤١٥هـ، طبعة: دار الكتب العلميّة. بذل المجهود في حل أبي داود، للشّيخ خليل أحمد السّهارنفوري مع تعليق العلامة محمّد زكريا بن يحيى الكاندهلوي، طبع: شركة الطّباعة العربية السّعودية المحدودة، نشر: دار اللّواء، الرّياض: ١٩/ ٦٨.

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه في تقسيمه للفيء[1]، قال: «وقسم رسول الله ﷺ: فالرّجل وقِدَمه، والرّجل وبلاؤه، والرّجل وعياله، والرّجل وحاجته»[2].

فقوله: الرّجل وبلاؤه: أي مشقّته وسعيه في الحرب[3].

ومثله حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم بدر: «عسى أن يعطى هذا من لا يُبْلى بلائي». الحديث[4].

---

(١) الفَيْءُ: الغَنِيمةُ، والخراجُ. تقول: أفاءَ اللهُ على المُسْلِمينَ مالَ الكفّار يُفِيءُ إِفاءَةً، وهو ما يحْصَل لِلمُسْلِمينَ من أموالِ الكفّار من غير حَرْبٍ ولا جِهادٍ، وأَصْلُ الفَيْءِ: الرّجوعُ، كأنّه كانَ في الأصْل لهم فَرَجَعَ إِليهم، ومن قيلَ للظِّلِّ الّذي يكون بعدَ الزّوالِ فَيْءٌ، لأنّه يَرْجِعُ من جانِب الغَرْب إِلى جانب الشّرْق. لسان العرب: ١/١٢٦، بتصرُّف يسير. وانظر: القاموس المحيط، ص:٦١.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرّعيّة والحجبة عنه: (١٢، ١٣)، برقم: (٢٩٥٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن موقوف»، ص:٣٣٤.
سنن البيهقي، بلفظه إلّا أحرف يسيرة في: باب ما جاء في قسمة ذلك ـ أي الفيء ـ على قدر الكفاية: ٦/٣٤٦ ـ ٣٤٧. مسند أحمد، نحوه في: ١/٤٢.

(٣) انظر: عون المعبود: ٨/١١٩. بذل المجهود: ١٣/٢٣٩. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/١٥٦.

(٤) هذا جزء من حديث أصله في صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب الأنفال: (١٢)، برقم: (١٧٤٨)، /١٣٦٧ ـ ١٣٦٨، وهو في:
سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد: (١٥)، باب في النّفل: (١٤٤/ ١٤٥)، برقم: (٢٧٤٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص:٣٠٩.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة الأنفال: (٨)، برقم: (٣٠٧٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص:٤٨٩ ـ ٤٩٠.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب بيان مصرف الغنيمة في ابتداء الإسلام: ٦/٢٩١.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/١٧٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح».
مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٣/٦٩، برقم: (١٥٣٨).
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/١٤٤، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي: «صحيح».
مسند أبي يعلى، نحوه في: ٢/٨٤، برقم: (٧٣٥).

وممّا ورد بمعنى الإخبار أو الحلف، ما جاء في حديث أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ النّبي ﷺ قال: «إنّ من أصحابي من لا يراني بعد أن يفارقني» قال ـ القائل عبد الرّحمٰن بن عوف رضي الله عنه ـ فأتى عمر فذكر ذلك له. قال: فأتاها عمر فقال: أذكّرك الله أمنهم أنا؟ قالت: اللّهم لا، ولن أُبلي أحداً بعدك»[1].

أي لن أخبر أحداً بعدك. ويمكن أنّها حلفت له بيمين طيّبت بها نفسه، فيكون البلاء بمعنى الحلف[2].

كما ورد بمعنى الاختيار في حديث حذيفة، عندما أقيمت الصّلاة فتدافعوا فتقدّم حذيفة رضي الله عنه فصلّى بهم، ثمّ قال: «لَتَبْتَلُنَّ لها إماماً غيري أو لَتُصَلُّنَّ وُحداناً»[3]، أي لَتَخْتَارُنَّ لها إماماً غيري[4].



---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٦/ ٣٠٧، ونحوه في: ٦/ ٢٩٨، ٣١٢.
الطّبراني في الكبير، نحوه في: ٢٣/ ٣١٧، برقم: (٧١٩)، ورجال أحمد ثقات.

(٢) انظر: المجموع المغيث: ١/ ١٨٨. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٥٦.

(٣) سنن البيهقي، بلفظه في: باب كراهيّة الإمامة: ٣/ ١٢٧.
مصنّف عبد الرّزاق، لأبي بكر عبد الرزّاق بن همّام الصّنعاني، طبعة: المكتب الإسلامي، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرّحمٰن الأعظمي، بلفظ مقارب في: باب الإمامة وما كان فيها، برقم: (١٨٧٩)، ١/ ٤٨٩.

(٤) انظر: كتاب الغريبين: ١/ ٢١٠. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

الفصل الثّاني

ابتلاء الإنسان سنّة من سنن الله في الكون

لقد خلق الله ﷻ هذا الإنسان وكرّمه في هذه الحياة، وعظّم شأنه ورفع قدره، وبسط عليه فضله كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولم يخلقه عبثاً، ولم يتركه سدًى، ولم يوجده هملاً، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦].

وخلق له السّماوات والأرض، ورتّب فيهما جميع ما يحتاج إليه من مبادئ الحياة وأسباب المعاش، وبثّ بينهما من آياته الدّالة على كمال قدرته سبحانه وعظيم سلطانه، بل وسخّر له الكون علويّة وسفليّة، ليحقّق هذا الإنسان حكمة وجوده، وغاية خلقه وهي سنّة الابتلاء.

فقال تعالى في تسخير ما في الكون له: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

وقال في خلق ذلك من أجل الابتلاء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: ٧][1].

---

(١) انظر معنى الآية في: الكشّاف: ٢/٢٩٧، طبعة: الاستقامة. تفسير القرآن العظيم: =

فوجود ذلك الخلق، وهذا التّسخير ليستشعر الإنسان عظمة هذا الابتلاء وجدّيته وأهمّية وجوده[1].

كما جعل سبحانه هذه الدّنيا بأسرها داراً للابتلاء والاختبار، وهيّأها بالوسائل المعينة على تحقّقه واستمراره. فجعل ما على الأرض من أنواع المنافع، وتعدّد المصالح، وما فيها من زخارف وبهارج ومحاسن كلّ ذلك من أجل الابتلاء.

فقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨][2].

وقد أوجد الله الإنسان من العدم، وأخرجه إلى هذه الأرض ليحيا عليها من أجل الابتلاء، ثمّ ينتقل منها إلى دار أخرى لينال عاقبة الابتلاء. فحياته وموته من أجل الابتلاء.

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ١ ـ ٢][3].

والإنسان هو الّذي استخلفه الله في هذه الأرض، وملّكه إيّاها، وجعل له حقّ التّصرّف فيها، والقيام بعمارتها، وأبقى فيها نوعه، يخلف بعضهم بعضاً، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف. وخالف بين أحوالهم في

= ٢/ ٦٧٨. تفسير أبي السّعود: ٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨. روح المعاني: ١٢/ ١٠. محاسن التّأويل: ٩/ ٣٤١٢ ـ ٣٤١٣.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ١٨٥٨.

(٢) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٥/ ١٩٥ ـ ١٩٦، طبعة: الحلبي. الكشاف: ٢/ ٥٤٩. المحرر الوجيز: ٩/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥. التّفسير الكبير: ٢١/ ٨٠ ـ ٨١. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٥٤. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١١٨ ـ ١١٩. تفسير أبي السّعود: ٥/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. روح المعاني: ١٥/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧. محاسن التّأويل: ١١/ ٤٠٢٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٢٠ ـ ٤٢١. في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٦٠.

(٣) انظر معنى الآية في: التّفسير الكبير: ٣٠/ ٥٤ ـ ٥٦. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦١٩. تفسير أبي السّعود: ٩/ ٢ ـ ٣. روح المعاني: ٢٩/ ٤ ـ ٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨١٠.

الخلق والعقل والرّزق والقوّة والبسطة والعلم والفضل. كلّ ذلك لتتحقّق سنّة الابتلاء، ويتحقّق استمرارها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥][1].

وقد خلقه الله طوراً إثر طور، وحالاً بعد حال، حتّى استقام عوده، وكمل خلقه، بعد أن كان شيئاً حقيراً بل لم يكن شيئاً. وزوّده بوسائل الإدراك ليميّز بها غاية وجوده وحكمة خلقه، ويتمكّن بواسطتها من اجتياز مدّة الابتلاء والاختبار، ويحقّق الهدف المرجو من وجوده.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣][2].

والله لم يوجده مجرّداً عن ما يعينه على تحقيق الحكمة الّتي أوجد بسببها ومن أجلها، بل وهبه من الوسائل والعوامل الّتي يتمكّن بها من أن يجتاز سنّة الابتلاء ويتعدّى مرحلة الاختبار.

وتلك الوسائل والعوامل هي:

* أولاً: الفطرة:

الْفَطْر في اللّغة: هو الشّق، وفطر الله الخلق: خلقهم وبرأهم. وفطر الأمر: ابتدأه وأنشأه[3].

---

(١) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩، طبعة: شاكر. الكشّاف: ٢/ ٦٦، طبعة: الاستقامة. المحرر الوجيز: ٥/ ٤٢١. التّفسير الكبير: ١٤/ ١٣. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٥٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٢٠. تفسير أبي السّعود: ٣/ ٢٠٨. محاسن التّأويل: ٦/ ٢٥٩٦ ـ ٢٥٩٧.

(٢) انظر معنى الآية في: الكشّاف: ٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥، طبعة: الحلبي. الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ١٢١ ـ ١٢٢. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧١٠ ـ ٧١١. تفسير أبي السّعود: ٩/ ٧٠. روح المعاني: ٢٩/ ١٥٢ ـ ١٥٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨٣٣ ـ ٨٣٤. في ظلال القرآن: ٦/ ٢٧٨٠. والأمشاج، هي: الأخلاط.

(٣) انظر: القاموس المحيط، ص: ٥٨٧. وانظر: المفردات، ص: ٣٨٢.

وأمّا الفطرة في الشّرع، فقد اختلفت عبارة السّلف في المراد بها. والأشهر من أقوالهم والأرجح أنّ المراد بها الإسلام(١).

يؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يسدّد وجهه، ويستمر على الدّين الّذي شرعه الله له، وهو دين إبراهيم عليه السلام، وهو الملّة الحنيفيّة، وهو الإسلام المركوز في الفطر، الّذي فطر الله خلقه عليه، وهو الدّين المستقيم الّذي لا يبدّل ولا يغيّر(٢).

قال ابن القيّم رحمه الله:

«فبيّن سبحانه أنّ إقامة الوجه وهو إخلاص القصد وبذل الوسع لدينه، المتضمّن محبّته وعبادته، حنيفاً مقبلاً عليه، معرضاً عمّا سواه هو فطرته الّتي فطر عليها عباده. فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه»(٣).

ولكن مع ذلك قد يطرأ على الفطرة ما يغيّرها ويبدّلها، ويفسد سلامتها واستقامتها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويُمَجّسانِه(٤)، كما تُنْتَج(٥) البهيمةُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٥. مجموعة الرّسائل الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الرّسالة الرّابعة عشر في الكلام على الفطرة، مطبعة: محمّد عليّ صبيح وأولاده بالأزهر، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م. فتح الباري: ٣/ ٦١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩.

(٣) مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن قيّم الجوزيّة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت: ٢/ ٨٧. الضّوء المنير على التّفسير، جمعه: عليّ الحمد المحمّد الصّالحي من كتب الإمام ابن القيّم، مؤسّسة النّور بعنيزة مع التّعاون مع مكتبة دار السّلام بالرّياض: ٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

(٤) من المجوسيّة، وقد سبق تعريفها، ص: ١٠٢.

(٥) كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء: أي تَلِدُ. يقال: نُتِجَت النّاقةُ إذا وَلَدتْ فهي مَنْتُوجة، =

بهيمةً جمعاء[1] هل تحسون فيها من جَدْعَاء[2]؟». ثمّ يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠][3].

وفي حديث عياض بن حمار المُجاشِعيّ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خُطبته: «ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي

= وأنتَجَت إذا حَملتْ فهي نَتُوج. ولا يقال: مُنْتِج. ونَتَجْتُ النّاقةَ أنْتِجُها: إذا وَلّدْتُها، والنّاتِج للإبل كالقابِلة للنّساء. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٢.

(١) جَمْعَاءَ: أي سَلِيمَة من العيوب، مُجْتَمِعَة الأعضاءَ كاملَتها، فلا جَدْعَ بها وَلَا كي. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٩٦. وانظر: الفائق: ٣/ ١٢٧.

(٢) جدعاء: هي المجدوعة الأنف. غريب الحديث للهروي: ١/ ١٠١.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب إذا أسلم الصّبي فمات هل يصلّى عليه، وهل يعرض على الصّبي الإسلام: (٧٩)، برقم: (١٣٥٨: ١٣٥٩)، ص: ٢٨٥، وفي كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: ٣٠]: (٠/ ٢)، برقم: (٤٧٧٥)، ص: ١٠٢٨، ونحوه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب ما قيل في أولاد المشركين: (٩٢)، برقم: (١٣٨٥)، ص: ٢٩٠ ـ ٢٩١، وفي كتاب القدر: (٨٢/ ٥٦)، باب الله أعلم بما كانوا عاملين: (٣)، برقم)، ٦٥٩٩)، ص: ١٣٩٩.

صحيح مسلم، بلفظه وبنحوه في: كتاب القدر: (٤٦)، باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفّار وأطفال المسلمين: (٦)، برقم: (٢٦٥٨)، ٤/ ٢٠٤٧ ـ ٢٠٤٨.

قال ابن قتيبة رحمه الله:

«أمّا قوله: «كلّ مولود يولد على الفِطْرة»، فإنّه يريد: أنّه يولد على الإقْرار بالله، وهو الميثاق الّذي أخذَه الله عليهم حين أخرجهم من ظهر آدم أمثال الذّر وأشْهَدَهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فالنّاس جميعاً وإن اخْتلفوا في أديانهم ونِحَلهم عالمون بأنَّ الله عز وجل خالقهم. والفِطْرة ابْتداء الخِلْقة ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]: أي مبتدئهما... والبَهيمةُ الجَمْعاء هي السّليمة، سُمِّيَتْ بذلك لاجْتماع السّلامة لها في أعضائها... وشبَّه المولود حين يُولَد في سَلامته من الكُفْر بها، ثمّ يُهَوِّد اليهود أبناءَهم ويُنَصِّر النّصارى أبناءَهم أي يعلّمونهم ذلك كما كانت الجاهليّة تقطَعُ آذان البَهائم السّليمة وتفْقأ عُيونَها». غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

وانظر معنى الحديث في: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٥٧. شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩. فتح الباري: ٣/ ٦١٩ ـ ٦٢٢.

هذا، كلّ مال نحلته[1] عبداً حلال، وإنّي خلقت عبادي حنفاء[2] كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجْتَالتهم[3] عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً. . .» الحديث[4].

فالله سبحانه فطر عباده على محبّته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله محبّاً له، عابداً له وحده. لكن تفسد فطرته من مرضه فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، وهذه كلّها تغيّر فطرته الّتي فطر عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره، كما يغيّر البدن بالجوع، ثمّ قد يعود إلى الفطرة إذا يسّر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرّسل صلّى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها، وإذا كان القلب محبّاً لله وحده مخلصاً له الدّين لم يبتل بحبّ غيره أصلاً[5].

---

(١) النُّحْل: بالضّمّ: إعْطاؤُك الإنسانَ شيئاً بلا اسْتِعاضةٍ، وعمَّ به بعضهم جميعَ أنواع العَطاء، وقيل: هو الشّيء المُعْطى، وقد أَنْحَله مالاً ونَحَله إياه، وأَبى بعضُهم هذه الأخيرة، ونُحْل المرأةِ: مَهْرُها، والاسم النّحْلة، تقول: أَعطيتها مهرَها نِحْلة، بالكسر، إذا لم تُرِد منها عِوَضاً. لسان العرب: ١١/ ٦٥٠.
وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٦٤٩. القاموس المحيط، ص: ١٣٧١.

(٢) حُنَفَاء: أي ظاهِري الأعْضاء من المعاصي، لَا أنّه خَلَقهم كُلَّهم مُسْلِمين، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التّغابن: ٢]. وقيل: أراد أنّه خلقهم حُنَفَاء مؤمنين لمّا أخَذ عليهم الميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فلا يُوجَدُ أحَدٌ إلّا وهو مُقِرٌّ بأنّ له رَبّاً وإنْ أشْرك به، واخْتَلَفوا فيه، والحُنَفاء جمع حَنِيف: وهو المَائِل إلى الإسلام الثّابت عليه، والحَنِيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم عليه السلام، وأصْل الحَنف المَيْلُ. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٥١.

(٣) فاجْتَالتهُم الشّياطين: أي استَخَفَّتْهم فجَالُوا معَهم في الضّلَال. يقال: جَال واجْتَال: إذا ذهب وجاء ومنه الجَوَلَانُ في الحرْب، واجْتَالَ الشّيءَ إذا ذَهَب به وسَاقَه، والجائِل الزّائلُ عن مكانه. ورُوِي بالحاء المهملة. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣١٧.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب الصّفات الّتي يعرف بها في الدّنيا أهل الجنّة وأهل النّار: (١٦)، برقم: (٢٨٦٥)، ٤/ ٢١٩٧.

(٥) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٣٥. وانظر: ١٤/ ٢٩٦.

فالإنسان إذا لم تفسد فطرته يكون مجبولاً على سلوك الطّريق الّذي يجتاز به مرحلة الابتلاء، ويحقّق بذلك الغاية الّتي خلق من أجلها.

*** ثانياً: العقل والسّمع والبصر:**

إنّ الله تعالى منّ على الإنسان بنعم شتّى. ومن أعظم النّعم نعمة العقل الّذي يميّز به، وهو الّذي اختصّه به دون الحيوان البهيم، كما وهبه نعمة السّمع ونعمة البصر. فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النّحل: ٧٨]. وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

وهذه الحواس هي أعظم المدارك لاستيعاب أمر الابتلاء وتحقيق غايته.

قال سيّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّ الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغير قصد ولا غاية، إنّما هي فرصة الحياة للابتلاء»[1].

ولذلك ربط الله سبحانه بين قضيّة الابتلاء وبين هذه المدارك ليبيّن لنا أنّها الوسائل الّتي يستطيع الإنسان من خلالها أن يحقّق غايته الّتي خلق من أجلها.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

فعلى الإنسان أن يستخدم هذه الحواس استخداماً صحيحاً خالياً من الآفات الّتي تعطّل ما فيها من الاستعداد الفطري حتّى يتمكّن من اجتياز عقبة الابتلاء على مراد الله.

ولهذا عاتب سبحانه لفيفاً عظيماً من هذه البشريّة عطّلوا هذه الحواس عن منافعها وغايتها فانحدروا إلى حضيض البهيميّة بل تجاوزوا ذلك بمراحل.

إذ البهيميّة تؤدّي ما أسند إليها من وظائف أداءً صحيحاً على قدر ما أودع

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٦٤٦.

فيها من خصائص. وأمّا الإنسان قد يعطّل تلك المدارك فلا يؤدي ما أسند إليه من مهام أنيطت به، فعندها ينحطّ مقامه فيكون أسوأ من الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان: ٤٤].

ومن هنا كانت المسؤولية عظيمة جداً على من عطّل هذه الحواس، أو استخدمها استخداماً سيّئاً ينافي الأداء السّليم الّذي خلقت وهيّئت له. فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهناك يعود المعطّلون للانتفاع بها بالملامة على أنفسهم، ويندمون حيث لا ينفع النّدم ولا يجدي اللّوم فتيلاً[(١)].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

قال العلامة ابن كثير رحمه الله:

«أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحقّ، لما كنّا على ما كنّا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرّسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتّباعهم»[(٢)].

---

(١) الفَتَيل: حبل دقيق من لِيف أو عِرْق أو غير ذلك. والفَتِيل والفَتِيلة: ما فتلْته بين أصابعك. وقيل: الفَتِيل ما يخرج من بين الإصبعين إذا فتلْتهما، وما يكون في شَقِّ النّواة. وفي التّنزيل العزيز: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النّساء: ٤٩]، أي لا يظلمون قدر ما يكون بين شقّ النّواة، وهو يضرَب مثالًا للشّيء التّافِه الحقير القليل. انظر: لسان العرب: ١١/ ٥١٤. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٣٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٢٠.

فهؤلاء فشلوا في اجتياز عقبة الابتلاء حيث لم ينتفعوا من عقولهم وأسماعهم وأبصارهم.

*** ثالثاً: الهداية:**

لمّا أهبط الله آدم عليه السلام من الجنّة إلى دار الابتلاء والاختبار أعطاه عهداً له ولبنيه من بعده إن تمسّكوا به ردّهم تارة أخرى إلى جنّته.

فقال سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣][(١)].

وعهده سبحانه هو هداية البيان والدّلالة الّتي أقام بها حجّته على عباده، وميّز لهم بها بين الحقّ والباطل. وهي الّتي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه. فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧][(٢)].

وهي لا تخصّ الرّسل وحدهم بل لهم وللعلماء من بعدهم.

والله لا يعذّب أحداً من خلقه إلّا بعد إيصال هذه الهداية إليه، فيدعوه سبحانه ويبيّن له طريق الحقّ من طريق الضّلال لتقوم بذلك حجّته على الخلق وينتهي عذرهم.

فقال سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ٣٢ ـ ٣٣. الضّوء المنير: ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) انظر: مدارج السّالكين: ١/ ٤٢ ـ ٤٣. الضّوء المنير: ١/ ٦٨.

وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥][1].

فبهذه الهداية يميّز الإنسان طريق الحقّ الموصل إلى الله تعالى، الّذي من سلكه حقّق مراد الله من خلقه وسبب جوده على الأرض، ومن تنكّبه وسلك طريق الضّلال فشل في تحقيق الغاية الّتي وجد من أجلها وهي الابتلاء.

ولهذا لـمّا كان الابتلاء يتوقّف تحقّقه على هذه الهداية الّتي تميّز بين الطّريقين، وتدعو الإنسان لسلوك الطّريق الأقوم، قرن الله بينها وبين الابتلاء في قرآنه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣]، ونحو ذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

ومع كلّ هذا أعطى الإنسان حريّة الاختيار. فيسلك الطّريق الّذي أراده. وعلى ذلك ينبني أمر الثّواب والعقاب الأخروي.

وهذه العوامل الثّلاثة ـ أعني: الفطرة ومدارك الإنسان والهداية ـ بينهم رابطة وثيقة وعلاقة حميمة.

فالرّسل عليهم السلام الّذين بعثوا بالهداية إنّما جاءوا مذكّرين بما في الفطرة، مقرّرين لذلك، مكمّلين له[2].

والهداية إنّما تتأتّى بواسطة العقل والسّمع والبصر[3].

والمؤمن يحسن الاختيار متى ما اختار طريق الخير وتجنّب طريق الشّر، وذلك بانتفاعه بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر فيميّز بهم ما يسعده ممّا يشقيه، منصاعاً في ذلك لما جاءه من قبل الله على أيدي رسله عليهم السلام، محافظاً

(١) انظر: شفاء العليل، ص: ٨٠.
(٢) انظر: التّبيان في أقسام القرآن، لابن القيّم، تصحيح وتعليق: طه يوسف شاهين، مكتبة القاهرة، دار الطّباعة المحمّدية بالأزهر، ص: ٣٩.
(٣) انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ١٠٧. الضّوء المنير: ٦/ ٣٦٣.

على فطرته من الانحراف والتّبديل، وهو بذلك يجتاز مرحلة الابتلاء، بفوز ونجاح.

* وقد جاء الدّليل من كتاب الله ﷻ يبيّن أنّ الخلق إنّما خلقوا من أجل العبادة، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: ٥٦].

والعبادة هي اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة.

وهي الغاية المحبوبة لله، المرضيّة له، الجامعة لكمال الحبّ مع كمال الخضوع والانقياد لأوامره سبحانه[١].

ومن أجلها أرسلت الرّسل، وأنزلت الكتب، وشرعت الشّرائع. فما من رسول من رسل الله إلّا ودعا قومه إليها، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ[٢] فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥][٣].

ومقصود العبادة: ألّا يعبد إلّا الله، وأن يعبد بما أمر وشرع، لقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥][٤].

---

(١) العبوديّة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي الرّسالة الرّابعة عشرة من مجموعة التّوحيد، طبعة: دار الفكر، ص: ٥٤٤ ـ ٥٤٥. مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٤٩ ـ ١٥٠، ١٥٣.

(٢) الطّاغوت: هو كلّ متعدٍّ وكلّ معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، وأصله من طغى الّذي هو تجاوز الحدّ في العصيان. انظر: المفردات، ص: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٣) انظر الآيات من: سورة الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥. سورة الأنبياء: ٩٢. سورة الأحقاف: ٢١.

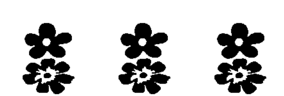
(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٧٢ ـ ١٧٤.

وخلق الخلق من أجل العبادة لا ينافي ويعارض خلقهم من أجل الابتلاء، لأنّ العبادة هي الّتي تظهر نتيجة الابتلاء، وتبرز حقيقته إن كانت ثواباً أو عقاباً على حسب الطّائع أو العاصي[1]. لأنّ حقيقة العبادة هي امتثال الأوامر واجتناب النّواهي.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

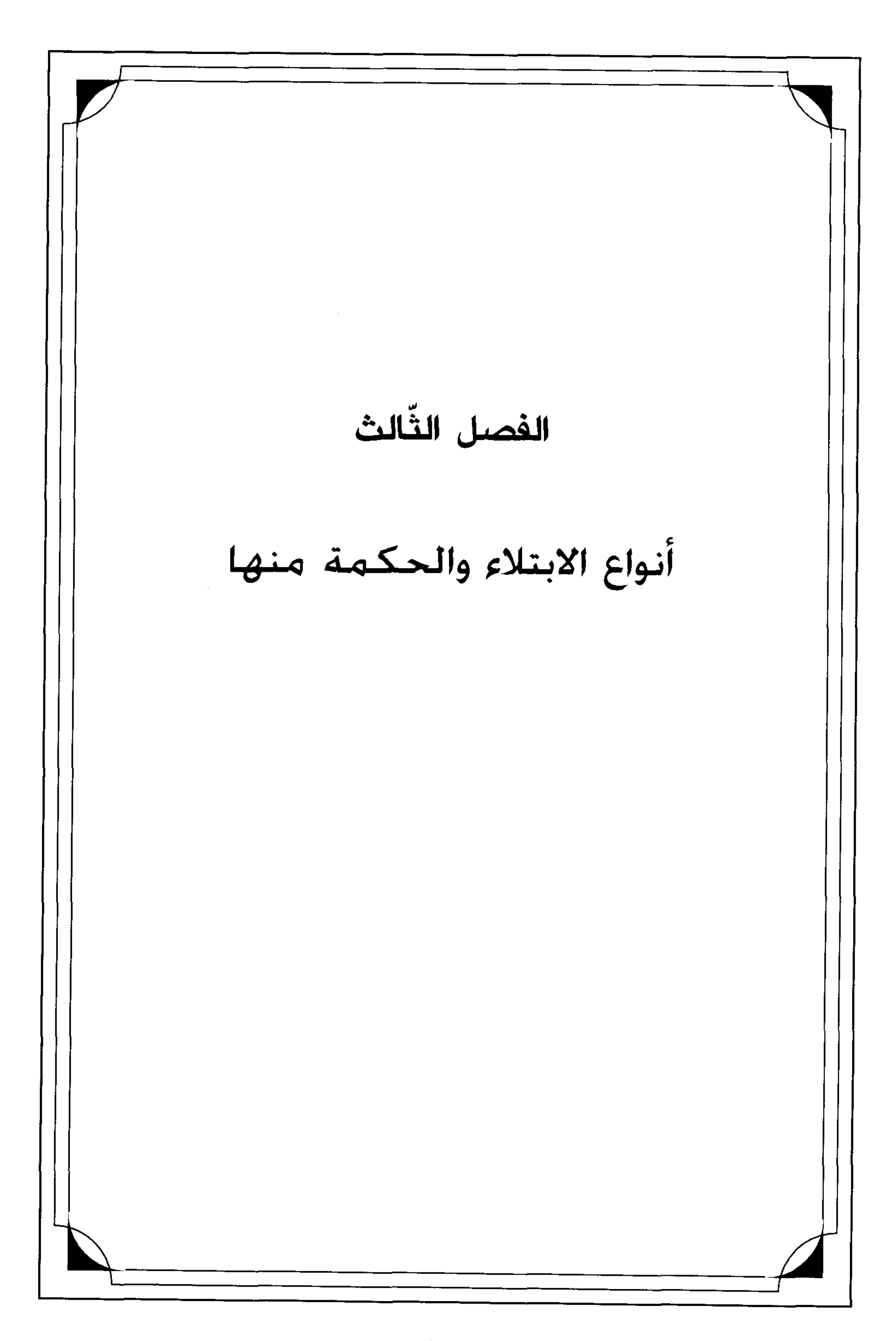
«فأخبر سبحانه عن خلق العالم، والموت والحياة، وتزيين الأرض بما عليها أنّه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيّهم أحسن عملاً. فيكون عمله موافقاً لمحابّ الرّب تعالى، فيوافق الغاية الّتي خلق هو لها وخلق لأجلها العالم، وهي عبوديّته المتضمّنة لمحبّته وطاعته. وهي العمل الأحسن، وهو مواقع محبّته ورضاه. وقدّر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقدره ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً»[2].

وسوف يأتي لهذا الأمر مزيد بيان في المبحث القادم بإذن الله.



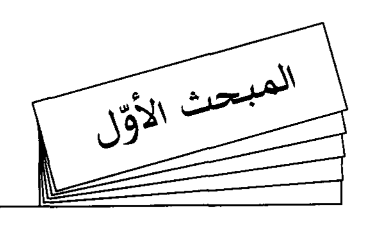
(١) انظر: الابتلاء في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، إعداد: الطّالب محمّد عبد العزيز الحمادي الرّحالي، إشراف: الدّكتور سمير عبد العزيز شيلوي، جامعة أمّ القرى، كليّة الدّعوة وأصول الدّين، قسم الكتاب والسُّنة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص:٣٦.

(٢) روضة المحبّين، ص:٦١.



الفصل الثّالث

أنواع الابتلاء والحكمة منها



المبحث الأوّل

الابتلاء بالتّكليف وحكمته

التّكليف في اللّغة: من الكَلَفة، وهي: المشقّة.

قال الفيروزآبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«التّكليف: الأمر بما يشقّ عليك، وتكلّفه: تجشّمه. والمتكلِّف: العِرِّيض لما لا يعنيه. وحملتُهُ تكلفة إذا لم تُطقه إلّا تكلّفاً»[1].

قالت الخنساء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا[2]:

يُكَلِّفُهُ القومُ ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولداً[3]

وأمّا التّكليف في الشّرع: فقيل: هو إلزام ما فيه مشقّة وكُلفة. وعلى هذا فلا يدخل في حدّه إلّا الواجب[4] ....

(١) القاموس المحيط، ص:١٠٩٩. وانظر: الصّحاح: ٤/ ١٤٢٤. تاج العروس: ١٢/ ٤٦٥. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٩٦.

(٢) الخنساء: هي تماضر بنت عمرو بن الشّريد السّلميّة، الشّاعرة المشهورة، الصّحابية، أجمع أهل العلم بالشّعر أنّه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها. انظر: الإصابة: ٧/ ٦١٣.

(٣) ديوان الخنساء، طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ص:٣٠، وهي ترثي به أخاها صخراً، وقولها: عالهم: أي افتقروا إليه. انظر: القاموس المحيط، ص:١٣٤٠.

(٤) الواجب: هو ما توعّد بالعقاب على تركه، وقيل: ما يعاقب تاركه، وقيل: ما يذمّ تاركه شرعاً.

روضة النّاظر: لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، طبعة: جامعة الإمام محمّد بن سعود، الرّياض، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٩هـ، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرّحمٰن السّعيد، ص:٢٦. وانظر: المستصفى، لأبي حامد الغزالي، طبعة: دار الكتب=

والحرام[1] فقط.

وقيل: هو طلب ما فيه مشقّة وكُلفة، وعليه يدخل في حدّه الواجب والمندوب[2] والحرام والمكروه[3].

ولذا قال صاحب مراقي السّعود في تعريفه:

وهــو إلــزام الّــذي يــشــقّ أو طــلــب فــاه بــكــلّ خــلــق[4]

= العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ، تحقيق: محمّد عبد السّلام عبد الشّافي، ص:٥٣. المنخول، لأبي حامد الغزالي، طبعة: دار الفكر، دمشق، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٠هـ، تحقيق: د. محمّد حسن هيتو، ص:١٣٦. الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشّاطبي، طبعة: دار الفكر، ١٣٤١هـ: ١/ ٨٧ ـ ٨٨. إرشاد الفحول: لمحمّد بن عليّ الشّوكاني، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، تحقيق: محمّد سعيد البدري، ص:٢٣.

(١) الحرام: هو ما يذمّ فاعله ويمدح تاركه، ويقال له: المحرّم والمحظور والمعصية والذّنب والمزجور عنه والمتوعّد عليه والقبيح. انظر: إرشاد الفحول، ص:٢٤. وانظر: المستصفى، ص:٢٣. المنخول، ص:١٣٧. روضة النّاظر، ص:٤١.

(٢) المندوب: النّدب في اللّغة الدّعاء إلى الفعل كما قال الشّاعر:

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهُمْ في النّائبات على ما قال برهاناً

وحدّه في الشّرع: مأمور لا يلحق بتركه ذمّ من حيث تركه من غير حاجة إلى بدل، وقيل: هو ما في فعله ثواب ولا عقاب في تركه. روضة النّاظر، ص:٣٥. وبيت الشّعر لقُرَيط بن أُنَيف أحد بني العنبر. انظر: ديوان الحماسة، لأبي تمّام حبيب بن أوس الطائي، (دون توثيق): ١/ ٥.

وقال الشّوكاني ﷺ:

«المندوب ما يمدح فاعله ولا يذمّ تاركه، وقيل: هو الّذي يكون فعله راجحاً في نظر الشّرع، ويقال له: مرغّب فيه ومستحبّ ونفل وتطوّع وإحسان وسنّة، وقيل: إنّه لا يقال له سنّة إلّا إذا داوم عليه الشّارع كالوتر ورواتب الفرائض». إرشاد الفحول، ص:٢٤. وانظر: المستصفى، ص:٥٣. المنخول، ص:١٣٧. الموافقات: ١/ ٨٦، ٩٩.

(٣) المكروه: هو ما يمدح تاركه ولا يذمّ فاعله، ويقال بالاشتراك على أمور ثلاثة: على ما نهي عنه نهي تنزيه وهو الّذي أشعر فاعله أنّ تركه خير من فعله، وعلى ترك الأولى كترك صلاة الضّحى، وعلى المحظور. إرشاد الفحول، ص:٢٤. وانظر: المستصفى، ص:٥٣ ـ ٥٤. المنخول، ص:١٣٧. روضة النّاظر، ص:٤١. الموافقات: ١/ ٨٦.

(٤) نثر الورود على مراقي السّعود، للشّيخ محمّد الأمين بن محمّد المختار الشّنقيطي، ومراقي السّعود، لعبد الله بن إبراهيم العلوي، تحقيق: الدّكتور محمّد ولد سيدي ولد=

والطّلب يشمل الأمر والنّهي.

فالتّكليف إذن هو: خطاب الشّارع للمكلّفين بأمر أو نهي[1]. والأمر قد يكون واجباً أو مندوباً، كما أنّ النّهي قد يكون حراماً أو مكروهاً. وبالأمر والنّهي تتحقّق العبادة الّتي خلق الخلق من أجلها[2].

وليس المقصود بالعبادات المشقّة والكلفة بالقصد الأوّل، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها لأسباب اقتضت ذلك لا بد منها[3].

فالمشقّة الموجودة في العبادة والتّكاليف هي مشقّة معتادة.

والله سبحانه إذ ابتلى عباده بالأوامر والنّواهي الّتي هي التّكاليف، لم يكن لمنفعة تعود عليه سبحانه، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عمّا يعود مضرّته عليهم في معاشهم ومعادهم. فحكمة ابتلائه مختصّة بهم[4].

وهو سبحانه علم أعمال عباده وأحوالهم وما هم إليه صائرون قبل أن يخلقهم ويوجدهم في دار الابتلاء، ثمّ أخرجهم إليها، وأرسل إليهم رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، فابتلاهم بأوامره ونواهيه، وبالخير والشّر ليظهر

= حبيب الشّنقيطي، دار المنارة للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م: ١/ ٤٢ ـ ٤٣. وانظر: البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق وتقديم: دكتور عبد العظيم الدّيب، طبعة: قطر، الطّبعة الأولى، ١٣٩٩هـ: ١/ ١٠١.

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدّين أبي الحسن عليّ بن أبي عليّ بن محمّد الآمدي، مطبعة: المعارف بمصر، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م: ١/ ٢١٥. نزهة الخاطر العاطر، للشّيخ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بدران، شرح كتاب روضة النّاظر وجنّة المناظر، للشّيخ موفّق الدّين أبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الكتب العلميّة، بيروت: ١/ ١٣٦. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ٣٤٤.

(٢) انظر: شفاء العليل، ص:٢٤٨.

(٣) انظر: إغاثة اللّهفان: ١/ ٣١. الضّوء المنير: ٣/ ٤٥٧. وانظر في ذلك: المفردات، ص: ٤٣٩.

(٤) انظر: شفاء العليل، ص:٢٤٦. إغاثة اللّهفان: ١/ ٣١.

معلومه الّذي علمه من قبل فيهم، فيستحقّوا بذلك المدح أو الذّم، والثّواب أو العقاب، ويعذر الله إليهم بإقامة الحجّة عليهم(١).

وهو بهذا الابتلاء يميّز بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والصّادق والكاذب، ومن يشكره ويعبده ومن يكفره ويعرض عنه.

قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩].

أي: ما كان الله تعالى ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين والكفّار حتّى يميّز بينهم بما يشرعه من تكاليف لا يستجيب لها إلّا المؤمنون الصّادقون، فيُعْرَف عند ذلك المؤمن من غيره. ولو لم تكن التّكاليف هي الّتي تميّز بين أولئك لما استطاع أحد أن يميّز بينهم لأنّه من الغيب الّذي لا يمكن الاطلاع عليه إلّا بواسطة رسل الله الّذين يوحى إليهم(٢).

وهو سبحانه بهذا الابتلاء يعلم عباده المؤمنين ليجزيهم. وإن كان سبحانه يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنّه لا يجزي العباد بمجرّد علمه فيهم حتّى يوجد معلومه، ويتحقّق منهم فيقع الجزاء عليه. كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أي لا يحصل لكم دخول الجنّة حتّى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصّابرين على مقاومة الأعداء»(٣).

---

(١) انظر: شفاء العليل، ص: ٢٤٦.

(٢) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ٧/ ٤٢٤ ـ ٤٢٧، طبعة: شاكر. الكشّاف: ١/ ٤٨٣، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ٩/ ١١٠ ـ ١١١. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٨٩. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٤٩. محاسن التّأويل: ٤/ ١٠٤٤ ـ ١٠٤٥. زاد المعاد: ٣/ ٢٢٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦١٢. وانظر: شفاء العليل، ص: ٢٤٥. إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٨٨.

والله تعالى جعل لعباده المؤمنين منازل في الجنّة أراد أن يكرمهم بها، فابتلاهم بالتّكاليف المختلفة المتنوّعة لكي ينالوا بذلك أرفع المقامات وأسمى الدّرجات في عالي الجنات. فلم يقف الأمر عند جزائهم بل تعدّى ذلك إلى رفع درجاتهم بالابتلاء.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصّبر والرّضا والتّوكّل والجهاد والعفّة والشّجاعة والحلم والعفو والصّفح. والله سبحانه يحبّ أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات، ويحبّ ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو وملائكته، وينالوا باتّصافهم بها غاية الكرامة واللّذّة والسّرور، وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها»[1].

كما ربط سبحانه تحقّق بعض الحكم بالابتلاء بتكاليف متعدّدة. أوامر ونواهي، الّتي لولا ذلك الابتلاء بتلك التّكاليف المتنوّعة لما تحقّقت. فقال في شأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولا خلاف بين العلماء أنّه ابتلاه بأوامر ونواهي كلّفه بالقيام بها، فقام بذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ خير قيام، وأدّاهن أحسن تأدية، من غير تفريط ولا توان. وإن كانوا قد اختلفوا في تعيين تلك الكلمات، ولم يأت ما يعيّنها فتبقى على الإطلاق.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم اختباراً بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو الكلمات الّتي أوحاهنّ إليه، وكلّفه العمل بهنّ امتحاناً منه له واختباراً»[2].

فلمّا وفّى بذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ جعله الله إماماً يقتدى به، وأبقى له الثّناء الدّائم في

---

(١) شفاء العليل، ص: ٢٤٤. وانظر: زاد المعاد: ٣/ ٢٢١.

(٢) جامع البيان: ٣/ ٧. وانظر: ٣/ ١٤ ـ ١٥، طبعة: شاكر.

الدّنيا، وجعل في ذريته النّبوّة، وأجزل له العطاء في الآخرة[1].

وكلّ هذه الحكم والغايات العظيمة إنّما حدثت له نتيجة لقيامه بتلك التّكاليف الّتي ابتلي بها.

ومن ذلك ما ابتلى الله به أصحاب طالوت عندما خرجوا لقتال جالوت وقومه، فابتلاهم بالنّهي عن الشّرب من النّهر مع شدّة عطشهم واحتياجهم إلى الماء، ولم يأذن إلّا بغرفة[2] ليرى طاعتهم وامتثالهم لنهيه فيتميّز عند ذلك الصّابر الّذي يثبت عند القتال من غيره.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال الرّازي رحمه الله:

«المقصود من هذا الابتلاء أن يتميّز الصّدّيق عن الزّنديق[3]، والموافق عن المخالف، فلمّا ذكر الله تعالى أن الّذين يكونون أهلاً لهذا القتال هم الّذين لا يشربون من هذا النّهر، وأنّ كلّ من شرب منه فإنّه لا يكون مأذوناً في هذا القتال، وكان في قلبهم نفرة شديدة عن ذلك القتال، لا جرم أقدموا على الشّرب، فتميّز الموافق عن المخالف، والصّديق عن العدوّ»[4].

---

(١) انظر في معنى الآية: الكشّاف: ١/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ١/ ٤٧٣. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٩٦ ـ ٩٧. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٩، وفيه تحقيق قيّم للمراد بالكلمات. تفسير أبي السّعود: ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥. محاسن التّأويل: ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤٧، وسوف يأتي مزيد بيان لابتلاء إبراهيم عليه السلام والغايات الّتي تحقّقت له في النّماذج.

(٢) غرفة: الغَرْف: أخذ الماء باليد، والغَرْفة هي المرّة الواحدة منه. انظر: القاموس المحيط، ص:١٠٨٧.

(٣) الزّنديق: من الزّندقة، وقد سبق بيانها. انظر: ص:٩٩.

(٤) التّفسير الكبير: ٦/ ١٨٢. وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٥/ ٣٣٨ ـ ٣٤٩، =

ونحو هذا ما حدث لأصحاب القرية من بني إسرائيل الّذين حرّم الله عليهم صيد السّمك في يوم السّبت لأنّه يوم معظّم عندهم. فنهاهم الله عن الاصطياد فيه ابتلاء وامتحاناً لهم. فكانت الحيتان تكثر وتظهر فيه دون بقية الأيّام ابتلاء من الله لهم ليعلم امتثالهم لنهيه وانصياعهم لطاعته. ولكنّهم خالفوا النّهي فاحتالوا على صيد السّمك في اليوم المحرّم عليهم فمسخوا قردة.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣][1].

وفي ذلك يقول النّبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل»[2].

وقد وقع نحو ذلك لصحابة النّبي ﷺ الّذين هم قدوة هذه الأمّة بعد نبيّهم ﷺ. فقد ابتلاهم الله بأوامر ونواهي ليظهر امتثالهم لأمر الله واجتنابهم لنهيه، ويتحقّق فيهم مراد الله من ذلك الابتلاء، من ذلك:

أنّ الله جلّ في علاه شرع للنّبيّ ﷺ أن يتوجّه أوّلاً بالصّلاة إلى بيت المقدس ثمّ صرفه عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتّبعه ويطيعه ويتّجه معه أينما

= طبعة: شاكر. الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٥١. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٥٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٩. مجموع الفتاوى: ١٤/ ١٤٥.

(١) انظر الآيات بعدها، والآيتين: ٦٥ ـ ٦٦ من سورة البقرة، وقوله: ﴿شُرَّعًا﴾، أي شوارع ظاهرة على الماء كثيرة. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٠٥. وانظر معنى الآية في: الكشّاف: ٢/ ١٣٤، طبعة: الاستقامة. المحرر الوجيز: ٦/ ١١٤ ـ ١١٦. التّفسير الكبير: ١٥/ ٣٦ ـ ٣٧. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٨. تفسير أبي السّعود: ٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥. إغاثة اللّهفان: ٢/ ٣١٧ ـ ٣١٨. إعلام الموقعين: ٣/ ١٦٢. الضّوء المنير: ١/ ٢١٨.

(٢) هذا الحديث أورده ابن كثير رحمه الله في تفسيره. ونسبه إلى الإمام أبي عبد الله بن بطّة رحمه الله الّذي رواه بإسناده. ثمّ قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا إسناد جيّد... ويصحّح التّرمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً». تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٨. ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث الّتي رجعت إليها مع شهرته.

اتّجه ممن انقلب على عقبيه وارتدّ عن دينه. وإن كان صرف القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أمراً عظيماً على النّفوس إلّا إنّه سهل ميسور على الّذين هدى الله قلوبهم وصدّقوا برسول الله ﷺ، وأيقنوا أنّ كلّ ما جاء به فهو حقّ، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويُحكِم ما يريد، وله أن يكلّف عباده بما شاء، وله الحكمة التّامة والحجّة البالغة(١).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

روى ابن جرير رحمه الله **بسنده إلى قتادة** رحمه الله **أنّه قال:**

«كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص. صلّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي الله ﷺ، وصلّى نبي الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثمّ وجّهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام. فقال في ذلك قائلون من النّاس: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٢]. لقد اشتاق الرّجل إلى مولده، قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]. فقال أناس ـ لمّا صرفت القبلة نحو البيت الحرام: كيف بأعمالنا الّتي كنّا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]».

وقد يبتلي الله العباد بما شاء من أمره، الأمر بعد الأمر، ليعلم من يطيعه ممّن يعصيه، وكلّ ذلك مقبول، إذ كان في ذلك إيمان بالله، وإخلاص له، وتسليم لقضائه»(٢).

ومن ذلك أنّ الله تعالى شرع لعباده الجهاد، وهو تكليف عظيم، وبيّن أنّه له فيه حكمة، وهو اختباره لعبيده من يطيعه ممّن يعصيه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٨٥ بتصرّف.

(٢) جامع البيان: ٣/ ١٥٧، طبعة: شاكر.

فليس المراد من الجهاد القتال فقط، وإنّما المراد الانقياد لأمر الله تعالى، ولحكمه وتكليفه، فيحصل حينئذ الانتفاع بذلك، وينال المجاهد رضوان الله مع ما يحصل عليه من أجر.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦][1].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أم حسبتم أيّها المؤمنون أن يترككم الله بغير محنة يمتحنكم بها، وبغير اختبار يختبركم به، فيعرف الصّادق منكم في دينه من الكاذب فيه»[2].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

أي: لو شاء الله لانتصر من المشركين بغير قتال وكفى المؤمنين ذلك كلّه، ولكنّه سبحانه أمر المؤمنين بالجهاد ليعلم المطيع الصّابر فيثيبه، ويعاقب بأيدي المؤمنين من شاء منهم حتّى ينيبوا إلى الله.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١][3].

---

(١) قال في القاموس المحيط: «الوليجة الدّخيلة، وخاصّتك من الرّجال، أو من تتّخذه معتمداً عليه من غير أهلك، وهو وليجتهم أي لصيق بهم»، ص: ٢٦٧. وانظر: المفردات، ص: ٥٣٢. والمراد هنا البطانة من غير المسلمين.

(٢) جامع البيان: ١٠/ ٩٢، طبعة: الحلبي. وانظر في معنى الآية: الكشّاف: ٢/ ١٩٨، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ١٦/ ٦. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٨٨. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٣٢. تفسير أبي السّعود: ٤/ ٤٩. روح المعاني: ١٠/ ٦٣ ـ ٦٤. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٨٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٩١.

(٣) وانظر في معنى الآيتين: جامع البيان: ٢٦/ ٤٣، ٦١، طبعة: الحلبي. الكشّاف: ٣/ ٥٣١، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ٢٨/ ٤٦ ـ ٤٧. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠، ٢٥٣ ـ ٢٥٤. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٦٦، ٢٧٧. تفسير أبي السّعود: =

ومثال ما جاء في الابتلاء بالنّهي لهذه الأمّة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

والآية كما جاء في سبب نزولها أنّها نزلت في عمرة الحديبية حيث ابتلى الله ﷻ المؤمنين بالصّيد وهم محرمون، فيغشاهم في رحالهم، فكانوا متمكّنين من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم، ولكنّ الله نهاهم عن ذلك لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره من معصية العاصي[(١)].

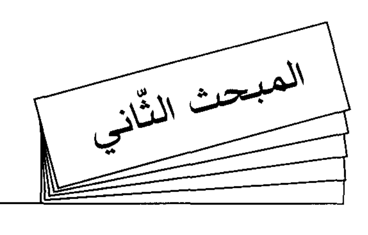
عن ابن عبّاس ﵄ قال في قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾: هو الضّعيف من الصّيد وصغيره، يبتلي الله تعالى ذكره به عباده في إحرامهم، حتّى لو شاءوا نالوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه»[(٢)].



= ٨/ ٩٣، ١٠١. روح المعاني: ٢٦/ ٤٢، ٧٨. محاسن التّأويل: ١٥/ ٥٣٧٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٣٠، ٧٣٤.

(١) انظر في معنى الآية: جامع البيان: ١٠/ ٥٨٢ ـ ٥٨٥، طبعة: الحلبي. الكشّاف: ١/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ٥/ ٣٤. التّفسير الكبير: ١٢/ ٨٥. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٥٧. تفسير أبي السّعود: ٣/ ٧٨. روح المعاني: ٧/ ٢١ ـ ٢٢. محاسن التّأويل: ٦/ ٢١٥٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٠٦.

(٢) جامع البيان: ٧/ ٣٩، طبعة: دار الفكر. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٥٧.



الابتلاء بالنّعم والمصائب وحكمته

إنّ الله تعالى شاء وأراد أن يبتلي عباده بالنّعم والنّقم، والمنح والمحن وله في ذلك الحكم البالغة والحمد التّام، وإن كانت عقول العباد لا تدرك كثيراً ممّا في ذلك الابتلاء من عواقب حميدة وحكم عظيمة.

فإنّ لله عبودية على عباده فيما ابتلاهم به من مصائب، كما له عبودية فيما ابتلاهم به من نعم، فعلى العباد أن يحقّقوا عبادة الله في ذلك[1]. قال سليمان عليه السلام فيما ذكره ربّه سبحانه عنه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

أي: ما أعطاني الله من التّمكّن والملك والسّلطان الّذي أنا فيه حتّى حُمل إليّ عرش من اليمن إلى الشّام في قدر ارتداد الطّرف لهو فضل عظيم ونعمة جزيلة من الله، جاد عليّ بها ليختبرني أأشكره على ذلك أم أكفره، ومن شكر فإنّما ينفع نفسه، ومن كفر فإنّما يضرّها، والله غني عن كلّ ذلك[2].

ولهذا عدّد الله ابتلاءاته على عباده بنعمه، كما نوّعها عليهم بنقمه، وقرن

---

(١) انظر: طريق الهجرتين وباب السّعادتين، لابن القيّم، طبعة: دار ابن القيّم، الدّمام، الطّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، تحقيق: عمر بن محمود أبي عمر، ص:٤٠٢، ٤١٧. عدّة الصّابرين وذخيرة الشّاكرين، لابن القيّم، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، تحقيق: زكريا عليّ يوسف، ص:٩٠.

(٢) انظر: جامع البيان: ١٩/ ١٦٥، طبعة: الحلبي.

ذلك بكثير من حكمه، فقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«نبتليكم بالشّدّة والرّخاء، والصّحة والسّقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطّاعة والمعصية، والهدى والضّلال. وإلينا يردّون فيجازون بأعمالهم، حسنها وسيّئها».

وقال ابن زيد رحمه الله:

«نبلوهم بما يحبّون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك، لننظر كيف شكرهم فيما يحبّون، وكيف صبرهم فيما يكرهون»[١].

وقول ابن زيد رحمه الله أعمّ من قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.

ولذا قال ابن عطيّة رحمه الله:

«والظّاهر أنّ المراد من الخير والشّر هنا كلّ ما يصحّ أن يكون فتنة وابتلاء، وذلك خير المال وشرّه، وخير البدن وشرّه، وخير الدّنيا في الحياة وشرّها»[٢]. ثمّ استبعد دخول الهدى والضّلال والأوامر والنّواهي في معنى الآية[٣].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

أي: اختبرناهم بالرّخاء والشّدة، والرّغبة والرّهبة، والعافية والبلاء لعلهم ينيبون إلى الله ويرجعون إليه[٤].

---

(١) جامع البيان: ١٧/ ٢٥، طبعة: الحلبي.

(٢) المحرر الوجيز: ١٠/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ١٠/ ١٤٧. وانظر في معنى الآية: الكشّاف: ٣/ ٩٢، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ٢٢/ ١٦٩. الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٨٧. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٦. تفسير أبي السّعود: ٦/ ٦٦. روح المعاني: ١٧/ ٤٧. عدّة الصّابرين، ص: ١٣٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤١٢.

وهذه كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩٥﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥].

أي: جرت سنّة الله تعالى أنّه يبتلي الأمم الّتي أرسل إليها الرّسل بالبأساء، وهي ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، وبالضرّاء وهي ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يخشعون إلى الله، ويدعونه ويبتهلون له في كشف ما نزل بهم، فلمّا لم يفعلوا ما أردنا منهم قلبنا عليهم الحال فأبدلنا الشّدّة رخاء، والمرض والسّقم صحّة وعافية، والفقر غنى ليشكروا وينيبوا إلى الله، فما فعلوا هذا ولا ذلك ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وإنّما زعموا أنّ تلك عادة جارية في الأوّلين واللّاحقين، فتارة يكونون في سرّاء، وأخرى في ضرّاء إذ هي تقلّبات الزّمن. عند ذلك أخذناهم بالعذاب بغتة وهم في غفلة لا يشعرون[1].

فابتلاء الله للعباد بالنّعم وسعة الرّزق لا يدلّ على إكرامه وتفضيله لهم، كما أنّ ابتلاءهم بالمصائب وتقتير الرّزق وتضييقه ليس إهانة وإذلالاً لهم. بل إنّما ذلك للاختبار والامتحان لتظهر طاعة الطّائع من معصية العاصي. لأنّ إكرام الله للعبد إنّما يكون بالتّقوى والطّاعة، وإهانته له تكون بالمعصية والذّنب لا بالغنى والفقر.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦][2].

---

(١) انظر: جامع البيان: ١٢/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣، طبعة: الحلبي. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٦٠.

(٢) انظر معنى الآيات في: جامع البيان: ٣٠/ ١٨١ ـ ١٨٢، طبعة: الحلبي. الكشّاف: ٤/ ٢٥١، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ١٥/ ٤٤١ ـ ٤٤٢. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٥١ ـ ٥٢. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٨٠٥. تفسير أبي السّعود: ٩/ ١٥٦. روح المعاني: ٣٠/ ١٢٥ ـ ١٢٧. محاسن التّأويل: ١٧/ ٦١٥٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨٥٤. عدّة الصّابرين، ص: ١٣٢ ـ ١٣٣.

وقال سبحانه في معرض الابتلاء بالنّعم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

فقد بيّن سبحانه أنّه جعل ما على الأرض من زينة كالذّهب والفضّة والمساكن والملابس والمراكب والزّروع والثّمار والحيوان والنّساء والبنين وغير ذلك من أنواع النّعم كلّ ذلك خلقه لابتلاء عباده أيّهم أطوع له وأرضى[١].

قال الفُضَيل بن عياض[٢] رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]:

«أخلصه وأصوبه»، قالوا: يا أبا عليّ: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتّى يكون خالصاً وصواباً، والخالص أن يكون لله، والصّواب أن يكون على السّنّة»[٣].

---

(١) انظر: عدة الصّابرين، ص: ١٣٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٢٠ ـ ٤٢١. قال تعالى في بيان أنواع الزّينة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران: ١٤]، وهي الأولى في بيان الآية.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود أبو عليّ التّميمي اليربوعي المروزي الخرساني، المكّي، الزّاهد المشهور، كان إماماً ربانيّاً عابداً قانتاً فاضلاً ثقة كبير الشّأن ورعاً، كثير الحديث، توفي بمكّة سنة ١٨٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٥٠٠. التّاريخ الكبير: ٧/ ١٢٣. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٠٧. الجرح والتّعديل: ٧/ ٧٣. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٣١٥. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٤٩. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠٥١. تهذيب الكمال: ٢٣/ ٢٨١. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢٤٥. الكاشف: ٢/ ١٢٤. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٢٦٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٤٨. لسان الميزان: ٧/ ٣٣٧.

(٣) قول الفضيل رحمه الله، أورده أبو نعيم رحمه الله في حلية الأولياء بلفظ مقارب: ٨/ ٩٥. وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في عدّة مواطن. انظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى: ١/ ١٧٤، ٣٣٣، ٣/ ١٢٤، ٧/ ٤٩٥، ١١/ ٥٠٩، ٥٨٥، ٦٠٠، ١٨/ ٢٥٠، ٢٢/ ١٨٨، ٢٦/ ١٥١، ٢٧/ ١٤٨، ٢٨/ ٢٣، ١٣٤، ١٧٧. الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة: جامعة الإمام محمّد بن سعود، بلد النّشر: المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، تحقيق: محمّد رشاد سالم: ١/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩. وتلميذه ابن القيّم رحمه الله=

وقال سبحانه في معرض الابتلاء بالنّقم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

لقد بيّن سبحانه أنّه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن والمصائب ليميّز الصّادق من الكاذب، وأهل الخير من أهل الشّر، لأنّ حكمته تقتضي ذلك. فأخبر أنّه سيبتليهم بشيء من الخوف وشيء من الجوع، لأنّه إذا ابتلاهم بالخوف كلّه أو الجوع كلّه لهلكوا، والمحن تمحّص لا تهلك غالباً، ونقص من الأموال بما يعتريها من جوائح وغرق وحرق وضياع وأخذ الظّلمة وقطاع الطّريق لها وغير ذلك، والأنفس بذهاب الأحباب من أولاد وأقارب وأصحاب، أو بالأمراض في بدن العبد أو من يحبّه، والثّمرات أي الحبوب كثمار النّخيل والأشجار كلّها والخضر ببرد أو حرق أو آفة كالجراد ونحو ذلك[1].

= في مدارج السّالكين: ١/ ٨٣. وابن كثير رحمه الله في البداية والنّهاية: ١٠/ ١٩٩. وابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم، ص: ١٣ ـ ١٤.

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٨ ـ ٥٩، بتصرّف. وانظر معنى الآيات في: جامع البيان: ٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٣، طبعة: شاكر. الكشّاف: ١/ ٣٢٣، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ٤/ ١٤٩ ـ ١٥٥. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٧٣ ـ ١٧٧. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٩٤. تفسير أبي السّعود: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١. روح المعاني: ٢/ ٢٢ ـ ٢٣. محاسن التّأويل: ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٩.

وقد ذكر رحمه الله فوائد الابتلاء بالمصائب والمحن وحكمها ملخصاً لها من كلام الإمام عز الدّين محمّد بن عبد السّلام.. وأنا أشير لك إلى ما ذكر مختصراً لتعمّ الفائدة، وهي:

١ ـ معرفة عز الرّبوبية وقهرها.
٢ ـ معرفة ذل العبودية وكسرها.
٣ ـ الإخلاص لله تعالى.
٤ ـ الإنابة إلى الله والإقبال عليه.
٥ ـ التّضرع والدّعاء.
٦ ـ الحلم ممن صدرت منه.
٧ ـ العفو عن جانيها.
٨ ـ الصّبر عليها.
٩ ـ الفرح بها لأجل فوائدها.
١٠ ـ الشّكر عليها.
١١ ـ تمحيصها للذّنوب والخطايا.
١٢ ـ رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم.
١٣ ـ معرفة قدر نعمة العافية والشّكر عليها.
١٤ ـ ما أُعد على هذه الفوائد من ثواب أخروي.

فالله يبتلي عباده بهذه المصائب وغيرها لتظهر طاعتهم وصبرهم ورجوعهم إليه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، الأذى اسم جامع لكلّ ما يحدث به الضّرر، والمراد أنواع ما يقع من أذى على المؤمنين من أعداء الله، سواء كان قولاً أو فعلاً، من الطّعن فيهم، وفي دينهم، وكتابهم ورسولهم، ومخالفتهم، وحربهم وتثبيطهم والإساءة إليهم، وكلّ ذلك من الابتلاء لتظهر تقوى المؤمنين وصبرهم، وليوطّنوا أنفسهم على وقوع ذلك من أعداء الله فيستعدّوا له طائعين منقادين(١).

قال ابن القيّم رحمه الله:

«إنّ البلاء الّذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام. فإنّه إمّا أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحبّ. والّذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، ويتألّمها بدون التّلف. فهذا مجموع ما يبتلي به العبد في الله. وأشدّ هذه الأقسام: المصيبة في النّفس»(٢).

والمصائب بخلاف النّعم، فإنّ النّعم إنّما تكون من فضل الله ومنّه، وأمّا

= ١٥ ـ ما في طيها من الفوائد الخفية. ١٦ ـ أنّها تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتّجبر.
١٧ ـ الرّضا الموجب لرضوان الله. انظر: محاسن التّأويل: ٢/ ٣٢٩ ـ ٣٣٩.

(١) انظر في معنى الآية: جامع البيان: ٧/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥، طبعة: شاكر. الكشّاف: ١/ ٤٨٦، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ٣/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩. التّفسير الكبير: ٩/ ١٢٧ ـ ١٢٩. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٣٠٣. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٥٣. تفسير أبي السّعود: ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤. روح المعاني: ٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨. محاسن التّأويل: ٤/ ١٠٦٠ ـ ١٠٦١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٢٧.

(٢) إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

المصائب إنّما تكون بسبب الذّنوب والمعاصي، إمّا بترك واجب أو فعل محرّم، وكلّ ذلك لا يخرج عن نطاق الابتلاء.

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩].

الّذي عليه عامّة المفسّرين أنّ المراد بالحسنة والسّيّئة: النّعم والمصائب. فبيّن الله ﷻ أنّ الكفّار والمنافقين كانوا إذا أصابتهم نعمة كخصب ورزق من ثمار وأولاد ونتاج وغير ذلك قالوا: هذا من الله لما علم فينا من الخير. وإذا أصابتهم مصيبة كقحط وجدب ونقص في الثّمار والزّروع أو موت أولاد ونتاج وغير ذلك قالوا: هذا من عند محمّد بسبب الدّين الّذي جاء به، تشاؤماً وتطيّراً[(١)].

كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾ [الأعراف: ١٣١]، وعن قوم صالح: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾ [النمل: ٤٧].

وتلك عادة في الكفّار يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان. فبيّن الله لرسوله ﷺ أنّ ما أصابه من نعمة ونقمة كلّ ذلك من عند الله تعالى خلقاً وإيجاداً وتقديراً لأنّ الجميع بقضائه وقدره. ثمّ بيّن له أنّ ما أصابه من نعمة ورخاء وعافية وسلامة فمن فضل الله ونعمته وكرمه ومنّه عليه، وما

---

(١) التّطيّر: من قولك تطَيَّرْت من الشّيء وبالشّيء، والاسم منه الطِّيَرَةُ، بكسر الطّاء وفتح الياء، مثال العِنَبَةِ، وقد تُسَكَّنُ الياءُ، وهو ما يُتشاءمُ به من الفَأْل الرّديء، وأصله فيما يقال: التّطَيُّرُ بالسّوانح والبوارح من الظّبَاءِ والطّيْرِ وغيرهما، وكان ذلك يَصُدُّهم عن مقاصِدِهم فنفَاه الشّرْعُ وأَبْطَلَه ونهى عنه، وأَخْبر أنّه ليس له تأْثِيرٌ في جَلْب نَفْع ولا دَفْع ضَرَر. انظر: لسان العرب: ٤/ ٤١٢. وانظر: مختار الصّحاح، ص٤٠٢. القاموس المحيط، ص٥٥٥.

أصابه من مصيبة وشدّة ومشقّة وأذى ومكروه فبسبب ذنبه وما كسبته يده، وإن كان مقدّراً عليه. والخطاب للنّبي ﷺ والمراد جنس الإنسان.

قال أبو صالح رَحِمَهُ اللهُ[1] عن ما أصاب العبد من المصائب:

«بذنبك وأنا قدّرتها عليك»[2].

فالنّعم من فضل الله والمصائب بسبب الذّنوب، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦].

وقد ذكر النّبي ﷺ بعض المصائب ورتّب وقوعها على فعل بعض الذّنوب، ومع ذلك لا تخرج عن كونها ابتلاء.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تُدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ، حتّى يُعلنوا بها إلّا فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن

---

(١) أبو صالح: هو ذَكْوان السّمان أبو الزّيات التّميمي الغطفاني، المدني الكوفي، مولى جويرية بنت الأحمس، تابعي، ثقة، ثبت، مات سنة ١٠١هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٣٠١، ٦/ ٢٢٦. طبقات خليفة، ص٢٤٨. التّاريخ الكبير: ٣/ ٢٦٠. معرفة الثّقات: ١/ ٣٤٥. الجرح والتّعديل: ٣/ ٤٥٠. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٢١. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٧٥. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٥٦٨. تهذيب الكمال: ٨/ ٥١٣. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٨٩. الكاشف: ١/ ٣٨٦. جامع التّحصيل، ص: ١٧٤. تهذيب التّهذيب: ٣/ ١٨٩. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٠٣.

(٢) جامع البيان: ٨/ ٥٥٩، طبعة: شاكر. وانظر معنى الآيات من سورة النّساء في: المرجع السّابق: ٨/ ٥٥٦ ـ ٥٥٩، طبعة: شاكر. التّفسير الكبير: ١٠/ ١٨٨ ـ ١٨٩. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٩٩ ـ ٨٠٠. روح المعاني: ٥/ ٨٨ ـ ٩٠. محاسن التّأويل: ٥/ ١٤٠٢ ـ ١٤٠٥. مجموع الفتاوى: ٨/ ١١٢ ـ ١١٤. وانظر: ٨/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

مضت في أسلافهم الّذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أخذوا بالسّنين وشدّة المؤونة وجور السّلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا منعوا القطر من السّماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدوّاً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمّتهم بكتاب الله ويتخيّروا ممّا أنزل الله إلّا جعل الله بأسهم بينهم»[1]. وهذا الحديث يؤكّد ما سبق. وفيه تحذير من الوقوع في هذه الذّنوب الجالبة لتلك المصائب.

فابتلاء الله ﷻ لعباده له حكم كثيرة يضيق هذا المقام عن ذكرها. وقد يجهل العبد كثيراً من حقائق الابتلاء وما يترتّب على ذلك من مصالح جمة وفوائد عدّة.

يقول الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من تمام رحمة أرحم الرّاحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنّه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، لكنّ العبد لجهله وظلمه يتّهم ربّه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه... فمن رحمته سبحانه بعباده ابتلاؤهم بالأوامر والنّواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به فهو الغني الحميد، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجوّاد الكريم.

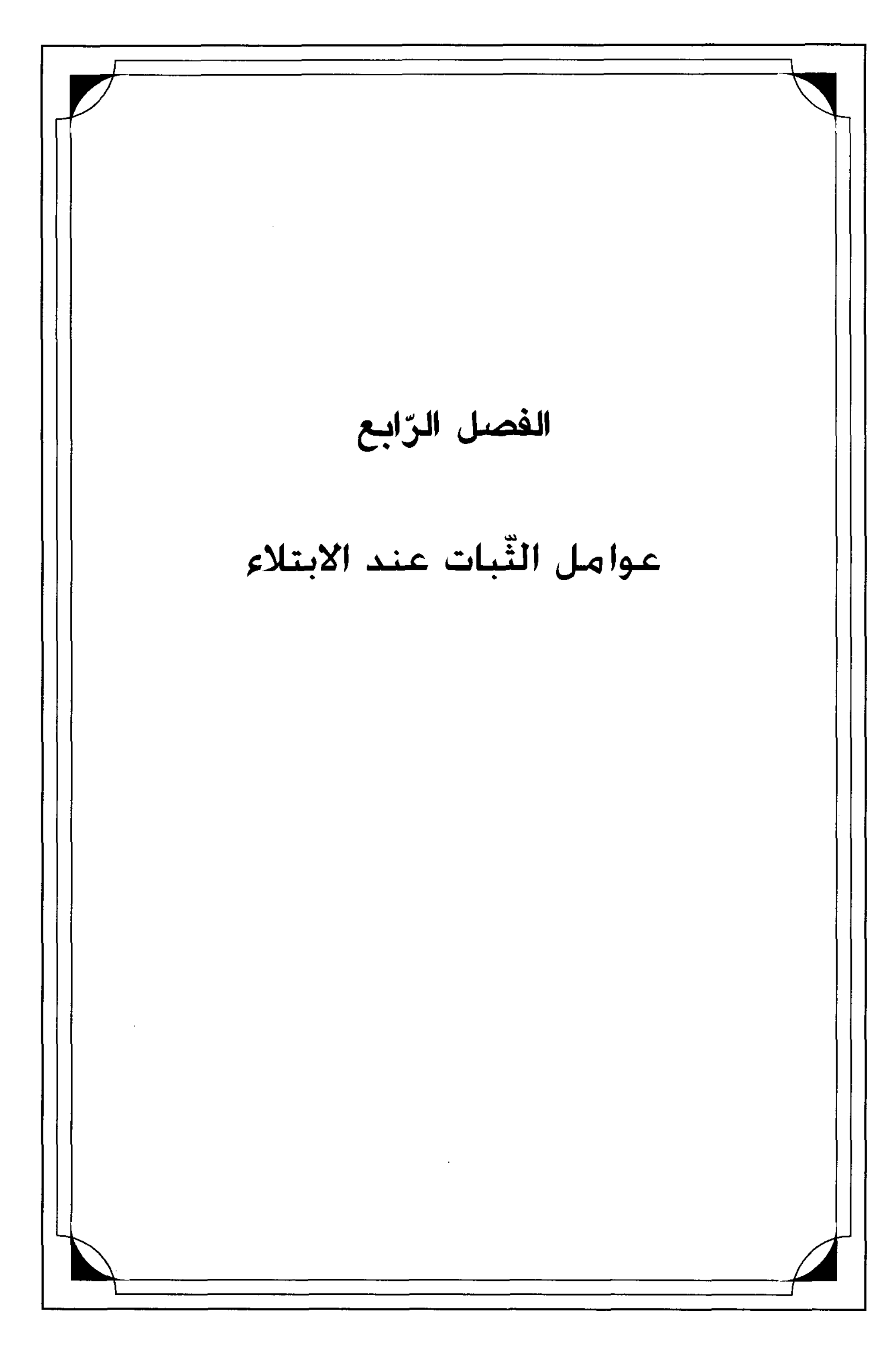
ومن رحمته أن نغّص عليهم الدّنيا وكدّرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنّوا إليها، ويرغبوا في النّعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم»[2].

وهذه عبارات ضافية، وكلمات قيّمة ذيّلت بها هذه الجزئيّة لعظيم وقعها على النّفس، وكبير أثرها على الحس، ألا رحم الله ابن القيّم وأجزل له عظيم المثوبة.

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ١٦٤.

(٢) إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥.



الفصل الرّابع

عوامل الثّبات عند الابتلاء

التمهيد

الابتلاء يظهر حقيقة الإيمان

إنّ الله ﷻ يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ليظهر حقيقة إيمانهم، ويتبيّن صدق الصّادق من كذب الكاذب، وتلك سنّة الله في عباده المؤمنين السّابقين واللّاحقين، فإنّه يمتحنهم بأنواع المحن والبلايا ليظهر ثباتهم على الإيمان ورسوخ أقدامهم فيه. وينكشف الكاذب في دعواه وزعمه، فيبان عواره وتبدو حقيقته للعيان.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

قال الزّمخشري:

«أحسب الّذين أجروا كلمة الشّهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان: أنّهم يتركون بذلك غير ممتحنين؟ بل يمحّنهم الله بضروب المحن، حتّى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحّة عقائدهم، ونصوع نيّاتهم، ليتميّز المخلص من غير المخلص، والرّاسخ في الدّين من المضطّرب، والمتمكّن من العابد على حرف»[1].

ولذلك أنكر الله على قوم من المكذّبين الّذين يدّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، فإذا جاءتهم محنة وبلاء اعتقدوا أنّ ذلك من

---

(١) الكشّاف: ٣/ ٣٤٥، طبعة: الاستقامة. وانظر: جامع البيان: ٢٠/ ١٢٨ ـ ١٢٩، طبعة: الحلبي. معاني القرآن للزّجّاج: ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠. الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٢٤. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٤٤. محاسن التّأويل: ١٣/ ٤٧٣٦ ـ ٤٧٣٧.

عذاب الله ونقمته بهم، فارتدّوا عن الإسلام[1].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠].

روى ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بسنده إلى مجاهد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنّه قال:**

«أناس يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا فجعلوا ذلك في الدّنيا كعذاب الله في الآخرة».

وروى نحوه عن ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والضّحاك[2] وابن زيد رحمهما الله[3].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

فهؤلاء لا يثبت إيمانهم عند الشّدائد، ولا يستقر عند المحن، وإنّما ارتبط إيمانهم بمصالح الدّنيا العاجلة، فإذا فقدوها فقدوا الإيمان.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّ المكلّفين بعد إرسال الرّسل إليهم بين أمرين: إمّا أن يقول أحدهم آمنت، وإمّا أن لا يقول بل يستمر على السّيّئات. فمن قال آمنّا امتحنه الرّب

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٤٦ - ٦٤٧، بتصرّف يسير.

(٢) هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم أو أبو محمّد، الخرساني، اعتنى بعلم القرآن مع لزوم الورع، لم يسمع التّفسير من ابن عبّاس على الرّاجح وإنّما أخذه عن سعيد بن جبير، صدوق كثير الإرسال، قيل: لم يثبت له سماع من أحد من الصّحابة، مات سنة ١٠٥هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٣٠٠. طبقات خليفة، ص:٣١١. التّاريخ الكبير: ٤/ ٣٣٢. الضّعفاء الكبير: ٢/ ٢١٨. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٤٨٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٩٤. الكامل في الضّعفاء: ٤/ ٩٥. تهذيب الكمال: ١٣/ ٢٩١. الكاشف: ١/ ٥٠٩. جامع التّحصيل، ص١٩٩. تهذيب التّهذيب: ٤/ ٣٩٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٨٠. لسان الميزان: ٧/ ٢٤٩.

(٣) جامع البيان: ٢٠/ ١٣٢ - ١٣٣، طبعة: الحلبي.

تعالى وابتلاه لتتحقّق بالإيمان حجّة إيمانه، وثباته عليه، وإنّه ليس بإيمانه عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النّعماء والبلاء. ومن لم يؤمن فلا يحسب أنّه يعجز ربّه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته، وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم ممّا ابتلي به من قال آمنت»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موطن آخر:

«فلا ريب أنّ الإيمان الّذي يثبت على محلّ الابتلاء والعافية هو الإيمان النّافع وقت الحاجة، وأمّا إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنّما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية»[2].

فالله سبحانه قد ابتلى من سبق من الرّسل والمؤمنين بما كلّفهم به وبأنواع البلايا والمحن، فأصابتهم الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والشّدائد والنّوائب وأذى أعداء الله، وبلغ بهم الجهد مبلغه، والشّدّة منتهاها، وأزعجوا إزعاجاً عظيماً، وحرّكوا بالتّخويف والرّعب، حتّى استبطئوا النّصر من الله تعالى مع تيقّنهم بوقوعه، ولكن استعجلوه لمّا بلغ بهم من الشّدّة والعنت وطول البلاء وضيق الحال، ومع ذلك ثبتوا على إيمانهم ثبات الجبال الشّامخة، وظلّوا متمسّكين بدينهم فلم ينحرفوا ولم ينجرفوا حتّى أظلّهم الله بنصره، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وهذه سنّته في عباده المؤمنين الّتي لا تتبدّل ولا تتغيّر. فمن كان مؤمناً فليوطّن نفسه على الابتلاء فإنّه واقع به ولا شك.

قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤][3].

---

(١) شفاء العليل، ص:٢٤٥. وانظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٩٢. الفوائد، ص:٢٠٨.

(٢) طريق الهجرتين، ص:٤١٧.

(٣) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ٤/ ٢٨٨، طبعة: شاكر. الكشّاف: ١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ٦/ ١٩ ـ ٢١. الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٤ ـ ٣٥. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧. تفسير أبي السّعود: ١/ ٢١٥. روح المعاني: ٢/ ١٠٤. محاسن التّأويل: ٣/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢١٤.

وفي الآية دعوة إلى التّأسّي. ومثلها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وفي معناها حديث خبّاب بن الأرتّ ﷺ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بُرْدَةً[١] له في ظلّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل بنصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد فيما دون عظمه ولحمه فما يصرفه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صَنْعَاءَ[٢] إلى حَضْرَمَوتَ[٣] لا يخاف إلّا الله والذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»[٤].

---

(١) بردة: البُرْدة الشّملَةُ المخطَّطة، وقيل: كِساء أسود مُرَبَّع فيه صورٌ تَلْبسه الأعرابُ، وجمعها بُرَدُ. النّهاية في غريب الحديث: ١/١١٦.

(٢) صنعاء: مدينة باليمن معروفة، كان أوّل من نزلها صنعاء بن أزال بن يعير بن عابر فسمّيت به، وقيل: إنّ الحبشة لمّا دخلتها فرأتها مبنية بالحجارة قالوا: صنعة صنعة، وتفسيره بلسانهم: حصينة، فسمّيت بذلك. قال الهمداني: «وقد كانت في الجاهليّة تسمّى أزال»، قال: «وأوّل من نزلها وأسّس قصبتها غمدان بن سام بن نوح فيها تعرف ذريته». معجم ما استعجم: ٣/٨٤٣، وقد أطال ياقوت الحموي في ذكرها والحديث عنها. انظر: معجم البلدان: ٣/٤٢٥ ـ ٤٢٩، وهي عاصمة جمهورية اليمن اليوم.

(٣) حضرموت: بالفتح ثمّ السّكون وفتح الرّاء والميم اسمان مركّبان، والنّسبة إليها حضرمي، والتّصغير حُضَيرموت تصغير الصّدر منهما، وكذلك الجمع، يقال: فلان من الحضارمة مثل المهالبة، وقيل: سمّيت بحاضر ميّت وهو أوّل من نزلها، ثمّ خفف بإسقاط الألف. وقال أبو عبيدة: «حضرموت بن قحطان نزل هذا المكان فسمّي به فهو اسم موضع واسم قبيلة»، وهي ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود ﷺ. معجم البلدان: ٢/٢٦٩ ـ ٢٧٠، بتصرف. وانظر: معجم ما استعجم: ١/٤٥٥.

(٤) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/١١)، باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦١٢)، ص:٧٦٠، وفي كتاب مناقب الأنصار: (٦٣/ ٣٧)، باب ما لقي النّبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة: (٢٩/٨٩)، برقم: ٣٨٥٢)، ص:٨٠٥، وفي كتاب الإكراه: (٨٩/ ٦٤)، باب من اختار الضّرب والقتل والهوان على الكفر: (١/ ٢)، برقم: (٦٩٤٣)، ص:١٤٦٦.

وأمّا اللّفظ أعلاه فهو في: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان في: باب ذكر=

وفي رواية: «وهو متوسّد بردة، وهو في ظلّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة»[1].

يقول سيّد قطب رحمه الله في كلمة قيّمة ضافية حول معنى الآية[2]، أقتطع منها ـ بلفظها ـ ما يناسب المقام لفائدتها:

«هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى، وهكذا وجّهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها، وإلى سنّته سبحانه في تربية عباده المختارين، الّذين يكل إليهم رايته، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته. وهو خطاب مطّرد لكلّ من يختار لهذا الدّور العظيم.

وإنّها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة. إنّ هذا السّؤال من الرّسول والّذين آمنوا معه، من الرّسول الموصول بالله، والمؤمنين الّذين آمنوا بالله. إنّ سؤالهم ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ ليصوّر مدى المحنة الّتي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلّا محنة فوق الوصف، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب. فتبعث منها ذلك السّؤال المكروب: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟.

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة، عندئذ تتمّ كلمة الله، ويجيء النّصر من الله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

إنّه مدّخر لمن يستحقّونه، ولن يستحقّه إلّا الّذين يثبتون حتّى النّهاية، الّذين يثبتون على البأساء والضّرّاء، الّذين يصمدون للزلزلة، الّذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الّذين يستيقنون أن لا نصر إلّا نصر الله، وعندما يشاء الله، وحتّى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلّعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أي حلّ آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلّا من عند الله»[3].

= الإخبار عن أمن النّاس عند ظهور الإسلام في جزائر العرب، برقم: (٦٦٩٨)، ١٥/ ٩١.

(١) هذه الرّواية أوردها البخاري بلفظها ضمن روايته، في كتاب مناقب الأنصار، الموطن السّابق.

(٢) أي آية سورة البقرة السّابقة.

(٣) في ظلال القرآن: ١/ ٢١٨ ـ ٢١٩.

والابتلاء يمحّص قلوب أهل الإيمان، ويخلّصها من الشّوائب المنافية للإيمان وينقّيها ويهذّبها، ويصهر ما فيها من أدران الزّيف والرّياء والشّك والذّنوب، فيرتبط أصحابها بربّهم في الشّدّة والرّخاء، وعند المصائب والنّعم، فلا تتزلزل أقدامهم، ولا تتهاوى قوّتهم، ولا يضعف جنانهم، فهم أكثر النّاس طاعة، وأسرع النّاس استجابة، وأمثلهم انصياعاً، وأثبتهم أقداماً.

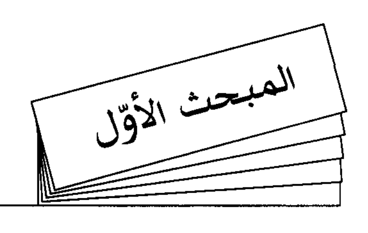
قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤][١].

فالابتلاء كير العبد، ومحكّ إيمانه، يتمحّص به كما يتمحّص الذّهب بالنّار لينصع طيبه ويذوب خبثه، فيخرج تبراً أحمر يثبت في مواطن الثّبات ويرسو عند عظائم البلايا[٢]. وهنالك عوامل تدفع للثّبات عند الابتلاء متى ما تمسّك المؤمن بها وجد فيها إعانة على الثّبات، أتناولها في المباحث الآتية:

---

(١) الآية في سياق غزوة أُحد. وانظر معناها في: جامع البيان: ٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥، طبعة: شاكر. الكشّاف: ١/ ٤٧٣، طبعة: الحلبي. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٢٧. تفسير أبي السّعود: ٢/ ١٠٢. روح المعاني: ٤/ ٩٧ ـ ٩٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٢١. في ظلال القرآن: ١/ ٤٩٧.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥. طريق الهجرتين، ص: ٤١٧. زاد المعاد: ٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.



عامل الثّبات عند الابتلاء بالتّكليف

إنّما يثبت المؤمن عند التّكليف إذا أطاع أمر الله ورسوله، وانصاع انصياعاً كاملاً لذلك، وانقاد انقياداً تامّاً له، واجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، وابتعد عنه كلّ البعد، وحذر من الوقوع فيه.

قال المولى سبحانه في شأن الطّاعات: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

قال ابن جرير رحمه الله:

«﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ يعني: ما يذكّرون به من طاعة الله والانتهاء إلى أمره. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في عاجل دنياهم وآجل معادهم. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ وأثبت لهم في أمورهم، وأقوم لهم عليها»(١).

وقال أبو السّعود رحمه الله:

«﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرّسول وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهراً وباطناً. وسميّت أوامر الله تعالى ونواهيه مواعظ لاقترانهما بالوعد والوعيد. ﴿لَكَانَ﴾ أي فعلهم ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عاجلاً وآجلاً﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم على الإيمان، وأبعد من الاضطّراب فيه. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لثواب أعمالهم»(٢).

---

(١) جامع البيان: ٥/١٦١، طبعة: دار الفكر.

(٢) تفسير أبي السّعود: ٢/١٩٨.

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإنّ الله يثبّت الّذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الّذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبّتهم في الحياة الدّنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنّواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفّقون به لفعل الأوامر وترك الزّواجر الّتي تقتضي النّفس فعلها، وعند حلول المصائب الّتي يكرهها العبد، فيوفّق للتّثبيت بالتّوفيق للصبّر أو للرّضا أو للشّكر. فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثّبات على الدّين عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإنّ العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرّن على الأوامر الشّرعيّة حتّى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثّبات على الطّاعات»[1].

وروى ابن جرير بسنده إلى أبي إسحاق السّبيعي[2] قال:

«لمّا نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الّذي عافانا! فبلغ ذلك النّبي ﷺ فقال: «إنّ من أمّتي لرجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرّواسي»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن، ص: ١٥٠. وانظر: معالم التّنزيل، للحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، تحقيق: خالد العك، مروان سوار: ١/ ٤٤٩. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٧٠. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٩٠ - ٧٩١. فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التفسير، لمحمّد بن عليّ الشّوكاني، طبعة: دار الفكر، بيروت: ١/ ٤٨٥.

(٢) هو عمرو بن عبد الله الهمداني الكوفي أبو إسحاق السّبيعي، مشهور بكنيته، ثقة مكثر عابد حافظ، من أوعية العلم. سمع ثمانية وثلاثين صحابياً، مشهور بالتّدليس، واختلط بأخرة، توفي سنة: ١٢٩هـ، وقيل قبل ذلك.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٣١٣. التّاريخ الكبير: ٦/ ٣٤٧. معرفة الثّقات: ٢/ ١٧٩. الجرح والتّعديل: ٦/ ٢٤٢. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٧٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١١١. التّعديل والتّجريح: ٣/ ٩٧٦. تهذيب الكمال: ٢٢/ ١٠٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١١٤. الكاشف: ٢/ ٨٢. جامع التّحصيل، ص: ٢٤٥. التّبين لأسماء المدلّسين، ص: ١٦٠. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٥٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٢٣. لسان الميزان: ٧/ ٣٢٦، ٤٥١.

(٣) جامع البيان: ٥/ ١٦٠ - ١٦١، طبعة: دار الفكر. =

وقال سبحانه في الإنفاق في سبيله وهو من أجلّ الطّاعات: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يعني بذلك جلّ ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ فيصّدّقون بها، ويحملون عليها في سبيل الله، ويقوّون بها أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وفي غير ذلك من طاعات الله وطلب مرضاته.

يعني بذلك: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: لهم على إنفاق ذلك في طاعة الله وتحقيقاً، من قول القائل: ثبّت فلاناً في هذا الأمر ـ إذا صحّحت عزمه، وحقّقته، وقوّيت فيه رأيه ـ أثبته تثبيتاً، كما قال ابن رواحة:

فثبّت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى، ونصراً كالّذي نصروا

وإنّما عنى الله جلّ وعزّ بذلك: أنّ أنفسهم كانت موقنة مصدّقة بوعد الله إيّاها فيما أنفقت في طاعته بغير منٍّ ولا أذًى، فثبّتهم في إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وصحّح عزمهم وآراءهم يقيناً منها بذلك، وتصديقاً بوعد الله إيّاها ما وعدها. ولذلك قال من قال من أهل التّأويل في قوله: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: وتصديقاً، ومن قال منهم: ويقيناً. لأنّ تثبيت أنفس المنفقين أموالهم ابتغاء أموالهم ابتغاء مرضاة الله إيّاهم إنّما كان عن يقين منها وتصديق بوعد الله... عن الشّعبي: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾قال: وتصديقا من أنفسهم، ثبات ونصرة»[1].

= ذكر السّيوطي أنّ ذلك القول صدر من جماعة من الصّحابة سمّى منهم أبا بكر الصّدّيق وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن رواحة وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً. انظر: الدُّر المنثور، لجلال الدّين السّيوطي، طبعة: دار الفكر، بيروت، سنة الطّبع، ١٩٩٣م: ٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

روى الرّبيع بن حبيب بسنده إلى جابر بن زيد رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «الإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرّواسي على قرارها». مسند الرّبيع، تحقيق: محمّد إدريس، عاشور بن يوسف، طبعة: دار الحكمة، بيروت، مكتبة الاستقامة، سلطنة عُمان، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ص: ٣٧٧، برقم: (٩٩٥). وهذا شاهد لرواية أبي إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) جامع البيان: ٣/ ٦٩، طبعة: دار الفكر. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣١٤ ـ ٣١٧.=

كما بيّن سبحانه أنّ ارتكاب المعاصي يزيح عن الثّبات، ويجرف عن الاستقامة، ويوقع في الزّلل والاضطّراب والحيرة، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل: ٩٤].

قال ابن كثير رحمه الله:

«حذّر تعالى عباده عن اتّخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكراً لئلا تزلّ قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصّد عن سبيل الله، لأنّ الكافر إذا رأى أنّ المؤمن قد عاهده ثمّ غدر به لم يبق له وثوق بالدّين، فانصدّ بسببه عن الدّخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾»[1].

وقال الشّوكاني رحمه الله:

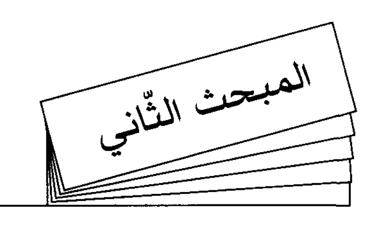
«ومعنى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزلّ قدم من اتّخذ يمينه دخلاً عن محجّة الحقّ بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها. قيل: وأفرد القدم للإيذان بأنّ زلل قدم واحد أي قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شرّ عظيم ويسقط فيه، لأنّ القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ، ويقال لمن أخطأ في شيء زلّت به قدمه»[2].

فترك الطّاعات وارتكاب المعاصي يزلق السّالك عن الثّبات على الحقّ، ويرديه في أودية المهالك، فيصبح أمره في سفال، وشأنه في وبال، فلا يستقيم أمره، ولا يصلح حاله. وإنّما الثّبات يكمن في قيامه بما أمره الله به، وتجنّبه لما نهاه عنه.

= تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٧٦. فتح القدير: ١/ ٢٨٥.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩٠٧.

(٢) فتح القدير: ٣/ ١٩١. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٧٢. تيسير الكريم الرّحمن، ص: ٤٠٠.



عوامل الثّبات عند الابتلاء بالنِّعم

إنّما يثبت العبد عند النّعم حين يبتليه الله بها إذا شكر الله عليها. لأنّ حقيقة الشُّكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبّة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة. إذ الشّكر قيد النّعم الموجودة، وصيد النّعم المفقودة[1].

ولذا قرنه الله بالنّعم في آيات كثر، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: ٧].

ويعينه على شكرها أن يديم تذكّرها عليه، فيعدّد الحالّة به ولا ينس السّالفة عنه، وليعلم أنّها نعم زائلة لا بقاء لها ولا استقرار، ومع ذلك هي مكدّرة بما يعقبها من أضداد.

قال سبحان: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: ١١].

قال السّعدي رحمه الله:

«وهذا يشمل النّعم الدّينيّة والدّنيويّة، أي: اِثن على الله بها، وخصّها بالذّكر، إن كان هناك مصلحة. وإلّا فحدّث بنعم الله على الإطلاق، فإنّ

(١) انظر: مدراج السّالكين: ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

التّحدّث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإنّ القلوب مجبولة على محبّة المحسن»[1].

ويؤيّد ما سبق قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣].

وهذا أمر شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللّسان ثناء، وبالجوارح انقياداً. فإنّ ذكر نعمه تعالى داع لشكره[2].

وينافي شكرها وذكرها أن تؤدّي بالعبد إلى الإعراض عن طاعة الله، والتّلبّس بالمعاصي، والوقوع في الآثام.

وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣].

ويقول ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١﴾ [فصلت: ٥١].

كما ينافي شكرها أن يركن العبد إليها، ويغتر بها حتّى تحمله على البطر[3] والأشر[4]، والفرح المذموم الّذي لا يحبّه الله ولا يحبّ أهله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»[5].

ولا ينهمك في نيلها والوصول إليها بكلّ السبّل ولو كانت محرّمة، ويبالغ في استقصائها. كما يصبر على أداء حقّ الله فيها ولا يضيّعه، فإنّها تسلب منه

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن، ص:٨٥٨.

(٢) المرجع السّابق، ص: ٦٣٠، بتصرّف يسير.

(٣) البَطَرُ: هو شدّة المَرَح والطّغيان عند النّعمة وطول الغنى. انظر: لسان العرب: ٤/ ٦٩. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٥٥ ـ ٥٦. القاموس المحيط، ص:٤٤٩.

(٤) الأَشَرُ: المَرَح. يقال: أَشِرَ الرّجلُ، بالكسر. يَأْشَرُ أَشَراً. فهو أَشِرٌ أَشَراً. فهو أَشِرٌ وأَشُرٌ وأَشْرانٌ: مَرِحَ. وقيل: أَشَدُّ البَطَر. انظر: لسان العرب: ٤/ ٢٠.

(٥) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزهد والرّقائق: (٥٣)، برقم: (٢٩٦٣)، ٤/ ٢٢٧٥.

بضياع حقّ الله فيها، ويصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكن نفسه في كلّ ما تريده منها[1].

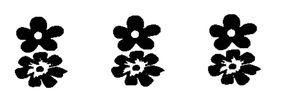
فإنّ النّعم تحتاج من العبد إلى ثبات عندها وصبر كما تحتاج إلى ذلك المصائب والنّقم، بل لعلّ الصبر والثّبات عند النّعم أشدّ على النّفس من الصبّر على المصيبة.

قال عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه:

«ابتلينا مع رسول الله ﷺ بالضّرّاء[2] فصبرنا، ثمّ ابتلينا بالسّرّاء بعده فلم نصبر»[3].

لأنّ الصَّبر على النّعمة مقرون بالقدرة والاختيار بخلاف الصّبر على المصيبة فهي خارجة عن قدرة الإنسان واختياره.

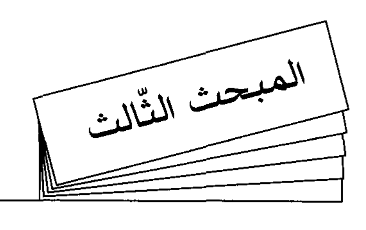
فالمؤمن إذا قام تجاه النّعم بما سبق ذكره أعانه ذلك على الثّبات على الحقّ، وعدم الانزلاق عنه، ولو أعطي من النّعم ما أعطي، ونال منها ما نال، لأنّه علم قدر النّعم عنده، وقدر المنعم بها، فلا تكون سبباً يحيله عن الثّبات أو يصرفه عنه.



(١) وانظر: عدّة الصّابرين، ص:١٠٩.

(٢) الضَّرَّاءُ الحالَةُ الّتي تَضُرُّ وهي نَقيض السّرّاء، وهُما بِناءان للمؤنّث ولا مُذَكَّر لهما. يُريد إنّا اختُبرنا بالفَقْر والشّدّة والعَذاب فصَبَرنا عليه، فلمّا جاءتْنا السّرّاء وهي الدّنيا والسّعَة والرّاحة بَطِرْنا ولم نَصْبر.
النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٨٢.

(٣) سنن التّرمذي: بلفظه في كتاب صفة القيامة: (٣٤)، باب: (٢٨)، برقم: (٢٤٦٤). وقال: «هذا حديث حسن». وقال الألباني رحمه الله: «حسن الإسناد». ص:٤٠٣.
وانظر: دقائق التّفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، تحقيق: محمّد السّيّد الجليند. طبع مطبعة التّقدّم، القاهرة، نشر دار الأنصار. القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦. ففيه كلام قيّم عن الصّبر على النّعم.



عوامل الثّبات عند الابتلاء بالمصائب

وفيه مطالب:

المطلب الأوّل

ملاحظة حسن الجزاء

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

لقد بشّر الله ﷻ الصّابرين الّذين صبروا وثبتوا عند حلول المصائب عليهم ـ إذ الصّبر هو قوة الثّبات ـ بشّرهم بأجر الصّابرين الّذين يوفّون أجرهم بغير حساب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال ﷻ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

فنالوا ذلك الأجر العظيم والثّواب الجسيم بصبرهم وثباتهم عند مداهمة المصيبة لهم، لأنّ ذلك هو الصّبر المطلوب المرغّب فيه الّذي يعظم ثوابه، وذلك عند هجوم المصيبة وحرارتها، لأنّه يكون حينئذ شاقّاً على النّفس صعباً عليها، ولا يقع إلّا من أهل القلوب الثّابتة والعزائم الرّاسخة، وأمّا إذا بردت حرارة المصيبة فكلّ أحد يصبر حينئذ. ولذا قال ﷺ: «إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى»(١).

---

(١) هذا جزء من حديث عن أنس بن مالك ﷺ. وهو في: صحيح البخاري، بلفظه في: =

فلمّا ثبتوا وصبروا تسلّوا حينئذ بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، أي نحن مملوكون لله عبيد له، وهو خالقنا ونحن تحت أمره وتصريفه، فإن ابتلانا بشيء من المصائب فقد تصرّف بعدله وحكمته فلا اعتراض عليه فيما فعل، وسوف نرجع إليه لننال الأجر كاملاً في يوم المعاد.

فهؤلاء الّذين يستحقّون المغفرة من الله والرّحمة، والمدح والثّناء الحسن، والثّواب الجزيل، وهم المهتدون الّذين عرفوا الحقّ وتشبّثوا به[1].

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ:

«نعم العدلان[2] ونعمة العلاوة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان؛ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة»[3]. وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً[4].

= كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب زيارة القبور: (٣١)، برقم: (١٢٨٣)، ص: ٢٧٠. وبلفظ مقارب في الكتاب السّابق، باب الصّبر عند الصّدمة الأولى: (٤٢)، برقم: (١٣٠٢)، ص: ٢٧٤. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/٦٨)، باب ما ذكر أنّ النّبي ﷺ لم يكن له بواب: (١١)، برقم: (٧١٥٤)، ص: ١٥٠٦.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (١١)، باب في الصّبر على المصيبة عند الصّدمة الأولى: (٨)، برقم: (٩٢٦)، ٢/ ٦٣٧.

(١) انظر: معنى الآيات في: جامع البيان: ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٣، طبعة: شاكر. الكشّاف: ١/ ٣٢٣، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ٤/ ١٥١ ـ ١٥٦. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٧. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٩٤. تفسير أبي السّعود: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١. روح المعاني: ٢/ ٢٣. محاسن التّأويل: ٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧. تيسير الكريم الرّحمن، ص: ٥٨ ـ ٥٩. عدّة الصّابرين، ص: ٥٨. زاد المعاد: ٣/ ١٨٩.

(٢) العدل: المثل والنّظير، والعدلان: المتماثلان. انظر: القاموس المحيط، ص: ١٣٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٩٤. والأثر في: صحيح البخاري: بلفظ مقارب ـ معلّقاً ـ في كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب الصّبر عند الصّدمة الأولى: (٤٢)، ص: ٢٧٤.

سنن البيهقي: نحوه في: باب الرّغبة في أن يتعزّى بما أمر الله تعالى به من الصّبر والاسترجاع: ٤/ ٦٥.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٩٦. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه».

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٩٤.

عن أمّ سلمة رضي الله عنها زوج النّبي ﷺ قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهم أجرني في مصيبتي وأخْلِف لي خيراً منها، إلّا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها». قالت: فلمّا توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ»[(١)].

ففي الحديث جزاء الاسترجاع عند المصيبة لمن صبر، وعلاوة على ذلك أن يخلف الله له خيراً ممّا أخذ منه، وهو معضّد لما جاء في الآيات.

قال السّعدي رحمه الله:

«فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النّفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخفّ وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصّبر، وبيان ما يعين على الصّبر، وما للصّابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصّابر بضدّ حال الصّابر، وأنّ هذا الابتلاء والامتحان سنّة الله الّتي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب»[(٢)].

وقال سبحانه في بيان جزاء الابتلاء بالمصائب: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فقد بيّن سبحانه وتعالى أنّ من خرج مجاهداً في سبيل الله، وأصابه من أنواع المشقّة ما أصابه نال الأجر العظيم والثّواب الجزيل.

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الجنائز: (١١)، باب ما يقال عند المصيبة: (٢)، برقم: (٩١٨)، ٢/٦٣٣. وبلفظ مقارب في: ٢/٦٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرّحمن، ص:٥٩.

وقد ذكر سبحانه أنواعاً من المصائب مدلّلاً بها على غيرها، وهي: العطش الشّديد، والإعياء والتّعب، والمجاعة الشّديدة الّتي تضمر البطن، ووضع أحدهم قدمه أو حافر فرسه في موضع يغضب الكفّار ويغيظهم، أو أسرهم لعدوّ أو قتله أو هزيمته. وكلّ ذلك يجلب المشقّة والعنت؛ وهو قربة عند الله تعالى، وأعمال صالحة تجلب عظيم الأجر والمثوبة(١).

وهذه المصائب وقعت آثاراً ونتيجة لعمل العبد، وناشئة عن فعله، ومع ذلك يثاب بالصّبر عليها الثّواب العظيم الّذي هو أعظم من الثّواب النّاتج من الصّبر على المصائب الّتي لم تقع أثراً لأعماله كالمرض. لأنّ الأولى وقعت نتيجة لأفعال تمّت بمراد العبد طاعة لله ومن أجل مرضاته، وأمّا الثّانية فوقعت بغير مراد العبد(٢).

وأمّا الأحاديث الّتي ورد فيها إثبات الجزاء لمن ثبت عند الابتلاء بالمصائب كثيرة جداً منها:

حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يودّ أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثّواب لو أنّ جلودهم كانت قرضت في الدّنيا بالمقاريض»(٣).

---

(١) انظر: معنى الآيات في: جامع البيان: ١١/ ٦٤ ـ ٦٦، طبعة: الحلبي. التّفسير الكبير: ١٦/ ٢٢٤. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٩٠ ـ ٢٩١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٢٠. روح المعاني: ١١/ ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٢٢ ـ ١٢٤.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب: (٥٩)، برقم: (٢٤٠٢)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلّا من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٣٩٣، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٥/ ٢٤٠، برقم: (٢٢٠٦). ومشكاة المصابيح، لمحمّد بن عبد الله الخطيب التّبريزي، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م: ١/ ٤٩٤، برقم: (١٥٧٠).

سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع والأحزان لما فيها من الكفّارات والدّرجات: ٣/ ٣٧٥. المعجم الصّغير: بلفظ مقارب في: ١/ ١٥٦، برقم: (٢٤١). =

وحديث أنس رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السّخط»[1].

وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلّا أمر الله عز وجل الحفظة الّذين يحفظونه: اكتبوا لعبدي مثل ما كان يعمل وهو صحيح ما دام محبوساً في وثاقي»[2].

كما وردت أحاديث في جزاء من ابتلي بمصائب معيّنة من ذلك:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النّبي ﷺ يقول: «إنّ الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوّضته منهما الجنّة». يريد عينيه[3].

= وفي الكبير نحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه في: ٩/ ١٥٥، برقم: (٨٧٧٧، ٨٧٧٨).

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في الصّبر على البلاء: (٥٧)، برقم: (٢٣٩٦). وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٣٩٣.
سنن ابن ماجه: بلفظه - إلا أحرف يسيرة - في كتاب الفتن: (٣٦). باب الصّبر على البلاء: (٢٣)، برقم: (٤٠٣١). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٤٣٤، وهو في: السّلسلة الصّحيحة: ١/ ٢٢٧، برقم: (١٤٦). ومشكاة المصابيح: (١/ ٤٩٣)، برقم: (١٥٦٦).

(٢) سنن أبي داود، بمعناه عن أبي موسى رضي الله عنه. كتاب الجنائز: (٢٠)، باب إذا كان الرّجل يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر، برقم: (٣٠٩١). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٣٥٠.
سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في باب المرض كفّارة: ٢/ ٤٠٧.
مسند أحمد: بلفظه في: ٢/ ١٩٤. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيحان». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١/ ٦٥ - ٦٦، برقم: (٦٨٢٥)، وبلفظ مقارب في: ٢/ ١٥٩. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٩/ ١٩٦ - ١٩٧، برقم: (٦٤٨٢).

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب فضل من ذهب بصره: (٧)، برقم: (٥٦٥٣)، ص: ١٢٢٩.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «والمراد بالحبيبتين المحبوبتان لأنّهما أحبّ أعضاء الإنسان إليه، لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسرّ به، أو شرّ فيجتنبه». فتح الباري: ١٠/ ١١٦، طبعة: دار المعرفة.

وحديث عائشة ﵂ أنّ النّبي ﷺ قال: «من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهنّ كنّ له ستراً من النّار»[1].

والمراد بما سبق أنّ المبتلى إذا نظر إلى جزاء بلائه في الآخرة أعانه ذلك على الصّبر عليه والثّبات عنده.

ولذا قال ابن القيّم ﵀:

«وعلى حسب ملاحظته ـ أي حسن الجزاء ـ والوثوق به ومطالعته يخفّ حمل البلاء، لشهود العوض، وهذا كما يخفّ على كلّ متحمّل مشقّة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذّة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطّلت مصالح الدّنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمّل مشقّة عاجلة إلّا لثمرة مؤجّلة، فالنّفس موكلة بحبّ العاجل، وإنّما خاصّة العقل تلمح العواقب، ومطالعة الغايات»[2].

المطلب الثّاني

حطّ الذّنوب وتكفير السّيئات

من نعم الله ﷻ على عباده المؤمنين ورحمته بهم أن جعل ما يصيبهم من المصائب والشّدائد مكفّراً لما وقع منهم من معاصي وذنوب.

---

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة، والقليل من الصّدقة: (١٠/٩)، برقم: (١٤١٨)، ص:٢٩٩. وفي: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته: (١٨)، برقم: (٥٩٩٥)، ص:١٢٨٨.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب فضل الإحسان إلى البنات: (٤٦)، برقم: (٢٦٢٩)، ٢٠٢٧/٤.
قال ابن بطّال ﵀: «إنّما سمّاه ابتلاء لأنّ النّاس يكرهون البنات، فجاء الشّرع بزجرهم عن ذلك، ورغّب في إبقائهنّ وترك قتلهنّ بما ذكر من الثّواب الموعود به من أحسن إليهنّ، وجاهد في نفسه في الصّبر عليهن». نقلاً عن فتح الباري: ٣٩/١٢.
وانظر: النّووي على مسلم: ١٧٩/١٦.

(٢) مدارج السّالكين: ١٦٦/٢.

والمراد بتكفير الذّنوب هو سترها، أو محو أثرها المترتّب عليها من استحقاق العقوبة[1].

قال ﷻ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

قال ابن بطّال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ذهب أكثر أهل التّأويل إلى أنّ معنى الآية أنّ المسلم يجازى على خطاياه في الدّنيا بالمصائب الّتي تقع له فيها فتكون كفّارة لها»[2].

ولذا عقد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ **باباً في كتاب المرضى، فقال:**

«باب ما جاء في كفّارة المرض. وقوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[3]». فهو يرى أنّ الآية دليل على كفّارة الذّنوب بالمصائب.

ويؤيّد ذلك ما ورد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لمّا نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدّدوا، ففي كلّ ما يصاب به المسلم كفّارة حتّى النّكْبَة يُنْكَبُها[4]، أو الشّوكة يُشَاكُها[5]»[6].

وقد ورد كثير من الأحاديث الّتي تفيد تكفير الذّنوب بالابتلاء بالمصائب، من ذلك:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ[7]ولا وَصَبٍ[8] ولا همٍّ ولا حُزْن ولا أذى ولا غمٍّ حتّى الشّوكة يشاكها

---

(١) انظر: فتح الباري: ١٠/١٠٩، طبعة: دار المعرفة.

(٢) نقلاً عن المرجع السّابق: ١٠/١٠٤، طبعة: دار المعرفة.

(٣) صحيح البخاري، ص:١٢٢٧.

(٤) النّكْبَة: هي ما يصيب الإنسان من الحوادث. النّهاية في غريب الحديث: ٥/١١٣.

(٥) أي أصابته شوكة في جسده ودخلت فيه. انظر: لسان العرب: ١٠/٤٥٣

(٦) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤): برقم: (٢٥٧٤)، ٤/١٩٩٣.

(٧) النّصَبُ: التّعَبُ، وقد نَصِبَ يَنْصَبُ ونَصَبَه غيرُه وأنصبَه. النّهاية في غريب الحديث: ٥/٦٢.

(٨) الوَصَب: دَوَام الوَجَع وَلُزومه. وقد يطلق على التّعَب والفُتور في البدن. =

إلّا كفّر الله بها من خطاياه»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلّا حطّ الله سيئاته كما تحطّ الشّجرة ورقها»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلّا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»(٣).

وعن يحيى بن سعيد رحمه الله(٤) أنّ رجلاً جاءه الموت في زمان

= انظر: المرجع السّابق: ٥/ ١٨٩.

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب ما جاء في كفّارة المرض وقول الله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: ١٢٣]: (١)، برقم: (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ص: ١٢٢٧.

صحيح مسلم، نحوه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤)، برقم: (٢٥٧٣): ٤/ ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه إلّا أحرف يسيرة في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب وضع اليد على المريض: (١٣)، برقم: (٥٦٦٠)، ص: ١٢٣١. وفي باب قول المريض: إنّي وجع، أو وارأساه، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦)، برقم: (٥٦٦٧)، ص: ١٢٣٢، ونحوه في: باب شدّة المرض: (٢)، برقم: (٥٦٤٧)، ص: ١٢٢٨. وفي باب أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الأوّل فالأوّل: (٣)، برقم: (٥٦٤٨)، ص: ١٢٢٨. وفي باب ما يقال للمريض ويجيب: (١٤)، برقم: (٥٦٦١)، ص: ١٢٢٩.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤)، برقم: (٢٥٧١)، ٤/ ١٩٩١.

قال العيني رحمه الله: «حاصل المعنى أنّ المرض إذا اشتدّ ضاعف الأجر، ثمّ زاد عليه أنّ المضاعفة تنتهي إلى أن تحطّ السّيئات كلّها». عمدة القارئ: ٢١/ ٢١٢.

(٣) صحيح مسلم، بلفظ في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤)، برقم: (٢٥٧٢)، ٤/ ١٩٩١.

(٤) هو يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو أبو سعيد الأنصاري، قاضي المدينة، ثمّ قاضي العراق لأبي جعفر المنصور. تابعي صغير مشهور، سمع أنس بن مالك رضي الله عنه، حافظ=

رسول الله ﷺ، فقال رجل: هنيئاً له، مات ولم يُبتل بمرض، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، وما يدريك لو أنّ الله ابتلاه بمرض يكفّر به من سيئاته»[1].

فقد غبط الرّجل من مات ولم يبتل بمرض، غبطه بسلامته من الأمراض، فأنكر عليه النّبي ﷺ ذلك مبيّناً له أنّ إصابته بالمرض الّذي يكفّر سيئاته أفضل من سلامته من الأمراض مع بقاء سيئاته[2].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكلّ مؤمن، لأنّ الآدمي لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو همّ أو نحو ذلك ممّا ذكر، وأنّ الأمراض والأوجاع والآلام ـ بدنيّة كانت أو قلبيّة ـ تكفّر ذنوب من تقع له»[3].

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم: هل الابتلاء بالمصائب يكفّر الذّنوب فقط أم يقع الأجر مع التّكفير؟ وهل الأجر يقع بمجرد حصول المصيبة أمّ بالصّبر عليها؟.

نقل النّووي رحمه الله عن القاضي عياض رحمه الله فيما حكاه عن بعضهم: أنّ المصائب تكفّر الخطايا فقط، ولا ترفع درجة ولا تكتب حسنة[4].

= فقيه ثقة ثبت متقن، من أهل الصّلاح، مات سنة ١٤٣هـ وقيل: بعدها.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٨/ ٢٧٥. معرفة الثّقات: ٢/ ٣٥٢. الجرح والتّعديل: ٩/ ١٤٧. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٥٢١. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٠. تهذيب الكمال: ٣٠/ ٣٤٦. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٣٧. الكاشف: ٢/ ٣٦٦. تهذيب التّهذيب: ١١/ ١٩٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٩١.

(١) موطّأ مالك: كتاب العين: (٥٠)، باب ما جاء في أجر المريض: (٣)، برقم (٨)، ٢/ ٩٤٢، ورجاله ثقات.

(٢) انظر: كتاب المنتقى شرح موطّأ إمام دار الهجرة، للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي، الطّبعة الأولى، ١٣٣٢هـ، مطبعة السّعادة بمصر: ٧/ ٢٥٩.

(٣) فتح الباري: ١٠/ ١٠٨، طبعة: دار المعرفة.

(٤) شرح النّووي: ١٦/ ١٢٨ ـ ١٢٩، ومن يرى هذا المذهب الشّيخ عز الدّين بن عبد السّلام رحمه الله. فتح الباري: ١٠/ ١٠٥، طبعة: دار المعرفة.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تفصيل في ذلك. فهو يرى أنّ المصائب الّتي تجري بغير اختيار العبد كالمرض وموت العزيز تكفّر الخطايا فقط، ولا يؤجر الإنسان عليها إلّا بالصّبر. وأمّا المصائب الّتي تنتج باختيار العبد كالمصائب الّتي تقع للمجاهد في سبيل الله بأيدي الأعداء فإنّه يؤجر عليها إضافة إلى تكفير الذّنوب، وبالصّبر معها يعظم أجره[1].

وبيّن الحافظ ابن حجر رحمه الله أنّ الأحاديث صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة، وأمّا الصّبر والرّضا فقدر زائد يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة[2]، ثم قال:

«والتّحقيق أنّ المصيبة كفّارة لذنب يوازيها، وبالرّضا يؤجر على ذلك، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوّض عن ذلك من الثّواب بما يوازيه»[3].

وهو توجيه حسن ولكن يعوزه الدّليل.

والقصد هنا أنّ المؤمن الّذي ابتلي بالمصائب إذا علم أنّ في ذلك تكفيراً لخطاياه ومحواً لذنوبه أعانه ذلك على الصّبر والثّبات عند الابتلاء.

ولهذا السبب كان أهل الإيمان كثيري الابتلاء بالمصائب دون أهل الكفر والنّفاق، لأنّ الله سبحانه يكفّر عنهم بذلك ذنوبهم، ويحطّ عنهم خطاياهم، ويرفع لهم درجاتهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزّرع، لا تزال الرّيح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرْز[4] لا تهتز حتّى تستحصد»[5].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٢٤، ١٤/ ٢٥٥.

(٢) انظر: فتح الباري: ١٠/ ١٠٥، طبعة: دار المعرفة، وعلى هذا القول جماهير العلماء وهو الّذي ارتضاه الإمام النّووي رحمه الله. انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) فتح الباري: ١٠/ ١٠٥، طبعة: دار المعرفة.

(٤) الأرز: بتسكين الرّاء، وهو شجر معروف بالشّام، واحدتها أرزة. انظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ١١٨.

(٥) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩). باب ما جاء في كفّارة=

وفي رواية: «مثل المؤمن كمثل خامة الزّرع يفيء ورقه من حيث أتتها الرّيح تُكَفِّئُها فإذا سكنت اعتدلت. وكذلك المؤمن يُكَفَّأ[1] بالبلاء. ومثل الكافر كمثل الأَرْزَة صمّاء معتدلة حتّى يقصمها الله إذا شاء»[2].

قال الإمام النّووي رحمه الله:

«قال العلماء: معنى الحديث أنّ المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله، وذلك مكفّر لسيئاته ورافع لدرجاته، وأمّا الكافر فقليلها، وإن وقع به شيء لو يكفّر شيئاً من سيئاته بل يأتي بها يوم القيامة كاملة»[3].

ويؤيّد هذا المعنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآخر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتّى يلقى الله وما عليه خطيئة»[4].

= المرض: (١)، برقم: (٥٦٤٣)، عن كعب بن مالك رضي الله عنه، وبرقم: (٥٦٤٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص:١٢٢٧.
صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠)، باب مثل المؤمن كالزّرع ومثل الكافر كشجرة الأرز: (١٤)، برقم: (٢٨٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه برقم: (٢٨١٠)، عن كعب رضي الله عنه: ٤/ ٢١٦٣ ـ ٢١٦٤.

(١) أي يميله ويقلبه. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٨٢.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، برقم: (٧٤٦٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص:١٥٦٨.

(٣) شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ١٥٣.
شبّه المؤمن بالخامة الّتي تميلها الرّيح لأنّه مُرَزأ ـ أي مصاب، من الرزيئة وهي المصيبة ـ في نفسه وأهله وماله وولده، وأمّا الكافر فمثل الأرزة الّتي لا تميلها الرّيح، والكافر لا يرزأ شيئاً حتّى يموت فإن رزئ لا يؤجر عليه، فشبّه موته بانجعاف تلك حتّى يلقى الله بذنوبه جمّة. غريب الحديث للهروي: ١/ ١١٨. وانظر معناه في: فتح الباري: ١٠/ ١٠٦ ـ ١٠٨، طبعة دار المعرفة. عمدة القارئ: ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٤) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في الصّبر على البلاء: (٥٧)، برقم: (٢٣٩٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص:٣٩٣، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٥/ ٣٤٩، برقم: (٢٢٨٠).
موطّأ مالك، نحوه في: كتاب الجنائز: (١٦)، باب الحسبة في المصيبة: (١٣)، برقم: (٤٠)، ١/ ٢٣٦. =

المطلب الثّالث

الإيمان بقدر الله السّابق

قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

يخبر الله ﷻ أنّ ما يصيب العباد من بلاء في الأرض، كالقحط وقلّة النّبات والثّمار وغلاء الأسعار. وما يصيب الأنفس: كالأوصاب والأسقام وذهاب الأحباب، كلّ ذلك بقدر الله السّابق الّذي قدّره قبل أن يخلق الأنفس، أو المصيبة أو الأرض أو مجموع ذلك ـ وهوالأحسن ـ حتّى لا يحزن عباده بما أصابهم من النّقم وفوات النّعم، ولا يفرحوا بما أعطاهم من نعم الدّنيا فيتخذونها أشراً وبطراً ويفخرون بها على النّاس، فإنّها كلّها بقدر الله، وكلّها ذاهبة[1].

= سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه: ٣/ ٣٧٤. مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٨٧، ٤٥٠. وفي مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر، برقم: (٧٨٤٦)، (٩٨١٠)، قال أحمد شاكر ﵀: «إسناده صحيح»: ١٤/ ٢٤٧، ١٩/ ٤٢.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: ذكر البيان بأنّ تواتر البلايا على المسلم قد لا تبغي عليه سيئة يناقش عليها في العقبة، برقم: (٢٩١٣)، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ٧/ ١٧٦.

وفي باب ذكر البيان بأنّ البلايا بالمرء قد تحطّ خطاياه بها، برقم: (٢٩٢٤)، ٧/ ١٨٧. مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٤٩٧. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شاهد صحيح»، وفي: ٤/ ٣٥٠. وقال الذّهبي ﵀: «على شرط مسلم».

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ١٠/ ٣١٩، برقم: (٥٩١٢)، قال المحقّق: «إسناده حسن». وفي: ١٠/ ٤٠٦، برقم: (٦٠١٢).

وانظر معناه في: تحفة الأحوذي: ٧/ ٦٧ ـ ٦٨.

(١) انظر: معنى الآية في: جامع البيان: ٢٧/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥، طبعة: الحلبي. التفسير الكبير: ٢٩/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧. الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠. شفاء العليل، ص: ١٩٤.

وقال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [التغابن: ١١].

يبيّن الله ﷻ أنّه لا أحد من الخلق يبتلى بمصيبة إلّا كان ذلك بمشيئة الله وتقديره. فمن أصيب بمصيبة فآمن بالله واستسلم له وانقاد، وعلم أنّ ذلك بقضائه وقدره فصبر واحتسب هدى الله قلبه وقذف فيه اليقين والثّبات[1].

روى ابن جرير رحمه الله بسنده إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: «يهد قلبه لليقين، فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

وروى عن عَلْقَمة[2] أنّه قال: «هو الرّجل تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيسلّم لها ويرضى»[3].

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للصبّر والرّضا، وقيل: يثبّته على الإيمان»[4].

فالمؤمن عليه أن ينظر إلى المصائب بعين القدر، وأنّها مكتوبة عليه لا بد له منها، وأنّ ذلك اختيار الله له وتقديره.

---

(١) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ٢٨/١٢٣، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ١٤/ ٤٨٠. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٣٩. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧.

(٢) هو علقمة بن قيس بن عبد الله. أبو شبل النّخعي الكوفي، التّابعي الجليل، أدرك الجاهليّة والإسلام فهو مخضرم، لازم ابن مسعود رضي الله عنه وكان من أنبل أصحابه، ثقة ثبت فقيه عابد ورع، مات بعد سنة ٦٠هـ، وقيل: بعد سنة ٧٠هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٨٦. طبقات خليفة، ص:١٤٧. التّاريخ الكبير: ٧/ ٤١. معرفة الثّقات: ٢/ ١٤٥. الجرح والتّعديل: ٦/ ٤٠٤. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٢٠٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٠٠. تاريخ بغداد: ١٢/ ٢٩٦. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠١٥. تهذيب الكمال: ٢٠/ ٣٠٠. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٤٨. الكاشف: ٢/ ٣٤. جامع التّحصيل، ص:٢٤٠. الإصابة: ٥/ ١٣٦. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٢٤٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٩٧.

(٣) جامع البيان: ٢٨/ ١٢٣، طبعة الحلبي، وأثر ابن عباس رضي الله عنهما، أورده البخاري في صحيحه بمعناه في: كتب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، سورة التّغابن: (٦٤)، ص:١٠٧١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٣٩.

واختياره سبحانه لعبده المؤمن خير من اختيار المؤمن لنفسه، لأنّه سبحانه أعلم بمصلحة المؤمن من نفسه، وهو لا يقضي له قضاء إلّا كان خيراً له.

كما قال النّبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّه خير، وليس ذاك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»[1].

فالله سبحانه إذا أراد بعبده المؤمن خيراً ابتلاه بالمصائب فتكون خيراً له من عدمها.

عن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه»[2].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدّنيا، وإذا أراد الله بعبده الشّر أمسك عنه بذنبه حتّى يوافي به يوم القيامة»[3].

فالمصيبة قد تكون في نفسها مكروهة للعبد المؤمن نظراً لما يتأذّى من ذلك، ولكنّها تكون محبوبة مرضية من وجه آخر، وذلك بالنّظر لحكمة الله

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣)، باب المؤمن أمره كلّه له خير: (١٣)، برقم: (٢٩٩٩) عن صهيب ﷺ: (٤/ ٢٢٩٥). وانظر: فتح الباري: ١٠٩/١٠، طبعة: دار المعرفة. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٤.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب ما جاء في كفّارة المرض: (١)، برقم: (٥٦٤٥)، ص:١٢٢٨.
وانظر في معنى الحديث: فتح الباري: ١٠٨/١٠، طبعة: دار المعرفة، عمدة القارئ: ٢١١/٢١. شرح موطّأ الإمام مالك لأبي عبد الله محمّد بن عبد الباقي الزّرقاني، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ، ٤/ ٤١٤.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في الصّبر على البلاء: (٥٧)، برقم: (٢٣٩٦). وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وقال الألباني ﷺ: «حسن صحيح»، ص:٣٩٣، وهو في: السّلسلة الصّحيحة: ٣/ ٢٢٠، برقم: (١٢٢٠). ومشكاة المصابيح: ١/ ٤٩٣، برقم: (١٥٦٥).
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٦٥١.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٧/ ٢٤٧، برقم (٤٢٥٤).

وقضائه لها، وما تضمنته من خير لذاك المؤمن[1].

والقصد هنا أنّ إيمان المؤمن بقضاء الله وقدّره فيما قدّره عليه من مصائب يعينه على الثّبات عند تلك المصائب، لأنّها حينئذ تهون عليه، ويخفّ وقعها، ويسهل أمرها على قلبه فيثبت ويصبر[2].

المطلب الرّابع

ملاحظة العواقب المحمودة

إنّ الابتلاء بالمصيبة قد يكون نعمة، وذلك إذا نظر العبد إلى العواقب الحسنة المترتّبة على الثّبات والصبّر عليها.

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥٠ ـ ٥٢].

فهذا وصف للمنافقين الّذين كان يسوءهم ما يصيب النّبي ﷺ والمؤمنين من حسنة ونعمة، ويفرحهم ما يصيبهم من مصيبة ونقمة، زاعمين أنّهم لم يصابوا مع من أصيب لحذرهم ويقظتهم وتعقّلهم. فأرشد الله رسوله إلى أن يجيبهم بأنّ ما أصابه والمؤمنين بقدر الله وقضائه، وأنّه نعمة من نعم الله عليهم أي ذلك كان: فإمّا أن نظفر بالعدوّ فننال الأجر والغنيمة والسّلامة، وإمّا أن نقتل بأيديهم فننال الشّهادة في سبيل الله، والفوز بالجنّة، والنّجاة من النّار. وكذلك أمر محبوب لا يكره، وهو نعمة[3].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٢.

(٢) هنا أمر تعرّض له أهل العلم وهو: هل الرّضا بما يقدّره الله على المؤمن من مصائب لا اختيار له فيها واجب عليه كالصّبر عليها أم هو مستحبّ؟ خلاف بين العلماء، والّذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم رحمهما الله، أنّه مستحبّ وليس بواجب، وللمزيد انظر: مجموع الفتاوى: ٨/ ١٩١. مدارج السّالكين.

(٣) انظر في معنى الآيات: جامع البيان: ١٠/ ١٥٠ ـ ١٥١، طبعة: الحلبي. المحرر=

ولكن كيف تصير المصيبة نعمة؟

قال شُرَيح رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

«ما أصيب عبد بمصيبة إلّا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألّا تكون كانت في دينه، وألّا تكون أعظم ممّا كانت، وأنّها لا بد كائنة فقد كانت»[2].

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«البلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهم بالإضافة إلى ما هو أكثر منه: إمّا في الدّنيا أو في الدّين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثّواب»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ما يصيب الإنسان، إن كان يسرّه: فهو نعمة بيّنة، وإن كان يسوءه: فهو نعمة من جهة أنّه يكفّر خطاياه، ويثاب بالصبّر عليه. ومن جهة أنّ فيه حكمة ورحمة لا يعلمها: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]»[4].

من نظر إلى مصيبته يجد أن الله أبقى له أفضل منها أو مثلها، ولو شاء سبحانه أن يصيبه بأعظم منها في الدّنيا لفعل، ويمكن أن تكون في دينه، وذلك

= الوجيز: ٦/٥١٧. التّفسير الكبير: ١٦/٨٤ ـ ٨٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/٥٦٤ ـ ٥٦٥. روح المعاني: ١٠/١١٤ ـ ١١٦. محاسن التّأويل: ٨/٣١٧٢ ـ ٣١٧٣.

(١) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم، أبو أميّة الكندي الكوفي، تابعي مخضرم، ثقة فقيه مشهور، وقيل: له صحبة ولم تثبت، تولّى قضاء الكوفة لعمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مات سنة ٧٨هـ، وقيل: بعدها، ويقال: عاش ١٢٠ سنة.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/١٣١. طبقات خليفة، ص:١٤٥. التّاريخ الكبير: ٤/٢٢٨. معرفة الثّقات: ١/٤٥١. الجرح والتّعديل: ٤/٣٣٢. ثقات ابن حبّان: ٤/٣٥٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/٩٩. تهذيب الكمال: ١٢/٤٣٥. تذكرة الحفّاظ: ١/٥٩. الكاشف: ١/٤٨٣. جامع التّحصيل، ص:١٩٥. الإصابة: ٣/٣٣٤. تهذيب التّهذيب: ٤/٢٨٧. تقريب التّهذيب: ١/٢٦٥.

(٢) عدّة الصّابرين، ص:١٠٠.

(٣) إحياء علوم الدّين، لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، نشر مؤسّسة الحلبي وشركاه، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م، ٤/١٦٧. وانظر: ٤/١٦٠.

(٤) مجموع الفتاوى: ٨/٢١٠. وانظر: ١٤/٣٠٦.

أعظم بلاء وأشدّ، فعليه بالشّكر والصّبر[1].

الابتلاء بالمصائب دواء لكثير من الأمراض والأخلاط الفاسدة كالكبر العجب وقسوة القلب، فالله يرحم عباده بالمصائب كي لا يطغوا ولا يبغوا، فيشفيهم بها ويهذّبهم ويطهّرهم وينقّيهم ليشرّفهم بأعلى المراتب وأعظم الثّواب[2].

لو فتّش المصاب حوله لم ير في العالم إلّا مبتلى بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن بلاء الدّنيا لا يدوم بل هو منقطع في العاجل أو الآجل، فالصّبر عليه أهون من بلاء الآخرة السّرمدي[3] الّذي لا ينقطع. فالفرق بينهما شاسع والبون بينهما كبير[4].

إنّ الله سبحانه هيّأ منازل لعباده المؤمنين في الجنّة لم تبلغها أعمالهم، فقيّض لهم من الأسباب ما يوصلهم إليها، فابتلاهم بالمحن ليبلغوا تلك المنازل[5].

قال رسول الله ﷺ: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله، أو في ولده، ثمّ صبّره حتّى يبلّغه المنزلة الّتي سبقت له منه»[6].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدّين: ٤/ ١٦٠. زاد المعاد: ٤/ ١٩٠.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٤٧. زاد المعاد: ٣/ ٢٢١، ٤/ ١٩٥.

(٣) السّرْمَد دوام الزّمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل، وفي التّنزيل العزيز: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ [القصص: ٧٢]. أ: دائماً لا ينقطع. انظر: لسان العرب: ٣/ ٢١٢.

(٤) انظر: إحياء علوم الدّين: ٤/ ١٦١. شفاء العليل، ص:٢٤٦. زاد المعاد: ٤/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٥) انظر: المرجع السّابق: ٣/ ٢٢١.

(٦) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٠). باب الأمراض المكفّرة للذّنوب: (١)، برقم (٣٠٩٠). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:٣٥٠، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه، ٣/ ٣٧٤. =

قال ابن القيّم رحمه الله:

«وإذا تأمّلت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النّهايات، الّتي لم يكونوا يعبرون إليها إلّا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الّذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنّة إلّا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقّهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه في الرّحمة والنّعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان»[1].

وهذه عبارات رصينة، جمعت بين حسن المعنى وجودة السَّبك.

فهذه العواقب المحمودة وغيرها الكثير متى ما استحضرها المسلم عند ابتلائه وجد فيها خير معين وأبلغ مساعد على صبره وثباته.

ولا يفهم ممّا سبق أنّ المسلم يتمنّى الابتلاء بالمصائب ويتعرّض له لما يرى فيه من الأجر والثّواب، لأنّ العافية خير من البلاء بالمصيبة، وأسلم للمسلم منه.

ولذا كان الرّسول ﷺ يتعوّذ من جهد البلاء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من جهد البلاء، ودَرَك الشّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»[2].

= مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٢٧٢. مسند أبي يعلي، بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٢٤، برقم: (٩٢٣).

(١) مفتاح دار السّعادة، ص:١/ ٢٩٩، وللمزيد من الوقوف على عوامل الثّبات عند الابتلاء فانظر: إحياء علوم الدّين: ٤/ ٩٠ ـ ٩٣، ٤/ ١٥٨ ـ ١٦٩. زاد المعاد: ٤/ ١٨٨ ـ ١٩٦. شفاء العليل، ص:٣٤ ـ ٣٥، ١٩٤ ـ ١٩٥، ٢٤٤ ـ ٢٤٨. فتح الباري: ١٠/ ١٠٤ فما بعدها، طبعة: دار المعرفة.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب التّعوّذ من جهد البلاء: (٢٨)، برقم: (٦٣٤٧)، ص:١٣٥٤. وفي كتاب القدر: (٨٢/ ٥٦). باب من تعوّذ بالله من درك الشّقاء وسوء القضاء: (١٣)، برقم: (٦٦١٦)، ص:١٤٠٢، ولفظه: «تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء». صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨). باب التّعوّذ من سوء القضاء ودرك الشّقاء وغيره: (١٦)، برقم: (٢٧٠٧)، ٤/ ٢٠٨٠.

وجهد البلاء هو شدّة المشقّة، وما لا طاقة للمرء بحمله ولا قدرة له على دفعه. وقيل: هو قلّة المال وكثرة العيال، والأولى حمله على العموم[1].

وكان ﷺ يحمد الله على العافية والسّلامة من البلاء بالمصائب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلاك به، وفضّلني على كثير ممّن خلق تفضيلًا، لم يصبه ذلك البلاء»[2].

فالمسلم لا ينبغي له أن يتعرّض للبلاء بالمصيبة ولا للأسباب الّتي تؤدّي إلى ذلك، والسّلامة خير له وأفضل[3].

المطلب الخامس

مجانبة العوارض القادحة

وهناك أمور إضافة إلى ما سبق متى ما طرأت على ثبات المسلم عند الابتلاء والمصائب كدّرته، وأقضّت مضجعه، فترهّل ذلك الثّبات، وعجز أن يؤهل صاحبه لاجتياز الامتحان بتفوق ونجاح. من ذلك:

---

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٣١. فتح الباري: ١٢/ ٤٣٧.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤). باب ما يقول العبد إذا رأى مبتلى: (٣٧)، برقم: (٣٤٣٢)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وقال الألباني رحمه الله: «صحيح».

وبلفظ مقارب برقم: (٣٤٣١)، وقال: «هذا حديث غريب»، وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٥٤٣، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٦/ ٥٣١، القسم الأوّل، برقم: (٢٧٣٧).

سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الدّعاء: (٣٤). باب ما يدعو به الرّجل إذا نظر إلى أهل البلاء: (٢٢)، برقم: (٣٨٩٢). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٤١٧.

معجم الطّبراني الصّغير نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي: ٢/ ٤، برقم: (٦٧٥).

(٣) للمزيد في هذه الجزئية، انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ٣٨ ـ ٣٩، وأشار إلى ذلك الغزالي في إحياء علوم الدّين: ٤/ ١٦٨.

١ ـ الشّكوى:

وهي أن يذكر للنّاس ما به من مصيبة على سبيل التّضجّر والتّبرّم[١]. لأنّ المشتكي في الحقيقة طالب بلسان الحال إمّا إزالة ما يضرّه، أو حصول ما ينفعه[٢]. وهذا ينافي الصّبر والثّبات لأنّه يقدح في رضا العبد بقضاء الله، ورجائه في مولاه، وأنّه يطلب من الخلق ما لا يقدر عليه إلّا الله سبحانه. وفيه شكوى العبد ربّه إلى عباده.

وأمّا الشّكوى إلى الله فإنّها لا تنافي الصّبر والثّبات لقول الله عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: ٨٦][٣]، مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣][٤]. لأنّ الشّكوى إليه سبحانه استعطاف وتملّق واسترحام[٥].

فالله يبتلي عبده بالمصائب ليسمع شكواه وتضرّعه إليه ودعائه، والانكسار بين يديه، وإظهار التّذلّل والفاقة والعجز.

ولذا ذمّ من لم يتضرّع إليه في كشف البلاء فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦][٦]

والشّكوى لا تنافي الإخبار بالحال، كإخبار الإنسان لمن يودّ الاسترشاد منه، أو معاونته، أو إزالة ضرر به في مقدرته إزالته، كإخبار المريض لصيقه أو

---

(١) وانظر: الرّوح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدّلائل، للإمام ابن القيّم، نشر: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، ص:٢٥٩. فتح الباري: ١٠/ ١٢٤، طبعة: دار المعرفة.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٦٧.

(٣) قال الرّاغب رحمه الله: «وقوله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾، أي غمّي الّذي يَبُثُّه عن كتمانٍ، فهو مصدر في تقدير مفعول، أو بمعنى غمّي الّذي بثّ فكري نحو: توزّعني الفكر، فيكون في معنى الفاعل»، المفردات، ص:٣٧.

(٤) وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٨٤، ٦٦٦. الرّوح، ص:٢٥٩، وجاء ذلك عن أيوب عليه السلام، وسوف يأتي خبره في النّماذج.

(٥) انظر: الرّوح، ص:٢٥٩.

(٦) انظر: عدّة الصّابرين، ص:٢٦، الرّوح، ص:٢٥٩ ـ ٢٦٠.

طبيبه بحاله من غير تبرّم، أو المظلوم لمن يرجو منه إزالة الظّلم عنه[١].

ولذا عنون البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب المرضى من صحيحه باباً قال فيه:

«ما رخّص للمريض أن يقول: إنّي وجع أو وارأساه، أو اشتدّ بي الوجع. وقول أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣][٢].

واستدلّ لذلك بأحاديث منها:

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمّا قالت: «وارأساه»، فقال لها النّبي ﷺ: «بل أنا وارأساه...» الحديث[٣].

وحديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا قال: «جاءنا رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتدّ بي زمن حجة الوداع فقلت: بلغ بي ما ترى... الحديث»[٤].

---

(١) انظر: عدّة الصّابرين، ص:١٠، ٢٣٢. وانظر: الرّوح، ص:٢٥٩. فتح الباري: ١٠/ ١٢٤، طبعة: دار المعرفة.

(٢) صحيح البخاري، رقم الكتاب: (٧٥/ ٤٩)، ورقم الباب: (١٦)، ص:١٢٣٢.
والآية في الشّكوى إلى الله لا إلى الخلق، وذلك مطلوب شرعاً، فذكرها هنا لا يسلم من اعتراض.

(٣) هذا جزء من حديث في: صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩). باب قول المريض: إنّي وجع، أو وارأساه، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦)، برقم: (٥٦٦٦)، ص:١٢٣٢. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/ ٦٨). باب الاستخلاف: (٥١)، برقم: (٧٢١٧)، ص:١٥٢٠.
وقد وجّهه ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ بمعنيين، قال فيهما: «فالمعنى الأوّل: يفهم أنّك لا تشتكي واصبري، فبي من الوجع مثل ما بك، فتأسّي بي في الصّبر وعدم الشّكوى. والمعنى الثّاني: يفهم إعلامها بصدق محبّته لها أي: انظري قوّة محبّتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني متوجّعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرّني ما يسرّك». الرّوح، ص:٢٥٩. فالمعنى الأوّل يعني به التّأسّي، والثّاني: موافقة المحبّ لمحبوبه في أمله وسروره.

(٤) هذا جزء من حديث في: صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩). باب قول المريض: إنّي وجع، أو وارأساه، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦)، برقم (٥٦٦٨)، ص:١٢٣٢، وبلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦). باب رثى النّبي ﷺ سعد بن خولة: (٣٦)، برقم: (١٢٩٥)، ص:٢٧٢. وفي كتاب مناقب الأنصار: (٦٣/ ٣٧). باب قول النّبي ﷺ: «اللّهم امض لأصحابي هجرتهم»: =

٢ ـ الجزع والسّخط:

الجزع نقيض الصّبر[١]، والسّخط نقيض الرّضا[٢].

لقد خلق الله الإنسان وخلق فيه نفساً تميل أحياناً إلى الأخلاق الذميمة، والأفعال القبيحة، فإذا أصابه ضرّ ومكروه فزع وجزع، وأصابه الهلع والرّعب واليأس، إلّا من عصمه الله وهداه إلى الحقّ، ووفّقه ويسّر له السّبيل الموصل إليه سبحانه.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢][٣].

والجزع والسّخط داءان منافيان للثّبات، معارضان له، لأنّ فيهما اعتراضاً على قدر الله وحكمه، ويتطرّق معهما الشّك إلى قضاء الله وحكمته.

عن أنس رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السّخط»[٤].

وفي رواية: «ومن جزع فله الجزع»[٥].

= (٤٩/ ١٠٩)، برقم: (٣٩٣٦)، ص: ٨٢٥. وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨). باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٩)، ص: ٩١٦. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤). باب الدّعاء برفع الوباء والوجع: (٤٣)، برقم: (٦٣٧٣)، ص: ١٣٥٨.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الوصيّة: (٢٥). باب الوصيّة بالثّلث: (١)، برقم: (١٦٢٨)، ٣/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥١.

(١) القاموس المحيط، ص: ٩١٦. (٢) المرجع السّابق، ص: ٨٦٤.

(٣) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٥٩. (٤) سبق تخريجه، ص: ٣٣٩.

(٥) هذه الرّواية في مسند أحمد، بلفظها عن محمود بن لبيد رضي الله عنه، في: ٥/ ٤٢٧.
وفي شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمّد السّعيد بسيوني زغلول، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ، بلفظها في: ٧/ ١٤٥.
وأورده الهيثمي في مجمع الزّوائد، وقال: «ورجاله ثقات»، ٢/ ٢٩١. والمنذري في التّرغيب والتّرهيب، وقال: «ورواته ثقات»، ٤/ ١٤٢.
وانظر في معنى الحديث: تحفة الأحوذي: ٧/ ٦٥.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزع:

«إنّ الجزع ضعف في النّفس، وخوف في القلب، يمدّه شدّة الطّمع والحرص، ويتولّد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلّا فمتى علم أنّ المقدّر كائن ولا بد كان الجزع عناء محضاً ومصيبة»[1].

والسّخط باب للهمّ والغمّ والحزن، وشتات القلب، والظّن بالله خلاف ما هو أهله. والرضى يخلّص العبد من كلّ ذلك، ويعينه على الثّبات.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّ السّخط يوجب تلوّن العبد، وعدم ثباته مع الله، فإنّه لا يرضى إلّا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبوديّة، فإذا رضي عن ربّه في جميع الحالات، استقرّت قدمه في مقام العبوديّة، فلا يزيل التّلوّن عن العبد شيء مثل الرّضا»[2].

وللجزع والسّخط مظاهر متعدّدة، كشقّ الثّياب عند المصيبة، ولطم الوجه، وضرب الخدّ، وحلق الشّعر، والصّياح والدّعاء بالويل والثّبور[3]، وعظائم الأمور، وغير ذلك ممّا نهى عنه الرّسول ﷺ.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، أو شقّ الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهليّة[4]»[5].

---

(١) الرّوح، ص: ٢٥٠. (٢) مدارج السّالكين: ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) الثّبُورُ: الهلاك والخسران والويل، وقد ثَبَرَ يَثْبُرُ ثُبُوراً، وثَبَرَهُ الله: أَهلكه إهلاكاً لا ينتعش. انظر: لسان العرب: ٤/ ٩٩. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٨٢. القاموس المحيط، ص: ٤٥٦.

(٤) دعوى الجاهليّة: هي النّياحة، وندبه الميّت، والدّعاء بالويل وشبهه، والمراد بالجاهليّة ما كان في الفترة قبل الإسلام. شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١١٠.

(٥) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦). باب ليس منّا من شقّ الجيوب: (٣٥)، برقم: (١٢٩٤)، ص٢٧٢. وفي باب ليس منّا من ضرب الخدود: (٣٨)، برقم: (١٢٩٧). وفي باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهليّة عند المصيبة: (٣٩)، برقم: (١٢٩٨)، ص: ٢٧٣. وفي كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧). باب ما ينهى من=

وعن أبي موسى رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ بريء من الصّالقة[1]، والحالقة[2]، والشّاقّة[3]»[4].

وكلّ هذه الأمور تنافي الصّبر والثّبات عند الابتلاء بالمصيبة.

٣ ـ الحُزْنُ:

هو عبارة عمّا يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي[5]

والحزن نهى الله عنه في مواطن عدّة من كتابه كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وكقوله لرسوله ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

وكقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

والآيات كثيرة في ذلك. وإنّما نهى عنه لأنّه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرّة، فليس فيه فائدة، ولا يأثم الإنسان به إذا لم يقارنه محرّم. كحزن

= دعوى الجاهليّة: (٨/ ١١)، برقم: (٣٥١٩)، ص: ٧٤٤.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب تحريم ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، والدّعاء بدعوى الجاهليّة: (٤٤)، برقم: (١٠٣)، ١/ ٩٩.

(١) الصّالقة: من الصّوت الشّديد، ويقال بالسّين أيضاً، والمراد بالصّالقة المرأة الّتي ترفع صوتها عند المصيبة والفجيعة بالموت. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٨. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ٩٧، ٣/ ٢٧٥. الفائق: ٢/ ٣٠٩.

(٢) الحالقة: هي الّتي تحلق شعرها عند المصيبة. شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١١٠. فتح الباري: ٣/ ١٦٦، طبعة: دار المعرفة، وانظر: الفائق: ١/ ٣٠٦. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٢٧.

(٣) الشّاقّة: الّتي تَشقّ ثوبها عند المصيبة. شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١١٠. وانظر: فتح الباري: ٣/ ١٦٦، طبعة: دار المعرفة.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦). باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة: (٣٧)، برقم (١٢٩٦)، ص: ٢٧٣.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب تحريم ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، والدّعاء بدعوى الجاهلية: (٤٤)، برقم: (١٠٤)، ١/ ١٠٠.

(٥) التّعريفات، ص: ١١٧.

يعقوب عليه السلام كما جاء عنه في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

وأمّا الحزن إذا أفضى إلى ترك مأمور أو فعل محظور فإنّه محرّم، وذلك كالحزن الّذي ينافي الصّبر عند المصائب نتيجة لضعف قلب صاحبه، وضعف ثباته، ويظهر في فعل الأيدي، كشقّ الثّياب ولطم الخدود، أو فعل اللّسان كالصّياح والعويل والدّعاء بالويل والثّبور وغير ذلك. وهذا الّذي ينافي الثّبات عند المصائب.

ولذا قال ﷺ: «إنّ الله لا يعذّب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذّب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم»[1].

وقال ﷺ: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلّا ما يرضي ربّنا»[2].

وفي الحديثين دلالة أيضاً على أنّ البكاء الّذي لا ندب فيه ولا نياحة ولا صياح ولا عويل لا شيء فيه، ولا ينافي الثّبات عند المصيبة. والأدلّة على ذلك كثيرة جداً[3].

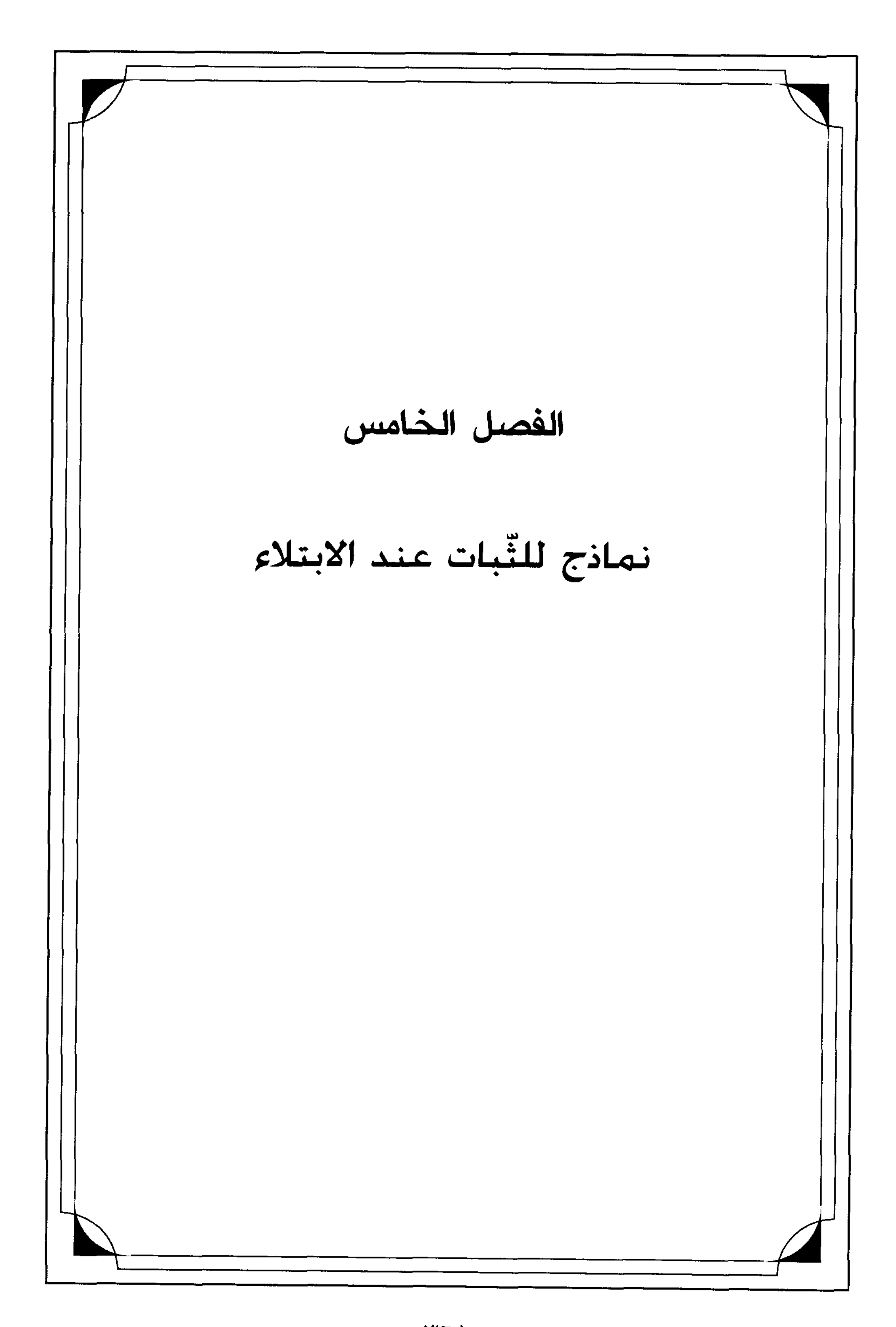
---

(١) هذا جزء من حديث في: صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦). باب البكاء عند المريض: (٤٤)، برقم: (١٣٠٤)، ص:٢٧٤، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١). باب البكاء على الميّت: (٦)، برقم: (٩٢٤)، ٢/٦٣٦.

(٢) هذا جزء من حديث في: صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦). باب قول النبي ﷺ: «إنّا بك لمحزونون»: (٤٣)، برقم: (١٣٠٣)، ص:٢٧٤، عن أنس رضي الله عنه.
صحيح مسلم، بلفظ في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب رحمته ﷺ الصّبيان والعيال، وتواضعه وفضل ذلك: (١٥)، برقم: (٢٣١٥)، ٤/١٨٠٧ ـ ١٨٠٨.
وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/١٦ ـ ١٧. وانظر: عدة الصّابرين، ص:٢٣٣.

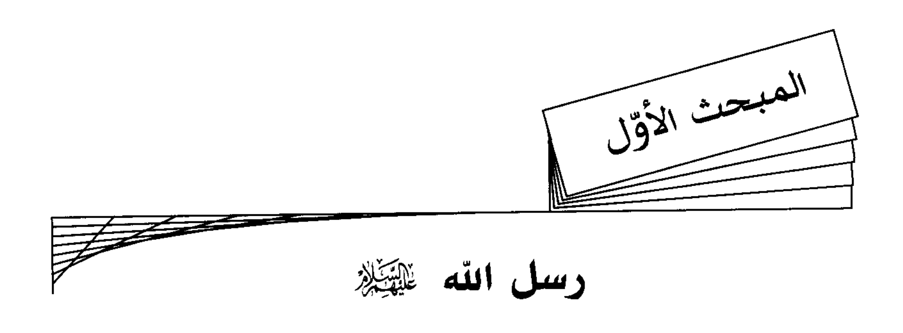
(٣) انظر إلى: بحث تفصيلي قيّم عن البكاء وعدم منفاته للثّبات في: عدة الصّابرين، ص:٨١ ـ ٨٣.





الفصل الخامس

نماذج للثّبات عند الابتلاء



رسل الله عليهم السلام

إنّ رسل الله وأنبياءه عليهم السلام هم الصّفوة المختارة من البشريّة جمعاء الّذين حباهم الله جزيل نعمه، وأمطر عليهم سحائب مننه، وهيّأهم لحمل رسالته، وأداء أمانته، ووهبهم من السّمات والصّفات ما يجعلهم في المقام الّذي يؤهلهم لإبلاغ ما كلّفوا به.

ولذلك محّصهم بالابتلاء، وصقلهم بالاختيار ليكونوا أهلاً لذلك، فكانوا عليهم السلام أعظم النّاس بلاء وأشدّهم محنة. قاسوا الشّدائد بأنواعها، وذاقوا المصائب بأشكالها، فما لانت عريكتهم، وما تضعضعت قواهم، ولا فترت هممهم، ولا انحلّت عزائمهم، بل كانوا أهل اليقين والثّبات، والإيمان والصّبر حتّى حازوا قصب السَّبق في معالي الأمور، وعبروا إلى أعظم الغايات وأجل النّهايات، فنالوا الجزاء والثّواب، ورفع الله قدرهم، وأعلى ذكرهم، وجعلهم قدوة الأنام، وأئمة الخلق الّذين يُهتدى بهم، ويتأسّى بأقوالهم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السجدة: ٢٤].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي النّاس أشدّ بلاء؟ قال: «الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرّجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلْباً اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابْتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتّى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[1].

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣). باب ما جاء في الصّبر على=

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: دخلت على النّبي ﷺ وهو يُوعَك[1]، فوضعت يدي عليه، فوجدت حَرَّهُ بين يدي، فوق اللّحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدّها عليك! قال: «إنّا كذلك. يُضَعَّفُ لنا البلاء ويُضَعَّفُ لنا الأجر»، قلت: يا رسول الله أي النّاس أشدّ بلاء؟ قال: «الأنبياء»، قلت: يا رسول الله ثمّ من؟ قال: «ثمّ الصّالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتّى ما يجد أحدهم إلّا العَبَاءة[2] يُحوِّيها[3]، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرّخاء»[4].

= البلاء: (٥٧)، برقم: (٢٣٩٨). وقال: «حسن صحيح». وقال الألباني ﷺ: «حسن صحيح»، ص: ٣٩٣.
سنن ابن ماجه، بلفظه إلّا أحرف يسيرة. في كتاب الفتن: (٣٦). باب الصّبر على البلاء: (٢٣)، برقم: (٤٠٢٣). قال الألباني ﷺ: «حسن صحيح»، ص: ٤٣٣.
سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في كتاب الرّقاق. باب أشدّ النّاس بلاء: ٢/ ٤١٢.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع والأحزان، ٣/ ٣٧٢.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٨٠، وبلفظه إلّا أحرف يسيرة في: ١/ ١٨٥.
قال أحمد شاكر ﷺ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٣/ ٤٦، ٥٢، ٧٨، ٩٧، برقم: (١٤٨١)، (١٤٩٤)، (١٥٥٥)، (١٦٠٧).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من توطين النّفس على تحمّل ما يستقبلها من المحن والمصائب، برقم: (٢٩٠٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ٧/ ١٦٠، وبلفظه سوى أحرف يسيرة برقم: (٢٩٠١)، ٧/ ١٦١،ونحوه في باب ذكر البيان بأنّ المسلم كلّما ثخن دينه كثر بلاؤه، برقم: (٢٩٢٠)، (٢٩٢١)، ٧/ ١٨٣ ـ ١٨٤
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٩٩ـ١٠٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين».
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب، برقم: (٨٣٠). قال المحقّق: «إسناده حسن»، ٢/ ١٤٣.

(١) يوعك: الوعك بفتح الواو وسكون العين المهملة الحمى، وقد تفتح، وقيل: ألم الحمى، وقيل: تعبها، وقيل: إرعادها الموعوك وتحريكها إياه، وعن الأصمعي: الوعك: الحَر. فتح الباري: ١٠/ ١١١ ـ ١١٢، طبعة: دار المعرفة، وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٠٦.
(٢) العباءة: ضَرْبٌ من الأكْسِيَةِ، وقال: عَبايَة، والجمع عباء. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٧٥.
(٣) يحوّيها: أي يجمعها. انظر: الفائق: ١/ ٣٢٨. النهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٦٦.
(٤) سنن ابن ماجه، بلفظه في كتاب الفتن: (٣٦). باب الصّبر على البلاء: (٢٣)، =

قال الإمام النّووي رحمه الله:

«قال العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشدّ بلاء ثمّ الأمثل فالأمثل أنّهم مخصصون بكمال الصّبر، وصحّة الاحتساب، ومعرفة أنّ ذلك نعمة من الله تعالى ليتمّ لهم الخير، ويضاعف لهم الأجر، ويظهر صبرهم ورضاهم»[١].

وقد بيّن الله ﷻ أنّ الأنبياء يبلغ بهم الابتلاء مبلغه، والمحنة غايتها حتّى يستبطئوا النصر من الله مع تيقّنهم بوقوعه، وثقتهم به، ومع عظيم ثباتهم، وقوّة جلدهم واصطبارهم، ولكن مع ذلك يظلّوا على الثّبات مهما تأخّر نصر الله عنهم، حتّى تنفرج الشّدّة ويزول الضّنك.

ولذا أمر الله تعالى أهل الإيمان أن يتأسّوا بهم في الثّبات فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤][٢].

والرّسل عليهم السلام وإن اشتدّ ابتلاؤهم فإنّ العاقبة لهم.

فعن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما في حديث هِرَقْل[٣] الطّويل وفيه: قال هرقل لأبي سفيان: «وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأنّ حربكم

= برقم: (٤٠٢٤)، قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٣٣، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ١/ ٢٢٦، برقم: (١٤٤).

مسنده أحمد: نحوه في: ٣/ ٩٤.

(١) شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ١٢٩. وانظر: عمدة القارئ: ٢١/ ٢١١. تحفة الأحوذي: ٧/ ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) والآية سبق شرحها مع مصادر الشّرح. انظر: ٣٢٤.

(٣) هِرَقْل: هو ملك الرّوم. وهرقل اسمه، ولقبه قيصر، وكان له علم في دين النّصرانيّة، وهو الّذي أرسل إليه النّبي ﷺ خطاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، فأراد أن يسلم ولكنّ الرّوم أبت عليه، فضنّ بملكه فلم يسلم.

انظر: البداية والنّهاية: ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٨. فتح الباري: ١/ ٣٣ ـ ٣٧، طبعة: دار المعرفة.

وحربه يكون دُولاً. ويُدال[1] عليكم وتُدالون عليه الأخرى، وكذلك الرّسل تبتلى وتكون لها العاقبة»[2].

وهذا من حكمة الله وسنّته في رسله بأن يدالوا مرّة، ويدال عليهم أخرى ليتميّز من يتّبعهم بصدق وإخلاص ممّن يتّبعهم من أجل الغلبة[3]. وليعظّم الله بذلك أجرهم، ويكثّر ثوابهم[4]. وليكمل لهم أنواع العبادة فيتعبّدهم في الشّدّة كما تعبّدهم في الرّخاء، ويتعبّدهم بالصّبر والثّبات كما تعبّدهم بالحمد والشّكر. وله في كلّ ذلك الحكمة الكاملة، والحجّة البالغة.

وهذه نماذج مضيئة لثلّة قليلة من صفوة البشريّة، ضربوا بها أروع الأمثلة في الثّبات عند الابتلاء، والصّبر عند الاختيار، أدلّل بها على صدق ما أسلفت من القول بأنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا أكثر النّاس ابتلاء، وأعظمهم ثباتاً.

وأتناول ذلك في مطالب أربعة:

المطلب الأوّل

محمّد بن عبد الله ﷺ

إنّ المتأمّل في سيرة هذا الرّسول الكريم ﷺ يجد أنّه قد تحمّل من

---

(١) الإدالة: الغَلَبة. يقال: أديل لنا على أعْدائنا، أي نُصِرْنا عليهم ودانت الدّولةُ لنا، والدّولةُ الانْتقَالُ من حالِ الشّدّة إلى الرّخاء، ومعنى: يُدال عليكم وتُدالون عليه: أي يغلبكم مرّة، وتغلبونه أخرى.
انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٤١.

(٢) جزء من حديث أبي سفيان رضي الله عنه الطّويل: صحيح البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: (٦/ ١)، برقم: (٧)، ص: ١٤. وفي كتاب: الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢). باب دعاء النّبي ﷺ إلى الإسلام والنّبوّة: (١٠٢/ ١٠١)، برقم: (٢٩٤١)، ص: ٦٢٠. وفي كتاب: التّفسير: (٦٥/ ٣٩). باب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]: (٤)، برقم: (٤٥٥٣)، ص: ٩٥٠.
صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسّير: (٣٢). باب كتاب النّبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: (٢٦)، برقم: (١٧٧٣)، ٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧.

(٣) انظر: زاد المعاد: ٣/ ٢١٩.

(٤) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ١٠٦. تحفة الأحوذي: ٧/ ٦٧.

الابتلاءات ما لم يتحمّله غيره، وذاق من أنواع الشّدائد ما لم يذقه سواه، منذ أن انبثق فجر نبوّته إلى أن لقي ربّه ﷺ.

فمنذ أن صدع بالحقّ في مكّة واجهه قومه الّذين ترعرع بينهم بكلّ سبّة وبلاء، تفنّنوا في أذيته بأنواع الأذى وأصنافه، بالقول والفعل، والافتراء عليه والبهتان، فتارة بأنّه ساحر، وأخرى بأنّه كاهن، وحيناً بأنّه كذّاب، وضيّقوا عليه وعلى من معه الخناق حتّى ألجؤوه إلى الخروج من وطنه ومسقط رأسه(١).

وهو في المدينة لم يهدأ له بال، ولم يهنأ براحة من العيش ولذيذ المطعم، بل ظلّ عليه السلام يكابد المشاقّ، ويقاوم أنواع المحن. حروب من أعداء الله لا ينطفئ لهيبها ولا تخمد نارها، يفقد في بعضها من أعزّ أهله وأصحابه إليه، كما فقد أبناءه وفلذات كبده من قبل. ويشجّ وجهه، وتكسر رباعيته، ويلاقي من الأذى ما يلاقي.

وكيد من اليهود والمنافقين الّذين لم يرعووا عن إيصال كلّ أذيّة وبلاء إليه وإلى أصحابه، سالكين كلّ مسلك يوصلهم إلى ذلك.

وهو مع هذا لم يهنأ برغد العيش، وطيّب الطّعام، فلم يمتلئ جوفه قطّ بخبز برّ إلى أن لقي الله تعالى.

قالت عائشة رضي الله عنها:

«ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز برّ حتّى مضى لسبيله»(٢).

---

(١) انظر: فيما لقي النّبي ﷺ من أذى قومه: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤، ٢٢١. وانظر: مفتاح دار السّعادة، ص:١/ ٣٠١.

(٢) صحيح البخاري، نحوه في كتاب الأطعمة: (٧٠/ ٤٤)، في باب قول الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]: (١)، برقم: (٥٣٧٤)، ص:١١٧٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وفي باب ما كان النّبي ﷺ وأصحابه يأكلون: (٢٣)، برقم: (٥٤١٦)، ص:١١٨٧. وفي باب ما كان السّلف يدّخرون في بيوتهم وأسفارهم من الطّعام وغيره: (٢٧)، برقم: (٥٤٢٣)، ص:١١٨٨، وفي باب القديد: (٣٧). برقم: (٥٤٣٨)، ص:١١٩٠. وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥). باب كيف كان عيش النّبي ﷺ وأصحابه وتخلّيهم من الدّنيا: (١٧)، برقم: (٦٤٥٤)، ص:١٣٧٤ ـ ١٣٧٥. وفي كتاب الأيمان=

وقد كان يشتدّ به المرض ﷺ إلى منتهاه، ويبلغ به الوجع غايته.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رسول الله، إنّك توعك وعكاً شديداً، قال: «أجل إنّي أوعك كما يوعك رجلان منكم»، قلت: ذلك أنّ لك أجرين، قال: «أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلّا كَفَّرَ الله بها سيّئاته كما تحطّ الشّجرة ورقها»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«ما رأيت أحداً أشدّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ»(٢).

ومع عظيم هذه الابتلاءات، وشديد هذه الامتحانات، ثبت رسول الله ﷺ

= والنّذور: (٨٣/ ٥٧). باب إذا حلف أن لا يأتدم فأكل تمراً بخبز، وما يكون من الأدم: (٢٢)، برقم: (٦٦٨٧)، ص: ١٤١٤.
صحيح مسلم، بلفظه وبنحوه في كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣)، برقم: (٢٩٧٠)، ٤/ ٢٢٨١ ـ ٢٢٨٢.
ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (٢٩٧٦)، ٤/ ٢٢٨٤.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩). باب أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الأوّل فالأوّل: (٣)، برقم: (٥٦٤٨)، ص:١٢٢٨، وبلفظ مقارب في باب شدّة المرض: (٢)، برقم: (٥٦٤٧)، ص:١٢٢٨. وفي باب وضع اليد على المريض: (١٣)، برقم: (٥٦٦٠)، ص:١٢٣١. وفي باب ما يقال للمريض وما يجيب:(١٤)، برقم: (٥٦٦١)، ص:١٢٣١. وفي باب قول المريض: إنّي وجع، أو وارأساه، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦)، برقم: (٥٦٦٧)، ص:١٢٣٢.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك، حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤)، برقم: (٢٥٧١)، ٤/ ١٩٩١. وانظر معنى الحديث في: فتح الباري: ١٠/ ١١٢، طبعة: دار المعرفة.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩). باب شدّة المرض: (٢)، برقم: (٥٦٤٦)، ص:١٢٢٨.
صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا أنّها قالت: «رجلاً» ـ في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك: (١٤)، برقم: (٢٥٧٠)، ٤/ ١٩٩٠.

على الحقّ ولم ينحرف عنه يَسرة ولا يَمنة، بل ظلّ على الطّريق المستقيم والمنهج القويم، يكافح وينافح من أجل إرضاء ربّه ونصرة دينه.

قال فخر الدّين الرّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّه ﷺ تحمّل في أداء الرّسالة أنواعاً من المشاقّ والمتاعب، ولم يتغيّر عن المنهج الأوّل البتّة. ولم يطمع في مال أحد ولا جاهه، بل صبر على تلك المشاقّ والمتاعب، ولم يظهر في عزمه فتور، ولا في إصراره قصور»[1].

ويقول جمال الدّين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، يقول:

«أي في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة، إذ كان منها ثباته في الشّدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضّرّاء وهو مكروب ومحروب[2]، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة، لا يخور في شديدة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وقد لقي بمكّة من قريش ما يُشيّبُ النّواصي، ويهدّ الصّياصي[3]، وهو مع الضّعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي»[4].

وكيف لا يثبت ﷺ عند الابتلاء وهو الّذي يعلم أنّه ما بعث إلّا للابتلاء، وأنّه لا بد أن يبتلى، كما أخبره ربّه بذلك؟.

عن عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه ﷺ قال: «ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ممّا علمني يومي هذا»، وفيه: «وقال: إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك» الحديث[5].

---

(١) الأربعين في أصول الدّين، لفخر الدين محمّد بن عمر الخطيب الرّازي، النّاشر، مكتبة الكلّيات الأزهريّة، ص:٣١٢.

(٢) محروب: أي سلب ماله. من حَرَبَ... انظر: القاموس المحيط، ص:٩٣.

(٣) الصّياصي: جمع الصّيصَة، وهي الحصن، وكلّ ما امتنع به، انظر: المرجع السّابق، ص:٨٠٣، مادّة: صيص.

(٤) محاسن التّأويل: ١٣/٤٨٣٦.

(٥) الحديث سبق تخريجه. انظر، ص:٢٩٣.

قال النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«معناه: لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرّسالة، وغير ذلك من الجهاد في الله حقّ جهاده، والصّبر في الله تعالى، وغير ذلك. وأبتلي بك من أرسلتك إليهم، فمنهم من يظهر إيمانه، ويخلص في طاعاته، ومن يتخلّف ويتأبّد[1] بالعداوة والكفر، ومن ينافق»[2].

المطلب الثّاني

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

إنّ الله تعالى امتدح نبيّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأثنى عليه في آيات كثر، ورفع مكانه وأعلا مقامه، فقال في شأنه سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

فهو أمّة، والأمّة: القدوة المعلّم للخير الّذي يأتمّ النّاس به. وهو قانت، والقانت: المطيع لله، الملازم لطاعته. وهو حنيف، والحنيف: المقبل على الله، المعرض عمّا سواه. وهو الشّاكر لنعم الله القائم بحقّها خير قيام. وهو إمام التّوحيد وقائد الموحّدين، الّذين أخلصوا العبادة لله. وهو الّذي أُمر رسول الله ﷺ باتّباع ملّته دون غيره من الأنبياء[3]. وهو خليل الرّحمن الّذي اتخذه خليلاً كما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وذلك لأنّ محبّة الله تخلّلت روحه وقلبه حتّى لم يبق فيه موضع لغيره[4]. وهو المتضرّع

---

(١) أي يظلّ ويقيم على العداوة والكفر، وانظر: لسان العرب: ٣/ ٦٨.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ١٩٨.

(٣) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصّلاة على محمّد خير الأنام، لابن القيّم، نشر: دار العروبة، الكويت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، ص:٢٦٩. مفتاح دار السّعادة: ١/ ١٧٤. الضّوء المنير: ٤/ ٧٩ ـ ٨٠، ٥/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٤) انظر: مدارج السّالكين: ٣/ ٣٠. الضّوء المنير: ٥/ ١٥٠.

إلى الله المكثر من دعائه، الحليم عمّن ظلمه وأناله مكروهاً. كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤][1]. وهو صاحب القلب السّليم الّذي قد سلم لربّه، وسلَّم لأمره، فسلم من كلّ شبهة تعارض خبره، ومن كلّ شهوة تعارض أمره، ومن كلّ إرادة تزاحم مراده، ومن كلّ قاطع يقطعه عن الله، وفي ذلك قال ﷻ: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصّافات: ٨٣، ٨٤][2].

وقد لاقى هذا النّبي الكريم أصنافاً من الابتلاءات، وأنواعاً من الاختبارات فاجتازاها بثبات ورباطة جأش، وقوّة عزيمة، وصدق إيمان، وصبر ومصابرة، حتّى جعله الله إماماً يحتذى حذوه، وجعل النّبوة في ذريته.

قال سبحانه: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤][3].

ابتلاه بما كلّفه به من الأوامر والنّواهي فقام بهنّ خير قيام، وأداهنّ أحسن تأدية، حتّى شهد الله له بذلك، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

وابتلاه بالنّار حين قذفه قومه فيها بعد أن حطّم أصنامهم، وحاجّهم، فألزمهم الحجّة، فاجتاز بلاء النّار بصبر وثبات، فأنجاه الله منها، وسلّمه من قومه.

قال ﷻ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠][4].

ولقد خاض مع ابنه إسماعيل[5] عليه السلام تجربة قاسية، واختباراً شاقاً لا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦١٤.
(٢) انظر: كتاب الجواب الكافي، ص: ٨٤. مفتاح دار السّعادة: ١/ ٤١. الضّوء المنير: ٤/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٣) قد سبق الكلام في معنى هذه الآية. انظر: ص: ٣٠٦.
(٤) انظر: الآيات قبلها.
(٥) اختلف أهل العلم في الذّبيح على أقوال، حصرها الألوسي رحمه الله في أربعة أقوال، =

يثبت فيه إلّا أهل الإيمان الصّادق، واليقين الّذي لا يتطرّق إليه الشّك، ولا يعتريه الوهن.

قال تعالى في سياقه لتلك الحادثة المروّعة:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصّافات: ٩٩ ـ ١١٣].

إنّ إبراهيم ﷺ بعد أن نجا من النّار أيس من قومه، فاعتزلهم مهاجراً إلى حيث يتمكّن من عبادة ربّه، طالباً الهداية من الله في أمر دينه ودنياه.

ثمّ توجّه إلى ربّه بالدّعاء ليهب له أبناء صالحين يستعيض بهم عن قومه وعشيرته الّذين فارقهم. فأجاب الله دعاءه، وبشّره بغلام ذكر موصوف بالحلم،

= الأوّل: أنّه إسماعيل ﷺ. الثّاني: أنّه إسحاق ﷺ. الثّالث: الله أعلم أيّهما الذّبيح (أي التّوقف فيه). الرّابع: حدث مرّتين: مرّة بالشّام لإسحاق، ومرّة بمكّة لإسماعيل. انظر: روح المعاني: ٢٣/١٣٦.

فإذا استبعدنا القول الثّالث والرّابع لضعفهما فإنّ بعض أهل العلم نصر القول بأنّه إسحاق كما زعم أهل الكتاب ـ من أولئك الإمام القرطبي ﷺ وقد انتصر لذلك في مواضع من تفسيره. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/١٠٠، ١٠١، ١١٢، ١١٣، وذهب جمهور الصّحابة والتّابعين وجمهور أهل العلم على أنّه إسماعيل ﷺ، وهو الصّواب الّذي تدعمه الأدلّة. انظر: التّفسير الكبير: ٢٦/١٥٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٧ ـ ٣٠. تفسير أبي السّعود: ٧/٢٠٠. روح المعاني: ٢٣/١٣٦. تيسير الكريم الرّحمن، ص:٦٥٢. وانتصر لهذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم، وأبطلا القول بأنّه إسحاق بأكثر من عشرين وجهاً. انظر: زاد المعاد: ١/٧١ ـ ٧٥. الضّوء المنير: ٣/٤٩٦ ـ ٤٩٩. إغاثة اللّهفان: ٢/٣٥٥ ـ ٣٥٧.

الّذي يتضمّن الصبّر، وحسن الخلق، وسعة الصّدر، والعفو عمّن جنى في حقه. ثمّ وهبه إياه فكان أوّل ابن له، وهو إسماعيل ﷺ. فلمّا كبر وترعرع وبلغ المبلغ الّذي يسعى مع أبيه ويعينه في أمور دنياه، أو طاق ما يفعله أبوه من السّعي، وبلغ سنّاً يكون فيها أحبّ لوالديه، حيث ذهبت مشقّته وأقبلت منفعته، رأى أبوه في النّوم أنّه يذبحه ـ ورؤيا الأنبياء وحي[1] ـ عند ذلك استشار ابنه في هذا الخطب العظيم، والأمر الجلل ليرى صبر ابنه وثباته في طاعة الله، والانقياد لأمره، ولتقرّ عينه بذلك، وليكون الذّبح أهون على ابنه، ولينال الثّناء الحسن في الدّنيا، والثّواب العظيم في الآخرة[2].

عندها أجاب إسماعيل ﷺ منصاعاً لأمر الله، منقاداً له: امض يا أبت لما أمرك الله فإنّي سأصبر وأحتسب أجري عند الله، وقرن ذلك بمشيئة الله لأنّه لا شيء يكون إلّا بمشيئته، وفيه طلب العون من الله.

ولقد ألزم نفسه ﷺ بالصّبر ووعد أباه به، وفي ذلك توطين للنّفس على الثّبات. وقد وفّى بوعده وبما التزم به من الصّبر والثّبات فمدحه الله بذلك،

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير ﷺ قال: «رؤيا الأنبياء وحي ثمّ قرأ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصّافات: ١٠٢]. كتاب الوضوء: (٤). باب التّخفيف في الوضوء: (٥)، ص:٤٨.

(٢) بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ الحكمة من ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه، والمنفعة الّتي تعود على المبتلى من ذلك، فقال: «والتحقيق أنّ الأمر الّذي هو ابتلاء وامتحان يحضّ عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود، وإن لم يفعله كإبراهيم لمّا أمر بذبح ابنه... وهذا هو الحكمة النّاشئة من نفس الأمر والنّهي لا من نفس الفعل، فقد يؤمر العبد وينهى، وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له، وبذله للمطلوب، كما كان المطلوب من إبراهيم تقديم حبّ الله على حبّه لابنه حتّى تتمّ خلّته به قبل ذبح هذا المحبوب لله، فلما أقدم عليه، وقوي عزمه بإرادته لذلك تحقق بأنّ الله أحبّ إليه من الولد وغيره، ولم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبّة الله.
وكذلك أصحاب طالوت، ابتلوا بالامتناع من الشّرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة. والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر، وأمّا رمي الجمار والسّعي بين الصّفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمّنه من ذكر الله». مجموع الفتاوى: ١٤/ ١٤٥. وانظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ٣٥٦. زاد المعاد: ١/ ٧٤. الضّوء المنير: ٣/ ٤٩٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٥٢.

فقال: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

لقد استسلما لأمر الله وانقادا له، وأخلصا نفسيهما إلى ربّهما ﷻ. إبراهيم جازم بذبح ثمرة فؤاده امتثالاً لأمر الله، وإسماعيل موطّن نفسه على الصّبر في طاعة الله وطاعة والده.

ويتحقّق العزم على الفعل، وتوطّن النّفس على مقدّماته، فيصرع إبراهيم عليه السلام فلذة كبده الوحيد على أحد جنبيه استعداداً لتنفيذ أمر الله فيه، فيأتي الفرج من الله، وينكشف الكرب، وتزول الغمّة.

لقد قام إبراهيم عليه السلام بما كلّف به خير قيام، وأدّى الطّاعة على أكمل وجه، وفعل ما أمكنه فعله، صابراً ثابتاً، ممتثلاً، طائعاً. ولذا خلّصه الله من هذه المحنة بكبش عظيم القدر يذبح فداء لابنه عليه السلام.

وتلك سنّة الله في تخليص المحسنين من الشّدائد والابتلاءات. بل واستحقّ بذلك الثّناء الحسن والأجر العظيم، لأنّه اجتاز بثباته وثبات ابنه عقبة كأداء، ومحنة بيّنة صعبة، شديدة المراس، لايجتازها إلّا الصّادقون المخلصون. فأبقى الله له ثناء جميلاً عاطراً في الأمم.

فما من أمّة إلّا وتعظّمه، وتوّج الله ابتلاءه له بسلام منه، وشرّفه بالإضافة إليه لأنّه أعطى العبوديّة حقّها.

وجعل الله ما جرى على يديه سنّة في أهل الإسلام: أن يذبح كلّ قادر منهم مستطيع كبشاً تعظيماً لله، وتأسيّاً بإبراهيم عليه السلام[1].

(١) انظر في معنى الآيات: الكشّاف: ٣/٣٤٨ ـ ٣٤٩، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ١٢/٣٨٤ ـ ٣٨٧. التّفسير الكبير: ٢٦/١٥٦ ـ ١٥٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٩٧ ـ ١١٢. تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٣ ـ ٣٦. تفسير أبي السّعود: ٧/٢٠٠ ـ ٢٠٢. روح المعاني: ٢٣/١٣١ ـ ١٣٦. محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٤٩ ـ ٥٠٥٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٥٢. وانظر: مفتاح دار السّعادة، ص:١/٣٠٠.

إنّ تلك الحادثة تغرس في نفس المسلم الإيمان الصّادق بالخالق ﷻ، والانصياع التّام لأوامره ﷻ، ولو كان في ذلك هلاك النّفس، وذهاب الرّوح. كما تتجلّى فيها حكمته سبحانه في ابتلاء عباده ببعض التّكاليف الشّاقة الّتي توصلهم بالثّبات والصبّر عليها إلى المقامات السّامية، والمنازل العالية. وفيها تنبيه لكلّ مسلم صادق في هذه الحياة بأنّه معرّض للابتلاء مهما بلغ إيمانه، وزاد يقينه. وقد يكون ذلك بما تكرهه نفسه، ويأباه قلبه ليوطّن نفسه على الثّبات، ويهيّئها على الصبر.

المطلب الثّالث

يوسف بن يعقوب عليهما السلام

لقد ابتلي يوسف عليه السلام بمحن متتالية، وابتلاءات متعاقبة ثبت عندها ثبات الكرام، وصبَر صبْر الأبطال العظام، حتّى اجتازها مكرّماً منعّماً، نال بها سعادة الدّنيا والآخرة.

ابتلي عليه السلام بحسد إخوته له لحبّ أبيه له ولأخيه دون من سواه، حيث قالوا: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: ٨][1].

وكادوه عليه السلام حتّى فرّقوا بينه وبين أبيه. وأجمعوا أمرهم على إلقائه في أسفل الجبّ[2] وحيدا فريداً.

كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥﴾ [يوسف: ١٥][3].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٢١. وانظر في معنى الآية: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٣٠ ـ ١٣١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٢٦.

(٢) الجُبُّ: البِئرُ، مذكر. وقيل: هي البئر الّتي لم تُطْوَ. وقيل: الجَيِّدةُ الموضع من الكَلأ. وقيل: هي البِئر الكثيرة الماء البَعيدةُ القَعْرِ، أو هي ممّا وجد لا ممّا حفره النّاس. انظر: القاموس المحيط، ص:٨٣. وانظر: لسان العرب: ١/ ٢٥٠.

(٣) انظر: إغاثة اللّهفان: ٢/ ١١٤. وانظر في معنى الآية: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٤١ ـ ١٤٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٢٨ ـ ٧٢٩.

ثمّ باعوه رقيقاً بثمن قليل جدّاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر، وكانوا فيه زاهدين لأنّ قصدهم إبعاده عن أبيه لا الثّمن، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: ١٩، ٢٠](١).

وقد باعه أولئك مملوكاً إلى عزيز مصر الّذي أعجب به، وتوسّم الخير والصّلاح فيه، فوصّى عليه امرأته قائلاً لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ﴾ [يوسف: ٢١].

وفي بيت العزيز ابتلي يوسف عليه السلام بمحنة عظيمة فاقت في عظمها كلّ المحن السّابقة.

لقد كانت محن إخوته له من باب المصائب الّتي لا اختيار له في دفعها، وأمّا ابتلاؤه هنا فبمعصية له الاختيار في دفعها أو الوقوع فيها. والثّبات عندها أشدّ على النّفس من الثّبات على ما سبق، خاصّة وأنّ تلك المعصية حفّت بالدّواعي المتكاثرة الّتي تدفع العبد دفعاً لارتكابها، والإقدام على فعلها(٢).

يقول تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٣، ٢٤](٣).

لقد كان يوسف عليه السلام ذا جمال وكمال وبهاء، فتعلّقت به امرأة العزيز

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٢١. شفاء العليل، ص: ٣٤. وانظر في معنى الآيتين: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٥٢ ـ ١٥٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٣٠ ـ ٧٣١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٥١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٢٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٣) انظر في معنى الآيتين: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٦٢ ـ ١٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٣٢ ـ ٧٣٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

وأحبّته حبّاً بلغ شغاف[1] قلبها، حتّى حملها على مراودته ومحاولته أن يواقعها، وكانت الدّواعي الدّاعية لوقوع تلك المواقعة قويّة جداً لا يثبت عندها إلّا من ثبّته الله وصبّره، من ذلك:

١ ـ إنّ الرّجل بطبعه يميل إلى المرأة كما تميل هي إليه، كميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطّعام، بل قد يكون أشدّ.

٢ ـ إنّ يوسف عليه السلام كان شابّاً، والشّهوة في الشّباب أقوى وأحدّ.

٣ ـ إنّه كان عزباً، لا زوجة تكسر قوّة شهوته.

٤ ـ كان غريباً، لا يحتشم كما يحتشم من كان في وطنه وبين أهله ومعارفه.

٥ ـ كانت المرأة ذات منصب وجمال، وكل من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

٦ ـ إنّها لم تكن ممتنعة ولا آبية، بل كانت طالبة راغبة.

٧ ـ إنّه كان في دارها وتحت سلطانها، وقد غلّقت الأبواب وغيّبت الرّقباء، وتهيّأت بما يحسّنها ويجمّلها لتدفعه على الفاحشة.

٨ ـ كان غلامها ومملوكها وفي دارها وخدمتها، يتاح له ما لا يتاح لغيره.

٩ ـ إنّها استعانت عليه بأئمّة المكر والاحتيال اللّائي أعنَّها عليه، ودعنَّه لطاعة أمرها، وتحقيق ما تصبو إليه.

١٠ ـ توعّدته بالسّجن والعذاب الأليم، وفي ذلك إكراه وإجبار له.

---

(١) شغاف: الشّغَافُ غِلافُ القَلْبِ. وهو جلدة دونه كالحجاب. وقيل: هي سُوَيْداؤُه. ويقال: بل هو غشاء القلب. وشَغَفَهُ الحُبُّ يَشْغَفُه شَغْفاً وشَغَفاً. وَصَل الحبّ شِغَاف قلبه.
وقوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] قيل: دخل حُبُّه تحت الشّغاف. وقيل: غَشَّى الحُبُّ قَلْبَهَا. وقيل: أصاب شَغَافها. انظر: لسان العرب: ٩/ ١٧٩. وانظر: القاموس المحيط، ص:١٠٦٦.

١١ ـ لم تظهر من الزوّج غيرة ونخوة تفرّق بينهما، وتبعد كلّ واحد عن صاحبه، والغيرة في الرّجل من أقوى ما يمنع من وقوع الفاحشة في أهله[١].

إلّا إنّه عليه السلام مع كلّ هذه الدّواعي وقوّتها آثر مرضاة الله، وقدّم حبّ الله على شهوة النّفس، وطاعة الله على طاعة الهوى، وثبت ثبات الرّاسيات في موطن لا يثبت فيه إلّا الّذين كمل إخلاصهم وصدقهم، وغمرت قلوبهم مخافة الله، وصقلها اليقين، فلا تتحرك إلّا في طاعته، ولا تنساق إلّا لمراده واختياره سبحانه، يحيط كلّ ذلك حفظ الله وعنايته.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤][٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فليتدبّر اللّبيب هذه الدّواعي الّتي دعت يوسف إلى ما دعته، وأنّه مع توفّرها وقوّتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك، ولا من ينجيه من المخلوقين، ليتبيّن له أنّ الّذي ابتلي به يوسف كان من أعظم الأمور، وأنّ تقواه وصبره عن المعصية حتّى لا يفعلها مع ظلم الظّالمين له حتّى لا يجيبهم كان من أعظم الحسنات وأكبر الطّاعات، وإنّ نفس يوسف عليه الصّلاة والسّلام كانت من أزكى الأنفس»[٣].

---

(١) الجواب الكافي، ص:١٤٨، ١٤٩، بتصرف. وانظر: دقائق التّفسير: ٣/ ٤٣٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٥١.

(٢) والهمّ هنا: همّ خطرات، وهو حديث النّفس، لا همّ إصرار. وعلى مثله يجازى العبد بالحسنات. وفي الحديث القدسي: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالى قال: «إنّ الله كتب الحسنات والسّيئات ثمّ بيّن ذلك. فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همّ بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيّئة واحدة». صحيح مسلم، بلفظه، في كتاب الإيمان: (١). باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت، وإذا همّ بسيّئة لم تكتب: (٥٩)، برقم: (١٣١)، ١/ ١١٨. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ٧٤٠. دقائق التّفسير: ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٣٤.

(٣) دقائق التّفسير: ٣/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

لقد امتنع يوسف عليه السلام أشدّ الامتناع من الوقوع في الفاحشة، وعصمه الله لصدقه وإخلاصه من مطاوع المرأة، واختار السّجن والذّل والحبس مع الطّهارة والنّقاء، على العز وقضاء الشّهوة والمال مع المعصية والفحشاء. ولذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤][1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

و«في قول يوسف ـ فذكر الآية الأولى ـ عبرتان:

أحدهما: اختيار السّجن والبلاء على الذّنوب والمعاصي.

والثّانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبّت القلب على دينه، ويصرّفه إلى طاعته، وإلّا فإذا لم يثبت القلب وإلّا صبا إلى الآمرين بالذّنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكّل على الله واستعانة به أن يثبّت القلب على الإيمان والطّاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطّاعة»[2].

وجزاء لهذا الثّبات وذاك الصبّر أخرجه الله عز وجل من السّجن معزّزاً مكرّماً، فتحقّق الملك من براءته ونزاهة عرضه ممّا نسب إليه، وعلم أمانته وصبره وجلده، وعظمت عنده منزلته، فجعله من خاصّته وأهل مشورته، ومكّنه في أمر مملكته بتمكين الله له، فصار نافذ القول، عزيز الجانب، فنال بذلك عزّ الدّنيا وسعادتها. وما ادّخره الله له في الآخرة أعظم وأجل.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

(١) وانظر في معنى الآيتين: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٨٤ ـ ١٨٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٣٨. روح المعاني: ١٢/ ٢٣٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) دقائق التّفسير: ٣/ ٤٢٩.

فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٧][(١)].

إنّ يوسف عليه السلام لمّا لم يخش للنّوائب وعيداً، ولا للتّجارب تهديداً، ولم يخف للسّجن ظلماً وشرّاً، ولا للتّنكيل به ألماً وضرّاً، بل ألقى توكّله على الرّب، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب، نال بطهارته وتقواه تاج الفخر، ولسان الصّدق طول أيّام الدّهر؛ وها إنّ فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيّام، ولم يعبث بنضارته كرور الأعوام، بل ادّخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التّجارب، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب، ومقتدى نتدرب به على التّثبت في مواقف العثار، وننهج منهاجه في التّقوى وطيب الإزار، فننال في الدّنيا سمة المجد، ونفوز في الآخرة بدار الخلد[(٢)].

قال بعضهم:

أما في نبيّ الله يوسف أسوة مثلك محبوساً على الجور والإفك[(٣)]

أقام جميل الصّبر في الحبس برهة فآل به الصّبر الجميل إلى الملك[(٤)]

المطلب الرّابع

أيّوب عليه السلام

إنّ قصة أيّوب عليه السلام مثل رائع للثّبات عند الابتلاء، وأنموذج فريد للصّبر عند الشّدائد والمحن. فيها عبرة لكلّ معتبر، وأسوة لكلّ متأسٍ. ولذا أوردها الله في قرآنه في سياق التّذكير والتّنبيه، والحضّ، والتّنويه، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١].

---

(١) انظر في معنى الآيات: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢١٠ ـ ٢٢٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٤٥ ـ ٧٤٦.

(٢) محاسن التّأويل: ٩/ ٣٥٥٨.

(٣) الإفك: هو الكذب. انظر: مختار الصّحاح، ص:١٩. لسان العرب: ١٠/ ٣٩٠. القاموس المحيط، ص:١٢٠٣.

(٤) هذان البيتان للبحتري في ديوانه، طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ٢/ ٣٧١.

وفي الآية الأخرى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ففيها تسلية للنّبي محمّد ﷺ فيما أصابه من الأذى، وتذكير له بحال إخوته الأنبياء السّابقين وما أصابهم من البلاء، ليجد في ذلك عوناً على الصّبر والثّبات عند حدوث الملمّات والشّدائد القاسيات، وأن يحسن الثّناء والذّكر على أيّوب عليه السلام، الّذي ضرب مثلاً في الصّبر للعالمين طرّاً، فتحدّثت بصبره الرّكبان، وشاع ذكره في جميع الأوطان.

لقد ذكر أهل العلم أنّ أيّوب عليه السلام كان في نعمة عظيمة وخير وفير. كثرت عنده الأموال بأصنافها وأنواعها، من الأنعام والعبيد والأراضي والمساكن، وكثر أولاده وأهله، ثمّ حلّ به البلاء في ماله وولده فذهب ذلك كلّه، وأصيب في جسده بمرض شديد وخيم.

وقد ورد في بلائه روايات متعدّدة ومختلفة، وأكثرها من الإسرائيليات الّتي ملئت بما ينافي مقام النّبوّة.

وإن كان يؤخذ من مجموع تلك الرّوايات ما يفيد أنّ أيّوب عليه السلام ابتلي ببلاء فادح وضرّ عظيم، ولكن لم يزده ذلك البلاء إلّا صبراً وثباتاً، وحمداً وشكراً حتّى ضرب به المثل(١).

فلمّا طال به الأمد، واشتدّ به الحال، وتمّ الأجل المقدّر لمكثه في البلاء، رفع أكفّ الضّراعة لباسط الأرض ورافع السّماء ليكشف ما به من ضرّ ويرفع ما به من ابتلاء.

لقد علم عليه السلام أنّ الّذي يكشف الضّر هو الله، والّذي يلجأ إليه عند المحن والشّدائد هو قيّوم السّماوات والأرض، الّذي إذا دعي أجاب وإذا سئل أعطى.

فطرح نفسه بين يديه، وشكا حاله مبتهلاً إليه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ

---

(١) انظر: البداية والنّهاية: ١/٢٠٧، طبعة: دار الكتب العلميّة.

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١][١]. وليس ذلك جزعاً منه عليه السلام لأنّ الشّكوى إلى الله لا تنافي الثّبات والصّبر، وإنّما ينافيه الشّكوى إلى المخلوق[٢]، وقد أزال الله اللّبس بقوله مادحاً له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

عند ذلك أمره الله بأمر فيه صلاحه ونجاحه، فقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢].

أي حرّك الأرض وادفعها برجلك، فانبجست[٣] له عين، اغتسل منها وشرب. وقيل عينان اغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، فبالاغتسال ذهب البلاء من ظاهره، وبالشّراب ذهب البلاء من باطنه، ففرّج الله عنه، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً[٤].

وهكذا يفعل الله بعباده الأتقياء، فيفرّج عنهم عند الشّدّة، ويكشف ما بهم عند الضيّق، متى علم إخلاصهم وصدقهم، وصبرهم وثباتهم.

وأعطي عليه السلام أهله ومثلهم معهم، كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص: ٤٣].

قيل: ردّوا عليه بأعيانهم، وقيل: بل أعطي مثل أهله الّذين هلكوا، وأعطي أجرهم في الدّنيا[٥].

---

(١) وانظر في معنى الآيتين في: جامع البيان: ١٧/ ٥٧، ٢٣/ ١٦٦، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ١٢/ ٤٦٤. التّفسير الكبير: ٢٢/ ٢٠٣، ٢٦/ ٢١٢. الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٢٥، ١٥/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠١، ٤/ ٦٠. تفسير أبي السّعود: ٧/ ٢٢٨. روح المعاني: ١٧/ ٨٠ ـ ٨١، ٢٣/ ٢٠٦. محاسن التّأويل: ١١/ ٤٢٩٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٧٨، ٦٦٠.

(٢) انظر، ص: ٣٥٤ من هذا البحث.

(٣) انبجست: أي انشقّت وتفجّرت. انظر: القاموس المحيط، ص: ٦٨٤.

(٤) انظر: جامع البيان: ٢٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧، طبعة: الحلبي. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢١١. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٠. تفسير أبي السّعود: ٧/ ٢٢٩. روح المعاني: ٢٣/ ٢٠٧.

(٥) انظر: جامع البيان: ١٧/ ٧٢ ـ ٧٣، طبعة: الحلبي. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤، ٤/ ٦١. روح المعاني: ١٧/ ٨١.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

أي فعلنا به ذلك، ورحمناه رحمة شاملة ينال بها الجزاء عاجلاً وآجلاً لصبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته[1]. ورزقناه رزقاً واسعاً حتّى صببنا عليه المال صباً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه رِجْل جراد[2] من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربّه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عمّا ترى؟ قال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك»[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أيّوب نبي الله ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلّا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان. فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيّوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلمّا راح إليه لم يصبر الرّجل حتّى ذكر ذلك له. فقال أيّوب: لا أدري ما تقول، غير أنّ الله يعلم أنّي كنت أمرّ على الرّجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهيّة أن يذكر الله إلّا في حقّ. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٦٠.

(٢) رِجْل جراد: هي الجماعة الكثيرة من الجراد. انظر: الفائق: ٢/ ٤٧. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٤١١. غريب الحديث للخطّابي: ٢/ ٣٨٨. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٠٣.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في كتاب: أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]: (٢٠/ ٢١)، برقم: (٣٣٩١)، ص: ٧١٥، وبلفظه إلّا أحرف يسيرة في كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]: (٣٥)، برقم: (٧٤٩٣)، ص: ١٥٧٣، وبلفظ مقارب في كتاب: الغسل (الوضوء): (٥/ ٤)، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، ومن تستّر فالسّتر أفضل: (٢٠/ ٩٩)، برقم: (٢٧٩)، ص: ٧٥.

قضى حاجته أمسكت امرأته بيده. فلمّا كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيّوب في كتابه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان، فلمّا رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أحداً كان أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: فإنّي أنا هو. وكان له أندران، أندر[1] القمح وأندر الشّعير. فبعث الله سحابتين، فلمّا كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذّهب حتّى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشّعير الوَرِق حتّى فاضت»[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

أي إنّ الله تعالى جعل قصّته عبرة لأصحاب العقول النّيّرة، ليستشفّوا من خلالها القدوة والأسوة، فيوطّنوا أنفسهم على الصّبر والثّبات عند الشّدائد والبلايا، وليعلموا أنّ الله قد يبتلي أولياءه وأحباءه بأنواع من البلاء، في النّفس والأهل والمال، لا لهوانهم عليه، ولكن لبلوغ ما أعدّ لهم من منازل لم تبلغها أعمالهم، فيجزيهم بذلك الجزاء الحسن والثّواب العظيم.

---

(١) الأنْدَر: هو البَيْدَرُ، وهو الموضع الّذي يُداسُ فيه الطّعام بلغة الشّام. والأنْدَر أيضاً صُبْرة من الطّعام، وهَمْزة الكلمة زائدة. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٧٤.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب من امتحن بمحنة في الدّنيا فيلقاها بالصّبر، برقم: (٢٨٩٨). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده على شرط مسلم»: ٧/ ١٥٧ ـ ١٥٩.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رَحِمَهُ اللهُ: «على شرط البخاري ومسلم». وفيه: «أنّه لبث في بلائه خمس عشرة سنة». مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٦/ ٢٩٩ ـ ٣٠١، برقم: (٣٦١٧).

وقال الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ: «رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصّحيح». مجمع الزّوائد: ٨/ ٢٠٨.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «أصح ما ورد في قصته»، فذكره، إلّا أنّه ذكر أنّ مدّة بلائه ثلاث عشرة سنة. فتح الباري: ٧/ ٧٨.

وفيه تثبيت لقلوبهم، مهما طال بهم البلاء واشتدّ عليهم الأذى، فلا ييأسوا من رحمة الله وسعة فضله[1].

ومن تمام نعمة الله وفضله عليه قوله له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ[2] ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

وذلك أنّه غضب على امرأته في أمر فعلته، فحلف إن شفاه الله ليضربنّها، فلمّا شفي أبرّ الله يمينه، وجعل له مخرجاً من نذره، فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو شجر أو شمراخ[3] فيضربها بها ضربة واحدة لأنّها كانت محسنة له، صابرة محتسبة، كابدت معه المشاقّ، وقاست معه الشّدائد، فمن الإحسان إليها ألّا تجازى بالضّرب والأذى؛ فخفّف الحكم في شأنها رحمة بها، ومنعاً لأيّوب عليه السلام من الحنث في يمينه[4].

وكلّ هذه النّعم وذلك الإحسان الّذي سيق لأيّوب عليه السلام من كشف البلاء عنه، وإرجاع أهله وأولاده أو مثلهم له، وبسط المال وسعة الرّزق، إضافة إلى ما ادّخر له من أجر عظيم في الآخرة. كلّ ذلك بسبب صبره وثباته عند البلاء، وإقباله على طاعة ربّه ورضائه بقدره، وإكماله لمراتب العبوديّة له في الشّدّة والرّخاء، والضّرّاء والسّرّاء. ولذلك مدحه الله بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

---

(١) انظر في معنى الآيتين، جامع البيان: ١٧/ ٧٣، طبعة: الحلبي. المحرر الوجيز: ١٢/ ٤٦٨. التّفسير الكبير: ٢٢/ ٢١٠، ٢٦/ ٢١٥. الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٢٧. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٤. روح المعاني: ١٧/ ٨١، ٢٣/ ٢٠٧. محاسن التّأويل: ١١/ ٤٢٩٧ ـ ٤٢٩٨.

(٢) الأوّاب: كالتّوّاب وهو الرّاجع إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطّاعات. المفردات، ص: ٣٠.

(٣) شمراخ: الشّمْراخُ والشّمْروخ: العِثْكالُ الّذي عليه البُسْرُ. وأصله في العِذْق، وقد يكون في العنب. لسان العرب: ٣/ ٣١. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٣٢٥

(٤) انظر: جامع البيان: ٢٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩، طبعة: الحلبي. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦١. تفسير أبي السّعود: ٧/ ٢٢٩. روح المعاني: ٢٣/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٦٠. وانظر: البداية والنّهاية: ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.



أتباع الرّسل عليهم السلام

ما سبق من نماذج للثّابتين على الابتلاء يتعلّق بأنبياء الله ورسله. وقد يعترض معترض بأن أنبياء الله ورسله معصومون، ومن عصمة الله لهم أن يثبّتهم عند المحن والشّدائد، وعند الأوامر والنّواهي، فكيف بغيرهم ممّن لم يعصموا؟

وللجواب على ذلك في الجملة:

فأقول: إنّ الأنبياء والرّسل جعلوا أسوة وقدوة للبشر فيما كلّفهم الله به لإبلاغه للعباد، والأسوة والقدوة لا تتأتّى في غير المستطاع والمقدور عليه من الأقوال والأفعال، والثّبات عند الابتلاء من المقدور عليه الّذي يتأتّى فيه التّأسّي والاقتداء. ولذا أخبر الله تعالى من أخبار الرّسل والأنبياء في شأن الثّبات على البلاء لهذا القصد.

وأمّا التّفصيل فإنّي أورد مثالين فذّين من غير الأنبياء والرّسل، أحدهما في هذه الأمّة والآخر في الأمم السّابقة. وإن كانت الأمثلة كثيرة جداً لا يمكن حصرها، ولكن في القليل ما يغني عن الكثير، والقصد من ذلك التّمثيل لا الحصر.

وليكن الأوّل في الثّبات عند النّقم والآخر في الثّبات عند النّعم ليتحقّق المراد، ويتمّ المقصود. والحديث عنهما في المطلبين الآتيين:

المطلب الأوّل

خبيب بن عدي رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة عيناً، وأمّر عليهم

عاصم بن ثابت[1] الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب[2] حتّى إذا كانوا بالهَدْأة[3] بين عَسْفان[4] ومكّة ذكروا لحيّ من هُذْيل[5] يقال لهم بنو لِحْيان[6]، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ، فاقتصّوا آثارهم حتّى وجدوا مأكلهم التّمر

---

(١) عند ابن إسحاق ﷺ: أنّه أمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي. انظر: السّيرة النّبوية لابن هشام: ٣/١٢٥. وإن كان ابن إسحاق ﷺ إماماً في المغازي والسّير إلّا أنّ ما في الصّحيح أكثر طمأنينة، والله أعلم.

(٢) عاصم بن عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي، أبو عمر ويقال أبو عمرو القرشي المدني. ولد في حياة النّبي ﷺ فهو من كبار التّابعين. كان جوّاداً نبيلاً، من عقلاء قريش وعبّاد التّابعين، مات سنة ٧٠هـ وقيل: بعدها.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ١٥. طبقات خليفة، ص: ٢٣٤. التّاريخ الكبير: ٦/ ٤٧٧. معرفة الثّقات: ٢/ ٩. الجرح والتّعديل: ٦/ ٣٤٦. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٢٣٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٦. التّعديل والتّجريح: ٣/ ٩٩٥. تهذيب الكمال: ١٣/ ٥٢٠. الكاشف: ١/ ٥٢٠. الإصابة: ٥/ ٣. تهذيب التّهذيب: ٥/ ٤٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٨٦.

(٣) الهدأة: اسم موضع بين عسفان ومكّة، ولس هو الهدة الّذي بين مكّة والطّائف، فهذا بدون ألف. انظر: معجم البلدان: ٥/ ٣٩٥.

(٤) عسفان: بضم أوّله ـ في صحيح البخاري بفتح أوّله ـ وسكون ثانيه ثمّ فاء وآخره نون فعلان من عسفت المفازة وهو يعسفها، وهو قطعها بلا هداية ولا قصد، وكذلك كلّ أمر يركب بغير رويّة، قيل: سميت عسفان لتعسّف السّيل فيها كما سمّيت الأبواء لتبوّء السّيل بها، وهي منهلة من مناهل الطّريق بين الجحفة ومكّة، على ستة وثلاثين ميلاً من مكّة وهي حدّ تهامة. معجم البلدان: ٤/ ١٢١ ـ ١٢٢. بتصرف.

(٥) هُذيل: قبيلة من كبار القبائل الحجازيّة، ينسبون إلى هذيل بن مدركة بن إلياس، ولهم بطون متعدّدة.
انظر: جمهرة أنساب العرب، لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ١/ ١٩٦. قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزّمان، لأبي العبّاس أحمد بن عليّ القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، طبع مطبعة السّعادة، نشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ص:١٣٣ ـ ١٣٤. المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب، لعبد الرّحمٰن بن حمد بن زيد المغيري اللّامي الطّائي، تحقيق: إبراهيم محمّد الزّايد، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص:٥٤٣ ـ ٥٤٦.

(٦) بنو لحيان: بطن من هذيل، وهم بنو لحيان بن هذيل، ولهم أفخاذ عدّة. وانظر: جمهرة أنساب العرب: ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧. قلائد الجمان، ص:١٣٣. المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب، ص:٥٤٦.

في منزل نزلوه، فقالوا تمر يَثْرب[1]، فاتّبعوا آثارهم، فلمّا حسّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً

فقال عاصم بن ثابت: أيّها القوم أمّا أنا فلا أنزل في ذمّة كافر، ثمّ قال: اللّهم أخبر عنّا نبيك ﷺ. فرموهم بالنّبل فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خبيب وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر[2]، فلمّا استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قِسيِّهم فربطوهم بها، قال الرّجل الثّالث: هذا أوّل الغدر، والله لا أصحبكم، إنّ لي بهؤلاء أسوة، يريد القتلى، فجرّروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم. فانطلق بخبيب وزيد بن الدّثنة حتّى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر. فلبث خبيب عندهم أسيراً حتّى أجمعوا قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يَسْتَحِدُّ[3] بها، فأعارته، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتّى أتاه، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده. قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يد وإنّه لموثق بالحديد وما بمكّة من ثمرة. وكانت تقول: إنّه لرزق رزقه الله خبيباً.

فلمّا خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحلّ، قال لهم خبيب: دعوني أصلّي ركعتين. فتركوه، فركع ركعتين. فقال: والله لولا أن تحسبوا أنّ ما بي

---

(١) يثرب: بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الرّاء وباء موحدة هي مدينة رسول الله ﷺ. سمّيت بذلك لأنّ أوّل من سكنها عند التّفرق يثرب بن قانية، فلمّا نزلها رسول الله ﷺ سمّاها طيبة وطابة كراهية للتّثريب، وسمّيت مدينة الرّسول لنزوله بها. معجم البلدان: ٥/ ٤٣٠، بتصرّف. وانظر: معجم ما استعجم: ٤/ ١٣٨٩.

(٢) واسمه: عبد الله بن طارق. السّيرة النّبوية لابن هشام: ٣/ ١٢٧.

(٣) يستحدّ: من الاسْتِحدَاد وهُو حلق العَانة بالحَدِيدة، واسْتَحَدَّ ﷺ لئلا يَظْهَر شعر عَانَتِه عنْد قتله. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٥٣. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.

جزع لزدت. ثمّ قال: اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً[1] ولا تبق منهم أحداً، ثمّ أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شِلْو ممزّع[2]

ثمّ قام إليه أبو سَرْوَعَةَ عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب هو سنَّ لكلّ مسلم قتل صبراً الصّلاة.

وأخبر أصحابه يوم أصيبوا خبرهم. وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حدّثوا أنّه قتل أن يؤتوا بشيء منه يُعرف ـ وكان قتل رجلاً عظيماً من عظمائهم ـ فبعث الله لعاصم مثل الظُّلَّة[3] من الدّبْرِ[4] فحمته من رسلهم فلم

---

(١) بدداً: البِدَد: جمع بِدَّة وهي الحِصَّة، والتّقدير: واقْتُلْهم قَتْلاً بِدَداً، أي قَتْلاً مقسوماً عليهم بالحِصص، وعن الأصمعي: اللّهُمّ اقتلهم بَدَداً، بفتح الباء أي مُتفرّقين. انظر: الفائق: ٣/ ٢١. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ١١٠.

(٢) الشّلْو هو العضو. انظر: الفائق: ٢/ ٢٦٠. وممزّع: مقطّع. وانظر: الفائق: ٣/ ٣٦٣. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٢٥.
قال ابن إسحاق رحمه الله: وكان ممّا قيل في ذلك من الشّعر، قول خبيب بن عدي حين بلغه أنّ القوم قد اجتمعوا لصلبه:

لقد جمع الأحزاب حولي وألّبوا   قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وكلّهم مبدي العداوة جاهد   عليّ لأنّي في وثاق بمضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم   وقرّبت من جذع طويل ممنّع
إلى الله أشكو غربتي ثمّ كربتي   وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبّرني على ما يراد بي   فقد بضّعوا لحمي وقد يئس مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزّع
وقد خيروني الكفر والموت دونه   وقد هملت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت إنّي لميّت   ولكن حذاري جحيم نار ملفّع
فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي
فلست بمبد للعدوّ تخشّعاً   ولا جزعاً إنّي إلى الله مرجعي

قال ابن هشام رحمه الله: وبعض أهل العلم بالشّعر ينكرها له. السّيرة النّبوية لابن هشام: ٣/ ١٣٠.

(٣) الظّلّة: هي كلّ ما أظلّك، تطلق على السّحابة. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٦٠.

(٤) الدّبْرِ: بسكون الباء النّحْلُ، وقيل الزّنابير. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٩٩. وانظر: الفائق: ٣/ ٢١١.

يقدروا أن يقطعوا منه شيئاً»[1].

إنّ خبيباً ﷺ ضرب مثلاً رائعاً، وأنموذجاً فريداً في الثّبات قلّ أن يوجد نظيره. رجل يقاد إلى الموت من أناس أطغى الكفر قلوبهم، وغطّ الحقد نفوسهم، وغابت الرّحمة والشّفقة من بين جوانحهم، وهو يعلم مصيره الّذي ينتظره، إنّه القتل، وقد يكون بأبشع صوره. ومع ذلك يملأ الإيمان قلبه، واليقين نفسه، فيتدفّق صبراً وثباتاً فلا يخاف ولا يجزع، بل ولم يصدر منه فعل أو قول يجد المشركون فيه بغيتهم أو يُشفى به غليلهم، بل الصّلاة الّتي هي قربة لله لمّا خشي أن يجدوا فيها متنفّساً لهم إذا أطال فيها أو زاد من ركعاتها فيستشعروا من ذلك جزعه وعدم ثباته تجوّز فيها ﷺ.

بل من يلقي نظرة خاطفة على أبيات الشّعر الّتي تفوّه بها عند قتله يجدها تشعّ صبراً وثباتاً وصدقاً وولاء لهذا الدّين، وقد خير أن يطلق سراحه عند مفارقة دينه أو القتل مع بقائه عليه، فاختار البقاء مع القتل، وما دام ذلك في ذات الله ومن أجله فالأمر ميسور عنده لا وزن لقتله حينئذ، إذ كان هدفه الآخرة، ونيل رضا الله ليست هذه الدّنيا الفانية، ولذا أظهر من البسالة ما يعجز المرء عن تصوّره.

قال له أبو سفيان: أيسرّك أنّ محمّداً عندنا تضرب عنقه، وإنّك في أهلك؟ فقال: «لا والله، ما يسرّني أنّي في أهلي، وأنّ محمّداً في مكانه الّذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه»[2].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: (٦٤/٣٨)، باب: (١٠)، برقم: (٤٠٨٦)، ص: ٨٥٥ ـ ٨٥٦.
وفي كتاب: الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢). باب هل يستأثر الرّجل ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل: (١٧٠/ ١٦٩)، برقم: (٣٠٤٥)، ص: ٦٤١ ـ ٦٤٢، وقطعة منه في كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب ما ذكر في الذّات والنّعوت، وأسامي الله ﷻ: (١٤)، برقم: (٧٤٠٢)، ص: ١٥٥٤.
وانظر: في شأن خبيب ﷺ: السّيرة النّبوية لابن هشام: ٣/ ١٢٥ ـ ١٣٤. زاد المعاد: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦. البداية والنّهاية: ٤/ ٦٤ ـ ٧١. سير أعلام النّبلاء: ١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٩. الإصابة: ٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٢) زاد المعاد: ٣/ ٢٤٥. وانظر: البداية والنّهاية: ٤/ ٦٦. عند ابن إسحاق ﷺ: أنّ قائل ذلك هو زيد بن الدّثِنة. انظر: السّيرة النّبوية لابن هشام: ٣/ ١٢٧.

إنّها عبارة تترجم الولاء والصّدق الّذي ملئ به قلبه.

بهذا النّوع من البشر نصر الله دينه، وأعلى كلمته. ولذلك اختارهم لصحبة نبيّه وإعزاز دينه، فرضي الله عن خبيب وعن الصّحابة أجمعين.

المطلب الثّاني

الأعمى الشَّكور

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه سمع النّبي ﷺ يقول: «إنّ ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص[1] وأقرع[2] وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عنّي الّذي قد قَذِرَني[3] النّاس. قال: فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل (أو قال: البقر. شكّ إسحاق[4]) إلّا أنّ الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر. قال: فأعطي ناقة عُشَرَاء[5]. فقال: بارك الله لك فيها.

---

(١) قال في القاموس: «البرص: ـ محرّكة ـ بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج، بَرِص كفرح فهو أبرص، وأبرصه الله، والّذي ابيضّ من الدّابة من أثر العضّ». القاموس المحيط، ص:٧٩٠.

(٢) الأقرع: هو الّذي ذهب شعر رأسه. انظر: المرجع السابق، ص:٩٦٩.

(٣) قذرني النّاس: يقال قَذِرْت الشّيء أَقْذَرُه إذا كَرِهْتَه واجْتَنَبْته، يريد أنّهم تقذّذوا منه واشمأزّوا من رؤيته. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٢٨. فتح الباري: ٧/ ١٨٠.

(٤) هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، أبو يحيى الأنصاري، مدني، تابعي، ثقة حجة، توفي سنة ١٣٢هـ، وقيل: بعدها.
وانظر: التاريخ الكبير: ١/ ٣٩٣. معرفة الثقات: ١/ ٢١٩. الجرح والتعديل: ٢/ ٢٢٦. ثقات ابن حبان: ٤/ ٢٣. تهذيب الكمال: ٢/ ٤٤٤. الكاشف: ١/ ٢٣٧. تهذيب التهذيب: ١/ ٢١٠. التقريب: ١/ ١٠١.

(٥) عُشَرَاء: هي النّاقة الّتي أتى على حمْلها عشرة أشهر، ثمّ لا يزال ذلك إسمها حتّى تضع، وبعد أن تضع أيضاً. وجَمْعُها عِشار، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التّكوير: ٤]. ومثله في التّقدير امرأة نُفَسَاء، وجمْعُها نِفَاس. ويقال عشَّرت فهي عُشَراء، ولا يقال ذلك إلّا للنَّاقة، وهي من أنفس المال. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٣٤٠. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٣/ ١٦٤. النّهاية في=

قال: فأتى الأقرع فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عنّي هذا الّذي قذرني النّاس. قال: فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأعمى فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به النّاس، قال: فمسحه، فردّ الله إليه بصره، قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً.

فأُنْتِجَ[1] هذان وولَّد هذا. قال: فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثمّ إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحِبال[2] في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلّا بالله ثمّ بك، أسألك بالّذي أعطاك اللّون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلّغ عليه في سفري. فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأنّي أعرفك، ألم تكن أبرص يَقْذَرُك النّاس؟ فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنّما ورثت هذا المال كابراً عن كابر[3]، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ على هذا. فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

= غريب الحديث: ٣/ ٢٤٠. فتح الباري: ٧/ ١٨٠. عمدة القارئ: ١٦/ ٤٨.

(١) أُنْتِج: - رباعي - وهي لغة قليلة الاستعمال، والمشهور نتج - ثلاثي - ومعناه: تولّي الولادة، وهي النّتج والإنتاج. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٩٨. وانظر: فتح الباري: ٧/ ١٨٠. عمدة القارئ: ١٦/ ٤٨
قال ابن الأثير: «فَأَنْتَج هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا: كذا جاء في الرّواية أنْتَج، وإنّما يُقال: نَتَجَ، فأمّا أنْتَجَتْ فمعناه إذا حَمَلت أو حَانَ نِتَاجُها، وقيل: هُما لُغتان». النّهاية في غريب الحديث: : ٥/ ١٢.

(٢) جمع حبل: أي الأسباب الّتي يقطعها في طلب الرّزق، وقيل العقبات، وقيل: الحبل هو المستطيل من الرّمل. فتح الباري: ٧/ ١٨٠ - ١٨١. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٣٣. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٩٩. عمدة القارئ ١٦/ ٤٩.

(٣) أي ورثته عن آبائي الّذين ورثوه من أجدادي الّذين ورثوه من آبائهم كبيراً عن كبير في العزّ والشّرف والثّروة. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ٩٩. وانظر؛ فتح الباري: ٧/ ١٨١. عمدة القاري: ١٦/ ٤٩.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحِبَالُ في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلّا بالله ثمّ بك، أسألك بالّذي ردّ عليك بصرك، شاة أتَبَلَّغُ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فردّ الله إليَّ بصري فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ ما شئتَ، فَوَ اللّهِ لا أَجْهَدُكَ اليومَ شيئاً أَخَذْتَهُ لله[1] فقال: أَمْسِكْ مَالَكَ، فإنّكما ابتليتمْ، فَقَدْ رُضِيَ عنك، وسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[2].

إنّ الله تعالى ابتلى هؤلاء الثّلاثة، فأبدل حالهم من شرّ إلى خير، ومن نقم إلى نعم. فبعد أن كانوا فقراء لا مال لهم، يستقذرهم النّاس على ما فيهم من عاهات، فأصلح شأنهم، ووهبهم من الأموال الطّائلة ليشكروا نعمته، ويحمدوه على فضله، ويعرفوا حقّه فيها، فيكرموا الضّعفاء، ويعطوا الفقراء، ويحسنوا إلى المحتاجين، لتدوم لهم تلك النّعم.

أمّا الأبرص والأقرع فلم يفعلا من ذلك شيئاً، بل جحدا نعم الله عليهما، وكفرا فضل الله لهما، وحرما من يستحقّ الإنفاق والعطاء، وبخلا بمال الله الّذي أعطاهما، بل وحملهما ذلك البخل على الكذب فأنكرا أن يكونا على الحال الذي كانا عليه من قبل. فلم يثبتا عند الابتلاء، ولم يجتازا اختيار الله لهما، فسلبا النّعم، وأبدلا النّقم، وعادا إلى ما كانا عليه من الحال السيّئ، والفقر المدقع، وإهانة النّاس لهما.

وأمّا الأعمى فقد وفّقه الله وأعانه وثبّته عند الابتلاء، فعرف النّعمة وعرف المنعم بها. شكر الله الّذي أنار له بصره بعد العمى، وأغناه بعد الفقر، وأعزه بعد الذّل، وحمده على ما وهبه من نعم وأزال عنه من المصائب والنّقم، وبذل المطلوب، وأعطى من يستحقّ العطاء، غير بخيل بمال الله، ولا شحيح بفضل الله، فثبت عند الامتحان وصبر عند الاختبار، فثبتت له النّعمة، وزالت عنه النّقمة، ودام له الفضل. وهكذا يكون الثّبات عند الابتلاء بالنّعم.

---

(١) أي: لا أشقّ عليك بردّ شيء تأخذه أو تطلبه من مالي. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١٠٠. وانظر: فتح الباري: ٧/ ١٨١. عمدة القارئ: ١٦/ ٤٩.

(٢) صحيح البخاري ـ بلفظ مقارب ـ كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل: (٥١)، برقم: (٣٤٦٤)، ص: ٧٣٤.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣)، برقم: (٢٩٦٤)، ٤/ ٢٢٧٥ـ٢٢٧٧.

الباب الثّالث

الثبات في الدّعوة إلى الله تعالى

الفصل الأوّل: معاني الدّعوة في اللّغة والشّرع واصطلاح الدّعاة.

الفصل الثّاني: أهميّة الدّعوة إلى الله والغاية منها وحكمها.

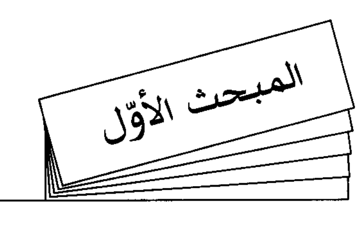
الفصل الثّالث: عوامل الثبات في الدّعوة إلى الله تعالى.

الفصل الرّابع: نماذج للثبات في الدّعوة.



الفصل الأوّل

معاني الدّعوة في اللّغة والشّرع والاصطلاح



معاني الدّعوة في اللّغة

يقال: دعا بالشّيء دَعْواً ودَعْوةً ودُعاءً ودَعْوى: طلب إحضاره، ودعاه إليه: حثّه على قصده[1]، ورغّبه فيه، وقرّبه إليه[2]، وساقه إليه[3].

ودعوت فلاناً: صحت به واستدعيته[4]، وناديته[5]. ومنه دعا الميّت: أي ندبه، كأنّه ناداه[6].

ودعوته زيداً: أي سمّيته به[7]. وتدعو القطا: أي تصوّت[8]. ويقال: ما دعاك إلى هذا الأمر: أي ما الّذي جرّك إليه واضطّرك[9]. ودعاه الله بمكروه: أنزله به[10].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٦.
(٢) انظر: معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩.
(٣) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩. المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٦.
(٤) انظر: الصّحاح: ٦/ ٢٣٣٧. أساس البلاغة، ص: ١٣١. مختار الصّحاح، ص: ٢٠٦. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٨.
(٥) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٥٨. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩. المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٦.
(٦) انظر: أساس البلاغة، ص: ١٣١. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩. المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٦.
(٧) انظر: أساس البلاغة، ص: ١٣١. لسان العرب: ١٤/ ٢٦١. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩. المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٦.
(٨) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٣. لسان العرب: ١٤/ ٢٦٠.
(٩) تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٣. لسان العرب: ١٤/ ٢٦٠. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨.
(١٠) انظر: أساس البلاغة، ص: ١٣١. لسان العرب: ١٤/ ٢٦٠. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩.

ودعا إلى الصّلاة: أذّن[1]، ودعا بالكتاب: استحضره[2].

ودعا الله: طلب منه الخير، وابتهل إليه، واستغاث به، وعبده، وأثنى عليه[3]. ولذا يقال: دعا الله لفلان: طلب له الخير منه، ودعا على فلان: طلب له الشّرّ[4].

والدّعاء: واحد الأدعية[5]، وهو الرّغبة إلى الله تعالى[6] والاستغاثة به[7].

والدّعْوة: المرّة الواحدة من الدّعاء[8]، وتطلق على الدّعاء إلى الطّعام والشّراب، وخصّها البعض بالوليمة[9]. كما تطلق على الحِلْف[10]، والأذان[11]. وأمّا الدِّعوة ـ بالكسر ـ فهي الادِّعاء[12].

والدّاعية: هو الدّاعي الّذي يدعو إلى الدّين أو إلى فكرة. والهاء: للمبالغة[13]. والجمع دُعاة وداعون، كقضاة وقاضون[14]. ويطلق على صريخ الخيل في الحروب[15].

---

(١) المرجع السّابق: ٢/ ٤١٩.
(٢) انظر: أساس البلاغة، ص: ١٣١. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٩.
(٣) انظر: معجم متن اللّغة: ٢/ ٤١٩. (٤) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٦.
(٥) الصّحاح: ٦/ ٢٣٣٧. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٨. تاج العروس: ١٤/ ٤٠٥.
(٦) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٥٧. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥.
(٧) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١١٩. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٧. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨.
(٨) انظر: الصّحاح: ٦/ ٢٣٣٧. مختار الصّحاح، ص: ٢٠٦. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٨. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨.
(٩) انظر: المرجع السّابق: ١٩/ ٤٠٧.
(١٠) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٦٢. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٧. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤٢٠.
والحِلْف هو: العهد بين القوم. مختار الصّحاح، ص: ١٤٩. القاموس المحيط، ص: ١٠٣٥.
(١١) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٦. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤٢٠.
(١٢) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٠. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤٢٠.
(١٣) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٧. وانظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٢. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩.
(١٤) انظر: تاج العروس: ١٩/ ٤٠٦.
(١٥) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢١. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. القاموس المحيط، =

ويقال: المؤذّن داعي الله[1]. والنّبي داعي الأمّة إلى توحيد الله تعالى وطاعته[2].

وداعي اللّبن: ما يبقى في الضّرع ليدع ما بعده[3].

والدّعاة: قوم يدعو إلى بيعة هدى أو ضلالة[4]. ودواعي الدّهر: صروفه[5].

نخلص من هذه التّعريفات: أنّ الدّعوة تطلق ويراد بها معاني عدّة، منها: الطّلب، والحثّ على الشيء، والرّغبة فيه، والاستغاثة، والنّداء، والنّدب، والتّسمية، والثّناء.



= ص: ١٦٥٥. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٦. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤٢٠.

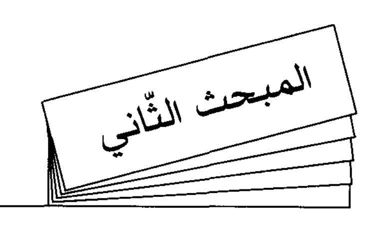
(١) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٠. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥.

(٢) تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٠. وانظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٦.

(٣) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢١. الصّحاح: ٦/ ٢٣٣٧. أساس البلاغة، ص: ١٣١. مختار الصّحاح، ص: ٢٠٦. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥.

(٤) تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٢. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٩.

(٥) الصّحاح: ٦/ ٢٣٣٧. أساس البلاغة، ص: ١٣١. لسان العرب: ١٤/ ٢٦٠. القاموس المحيط، ص: ١٦٥٥. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨. معجم متن اللّغة: ٢/ ٤٢٠. المعجم الوسيط: ١/ ٢٨٧.



معاني الدّعوة في الشّرع واصطلاح الدّعاة

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل

معاني الدّعوة في الشّرع

لقد تعدّدت معاني الدّعوة في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة كما تعدّدت في اللّغة، وإن كان جلّ تلك المعاني يدور حول الحثّ على الشّيء، وقصده، والرّغبة فيه، وطلبه، والميل نحوه. وبيان ذلك:

١ ـ الحثّ على الشّيء وقصده:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

فهي تعني هنا: الحثّ على الشّيء وقصده[١].

٢ ـ الاستغاثة:

قال تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، أي استغيثوا بهم[٢].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨][٣].

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، ص: ١٧٠.

(٢) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/١١٩. لسان العرب: ١٤/٢٥٧. تاج العروس: ١٩/٤٠٨.

(٣) انظر: إصلاح الوجوه والنّظائر، ص: ١٧٤.

٣ ـ العبادة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. أي الّذين تعبدون من دون الله[١].

ومثلها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١]، أي أنعبد من دون الله[٢].

٤ ـ النّداء:

قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، أي يوم ينادي المنادي. وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، أي إن تنادوهم لا يسمعوا نداءكم[٣].

٥ ـ السّؤال:

قال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي سل لنا ربّك[٤].

٦ ـ الجَعْل:

قال عزّ في علاه: ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩١]، أي جعلوا له ولداً[٥].

٧ ـ النّسبة:

قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، أي أنسبوهم لهم[٦]. وحمل بعضهم قوله تعالى: ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩١]، على هذا المعنى[٧].

---

(١) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١١٩. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٧.

(٢) إصلاح الوجوه والنّظائر، ص:١٧٣. (٣) انظر: المرجع السّابق، ص:١٧٤.

(٤) انظر: المرجع السّابق، ص:١٧٤. المفردات في غريب القرآن، ص:١٧٠. تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٣. لسان العرب: ١٤/ ٢٦٠.

(٥) انظر: تهذيب اللّغة: ٣/ ١٢٤. لسان العرب: ١٤/ ٢٦١.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١١٩. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٤٣. لسان العرب: ١٤/ ٢٦١.

(٧) انظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، لمحمد إسماعيل إبراهيم، طبعة: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ص:١٨٨.

٨ ـ التّسمية:

قال سبحانه: ﴿لَّا تَجۡعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًاۚ﴾ [النّور: ٦٣]، أي لا تسمّوه باسمه فتقولوا: يا محمّد. وفي ذلك حثّ على تعظيمه عليه السلام[(١)].

ومن ذلك أثر عمر رضي الله عنه: «كان يقدّم النّاس على سابقتهم في أُعْطِياتهم[(٢)]، فإذا انتهت الدّعوة إليه كبّر»[(٣)]، أي إذا انتهت التّسمية إليه. ويمكن أن يحمل المعنى هنا على النّداء[(٤)].

٩ ـ كلمة الشّهادة:

قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [الرّعد: ١٤]. جاء عن عليّ رضي الله عنه أنّ دعوة الحقّ هي التّوحيد. وعن محمّد بن المنكدر[(٥)]: أنّها لا إله إلّا الله[(٦)]. والمعنى مترادف.

وفي كتابه ﷺ إلى هرقل: «أدعوك بدعاية الإسلام»[(٧)] أي بدعوته، وهي

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، ص: ١٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٩١.

(٢) أُعطياتهم: العَطاءُ والعَطِيَّة: اسمٌ لما يُعْطَى، والجمع عَطايا وأَعْطِيَة، وأَعْطِياتٌ جمعُ الجَمع. لسان العرب: ١٥/ ٦٩.

(٣) الأثر أورده ابن الأثير في النّهاية: ٢/ ١٢١. ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث والآثار الّتي رجعت إليها.

(٤) انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٢١.

(٥) محمّد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدير أبو عبد الله القرشي التّيمي المدني، إمام حافظ عابد مقرئ، تابعي جليل، مجمع على ثقته وتقدّمه في العلم والعمل، مات سنة ١٣٠هـ أو بعدها.
وانظر: طبقات خليفة، ص: ٢٦٨. التّاريخ الكبير: ١/ ٢١٩. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٥٥. الجرح والتّعديل: ٨/ ٩٧. ثقات ابن حبان: ٥/ ٣٥٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٥. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٦٣٨. تهذيب الكمال: ٢٦/ ٥٠٣. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٢٧. الكاشف: ٢/ ٢٢٤. جامع التّحصيل، ص: ٢٧٠. تهذيب التّهذيب: ٩/ ٤١٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٠٨.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٨٤. وانظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٥٨. تاج العروس: ١٩/ ٤٠٨.

(٧) سبق تخريجه، ص: ٣٦٥.

كلمة الشّهادة الّتي يدعى إليها أهل الملل الكافرة[١].

فهي هنا تعني حقيقة الإسلام كدين له أصوله وتكاليفه الّتي تقتضيها الشّهادة، وبهذا المفهوم عرّفها بعض كتاب المسلمين[٢].

١٠ ـ العذاب:

قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٧]، يعني تعذّب[٣]. وقد حمل بعض العلماء المعنى هنا على النّداء، أي تنادي من كانوا يعملون في الدّنيا عملها[٤].

١١ ـ التّمنّي:

قال ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾ [الانشقاق: ١١]، أي يتمنّى هلاكاً[٥].

١٢ ـ الأذان:

قال ﷺ: «الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدّعوة في الحبشة»[٦].

أراد بالدّعوة: الأذان[٧].

---

(١) النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٢٢. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٨.

(٢) انظر: الإحكام بين مراحل العمل في دعوة النّبي ﷺ، للدّكتور يوسف محيي الدّين أبو هالة، طبعة: دار العاصمة بالرّياض، ١٤١١هـ، ص:١٠. وانظر: مجموعة من تلك التّعريفات في الكتاب نفسه، ص:١٠، ١١. وانظر: فصول في الدّعوة الإسلامية. د. حسن عيسى عبد الظّاهر، نشر وتوزيع دار الثّقافة بقطر، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، ص:٢٢.

(٣) انظر: إصلاح الوجوه والنّظائر، ص:١٧٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٥٨. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٨٩.

(٥) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، ص:١٨٨.

(٦) سنن التّرمذي: بمعناه عن أبي هريرة رضي الله عنه في: كتاب المناقب: (٤٥). باب في فضل اليمن: (٧١)، برقم: (٣٩٣٦). قال الشّيخ الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٦٠٥. مسند أحمد، بلفظه في: ٤/ ١٨٥. عن عتبة بن عبد رضي الله عنه، وبمعناه في: ٢/ ٣٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الشّيخ أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١٦/ ٣١٠، برقم: (٨٧٤٦). معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ١٧/ ١٢١، عن عتبة رضي الله عنه.

(٧) النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٢٢.

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النّداء اللّهمّ ربّ هذه الدّعوة التّامّة. . .» الحديث[١].

المراد بالدّعوة هنا: ألفاظ الأذان[٢].

المطلب الثّاني

الدّعوة في اصطلاح الدّعاة

إنّ الدّعوة إذا أطلقت فالمراد بها الدّعوة إلى الله تعالى، وهي تعني أمرين: الأوّل: الدّين الإسلامي. فهي مرادفة لكلمة إسلام كما سبق في معناها الشّرعي[٣]. الثّاني: عملية نشر الإسلام بين النّاس[٤].

وعلى هذا الإطلاق الأخير حاول بعض الكتّاب أن يصطلحوا تعريفاً جامعاً مانعاً لكلمة الدّعوة.

وقد تعدّدت تعريفاتهم وتكاثرت، والكثير منها يعتريه القصور والنّقص. ولعلّي أنتقي من بين تلك التّعريفات ما أراه أقرب إلى الصّواب، وأبلغ في الدّلالة.

قال الشّيخ محمّد الحبيب:

«إنّ الدّعوة إلى الله هي: قيام من له أهلية بدعوة النّاس جميعاً في كلّ زمان ومكان لاقتفاء أثر رسول الله ﷺ والتّأسّي به قولاً وعملاً وسلوكاً»[٥].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الأذان «الصّلاة»: (١٠/ ٥). باب الدّعاء عند النّداء: (٨/ ١٥٩)، برقم: (٦١٤)، ص: ١٤١. وفي كتاب: التّفسير: (٦٥/ ٣٩). باب ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]: (١١/ ١٠)، برقم: (٤٧١٩)، ص: ١٠٠٢.

(٢) عمدة القارئ: ٥/ ١٢٢.

(٣) انظر: ص: ٤٠٢ من هذا البحث.

(٤) انظر: الدّاعي إلى الله: تكوينه، مسؤوليّته: للدّكتور زيد بن عبد الكريم الزّيد، طبعة: دار العاصمة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ص: ١١، ١٢. الإحكام بين مراحل العمل، ص: ٩ ـ ١١.

(٥) الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل، للدّكتور محمّد بن سيدي بن الحبيب، دار الوفاء، جدّة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، ص: ٢٧.

فشمل تعريفه: الدّعاة، والمدعوّين، والمدعو إليه، وعالمية الدّعوة.

وقال محمّد السيّد الوكيل:

«جمع النّاس على الخير، ودلالتهم على الرُّشد بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر»[1].

وقد استقى ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال د. يوسف أبو هالة:

«هي قيام المسلمين المؤهلين، دولة، وأمّة، وأفراداً، بتبليغ النّاس كافّة، وحثّهم على اتّباع الإسلام، إيماناً، وعملاً، ومنهاج حياة، بطرق مشروعة مخصوصة»[2].

فتعريفه شمل موضوع الدّعوة، والدّاعية، والمدعو، والوسيلة.

ويمكن أن أستخلص ممّا سبق تعريفاً جامعاً مانعاً يتضمّن كلّ جوانب الدّعوة. وهو:

أنّ يقوم من له أهلية واستطاعة من المسلمين فرداً أو جماعة بتبليغ دين الإسلام إلى النّاس كافّة أفراداً أو جماعات، في كلّ زمان ومكان بالقول أو الفعل أو السّلوك، مقتفين في ذلك أثر رسول الله ﷺ، متأسّين به، سالكين لذلك طرقاً مشروعة مخصوصة.

والدّعوة بهذا التّعريف هي المقصودة بهذا البحث.



---

(١) أسس الدّعوة وآداب الدّعاة، للدّكتور محمّد السّيد الوكيل، مطابع الأخبار، ١٩٧٩م، نشر دار الطّباعة والنّشر الإسلاميّة، القاهرة، ص:٩.

(٢) الإحكام بين مراحل العمل، ص:١٣.

الفصل الثّاني

أهميّة الدّعوة إلى الله والغاية منها وحكمها



أهميّة الدّعوة إلى الله

إنّ الدّعوة إلى الله مقام عظيم من مقامات الإيمان والعمل الصّالح، لقوله عزّ في علاه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وهي أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، لأنّها أعظم الأعمال وأرفع العبادات.

وهي أخصّ خصائص رسل الله عليهم السلام ووظيفتهم ومهمّتهم الّتي بها بعثوا، ولها حملوا، ومن أجلها شرّفوا، وبها فضّلوا، ولها اختيروا.

وهي أبرز مهام عباد الله الصّالحين، وأوليائه المخلصين، الّذين بها قاموا وللوائها رفعوا، ولها نصروا، وبها عظّموا.

والدّعوة إلى الله هي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله[1].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٦.

قال الرّازي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. قال: «الدّعوة إلى الخير جنس تحته نوعان: أحدهما: التّرغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف. والثّاني: التّرغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النّهي عن المنكر، فذكر الجنس أوّلاً ثمّ أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان». التّفسير الكبير: ٨/ ١٦٧.

وقيل: ذلك من باب عطف الخاص على العام لمزيد فضلهما. انظر: روح المعاني: ٤/ ٢١. فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطّيب صدّيق بن حسن القنوجي البخاري، طبعة: إدارة إحياء التّراث الإسلامي بدولة قطر: ٢/ ٣٠٥. محاسن التّأويل: ٤/ ٩٢١.

قال الغزالي رحمه الله:

«إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدّين، وهو المهمّ الّذي ابتعث الله له النّبيّين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطّلت النّبوّة، واضمحلت الدّيانة، وعمّت الفترة، وفشت الضّلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتّسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التّناد»[1].

وكيف لا تتأتّى هذه الأهميّة للدّعوة إلى الله وهي الّتي تعرّف الإنسان بسرّ وجوده على هذه الأرض، والغاية التي لها خلق، والهدف الذي من أجله وجد، وهو عبادة ربّه سبحانه كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]؟.

فتعرّفه بربّه وخالقه، وكيف يعبده ويوحّده، ويلتزم شرعه، ويقوم بأمره، ويتجنّب نهيه، ويتحرّر من رقّ العبوديّة لغيره.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«الدّعوة إلى الله هي الدّعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله. بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمّن الدّعوة إلى الشّهادتين، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت، والدّعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرّه، والدّعوة إلى أن يعبدَ العبدُ ربّه كأنّه يراه»[2].

وهي شاملة لحاجة الإنسان في هذه الحياة فيما يتعلّق بجوانب الاعتقاد، والتّكاليف، وتصحيح مساره فيما يتعلّق بجوانب الأخلاق، والاجتماع، والاقتصاد والسّياسة، وبيان حقوق نفسه، وعلاقته بخالقه، وبالكون، وبالنّاس من حوله أفراداً وجماعات، وما في هذه الحياة من عوالم، وما وراء هذه الحياة[3].

---

(١) إحياء علوم الدّين: ٢/ ٣٩١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) انظر: فصول في الدّعوة الإسلاميّة، ص: ٦٣.

وهي الّتي تدلّ النّاس على الخير، وتجمعهم على الحقّ، وتنشر بينهم العدل، وتبثّ بينهم الأمن، وتدفعهم إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيّم، وتحقّق لهم المصالح العظيمة في معاشهم ومعادهم، وتدفع عنهم كلّ شرّ، وتبعد عنهم كلّ ضلال.

إنّ النّاس كانوا أمّة واحدة على توحيد الله تعالى منذ أن بعث الله آدم عليه السلام، ثمّ بدأ يدبّ فيهم الانحراف عن الحقّ حتّى حادوا عنه، وتركوا عبادة الله إلى غيره فأرسل الله لهم نوحاً عليه السلام في طليعة الرّسل مبشّراً ومنذراً ليردّ النّاس إلى عقيدة التّوحيد، ويرجعهم إلى دين الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ، فاختلفوا، فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين»(١).

ولم تغب شمس الرّسالة بعد نوح عليه السلام، ولم يندثر أثرها من الأرض، بل كلمّا انحرفت أمّة عن جادّة الصّواب بعث الله لها رسلاً لِيُقيمَ عِوجها ويزيل صلفها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ولقد اصطفاهم الله عز وجل واختارهم واجتباهم لحمل دعوته وتبليغ دينه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٠/١٠٦. تفسير القرآن العظيم: ١/٣٧٤.
وأثر ابن عبّاس رضي الله عنهما في: جامع البيان: ٢/٣٣٤، طبعة: دار المعرفة. البداية والنّهاية: ١/١٠١، وقد أورده الحاكم في المستدرك، ولفظه: «عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ، فلمّا اختلفوا بعث الله النّبيّين والمرسلين، وأنزل كتابه فكانوا أمّة واحدة». وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ٢/٤٨٠. وانظر: ٢/٥٩٦.

[آل عمران: ١٧٩]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً، فهو أعلم بمن يصلح لتحمّل رسالته فيؤدّيها إلى عباده بالأمانة والنّصيحة، وتعظيم المرسل والقيام بحقّه، والصّبر على أوامره، والشّكر لنعمه، والتّقرّب إليه، ومن لا يصلح لذلك»[١].

ولذا تولّى سبحانه تنشئتهم ورعايتهم كي يقوموا بهذا الواجب العظيم، ويؤدّوا تلك الوظيفة الرّفيعة، فقال ﷻ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: ٣٩].

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ:

«أي تُربّى وتُغذّى على مرأى مني»[٢].

وقال السّعدي رَحِمَهُ اللهُ:

«أي ولتتربّى على نظري وفي حفظي وكلاءتي. وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البر الرّحيم القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه»[٣].

وقال سبحانه عن محمّد ﷺ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨].

فلو لم تكن الدّعوة إلى الله بالغة الأهميّة، جليلة القدر ما هيّأ الله لها تلك الصّفوة، واختار لها أولئك الجلّة ليقوموا بأدائها وإبلاغها.

وهم بهذه الكفالة وتلك الكلاءة قاموا بحملها خير قيام، وأدّوها أعظم أداء، وكانوا جميعاً دعاة إلى الله تعالى، بل أعظم دعاة إليه سبحانه، بشّروا

---

(١) طريق الهجرتين، ص: ١٧١، ١٧٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٩٧.
(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٥٤.

وأنذروا، ودعوا وحذّروا كما قال العزيز الرّحيم عنهم: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٨].

وتلك زبدة ما أرسلوا به، وهي البشارة والنّذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشِّر والمبشَّر به والأعمال المؤدّية إلى حصول البشارة، ولبيان المنذر والمنذَر به والأعمال المؤديّة إلى النّذارة(١).

وقال ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

فهم يدعون النّاس لكلّ خير، وينهونهم عن كلّ شرّ، ويبشّرون من صدّقهم من أهل الإيمان بالثّواب على الطّاعات، وينذرون من كذّبهم وخالفهم من الكفّار بالعقاب على المعاصي(٢).

وكلّهم دعا إلى دين الله الأوحد الّذي لا دين سواه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ولا يقبل غيره، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]. وهو المشروع على ألسنتهم جميعاً عليهم السلام، كما قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وغايته أن يُعْبَد الله وحده ولا يشرك معه أحد من خلقه. وهو القدر المشترك الّذي دعا له جميع الرّسل ولم يشذّ عنهم أحد في الدّعوة إليه. وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) انظر: المرجع السّابق، ص:٢١٩.

(٢) انظر: جامع البيان: ١٥/٢٦٧. التّفسير الكبير: ٢١/١٤١. تفسير القرآن العظيم: ٣/١٤٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤٣٠. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٥/٣٣٦.

وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كما قال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فدينهم واحد وهو الإسلام(١). وفي ذلك يقول ﷺ في حديث أبي هريرة: «والأنبياء إخوة لِعَلَّات(٢) أمهاتهم شتّى ودينهم واحد»(٣).

وكذلك يبرز أهميّة الدّعوة إلى الله الّتي كلّف الله بها تلك الصّفوة، وأمرهم بإبلاغ تلك الغايات العظمى إلى الخلق طرّة.

وقد ختمت كوكبة الأنبياء بأعظمهم قدراً، وأعلاهم رتبة، وأكملهم دعوة، خيرة الله في خلقه، وأمينه على وحيه، الدّاعي بإذن ربّه، والهادي إلى سبيله. قال الله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وعن جابر ﷺ عن النّبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلّا موضع لبنة، فجعل النّاس يدخلونها ويتعجّبون منها، ويقولون: لولا موضع اللّبنة»، قال رسول الله ﷺ: «فأنا موضع اللّبنة، جئت فختمت الأنبياء»(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٦٤. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) بنو العلّات هم الإخوة لأب واحد وأمّهات شتّى، ويقال: إنّما سمّيت ضرّة المرأة عَلّة لأنّها تعلّ بعد صاحبتها، أي ينتقل الزّوج من إحداهما إلى الأخرى كالعلل في الشّرب بعد النّهل، فإذا كان الإخوة لأب واحد وأمّ واحدة فهم بنو الأعيان، وإن كانوا لأمّ واحدة وآباء شتّى فهم الأخياف لاختلاف أصولهم.
انظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢/ ١٦٠.

(٣) جزء من حديث في: صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦). باب: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]: (٤٨/ ٤٩)، برقم: (٣٤٤٣)، ص: ٧٣٠، وبلفظ مقارب برقم: (٣٤٤٢)، ص: ٧٣٠.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب فضائل عيسى ﵇: (٤٠)، برقم: (٢٣٦٥)، ٤/ ١٨٣٧.

(٤) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧). باب خاتم النّبيين ﷺ: (١٨)، عن جابر ﷺ برقم: (٣٥٣٤)، ونحوه عن أبي هريرة ﷺ برقم: (٣٥٣٥)، ص: ٧٤٧.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب ذكر كونه ﷺ خاتم النّبيين: (٧)، برقم: (٢٢٨٧)، ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد ﷺ، ٤/ ١٧٩٠ ـ ١٧٩١. =

قال أبو العبّاس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومقصود هذا المثل أن يبيّن به ﷺ أنّ الله تعالى ختم به النّبيّين والمرسلين، وتمّم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق، وشرائع الرّسل. فبه كَمُل النّظام، وهو ختم الأنبياء والرّسل الكرام، صلّى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة وسلّم عليه أبلغ سلام»[1].

فدعوته خاتمة، ولذا جمعت بين طيّاتها دعوات الرّسل جميعاً وفاضت عليها بالتّشريع الكامل الدّائم.

ولمّا كانت خاتمة، كانت عامّة، وللنّاس كافّة، عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم، وإنسهم وجنّهم.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يقول تعالى لنبيّه ورسوله محمّد ﷺ «قل: يا محمّد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميعكم. وهذا من شرفه وعظمه ﷺ أنّه خاتم النّبيّين، وأنّه المبعوث إلى النّاس كافّة»[2].

= اللَّبِنَة: بفتح اللّام وكسْر الباء واحِدة اللَّبِن وهي الّتي يُبْنَى بها الجِدَار، ويُقَال: بِكَسْر اللّام وسُكون البَاء. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العبّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: جماعة من أهل العلم، طبعة: دار ابن كثير، دار الكلم الطّيب، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ٦/ ٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥. وانظر: جامع البيان: ٩/ ٨٦. التّفسير الكبير: ١٥/ ٢٦. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للشّيخ عبد الرّحمن بن مخلوف الثّعالبي، تحقيق: محمّد الفاضلي، طبعة: المكتبة العصريّة، بيروت، ٢/ ٥٦. محاسن التّأويل: ٧/ ٢٨٨٣.

ويؤيّد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي الحديث قال ﷺ: «أعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي، كان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصّة، وبعثت إلى كلّ أحمر وأسود»[١].

ولمّا كانت عامّة، كانت شاملة كاملة لا نقص فيها، ولا زلل يعتريها، جمعت الخير كلّه، والفضل جلّه، كافية وافية، استغنت بها الأمّة عن سواها، واكتفت بها عمّا وراءها.

يقول ابن القيّم رحمه الله:

«وبالجملة فقد جاءهم رسول الله ﷺ بخير الدّنيا والآخرة بحذافيره[٢]. ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحد سواه، ولهذا ختم الله به ديوان النّبوّة فلم يجعل بعده رسولاً، لاستغناء الأمّة به عمّن سواه»[٣].

ولذا قام ﷺ بالدّعوة على قدم وساق، غير مفرّط فيها ولا متكاسل عنها، وهو الّذي علم أنّه ما أرسل إلّا من أجلها، وما اصْطُفِيَ إلّا بسببها، وقد قال له ربّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ

---

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب التّيمّم «الطّهارة»: (٧/ ٤). باب التّيمّم: (١/ ١٣٩)، برقم: (٣٣٥)، ص:٨٧. وفي كتاب: الصّلاة: (٨/ ٥). باب قول النّبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»: (٥٦)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، برقم: (٤٣٨)، ص:١٠٨. صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، عن جابر رضي الله عنه، برقم: (٥٢١)، وبمعناه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (٥٢٣)، ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) حَذَافِيرُ الشّيء: أعالِيهِ ونَواحِيه، واحدها حِذْفار، بِحَذَافِيرِه أي بجميعه، ويقال: أعطاه الدّنيا بِحَذافِيرها أي بِأَسْرِها. انظر: لسان العرب: ٤/١٧٧. وانظر: مختار الصّحاح، ص:١٢٧. القاموس المحيط، ص:٤٧٨.

(٣) بدائع الفوائد، لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق: جماعة من المحقّقين، النّاشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ٣/ ٣٧٧. الضّوء المنير: ٤/ ٥١٦.

رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ [القصص: ٨٧]. والآيات في ذلك كثيرة جداً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف الله لنبيه ﷺ بقوله:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف؛ ١٥٧]، يقول:

«هو بيان لكمال رسالته، فإنّه ﷺ هو الّذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كلّ منكر، وأحلّ كلّ طيّب، وحرّم كلّ خبيث»(١).

وأمّا ما تحمله دعوته ﷺ بين جنباتها فقد كشف النّقاب عنه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أخبر النّجاشي بشأنها حين قال:

«أيّها الملك كنّا وقومنا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضّعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات(٢)، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم د/ محمّد جميل غازي، مطبعة المدني، المؤسّسة السّعودية بمصر، ص: ١٢، وهو في مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢١.

(٢) المحصنات: أصل الإحْصانِ المنعُ، والمرأَةَ تكون مُحْصَنة بالإسلام والعَفافِ والحرّية والتّزويج، يقال: أَحْصَنَت المرأة، فهي مُحْصَنة ومُحْصِنَة، وكذلك الرّجل، والمُحْصَنُ، بالفتح: يكون بمعنى الفاعل والمفعول. لسان العرب: ١٣/ ١٢٠. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٢١٤. المفردات، ص: ١٢١.

نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصّيام...»، فعدّد عليه أمور الإسلام[1].

إذاً هي دعوة جمعت الخير كلّه، وحذّرت من الشّر كلّه، فحقّ لها أن توصف بقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وبقوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠]، وأن يوصف صاحبها بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهذا كلّه يبرز عظم مقام الدّعوة إلى الله، وسمو شأنها، وعلو منزلتها، ورفيع مكانتها.

وما خيّرت هذه الأمّة وفُضّلت على النّاس جميعاً إلّا لقيامها بواجب الدّعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذا وصف لها بما وصف به نبيّها من قبل، فهي تشترك معه في واجب القيام بالدّعوة إلى الله تعالى[2].

وقد أورد ابن جرير رحمه الله عدّة أقوال عن أهل العلم تفيد أنّ الآية تخصّ فئة معيّنة، ثمّ ذكر أقوالاً أخرى في إفادتها العموم، ورجّح ذلك[3].

وإن كان ظاهر الخطاب يفيد الخصوصية إلّا أنّه عامّ في كلّ الأمّة،

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/٢٠٦. سير أعلام النّبلاء: ١/٤٣٢ ـ ٤٣٤. وأثر جعفر رضي الله عنه سبق تخريجه. انظر: ص:٢٥٧.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص:١٣. مجموع الفتاوى: ٢٨/١٢٢. مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لفاروق عبد المجيد حمود السّامرّائي، مطابع دار المطبوعات الحديثة جدّة، نشر مكتبة دار الوفاء، جدّة، ص:١٨.

(٣) جامع البيان: ٤/٤٣ ـ ٤٥.

ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨][١].

ولذا قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والصّحيح إنّ هذه الآية عامّة في جميع الأمّة كلّ قرن بحسبه، وخير قرونهم الّذي بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم[٢]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[٣].

وهذا الّذي تسنده الأدلّة الدّالة على أفضلية هذه الأمّة على سائر الأمم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فقد أخبر تعالى أنّه جعلهم أمّة خياراً عدولاً، وهذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإراداتهم ونيّاتهم. وبهذا استحقّوا أن يكونوا شهداء للرّسل على أممهم يوم القيامة[٤].

وفي حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «أُعْطيتُ ما لم يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِياء»، وذكر فيه: «وجعلت أمّتي خير الأمم»[٥].

---

(١) انظر: التّفسير الكبير: ٨/ ١٧٩.

(٢) هذا لفظ حديث سبق تخريجه. انظر: ص: ٢٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٥. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٧١. الجواهر الحسان: ١/ ٢٨٠. فتح البيان: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١. روح المعاني: ٤/ ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) إعلام الموقّعين: ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣ بتصرّف يسير. الضّوء المنير: ١/ ٢٧٦.

(٥) سنن البيهقي، بلفظه في: باب الدّليل على أنّ الصّعيد الطّيب هو التّراب، ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.
مسند أحمد، بلفظه في: ١/ ٩٨. قال الشّيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٢/ ١١٣، برقم: (٧٦٣)، وبلفظ مقارب في: ١/ ١٥٨. قال الشّيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ٢/ ٣٤٩، برقم: (١٣٦١).
قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «تفرّد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن». تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٥. والحديث أصله في الصّحيحين، وقد مرّ قريباً في ص: ٤١٣.

وعن معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنّكم توفون سبعين أمّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»[1]. والأحاديث في ذلك كثيرة[2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال:

«يا أيّها النّاس، من سرّه أن يكون من تلك الأمّة، فليؤدّ شرط الله منها»[3].

وإنّما استحقّت الأفضليّة على الأمم، ونالت الخيريّة عليها لإيمانها بالله، ولقيامها بالدّعوة إليه والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وذلك هو علّة الخيريّة الّتي حكم الله تعالى بثبوت الوصف بها لهذه الأمّة[4]

ومن أجل ذلك قدّم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في الآية على الإيمان بالله، مع أنّ الإيمان شرط في الأعمال، ولكنّه قدر مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي فضّلت به هذه الأمّة[5].

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة آل عمران: (٤)، برقم: (٣٠٠١). وقال: «هذا حديث حسن». وقال الشّيخ الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٤٧٩.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الزّهد: (٣٧). باب صفة أمّة محمّد ﷺ: (٣٤)، برقم: (٤٢٨٨)، ونحوه برقم: (٤٢٨٧). قال الشّيخ الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٤٦٢.
سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: باب قول النّبي ﷺ «أنتم آخر الأمم»، ٢/ ٤٠٤.
سنن البيهقي، بلفظه إلّا أحرف يسيرة في كتاب: السّير. باب مبتدأ الخلق، ٩/ ٥.
مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٣، وبلفظ مقارب في: ٤/ ٤٤٧، ونحوه في: ٥/ ٣، ٥.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٩٤. وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».
قال ابن كثير: «وهو حديث مشهور». تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٥.
(٢) ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله جمهرة منها في تفسيره. انظر: ١/ ٥٨٦ ـ ٥٩٢.
(٣) جامع البيان: ٤/ ٤٣. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٩٣.
(٤) انظر: التّفسير الكبير: ٨/ ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٥) انظر: المرجع السّابق: ٨/ ١٨٠. روح المعاني: ٤/ ٢٨.

وقد يعترض على ذلك بأنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان موجوداً في الأمم السّابقة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١].

قال القرطبي رحمه الله:

«دلّت هذه الآية على أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدّمة، وهو فائدة الرّسالة وخلافة النّبوّة»[١].

ولكن القليل منهم من كان يقوم بذلك، وسائرهم كان تاركاً للأمر والنّهي، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦].

يقول ابن كثير رحمه الله:

«وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضّرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الّذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته»[٢].

وأكّد القرطبي رحمه الله **ذلك بقوله:**

«إنّما صارت أمّة محمّد ﷺ خير أمّة لأنّ المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فيهم أفشى»[٣].

وقد ذكر القفّال رحمه الله **وجهاً آخر فيما نقله الرّازي** رحمه الله **عنه، إذ يقول:**

«تفضيلهم على الأمم الّذين كانوا قبلهم إنّما حصل لأجل أنّهم يأمرون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٤٧. وانظر في: معنى الآية وسبب نزولها. جامع البيان: ٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦. التّفسير الكبير: ٧/ ٢١٥. فتح البيان: ٢/ ٢٠٨. محاسن التّأويل: ٤/ ٨١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧١٨. وانظر: جامع البيان: ١٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩. التّفسير الكبير: ١٨/ ٧٤ ـ ٧٥. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١١٣. الجواهر الحسان: ٢/ ٢٠٣. روح المعاني: ١٢/ ١٦١. فتح البيان: ٦/ ٢٧٠. محاسن التّأويل: ٩/ ٣٤٩٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٤٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٧١.

بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجود وهو القتال؛ لأنّ الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب باللّسان وباليد، وأقواها ما يكون بالقتال، لأنّه إلقاء النّفس في خطر القتل»[1]. ولا تنافر بين الوجهين.

والخيريّة مشتركة بين أوّل هذه الأمّة وآخرها بالنّسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاضلة في ذاتها، كما ورد في فضل الصّحابة على غيرهم[2].

وهم خير الأمم للنّاس، وأنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم؛ لأنّهم أكمل النّاس أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، حيث أمروا بكلّ معروف ونهوا عن كلّ منكر لكلّ أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم. وهذا كمال النّفع للخلق[3].

وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى:

«﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]: خير النّاس للنّاس، تأتون بهم في السّلاسل في أعناقهم حتّى يدخلوا في الإسلام»[4].

وفي ذلك قمّة النّفع لعباد الله.

وتلزمهم هذه الخيريّة ما أقاموا على ذلك واتّصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر زالت عنهم[5].

والمراد أنّ الأمة نالت الخيريّة وحازت قصب السّبق على الأمم قاطبة لمّا قامت بالدّعوة إلى الله، وهذا يبيّن أهميّة الدّعوة إلى الله وعظيم نفعها.

---

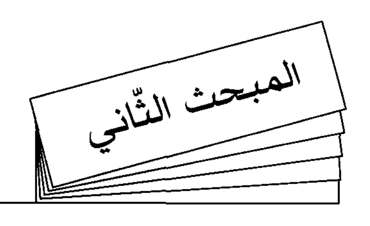
(١) التّفسير الكبير: ٨/ ١٨٠.

(٢) مكاشفة القلوب المقرّب إلى علّام الغيوب، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص:٦٤. فتح البيان: ٢/ ٣١٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢٣، بتصرّف.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩). باب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]: (٧)، برقم: (٤٥٥٧)، ص: ٩٥١.

(٥) انظر: مكاشفة القلوب، ص: ٦٤. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٧٣. فتح البيان: ٢/ ٣١٠.



الغاية من تبليغ الدّعوة إلى الله وحكمها

إنّ الإنسان مكوّن: من روح تسمو إلى العلو، وتدفعه إلى الهدى، وتهديه إلى التّقى، تعينها فطرة ترفض الشّرّ وتأباه، وتسعى إلى الخير وترجوه، ومن جسم خُلق من طين يرنو إلى السّفول، ويخلد إلى الأرض، ويهوي إلى الحضيض، تحيط به شياطين، وتدفعه أهواء، وتحفّ به شهوات فيطلب حصول اللّذّة العاجلة، والرّاحة المستعجلة فيهوى الشّرّ، ويتتبّع طرق الغواية. فيحتدم الصّراع بين هذا وتلك، ويشتدّ النّزاع بينهما، وغالباً ما يتغلّب الجسم على الرّوح لكثرة دواعي الشّرّ، فتفسد الفطرة، ويتحكّم الهوى، وتسيطر الشّهوة فتختل الموازين والقيم، وينحرف الإنسان عن جادّة الطّريق، ويرتمي بين أحضان الباطل والضّلال[1].

والفطرةُ داعيةٌ للحقّ مجانبة للباطل، ساعية للخير مباعدة للشّرّ.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإنّ الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطّمأنينة به، والسّكون إليه ومحبّته، وفطرها على بُغْضِ الكذب والباطل، والنّفور عنه، والرّيبة به، وعدم السّكون إليه. ولو بقيت الفِطَرُ على حالها لما آثرت على الحقّ سواه، ولما سكنت إلّا إليه، ولا اطمأنّت إلّا به، ولا أحبّت غيره»[2].

وهي لا تصل إلى الحقّ في جميع جوانبه، ولا إلى الصّلاح في كلّ مراميه، ومع ذلك تتأثّر بالزّمان والمكان ومَنْ حولها.

---

(١) انظر: أسس الدّعوة وآداب الدّعاة، ص:٩، ١٠.

(٢) مدارج السّالكين: ٣/ ٤٧١. الضّوء المنير: ٢/ ٣٥.

أضف إلى ذلك العوامل المؤثّرة الأخرى، كالنّفس الأمّارة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، والهوى الطّالب، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، والشّيطان الغرور، قال ﷻ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: ٥][1].

وفي الحديث: «وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً»[2].

والمحيط الّذي تنشأ فيه. وفي الحديث: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه»[3].

فهذه وغيرها الكثير صارفة للفطرة عن الوصول إلى الحقّ القويم، وجارفة لها عن الصّراط المستقيم.

والعقول أيضاً قاصرة عن إدراك الحقّ، والوصول إلى الهداية بذاتها مهما بلغت تلك العقول من حصافة وذكاء ونبوغ.

والحكماء والمفكّرون والأذكياء والمنظّرون والفلاسفة والطّبيعيون لا يمكنهم أبداً أن يهدوا البشريّة، وأن يقودوها إلى برّ الأمان وطريق النّجاة.

وإنّما يكون الصّلاح، وتتحقّق الهداية والنّجاة على أيدي رُسُلِ الله عليهم السلام، المُبَلِّغين لدين الله، الدّاعين بأمر الله، السّائرين على هدى الله.

ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى الرّسالة، ففيها السّعادة والهدى، وفي البعد عنها الضّلال والشّقاء، وكلّ خير في الوجود فمن جهتها نشأ، وكُلُّ شَرٍّ في الوجود بمخالفتها جاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«والرّسالةُ ضروريّة للعباد، لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق

---

(١) وانظر: مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص:٣٣.

(٢) سبق تخريجه. انظر: ص:٢٩٣. (٣) سبق تخريجه. انظر: ص:٢٩١.

حاجتهم إلى كلّ شيء. والرّسالةُ روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الرّوح والحياة والنّور؟... فإنّ الله سبحانه جعل الرّسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدّعوة إلى الله وتعريف الطّريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه... والرّسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده. فكما أنّه لا صلاح له في آخرته إلّا باتّباع الرّسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلّا باتّباع الرّسالة، فإنّ الإنسان مضطّر إلى الشّرع، فإنّه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضرّه. والشّرع هو النّور الّذي يبيّن ما ينفعه وما يضرّه. والشّرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وحصنه الّذي من دخله كان آمناً... ولولا الرّسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النّافع والضّار في المعاش والمعاد. فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مِنَّة عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيّن لهم الصّراط المستقيم. ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشرّ حالاً منها. فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البريّة، ومن ردّها وخرج عنها فهو من شرّ البريّة، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم... إلخ»[1].

فحاجة النّاس إلى الرّسالة فوق كلّ حاجة، وضرورتهم إليها فوق كلّ ضرورة[2]. ولا تصل الرّسالة إلى العباد إلّا عن طريق الدّعوة إلى الله الّتي يقوم بها رسل الله، والدّعاة إلى الله السّائرون على طريق الرّسل عليهم السلام.

فالدّعوة هي المسلك الأوحد الّذي يسلكه رسل الله وأتباعهم لإيصال دين الله إلى النّاس كافّة. وهي الواسطة الّتي تعرف بها أحكام الله وشريعته، وبغيرها الأبواب موصدة والطّرق مغلقة[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٩٣ ـ ١٠٠.
(٢) انظر: زاد المعاد: ١/ ٦٩. مفتاح دار السّعادة: ٢/ ١١٧.
(٣) وانظر: المفهم: ٦/ ٢١٨ ـ ٢١٩. فتح الباري: ١/ ٢٩٩.

وإذا كانت الدّعوة بهذه المثابة فإنّ بها تتحقّق غايات عظمى، وأهداف كبرى يعجز هذا المقام عن حصرها، من أهمّها:

١ ـ عبادةُ الله وحده، وعدمُ الإشراك به. فالغاية العظمى، والهدف السّامي على هذه الأرض أن تتحقّق العبوديّة لله تعالى، وأن تتوجّه القلوب إليه بالذّل والخضوع والخوف والرّغبة والإنابة، وأن تخلع عنه الأنداد والأمثال، فلا تعبد ولا ترجى. إذ هو الخالق الواحد الّذي يستحقّ العبادة.

فما رفعت السّماء، وما بسطت الأرض، وشقّ فيها من أنهار وبحار، وأرسي عليها من جبال، وأنبت فيها من أشجار، وما وجد عليها من مخلوقات إلّا من أجل عبادة الله وحده.

يقول ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن الله عَجَّلَ أرسل رسله وأنزل كتبه، وخلق السّماوات والأرض ليُعرف ويُعْبَد ويُوَحَّد ويكون الدّين كلّه له، والطّاعة كلّها له، والدّعوة له كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢][(١)].

فإنّ تحقيق الألوهيّة لله وتوحيده، وزوال الشّرك من الأرض هو مقصود الدّعوة إلى الله وأصلها وحقيقتها[(٢)].

قال رِبْعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عندما سأله رُسْتم[(٣)] عن سبب مجيء جيش المسلمين إلى بلاد الفرس،

---

(١) الجواب الكافي، ص:٨٨، ٨٩.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٥/١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) رستم هو قائد جيش الفرس في معركة القادسيّة الّتي كانت بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والفرس في العام الخامس عشر أو السّادس عشر من الهجرة، وفيها انتصر المسلمون، وقتل رستم.
انظر: العبر: ١/١٥. شذرات الذّهب: ١/١٦١ ـ ١٦٢.

قال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام»(١).

ولذا كانت عبادته وحده أوّل ما يدعو له رسل الله ﷺ. قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥]. وهكذا عن صالح(٢) وشعيب(٣)، وغيرهما عليهم السلام.

قال الرّازي رحمه الله:

«ما العبادة الّتي خلق الجنّ والإنس لها؟

قلنا: التّعظيم لأمر الله والشّفقة على خلق الله، فإنّ هذين النّوعين لم يخل شرع منهما... ولمّا كان التّعظيم اللّائق بذي الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتّباع الشّرائع فيها، والأخذ بقول الرّسل ﷺ. فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرّسل وإيضاح السّبل في نوعي العبادة»(٤).

٢ ـ الإيمان بالله ورسله والملائكة والكتب المنزّلة من عند الله، والإيمان بالقدر خيره وشرّه وبالبعث يوم الجزاء، وتحقيق العمل الصّالح الّذي هو قرين الإيمان. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧]، وهو يشمل كلّ ما ينفع الإنسان في دينه ونفسه وأهله ومجتمعه، وكلّ ما يقوّي المسلمين علميّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وخلقيّاً على الأسس الّتي جاء بها الإسلام(٥).

وبيان الصّراط المستقيم وهو الطّريق الموصل إلى الله الّذي نصبه لرسله وأتباعهم، المتمثّل في امتثال أمره واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده، وتعريف حال عباده بعد الوصول إليه، وهو ما يتضمّنه اليوم الآخر من حساب وحوض وميزان وصراط وجنّة ونار.

---

(١) البداية والنّهاية: ٧/ ٣٩.
(٢) انظر: الأعراف، الآية: (٧٣).
(٣) انظر: الأعراف، الآية: (٨٥).
(٤) التّفسير الكبير: ٢٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٥) انظر: الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل، ص:٦٣، فما بعدها. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

وبيان عاقبة المؤمنين وما أعدّ الله لهم من نعيم مقيم، وبيان عاقبة الكافرين وما أعدّ لهم من عقاب وخيم[1].

٣ ـ إصلاح الأمّة في جميع شؤونها العقديّة والخلقيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، لتكون أمّة تكلؤها السّعادة، وتحيط بها الطّمأنينة، ويُبَثّ في جوانبها الأمن، ويرفرف عليها العدل، وتسودها المحبّة، ويسري بين وجدانها التّعاون، وينخذل الظلم، ويتلاشى الخوف، ويغيب العداء، وتنطمس الأحقاد، ويذوب الحسد، وتندثر الشّحناء، ويتهاوى الفجور، ويذبل الضّلال، فتشمخ العزّة، وتعلو الكرامة، فتكون للأمّة السّيادة والرّيادة، فتقام المدنيات، وتشيّد الحضارات فيتأتّى الفلاح والنّجاح، والخير والصّلاح.

٤ ـ دفع الهلاك والدّمار عن الأمّة، وإنقاذها من عذاب الله ونقمته.

وذلك أنّ انزواء أهل الصّلاح عن ساحة الدّعوة إلى الله، وإحجامهم عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يفتح الباب على مصراعيه لأهل الفساد، فيبثّوا بضاعتهم في الأمّة، فتتداعى الأخلاق، وتتساقط القيم، وتتحكّم الأهواء والشّهوات، ويعمّ الشّرّ، ويستشري الفساد فيحلّ بالأمّة الهلاك والدّمار.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: ١٦].

أي سلّطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم[2]. والعقاب إذا وقع عم الصّالح والطّالح. وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥]. نقل ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عن ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥] قال:

«يعني أصحاب النّبيّ ﷺ خاصّة».

وقال في رواية له أخرى في تفسير هذه الآية:

---

(١) انظر: مدارج السّالكين: ٣/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩. الضّوء المنير: ٥/ ٢٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٣٢.

«أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمّهم الله بالعذاب».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

«وهذا تفسير حسن جداً»[1].

ففي الآية تحذير من الله لعباده المؤمنين من مغبّة عذاب ومحنة، لا تختصّ بأهل المعاصي ومن باشر الذّنوب، وإنّما تعمّ المسيء وغيره[2].

وهذا ما تؤيّده الأدلّة الواردة عن رسول الله ﷺ.

فعن أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنّ النّبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلاّ الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلّق بإصبعيه الإبهام والّتي تليها ـ فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[3].

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «والّذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف ولتَنْهَوُنّ عن المنكر أو لَيُوشِكَنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثمّ تدعونه فلا يستجاب لكم»[4]، والأحاديث في ذلك كثيرة[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٧١.

(٢) انظر في معنى الآية: أحكام القرآن لأبي بكر محمّد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمّد البجلوي، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، طبعة عيسى الحلبي: ٢/ ٨٣٥ ـ ٨٣٦. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٩١ ـ ٣٩٣. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٣. الجواهر الحسان: ٢/ ٨٤ ـ ٨٥. روح المعاني: ٩/ ١٩٢ ـ ١٩٤. فتح البيان: ٥/ ١٥٨ ـ ١٦٠. محاسن التّأويل: ٨/ ٢٩٧٦ ـ ٢٩٧٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٨٠.

(٣) سبق تخريجه. انظر: ص: ٤٩.

(٤) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٩). وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «حسن». برقم: (٢١٦٩)، ص: ٣٦٠.

مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/ ٣٨٨، وبنحوه في: ٥/ ٣٠، ٣٩١.

(٥) أورد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ جملة منها في تفسيره. انظر: ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٣.

وإنّما يتعدّى العقاب إلى من لم يباشر الذّنب إذا ترك المنكر فاستفحل، ولم يسع إلى تغييره. ويؤيّد ذلك حديث النّعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الّذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً»[1].

وحديث جرير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيّروا عليه فلا يغيّروا إلّا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا»[2].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الشّركة: (٤٧/ ٢٣). باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه: (٦)، برقم: (٢٤٩٣)، ص:٥١٨، وبنحوه في: كتاب الشّهادة: (٥٢/ ٢٨). باب القرعة في المشكلات: (٣٠/ ٣١)، برقم: (٢٦٨٦)، ص:٥٦٠.

قال النّووي رحمه الله: «القائم في حدود الله تعالى، معناه: المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها، والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه». رياض الصّالحين، طبعة: المكتب الإسلامي، ص:١١٥.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنّهي: (١٧)، برقم: (٤٣٣٩). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٤٧٤.

سنن ابن ماجه، بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٢٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٤٣١.

سنن البيهقي، بنحوه في: باب ما يستدلّ به على أنّ القضاء وسائر أعمال الولاة ممّا يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من فروض الكفاية، ١٠/ ٩١.

مسند أحمد، بنحوه في: ٤/ ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر استحقاق القوم الّذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عن قدرة منهم عموم العقاب من الله جلّ وعلا، برقم: (٣٠٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»، ١/ ٥٣٦. وفي باب ذكر توقّع العقاب من الله جلّ وعلا لمن قدر على تغيير المعاصي ولم يغيّرها، برقم: (٣٠٢)، ١/ ٥٣٧.

مسند أبي يعلى، بنحوه، برقم: (٧٥٠٨). قال محققه: «رجاله ثقات»، ١٣/ ٤٩٧.

فإنّ النّاس إذا تظاهروا بالمنكر كان على كلّ من رآه أن يغيّره، فإذا سكت عنه فكلّهم عاص، هذا بفعله، وهذا برضاه به، وحينئذ تنتظم العقوبة الجميع(١).

كما أنّ سكوت الدّعاة والعلماء عن بيان المنكر يدفع بالعامّة إلى فعله واستحسانه بحجّة أنّ أهل العلم رأوهم على ذلك فلم يعترضوا. وإذا تكاثر المنكر أمام أعين النّاس ألفته القلوب واستساغته النّفوس واستمرأته، فيصبح معروفاً عند من جهل أمره.

ولذا كان على الدّعاة إلى الله أن يقوموا بواجب الدّعوة على أكمل الوجوه حتّى ينكفّ الشّرّ من الأرض، وينقمع أهله فلا يبقى لشرّهم أثر ليندفع العقاب والعذاب عن الأمّة.

٥ ـ إقامة الحجّة على العباد بأداء الأمانة الّتي كلّف بها الرّسل والدّعاة، وانتفاء المعذرة.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يقول: أرسلت رسلي إلى عبادي مبشّرين ومنذرين لئلا يحتجّ من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، أو ضلّ عن سبيلي، بأن يقول إن أردت عقابه ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤]. فقطع حجّة كلّ مبطل ألحد في توحيده، وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذره، إعذاراً منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجّة البالغة عليهم، وعلى جميع خلقه»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحبّ

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٣٦.

(٢) جامع البيان: ٦/ ٣٠. وانظر: التّفسير الكبير: ١١/ ١١٠. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٩٦. روح المعاني: ٦/ ١٨ ـ ١٩. فتح البيان: ٣/ ٣٠٣. محاسن التّأويل: ٥/ ١٧٥٢ ـ ١٧٥٣.

إليه المدح من الله ﷻ، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أَغْيَر من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش، وليس أحد أحبّ إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرّسل»[1].

فالله سبحانه أرسل رسله، وأنزل إليهم كتبه، وأمرهم بالدّعوة إليه ليقيم حجّته على العباد، ويقطع معذرتهم يوم القيامة، حتّى لا يأتي من يقول بأنّ دعوة الله لم تبلغه.

ومن عدله وحكمته سبحانه أنّه لا يعذّب أحداً إلّا بعد قيام الحجّة عليه. قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨، ٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فهو سبحانه لا يعذّب إلّا من قامت عليه الحجّة، وهو المذنب المعترف بذنبه، وذلك إمّا بإعراضه عن الحجّة وعدم إرادتها والعمل بموجبها، وإمّا

---

(١) صحيح البخاري، بنحوه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩). باب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]: (٧)، برقم: (٤٦٣٤)، ص:٩٧٢. وفي باب: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]: (١)، برقم: (٤٦٣٧)، ص:٩٧٤. وفي كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١). باب الغيرة: (١٠٧/١٠٨)، برقم: (٥٢٢٠)، ص:١١٤٧. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]: (١٥). برقم: (٧٤٠٣)، ص:١٥٥٤. عن عبد الله بن مسعود ﷺ. وفي باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله»؛ (٢٠)، برقم: (٧٤١٦)، ص:١٥٥٧، عن المغيرة بن شعبة ﷺ.
صحيح مسلم، بلفظه وبنحوه في: كتاب التّوبة: (٤٩). باب غيرة الله وتحريم الفواحش: (٦)، برقم: (٢٧٦٠)، ٤/ ٢١١٣ ـ ٢١١٤، عن عبد الله ﷺ. وبنحوه في: كتاب اللّعان: (١٩)، برقم: (١٤٩٩)، ٢/ ١١٣٦، عن المغيرة ﷺ.

العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها[1].

وهذه غاية عظيمة شرعت لها الدّعوة إلى الله.

قال صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وإنّما شرع لك الدّعوة، وأمرك بها قطعاً للمعذرة، وتتميماً للحجّة، وإزاحة للشّبهة»[2].

وقد أخبرنا ربّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن قرية من قرى بني إسرائيل انقسم أهلها إلى ثلاث فرق:

* فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على صيد السّمك في يوم السّبت، وهو محرّم عليهم.

* وفرقة وعظت الفرقة المذنبة، وزجرتها عن ذلك الفعل، وحذّرتها من عاقبة ذنبها.

* وفرقة لم تأمر ولم تنه، بل أنكرت على الواعظة وعظها بحجّة أن أولئك قوم استحقّوا العذاب فلا فائدة في النّهي.

فأجابهم النّاهون بأنّهم قاموا بذلك إعذاراً إلى الله، وإقامة لحجّته على أولئك المذنبين، ولعلهم يرتدعون عن منكرهم، ويؤوبون إلى رشدهم، فأبوا فأمطر الله عليهم سحائب نقمته، ومسخهم إلى قردة خاسئين.

وفي ذلك يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦][3].

---

(١) طريق الهجرتين، ص: ٦١٠، ٦١١ بتصرّف.

(٢) فتح البيان: ٧/ ٣٤٠.

(٣) وانظر في معناها: جامع البيان: ٩/ ٩٠ ـ ١٠١. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٧٨٥ ـ ٧٨٨.=

قال الشّيخ السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر، ليكون معذرة، وإقامة حجّة على المأمور المنهي، ولعلّ الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنّهي»[1].

٦ ـ ردّ شبه أعداء الإسلام من الوثنيين وأصحاب الأديان الباطلة، والمحرّفة، وأرباب المذاهب الفكرية المعاصرة.

هذ هي أهم الغايات والأهداف الّتي يمكن أن تحصل بالدّعوة إلى الله، وتبليغ دينه لعباده، وبيان هديه لخلقه.

* وأمّا حكم الدّعوة إلى الله:

فقد اتّفق أهل العلم على وجوب الدّعوة إلى الله، ثمّ اختلفوا في نوعية الوجوب. أهو فرض عين[2] على كلّ مكلّف؟ أم هو فرض كفاية[3] تأثم الأمّة جميعاً بتركه، وإذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين.

ومنشأ الخلاف في كلمة «من» في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقيل: إنّها لبيان الجنس، والمعنى: كونوا جميعاً أمّة داعية للخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر. مثاله قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وعلّة ذلك:

= التّفسير الكبير: ١٥/ ٣٨ ـ ٤١. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٩. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٨ ـ ٤١١. الجواهر الحسان: ٢/ ٨٥ ـ ٦٠. روح المعاني: ٩/ ٩٠ ـ ٩٤. فتح البيان: ٥/ ٥٨ ـ ٦٣. محاسن التّأويل: ٧/ ٢٨٨٧ ـ ٢٨٩٣.

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٧٠.

(٢) فرض العين: هو ما قصد الشّارع حصوله من كلّ واحد من المكلّفين بعينه، سمّي عيناً لتعلّقه بكلّ عين.
انظر: نثر الورود على مراقي السّعود: ١/ ٢٢٦.

(٣) فرض الكفاية: هو ما قصد الشّارع بطلبه مجرد حصوله من غير نظر إلى ذات الفاعل، سمّى بذلك لأنّ البعض يكفي فيه. انظر: المرجع السّابق: ٢/ ٢٢٦.

أوّلاً: إنّ الأمّة كلّها خوطبت بالدّعوة إلى الله في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثانياً: إنّه لا مكلّف إلّا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، إمّا بيده أو بلسانه، أو بقلبه[١].

وفي ذلك يقول ابن حزم رحمه الله:

«والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرض على كلّ مسلم، إن قدر بيده فبيده، وإن لم يقدر بيده فبلسانه، وإن لم يقدر بلسانه فبقلبه ولا بد، وذلك أضعف الإيمان، فإن لم يفعل فلا إيمان له»[٢].

وقيل: إنّ «من» للتّبعيض. وعلّة ذلك:

أوّلاً: العجز عن الدّعوة، وعدم القدرة على القيام بها لكلّ فرد.

ثانياً: عدم توفّر العلم الكافي عند كلّ أحد[٣]. فليس كلّ فرد يصلح للقيام بالدّعوة.

وهذا هو القول الرّاجح، وعليه جمهور أهل العلم[٤].

قال الغزالي رحمه الله:

«ففي الآية بيان الإيجاب، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب. وفيها بيان أنّ الفلاح منوط به إذ حصر. وقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وفيها بيان أنّه فرض كفاية لا فرض عين، وأنّه إذا قام به أمّة سقط

---

(١) انظر: التّفسير الكبير: ٨/١٦٦.

(٢) المحلّى، لأبي محمّد علي بن أحمد بن حزم، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، طبعة: دار الفكر: ٩/٣٦١.

وقوله رحمه الله: يمكن أن يحمل على درجات إنكار المنكر فهو يجب على المسلم باليد، فإن لم يستطع فيجب عليه باللّسان، فإن لم يستطع فيجب عليه بالقلب، ووجوبه بالقلب أمر في مقدرة الجميع، فهو بذلك يكون واجباً على كلّ أحد، وبهذا التّفصيل يمكن أن يجمع القولين.

(٣) انظر: التّفسير الكبير: ٨/١٦٧. المفهم: ١/٢٣٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٦٥. روح المعاني: ٤/٢١. الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم، ص:٣٥. مناهج العلماء، ص:٥٦.

الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلّكم آمرين بالمعروف، بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، فإذاً مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختصّ الفلاح بالقائمين به المباشرين. وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عمّ الحرج كافّة القادرين عليه لا محالة»[1].

ومع ذلك قد تجب الدّعوة على كلّ مسلم بالقدر الّذي يطيقه، وفي حدود ما تعلّمه من العلم. وقد وجب على كلّ مسلم من العلم ما يؤدّي به الفرائض المفروضة عليه صحيحة كاملة[2]. كما أنّ الجميع مطالب بالدّعوة في حدود مسؤوليّته[3].

ولذا قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان معنى الآية السّابقة:

«والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمّة متصدّية لهذا الشّأن، وإن كان ذلك واجباً على كلّ فرد من الأمّة بحسبه»[4].



(١) إحياء علوم الدّين: ٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.
(٢) انظر: أسس الدّعوة، ص:١٧.
(٣) انظر: الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم، ص:٤١.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٣. وانظر: أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٢٩٢. شرح النّووي على مسلم: ٢/ ٢٣. مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٦.

الفصل الثّالث

عوامل الثّبات في الدّعوة إلى الله تعالى

وفيه تمهيد ومباحث:

مشقّة الدّعوة إلى الله والعقبات الّتي تعترض طريقها

إنّ طريق الدّعوة إلى الله ليس بميسّر ولا سهل، بل هو طريق شاقّ صعب، ومسلك وعر، مملوء بالمخاطر، ومحفوف بالمخاوف، ومليء بالعقبات،لا يقوى على السّير فيه إلّا مَنْ كان راسخ القدمين، عالي الهمّة، قوي العزيمة، ثابت الجأش، مفعماً بالصّبر، لا تزعزعه الأهوال، ولا تزعجه العواصف. يظلّ حاملاً لدعوته بعزم وإصرار، لا يعرف الفتور، ولا ينتابه الخمول، يسعى بجدّ ونشاط مع ملازمة الأناة، ودوام المُثَابرة،متمادياً في سيره، مواصلاً لسعيه.

فالدّعوة لا تُقدّر بعدد، ولا تضبط بزمن إذا استنفده الدّاعي برئ من العهدة، بل يستأنفها مرّة بعد أخرى حتّى يبلغ مداها وتأثيرها في نفوس المدعوّين مبلغه، بل شمسها لا تغيب أبداً من نفس الدّاعي طيلة بقائه على قيد الحياة، بل يظلّ داعية إلى الممات.

والثّبات هو المعين بعد عون الله على مواصلة الدّعوة.

ولا شك أنّ العقبات الّتي تقابل الدّاعية عقبات كؤود صعبة المراس، كلّما اجتاز عقبة اعترضته أخرى.

فهو يودّ أن ينقل نفوساً من ملّة إلى أخرى، ومن عقيدة ظلّوا عليها سنين عدداً إلى عقيدة لم يعرفوها. ومن مشارب ألفوها إلى مشرب جهلوه، ومن أمر دأبوا عليه إلى أمر آخر لا عهد لهم به. وهذا فيه من الصّعوبة البالغة ما فيه.

وليس وحيداً في ميدان الدّعوة، خلا له الجوّ من المنافس والمناهض. بل هنالك دعاة آخرون يُؤَازرون الباطل، ويقفون بإزائه، وينصرون الضّلال

ويقاومون الحقّ، لا يتزحزحون. لا يفلّ عزمهم، ولا تلين عريكتهم.

يتقدّمهم كبيرهم وعدوّ البشريّة ـ عليه لعائن الله ـ وفي شأنه يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

وليست دعوة الشّيطان لهؤلاء وآبائهم محبّة ومودّة لهم، وإنّما عداوة ومكر بهم، فقبلوا دعوته فتمكّن منهم، وظفر بهم، وقرّت عينه باستحقاقهم عذاب السّعير[١].

وليس للشّيطان دليل فيما دعا إليه، ولا حجّة تسند دعوته، وإنّما كانت مجرّد دعوة صادفت قلوباً خاوية فتمكّنت، وآذاناً صاغية فاستجابت، تعينها الأهواء والشّهوات، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢][٢]. فالشّيطان داعية إلى الضّلال، مصادم لدعوة الحقّ، دائم على دعوته، مستمرّ عليها.

ويلي الشّيطان في المرتبة أئمّة الكفر والضّلال الّذين نصّبوا أنفسهم دعاة للباطل، وأبواقاً للفساد، وزعماء للضّلال، يترجمون دعوة الشّيطان في الأرض، ويقودون بها الغوغاء المنحرفين إلى مهاوي الرّدى، ودار الشّقاء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١][٣].

وهم شوكة في حلق الدّعاة إلى الله دوماً، يتفنّنون في الكيد والمكر، كما

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمن، ص: ٥٩٨.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨١٩.

(٣) وانظر معنى الآية في: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣].

يقول الشّيخ السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، أي: الرّؤساء الّذين قد كبر جرمهم، واشتدّ طغيانهم ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدّعوة إلى سبيل الشّيطان، ومحاربة الرّسل وأتباعهم بالقول والفعل»[١].

وهم ثابتون على باطلهم لا يتراجعون عنه، بل داعون غيرهم للثّبات عليه، قال سبحانه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٦].

باذلون أموالهم في الذّود عنه ليضمنوا له الاستمرار والدّوام كما قال عزّ في علاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

بل ولو دعا ذلك إلى تجريد السّيوف وإزهاق الأرواح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وغير هؤلاء دعاة آخرون، وهم كُثر، يسعون جاهدين إلى تكثير سواد الهالكين، مناهضين بأقوالهم وأفعالهم لدعاة الحقّ، سالكين ثبج[٢] الباطل، دائبين على نشر الضّلال بين النّاس، يقودون النّاس إلى النّار ويدفعونهم إليها دفعاً. وفي شأنهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١]. وهم الّذين عناهم حديث رسول الله ﷺ: «دعاة على أبواب جهنّم من أجابهم إليها قذفوه فيها» الحديث[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٣٤.

(٢) ثَبَج: ثبج كلّ شيء معظمه ووسطه وأعلاه، والجمع أثْباج وثُبوج. لسان العرب: ٢/ ٢١٩.

(٣) سبق تخريجه، ص: ١٥٢.

وهذا الزّخم من دعاة الباطل يحتاج إلى ثبات من دعاة الحقّ، ليردّوا كيدهم، ويدحروا باطلهم، ويكشفوا عوارهم.

فعلى دعاة الحقّ أن يتمسّكوا بالحقّ ويصبروا عليه بكلّ ثبات وجرأة ليتمكّنوا من إزالة تمسّك أهل الباطل بباطلهم.

ولا يزول ذلك بِخَوَرٍ وضعف عزيمة، بل لا بد من عزيمة ثابتة، وحركة مؤثّرة، وجرأة صلبة ليقوم الحقّ ويذهب الباطل[1].

وقال الشّيخ السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وكذلك يجعل الله كبار أئمّة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ويردّون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السّبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله، ويسدّد رأيهم، ويثبّت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتّى يدول الأمر في عاقبته، بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتّقين»[2].

فالباطل له دعوة، وله إصرار وعزيمة فلا بد من أن يقابل بعزيمة أقوى وأشدّ.

ولا بد لمن حمل دعوة الله تعالى أن يناله من أذى الخلق المعارضين لدعوته. أذى بالقول وأذى بالفعل، ولا يسلم أحد البتّة من ذلك حتّى رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠، ١١].

والآيات في هذا المضمار كثيرة جداً، وهي تعكس أنواعاً من الأذى الّذي يواجه به رسل الله ودعاة الحقّ في سبيل الدّعوة إلى الله.

---

(١) طرق الدّعوة الإسلاميّة ـ للدّكتور أحمد بن محمّد العدناني، ص:٦٨، ٦٩ـ بتصرّف.

(٢) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٣٤.

قال ابن كثير رحمه الله مؤكّداً لما سبق تقريره:

«فكلّ من قام بحقّ، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلّا الصّبر في الله، والاستعانة به، والرّجوع إلى الله»[1].

والأذى نوعان: أذى يضرّ الدّعوة فذلك غير مقبول المآل، لأنّه يوقف سير عجلتها، ويكبّلها عن الانطلاق، وأذى يصيب حملتها فذلك مآل لا بد منه، ولذا فرّق الله بينهما في قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١][2].

وأذى الخلق الموجّه إلى الدّعاة إلى الله ليس له علاج أنجع وأنفع من الصّبر والثّبات على الدّعوة.

فإذا ارتطم بالدّعاة الصّادقين فحينها يتحطّم أذاهم على عتبة الثّبات، وتتلاشى مضايقاتهم ورعوناتهم عند قدم الصّبر، فلا يتأثّر الدّعاة ولا يتزلزلون، بل يظلّون أرسى من الجبال الرّواسي، حاملين لدعوة الله غير مبالين، مشمّرين عن سواعد الجد غير متخاذلين، ضاربين بأذى الخلق عُرْض الحائط غير آبهين به.

ولذا وجّه الله الرّسل والدّعاة إلى الله أن يقابلوا أذى المتمرّدين على دين الله بالصّبر والثّبات، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٣، ٣٤]، وقال عز وجل: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٥٤.

(٢) وانظر: عقبات في طريق الدّعوة، لأبي زكريا إبراهيم محمّد أبّكر عبّاس، منشورات نادي جازان الأدبي، طبعة: دار العلم بجدّة، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص: ٨٤.

يقول سيّد قطب رحمه الله:

«إنّها سنّة العقائد والدّعوات، لا بد من بلاء، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام. إنّه الطّريق إلى الجنّة، وقد حفّت الجنّة بالمكاره، بينما حفّت النّار بالشّهوات[1].

ثمّ إنّه هو الطّريق الّذي لا طريق غيره، لإنشاء الجماعة الّتي تحمل هذه الدّعوة، وتنهض بتكاليفها. طريق التّربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوّة والاحتمال... ذلك ليثبت على هذه الدّعوة أصلب أصحابها عُوداً. فهؤلاء هم الّذين يصلحون لحملها إذاً والصّبر عليها. فهم عليها مؤتمنون.

وذلك لكي تعزّ هذه الدّعوة عليهم وتَغْلُو، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عَنَتٍ وبلاء، وبقدر ما يُضَحُّون في سبيلها من عزيز وغالٍ. فلا يفرّطوا فيها بعد ذلك، مهما تكن الأحوال. وذلك لكي يصلب عود الدّعوة والدّعاة...

إنّها سنّة الدّعوات. وما يصبر على ما فيها من مشقّة، ويحافظ في ثنايا الصّراع المرير على تقوى الله، فلا يشطّ فيعتدي وهو يردّ الاعتداء، ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشّدائد... ما يصبر على ذلك كلّه إلّا أولو العزم الأقوياء: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾»[2].

عقد الإمام البخاري رحمه الله **في صحيحه باباً في كتاب الأدب قال فيه:**

«باب الصّبر على الأذى، وقول الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حفّت الجنّة بالمكاره وحفّت النّار بالشّهوات». صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥). باب حجبت النّار بالشّهوات: (٢٨)، برقم: (٦٤٨٧)، ص: ١٣٨٠. صحيح مسلم بلفظه في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، برقم: (٢٨٢٢)، ٤/ ٢١٧٤.

(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

ثمّ روى بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «ليس أحد ـ أوْ ليس شَيْءٌ ـ أَصْبَر عَلَى أَذًى سمعهُ من الله، إنّهم ليدعون لَهُ ولداً، وإنّه ليعافيهم ويرزقهم»[1].

وروى بسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قسم النّبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: والله إنّها لقِسمة ما أُريدَ بها وجهُ الله، قلت: أما أنا لأقولنّ للنّبي ﷺ. فأتيتُه وهو في أصحابه فسارَرْتُه، فشقَّ ذلك على النّبي ﷺ، وتغيّر وجههُ، وغضب، حتّى وددّت أنّي لم أكن أخبرته. ثمّ قال: «قَدْ أُوذي مُوسى بأكثرَ مِنْ ذَلكَ فَصَبَرَ»[2].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله:

«قوله: «باب الصّبر في الأذى»: أي حبس النّفس عن المجازاة على الأذى قولاً أو فعلاً، وقد يطلق على الحلم... قال بعض أهل العلم:

الصّبر على الأذى جهاد النّفس، وقد جبل الله الأنفس على التّألّم بما يفعل بها ويقال فيها، ولهذا شقّ على النّبي ﷺ نسبتهم له الجور في القسمة، لكنّه حلم عن القائل فصبر لما علم من جزيل ثواب الصّابرين، وأنّ الله تعالى يأجره بغير حساب»[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب الصّبر على الأذى: (٧١)، برقم: (٦٠٩٩)، ص:١٣٠٦، وبلفظ مقارب في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذّاريات: ٥٨] (٣)، برقم: (٧٣٧٨)، ص:١٥٥٠.

والحديث في صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ: (٩)، برقم: (٢٨٠٤)، ٤/ ٢١٦٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب الصّبر على الأذى: (٧١)، برقم: (٦١٠٠)، ص:١٣٠٦، وبلفظ مقارب في: كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣). باب ما كان النّبي ﷺ يعطي المؤلّفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه: (١٩)، برقم: (٣٠٥٠)، ص:٦٦٥.

والحديث في صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب إعطاء المؤلّفة قلوبهم على الإسلام وتصبّر من قوي إيمانه: (٤٦)، برقم: (١٠٦٢)، ٢/ ٧٣٩.

(٣) فتح الباري: ١٢/ ١٤٠.

فالدّاعية وهو ينطلق بدعوته إلى الله فلا بد أن يضع في حسبانه ما يكال له من اتّهامات كاذبة، وأقاويل باطلة، وشبهات مدلهمّة، وإساءات بالغة.

بل يتوقّع ما يجده من حبس واعتقال، وتعذيب وتشريد، واعتداء مادي وجسمي. وفوق ذلك تهجيره وإبعاده من بلده وأهله وولده، ولعلّه يبلغ به الاضطهاد إلى القتل والاستشهاد.

بل يضع في حسبانه ما يقابل به من إغراء بالمنصب والوظيفة والمال والجاه، وإغواء بالجنس والنّساء[1].

فعليه أن يضع كلّ ذلك وغيره الكثير من ضروب الأذى أمام عينيه فلا يتنازل عن دعوته، ولا يتزعزع عنها. بل يظلّ ثابتاً كالجبل الأشم، لأنّ ما عند الله له أجلّ وأعظم.

وله أسوة بمن سبقه من الأنبياء، وما وجدوه من أقوامهم من أذى وسخرية واستهزاء، وإعراض وإخراج وشبه. بل تقتيل وسفك دماء، فكان الثّبات شعارهم والصّبر دثارهم.

وهذا من طبيعة دعوة الله أنّها تقتضي الصّدام بين الحقّ والباطل، لأنّ النّفوس الخبيثة الملتوية النّافرة الفاسدة لا بد أن تطعن في أهل الخير والصّلاح، وتقدح فيهم.

لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبه الدّم[2]

فعلى الدّاعية أن يلاقي كلّ ذلك بتحمّل وصبر وثبات حتّى لا يضيّع دعوته، وتذهب جهوده أدراج الرّياح.

---

(١) وانظر: صفات الدّاعية النّفسيّة، لعبد الله ناصح علوان، طبعة: دار السّلام، ص: ٣٥، ٣٦.

(٢) انظر: عقبات في طريق الدّعوة، ص: ١١٠، ١١١. وبيت الشّعر للمتنبّي، في ديوانه، ص: ٥٧١، طبعة: دار صادر. انظر: يتيمة الدّهر، لأبي منصور عبد الملك الثّعالبي، تحقيق: د. مفيد محمّد قميحة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٩٨٣م، ١/٢٥٨.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا بد. . . أن يكون حليماً، صبوراً على الأذى، فإنّه لا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر يفسد أكثر ممّا يصلح»(١).

فعظمة الدّعوة تستوجب عِظم الجهد. وقديماً قال المتنبّي(٢):

وإذا كانت النّفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام(٣)

ولمّا كانت الدّعوة إلى الله تحتاج إلى الثّبات في جميع مراحلها قرن الله معها الصّبر في آيات كثر.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧].

فهذا فيما أوصى به لقمان ابنه، وذلك بعد أن أمره بتكميل نفسه بفعل الخير وترك الشّرّ، أمره أن يكمل غيره بأمره بالخير ونهيه عن الشّرّ، وقد علم أنّ ذلك يشقّ على النّفوس ويزعجها، فأمره بالصّبر، وأنّه من الأمور الّتي يعزم عليها، ويهتمّ بها، ولا يوفّق لها إلّا أهل العزائم(٤).

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص:٣٢. وهو في مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣٦.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن حسن أبو الطّيّب الجعفي الكندي الكوفي، حامل لواء الشّعر في زمنه، ومن أذكياء عصره، بلغ شعره الذّروة في النّظم، وله أبيات فائقة الحسن يضرب بها المثل، تنبّأ ثمّ تاب فلقّب بالمتنبّي، قتل سنة ٣٥٤هـ، وله ديوان شعر مطبوع ومشروح.

وانظر: تاريخ بغداد: ٤/ ١٠٢. المنتظم: ٧/ ٢٤. وفيات الأعيان: ١/ ١٢٠. سير أعلام النّبلاء: ١٦/ ١٩٩. العبر: ٢/ ٩٤. لسان الميزان: ١/ ١٥٩. النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدّين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، طبعة: المؤسّسة المصريّة العامّة: ٣/ ٣٤٠. شذرات الذّهب: ٤/ ٢٨٢. الأعلام: ١/ ١١٥.

(٣) ديوان المتنبّي، وبهامشه العرف الطّيّب. للشّيخ ناصف اليازجي، طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، ٢/ ١٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٥٩٧. وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٢١/ ٧٣. التّفسير الكبير: ٢٥/ ١٤٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٦٨. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧١٠. روح المعاني: ٢١/ ٨٩. فتح البيان: ١٠/ ٢٨٧.

ولمّا أمر الله رسوله ﷺ بالدّعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالّتي هي أحسن، أمره عقب ذلك ومَنْ معه من المؤمنين بالصّبر. فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

وفي هذا دعوة حارّة للثّبات على الدّعوة.

قال صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أمر سبحانه رسوله ﷺ بالصّبر فقال: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي بتوفيقه وتثبيته»[١].

وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أكّد تعالى الأمر بالصّبر ليقوى الثّبات والاحتمال لكلّ ما يلاقيه في سبيل الحقّ بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾»[٢].

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، هو الذي يعينك عليه ويثبّتك»[٣].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قال الشّافعي: لو فكّر النّاس كلّهم في هذه الآية لوسعتهم. وذلك أنّ العبد كماله في تكميل قوّتيه: قوّة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصّالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو

---

(١) المرجع السّابق: ٧/ ٣٤٢.
(٢) محاسن التّأويل: ١٠/ ٣٨٨٠.
(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٠٤. وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٤/ ١٩٧ ـ ١٩٨. التّفسير الكبير: ٢٠/ ١٤٢ ـ ١٤٣. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩١٩. روح المعاني: ١٤/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

التّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر. وأخيّة[1] ذلك وقاعدته وساقه الّذي يقوم عليه إنّما هو الصّبر»[2].

وقال: «صَبَرُوا على الحقّ وَوَصَّى بعضُهم بعضاً بالصّبر عليه والثّبات»[3].

وقال الرّازي رحمه الله:

«كما يلزم المُكَلَّفُ تحصيل ما يخصّ نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها: الدّعاء إلى الدّين، والنّصيحة، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأنّ يحبّ له ما يحبّ لنفسه. ثمّ كرّر التّواصي ليضمن الأوّل الدّعاء إلى الله، والثّاني الثّبات عليه»[4].

فالله تعالى أمر المؤمنين بأن يتواصوا بالحقّ، وهو القيام بالدّعوة إليه، والتّبليغ لدينه، ولمّا كان ذلك يجلب الأذى والضّنك للآمر النّاهي أردف الأمر بالتّواصي بالصّبر، وفي ذلك دعوة إلى الثّبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«أمر اللّهُ الرّسلَ وهم أئمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بالصّبر... بل ذلك مقرون بتبليغ الرّسالة. فإنّه ـ أي محمّد ﷺ ـ أوّل ما أرسل أنزلت عليه سورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١] بعد أن أنزلت سورة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١] الّتي بها نُبِّئ. فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]، فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار، وختمها بالصّبر. ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعُلم أنّه يجب بعده الصّبر»[5].

ثمّ أورد رحمه الله مجموعة من الآيات الّتي تأمر بالصّبر في مواجهة أعباء الدّعوة.

---

(١) الأخية العروة الّتي تثبّت فيها الدّابة، ومراده: مستند ذلك ومتمسّكه. انظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) عدة الصّابرين، ص: ٦٠. وانظر: التّبيان في أقسام القرآن، ص: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) مفتاح دار السّعادة: ١/ ٥٦.

(٤) التّفسير الكبير: ٣٢/ ٨٩ ـ ٩٠.

(٥) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص: ٣٢، وهو في مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣٦ ـ ١٣٧، مع اختلاف طفيف. وانظر: ١٥/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

ومن هنا تتبيّن لنا أهميّة الثّبات للدّاعية، وأنّه لا يمكنه أن يواصل سيره في دعوته إلّا إذا اصطحبه معه في جميع مراحلها.

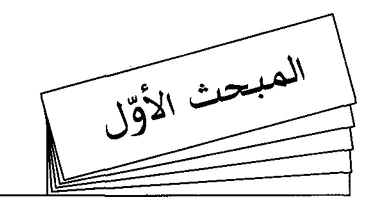
وبثباته في ميدان الدّعوة يتحقّق له كثير من النّتائج الّتي لا تتأتّى له دون ذلك. منها:

* قوّة العزيمة وشدّة الاحتمال على مواجهة الصّعاب.
* اصطفاء الشّخصيات الدّاعية، واستخلاص العناصر القويّة.
* الوقوف على صدق الصّادقين من الدّعاة وقوّة ارتباطهم وتماسكهم(١).
* برهنته جدارة الدّعوة وأنّها حقّ يجب الاتباع.
* ضمان استمراريّة الدّعوة ووقوفها أمام التّحدّيات.
* عجز أهل الباطل من النّيل منها لصلابة سياجها ومنعة حصنها.
* تكثير أتباعها، ونيل ما يترتّب عليها من ثواب دنيوي وأخروي.

وثمّة عوامل كثيرة تعين على الثّبات على الدّعوة، أتناول منها ما كان ذا صلة قويّة بهذا الجانب في المباحث الآتية:

---

(١) وانظر: طرق الدّعوة، ص:٨٦. وانظر فيه: قولاً قيّماً عن الثّبات في الدّعوة وما يجنيه الدّعاة من ثباتهم، ص:٨٢، ٨٣.



التّرغيب في الدّعوة والثّواب المترتّب على ذلك والتّرهيب من تركها والعقاب المترتّب عليه

لقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالدّعوة إليه في أكثر من موضع في كتابه، وبيّن ما يناله الدّعاةُ إلى الله من الأجر الجزيل والثّواب العظيم.

فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

أي لا أحد أحسن كلاماً ولا أطيب مقالاً من الّذي قام بتبليغ دين الله لعباد الله، على مراد الله، بأمر من الله.

قال الرّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يدلّ على أنّ الدّعوة إلى الله أحسن من كلّ ما سواها. إذا عرفت هذا فنقول: كلّ ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً، لأنّ كلّ ما لا يكون واجباً فالواجب أحسن منه، فثبت أنّ كلّ ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، إذا عرفت هذا فتقول: الدّعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية، وكلّ ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، ثمّ ينتج أنّ الدّعوة إلى الله واجبة»(١).

والآية عامّة لكلّ من دعا إلى الله من الأنبياء والمؤمنين، ولا تختصّ بشخص أو صنف معيّن من النّاس كما ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم(٢).

---

(١) التّفسير الكبير: ٢٧/ ١٢٥ ـ ١٢٦. وقد سبق بيان نوعيّة هذا الوجوب والتّفصيل فيه. وانظر: ص: ٤٣١ ـ ٤٣٣، من هذا البحث.

(٢) وانظر: جامع البيان: ٢٤/ ١١٧ ـ ١١٨. أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٦٥٠.=

وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ففي الآية أمر من الله ﷻ للأمّة أن تُنصّب دعاة أتقياء ناصحين ليقوموا بأمر الله في الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأولئك هم الّذين وُصفوا بالفلاح.

والفلاح هو الظّفر وإدراك البغية، وهو دنيوي وأخروي. فالدّنيوي: هو إدراك السّعادة الّتي تطيب بها الحياة. والأخروي: بقاء بلا فناء ـ في دار البقاء وهي الجنة ـ وعزّ بلا ذل، وغنى بلا فقر، وعلم بلا جهل[(١)].

والأمّة تنال الفلاح في الدّنيا والأخرى إذا عملت بدينها الّذي شرعه الله لها ولم تتنكّب طريقه، وقامت بالدّعوة إلى الله خير قيام، فبلّغت رسالة الله، وأدّت أمانته، ونصحت فيه أبلغ النّصح، وجاهدت فيه حقّ الجهاد، فحينها تتبوّأ مراتب العزّ، وتنال المجد والسّؤدد، والشّرف على الأمم قاطبة، وتستحقّ في يوم الخلود النّعيم المقيم والفوز العظيم.

وقال ﷻ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

فالله وعد بالثّواب الجزيل والأجر العظيم الّذي لا حد لمبلغه لمن أمر بالخير المتضمّن لوجوه الصّلاح في الأرض، وحذّر من الشّر المتضمّن لوجوه الفساد، إذ كلّ أمر بخير يقتضي نهياً عن شرّ مقابل.

= التّفسير الكبير: ٢٧/ ١٢٤ ـ ١٢٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٦٠. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٥١. الجواهر الحسان: ٣/ ١٧٦. روح المعاني: ٢٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣. فتح البيان: ١٢/ ٢٥١. محاسن التّأويل: ١٤/ ٥٢٠٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٩٤ ـ ٦٩٥، وفيه تفصيل قيّم لأنواع الدّعوة الّتي يجب أن يقوم بها الدّعاة إلى الله.

(١) محاسن التّأويل: ٤/ ٩٢٠ بتصرّف. وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٤/ ٣٨. أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣. التّفسير الكبير: ٨/ ١٦٦ ـ ١٦٨. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٣. الجواهر الحسان: ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨. روح المعاني: ٤/ ٢٠ ـ ٢٢. فتح البيان: ٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

وفي الآية بيان لما يناله الدّعاة إلى الله من ثواب عظيم جزاء قيامهم بأمر الدّعوة[1].

وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

ثم وصف المؤمنين بضدّ ذلك فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

فمن صفات أهل الإيمان الّتي يتميّزون بها عن المنافقين، والّتي استحقّوا بها رحمة الله تعالى أنّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إضافة إلى ما ذكر من صفات في الآية، بينما يتميّز المنافقون بخلاف ذلك.

ولذا قال القرطبي رحمه الله:

«فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدلّ على أنّ أخصّ أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»[2].

وفي هذا دافع للمؤمن كي يقوم بأمر الدّعوة حتّى يتّسم بسمة من سمات الإيمان الفارقة بينه وبين النّفاق.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ

---

(١) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٥/ ٢٧٦. أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩. التّفسير الكبير: ١١/ ٤٠ ـ ٤٢. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٨٣. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٤٢. الجواهر الحسان: ١/ ٣٨٤. روح المعاني: ٥/ ١٤٤ ـ ١٤٥. فتح البيان: ٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩. محاسن التّأويل: ٥/ ١٥٤٢ ـ ١٥٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٤٧. وانظر: جامع البيان: ١٠/ ١٧٨ ـ ١٧٩. التّفسير الكبير: ١٦/ ١٣٠ ـ ١٣١. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥. روح المعاني: ١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦. فتح البيان: ٥/ ٣٤٥ ـ ٣٤٧. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٢٠٠ ـ ٣٢٠١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٠٣.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قد دلّت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف، وعظم ذنب قاتله، لأنّه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى، وقتل الأنبياء»[١].

والآيات في هذا الشّأن كثيرة، وأمّا الأحاديث:

فعن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم مُنكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٢].

فقد وصف ﷺ من قام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ـ وهما شقّا الدّعوة ـ بالإيمان، وأنّه يتناقص ذلك الإيمان كلّما ضعف صاحبه في جانب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

قال أبو العبّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده»، هذا الأمر على الوجوب، لأنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من واجبات الإيمان، ودعائم الإسلام بالكتاب والسّنة وإجماع الأمّة»[٣].

بل من لم يباشر ذلك، ولو بقلبه، يسلب إيمانه. وقد صرّح ﷺ بذلك في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما قال: «ما من نبيٍّ بعثه الله في أمّة قبلي إلّا كان له من أمّته حَوَارِيُّون[٤] وأصحاب يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره، ثمّ إنّها

---

(١) محاسن التّأويل: ٤/ ٨١٧.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب بيان كون النّهي عن المنكر من الإيمان: (٢٠)، برقم: (٤٩)، ١/ ٦٩.

(٣) المفهم: ١/ ٢٣٣.

(٤) حواريّون: جمع حواري وهم خلصاء الأنبياء وأنصارهم.
انظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ١٦. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٥٨.

تَخْلُف من بعدهم خُلُوف[1]، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل»[2].

وعن عليّ رضي الله عنه أنّ الرّسول ﷺ قال له: «انْفُذ على رِسْلِك[3] حتّى تنزل بساحتهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النّعَم»[4].

وفي هذا إثبات للأجر العظيم الّذي ينال الدّاعية إلى الله متى ما اهتدى على يديه عَبْدٌ من عباد الله. فإنّ ذلك خير له من حمر النّعم، الّتي هي أشرف النّعم وخيارها عند أهلها.

قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله:

«وقوله: «فوالله لأن يهدي الله... النّعم»، حضّ عظيم على تعليم العلم وبثّه في النّاس، وعلى الوعظ والتّذكير بالدّار الآخرة والخير... والهداية: الدّلالة والإرشاد. والنّعم: هي الإبل. وحُمْرُها: هي خيارها حسناً وقوّة

---

(١) خُلُوف: جمع خَلْف وهو من يجيء بعد من مضى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٦٥ ـ ٦٦. وانظر: الفائق: ١/ ٤٨. غريب الحديث لأبي الفرج عبد الرّحمٰن بن عليّ بن الجوزي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٥م، ١/ ٢٩٧.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب بيان كون النّهي عن المنكر من الإيمان: (٢٠)، برقم (٥٠)، ١/ ٧٠.

(٣) الرّسْل: هو السّكون والتّأني. والمراد أي اتّئد في أمرك ولا تعجل فيه. وانظر: الفائق: ٢/ ٥٦، ٣/ ٩٤. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ «المناقب»: (٦٢/ ٣٧). باب مناقب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (٩/ ٣٨)، برقم: (٣٧٠١)، ص: ٧٨٠. وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨). باب غزوة خيبر: (٣٨/ ٣٩)، برقم: (٤٢١٠)، ص: ٨٨٠، وبلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢). باب دعاء النّبي ﷺ إلى الإسلام والنّبوة: (١٠٢/ ١٠١)، برقم: (٢٩٤٢)، ص: ٦٢١. وفي باب فضل من أسلم على يديه رجل: (١٤٣/ ١٤٢)، برقم: (٣٠٠٩)، ص: ٦٣٣.
صحيح مسلم، بلفظ برقم: (٢٤٠٦) وبمعناه برقم: (٢٤٠٥). وفي كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب من فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (٤)، ٤/ ١٨٧١ ـ ١٨٧٢.

ونفاسة، لأنّها أفضل عند العرب. ويعني به ـ والله أعلم ـ أنّ ثواب تعليم رجل واحد، وإرشاده للخير أعظم من ثواب هذه الإبل النّفيسة لو كانت لك فتصدّقت بها، لأنّ ثواب تلك الصّدقة ينقطع بموتها، وثواب العلم والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة»[1].

والهداية في الحديث هي هداية البيان والدّلالة والإرشاد، وهي الّتي كلّف بها الرّسل والدّعاة إلى الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشّورى: ٥٢]. وليست بهداية التّوفيق والإلهام، إذ ليست هذه في مقدور الخلق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦][2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[3].

قال ابن القيّم رحمه الله:

«أخبر ﷺ أنّ المتسبّب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به، والمتسبّب إلى الضّلالة بدعوته عليه مثل أثم من ضلّ به، لأنّ هذا بذل قدرته في هداية النّاس، وهذا بذل قدرته في ضلالتهم، فنزل كلّ واحد منهما بمنزلة الفاعل التّام»[4].

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»[5].

---

(١) المفهم: ٦/٢٧٦. وانظر: مفتاح دار السّعادة: ١/٦٢.

(٢) وانظر: مجموع الفتاوى: ١٨/١٧٢ ـ ١٧٣. مفتاح دار السّعادة: ١/٨٤ ـ ٨٥.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب العلم:(٤٧). باب من سنّ سنّة حسنة أو سيّئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة: (٦)، برقم: (٢٦٧٤)، ٤/٢٠٦٠.

(٤) مفتاح دار السّعادة: ١/٦٢. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/٧٢٤. طريق الهجرتين، ص: ٥٣٣.

(٥) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة:(٣٣). باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافه في أهله بخير: (٣٨)، برقم: (١٨٩٣)، ٣/١٥٠٦.

قال النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فيه فضيلة الدّلالة على الخير والتّنبيه عليه والمساعدة لفاعله. وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبّدين وغيرهم»[1].

فالدّاعية في الحديثين نال الأجر العظيم لأنّه:

١ ـ أنقذ ذلك المهتدي من النّار، وهي دار الشّقاء إلى الجنّة الّتي هي دار السّعادة. وذلك أعظم معروف وإحسان يقدّمه الدّاعية لغيره.

٢ ـ كلّ ما يقوم به المهتدي من حركات وسكنات ينال بها أجراً كان للدّاعية مثل أجره، لأنّه السّبب في اهتدائه. وذلك باب من الأجر لا يغلق

٣ ـ من اهتدى يكون عوناً للدّاعية على أداء رسالته، حيث تضمّ الجهود إلى بعضها، وتتقوّى الدّعوة بزيادة عناصرها.

٤ ـ يكتسب الإسلام فرداً جديداً من أفراده، ويخسر الشيطان بعض أعوانه، وفي ذلك لبنة في بناء الإسلام الشّاهق تسبّب في إضافتها الدّاعية[2].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ اللَّهُ امرءاً سمع مقالتي فوعاهَا، وحفظها وبَلَّغها، فَرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هُوَ أفقه منه» الحديث»[3].

---

(١) شرح النّووي على مسلم: ١٣/٣٩.

(٢) وانظر: قواعد الدّعوة إلى الله ـ للدّكتور همّام عبد الرّحيم سعيد ـ دار العدوي، عمّان الأردن، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص:٢٣ ـ ٢٦.

(٣) سنن أبي داود، بنحوه في: كتاب العلم: (٢٤). باب فضل نشر العلم: (١٠)، برقم: (٣٦٦٠)، عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٤٠٤.

سنن التّرمذي، بلفظه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم: (٢٦٥٨) ـ مع زيادة فيه ـ وبنحوه عنه برقم: (٢٦٥٧). كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء في الحثّ على تبليغ السّماع: (٧). وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٤٣٠.

سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب من بلّغ علماً: (١٨). عن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم: (٢٣٠). وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم: (٢٣١). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم: (٢٣٦). وبنحوه عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم: (٢٣٢). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: =

فلو لم يكن في فضل الدّعوة إلّا هذا الحديث لكفى، فإنّ رسول الله ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه، ثمّ بلّغه وبثّه في الأمّة بالنّضارة، وهي البهجة والحسن الّذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به، وفرح القلب وسروره واللّذاذة به، فتظهر هذه البهجة والسّرور والفرحة نضارة على الوجه[1].

* وقد جاء خطاب الشّرع بالأمر بالدّعوة متنوّع الأساليب، متعدّد الأوجه، حاثّاً للدّعاة إلى الله أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأحسن الطّرق، وأقوم السّبل.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

أمر الله سبحانه في الآية الدّعاة إلى الله أن يدعوا إلى دينه بالحكمة، وهي كما يقول مالك رَحِمَهُ اللهُ: «طاعة الله والاتّباع لها، والفقه في دين الله، والعمل به»[2]، أو هي معرفة الحقّ والعمل به، والإصابة في القول والعمل[3].

= «صحيح»، ص: ٤٠، وبلفظ مقارب في: كتاب المناسك: (٢٥). باب الخطبة يوم النّحر: (٧٦)، برقم: (٣٠٥٦)، عن جبير رضي الله عنه، ص: ٣٣١.
سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: باب الاقتداء بالعلماء، عن جبير رضي الله عنه، ونحوه عن أبي الدّرداء رضي الله عنه، ١/ ٨٦ ـ ٨٧.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٤/ ٨٠، عن جبير رضي الله عنه، ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في: ١/ ٤٣٦. وعن جبير رضي الله عنه في: ٤/ ٨٢، وزيد رضي الله عنه في: ٥/ ١٨٣.
هذه بعض طرق هذا الحديث، وهو حديث متواتر. انظر: دراسة وافية وقيّمة له لشيخنا عبد المحسن بن حمد العبّاد حفظه الله، في كتابه: دراسة حديث نضّر الله امرءاً سمع مقالّتي... رواية ودراية. فقد ذكر له أربعة وعشرين صحابياً ممّن رواه عن النّبي رضي الله عنه، وذكره السّيوطي في قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، تحقيق: الشّيخ خليل محيي الدّين عيسى، المكتب الإسلامي، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص: ٢٨.

(١) انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ٧٢.
(٢) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النّمري القرطبي، تقديم: عبد الكريم الخطيب، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، طبع المطبعة الفنيّة بالقاهرة، نشر دار الكتب الإسلاميّة، ص: ٤٠.
(٣) مدارج السّالكين: ٢/ ٤٧٨. الضّوء المنير: ١/ ٤٥٦. وقد تعدّدت أقوال أهل العلم=

وهي دعامة ثابتة، وركيزة قويّة من ركائز الدّعوة، ولكنّها لا تتأتّى إلّا لمن نال قسطاً وافراً من فقه الدّعوة.

ولذا مدح الله أهلها فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ولا تكون الدّعوة بحكمة إلّا إذا كان مقصوداً بها الوصول إلى الغايات المحمودة، والمطالب النّافعة المشتملة على العام النّافع والعمل الصّالح[1].

كما أمرهم أن يدعوا إليه بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنّهي المقرون بالتّرغيب والتّرهيب[2]، لما في ذلك من الأثر العظيم والخير العميم. إذ التّرغيب والتّرهيب عاملان مؤثّران في دفع النّاس للخير وتجنيبهم للشّرّ. ولأجل هذا تكاثرت الآيات الآمرة بالدّعوة بالموعظة، كقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: ١٣]، وغيرها الكثير.

= في المراد بالحكمة. انظر: جامع البيان: ٣/ ٨٩ ـ ٩١. التّفسير الكبير: ٧/ ٦٧ ـ ٦٩. الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٣٠. روح المعاني: ٣/ ٤١. فتح البيان: ٢/ ١٣٠. فتح الباري: ١/ ٢٣٠. وما ذكرته هو القول الجامع لمعنى الحكمة. ولذا استحسنه ابن القيّم رحمه الله انظر: مدارج السّالكين: ٢/ ٤٧٨.

(١) انظر: شفاء العليل، ص: ١٩٠. الضّوء المنير: ٢/ ٢٩٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٠٤. ويقصد بالتّرغيب: كلّ ما يشوّق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحقّ، والثّبات عليه. ويقصد بالتّرهيب: كلّ ما يخيف ويحذّ المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحقّ أو عدم الثّبات عليه بعد قبوله. والأصل في التّرغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون التّرهيب بالتّخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة. أصول الدّعوة، لعبد الكريم زيدان، مؤسّسة الرّسالة بيروت، الطّبعة السّابعة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، ص: ٤٣٧ بتصرّف يسير.

كما أمرهم بالجدال بالّتي هي أحسن، وهو إقامة الحجج والبراهين لنصرة الحقّ وكبت الباطل، ودفع الشّبهات، وإفساد حجج الخصم(١).

ولكن بما يَحْسُنُ من الأدلّة، ويَجْمُل من الكلام، بأن يكون منك للخصم تمكين، وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلّة أظهرها وأنورها، وإذا لم يفهم المجادل أعاد عليه الحجّة وكررها(٢).

وقال في آية مماثلة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، أي جادلوهم بالخصلة الّتي هي أحسن للثّواب على سبيل الدّعوة لهم، والتّنبيه على حجج الله وبراهينه رجاء أن ينصاعوا للإسلام، لا عن طريق الإغلاظ والمخاشنة(٣).

مستندين إلى العلم الصّحيح، والهدي الرّشيد، والكتاب البيّن، قاصدين الحقّ. ليس كقوم قال الله في شأنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٨، ٩].

والّذي يحسن الجدال هو العالم الّذي تتأتّى له الحجج، ويحضره الجواب، ويسرع إليه الفهم(٤).

والنّاس ليسوا أمام الدّعوة في حدّ سواء، فهم مختلفون في الفهم والانقياد والاقتناع، فيسلك معهم أقرب السّبل الّتي توصلهم إلى الحقّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«النّاس ثلاثة أقسام: إمّا أن يعترف بالحقّ ويتّبعه، فهذا صاحب الحكمة.

---

(١) وانظر: الفروسيّة لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود بن سليمان، طبعة: دار الأندلس، حائل، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، ص: ١٨٥ ـ ١٨٦. مفتاح دار السّعادة: ٢/ ٥٨. الضّوء المنير: ٥/ ١٧٣.

(٢) أحكام القرآن بن العربي: ٣/ ١٤٧٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٥٠. فتح البيان: ١٠/ ٢٠١.

(٤) انظر: جامع البيان العلم، ص: ٤٣٣.
ولمعرفة أنواع الجدال وما يجوز منه وما يمنع. انظر: فتح الباري: ١٥/ ٢٥٢.

وإمّا أن يعترف به لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتّى يعمل. وإمّا أن لا يعترف به فهذا يجادل بالّتي هي أحسن، لأنّ الجدال في مظنّة الإغضاب، فإذا كان بالّتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصّائل»(١).

وممّا أمر به الدّعاة إلى الله أن يؤدّوا واجب النّصح لعباد الله، لأنّ الدّعاة أمناء على دين الله، فإذا لم يقوموا بنصح الأمّة فقد نقضوا تلك الأمانة.

قال أبو حاتم رحمه الله:

«الواجب على المرء لزوم النّصيحة للمسلمين كافّة، وترك الخيانة لهم، بالإضمار والقول والفعل معاً، إذ المصطفى ﷺ كان يشترط على من بايعه من أصحابه النّصح لكلّ مسلم مع إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة»(٢).

ولمّا كان النّصح عظيماً جعله الله من صفات رسله، فقال عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقال عن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقد جعل رسول الله ﷺ عماد الدّين وقوامه النّصيحة(٣)، فقال في حديث

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢/ ٤٥.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للإمام أبي حاتم محمّد بن حبّان البستي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعليّ محمّد معوّض، ـ الطّبعة الثّالثة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكّة ـ الرّياض، ص:٣٢٦، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والنّصح لكلّ مسلم». صحيح البخاري، كتاب الإيمان: (٢). باب قول النبي ﷺ: «الدّين النّصيحة: (٤٢/ ٤٣)، برقم: (٥٧)، ص:٢٨ ـ وهو في مواضع أخرى من صحيحه ـ. صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١). باب بيان أنّ الدّين النّصيحة: (٢٣)، برقم: (٥٦)، ١/ ٧٥.

(٣) النّصيحة: كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح له. وهي من وجيز الكلام الّذي ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة. وقيل: هي مأخوذة من نصح الرّجل ثوبه إذا خاطه، فشبّهوا فعل النّاصح فيما يتحرّاه من صلاح المنصوح له بما يسدّه من خلل الثّوب، وقيل: مأخوذة من نصحت العسل إذا صفّيته من الشّمع، فشبّهوا تخليص القول من الغشّ بتخليص العسل من الخلط. =

تميم الدّاري ﷺ: «الدّين النّصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم»[1].

وقيام الدّاعية إلى الله بالنّصح فيه دلالة على بذله غاية الجهد في إبلاغ دين الله وبيانه للنّاس، إذ ليس كلّ أحد يؤدّي النّصيحة إلى عباد الله أداء سليماً، لما تحتاجه من جوانب شتّى يجب على الدّاعي أن يتحلّى بها.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«النّصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرّحمة له، والشّفقة عليه، والغيرة له وعليه، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقّة، ومراد النّاصح بها وجه الله ورضاه، والإحسان إلى خلقه، فيتلطّف في بذلها غاية التّلطّف، ويحتمل أذى المنصوح ولأئمته، ويعامله معاملة الطّبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضاً، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطّف في وصول الدّواء إليه بكلّ ممكن فهذا شأن النّاصح»[2].

ولكي ينجح الدّاعي في حصول مقصوده في النّصيحة فليقدّمها سرّاً بينه وبين المنصوح له حتّى تؤتي أكلها. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ۝٦٣﴾ [النّساء: ٦٣]، أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم[3].

* والله ﷻ كما أمر الدّعاة بالقيام بأمر الدّعوة حذّرهم أيّما تحذير عن النّكوص عنها، وترك القيام بها، وبيّن لهم العاقبة الوخيمة الّتي تنالهم إذا هم أهملوا أمرها، وتركوا شأنها.

= شرح النّووي على مسلم: ٢/ ٣٧ بتصرّف يسير.

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١). باب بيان أنّ الدّين النّصيحة: (٢٣)، برقم: (٥٥)، ١/ ٧٤. وانظر: شرح الحديث، ومراد النّبي ﷺ من النّصح لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم. في: المفهم: ١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤. شرح النّووي على مسلم: ٢/ ٣٧ ـ ٣٩. فتح الباري: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) الرّوح، ص: ٢٥٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٨٦. وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٤٩.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

لقد طرد الله وأبعد من رحمته قوماً من بني إسرائيل بشهادة وإقرار بعض أنبيائهم، وذلك لمّا عصوا الله وظلموا عباده، ثمّ فسّر ذلك العصيان الّذي استجلب لهم اللّعن، أنّهم كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً عنه. فانتظم اللّعن المباشر للمنكر والسّاكت عن نهيه مع قدرته عليه[١].

والآية ذامّة لكلّ من فعل فعلهم، ومحذّرة له من أن يرتكب ما ارتكبوه[٢].

ولذا قال الألوسي رحمه الله:

«وفي هذه الآية زجر شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»[٣].

وقال الغنوجي رحمه الله:

«والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من أهمّ القواعد الإسلاميّة، وأجلّ الفرائض الشّرعيّة، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقّاً لغضب الله وانتقامه»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢٠٣. وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ٦/ ٣١٧ ـ ٣٢٠. التّفسير الكبير: ١٢/ ٦٣ ـ ٦٤. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٣٢. الجواهر الحسان: ١/ ٤٤١ ـ ٤٤٢. روح المعاني: ٦/ ٢١١ ـ ٢١٣. فتح البيان: ٤/ ٣١ ـ ٣٢. محاسن التّأويل: ٦/ ٢١١٠ ـ ٢١١٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٥٣. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٣٢.

(٣) روح المعاني: ٦/ ٢١٣.

(٤) فتح البيان: ٤/ ٣٢. وقد نقل القاسمي عن الحاكم (رحمهما الله) أنّه قال في الآية: «تدلّ على أن ترك النّهي من الكبائر». محاسن التّأويل: ٦/ ٢١١١.
وقد أطبق علماء التّفسير على إيراد حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند تفسير هذه الآية. ومفاده: أن الرّجل من بني إسرائيل إذا لقي من يفعل المنكر ينهاه، ثمّ لا يمتنع بعد ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله على قلوب بعضهم=

وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وأوامره تترك، وحدوده تُضَيَّع، ودينه يهمل، وشرعه يرغب عنه وهو مع ذلك ساكت أخرس، بارد القلب، عاجز الهمّة، لا يحرك ساكناً، ولا يتمعّر وجهه في الله يوماً.

وهل ابتلي الإسلام إلّا بمثل هؤلاء الّذين يرون ـ صباح مساء ـ دين الله يعطّل، وشرعه يدّنس، ولا مبالاة لهم بما يجري، وكأن الأمر لا يعنيهم؟!.

فأي خير في هؤلاء، إنّهم لا خير فيهم، فحقّ لمثلهم أن يلحقوا بالعصاة والمجرمين[1].

ولعلّ البعض تقوم في ذهنه شبهة إذا رأى الفساد استشرى، والباطل صلب عوده، والمعاصي استفحلت، ولا أثر للدّعوة فيمن فسد، فحينها يترك الأمر والنّهي، ويرفع عقيرته بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥]. حيث يستمدّ من الآية فهماً خاطئاً فحواه: أن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر سقطا عنه، إذ لا يضرّه ضلال من ضلّ، وغواية من غوى ما دام هو على الجادّة.

وقد تطرّق هذا الفهم الخاطئ للآية قديماً ممّا جعل خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه ينبري لتصويبه.

= ببعض ولعنهم. والحديث أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنّهي: (١٧)، برقم: (٤٣٣٦). قال الألباني رحمه الله: «ضعيف»، ص: ٤٧٣. والتّرمذي في سننه: كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة المائدة: (٥)، برقم: (٣٠٤٨). قال الألباني رحمه الله: «ضعيف»، ص: ٤٨٦. وابن ماجه في سننه: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٢٠)، برقم: (٤٠٠٦). قال الألباني رحمه الله: «ضعيف»، ص: ٤٣٠ ـ ٤٣١. والبيهقي في سننه: باب ما يستدلّ به على أنّ القضاء وسائر أعمال الولاة ممّا يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من فروض الكفايات: ١٠/ ٩٣. وأبو يعلى في مسنده: ٨/ ٤٤٨، برقم: (٥٠٣٥). قال محقّقه: «إسناده ضعيف». والطّبراني في المعجم الأوسط: ١/ ٣١٦.

وعلّة ضعفه أنّه رواه أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه وهو لم يسمع منه، فالحديث منقطع، وانظر: التّرغيب والتّرهيب: ٣/ ١٦١. ولذا ضربت عنه صفحاً لمّا تبيّن لي عدم صحّته. انظر: سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة: ٣/ ١١٠٥.

(١) انظر: إعلام الموقعين: ٢/ ١٧٧. الضّوء المنير: ٣/ ٢٢٢.

عن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ[1] قال: قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا أيّها النّاس إنّكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾... وإنّا سمعنا النّبي ﷺ يقول: «إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب»... وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي، ثمّ يقدرون على أن يغيّروا، ثمّ لا يغيّروا إلّا يوشك أن يعمّهم الله منه بعقاب»[2].

فقد أجلى الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معنى الآية بحيث لا يصبح للسّاكت عن الدّعوة متمسّك فيها، بل هي آية حاثّة للقيام بأمر الدّعوة.

ولذا قال الإمام أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ عنها:

«هذه الآية من أصول الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي هو أصل الدّين وخلافة المسلمين»[3].

وبيان ذلك أنّ الله أمر عباده أن يصلحوا أنفسهم، ثمّ يصلحوا غيرهم بأن

---

(١) هو ابن أبي حازم رَحِمَهُ اللَّهُ. سبقت ترجمته، انظر: ص:٢٢٥.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنّهي:(١٧)، برقم: (٤٣٣٨). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٤٧٣.

سنن التّرمذي، بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيّر المنكر: (٨)، برقم: (٢١٦٨)، ص:٣٦٠. وقال: «وهذا حديث صحيح». قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح».

سنن ابن ماجه: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر :(٢٠)، برقم: (٤٠٠٥). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٤٣٠.

مسند أحمد، بنحوه في: ١/ ٧، ٩. قال أحمد محمّد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١/ ١٦٨، ١٧٦، برقم: (٢٩، ٥٣).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بنحوه في: باب ذكر البيان بأنّ المنكر والظّلم إذا ظهرا كان على من علم تغييرها حذر عموم العقوبة، برقم: (٣٠٤، ٣٠٥). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»، ص:١/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

مسند أبي يعلى، نحوه برقم: (١٢٨، ١٣١). قال محققه: «إسناده صحيح»، ١/ ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) أحكام القرآن: ٢/ ٧٠٣.

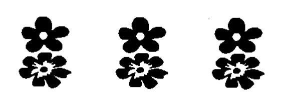
يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فإن هم فعلوا ذلك فلم يرتدع من أُمِر أو نُهي فلا يضّرهم ضلاله وانحرافه حينئذ.

قال الطّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإنّه لا يضرّكم ضلال من ضلّ إذا أنتم رمتم العمل بطاعة الله، وأدّيتم فيمن ضلّ من النّاس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، الّذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه، إذا رام ظلماً لمسلم أو معاهد ومنعه منه، فأبى النّزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيّه وضلاله إذا أنتم اهتديتم، وأدّيتم حقّ الله تعالى فيه»[1].

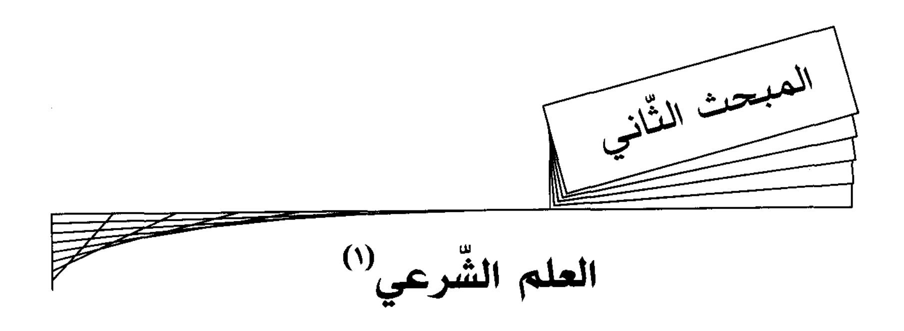
فالآية آمرة بالدّعوة حاثّة عليها، ليست بمثبّطة عنها.

وبعد هذا، فإنّ الدّاعية إلى الله متى ما استشعر أوامر الله ورسوله الحاثّة له على القيام بتبليغ دين الله، وما ينتج من ذلك من ثمرات دنيويّة وأخرويّة، كما استشعر الزّواجر النّاهية له عن النّكوص عن الدّعوة والسّكوت عن بيان دين الله، وما يترتّب على ذلك من عواقب دنيويّة وأخرويّة، دفعه ذلك كلّه للقيام بالدّعوة إلى الله والثّبات عليها، والصّبر على ما يقابله من شدّة فيها وعنت مهما كانت العقبات والمعوّقات والمصاعب والآلام الّتي تصاحب الدّعوة إلى الله والّتي تعترض طريق سيره إليه سبحانه.



---

(١) جامع البيان: ٩٩٧ ـ ١٠٠. وانظر: التّفسير الكبير: ١٢/١١١ ـ ١١٣. الجامع لأحكام القرآن: ٦/٣٤٢ ـ ٣٤٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/١٧٦. الجواهر الحسان: ١/٤٥٤ ـ ٤٥٥. روح المعاني: ٧/٤٥ ـ ٤٦. فتح البيان: ٤/٦٩ ـ ٧١. محاسن التّأويل: ٦/ ٢١٨٩ ـ ٢١٩٣.



العلم الشّرعي[1]

إنّ العلم هو الرّوح الّذي تحيا به الدّعوة، وهو النّور الّذي تستضيء به، وهو الغذاء الّذي يضمن لها بقاءها وقوّتها.

والدّاعية بغيره، يعجز أن يؤدّي دوره الّذي كلّف به، ومهمّته الّتي أنيطت به، وهي تبليغ دعوة الله إلى النّاس كافّة.

قال سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فبنور العلم والإيمان يستطيع الدّاعية أن يمشي بين النّاس متبصّراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشّرّ، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره[2].

والعلم الّذي تحتاجه الدّعوة هو العلم الدّيني المستمدّ من كتاب الله وسنّة رسوله، وليس هو العلم بمعناه الواسع الّذي يشمل مختلف العلوم والمعارف، كالطّب والهندسة والفلك ونحو ذلك.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله:

«والمراد بالعلم: العلم الشّرعي الّذي يفيد معرفة ما يجب على المكلّف

(١) العلم: عاملٌ مُعينٌ على الثّبات في كلّ المواطن، فهو من العوامل العامّة، ولكن آثرت الحديث عنه هنا لارتباطه الوثيق بالدّعوة، وأهمّيته العظمى في ثبات الدّاعية.

(٢) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٣٤، بتصرّف يسير.

من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النّقائص، ومدار ذلك على التّفسير والحديث والفقه»[1].

* وقد ندب الله المؤمنين إلى التّفقه في الدين وتعلّمه، كي ينذروا قومهم، ويبلّغوهم دين الله إذا رجعوا إليهم.

فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢][2].

قال الرّازي رحمه الله:

«دلّت الآية على أنّه يجب أن يكون المقصود من التّفقّه والتّعلّم دعوة

---

(١) فتح الباري: ١/١٩٢.

(٢) وقد اختلف العلماء في المراد من الآية: هل الطّائفة النّافرة هي الّتي تتفقّه أم القاعدة مع النّبي ﷺ؟ قولان، ولكل قول مؤيّدون من أهل التّفسير. انظر: جامع البيان: ١١/ ٧٦ ـ ٧١. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/١٠١٨ ـ ١٠١٩. التّفسير الكبير: ١٦/٢٢٥ ـ ٢٢٨. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٩٣ ـ ٢٩٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٢١ ـ ٦٢٢. الجواهر الحسان: ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠. روح المعاني: ١١/٤٨ ـ ٤٩. فتح البيان: ٥/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥. محاسن التّأويل: ٨/٣٢٩٨ ـ ٣٣٠١.

وعلى القولين فإنّ الآية مرغّبة في التّفقه في الدّين، وتعلّمه وتعليمه. انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/٥٦. ولذا قال القرطبي رحمه الله: «هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم».

الجامع لأحكام القرآن: ٨/٢٩٣. وانظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٢/١٠١٩.

وقد أساء إلى دعوة الله أناس نالوا قسطاً من علوم شتّى كالطّبّ والهندسة والجغرافية وغيرها، وخلا وفاضهم من علم الكتاب والسّنّة إلّا من بصيص لم يكْفِ لإيضاح الرّؤية، ومنهم من قذفت به جامعات الغرب، فنصّب هؤلاء أنفسهم دعاة إلى الله، بل لم يقف بعضهم عند ذلك الحدّ، فتبوّأ مقام الصّدارة في موكب الدّعوة، يرسل الفتاوى ويُكْثِرُ التّنظيرات فيزيد الأمّة وبالاً على ما هي عليه، ويفتك بأبنائها فيقتطع طائفة منهم يبثّ سمومه فيهم، ويملي رعوناته عليهم فيردّدونها كالببغاوات، فتنجرف الدّعوة عن مسارها الصّحيح، وتقف عجلة تقدّمها بل لعلها تعود إلى الوراء.

وخير لهؤلاء أن يكفّوا ويتركوا الأمر إلى أهل العلم الشّرعي الّذين يبصّرون الأمّة، ويحسنون قيادها، ويقيمون عوجها، فهم أولى وأرشد، ولِيُذَيّل أولئك القافلة فذاك المقام بهم أحرى وأنسب.

الخلق إلى الحقّ، وإرشادهم إلى الدّين القويم والصّراط المستقيم، لأنّ الآية تدلّ على أنّه تعالى أمرهم بالتّفقّه في الدّين لأجل أنّهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدّين الحقّ... فكلّ من تفقّه وتعلّم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصّراط المستقيم»[1].

والعلم للدّعوة سلاح مضاء، وضرورة ملحّة، وغاية مستهدفة، وزاد لجميع مراحلها لا يمكنها أن تسير إلّا به، ولا تتقدّم إلّا في ضوئه، ولا يتّضح طريقها ويستقيم أمرها إلّا باصطحابه، ولذا قرنه الله بها في قوله:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقد أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يخبر النّاس بأنّ هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنّته وهي الدّعوة إلى الله على بصيرة، وهي العلم واليقين والبرهان. وكلّ من تبعه يدعو إلى ما دعا إليه على بصيرة ويقين وبرهان[2].

قال ابن القيّم رحمه الله:

«وإذا كانت الدّعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلّا بالعلم الّذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدّعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السّعي»[3].

ونفع العلم للدّعوة عظيم وخيره لها عميم، فهو يحيي القلوب الميتة كما يحيي الغيث البلد الميّت، وهكذا شبّهه النّبي ﷺ.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت

---

(١) التّفسير الكبير: ١٦/٢٢٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/٧٦٦ ـ ٧٦٧. وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٣/٧٩ ـ ٨٠. التّفسير الكبير: ١٨/٢٢٥. الجامع لأحكام القرآن: ٩/٢٧٤. الجواهر الحسان: ٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧. روح المعاني: ١٣/٦٧. فتح البيان: ٦/٤١٥ ـ ٤١٦. محاسن التّأويل: ٩/٣٦١٠ ـ ٣٦١١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٦١.

(٣) مفتاح دار السّعادة: ١/١٥٤.

الكلأ[1] والعشب الكثير، وكانت منها أَجَادِب[2] أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنّما هي قِيعَان[3] لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به»[4].

فقد شبّه ﷺ العلم والهدى الّذي جاء به بالغيث، لما يحصل بكّل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية، وسائر مصالح العباد فإنّها بالعلم والمطر. وشبّه القلوب بالأراضي الّتي يقع عليها المطر، لأنّها المحل الّذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النّبات النّافع، كما أنّ القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو، وتظهر بركته وثمرته[5].

---

(١) الكلأ: هو العشب سواء كان رطباً أو يابساً. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٩٤.

(٢) أجادب: الأجادب صلاب الأرض الّتي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً. وقيل: هي الأرض الّتي لا نبات بها، مأخوذ من الجدب وهو القحْط. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) قيعان: القيعان جمع قاع والقاع أرض حرّة لا رمل فيها، ولا يثبت فيها الماء لاستوائها، ولا غدر فيها تمسك الماء، فهي لا تنبت الكلأ ولا تمسك الماء. غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/ ٢٧٤. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم:(٣). باب فضل من علم وعلّم: (٢٠)، برقم:(٧٩)، ص:٣٥. صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب بيان مثل ما بعث النّبي ﷺ من الهدى والعلم: (٥)، برقم:(٢٢٨٢)، ٤/ ١٧٨٧ ـ ١٧٨٨.

(٥) مفتاح دار السّعادة: ١/ ٦٠. وانظر شرحاً قيّماً للحديث في: المفهم: ٦/ ٨٣ ـ ٨٤. شرح النّووي على مسلم: ١٥/ ٤٧ ـ ٤٨. فتح الباري: ١/ ٢٣٨. طريق الهجرتين، ص:١٧٢ ـ ١٧٣. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]، قال: «فشبّه العلم بالماء المنزّل من السّماء لأنّ به حياة القلوب، كما أنّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية لأنّها محلّ العلم كما أنّ الأودية محلّ الماء. فقلب يسع علماً كثيراً وواد يسع ماء كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً وواد يسع ماء قليلاً. وأخبر تعالى أنّه يعلو على السّيل من الزّبد بسبب=

قال لقمان رَحِمَهُ اللَّهُ[1] لابنه:

«يا بني جالسّ العلماء وزاحمهم بركبتيك فإنّ الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل[2] السّماء»[3].

فحاجة الدّاعية إلى العلم الّذي يحيي به قلبه وقلوب العباد كحاجة الأرض إلى المطر، بل هو أعظم من ذلك بكثير لعظيم نفع العلم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ:

«النّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطّعام والشّراب، لأنّ الطّعام والشّراب يحتاج إليه في اليوم مرّة أو مرّتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»[4].

ويبيّن الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الفضيلة فيقول:

«لأنّ العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظّلم، وقوّة الأبدان من الضّعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدّرجات العلى، والتّفكر فيه

= مخالطة الماء، وأنّه يذهب جفاء، أي: يرمى به ويخفى، والّذي ينفع النّاس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشّهوات والشّبهات فإذا ترابى فيها الحقّ ثارت فيها تلك الشّهوات والشّبهات، ثمّ تذهب جفاء ويستقر فيها الإيمان والقرآن الّذي ينفع صاحبه والنّاس». مجموع الفتاوى: ١٩/ ٩٤ ـ ٩٥.

(١) لقمان: هو لقمان بن عنقاء بن سدون. ويقال: لقمان بن ثاران. وكان نوبيّاً من أهل أيلة، وكان رجلاً صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة. ويقال: كان قاضياً في زمن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.
عن عكرمة عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال كان: «عبداً حبشياً نجّاراً». وعن سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كان لقمان من سودان مصر، ذو مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النّبوّة». وعن عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه قال: كان لقمان نبيّاً. وهذا ضعيف. والمشهور عن الجمهور أنّه كان حكيماً وليّاً ولم يكن نبيّاً. وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده. انظر: البداية والنّهاية: ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٦. وانظر: البدء والتّاريخ: ٣/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) الوابل: هو المطر الشّديد الضّخم القطر. لسان العرب: ١١/ ٧٢٠. القاموس المحيط، ص:١٣٧٨. وانظر مختار الصّحاح، ص:٧٠٧. المصباح المنير:٢/٦٤٦.

(٣) إحياء علوم الدّين: ١/ ١٨.

(٤) مفتاح دار السّعادة: ١/ ٦١. وانظر: ١/ ٨١.

يعدل الصّيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله ﷻ وبه يعبد، وبه يوحّد وبه يمجّد، وبه يتورّع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السّعداء ويحرمه الأشقياء»[1].

ولقد مدح الله رسله وذكر فضله ومنّته عليهم بما آتاهم من العلم لأنّ الرّسالة لا تتأتّى إلّا به، فقال عن خاتمهم ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال في موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤]، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال عن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩][2].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]. والأمّة: هو المعلّم للخير، أو الّذي اجتمعت فيه صفات الكمال من العلم والعمل، أو هو الإمام الّذي يقتدى به[3].

فالله سبحانه ربّى رسله بالعلم تهيئة لهم ليقوموا بالدّعوة إليه.

بل افتتح نبوّة محمّد ﷺ الّتي هي أصل دعوته بالعلم، فكان أوّل ما أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥][4].

كما أثنى الله ورسوله ﷺ على أهل العلم القائمين به، الدّاعين إليه،

---

(١) إحياء علوم الدّين: ١/ ٢٢.

(٢) انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ١/ ١٧٤. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩١٦.

(٤) قال سيّد قطب: «إنّها السّورة الأولى من هذا القرآن، فهي تبدأ باسم الله. وتوجّه الرّسول ﷺ أوّل ما توجّه في أوّل لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى، وفي أوّل=

المبلّغين له، المحسنين إلى النّاس به، وهم الأمناء الموكّلون بحفظ دينه، والقيام بأمره، والذّب عنه، وهم خلفاء رسل الله في أممهم نصحاً وإرشاداً وتعليماً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١][1]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]، والآيات في ذلك كثيرة جدّاً. وأمّا الأحاديث فمنها:

حديث معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين»[2].

= خطوة من خطواته في طريق الدّعوة الّتي اختير لها توجّه إلى أن يقرأ باسم الله ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]. وفي ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٣٨.

(١) انظر: كلاماً قيّماً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان رفع درجات العلماء.
مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٨ ـ ٤٩
قال ابن عبد البر رحمه الله: «أنشدني أبو بكر قاسم بن مروان الورّاق لنفسه:

والعلم زين وتشريف لصاحبه	أتت إلينا بذا الأنباء والكتب
والعلم يرفع أقواماً بلا حسب	فكيف من كان ذا علم له حسب
فاطلب بعلمك وجه الله محتسباً	فما سوى العلم فهو اللّهو واللّعب»

جامع بيان العلم، ص: ٩٧.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين: (١٣)، برقم: (٧١)، ص: ٣٢. وفي كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣). باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]: (٧)، برقم: (٣١١٦)، ص: ٦٥٧. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١). باب قول النّبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ»: (١٠/ ١١)، برقم: (٧٣١٢)، ص: ١٥٣٧. صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب النّهي عن المسألة: (٣٣)، برقم: (١٠٣٧)، ٢/ ٧١٨ ـ ٧١٩. وفي كتاب الإمارة: (٣٣). باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خالفهم»: (٥٣)، برقم: (١٠٣٧)، ٣/ ١٥٢٤.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النّبيّ ﷺ: «لا حسد[1] إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسُلّط على هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»[2].

وحديث أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّماوات ومن في الأرض حتّى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنّما ورّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر»[3].

---

(١) لا حسد إلّا في اثنتين: المراد بالحسد ها هنا الغبطة، وهي أن يتمنّى الإنسان مثل ما للإنسان. وأمّا الحسد فهو أن يتمنّى زوال ذلك عن المحسود وإن لم يحصل له.
غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٢١٢. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٨٣.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب الاغتباط في العلم والحكمة: (١٥)، برقم: (٧٣)، ص٣٣. وفي كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧). باب إنفاق المال في حقّه: (٥)، برقم: (١٤٠٩) ـ إلّا إنّه قال: «حكمة» ـ ص: ٢٩٧. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/ ٦٨). باب أجر من قضى بالحكمة: (٣)، برقم: (٧١٤١) ـ إلّا أنّه قال: «حكمة» ـ ص: ١٥٠٤، وبلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١). باب ما جاء في اجتهاد القضاة بما أنزل الله تعالى: (١٣/ ١٤)، برقم: (٧٣١٦)، ص: ١٥٣٨. وبمعناه في كتاب فضائل القرآن: (٦٦/ ٤٠). باب اغتباط صاحب القرآن: (٢٠)، برقم: (٥٠٢٥). عن ابن عمر رضي الله عنهما، وبرقم: (٥٠٢٦). عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص: ١١٠٨. وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/ ٦٩). باب تمنّي القرآن والعلم: (٥)، برقم: (٧٢٣٢)، ص: ١٥٢٣. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب قول النّبي ﷺ: «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل والنّهار»: (٤٥)، برقم: (٧٥٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبرقم: (٧٥٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، ص: ١٥٨٢.
صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا أنّه قال: «فسلّطه» وقال: «حكمة» ـ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها: (٦). باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه: (٤٧)، برقم: (٨١٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ١/ ٥٥٩، وبمعناه عنه برقم: (٨١٥)، ١/ ٥٥٨.

(٣) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٢٤). باب الحثّ على طلب العلم: (١)، برقم: (٣٦٤١). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٠٣.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء في فضل الفقه على=

وحديث عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[1]. والأحاديث في ذلك كثيرة أيضاً.

قال الإمام أحمد رحمه الله:

«الحمد لله الّذي جعل في كلّ زمان فترة من الرّسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على النّاس، وأقبح أثر النّاس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[2].

= العبادة: (١٩)، برقم: (٢٦٨٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٣٤.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم: (١٧)، برقم: (٢٢٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٩.
سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب فضل العلم والعالم، ١/ ١١٠.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/ ١٩٦.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر وصف العلماء الّذين لهم الفضل الّذي ذكرنا، برقم: (٨٨). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث حسن»، ١/ ٢٨٩.
هذا حديث عظيم يدلّ على أنّ طلب العلم أفضل الأعمال، وأنّه لا يبلغ أحد رتبة العلماء، وأنّ رتبتهم ثانية عن رتبة الأنبياء. المفهم: ٦/ ٦٨٥.
وقوله: «وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم»: ذلك أنّ العبد إذا طلب العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله، فلأجل ذلك تحبّه الملائكة وتعظّمه حتّى تضع أجنحتها له رضاً ومحبّة وتعظيماً.
انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ٦٣.
وتخصيص العلماء بأنّهم ورثة الأنبياء بالعلم دون العبّاد مع أنّ العبّاد ورثوا منه ما صاروا به عبّاداً لأنّ العلماء نابوا عنه ﷺ في حمل العلم وتبليغه، وإرشاد الأمّة وهدايتها، لأنّهم هم الّذين يعلمون مصالح الأمّة بعده، والذّابّون عن سنّته، الحافظون لشريعته، فهم أولى بالإرث والنّيابة عنه لتعدّي نفعهم، وأمّا العبّاد فقد قصر نفعهم، وقلّ منه حظّهم. انظر: المفهم: ٦/ ٦٨٦. مفتاح دار السّعادة: ١/ ٦٦.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب فضائل القرآن: (٦٦/ ٤٠). باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه: (٢١)، برقم: (٥٠٢٧)، ونحوه برقم: (٥٠٢٨)، ص: ١١٠٨.

(٢) الرّد على الزّنادقة والجهمية، للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل، تحقيق: =

وقال ابن القيّم رحمه الله بعد ذكره طبقات الرّسل والأنبياء عليهم السلام:

«الطّبقة الرّابعة: ورثة الرّسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرّسالة والنّبوّة... وهؤلاء هم الرَّبَّانيُّون[1] وهم الرّاسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرّسول وأمّته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصّته وحملة دينه»[2].

فإذا علم الدّاعية ما يتبوّأه العلم وأهله من مكانة عظمى، وأهميّة بالغة حرص كلّ الحرص على الاستقاء منه، ووطّد صلته بالأصلين والمنبعين الصّافيين، كتاب الله وسنّة رسوله، حفظاً وفهماً، ونال قسطاً وافراً منهما ليتمكّن به من دفع سفينة الدّعوة، ويضمن استمرارية سيرها وعدم توقّفها.

وكلّما نقص علم الدّاعية أو قلّ وجود العلم النّافع عنده أبطأ به السّير، ووقف به المسار، بل لعله يتراجع إلى الوراء فيكون عبئاً على دعوة الله.

والدّاعية يجب عليه أن يكون عالماً بالمعروف الّذي يأمر به والمنكر الّذي ينهى عنه[3]. حتّى لا يكون عرضة للخطأ والتّخليط، فلا يفرّق بين الواجب والمستحب، والحرام والمكروه، والبدعة والسّنّة.

= محمّد حسن راشد، المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٩٣هـ، ص:٦.

(١) الرَّبَّانيّون: جمع الرَّبَّاني: منسوب إلى الرّب لأنّه خصّ بعلمه دون غيره.
قال ابن الأعرابي رحمه الله: «الرّبّاني: العالم المعلّم الّذي يغذّي النّاس بصغار العلم قبل كباره». وقال محمّد بن عليّ بن الحنفيّة رحمه الله لمّا مات عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: «اليوم مات ربّاني هذه الأمّة». وروي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «النّاس ثلاثة: عالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق». فالرّبّاني هو العالم الرّاسخ في العلم والدّين، أو الّذي يطلب بعلمه وجه الله. وقيل: العالم العامل المعلّم. وقيل: الرّبّاني: العالي الدّرجة في العلم. لسان العرب: ١/٤٠٤، بتصرّف.

(٢) طريق الهجرتين، ص:٥١٦ ـ ٥١٧. وانظر: تقسيمه رحمه الله إلى أهل العلم وحصره إيّاهم في قسمين: حفّاظ حديث وفقهاء إسلام، وفضل كلّ منهما في تبليغ دين الله. إعلام الموقّعين: ١/٨ ـ ٩.

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص:٣١.

وأن يكون ملمّاً بحال المأمورين وحال المنهيين لتعدّد أصنافهم، وتباين أحوالهم، فمنهم المقارب ومنهم المباعد، ولكلّ سبيل إلى إيصال الحقّ له. فيكون على بيّنة من أمرهم حتّى يسلك في دعوتهم ما يليق بأحوالهم، وماذا يقدّم لهم؟ وماذا يؤخّر عنهم؟ مبتدئاً بالأهم فالأهم.

ففي حديث معاذ رضي الله عنه عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «إنّك تقدم على قوم أهل الكتاب فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله» الحديث[1].

قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله:

«يعني به اليهود والنّصارى لأنّهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب، أو أغلب، وإنّما نبّهه على هذا ليتهيّأ لمناظرتهم، ويعدّ الأدلّة لإفحامهم، لأنّهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان»[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة»[3].

وقال علي رضي الله عنه:

«حدّثوا النّاس بما يعرفون، أتحبّون أن يكذّب الله ورسوله»[4].

---

(١) هذا جزء من حديث في: صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب لا تؤخذ كرائم أموال النّاس في الصّدقة: (٤١)، برقم: (١٤٥٨)، ص:٣٠٨، ونحوه: في باب أخذ الصّدقة من الأغنياء وتردّ في الفقراء حيث كانوا: (٦٣)، برقم: (١٤٩٦)، ص:٣١٧. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع: (٦٠/ ٦١)، برقم: (٤٣٤٧)، ص:٩٠٤. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢). باب ما جاء في دعاء النّبي ﷺ أمّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: (١)، برقم: (٧٣٧٢). وقال: «أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى»، ص:١٥٤٨، برقم: (١٩)، ١/ ٥١.

صحيح مسلم، بلفظه ونحوه في: كتاب الإيمان؛ (١). باب الدّعاء إلى الشّهادتين وشرائع الإسلام: (٧)، برقم: (١٩)، ١/ ٥٠ ـ ٥١.

(٢) المفهم: ١/ ١٨١.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: المقدّمة. باب النّهي عن الحديث بكل ما سمع: (٣)، برقم: (٥)، ١/ ١١.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه ـ معلّقاً ـ في كتاب العلم: (٣)، باب من خصّ بالعلم قوماً=

ففي الحديث والأثرين دلالة على معرفة أحوال المدعوّين.

وعلى الدّاعية أن يكون عالماً أيضاً بالطّريق الّذي يسلكه، والسّبيل الّذي يصل به إلى قلوبهم، والكيفيّة الّتي تتمّ بها دعوتهم، والأسلوب الّذي يوجّه به الدّعوة إليهم، والّذي يكون ملائماً لأحوالهم.

وفهم الدّاعية واطّلاعه على البيئة الّتي يعيش فيها، وأحوالها وظروفها له أهميّته القصوى في إيصال الدّعوة إلى من حوله، واستمراره على العطاء والبذل.

فثقافته الواعية، وإلمامه بمن حوله، ونضجه وإدراكه، ووعيه المتجدّد الّذي يستوعب من خلاله حاجة المجتمع والمدعوّين، ويفي بمتطلّبات الدّعوة، ومعرفته بدعوات الشّرّ من حوله وما فيها من سقطات وهنَّات.

وكلّ هذه أمور مهمّة يجب أن تضاف إلى حصيلة علم الدّاعية لأنّها تعين على ثباته واستمراره في دعوته.

والعلم لا يعين الدّاعية على الثّبات إذا اعترضه أمران. كلّ منهما مفسد للدّاعية، مقوّض لدعوته، مؤرجح لثباته. لا يستقر له معهما قرار، ولا تثبت في الدّعوة معهما له قدم. ولذلك حذّر منهما الشّارع الحكيم أيّما تحذير، وشنّع بمن تلبّس بهما أيّما تشنيع. أتناولهما بالحديث في مطلبين:

المطلب الأوّل

كتمان العلم

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

= دون قوم كراهة أن لا يفهموا: (٤٩)، ص:٤٦.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى: ٩]: «أي ذكّر حيث تنفع التّذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه...»، فذكر القول أعلاه. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٨٩.

ذكر بعض أهل العلم أنّ الآية تعني اليهود والنّصارى الّذين كتموا أمر محمّد ﷺ مع وجوده في التّوراة والإنجيل، فيكون حكمها خاصّاً بأولئك دون غيرهم.

والصّحيح أنّها لا تقصر عليهم وإن كانوا سبب نزولها، بل تجرّ بذيلها إلى كلّ من كتم شيئاً من دين الله ووجب عليه تبليغه وبيانه[١]. إذ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب[٢].

قال ابن جرير رحمه الله:

«وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاصٍّ من النّاس، فإنّها معنيٌّ بها كلّ كاتم علمٍ، فرض الله تعالى بيانه للنّاس»[٣].

وقال ابن كثير رحمه الله:

«هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرّسل من الدّلالات البيّنة على المقاصد الصّحيحة، والهدى النّافع للقلوب من بعد ما بيّنه الله تعالى لعباده في كتبه الّتي أنزلها على رسله»[٤].

---

(١) قال الرّازي: «قال القاضي: «الكتمان ترك إظهار الشّيء مع الحاجة إليه، وحصول الدّاعي إلى إظهاره لأنّه متى لم يكن كذلك لا يعدّ كتماناً، فلمّا كان ما أنزله الله من البيّنات والهدى من أشدّ ما يحتاج إليه في الدّين، وصف من علمه ولم يظهره بالكتمان». التّفسير الكبير: ٤/ ١٦٣.

(٢) هذه قاعدة أصوليّة تفيد أنّه إذا ورد حكم بلفظ عامّ على سبب خاصّ فإنّه يعتبر بعموم لفظ الحكم، ولا يعتبر بخصوص سببه. وهنالك خلاف في المسألة مرجوح. وانظر: المستصفى: ١/ ٢٣٦. المحصول في علم الأصول، لمحمّد بن عمر بن الحسين الرّازي، تحقيق: طه جابر فيّاض العلواني، طبعة: جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠. إرشاد الفحول: ١/ ٢٣٠.

(٣) جامع البيان: ٢/ ٥٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٩٨.

قال ابن العربي رحمه الله: «استدلّ بها علماؤنا على وجوب تبليغ الحقّ وبيان العلم على الجملة»

أحكام القرآن: ١/ ٤٨. وهذا يفيد عمومها أيضاً.

فهؤلاء معرَّضون للعنة الله والإبعاد والطّرد من رحمته، ولعنة جميع من يقع منه اللّعن لغشّهم لعباد الله، ومعاندتهم لأمره بإظهار دينه، وسعيهم في إخفائه وطمسه، إلّا إذا رجعوا عمّا فعلوا، وأصلحوا ما أفسدوا، وبيّنوا ما كتموا[1].

ويماثل الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٤،١٧٥].

فهي متضمّنة أيضاً الوعيد الشّديد للكاتمين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدّنيا، فلهم من الله العذاب العظيم والسّخط الأليم، وأنّ الله لا يوفّقهم ولا يغفر لهم يوم القيامة لإيثارهم الضّلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة فليصبروا على شدّة النّار[2].

وسرّ ذلك أنّ الله تعالى قد أخذ العهد الثّقيل المؤكّد من أهل العلم أن يبلغوه ولا يكتمونه، ويظهروه ولا يخفونه، ويوضحوه ولا يسترونه.

فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فهو سبحانه أخذ العهد من أهل الكتاب أن يبيّنوا الحقّ فكتموه،

---

(١) انظر: معنى الآيتين في: جامع البيان: ٢/ ٥٢ ـ ٥٧. التّفسير الكبير: ٤/ ١٦٢ ـ ١٦٦. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٨٤ ـ ١٨٧. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩. الجواهر الحسان: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥. روح المعاني: ٢/ ٢٦ ـ ٢٨. فتح البيان: ١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٥. محاسن التّأويل: ٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٩، ٦٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٥. وانظر: جامع البيان: ٢/ ٨٩ ـ ٩٢. التّفسير الكبير: ٥/ ٢٥ ـ ٣٢. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨. الجواهر الحسان: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١. روح المعاني: ٢/ ٤٣ ـ ٤٤. فتح البيان: ١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦. محاسن التّأويل: ٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

واعتاضوا عنه بالدّون الطّفيف، والحظّ السّخيف، فبئست صفقتهم وبيعتهم.

وفي هذا تحذير لأهل العلم أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، فيقعوا في الهلكة. فعليهم أن يبذلوا ما بأيديهم من علم نافع ولا يكتمون منه شيئاً[1].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام[2] من نار يوم القيامة»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٥٥. وانظر: جامع البيان: ٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥. التّفسير الكبير: ٩/ ١٢٩ ـ ١٣١. الجواهر الحسان: ١/ ٣١٥. روح المعاني: ٤/ ١٤٩ ـ ١٥٠. فتح البيان: ٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧. محاسن التّأويل: ٤/ ١٠٦١ ـ ١٠٦٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٢٧.

قال الزّمخشري: «كفى به ـ أي بهذه الآية ـ دليلاً على أنّه مأخوذ على العلماء أن يبيّنوا الحقّ للنّاس وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظّلمة، وتطييب لنفوسهم، واستجلاب لمسلوّهم، أو لجرّ منفعة وحطام الدّنيا، أو لتقية ممّا لا دليل عليه ولا أمارة، أو لبخل بالعلم وغيرة أن ينسب إليه غيرهم». الكشّاف: ١/ ٤٨٦، طبعة: الحلبي.

(٢) قال ابن الأثير ﷺ: «الممسك عن الكلام ممثّل بمن ألجم نفسه بلجام، والمراد بالعلم ما يلزمه تعليمه ويتعيّن عليه، كمن يرى رجلاً حديث عهد بالإسلام ولا يحسن الصّلاة وقد حضر وقتها فيقول: علموني كيف أصلّي، وكمن جاء مستفتياً في حلال أو حرام فإنّه يلزم في هذا وأمثاله تعريف الجواب، ومن منعه استحقّ الوعيد».
النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٢٣٤.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب العلم: (٢٤) باب كراهيّة منع العلم: (٩)، برقم: (٣٦٥٨). قال الألباني ﷺ: «حسن صحيح»، ص: ٤٠٤.

سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء في كتمان العلم: (٣)، برقم: (٢٦٤٩). وقال: «حديث حسن». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٤٢٩.

سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب من سئل عن علم فكتمه: (٢٤)، برقم: (٢٦٤). عن أنس ﷺ. قال الألباني ﷺ: «صحيح»، وبرقم: (٢٦٦). عن أبي هريرة ﷺ. قال الألباني ﷺ: «صحيح» ونحوه برقم: (٢٦١). عن أبي هريرة ﷺ أيضاً. قال الألباني ﷺ: «حسن»، وبرقم: (٢٦٥). عن أبي سعيد ﷺ. قال الألباني ﷺ: «ضعيف جدّاً»، ص: ٤٣. =

فالملجم نفسه عن قول الحقّ والإخبار عن العلم يُعاقب في الآخرة بلجام من نار، وذلك في العلم الذّي يلزمه تعليمه إيّاه، ويتعيّن عليه فرضه[1].

فنشر الدّعوة وإبلاغ العلم واجب في حدود ما وصل إليه من العلم، وبقدر ما يستطيع، إذ لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها.

وقد خاف السّلف من مغبّة الكتمان لما يترتّب عليه من آثام وعواقب، ولذا سارعوا ببيان الدّين وإبلاغه.

قال أبو هريرة رضي الله عنه:

«إنّ النّاس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدّثت حديثاً. ثمّ يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إنّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْقُ[2] بالأسواق، وإنّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإنّ أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون»[3].

= مسند أحمد، بلفظه ـ وزاد في اسم الجلالة ﷻ ـ في: ٢/ ٣٤٤، وبلفظ مقارب في: ٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٥٣، ٤٩٥. ونحوه في: ٢/ ٢٩٦، ٤٩٩، ٥٠٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١٤/ ٦ ـ ٧، برقم: (٧٥٦١)، ١٥/ ٨٧، برقم: (٧٩٣٠)، ١٥/ ١٩٤، برقم: (٨٠٣٥)، ٢٠/ ٩٨، برقم: (١٠٤٢٥)، ٢٠/ ١١٩، برقم: (١٠٤٩٢)، ٢٠/ ١٥٥، برقم: (١٠٦٠٥).

(١) جامع الأصول: ٨/ ١٢.

(٢) الصّفق: هو البيع، وقيل للبيع صفقة لضرب اليد على اليد عند عقد البيع.
انظر: الفائق: ٤/ ٥١. غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٥٩٤. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٨.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب حفظ العلم: (٤٢)، برقم: (١١٨)، ص: ٤٣. ونحوه في: كتاب البيوع: (٣٤/ ١٠). باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة: ١٠] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩]: (١)، برقم: (٢٠٤٧)، ص: ٤٢٥. وفي كتاب الحرث والمزارعة: (٤١/ ١٧). باب ما جاء في الفرس: (٢١)، برقم: (٢٣٥٠)، ص: ٤٨٦ ـ ٤٨٧. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١). باب الحجّة على=

وقال أبو ذر رضي الله عنه:

«لو وضعتم الصّمصامة[1] على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثمّ ظننت أنّي أُنفِذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تُجيزُوا عليّ لأنفذْتُها»[2].

وقال القاسم بن محمّد[3] رحمه الله:

«إنّكم تسألوننا عمّا لا نعلم، والله لو علمناه ما كتمناه، ولا استحللنا كتمانه»[4].

= من قال: إنّ أحكام النّبي ﷺ كانت ظاهرة: (٢٢/٢٣)، ص:١٥٤٤.

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب من فضائل أبي هريرة الدّوسي رضي الله عنه: (٣٥)، برقم: (٢٤٩٢)، ٤/١٩٣٩ ـ ١٩٤٠.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ومعناه: لولا أنّ الله ذمّ الكاتمين للعلم ما حدّث أصلاً، لكن لمّا كان الكتمان حراماً وجب الإظهار». فتح الباري:١/٢٨٩.

(١) الصّمَصَامة: هو السّيف القاطع. النّهاية في غريب الحديث ٣/٥٢. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٤/١٠.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه ـ معلّقاً ـ في كتاب العلم: (٣). باب العلم قبل القول والعمل: (١٠)، ص:٣٢.

سنن الدّارمي، بلفظه ـ إلّا أنّه قال: «زمن رسول الله ﷺ»ـ في باب البلاغ عن رسول الله ﷺ وتعليم النّاس، ١/١٤٦.

(٣) هو القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصّديق، أبو عبد الرّحمٰن أو أبو محمّد القرشي التّميمي الإمام القدوة، من خيار التّابعين وفقهائهم، ثقة رفيع، ورع، كثير الحديث، أحد فقهاء المدينة السّبعة، قال أيوب السّختياني: «ما رأيت أفضل منه». توفي سنة، ١٠٦هـ على الصّحيح.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/١٨٧. طبقات خليفة، ص:٢٤٤. التّاريخ الكبير: ٧/١٥٧. معرفة الثّقات: ٢/٢١١. الجرح والتّعديل: ٧/١١٨. ثقات ابن حبّان: ٥/٣٠٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/٦٣. التّعديل والتّجريح: ٣/١٠٦٠. تهذيب الكمال: ٢٣/٤٢٧. تذكرة الحفّاظ: ١/٩٦. الكاشف: ٢/١٣٠. جامع التّحصيل، ص:٢٥٣. تهذيب التّهذيب: ٨/٢٩٩. تقريب التّهذيب: ١/٤٥١.

(٤) كتاب العلم، لأبي خيثمة زهير بن حرب النّسائي، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألباني. الرّسالة الثّالثة ضمن مجموعة رسائل من كنوز السّنّة، نشر وتوزيع دار الأرقم، الكويت، ص:١٤٢. وانظر: جامع لبيان العلم، ص:٣٥٤.

وقال ابن القاسم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كنا إذا ودّعنا مالكاً يقول لنا: «اتّقوا الله، وانشروا هذا العلم، وعلّموه ولا تكتموه»[2].

والدّاعية إذا كتم علمه ولم يبلغه ذهب عنه، لأنّ ثمرة العلم ومقصوده بثّه في الأمّة، فهو كالكنز المدفون في الأرض فإذا لم ينفق منه ذهب، فإذا أنفق منه نما وزكا[3]. وهكذا شبّهه رسول الله ﷺ.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الّذي يعلم العلم ولا يحدّث به كمثل رجل رزقه الله مالاً فلم ينفق منه»[4].

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبي بكر بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]:

«انظر: ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنّي خفت دروس العلم

---

(١) هو عبد الرّحمٰن بن القاسم بن خالد بن جنادة، أبو عبد الله العُتَقي مولاهم، فقيه الدّيار المصريّة، تفقّه على الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثقة، صالح، إمام في الورع والزّهد، توفي سنة، ١٩١هـ.
وانظر: الجرح والتّعديل: ٥/ ٢٧٩. ثقات ابن حبّان: ٨/ ٣٧٤. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٧٦. تهذيب الكمال: ١٧/ ٣٤٤. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٣٥٦. الكاشف: ١/ ٦٤٠. تهذيب التّهذيب: ٦/ ٢٢٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٤٨.

(٢) جامع بيان العلم، ص: ١٩٥.

(٣) انظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ٧٢.

(٤) كتاب العلم لأبي خيثمة، ص: ١٤٧. قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديث حسن» هامش (٨٠).
وفي ذلك يقول الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
وكنز لا تخاف عليه لصّاً   خفيف الحمل يوجد حيث كنت
يزيد بكثرة الإنفاق منه   وينقص إن به كفّاً شددت
ديوان أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، طبعة: دار قتيبة، دمشق، الطّبعة الثّانية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص: ٢٦.

(٥) هو أبو بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم الأنصاري، قاضي المدينة، اسمه كنيته، وقيل: كنيته أبو محمّد، ثقة عابد من سادات التّابعين، توفي سنة، ١٢٠هـ.
وانظر: طبقات خليفة، ص: ٢٥٧. الجرح والتّعديل: ٩/ ٣٣٧. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٥٦١. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٧٦. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٢٥٥. الكاشف: ٢/ ٤١٢. تهذيب التّهذيب: ١٢/ ٤٠. تقريب التّهذيب: ١/ ٦٢٤.

وذهاب العلماء. ولا تقبل إلّا حديث النّبي ﷺ. ولتُفْشوا العلم، ولتجلسوا حتّى يُعلَّمَ من لا يَعلَمُ، فإنّ العلم لا يهلك حتّىٰ يكون سرّاً»[1].

فمتى ما كتم الدّاعية ما معه من العلم ذهب علمه، وذهبت دعوته تبعاً لذلك، فآل أمره إلى السّقوط، وحاله إلى الضيّاع، فلا يبقى له ثبات البتّة، ولا تستمر له دعوة.

المطلب الثّاني

القول على الله بغير علم

وهو من أعظم المحرّمات وأقبحها وأشنعها، وأكبر طرق الشّيطان الّتي يدعو إليها ويكيد بها عباد الله، ويبذل فيها كلّ ما يمكنه من مكر وخداع ليُغْوي الدّعاة إلى الله، والخلق بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩][2].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد حرّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرّمات، بل جعله في المرتبة العليا منها فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]. فرتّب المحرّمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثمّ ثنّى بما هو أشدّ تحريماً منه وهو الإثم والظّلم، ثمّ ثلّث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشّرك به سبحانه، ثمّ ربّع بما هو أشدّ تحريماً من ذلك كلّه وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعمّ

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ معلّقاً ـ: كتاب العلم:(٣). باب كيف يقبض العلم: (٣٤)، ص: ٣٩.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٠٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٣.

القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[1].

وذكر الآية في موطن آخر ثمّ بيّن خطورة القول على الله بغير علم فقال:

«فهذا أعظم المحرّمات عند الله، وأشدّها إثماً، فإنّه يتضمّن: الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حقّقه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحبّ ما أبغضه وبغض ما أحبّه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله. فليس في أجناس المحرّمات أعظم عند الله منه، ولا أشدّ إثماً، وهو أصل الشرّك والكفر، وعليه أسّست البدع والضّلالات، فكلّ بدعة مضلّة في الدّين أساسها القول على الله بلا علم»[2].

وهو مسلك من مسالك المشركين الّتي يحلّلون بها ويحرّمون بمجرد الوصف والرّأي ويكذبون بها على الله تعالى.

وقد حذّر سبحانه المؤمنين أن يسلكوا مسلكهم فيقعوا فيما وقع فيه أولئك، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

فقدّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرّمه: هذا حرام، ولما لم يحلّه: هذا حلال. وهذا بيان منه سبحانه أنّه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام، إلّا بما علم أنّ الله سبحانه أحلّه أو حرّمه[3].

ويدخل في هذا كلّ من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئاً ممّا حرّم الله، أو حرّم شيئاً ممّا أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه[4].

بل نهى عن تتبّع ما لا يعلمه الإنسان من الأقوال والأفعال، وأمره بالتّحري والتّثبّت كي لا يقول بغير علم، ولا يتحدّث بغير معرفة، حتّى لا يقع

---

(١) إعلام الموقّعين: ١/ ٣٨.

(٢) مدارج السّالكين: ١/ ٣٧٢.

(٣) إعلام الموقعين: ١/ ٣٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩١٥.

في المساءلة يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦][1]

وقد حذّر رسول الله ﷺ من أناس أدعياء للعلم فارغين منه، يتربّعون على مناصب أهل العلم فيرسلون الفتاوى، ويصدرون الأحكام بالجهل والهوى فيَضلّون ويُضلّون.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالماً اتخذ النّاس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»[2]. فبسبب هؤلاء يرفع العلم من الأرض، ويفشوا الجهل فيها، وما أكثرهم في الأمّة.

قوم اغتروا بأنفسهم فتقمّصوا أقمصة أهل العلم، وعظّموا أنفسهم، واغتر بهم العوام فتمسّحوا بأثوابهم وقبّلوا أيديهم، وظنّوا الشّحم فيمن عنده ورم، وهم بلاء على الأمّة وابتلاء لها[3].

ومنهم حدثاء أسنان، سفهاء أحلام، متطفّلون على العلم، فاقتحموه من غير بابه، وتعلّقوا منه بغير أسبابه. حفظ أحدهم باباً من أبوابه، أو أجاد مسألة من مسائله فظنّ أنّه حوى العلم كلّه، وبلغ فيه منتهاه، وزاده غروراً التفاف بعض الأحداث حوله، فأعجبه مقامه، فراح يأمر وينهى، ويوقّع عن الله ورسوله ما ليس له به علم فيحدث من الشّغب والفتن ما يؤدّي إلى إراقة الدّماء، وإشاعة الفوضى بين النّاس.

وقد كان ابن القيّم رحمه الله عالماً بهؤلاء وشغبهم حين قال:

«أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسّنّة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزّل.

---

(١) وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٠٩.

(٢) الحديث سبق تخريجه، انظر: ص: ١٥٣.

(٣) وقد أجاد القرطبي رحمه الله في وصف أولئك في كتابه المفهم: ٧/ ٣٧٥. فهو حري بالوقوف عليه.

وأخسّ همم طلاب العلم قصر همّته على تتبّع شواذ المسائل، وما لم ينزل ولا هو واقع. أو كانت همّته معرفة الاختلاف، وتتبّع أقوال النّاس، وليس له همّة إلى معرفة الصّحيح من تلك الأقوال، وقلّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه»(١).

وهؤلاء جهلوا العلم، وعجزوا عن كيفية تلقيه، ولذا أساءوا ولم يفلحوا.

وقد قال لهم البخاري رحمه الله من قبل معلّقاً على قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كونوا ربّانيين حلماء فقهاء»، قال: «ويقال الرّبّاني الّذي يربّي النّاس بصغار العلم قبل كباره»(٢).

فهو يتدرج في تلقي العلم على مهل وتروّي، دون استعجال ولا ملل، مبتدئاً بالأهم فالمهم، مع فهم مدرك وعقل مستوعب، غير متجرّئ ولا متهوّر، يسير بخطى ثابتة وأقدام راسخة، يبيّن ما علم ويسكت عمّا جهل، همّه بيان الدّين وإيصال الحقّ لا رؤية نفسه ومدح النّاس. فذلك هو الرّبّاني.

وقد كثر خوف السّلف رحمهم الله عن الفتوى، أو القول في دين الله بما لا يعلمون، وتواردت الأنباء عنهم بذلك ممّا يكشف عن خطورة هذا المسلك.

قال عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى رحمه الله(٣):

«أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار، ما فيهم

---

(١) الفوائد، ص: ٦١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم: (٣). باب العلم قبل القول والعمل: (١٠)، ص: ٣٢.

(٣) عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى: واسم أبي ليلى يسار، أبو عيسى الأنصاري، المدني ثمّ الكوفي، الإمام الفقيه، من كبار التّابعين وثقاتهم، ومن أصحاب عليّ رضي الله عنه، توفي سنة، ٨٣هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ١٠٩. طبقات خليفة، ص: ١٥٠. معرفة الثّقات: ٢/ ٨٦. الجرح والتّعديل: ٥/ ٣٠١. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٠٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٠٢. تاريخ بغداد: ١٠/ ١٩٩. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٨١. تهذيب الكمال: ١٧/ ٣٧٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٥٨. الكاشف: ١/ ٦٤١. جامع التّحصيل، ص: ٢٢٦. تهذيب التّهذيب: ٦/ ٢٣٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٤٩. لسان الميزان: ٧/ ٢٨٤، ٥٠٠. إسعاف المبطأ، ص: ١٩.

أحد يسأل عن شيء إلّا ودّ أنّ أخاه كفاه، ولايحدّث حديثاً إلّا ودّ أنّ أخاه كفاه»[1].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«يا أيّها النّاس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنّ مِن العِلْم أن يقول لِمَا لَا يَعْلَم: الله أعلم. قال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]... الأثر[2].

قال ابن عون رحمه الله[3]:

«كنت عند القاسم بن محمّد إذ جاءه رجل فسأله عن شيء، فقال القاسم: لا أحسنه. فجعل الرّجل يقول: إنّي رفعت إليك، لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة النّاس حولي، والله ما أحسنه.

فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم.

---

(١) سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: باب من هاب الفتيا وكره التّنطّع والتّبدّع، ١/ ٦٥.
كتاب العلم لأبي خيثمة، بلفظه في، ص: ١١٤.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩). باب ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]: (٣)، برقم: (٤٨٠٩)، ص: ١٠٣٩، وبلفظ مقارب في: باب ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ [الرّوم: ٣٩]: (٠/ ١)، برقم: (٤٧٧٤)، ص: ١٠٢٨، ونحوه في باب ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدّخان: ١٢]: (٣)، برقم: (٤٨٢٢)، ص: ١٠٤٧.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب الدّخان: (٧)، برقم: (٢٧٩٨)، ٤/ ٢١٥٦ ـ ٢١٥٧.

(٣) هو عبد الله بن عون بن أرطبان، أبو عون المزني مولاهم البصري. إمام في العلم، رأس في التّألّه والعبادة، جليل القدر، كبير الشّأن، ثبت متقن فاضل، حافظ فقيه ورع، مبغض لأهل البدع، كثير الحديث، رأى أنس بن مالك رضي الله عنه ولم يسمع منه، توفي سنة، ١٥٠هـ على الصّحيح.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٢٦١. طبقات خليفة، ص: ٢١٩. التّاريخ الكبير: ٥/ ١٦٣. معرفة الثّقات: ٢/ ٤٩. الجرح والتّعديل: ٥/ ١٣٠. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٥٠. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٤٣. تهذيب الكمال: ١٥/ ٣٩٤. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٥٦. الكاشف: ١/ ٥٨٢. جامع التّحصيل، ص: ٢١٥. تهذيب التّهذيب: ٥/ ٣٠٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٣١٧.

فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إليّ من أن أتكلم بما لا علم لي به»[1].

والقاسم رحمه الله هو القائل:

«لأن يعيش الرّجل جاهلاً خير له من أن يفتي بما لا يعلم»[2].

وما وقع للقاسم رحمه الله وقع نحوه لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله.

قال عبد الرّحمٰن بن مهدي[3] رحمه الله:

«كنّا عند مالك بن أنس، فجاءه رجل، فقال له: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر، حمّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها. قال: فسل. فسأله الرّجل عن المسألة، فقال: لا أحسنها. قال: فبهت الرّجل كأنّه قد جاء إلى من يعلم كلّ شيء. فقال: أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن»[4]. وهذا عنهم رحمهم الله كثير جداً.

وما توقّف هؤلاء الأجلة إلّا لعلمهم بما يترتّب على القول على الله بغير علم من المفاسد والمهالك.

وهو إضافة إلى ما ذكر يلقي بالدّاعية في المتناقضات، وقد يدخل في دين الله ما ليس منه، أو يغيّر ويبدّل ما كان منه، وفي ذلك تجرّؤ على الله واستطالة على أحكامه.

---

(١) جامع بيان العلم، ص: ٣٥٥.

(٢) كتاب العلم لأبي خيثمة، ص: ١٣٠.

(٣) عبد الرّحمٰن بن مهدي بن حسان اللّؤلؤي أبو سعيد مولى الأزد البصري. الحافظ الكبير والإمام العلم الشّهير، ثقة ثبت كثير الحديث، فقيه عظيم الشّأن، قال عنه عليّ بن المديني: «لو حلفت بين الرّكن والمقام لحلفت أنّي لم أر مثل عبد الرّحمٰن»، توفي سنة، ١٩٨هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٢٩٧. طبقات خليفة، ص: ٢٢٧. التّاريخ الكبير: ٥/ ٣٥٤. معرفة الثّقات: ٢/ ٨٨. الجرح والتّعديل: ٥/ ٢٨٨. ثقات ابن حبّان: ٨/ ٣٧٣. تاريخ بغداد: ١٠/ ٢٤٠. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٦٥. تهذيب الكمال: ١٧/ ٤٣٠. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٣٢٩. الكاشف: ١/ ٦٤٥. تهذيب التّهذيب: ٦/ ٢٥٠. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٥١.

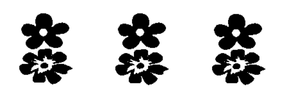
(٤) جامع بيان العلم، ص: ٣٥٦.

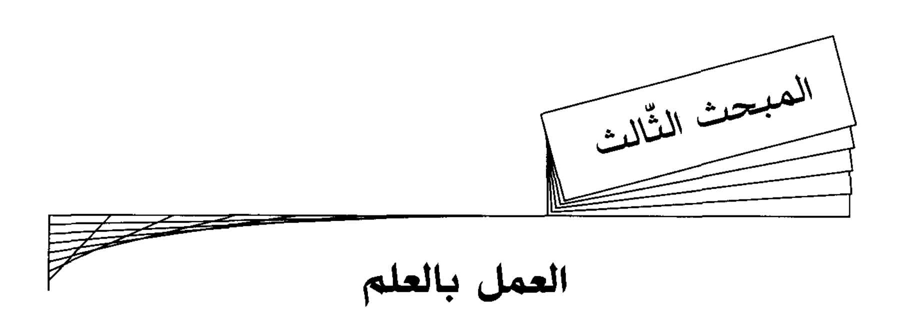
وقد يطلّع المدعو على خطأ الدّاعية وعدم صحّة قوله فيكون مانعاً للأخذ عنه فيما بعد. فيعرّض الدّاعية دعوته للاهتزاز والتّأرجح وعدم الثّبات.

والله لم يكلّفه أن يبلغ من دين الله ما جهله ولم يعلمه، فذلك لا طاقة له به، وإنّما كلّف أن يبلغ ما علم.

وإذا سئل عمّا لا يعلم وكّل العلم إلى الله، ولم يعبأ بما يصفه النّاس به من جهل أو قلّة علم.

بذلك تسلم له بركة علمه ويتلافى محقها،فيحيي بذلك دعوة الله تعالى، ويضمن استمراريتها وبقاءها بعيدة عن الزلّل والانحراف، ثابتة من السّقوط والانجراف، سالمة من الضّياع والإتلاف.





العمل بالعلم

إنّ الله تعالى أمر رسله عليهم السلام وهم سادة الدّعاة أن يعملوا بما علموا. فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأمر أهل الإيمان بذلك كما أمر الرّسل.

فقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

وجاء في الحديث ما يؤكّد ذلك ويقرّره، ويبيّن أهميّة العمل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال مَنْ عَادَى لي وَليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الرّقائق: (٨١/ ٥٥). باب التّواضع: (٣٨)، برقم: (٦٥٠٢)، ص: ١٣٨٢ _ ١٣٨٣.
والولي في الحديث هو العالم بالله المواظب على طاعته، المخلص في عبادته. انظر: فتح الباري: ١١/ ٣٤٢، طبعة: دار المعرفة.
وقد حمل بعض أهل الزيغ والضّلال هذا الحديث على ما يدّعونه من أنّ العبد إذا لازم العبادة يصل به الحال إلى أن ينال مثل ما لله من الصّفات، فيبصر ببصره، ويسمع سمعه، ويبطش بطشه... إلخ، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً، ولذلك عبدوا بعض=

والعمل سبب دخول الجنّة الّتي يسعى لها كلّ مؤمن على ظهر الأرض.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزّخرف: ٧٢].

وغاية العلم العظمى وهدفه الأسمى أن يتوصّل به إلى العمل، وإلّا كان وبالاً على صاحبه ثقيلاً عليه.

قال المسيح عليه السلام:

«من تعلّم وعلم وعمل فذاك يُدعا عظيماً في ملكوت السّماء»[1].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«يا أيها النّاس تعلّموا، فمن علم فليعمل»[2].

قال أيوب السّختياني رحمه الله[3]:

= من ادعوا فيهم الولاية والصّلاح من هذا المنطلق، فدعوهم مع الله، واستغاثوا بهم كما يستغاث بالله، ونذروا لهم وذبحوا، وطافوا حول قبر من مات منهم وعكفوا، وكلّ ذلك ضلال بيّن، وشرك ظاهر، وليس في الحديث ما يدلّ على ذلك، بل فرّق الحديث بين الرّب والعبد، والمعبود والعابد، والخالق والمخلوق، يدرك ذلك من ألقى بنظرة فاحصة على الحديث ولو كانت على عجل. وانظر شرحاً وافياً له في: فتح الباري: ١١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٥، فقد أزال في الشّبه، وأبان الحقّ، وزيّف الزّيف فلم يبق لضال فيه متمسّك، وللشوكاني رحمه الله كتاب قطر الولي على حديث الولي، شرح فيه هذا الحديث شرحاً مستفيضاً.

(١) كتاب العلم لأبي خيثمة، ص: ١١١.

(٢) المرجع السّابق، ص: ١١٠.
وقال سفيان الثّوري رحمه الله: «إنّما يتعلّم العلم ليتّقى به الله، وإنّما فضّل العلم على غيره لأنّه يتّقى به الله». جامع بيان العلم، ص: ٢٧١.

(٣) هو أيوب بن أبي تميمة أبو بكر السّختياني العنزي مولاهم البصري. الإمام العلم الحافظ الفقيه، من سادات أهل البصرة وكبار عبّاد أتباع التّابعين، ثقة ثبت حجّة كثير العلم، اشتهر بالفضل والعلم والنّسك والورع، والصّلابة في السّنّة والقمع لأهل البدع، توفي سنة، ١٣١هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٢٤٦. طبقات خليفة، ص: ٢١٨. التّاريخ الكبير: ١/ ٤٠٩. الجرح والتّعديل: ٢/ ٢٥٥. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٥٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٥٠. التّعديل والتّجريح: ١/ ٣٨٥. تهذيب الكمال: ٣/ ٤٥٧. تذكرة الحفّاظ: =

«قال لي أبو قِلابَة[1]: «إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همّك أن تحدّث به»[2].

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ:

«والعلم يراد للعمل، كما العمل يراد للنّجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلًّا على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلًّا، وأورث ذلًّا، وصار في رقبة صاحبه غلًّا... وكما لا تنفع الأموال إلّا بإنفاقها كذلك لا تنفع العلوم إلّا لمن عمل بها، وراعى واجباتها... إلخ»[3].

وقد أحسن من قال:

إذا العلم لم تعمل به كان حجّة — عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

= ١/ ١٣٠. الكاشف: ١/ ٢٦٠. جامع التّحصيل، ص:١٤٨. تهذيب التّهذيب: ١/ ٣٤٨. تقريب التّهذيب: ١/ ١١٧. إسعاف المبطأ، ص:٦.

(١) هو عبد الله بن زيد بن عمرو ويقال: عامر أبو قُلابة الجرمي الأزدي البصري، مشهور بكنيته، من عبّاد التّابعين وزهّادهم وأئمّتهم، ثقة فاضل عظيم القدر، كثير الحديث وكثير الإرسال، توفي سنة، ١٠٤هـ بالشّام هارباً من القضاء.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ١٨٣. طبقات خليفة، ص:٢١١. التّاريخ الكبير: ٥/ ٩٢. معرفة الثّقات: ٢/ ٣٠. الجرح والتّعديل: ٥/ ٥٧. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٩. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٢٠. تهذيب الكمال: ١٤/ ٥٤٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٩٤. الكاشف: ١/ ٥٥٤.جامع التّحصيل، ص:٢١١. التّبيين لأسماء المدلّسين، ص:٢٦٢. تهذيب التّهذيب: ٥/ ١٩٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٠٤.

(٢) جامع بيان العلم، ص:٢٦٦.

(٣) اقتضاء العلم العمل، لأبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألباني. الرّسالة الرّابعة من ضمن مجموعة كنوز السّنّة، ص:١٥٨، ١٥٩.
أنشد بعضهم:

اعمل بعلمك تغنم أيّها الرّجل — لا ينفع العلم إن لم يَحسُن العمل
والعلم زين وتقوى الله زينته — والمتّقون لهم في علمهم شغل
وحجّة الله يا ذا العلم بالغة — لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل
تعلّم العلم واعمل ما استطعت به — لا يُلهيَنّك عنه اللّهو والجدل
وعلّم النّاس واقصد نفعهم أبداً — إيّاك إيّاك أن يعتادك الملل

المرجع السّابق، ص:١٧٤، ١٧٥.

فإن كنت قد أوتيت علماً فإنّما يصدّق قول المرء ما هو فاعله[1]

ولقد ذمّ الله تعالى أهل الكتاب الّذين يأمرون النّاس بالخير والطّاعات ويتركون أنفسهم فلا يأتمرون، مع أنّهم يتلون كتاب الله ويعلمون ما فيه. فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولشدّة ما قرَّع الله فيَ هذا الموضوع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الّذين هم غير عاملين بالعلم. فاستنكر عليهم أوّلاً: أمرهم للنّاس بالبر مع نسيان أنفسهم من ذلك الأمر الّذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس إيهاماً للنّاس بأنّهم مبلّغون عن الله ما تحمّلوه من حججه، ومبيّنون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وأتمنهم عليه، وهم أترك النّاس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه.

ثمّ ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبيّنة لحالهم وكاشفة لعوارهم، وهاتكة لأستارهم، وهي إنّهم فعلوا هذه الفعلة الشّنيعة، والخصلة الفظيعة، على علم منهم ومعرفة بالكتاب الّذي أنزل عليهم، وملازمة لتلاوته، وهم في ذلك كما قال المعرّي[2]:

وإنّما حمل التّوراة قارئها كسب الفوائد لا حبّ التّلاوات[3]

---

(١) البيتان لسابق البربري رحمه الله. جامع بيان العلم، ص:٢٨٦.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان أبو العلاء التّنُوخي المَعَرِّي اللّغوي الشّاعر المشهور، ولد بمَعَرَّة النّعمان فنسب إليها، جُدِر وهو صغير فذهب بصره، له ذكاء مفرط واطّلاع واسع على اللّغة مع معرفة بالنّسب وأيّام العرب، شعره في الذّروة، وله فيه ما يدلّ على زندقته، نقل عنه أهل العلم اضطّراباً في ديانته، من دواوين شعره: سقط الزّند، ولزوم ما لا يلزم وهي مطبوعة، وغيرها، وله كثير من كتب الأدب، وقد طبع بعضها، توفي سنة، ٤٤٩هـ، وقد كتب عنه كثير من الكتّاب.
وانظر: تاريخ بغداد: ٤/ ٢٤٠. المنتظم: ٨/ ١٨٤. وفيات الأعيان: ١/ ١١٣. سير أعلام النّبلاء: ١٨/ ٢٣. العبر: ٢/ ٢٩٣. ميزان الاعتدال: ١/ ٢٥٢. البداية والنّهاية: ١٢/ ٧٢. لسان الميزان: ١/ ٢٠٣، ٧/ ٨٣. النّجوم الزّاهرة، ٥/ ٦١. شذرات الذّهب: ٥/ ٢٠٩. الأعلام: ١/ ١٥٧.

(٣) اللّزوميّات لأبي العلاء المعرّي، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، طبعة: =

ثمّ انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، ومن توبيخ إلى توبيخ، فقال: إنّكم لو لم تكونوا من أهل العلم، وحملة الحجّة، وأهل الدّراسة لكتب الله لكان مجرّد كونكم ممّن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك، ذائداً لكم عنه، زاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم؟[1].

ثمّ إنّ هذا التّوبيخ والتّقريع ـ وإن كان خطاباً لبني إسرائيل، إلّا إنّه عام من حيث المعنى ـ لكلّ واعظ يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا ينزجر، ينادي النّاس البدار البدار، ويرضى لنفسه التّخلّف والبوار، ويدعو الخلق إلى الحقّ وينفر عنه، ويطالب العوام بالحقائق ولا يشمّ ريحها منه[2].

ويؤيّد عموم الآية السّابقة وعدم اختصاصها بأهل الكتاب قوله تعالى

= مكتبة الهلال، بيروت، مكتبة الخانجي القاهرة: ١/ ١٧٥.

(١) فتح البيان: ١/ ١٥٦. وانظر معنى الآية في: التّفسير الكبير: ٣/ ٤٦ ـ ٤٨. الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٩. تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٢٩ ـ ١٣١. محاسن التّأويل: ٢/ ١١٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٤.

(٢) روح المعاني: ١/ ٢٤٨.

قال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «قد ذمّ الله في كتابه قوماً كانوا يأمرون النّاس بأعمال البر ولا يعملون بها ذمّاً، ووبّخهم الله بها توبيخاً يتلى على طول الدّهر إلى يوم القيامة فقال: ـ ثمّ تلا الآية أعلاه ـ». جامع بيان العلم، ص: ٢٧٤.

وليس المراد ذمّهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فكلّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر، والعالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٢٩ «بتصرّف». وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٣٦ ـ ٣٦٧.

قال الرّازي رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ المكلّف مأمور بشيئين: أحدهما: ترك المعصية. والثّاني: منع الغير عن فعل المعصية. والإخلال بأحد التّكليفين لا يقتضي الإخلال بالآخر». التّفسير الكبير: ٣/ ٤٧. وانظر: روح المعاني: ١/ ٢٤٨.

وقال النّووي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والنّاهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مخلّا بما يأمر به، والنّهي وإن كان متلبّساً بما ينهى عنه، فإنّه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخلّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟».
شرح النّووي على مسلم: ٢/ ٢٣.

مخاطباً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣].

أي لم تقولون الخير وتحثّون النّاس عليه وأنتم لا تفعلونه، وتنهونهم عن الشّرّ وأنتم ترتكبونه، وهذا يجلب لكم المقت من الله، وهو أشدّ البغض[(١)].

ومثلها قول شعيب عليه السلام فيما أخبر الله به عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

فهو لا يأمرهم بأمر أو ينهاهم عن نهي ويخالف إلى غيره، بل يريد هدايتهم وتزكية نفوسهم، واستقامتهم ما تمكّن من ذلك ووجد إليه سبيلاً[(٢)].

وقد بيّن ﷺ عقاب من يأمر ولا يأتمر، وينهى ولا ينتهي. فقال في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «يؤتى بالرّجل يوم القيامة فيلقى في النّار، فتندلق[(٣)] أقْتَاب[(٤)] بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحى[(٥)]، فيجتمع إليه أهل النّار،

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٧٩٦، وللآيتين معنى آخر. انظر: جامع البيان: ٢٨/ ٨٣ ـ ٨٥. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٧٨ ـ ٨٠. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٥٨ ـ ٥٦٠. الجواهر الحسان: ٣/ ٣٦٢. فتح البيان: ١٤/ ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٢/ ١٠٣. التّفسير الكبير: ١٨/ ٤٥ ـ ٤٦. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٨٩ ـ ٩٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٠٦ ـ ٧٠٧. روح المعاني: ١٢/ ١١٨ ـ ١٢١. فتح البيان: ٦/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣. محاسن التّأويل: ٩/ ٣٤٧٩.

(٣) فتندلق: الاندلاق خروج الشّيء من مكانه، وقيل خروجه سريعاً، والمراد خروج أمعائه من جوفه. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ٣١. غريب الحديث للحربي: ٢/ ٨٨٧. غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٣٤٦. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٣٠.

(٤) أقْتَاب: جمع قُتْب وهو الأمْعَاء. انظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ٣٠ ـ ٣١. غريب الحديث الحربي: ٢/ ٨٩٤. الفائق: ١/ ٤٣٤. غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/ ٢١٨. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ١١.

(٥) الرّحى: هي الّتي يطحن بها، والجمع أرْح، وأرْحاء، وأصل الرّحى الحجر العظيم. انظر: لسان العرب: ١٤/ ٣١٢. وانظر: المصباح المنير: ١/ ٢٢٣. القاموس المحيط: ١/ ١٠٠.

فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنْهَى عن المنكر وآتيه»[١].

وقال في حديث أنس بن مالك ﵁: «مررت ليلة أُسْرِي بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمّتك من أهل الدّنيا كانوا يأمرون النّاس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»[٢].

وفي حديث جندب بن عبد الله ﵁ قال ﷺ: «مثل العالم الّذي يعلّم النّاس الخير وينسى نفسه كمثل السّراج يضيء للنّاس ويحرق نفسه»[٣].

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣). باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله: (٧)، برقم: (٢٩٨٩)، ٤/ ٢٢٩١.
قال أبو العبّاس القرطبي ﵀ في معرض شرحه للحديث: «وإنّما اشتدّ عذاب هذا لأنّه كان عالماً بالمعروف وبالمنكر، وبوجوب القيام عليه بوظيفة كلّ واحد منهما، ومع ذلك فلم يعمل بشيء من ذلك، فصار كأنّه مستهين بحرمات الله تعالى، ومستخفّ بأحكامه، ثمّ إنّه لم يتب عن شيء من ذلك، وهذا من جملة من لم ينتفع بعلمه، الّذين قال فيهم النّبي ﷺ: «أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». المفهم: ٦/ ٦٢١.
والحديث الّذي استدل به أورده: الطّبراني في الصّغير: ١/ ١٣٠٥. وهو في مسند الشّهاب لأبي عبد الله محمّد بن سلامة بن جعفر القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م: ٢/ ١٧١. وشعب الإيمان: ٢/ ٢٨٥. والتّرغيب والتّرهيب: ١/ ٧٥. وقال الهيثمي: «فيه عثمان البري قال الفلّاس: صدوق لكنّه كثير الغلط صاحب بدعة ضعّفه أحمد والنّسائي والدّارقطني. مجمع الزّوائد: ١/ ١٨٥.

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ٣/ ١٨٠، وبلفظ مقارب في: ٣/ ١٢٠، ١٣١، ٢٣٩.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٧/ ٦٩، ٧٢، برقم: (٣٩٩٢)، (٣٩٩٦)، ونحوه في: ٧/ ١٨٠، برقم: (٤١٦٠). قال المحقّق: «الحديث صحيح».
مسند أبي داود الطّيالسي، نحوه في: ص:٢٧٤، برقم: (٢٠٦٠).
وقال الألباني ﵀: «إسناده حسن». اقتضاء العلم العمل، هامش (١١١)، ص:١٩٩، ٢٠٠.

(٣) معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦. قال الألباني ﵀: «حديث صحيح». اقتضاء العلم العمل، هامش (٧٠)، ص:١٨٢. وهو في صحيح الجامع، برقم: (٥٨٣١)، ٢/ ١٠١٥.

ومن هنا جاء خوف السّلف رحمهم الله من سلوك هذا المسلك المشين لما يترتّب عليه من آثار ذميمة، وعواقب وخيمة.

قال أبو الدّرداء رضي الله عنه:

«إنّي لست أخشى أن يقال لي: يا عويمر ماذا علمت؟ ولكنّي أخشى أن يقال: يا عويمر ماذا عملت فيما علمت؟»[1].

قال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله[2]: قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، فما لنا ندعوا فلا يستجاب لنا؟ فقال إبراهيم: «من أجل خمسة أشياء، قال: وما هي؟ قال: عرفتم الله فلم تؤدّوا حقّه، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وقلتم نحبّ الرّسول ﷺ وتركتم سنّته، وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه، والخامسة تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب النّاس»[3].

والدّاعية إلى الله هو أوْلى النّاس بتطبيق ما يأمر به، لأنّ سلوكه هو الصّورة الحيّة العمليّة لدعوته، الّتي يراها النّاس في سكونه وحركته، ووقوفه ومشيته، وبكائه وضحكته، وأنّه بفعله يصيب من قلوب النّاس أبلغ ممّا تصيب الكلمة مهما كانت طيّبة ومؤثّرة.

---

(١) اقتضاء العلم العمل، ص:١٧٧.
وأورده الحارث بن أبي أسامة في مسنده، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، طبعة: مركز خدمة السّنّة والسّيرة النّبوية، المدينة المنورة، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، مرفوعاً، ولفظه: «إنّ أبا الدّرداء قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت، قيل: فماذا عملت فيما علمت؟ وإن قلت: جهلت، قيل لك: فما كان عذرك فيما جهلت ألا تعلّمت؟»». كتاب البعث. باب كيف البعث، ٢/ ١٠٠٤.

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور أبو إسحاق العجلي وقيل: التّميمي البلخي، سكن الشّام، زاهد، صدوق في الحديث، توفي سنة، ١٦١هـ، وقيل: بعدها.
وانظر: التّاريخ الكبير: ١/ ٢٧٣. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٢٤. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٨٣. تهذيب الكمال: ٢/ ٢٧. الكاشف: ١/ ٢٠٧. تهذيب التّهذيب: ١/ ٨٨. تقريب التّهذيب: ١/ ٨٧.

(٣) جامع بيان العلم، ص: ٢٨٢، ٢٨٣.

فدعوته للنّاس تقتضي أن يكون ملتزماً بما يأمر به، آخذاً نفسه بذلك، ونهيه لهم يستوجب عليه أن يكون منتهياً عن ذلك[1].

قال المأمون:

«نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منّا أن نوعظ بالأقوال»[2].

وذلك لأنّ أثر الفعل أبلغ من القول.

ويؤيّده حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اتّخذَ النّبيُّ ﷺ خاتماً من ذهب فاتّخذَ النّاسُ خواتيمَ من ذهب، فقال النّبيُّ ﷺ: «إنّي اتّخذتُ خاتماً من ذهب» فنبذه، وقال: «إنّي لن أَلْبَسَهُ أبداً»، فنبذَ النّاسُ خواتيمَهم»[3].

ولمّا أمرهم ﷺ عام الحديبية بالتّحلّل وتأخّروا عن المبادرة رجاء أن يأذن لهم في القتال وإكمال العمرة، قالت له أمّ سلمة رضي الله عنها: «اخرج إليهم واحلق واذبح»، ففعل فتابعوه مسرعين. فدلّ ذلك على أنّ الفعل أبلغ من القول[4].

---

(١) انظر: أسس الدّعوة، ص: ٧٤، ٧٥.
قال ابن كثير رحمه الله: «يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، أي هو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدّ، وليس هو من الّذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشّرّ، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامّة في كلّ من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى النّاس بذلك». تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٥١.
وانظر: مبحثاً قيّماً بعنوان: التّربية بالقدوة في كتاب: طرق الدّعوة، ص: ١٠٠ ـ ١١٢.

(٢) جامع بيان العلم، ص: ٢٨٥.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١). باب الاقتداء بأفعال النّبي ﷺ (٤/ ٥)، برقم: (٧٢٩٨)، ص: ١٥٣٣، ونحوه في: كتاب اللّباس: (٧٧/ ٥١). باب خواتيم الذّهب: (٤٥)، برقم: (٥٨٦٥)، ص: ١٢٦٧. وفي باب من جعل فصّ الخاتم في بطن كفّه: (٥٣)، برقم: (٥٨٧٦)، ص: ١٢٦٩. وفي كتاب الإيمان والنّذور: (٨٣/ ٥٧). باب من خلف على الشّيء وإن لم يخلف: (٦)، برقم: (٦٦٥١)، ص: ١٤٠٨.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب اللّباس والزّينة: (٣٧). باب تحريم خاتم الذّهب على الرّجال، ونسخ ما كان من إباحة في أوّل الإسلام: (١١)، برقم: (٢٠٩١)، ٣/ ١٦٥٥.

(٤) ذكر تلك الحادثة البخاري في صحيحه، في جزء من حديث طويل عن غزوة الحديبية=

وبالتّالي إذا لم يكن الدّاعية عاملاً بنصحه ملتزماً به لا يصل نصحه إلى قلوب المنصوحين، بل لعله يكون عرضة للسخرية والاستهزاء.

قال مالك بن دينار[1] رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ القطر عن الصّفا»[2].

وقال الزّهري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا يوثق للنّاس عملُ عامل لا يعلم، ولا يُرضى بقول عالم لا يعمل»[3].

= عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان رحمه الله. في كتاب الشّروط: (٥٤/ ٣٠). باب الشّروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشّروط: (١٥)، برقم: (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ص: ٥٧١ ـ ٥٧٤. انظر: فتح الباري: ١٥/ ٢٠٥.

(١) مالك بن دينار أبو يحيى السّامي النّاجي مولاهم البصري. من زهّاد التّابعين وعبّادهم، واعظ، صدوق قليل الحديث، كان يكتب المصاحف، ووثّقه النّسائي، توفي سنة، ١٣٠هـ، أو نحوها.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٢٤٣. طبقات خليفة، ص:٢١٦. التّاريخ الكبير: ٧/ ٣٠٩. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٦٠. الجرح والتّعديل: ٨/ ٢٠٨. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٣٨٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٩٠. تهذيب الكمال: ٢٧/ ١٣٥. الكاشف: ٢/ ٢٣٥. تهذيب التّهذيب: ١٠/ ١٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٥١٧. لسان الميزان: ٧/ ٣٤٧.

(٢) جامع بيان العلم، ص:٢٨٧. اقتضاء العلم العمل، ص:١٩٢

والصّفَا: هو العريض من الحجارة الأملس، جمع صفاة، يكتب بالألف فإذا ثنّي قيل صفوان، وهو الصّفواء. لسان العرب: ١٤/ ٤٦٤. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٣٦٦.

(٣) اقتضاء العلم العمل، ص:١٦٦.

قال أبو الأسود الدّؤلي ويروى للعرزمي:

يا أيّها الرّجل المعلّم غيره ... هلّا لنفسك كان ذا التّعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التّعليم
تصف الدّواء لذي السّقام من الضّنا ... كيما يصحّ به وأنت سقيم
أراك تلقح بالرّشاد عقولنا ... نصحاً وأنت من الرّشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

جامع بيان العلم، ص:٢٧٧، ٢٧٨.

وقد تمحق بركة علمه، بل لعله يزول عنه ولا ينتفع به.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلّا ارتحل»[1].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه:

«مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عز وجل»[2].

وقال مطر[3] رحمه الله:

«خير العلم ما نفع، وإنّما ينفع الله بالعلم من عَلِمَهُ ثمّ عَمِلَ به، ولا ينفعُ به مَنْ عَلِمَهُ ثمّ تركه»[4].

---

(١) اقتضاء العلم العمل، ص:١٧٣.
ونسبه ابن عبد البر إلى سفيان الثّوري رحمه الله. جامع بيان العلم، ص:٢٩٠.

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص:١٦٥. قال الشّيخ ناصر الألباني رحمه الله: «إسناده موقوف لا بأس به وقد جاء مرفوعاً»، هامش (١٢).
وهو في سنن الدّارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه: «مثل علم لا ينتفع به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله». في باب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ١/١٤٨، ونحوه عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً عليه، ١/١٤٨.
ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً بلفظ مقارب لرواية الدّارمي: ٧/١٢١.
وفي المصنف لأبي بكر عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، طبعة: مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً ولفظه: «مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه»، ٧/١٢١.

(٣) هو مَطَر بن طَهْمان أبو رجاء الورّاق السّلمي مولاهم الخرساني البصري، صدوق كثير الخطأ، وروايته عن أنس رضي الله عنه مرسلة، توفي سنة، ١٢٥هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/٢٥٤. طبقات خليفة، ص:٢١٥. التّاريخ الكبير: ٧/٤٠٠. معرفة الثّقات: ٢/٢٨١. الجرح والتّعديل: ٨/٢٨٧. ثقات ابن حبّان: ٥/٤٣٥. مشاهير علماء الأمصار: ١/٩٥. الكامل في ضعفاء الرّجال: ٦/٣٩٦. تهذيب الكمال: ٢٨/٥١. الكاشف: ٢/٢٦٨. جامع التّحصيل، ص:٢٨١. تهذيب التّهذيب: ١٠/١٥٢. تقريب التّهذيب: ١/٥٣٤. لسان الميزان: ٧/٣٨٩.

(٤) اقتضاء العلم العمل، ص:١٧١.
قال عبد الملك بن إدريس الحزيري الوزير الكاتب:
والعلم ليس بنافع أربابه ... ما لم يفد عملاً وحسن تبصّر
سيّان عندي علم من لم يستفد ... عملاً به وصلاة من لم يطهر =

والدّاعية قدوة لغيره، فعليه أن يستشعر ذلك في كلّ أحيانه، إذ هو تحت مراقبة دقيقة وفاحصة ممّن يقتدون به، وعليه أن يكون أوّل من يترجم في حياته ما يتلفّظ به لغيره، لبيان صِدْقه، ولتصْدق دَعْوَتُه، ولا يكون همّه أن يلقي المواعظ، ويدبّج الخطب، ويصدر النّصائح، وهو كليل عليل، همّه إصلاح النّاس لا إصلاح نفسه، فيضيّع مسؤوليته تجاه نفسه أمام مسؤوليته تجاه غيره. فليس من العقل أن ينصح غيره ويهمل نفسه، وهذا ينافي مقصود الدّعوة إذ هي لإصلاح النّاس لا لإفسادهم. فمن دعا غيره وأهمل نفسه لعله يفسد أكثر ممّا يصلح، لأنّه حينئذ يكون داعية إلى التّهاون بالدّين والجرأة على المعاصي، زاجراً للنّاس عن أداء الطّاعات، دافعاً لهم على ارتكاب المخازي، يقولون لو كان صادقاً فيما يقول لطابق قوله فعله، وجانب فعله المعصية. فكان فعله مانعاً لقبول دعوته.

ورحم الله ابن القيّم عندما وصف أناساً هذا شأنهم، وذلك مسلكهم، فأبلغ في الوصف، حيث قال:

«علماء السّوء جلسوا على باب الجنّة يدعون إليها النّاس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النّار بأفعالهم، فكلّما قالت أقوالهم للنّاس هلمّوا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أوّل المستجيبين له، فهم في الصّور أدلّاء وفي الحقيقة قطّاع طريق»[1].

فداعية هذا شأنه ينقطع به السّير في وسط الطريق، بل قل: في أوّله، ويعجز عن مواصلة مشوار دعوته، بل لعله يكون عبئاً ثقيلاً عليها وعلى الدّعاة الثّابتين على الطّريق، لما يجلبه عليهم من همز ولمز وإساءة، فتتعثّر الدّعوة في سيرها، وتتراجع في تقدّمها، بل تتهاوى إلى السّفول، حين ينطمس نورها في نفس الدّاعية، وينمحي أثرها، إذ فقدت عنصراً مهمّاً من عناصر دفعها، وسنداً قويّاً يضمن لها بقاءها.

= فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها ... لا ترض بالتّضييع وزن المخسر
جامع بيان العلم، ص: ٢٨٩.

(١) الفوائد، ص: ٦١. وله كلام قيّم مستفيض فيمن آثر الدّنيا من أهل العلم، وقال عن الله بغير علم، وما ضرب الله لهم من الأمثلة. انظر: المرجع السّابق: ١٠٠ ـ ١٠٢.

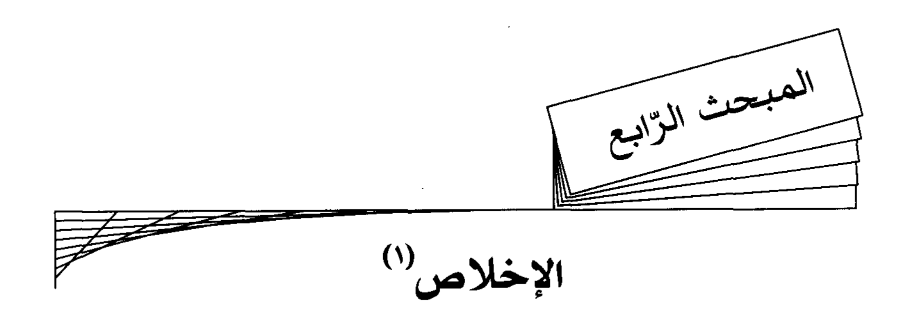
فالدّاعية صاحب الكلمة الصّادقة والقولة المؤثّرة، هو الّذي عني بتربية نفسه فجاهدها عن المعصية وألزمها الطّاعة،يراقب ربّه فيها، ويحاسبها على إخلالها، ويروّضها على الخير، ويحبسها عن الشّرّ، مع تنقية السّريرة وملازمة التّقوى، فتشع حينئذ تلك النّفس صفاء وطهراً، وتزكية ونوراً، فتخرج كلماته مؤثّرة، فتصيب أهدافها في قلوب الآخرين، ومراميها في نفوسهم، فينجرّون إليها في لهفة ونهم، منصاعين لما يقول، متأسّين بما يفعل. وحينها يسعد باستمرار دعوته وثباتها، وطول مكثها وبقائها.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كان الرّجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشّعه وبصره ولسانه ويده وصلاته وزهده، وإن كان الرّجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيراً له من الدّنيا وما فيها لو كانت له فجعلها في الآخرة»[1].



(١) جامع بيان العلم، ص:١٠٣. والحسن هو: البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



الإخلاص[1]

الإخلاص: مصدر أخلص يُخْلِص، وهو مأخوذ من مادة «خ ل ص» الّتي تدلّ على تنقية الشّيء وتهذيبه[2].

والخالص كالصّافي إلّا أنّ الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصّافي قد يقال لما لا شوب فيه.[3].

وفي الاصطلاح: تخليص القلب عن شائبة الشّوْب المكدّر لصفائه، فإذا صفا عن شوبه، وخلص عنه يسمّى: خالصاً، ويسمّى الفعل المخلّص: إخلاصاً.

قال تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل: ٦٦]. فإنّما خلوص اللّبن ألّا يكون فيه شوب من الفرث والدّم[4].

والمخلص في عبادته هو الّذي يخلّصها من شوائب الشّرك والرّياء. وذلك لا يتأتّى له إلّا بأن يكون الباعث له على عملها قصد التّقرّب إلى الله تعالى وابتغاء ما عنده[5].

والإخلاص أمره عظيم وشأنه عزيز، ولذا أمر الله به رسله عليهم السلام، وأثنى عليهم بتحقيقه.

---

(١) الإخلاص عامل مهم للثّبات في كلّ موطن، ولكن أوردته هنا لعلاقته الوطيدة بالدّعوة، وحاجة الدّعاة الماسّة إليه.

(٢) موسوعة نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ. إعداد مجموعة من المختصّين، دار الوسيلة، جدّة، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ٢/ ١٢٤.

(٣) المفردات، ص: ١٥٤.

(٤) التّعريفات، ص: ٢٨.

(٥) المفهم: ٣/ ٧٤٢.

قال تعالى في شأن الخاتم ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر: ١١]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص: ٤٦].

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وعن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، وأمر به عباده فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله عن الآية السّابقة:

«هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليّ، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتّى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصّواب أن يكون على السّنّة. ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]»[1].

وأمّا الأحاديث في شأن الإخلاص فهي كثيرة جداً، منها:

حديث عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال

---

(١) مدارج السّالكين: ٢/ ٨٣ ـ ٨٤، ٨٩ ـ ٩٠. وانظر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص: ٢٩.

بالنّية، وإنّما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وحديث أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه وفيه قال ﷺ: «إنّ الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»[2].

وحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه وفيه قال ﷺ: «ثلاث لا يغِلُّ[3] عليهنّ قلب

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلا إنّه قال: «إلى دنيا» ـ في: كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/ ٥٧). باب النّيّة في الأيمان: (٢٣)، برقم: (٦٦٨٩)، ص:١٤١٥، وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (٢). باب ما جاء إنّ الإيمان بالنّيّة: (٤١/ ٤٢)، برقم: (٥٤)، ص:٢٧. وفي كتاب العتق: (٤٩/ ٢٥). باب الخطأ والنّسيان في العتاقة والطّلاق: (٦)، برقم: (٢٥٢٩)، ص:٥٢٥. وفي كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١). باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى: (٥)، برقم: (٥٠٧٠)، ص:١١١٦. وفي كتاب الحيل: (٩٠/ ٦٥). باب في ترك الحيل: (١)، برقم: (٦٩٥٣)، ص:١٤٦٨. ونحوه في: في كتاب بدء الوحي: (١). باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: (١)، برقم: (١)، ص:١١. وفي كتاب مناقب الأنصار [المناقب]: (٦٣/ ٣٧). باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (٤٥/ ١٠٥)، برقم: (٣٨٩٨)، ص:٨١٥.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنّيّة»: (٤٥)، برقم: (١٩٠٧، ص:٣/ ١٥١٥ ـ ١٥١٦.

(٢) سنن النّسائي، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في كتاب الجهاد: (٢٥). باب من غزا يلتمس الأجر والذّكر: (٢٤)، برقم: (٣١٤٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص: ٣٣٢.

معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ٨/ ١٤٠.

(٣) يغلّ: روي بوجهين: يُغِلُّ من الإغلال الّذي هو الخيانة، ويَغِلُّ من الغِل الّذي هو الحقد والضّغن والشّحناء.

قال الخطّابي: «إنّ هذه الخلال الثّلاث ممّا لا يخالج القلب ريب أنّهنّ بر وطاعة، لأنها من المعروف الّذي تعرفه النّفوس وتسكن إليه القلوب». غريب الحديث للخطابي: ١/ ٥٨٥.

وقال الزّمخشري: «إنّ هذه الخلال يُستصلح بها القلوب، فمن تمسّك بها طهر قلبه من الدّغل والفساد». الفائق: ٣/ ٧٢. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠. غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/ ١٦١. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٨١. =

امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنّصح لأئمّة المسلمين ولزوم جماعتهم»[1].

وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

فالإخلاص غاية عظمى، وهدف سامٍ. وهو شرط في صحّة الأعمال، فلا يقبل الله من أحد صرفاً ولا عدلاً ما لم يؤسّس عمله عليه،بل تذهب أعماله أدراج الرّياح إذا فقد هذا الشّرط.

وفي ذلك يقول الحقّ سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣][3].

والدّعاة إلى الله في أمسّ الحاجة إليه ليضمنوا سلامة دعوتهم من العطب، وصفاءها من الكدر، ونقاءها من الدّنس، كَيْ تَزْكُوا وتَطْهر، ويشعّ نورها، وينصع طيبها.

وقد لفت الله انتباههم إليه كي يصطحبوه في دعوتهم ولا يغفلوا عنه أبداً. فقال سبحانه: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

= وقال ابن القيّم ﷺ: «ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب مسلم: . . . أي لا يبقى في غلّ، ولا يحمل الغلّ مع هذه الثّلاثة بل تنفي عنه غلّه، وتنقّيه منه، وتخرجه عنه. فإنّ القلب يغلّ على الشّرك أعظم غلّ، وكذلك يغلّ على الغشّ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضّلالة. فهذه الثّلاثة تملؤه غلّاً ودغلاً. ودواء هذا الغلّ واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنّصح ومتابعة السّنّة». مدارج السّالكين: ٢/ ٩٠.

(١) هذا جزء من حديث: «نضر الله امرءاً». وقد سبق تخريجه، ص:٤٥٤. ولكن بهذا اللّفظ أورده ابن ماجه في سننه في المقدّمة. باب من بلّغ علماً: (١٨)، برقم: (٢٣٠)، ص:٤٠.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب تحريم ظلم المسلم: (١٠)، برقم: (٢٥٦٤)، ٤/ ١٩٨٧.

(٣) الهباء: الشّيء المنبث الّذي تراه في البيت من ضوء الشّمس شبيهاً بالغبار. وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] تأويله: أنّ الله أحبط أعمالهم حتّى صارت بمنزلة الهباء المنثور. لسان العرب: ١٥/ ٣٥١. وانظر: المفردات، ص:٥٣٦.

قال الرّازي رحمه الله:

«هذه الأقسام الثّلاثة من الطّاعات وإن كانت في غاية الشّرف والجلالة إلّا أنّ الإنسان إنّما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله، ولطلب مرضاته، فأمّا إذا أتى بها للرّياء والسّمعة انقلبت القضية فصارت من أعظم المفاسد. وهذه الآية من أقوى الدّلائل على أن المطلوب من الأعمال الظّاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النّيّة، وتصفية الدّاعية عن الالتفات إلى غرض سوى طلب رضوان الله»[١].

ولذا كان رسل الله عليهم السلام وهم سادة الدّعاة وأئمّتهم قد ضربوا بعَطَن[٢] في أمر الإخلاص والتّجرّد إلى الله. حملوا الدّعوة صافية نقيّة، لا تكدّرها كدرة، ولا تشوبها شائبة، ولم يطلبوا بها هدفاً رخيصاً ولا غاية حابطة، إذ كان همّهم أن يُبَلّغُوا دين الله إلى العباد، وينقذوا البشريّة من مهاوي الرّدى، وينتشلوها إلى برّ الأمان. فلم يبتغوا بها من النّاس مالاً ولا مكانة ولا جاهاً.

وهذا سرّ قولهم عليهم السلام لأممهم: لا نسألكم أجراً، ولا نطلب منكم على دعوتنا ثمناً، وإنّما الرّب سبحانه هو الّذي تكفّل بأجرنا ومثوبتنا.

وقد قرّر الله هذه الحقيقة وكرّرها مع كلّ الرّسل[٣]، ليزهْد الدّعاة فيما عند النّاس من مصالح دنيويّة، وأهداف ثانويّة تصرفهم عن هدفهم الأصيل، وغايتهم العظمى، وهمّهم الأكبر، وهو حمل دعوة الله ونشرها في الآفاق، وتقديمها على المصالح الخاصّة.

---

(١) التّفسير الكبير: ١١/٤١ ـ ٤٢.

(٢) العَطَنُ للإبل كالوطن للنّاس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، والمَعْطَن كذلك، والجمع أعطان. يقال: ضربت الإبل بعطن: إذا رويت ثمّ بركت حول الماء، أو عند الحياض لتعاد إلى الشّرب مرّة أخرى لتشرب. لسان العرب: ١٣/٢٨٦، بتصرّف.
وقال: ضربوا بعطن: إذا رووا ثمّ أقاموا على الماء. القاموس المحيط، ص:١٥٦٩، بتصرّف يسير.
والمراد أنّهم بلغوا في الإخلاص مبلغاً عظيماً وارتووا منه، حيث لا مزيد على ذلك.

(٣) انظر: الآيات: الأنعام: (٩٠). هود: (٢٩) (٥١). الشّعراء: (١٠٩) (١٢٧) (١٤٥) (١٦٤) (١٨٠). سبأ: (٤٧). يس: (٢١). الشّورى: (٢٣).

وليكون قصدهم وجه الله والدّار الآخرة، ونصرة دينه وإعلاء كلمته، لا اللّهث وراء الدّنيا والسّعي خلف بريقها. فإنّه من استهوته هوى إليها. والله سبحانه يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ويقبح بالدّاعية الّذي مَنّ الله عليه بنعمة العلم لكي يصلح نفسه وغيره، أن يوجّه تلك النّعمة لنيل متاع زائل ودنيا فانية.

ولذا حَذّرَ النّبي ﷺ هذا الصّنف من الدّعاة أيّما تحذير، فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ تعلّمَ علماً مِمّا يُبْتَغَى به وَجْهُ اللّهِ، لا يتعلمُهُ إلّا ليصيبَ به عَرَضاً من الدّنيا لم يجدْ عَرْفَ الجنّةِ يومَ القيامةِ، يعني ريحَها»[1].

وقال في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: «من طلب العلم ليُجَارِيَ[2] به

---

(١) سنن أبي داود، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «وجه الله عز وجل ـ في كتاب العلم: (٢٤). باب في طلب العلم لغير الله تعالى: (١٢)، برقم: (٣٦٦٤). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٠٥.

سنن ابن ماجه، بلفظه في: المقدّمة. باب الانتفاع بالعلم والعمل به: (٢٣)، برقم: (٢٥٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٢.

مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «قال سريج في حديثه: يعني ريحها» ـ ٢/ ٣٣٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح»، برقم: (٨٤٣٨). مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١٦/ ١٩٣.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر وصف العلم الّذي يتوقّع دخول النّار في القيامة لمن طلبه. ولم يذكر: «يعني ريحها»، برقم: (٧٨). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح»، ١/ ٢٧٩.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ١٦٠. وقال: «هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرطهما».

مسند أبي يعلى، بلفظه ـ دون الزّيادة الأخيرة ـ برقم: (٦٣٧٣)، قال المحقّق: «إسناده حسن»، ١١/ ٢٦٠. وقال الألباني رحمه الله: «حديث صحيح». اقتضاء العلم العمل، ص: ١٩٤ هامش (١٠٢).

(٢) قال ابن الأثير رحمه الله: «من طلب العلم ليجاري به العلماء: أي يجري معهم في المناظرة والجدال ليظهر علمه إلى النّاس رياء وسمعة». النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٦٤.

العلماءَ، أو ليُماريَ[1] به السّفهاءَ، أو يصرف به وجوه النّاسَ إليه أدخلهُ اللّهُ النّار»[2].

وليس بمستعجب أن يكون هؤلاء في أوّل من تسعّر بهم جهنّم.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أوّل النّاسِ يُقضى يومَ القيامة عليه ـ فذكر رجلاً اسْتُشْهِد... ثمّ قال ـ ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فَأُتيَ به فعرّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلّمتُهُ، وقرأتُ فيك القرآنَ. قال: كذبت، ولكنّك تعلّمت العلمَ ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثمّ أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلْقِيَ في النّار... الحديث». ثمّ ذكر المنفق[3].

---

(١) من المماراة وهي المجادلة على وجه الشّك والرّيب. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٢٢. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ١١. الفائق: ٣/ ٣٥٦. غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدّنيا: (٦)، برقم: (٢٦٥٤). وقال: «هذا حديث غريب». وقال الألباني ﷺ: «حسن»، ص: ٤٣٠.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب الانتفاع بالعلم والعمل به: (٢٣). عن ابن عمر ﷺ برقم: (٢٥٣). وعن أبي هريرة ﷺ برقم: (٢٦٠). ونحوه عن جابر بن عبد الله ﷺ برقم: (٢٥٤). وحذيفة ﷺ برقم: (٢٥٩). قال الألباني ﷺ عن حديث أبي هريرة وابن عمر وحذيفة ﷺ: «حسن». وعن حديث جابر ﷺ: «صحيح»، ص: ٤٢، ٤٣.
سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: باب التّوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله. عن مكحول ﷺ مرسلاً، وموقوفاً عليه، ١/ ١١٦. ونحوه في: باب العمل بالعلم وحسن النّيّة فيه، عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً عليه، ١/ ٩٢.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه في: باب ذكر وصف العلم الّذي يتوقّع دخول النّار في القيامة لمن طلبه، عن جابر ﷺ برقم: (٧٧)، ١/ ١٧٨. قال شعيب الأرناؤوط: «رجاله ثقات رجال الصّحيح».
مستدرك الحاكم: نحوه عن جابر ﷺ، وعن ابن جريج ﷺ مرسلاً، ١/ ١٦١.
معجم الطّبراني الكبير: نحوه في: ٢٠/ ٦٦. عن معاذ ﷺ، وفي: ٢٣/ ٢٨٤. عن أمّ سلمة ﷺ.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب من قاتل للرّياء والسّمعة استحقّ النّار: (٤٣)، برقم: (١٩٠٥)، ٣/ ١٥١٤. =

ومن هنا جاء تحذير أهل العلم للدّعاة أن يكون همّهم من علمهم أن يعمّروا به دنياهم، ولا ينصرون به دعوة الله، ولا يبلّغونه إلى عباد الله.

قال لقمان رَحِمَهُ اللهُ لابنه:

«يا بنيّ لا تتعلّم العلم لثلاث، ولا تدعه لثلاث: لا تتعلّمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به، ولا تدعه زهادة فيه، ولا حياء من النّاس، ولا رضاً بالجهالة»[1].

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ:

«من طلب العلم ابتغاء الآخرة أدركها، ومن طلب العلم ابتغاء الدّنيا فهو حظّه منها»[2].

وقال أبو حاتم بن حبّان رَحِمَهُ اللهُ:

«العاقل لا يبيع حظّ آخرته بما قصد في العلم، لما يناله من حطام هذه الدّنيا، لأنّ العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره، لأنّ المبتغى من الأشياء كلّها نفعها لا نفسها، والعلم ونفع العلم شيئان، فمن أغضى عن نفعه، لم ينتفع بنفسه، وكان كالّذي يأكل ولا يشبع»[3].

وقال الزّمخشري:

«وليجعلوا غرضهم ومرمى همّتهم في التّفقه، إنذار قومهم وإرشادهم، والنّصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمّونه من المقاصد الرّكيكة، من التّصدّر والتّرؤّس والتّبسيط في البلاد، والتّشبّه بالظّلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضّرائر بينهم، وانقلاب حماليق[4] أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شرذمة جثوا بين

= قال النّووي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله ﷺ في الغازي والعالم والجوّاد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النّار، دليل على تغليظ تحريم الرّياء، وشدّة عقوبته، وعلى الحثّ على وجوب الإخلاص في الأعمال». شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٥٠ ـ ٥١.

(١) جامع بيان العلم، ص:١٧٣.

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص:١٩٤.

(٣) روضة العقلاء، ص:٤٣.

(٤) حملاق العين: بالكسر والضّم، وكعُصفور: باطن أجفانها الّذي يسودُّ بالكحلة، أو=

يديه. وتهالكه على أن يكون موطّأ العقب[1] دون النّاس كلّهم. فما أبعد هؤلاء من قوله ﷻ: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣][2].

وقد بيّن الذّهبي رحمه الله تفاوت أهل العلم في قصدهم من طلبه فقال:

«فقد كان السّلف يطلبون العلم لله فَنَبُلوا، وصاروا أئمّة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أوّلاً لا لله، وحصّلوه، ثمّ استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطّريق... وقوم طلبوه بنيّة فاسدة لأجل الدّنيا، وليُثْنَى عليهم، فلهم ما نووا... وترى هذا الضّرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النّفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنّما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولّوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التّقَيُّد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش فتبّاً لهم، فما هؤلاء بعلماء... إلخ»[3]. وبعد هذا

= ما غطّته الأجفان من بياض المقلة، أو باطن الجفن الأحمر الّذي إذا قلب للكحل رأيت حمرته، أو ما لزق بالعين من موضع الكحل من باطن. والجمع: حماليق. وحملق: فتح عينيه ونظر شديداً. القاموس المحيط، ص:١١٣٢. انظر: لسان العرب: ٦٩/١٠.

(١) أي كثير الأتباع، بأن يكون سلطاناً، ومقدّماً، أو ذا مال، فيتبعه النّاس ويمشون وراءه. لسان العرب: ١/ ٢٠٠.

(٢) للكشّاف: ٢/ ٢٢١. في تفسير الآية (١٢٢) من التّوبة، الطّبعة الحلبية.

(٣) سير أعلام النّبلاء: ٧/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

لمّا ولي إسماعيل بن عُليّة رحمه الله على العشور أو الصّدقات كتب إلى عبد الله بن المبارك رحمه الله يستمدّه برجال من القرّاء يعينونه على ذلك، فكتب إليه عبد الله بن المبارك رحمه الله:

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدّنيا ولذّتها ... بحيلة تذهب بالدّين
فصرت مجنوناً بها بعدما ... كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين
ودرسك العلم بآثاره ... وتركك أبواب السّلاطين
تقولوا أكرهت فماذا كذا ... زلّ حمار العلم في الطّين

جامع بيان العلم، ص:٢٥٨.

=

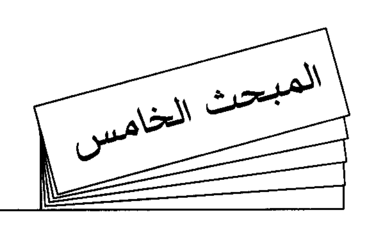
يتبيّن لنا أنّ الدّاعية المخلصَ هو الّذي يقصد من دعوته التّقرّب إلى الله، ونصرة دينه، ونصح عباده، وهو يحبّ لدين الله أن يعلو، وأن يمتثل العباد لأوامر الله، ويجتنبوا نواهيه. فلا يرضيه إلّا ما يرضي ربّه، ولا يغضبه إلّا ما يغضب ربّه. لا حظّ لنفسه في دعوته، فهو لا يستهويه المال، ولا يغرّه المنصب، ولا تستفزّه الشّهرة، ولا تجذبه القيادة، ولا تدفعه الشّهوة، ولا ترغّبه الشّهادة، ولا يحثّه الطّمع، ولا يسعى لمدح النّاس وثنائهم ومحمدتهم، ولا تستخفّه المجاملة والمحاباة فَيُرْضي غيره على حساب دعوته. وهو بعيد عن الرّياء والعُجْب وحبّ السّمعة والظّهور.

فهذه كلّها آفات وغيرها الكثير تنافي الإخلاص. ومتى ما تطرّق منها شيء إلى قلب الدّاعية ونفسه دبّ فيه الخمول، وانتابته العلل، وداخله الكسل، وارتبطت الدّعوة عنده بالمصلحة فإذا وجدها دعا، وإن حرمها سكت، وأبطأ به السّير، وخاب سعيه؛ لأنّ دعوته لم تنبع من صميم قلبه ولا من صدق نفسه، فهي آيلة إلى السّقوط والهوي. إذ الدّعوة النّابغة عن إخلاص يجد صاحبها عزيمة لا تَفُلّ، وقوّة لا تنهار، فيتمادى بها إلى آخر رمق من حياته، يكلؤها الصّبر ويحفّها الثّبات، ويحيط بها الصّدق، ويدفعها اليقين.

ودعوة هذا شأنها لا تخبو، وداعية هذا وصفه لا يخفق، لأنّه لا ينتابه الكلل، ولايوقفه الملل، ولا تحلّ به السّآمة، ولا يثبّطه اليأس.

= وانظر: روضة العقلاء، ص:٤٩ ـ ٥١.

وقد علّل ابن القيّم رحمه الله سبب تحذير أولئك الفضلاء، فقال: «كلّ من آثر الدّنيا من أهل العلم واستحبّها فلا بد أن يقول على الله غير الحقّ في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأنّ أحكام الرّب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض النّاس، ولا سيّما أهل الرّياسة والّذين يتّبعون الشّبهات، فإنّهم لا تتم لهم أغراضهم إلّا بمخالفة الحقّ ودفعه كثيراً. فإذا كان العالم والحاكم محبّين للرّياسة متّبعين للشّهوات لم يتم لهم ذلك إلّا بدفع ما يضادّه من الحقّ، ولا سيّما إذا قامت له شبهة، فتنفّق الشّبهة والشّهوة ويثور الهوى فيخفى الصّواب وينطمس وجه الحقّ، وإن كان الحقّ ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج التّوبة». الفوائد، ص:١٠٠.



مراعاة المصالح والمفاسد

إنّ الإنسان بطبعه مهما بلغ من علم ونبوغ وحصافة وذكاء لا يمكنه أبداً أن يحيط بجميع جوانب الإصلاح في هذه الحياة لعجزه وضعفه وجهله.

والّذي تفرّد بعلم مصالح العباد دون سواه هو العليم الخبير سبحانه، لأنّه الخالق، فهو عالم بحاجة خلقه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

ولذا أرسل الرّسل وأنزل الكتب وشرع الشّرائع لإرشاد عباده إلى ما يصلحهم، وتحذيرهم ممّا يفسدهم.

قال الشّاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ وضع الشّرائع إنّما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ الشّريعةِ جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنّها ترجّح خير الخيرين وشرّ الشّرّين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما»(٢).

وهذا سرّ تعليل الشّارع لكثير من الأحكام وربطها بعللها ليبيّن ما تنطوي عليه تلك الأحكام من مصالح.

فقال في تقرير التّوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) الموافقات: ٢/٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/٤٨.

وقال عقب آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في الصّلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال في شأن القبلة: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقال في الصّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال في الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

وقال في القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩][(١)].

فالشريعة جاءت بتحقيق المصالح وتحصيلها، وتفويت المفاسد وتعطيلها. هذا حين تنفرد المصالح أو المفاسد من غير تعارض بينهما.

وأمّا متى ما تعارضت المصالح والمفاسد وتزاحمت الحسنات والسّيّئات فإنّه وجب حينئذ تقديم الرّاجح منهما[(٢)].

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سبّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلّا أنه يترتّب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبّ إله المؤمنين»[(٣)].

وقد عقد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه باباً من كتاب العلم قال فيه:

---

(١) وانظر: الموافقات: ٢/ ٣.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص:٢٢، ٢٣. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٦٢.

«من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُرَ فهم بعض النّاس عنه فيقعوا في أشدّ منه». ثمّ روى بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: قال النّبيّ ﷺ: «يا عائشةُ لولا قومُك حديثٌ عهدُهم ـ قال ابن الزّبير: بكفرٍ ـ لنقضتُ الكعبةَ فجعلتُ لها بابين بابٌ يدخلُ النّاسُ، وبابٌ يَخْرُجُونَ»[1] ـ ففعله ابن الزّبير ـ.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«وفي الحديث معنى ما ترجم له، لأنّ قريشاً كانت تعظّم أمر الكعبة جدّاً، فخشي ﷺ أن يظنّوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنّه غيّر بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك. ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه»[2].

وقال النّووي رحمه الله:

«في هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام، منها: إذا تعارضت المصالح، أو تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذّر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهمّ، لأنّ النّبي ﷺ أخبر أنّ نقض الكعبة وردّها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيماً فتركها ﷺ»[3].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض النّاس عنه فيقعوا في أشدّ منه: (٤٨)، برقم: (١٢٦)، ص:٤٦، ونحوه في: كتاب الحجّ: (٢٥/٨). باب فضل مكّة وبنيانها: (٤٢)، برقم: (١٥٨٣ ـ ١٥٨٦)، ص:٣٣٤. وفي كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦). باب: (١٠/١١)، برقم: (٣٣٦٨)، ص:٧١٠. وفي كتاب التّفسير: (٦٥/٩٣). باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]: (١٠)، برقم: (٤٤٨٤)، ص:٩٣٣. وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/٦٩). باب ما يجوز من اللّو: (٩)، برقم: (٧٢٤٣)، ص:٢٥٢٤، ١٥٢٥.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب الحجّ: (١٥). باب نقض الكعبة وبنائها: (٦٩)، برقم: (١٣٣٣)، ٢/٩٦٩ ـ ٩٧١.

(٢) فتح الباري: ١/٣٠٣.

(٣) شرح النّووي على مسلم: ٩/٨٩. وانظر: عمدة القارئ: ٢/٢٠٤.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ فبال في طائفةِ المسجد، فزجره النّاسُ، فنهاهم النبيُّ ﷺ فلمّا قضى بوله أمر النّبيُّ ﷺ بِذَنُوبٍ[1] من ماءٍ فَأُهْرِيقَ[2] عليه»[3].

إنّ بول الأعرابي في المسجد مفسدة محقّقة لأنّه تلويث لجزء من المسجد بالنّجاسة وذلك منكر، ومع هذا نهى النّبي ﷺ الصّحابة عن منعه، لأنّه لو منع إمّا أن يقطع بوله فيتضرّر، أو لا يقطعه فلا يأمن حينئذ من تنجّس بدنه أو ثوبه أو انتشار البول في المسجد وذلك مفسدة أعظم.

قال العيني رحمه الله:

«فيه دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما. فإنّ البول فيه مفسدة، وقطعه على البائل مفسدة أعظم منها، فدفع أعظمها بأيسر المفسدتين. وتنزيه المسجد عنه مصلحة، وترك البائل إلى

---

(١) الذّنوب: هي الدّلو. غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٣٨٨.
وقال ابن الأثير: «الذّنوب الدّلو العظيمة. وقيل: لا تسمّى ذنوباً إلّا إذا كان فيها ماء».
النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٧١.

(٢) أهريق: قال: هراق الماء يُهَرِيقُه بفتح الهاء هِرَاقة بالكسر صبّه. وأصله أرَاق إراقة، وفيه لغة أخرى أَهْرَق الماء يُهْرِقُه إهْرَاقاً على أفْعَل يُفْعِل. وفيه لغة ثالثة أهْرَاق يُهْرِيق إهْرَاقة فهو مُهْرِيق والشّيء مُهْرَاق ومُهَرَاق أيضاً بفتح الهاء. مختار الصّحاح، ص: ٦٩٤. وانظر: لسان العرب: ١٠/ ٣٦٧.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الوضوء: (٤). باب يهريق الماء على البول: (٥٨/ ٦٢)، ص: ٦٤، ٦٥، ونحوه في: باب ترك النّبي ﷺ والنّاس الأعرابي حتّى فرغ من بوله في المسجد: (٥٧/ ٦٠)، برقم: (٢١٩). عن أنس رضي الله عنه، ص: ٦٤. وفي باب صبّ الماء على البول في المسجد: (٥٨/ ٦١)، برقم: (٢٢٠). عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص: ٦٤. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب الرّفق في الأمر كلّه: (٣٥)، برقم: (٦٠٢٥). عن أنس رضي الله عنه، ص: ١٢٩٣. وفي باب قول النّبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»: (٨٠)، برقم: (٦١٢٨). عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص: ١٣١١.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب الطّهارة: (٢). باب وجوب غسل البول وغيره من النّجاسات: (٣٠)، برقم: (٢٨٥). عن أنس رضي الله عنه، ١/ ٢٣٧.

الفراغ مصلحة أعظم منها، فحصل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما»[1].

وعن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قال: «أقبلت راكباً على حمار أتان[2] ـ وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام ـ ورسول الله ﷺ يصلّي بمنى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصّف، وأرسلت الأتان ترتع، فدخلت في الصّف، فلم ينكر ذلك عليّ»[3].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«فيه جواز تقديم المصلحة الرّاجحة على المفسدة الخفيفة، لأنّ المرور مفسدة خفيفة، والدّخول في الصّلاة مصلحة راجحة»[4].

فمن هذه النّصوص وأقوال من سبق من أهل العلم عنها تتبيّن لنا جوانب هذه القاعدة المهمّة.

ففي آية الأنعام وحديث عائشة رضي الله عنها: ترك المصلحة لأجل مفسدة أعظم منها.

---

(١) عمدة القارئ: ٣/ ١٢٧. وانظر: فتح الباري: ١/ ٤٣٣. نيل الأوطار من أحاديث سيّد شرح منتقى الأخبار، لمحمّد بن علي الشّوكاني، نشر: دار الجيل، بيروت، ١٨٧٣م، ١/ ٥٢.

(٢) حمار أتان: الحمار يقع على الذّكر والأنثى، والأتان الحمارة الأنثى خاصّة ولا يقال فيها: أتانة وإن كان قد جاء في بعض الحديث. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢١، بتصرّف.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم:(٣). باب متى يصحّ سماع الصّغير: (١٨)، برقم: (٧٦)، ص:٣٤، وبلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥). باب سترة الإمام سترة من خلفه: (٩٠)، برقم: (٤٩٣)، ص:١١٩. وفي كتاب الأذان:(١٠/ ٥). باب وضوء الصّبيان: (١٦١/ ٣١٢)، برقم: (٨٦١)،ص:١٨٨. وفي كتاب جزاء الصّيد (الحجّ): (٢٨/ ٨). باب حجّ الصّبيان: (٢٥/ ٢٠٧)، برقم: (١٨٥٧)، ص:٣٨٨. ونحوه في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨). باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤١٢)، ص:٩١٧.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٤). باب سترة المصلّي: (٤٧)، برقم: (٥٠٤)، ١/ ٣٦١.

(٤) فتح الباري: ١/ ٢٣١. وانظر: عمدة القارئ: ٢/ ٧٠.

وفي حديث أنس ﵁: دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، أو تحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما.

وفي حديث ابن عبّاس ﵄: فعل المفسدة الخفيفة من أجل مصلحة راجحة.

ولقد انبرى شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ في إيضاح تطبيق هذه القاعدة العظيمة في أمر الدّعوة إلى الله بكلام رصين أجاد سبكه، وأحسن صياغته، وأوضح جوانبه، وأجلى غموضه، وبيّنه للدّعاة إلى الله أتمّ بيان حيث لم يترك ما يحوجهم فيه إلى غيره، فقال ﵀:

«فإنّ الأمر والنّهي ـ وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة ـ فينظر في المعارض له. فإن كان الّذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرّماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته. . .

وعلى هذا إذا كان الشّخصُ والطّائفةُ جامعين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرّقون بينهما، بل إمّا أن يفعلوهما جميعاً، أو يتركوهما جميعاً، لم يجز أن يُؤمروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن منكر. بل ينظر، فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر. ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه. بل يكون النّهي حينئذ من باب الصّدّ عن سبيل الله، والسّعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وزوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب، نُهي عنه. وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزّائد عليه أمراً بمنكر، وسعياً في معصية الله ورسوله. وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النّهي. وتارة لا يصلح أمر ولا نهي حيث كان المعروف والمنكر متلازمين ـ وذلك في الأمور المعيّنة الواقعة ـ.

وأمّا من جهة النّوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً وينهى عن المنكر مطلقاً.

وفي الفاعل الواحد والطّائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها، ويذمّ مذمومها، بحيث لا يتضمّن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه، أو حصول منكر فوقه. ولا يتضمّن النّهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتّى يتبيّن له الحقّ، فلا يقدم على الطّاعة إلّا بعلم ونيّة، وإذا تركها كان عاصياً. فترك الواجب معصية، وفعل ما نهي عنه من الأمر معصية. وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله»[1].

ومن هذا الباب أنّ النّبي ﷺ لم يقتل المنافقين الّذين آذوه وسمع منهم في غير موطن ما يكرهه. وعلّة ذلك خشيته أن يتحدّث النّاس أنّه يقتل أصحابه فينفرون.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ بالجِعرانة[2] مُنْصَرَفَهُ من حنين[3]، وفي ثوب بلال فضّة، ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطي النّاس. فقال: يا محمّد اعدل. قال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل». فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال: «معاذ الله أن يتحدّث النّاسُ أنّي أقتل أصحابي. إنّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص: ٢٣، ٢٤. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢٩ ـ ١٣١.

(٢) الجعرانة: بكسر أوله إجماعاً. أهل الحديث يكسرون عينه ويشدّدون راءه. وأهل الإتقان والأدب يخطئونهم ويسكّنون العين ويخفّفون الرّاء، وقد حكي عن الشّافعي أنّه قال: «المحدّثون يخطئون في تشديد الجعرانة وتخفيف الحديبية»، وكلاهما روايتان جيّدتان، وهي ماء بين الطّائف ومكّة وهي إلى مكّة أقرب، نزلها النّبي ﷺ لمّا قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين، وأحرم منها ﷺ وله فيها مسجد، وبها بئار متقاربة. معجم البلدان: ٢/ ١٤٢، بتصرّف. وانظر: معجم ما استعجم: ١/ ٣٨٤.

(٣) حُنَين: هو واد قريب من الطّائف بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً. والأغلب عليه التّذكير لأنّه اسم ماء. وربما أنّثته العرب لأنّه اسم للبقعة، وهو الموضع الّذي هزم فيه رسول الله ﷺ هوازن. وقيل: إنّه سمّي بحنين بن قاينة بن مهلائيل.
معجم ما استعجم: ١/ ٤٧١ ـ ٤٧٢، بتصرّف، وانظر: معجم البلدان: ٢/ ٣١٣.

كما يمرق السّهم من الرّميّة[1]»[2].

ومنه تحذير الصّحابة والتّابعين وأهل العلم من التّحديث ببعض الأحاديث الّتي يفهم منها خلاف المقصود. وقد يؤدّي ما فهم منها إلى مفسدة أعظم من السّتر عليها.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ:

«ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة»[3]... والفتنة هنا: الضّلال والحيرة[4]

وقال عليّ ﷺ:

«حَدِّثُوا النّاسَ بما يعرفون، أتحبّون أن يكذّب الله ورسوله»[5].

---

(١) الرّميّة: هي الصّيدة الّتي يرميها الصّائد، وتطلق على كلّ دابّة مرميّة. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/١٦٦. غريب الحديث لابن الجوزي: ١/٤١٧. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٢٦٨.
قال ابن الأثير ﷺ: «يمرقون من الدّين مروق السّهم من الرّميّة: يريد أنّ دخولهم في الإسلام ثم خروجهم منهم لم يتمسّكوا منه بشيء كالسّهم الّذي دخل في الرّميّة ثم نفذ فيها وخرج منها، ولم يعلق به منها شيء». النّهاية في غريب الحديث: ٢/١٤٩. وانظر: الفائق: ٣/٣٥٥.

(٢) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب المناقب: (٦١/٣٧). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦١٠). عن أبي سعيد ﷺ، ص:٧٥٩، وفي إنّ اسم الرّجل ذو الخويصرة من قبيلة تميم. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب ما جاء في قول الرّجل: «ويلك»: (٩٥)، برقم: (٦١٦٣)، عن أبي سعيد ﷺ، ص:١٣١٨، وفي كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣). باب من ترك قتال الخوارج لتألف. وأن لا ينفّر النّاس عنه: (٧)، برقم: (٦٩٣٣)، عن أبي سعيد ﷺ، ص:١٤٦٣.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب ذكر الخوارج وصفاتهم: (٤٧)، برقم: (١٠٦٣)، ٢/ ٧٤٠، ونحوه عن أبي سعيد ﷺ برقم: (١٠٦٤)، ٢/ ٧٤٤.
وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٧/١٥٨ ـ ١٥٩. والوصايا في الكتاب والسّنّة، للدّكتور علي بن محمّد ناصر الفقيهي، المجموعة الرّابعة،الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ الجامعة الإسلاميّة بالمدينة، مركز شؤون الدّعوة، ص:٦٥.

(٣) سبق. انظر: ص:٤٧٤.

(٤) المفهم: ١/١١٨.

(٥) سبق. انظر: ص:٤٧٤. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥. ذكر فيه بعض العلوم الّتي لا يحدّث بها. فتح الباري: ١/ ٣٠٤.

وقال أبو قِلابة رضي الله عنه:

«لا تحدّث بحديث من لا يعرفه، فإنّ من لا يعرفه يضرّه ولا ينفعه»(١).

وقال هشام بن عروة(٢) رحمه الله:

«ما حدّثت أحداً بشيء من العلم قطّ لم يبلغه علمه إلّا كان ضلالًا عليه»(٣). ويدخل في ذلك كتمان أبي هريرة رضي الله عنه لبعض الأحاديث الّتي تؤدّي بتبليغها إلى إثارة الفتنة. حيث يقول: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأمّا أحدهما فبثثته، وأمّا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»(٤).

وقد حمل العلماء ذلك على الأحاديث الّتي فيها تبيين أسماء أمراء السّوء، وأحوالهم، وزمنهم، وليست من أحاديث الأحكام، لأنّه لا يسعه كتمانها(٥).

ومن ذلك أيضاً أمْرُ النّبيِّ ﷺ بالصّبر على جَوْرِ الأئمّة وظلمهم، وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصّلاة. لما يترتّب عليه من مفاسد عظيمة تبلغ أضعاف ما ارتكبوه من مخالفات ومعاصي.

عن عُبادةَ بن الصّامِتِ رضي الله عنه قال: دَعَانَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ فبايَعْنَاهُ فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السّمْعِ والطّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا وعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا

---

(١) جامع بيان العلم، ص:٢١٣.

(٢) هشام بن عروة بن الزّبير بن العوام، أبو المنذر، وقيل: أبو عبد الله، القرشي الأسدي الزّبيري المدني، تابعي صغير، إمام حافظ، فقيه، حجّة ثبت، متقن كثير الحديث، من أهل الورع والفضل، وربما دلّس، توفي سنة، ١٤٦هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٣٢١. طبقات خليفة، ص:٢٦٧. التّاريخ الكبير: ٨/ ١٩٣. معرفة الثّقات: ٢/ ٣٣٢. الجرح والتّعديل: ٩/ ٦٣. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٥٠٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٠. تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٧. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١١٧١. تهذيب الكمال: ٣٠/ ٢٣٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٤٤. الكاشف: ٢/ ٣٣٧. جامع التّحصيل، ص:٢٩٣. التّبيين لأسماء المدلّسين، ص:٢٢٧. تهذيب التّهذيب: ١١/ ٤٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٧٣. لسان الميزان: ٧/ ٤١٩. طبقات المدلّسين، ص:٢٦.

(٣) جامع بيان العلم، ص:٢١٣.

(٤) سبق تخريجه. انظر: ص:٤٨.

(٥) انظر: فتح الباري: ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

وأَثَرَةٍ[1] عَلَيْنَا وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: «إِلّا أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً[2] عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[3].

قال النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومعنى الحديث: لا تنازعوا وُلاةَ الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلّا أن تَرَوْا منهم مُنْكَراً محقّقاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم[4]، وقولوا بالحقّ حيث ما كنتم. وأمّا الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين... وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتّب على ذلك من الفتن، وإراقة الدّماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه»[5].

وعن أمّ سلمة رضي الله عنها زوج النّبي ﷺ عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلّوا»، أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه[6].

---

(١) الأثرة: بفتح الهمزة والثّاء، الاسم من آثر يؤثر إيثاراً إذا أعطى، أراد أنّه يستأثر عليهم فيفضّل غيرهم في نصيبه من الفيء، والاستئثار الانفراد بالشّيء. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٢. بتصرّف يسير.

(٢) بَواحاً: يريد ظاهراً بادياً، ومنه قولهم باح بالشّيء يبوح به: إذا أذاعه وأظهره.
انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٦٩٠. وانظر: الفائق: ١/ ١٣٣. غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٩٠. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٦١.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في كتاب الفتن: (٩٢/ ٦٧). باب قول النّبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»: (٢)، برقم: (٧٠٥٦)، ص: ١٤٩٠.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية: (٨)، برقم: (١٧٠٩)، ٣/ ١٤٧٠ ـ ١٤٧١.

(٤) ليس الإنكار على إطلاقه، وإنّما هو مقيّد بقاعدة جلب المصلحة ودفع المفسدة، وأن يكون بالحسنى واللّين والرّفق، وأن يكون سرّاً بينك وبينه... إلخ الضّوابط والشّروط التي وردت في هذا السّياق، والله أعلم.

(٥) شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ٢٢٩.

(٦) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب الإنكار على الأمراء=

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمّتكم الّذين تحبّونهم ويحبّونكم، ويصلّون عليكم وتصلّون عليهم، وشرار أئمّتكم الّذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسّيف[1]؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصّلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة»[2].

فقد أمرَ النّبيُّ ﷺ بالصّبر على جور الأئمّة وعدم الخروج عليهم وقتالهم. وهو أصل من أصول أهل السّنّة والجماعة خلافاً لأهل الأهواء والبدع الذين يرون قتال الأئمّة من أصول دينهم، ويسمّونه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. وقد يوجب الخروج عليهم وقتالهم من الظّلم والفساد أكثر من ظلمهم وفسادهم[3].

وولاة الأمر يُنْصَحُون ويبيّن لهم الحقّ كما جاء عنه ﷺ في حديث تميم الدّاري رضي الله عنه[4]. ولا يداهنوا، ولا يُطروا بالباطل، بل ينصحوا دون تصنّع ولا ملق. ويجتنب في نصحهم الكلام بحضرة النّاس، ويكون في خلوة إبقاء لحرمتهم، وحفظاً لمقامهم، لأنّ المجاهرة بالإنكار والقيام عليهم يطرأ عنه عظيم الفتن وبالغ المفاسد، وقد تأخذهم العزّة بالإثم فيزداد شرّهم، ويعظم فسادهم.

= فيما يخالف الشّرع، وترك قتالهم ما صلّوا، ونحو ذلك: (١٦)، برقم: (١٨٥٤)، ٣/ ١٤٨١، ونحوه في: ٣/ ١٤٨٠.

(١) أي نقاتلهم على طريق مستقيم مستو في العلم بالمنابذة منّا ومنهم، بأن نظهر لهم العزم على قتالهم ونخبرهم به إخباراً مكشوفاً، والنّبذ يكون بالفعل والقول في الأجسام والمعاني.
النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٦، بتصرّف يسير.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب خيار الأئمّة وشرارهم: (١٧)، برقم: (١٨٥٥)، ٣/ ١٤٨١، وبلفظ مقارب في: ٣/ ١٤٨٢.
وانظر: معاني الأحاديث في: المفهم: ٤/ ٦٤ ـ ٦٦. شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٧٩ ـ ١٨٠. الوصايا في الكتاب والسّنة، ص:٥٩.

(٤) الحديث سبق. انظر: ص:٤٥٩.

وقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده، فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلّا كان قد أدّى الّذي عليه له»[1].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنّه قيل له: ألا تدخل على عثمان فتكلّمه؟ فقال: أترون أنّي لا أكلّمه إلّا أسمعكم[2]؟ والله لقد كلّمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّل من فتحه... الحديث»[3].

---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤، عن عياض بن غنم رضي الله عنه، قال الهيثمي في مجمع الزّوائد: «ورجاله ثقات»: ٥/ ٢٢٩.
وله شاهد عند أحمد في المسند أيضاً من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه موقوفاً في: ٤/ ٣٨٢. قال الهيثمي: «ورجال أحمد ثقات»، ٥/ ٣٣٠.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٣/ ٣٢٣، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
كتاب السّنّة لابن أبي عاصم الضّحاك بن مخلد الشّيباني ومعه ظلال الجنّة في تخريج السّنّة للشّيخ الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، وله عنده بطرق عن عياض بن غنم رضي الله عنه برقم: (١٠٩٦ ـ ١٠٩٨) قال الألباني رحمه الله: «فالحديث صحيح بمجموع طرقه والله أعلم»، ٢/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

(٢) أي: أتظنون أنّي لا أكلّمه إلّا وأنتم تسمعون. شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١١٨.

(٣) سبق. انظر: ص: ٤٩٧.
قال النّووي رحمه الله: «قوله: «افتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّل من فتحه»: يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه، وفيه الأدب مع الأمراء واللّطف بهم ووعظهم سرّاً، وتبليغهم ما يقول النّاس فيهم لينكفّوا عنه». شرح النّووي على مسلم: ١٨/ ١١٨. وانظر: المفهم: ٦/ ٦١٩ ـ ٦٢٠.
ولو أخذ كثير ممّن يعمل في حقل الدّعوة بهذا المبدأ لأراحوا الأمّة من كثير من الشّرور والفتن الّتي بلغت أوجها في هذا العصر، من سفك للدّماء وقتل للأبرياء، وإحداث للفوضى.
ومنابذة السّلطان بهدف الوصول إلى الإصلاح مسلك عقيم الجدوى، قليل الفائدة، بل قد يُذهب ما في الأيدي، دعك أن يوصل إلى مكاسب، وهو محفوف بالمخاطر، محاط بالعقبات، ولم نر مَنْ سلكوه وصلوا به إلى ما تقرّ به الأعين، بل قُتّلوا وشُرِّدوا وتعطّلت الدّعوة في مناحي شتّى، والواقعُ خيرُ شاهد.
فالسّير بالدّعوة ليس حماساً يدفع، ولا عاطفة تجمح، وإنّما هو منهج ثابت، وفقه مستوعب.

هذه نماذج وغيرها كثير يستنير بها الدّعاة في تطبيق قاعدة الموازنات بين الحسنات والسّيئات، والمصالح والمفاسد في واقع الدّعوة.

والأمر مع الحاجة إليه ليس سهلاً يقتحمه كُلُّ مَنْ نَصّبَ نفسه داعية إلى الله، فيزن الأمور بما يراه أو يهواه بعيداً عن النّصوص والقواعد العامّة، خاصّة وأنّ هذا الباب من المزالق الّتي ينجرف بها كثير من الدّعاة عن جادّة الطّريق، لأنّه موطن يسرع فيه الهوى إلى النّفوس، فتضعف أمام المصالح الخاصّة.

فالميزان لا يكون بالأهواء والاجتهادات الّتي لا تستند إلى دليل من الشّرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشّريعة. فمتى قدر الإنسان على اتّباع النّصوص ولم يعدل عنها، وإلّا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنّظائر، وقلّ أن تُعْوِز النّصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام»[1].

فهو يحتاج من الدّاعية إلى علم شرعي مستوعب، وفقه مستنير، ومعرفة بمقاصد الشّرع ومقادير المصالح والمفاسد، وتحقّقها بعيداً عن الظّن والتّوهم والتّخمين، متجنّباً للهوى وحظوظ النّفس. وإلّا كان فساده أعظم، وانحراف أكبر حتى يتّسع عليه الخرق، وتتشعّب أمامه الآراء، وتضطّرب القواعد فيعجز عن لمّ شعثها، ونظم عقدها.

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص:٢٣. مجموع الفتاوى: ١٢٩/٢٨.

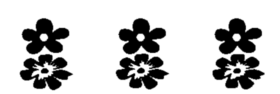
وفي قوله رَحِمَهُ اللَّهُ لفتة انتباه لصغار طلّاب العلم الّذين جهلوا كثيراً من أحكام الشّرع، بل جهلوا كثيراً من الأصول الواضحة البيّنة لقلّة بضاعتهم من نصوص الوحي، وانشغالهم بغيرها من العلوم الأخرى، ثمّ ولجوا هذا الباب الخطير ليصلوا من خلاله إلى أهداف وغايات تكتنفها الأهواء، وتحيط بها المقاصد الخاصّة، والرغبات الحابطة، وإن وجّهوا رفعوا عقائرهم بشنشنة طالما سمعت من أخزم: «من أجل مصلحة الدّعوة»، حتّى أصبحت مصلحة الدّعوة صهوة تمتطى لكلّ غرض وهدف رخيص.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

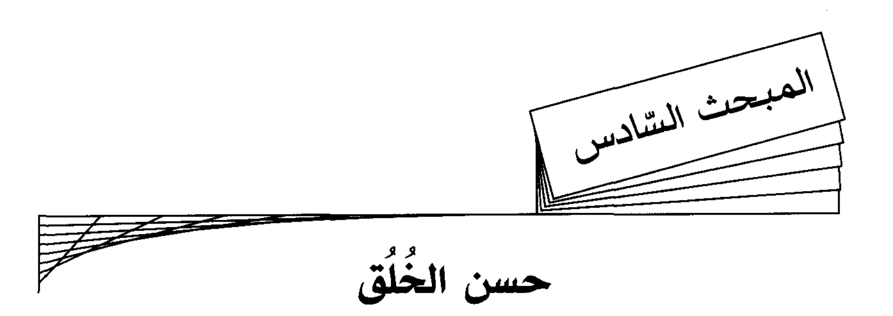
«وهذا باب التّعارض باب واسع جداً، لا سيّما في الأزمنة والأمكنة الّتي نقصت فيها آثار النّبوّة وخلافة النبوّة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النّقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمّة، فإنّه إذا اختلطت الحسنات بالسّيّئات وقع الاشتباه والتّلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيّئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السّيّئات فيرجّحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة.

والمتوسّطون الّذين ينظرون الأمرين قد لا يتبيّن لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرّة، أو يتبيّن لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السّيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء»[1].

فالدّاعية وهو يسير بدعوته عليه مراعاة المصالح والمفاسد في أمره ونهيه، فإن كان فيما يأمر وينهى مصلحة خالصة، أو مصلحة أعظم، أمر ونهي. وإن ترتّب على ذلك مفسدة خاصة أو مفسدة أعظم كفّ عن الأمر أو النّهي، وإن استوتا أو اشتبه الأمر توقّف حتّى يتبيّن له. وهو بذلك يضمن سلامة الطّريق، واستمرارية السّير، ومواصلة الدّعوة وثباتها بعيداً عن الهزّات والكبوات.



(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/٥٧ ـ ٥٨.



حسن الخُلُق

الخُلْق والخُلُق: السّجيّة والطّبع والمروءة والدّين[1]. والخَلْق والخُلُق في الأصل واحد وهو: التّقدير، ولكن خصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصّور المُدْرَكة بالبصر، وخصّ الخُلُق بالقوى والسّجايا المدركة بالبصيرة[2].

وفي الاصطلاح:

الخُلُق عبارة عن هيئة في النّفس راسخة عنها، تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمّيت تلك الهيئة خُلْقاً حسناً، وإن كان الصّادر عنها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة الّتي هي المصدر خُلْقاً سيّئًا[3].

وحسن الخلق سجيّة كريمة، وصفة حميدة، وسلوك مستقيم. أمر الله الدّعاة إليه أن يتحلّوا به في قولهم وفعلهم، وأمرهم ونهيهم، لما له من آثار فاضلة، وثمرات يانعة، وعواقب محمودة.

فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي كلّموهم طيّباً، ولينوا لهم جانباً. ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[4].

---

(١) القاموس المحيط، ص:١١٣٧.

(٢) المفردات، ص:١٥٧، ١٥٨، بتصرّف يسير.

(٣) إحياء علوم الدّين، على هامشه: إتحاف السّادة المتّقين للزّبيدي، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٨/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨. وعنه ذكره الجرجاني في التّعريفات، ص:١٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٨٠.

وهذا حضّ منه سبحانه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيّم[1].

وقال جلّ في علاه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

وهذا أمر بكلّ كلام يقرّب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وإنّه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنّه يأمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن: داع لكلّ خلق جميل، وعمل صالح، فإنّ من ملك لسانه ملك جميع أمره[2].

وقال ﷻ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وفي الآية الثّانية: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥][3].

وهذا توجيه إلى عباد الله جميعاً وعلى رأسهم الدّعاة إلى الله أن يتّسموا بمكارم الأخلاق، فيحسنوا إلى من أساء، ويحلموا على من جهل، ويعفوا عمن ظلم، ويصبروا على ذلك، فإنّ القلوب القاسية، والطّبائع الشّرسة تنقاد بالإحسان، وتتأثّر بالكلمة الطّيّبة، والعبارة اللّطيفة، والمعاملة الحسنة ما لا تتأثّر بسواها.

وقد بيّنت الأحاديث مقام صاحب الخلق الحسن، ومنزلته عند ربّه، وفضيلته على غيره. من ذلك:

---

(١) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢.

(٢) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤١١.

(٣) قال ابن القيّم رحمه الله: «أمره في دفع عدوّه من شياطين الإنس، بأن يدفع بالّتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصّلة، وأخبره أنّه إن فعل ذلك عاد عدوّه كأنّه ولي حميم».

* إنّه متخلّق بأخلاق الأنبياء.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ النّاسِ خُلُقاً... الحديث»[1]، وذكر عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما رسول الله ﷺ فقال: «لم يكن فاحشاً ولا مُتفحِّشاً»[2]، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مِنْ خياركم أحَاسِنكم أخلاقاً»[3].

قال النّووي رحمه الله:

«فيه الحثّ على حسن الخلق وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه»[4].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال كان النّبي ﷺ ـ في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب الكنية للصّبي قبل أن يولد للرّجل: (١١٢)، برقم: (٦٢٠٣)، ص: ١٣٢٤.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). باب جواز الجماعة في النّافلة: (٤٨)، برقم: (٦٥٩)، ١/ ٤٥٧. وفي كتاب الآداب: (٣٨). باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته: (٥)، برقم: (٢١٥٠)، ٣/ ١٦٩٢. وفي كتاب الفضائل: (٤٣). باب كان رسول الله ﷺ أحسن النّاس خلقاً: (١٣)، برقم: (٢٣١٠)، ٤/ ١٨٠٥.

(٢) الفُحْش والفَحْشاء والفاحشة: القبيح من القول والفعل وجمعها الفَوَاحِش. والمُتَفَحِّش الّذي يتكلّف سبّ النّاس ويتعمّده. انظر: لسان العرب: ٦/ ٣٢٥.
قوله: «لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً»: أي لم يكن ناطقاً بالفحش وهو الزّيادة على الحدّ في الكلام السّيء، والمتفحّش المتكلّف لذلك، أي لم يكن له الفحش خلقاً ولا مكتسباً. انظر: فتح الباري: ٦/ ٥٧٥، طبعة: المعرفة. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٥/ ٧٨.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧). باب صفة النّبي ﷺ: (٢٣)، برقم: (٣٥٥٩)، ص: ٧٥١. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب لم يكن النّبي ﷺ فاحشاً ولا متفحّشاً: (٣٨)، برقم: (٦٠٢٩)، ص: ١٢٩٤. وفي باب حسن الخلق والسّخاء: (٣٩)، برقم: (٦٠٣٥)، ص: ١٢٩٥. ونحوه في: كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ (المناقب): (٦٢/ ٣٧). باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (٢٧/ ٥٧)، برقم: (٣٧٥٩)، ص: ٧٨٩.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب كثرة حيائه ﷺ: (١٦)، برقم: (٢٣٢١)، ٤/ ١٨١٠.

(٤) شرح النّووي على مسلم: ١٥/ ٧٨.

* إنّه أكمل المؤمنين إيماناً:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»(١).

* إنّه يدرك به درجة الصّائم القائم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصّائم القائم»(٢).

---

(١) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب السّنّة: (٣٩). باب الدّليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (١٥)، برقم: (٤٦٨٢). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص: ٥١٠.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الرّضاع: (٩). باب ما جاء في حقّ المرأة على زوجها: (١١)، برقم: (١١٦٢). وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص: ٢٠٦، وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (٣٧). باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه: (٦). عن عائشة رضي الله عنها، برقم: (٢٦١٢). وقال: «حسن». وقال الألباني رحمه الله: «ضعيف»، ص: ٤٢٤.
سنن ابن ماجه: روي آخره في كتاب النّكاح: (٩). باب حسن معاشرة النّساء: (٥٠). عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، برقم: (١٩٧٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢١٤.
سنن الدّارمي، الجزء الأوّل منه بلفظه في: باب في حسن الخلق: ٢/ ٤١٥ ـ ٤١٦.
سنن البيهقي، أوّله بلفظه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ١٠/ ١٩٢.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٥٠، ٤٧٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح»، برقم: (٧٣٩٦)، (١٠١١٠). مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: ١٣/ ١٣٣، ١٩/ ١٢٨. وأخرج جزء منه بلفظه في: ٢/ ٥٢٧، ونحوه في: ٦/ ٤٧، ٩٩. عن عائشة رضي الله عنها.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: الجزء الأوّل منه بلفظه في: باب ذكر البيان بأنّ من أكمل المؤمنين إيماناً من كان أحسن خلقاً، برقم: (٤٧٩). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»، ٢/ ٢٢٧، وبلفظه ـ إلّا قوله «خلقاً» ـ في آخره، في باب معاشرة الزّوجين، برقم: (٤١٧٦)، ٩/ ٤٨٣.
مستدرك الحاكم، أوّله بلفظه في: ١/ ٤٣. وقال: «هذا حديث صحيح ولم يخرّج في الصّحيحين وهو صحيح على شرط مسلم».
مسند أبي يعلى، أوّله بلفظه في: ٧/ ٢٣٧. برقم: (٤٢٤٠). عن أنس رضي الله عنه.

(٢) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في كتاب الأدب: (٤٠). باب في حسن الخلق: (٧)، برقم: (٤٧٩٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٥٢٣. =

* إنّه يثقل به ميزانه يوم القيامة:

عن أبي الدّرداء ﷺ قال: سمعت النّبيّ ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة مِنْ خُلُقٍ حسن، وإنّ الله ليبغض الفاحش البذيء»[1].

والأدّلة على حسن الخلق وفضله كثيرة جدّاً يضيق هذا المقام عن حصرها.

والمراد أنّ الدّاعية عليه أن يتحلّى بالصّفات الحميدة والسّجايا الكريمة

= موطّأ مالك: نحوه، بلاغاً، في كتاب حسن الخلق: (٤٧). باب ما جاء في حسن الخلق: (١)، برقم: (٦)، ٢/ ٩٠٤.

مسند أحمد، بلفظه في: ٦/ ١٨٧، إلّا إنّه قال: «إنّ الرّجل»، وبلفظ مقارب في: ٦/ ٩٠، ١٣٣، ونحوه في: ٢/ ١٧٧، ٢٢٠، عن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال أحمد شاكر ﷺ: «إسناده صحيح»، برقم: (٦٦٤٨)، (٧٠٥٢). مسند أحمد بتحقيق: أحمد شاكر: (١٠/ ١٣٤، ١٢/ ١٤.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر رجاء نوال المرء بحسن الخلق درجة القائم ليله الصّائم نهاره، برقم: (٤٨٠)، ٢/ ٢٢٨.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ١٢٨، وقال: «هذا حديث على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي ﷺ: «على شرطهما»، ونحوه عن أبي هريرة ﷺ في: ١/ ١٢٨. قال الذّهبي ﷺ: «على شرط مسلم».

مسند أبي يعلى: نحوه عن أنس ﷺ، برقم: (٤١٦٦)، قال المحقّق: «رجاله رجال الصّحيح»، ٧/ ١٨٤.

(١) سنن أبي داود، نحواً منه في كتاب الأدب: (٤٠). باب في حسن الخلق: (٧)، برقم: (٤٧٩٩)، قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٥٢٢.

سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب البر والصّلة: (٢٤). باب ما جاء في حسن الخلق: (٦٢)، برقم: (٢٠٠٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ونحوه برقم: (٢٠٠٣)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٣٣٤.

سنن البيهقي، نحوه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ١٠/ ١٩٣.

مسند أحمد، نحوه في: ٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه في: باب ذكر البيان بأنّ الخلق الحسن من أثقل ما يجد المرء في ميزانه يوم القيامة، برقم: (٤٨١)، ٢/ ٢٣٠.

مسند أبي داود الطّيالسي، نحوه في ص: ١٣١، برقم: (٩٧٨).

فيكون رحب الصّدر، حسن الحديث، بشوش الوجه، لطيف المعاملة، رقيق العبارة ليكون قريباً من المدعوّين محبوباً لديهم.

فحسن خلقه يصلح بينه وبين النّاس، ويدعوهم لمحبّته[(١)].

كما يدعوهم للالتفاف من حوله، والاستماع لنُصْحه، والاستجابة لإرشاده. بل القلوب النّافرة والنّفوس الشّاردة تميل إليه، وتصغي إلى حديثه.

وفي ذلك يقول الماوردي رَحِمَهُ اللهُ:

«إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مُصافُوه، وقلّ مُعادوه، فتسهّلت عليه الأمور الصّعاب، ولانت له القلوب الغضاب»[(٢)].

فحسن الأخلاق عامل مؤثّر في استمرارية الدّعوة لأنّه يجذب قلوب النّاس إلى الدّاعي، ويربطهم به وبدعوته.

وهنالك بعض الأخلاق الحسنة الّتي لها صلة وثيقة بالدّعوة، وأثر بالغ في ثبات الدّاعية واستمراره في التّمسّك بدعوته متى ما تحلّى بها. أوجزها في المطالب الأربعة الآتية:

المطلب الأوّل

الرّفق

الرّفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضدّ العنف[(٣)].

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ:

«اعلم أنّ الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدّة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرّفق واللّين نتيجة حسن الخلق والسّلاسة»[(٤)].

---

(١) انظر: الفوائد، ص: ٥٤.

(٢) كتاب أدب الدّنيا والدّين، لأبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري الماوردي، طبع: المطبعة الأميرية، القاهرة، الطّبعة الرّابعة عشرة، ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م، ص: ٢١٦.

(٣) فتح الباري: ١٢/ ٦٤.

(٤) إحياء علوم الدّين، بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ٩/ ٤٦٩.

وقد مدح الله سبحانه رسول الله ﷺ برقّة القلب ولين الجانب، وحسن الرّفق فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي إنّ الله منّ عليك برحمة منه كانت سبباً أن ألنت لأصحابك جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقّقت عليهم، وحسّنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك، وأحبّوك، وامتثلوا أمرك. ولو كنت سيّىء الخلق، قاسي القلب لنفّرهم هذا عنك. لأنّ لين الجانب وحسن الخلق يؤدّي إلى التّأليف وجذب العباد لدين الله(١).

وهذا في شأن رسول الله ﷺ، فكيف بالدّعاة سواه؟

وقال تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٦].

أي: اذهبا إلى هذا الّذي جاوز الحدّ في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه، فقولا له قولاً سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في اللّفظ، دون فحش ولا صلف(٢)، ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال، لعلّه يذعن إلى الحقّ، ويخشى عقاب الرّب. والقول اللّين قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النّازعات: ١٨، ١٩]، فإنّ فيه من لطف القول، وسهولته، ولين جانبه، وعدم بشاعته ما لا يخفى على من تأمّله(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٢١، ١٢٢ بتصرّف. وانظر: في ظلال القرآن: ١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١.
قال ابن كثير رحمه الله: «الفظ: الغليظ، المراد به ها هنا غليظ الكلام لقوله لعد ذلك: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم، لانفضّوا عنك وتركوك، ولكنّ الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم». تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٢٩.

(٢) الصّلَف: مجاوزة القَدْر في الظّرف والبراعة والادّعاء فوق ذلك تكبّراً. لسان العرب: ٩/ ١٩٦. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٠٧٠.

(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٥٥، بتصرّف.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو إنّ فرعون في غاية العتوّ والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلّا بالملاطفة واللّين»(١).

وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه - أي في فوائد الآية - جواز الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر باللّين لمن معه القوّة، وضُمِنت له العصمة، ألا تراه قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، ولا تخافا ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾»(٢).

ولمّا كان الرّفق ذا آثار حميدة فيكسب النّاس، وتأثير عظيم على النّفوس، حيث تنجذب إلى صاحبه، وتلتفّ حول من يتّسم به، وتنساق لأقواله، وتتأسّى بأفعاله دعا الرّسول ﷺ المؤمنين للتحلّي والتّخلق به، مبيّناً لهم ثمراته ونتائجه. من ذلك:

* حبّ الله له، وعظيم ثوابه عليه:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النّبي ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إنّ الله رفيق يحبّ الرّفق، ويعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٤٦.

(٢) أحكام القرآن: ٣/ ١٢٦٠. زاد القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكيف بنا فنحن أولى بذلك، وحينئذ يحصل الآمر والنّاهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه، وهذا واضح». الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ١٩٩.
وقال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قُرِأَتْ عند يحيى بن معاذ فبكى، وقال: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الله». وفيها دليل على استحباب إلانة القول للظالم عند وعظه» روح المعاني: ١٦/ ١٩٥. وانظر: معنى الآيات في: جامع البيان: ١٦/ ١٦٨ - ١٧٠. التّفسير الكبير: ٢٢/ ٥٨ - ٥٩. فتح البيان: ٨/ ٢٣٥ - ٢٣٦. محاسن التّأويل: ١١/ ٤١٨١ - ٤١٨٢.

(٣) صحيح البخاري، طرفاً منه في كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب الرّفق في الأمر كلّه: (٣٥)، برقم: (٦٠٢٤)، ص: ١٢٩٣. وفي كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣). باب إذا =

* دخول الخير عليه، فما يناله من الخير بمقدار ما يفعله من الرّفق:

عن أبي الدّرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أعطي حظّه من الرّفق فقد أعطي حظّه من الخير، ومن حرم حظّه من الرّفق فقد حرم حظّه من الخير»[1].

= عرض الذّمي وغيره بسبّ النّبي ﷺ ولم يصرّح: (٤)، برقم: (٦٩٢٧)، ص:١٤٦٢. ونحواً منه في كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب لم يكن النّبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً: (٣٨)، برقم: (٦٠٣٠)، ص:١٢٩٤. وفي كتاب الاستئذان: (٧٩/ ٥٣). باب كيف يردّ على أهل الذّمة السلام: (٢٢)، برقم: (٦٢٥٦)، ص:١٣٣٦. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤). باب الدّعاء على المشركين: (٥٨)، برقم: (٦٣٩٥)، ص:١٣٦٢. وفي باب قول النّبي ﷺ: «يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا»: (٦٢)، برقم: (٦٤٠١)، ص:١٣٦٤.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب فضل الرّفق: (٢٣)، برقم: (٢٥٩٣)، ٤/ ٢٠٠٤. ونحواً منه في كتاب السّلام: (٣٩). باب النّهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسّلام، وكيف يردّ عليهم: (٤)، برقم: (٢١٦٥)، ٤/ ١٧٠٦.

وقوله: «يعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف»: أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره. أو يتأتى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتّى بغيره. شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ١٤٥.

ورجّح ابن حجر رحمه الله القول الثّاني. انظر: فتح الباري: ١٢/ ٦٤. وانظر: المفهم: ٦/ ٢٧٨. فقد ذكر كلاماً قيّماً في معنى الحديث.

(١) أصل هذا الحديث في صحيح مسلم، عن جرير رضي الله عنه بلفظ: «من يحرم الرّفق يحرم الخير». في كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب فضل الرّفق: (٢٣)، برقم: (٢٥٩٢)، ٤/ ٢٠٠٣.

سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب البر والصّلة: (٢٤). باب ما جاء في الرّفق: (٦٧)، برقم: (٢٠١٣). وقال: «هذا حديث حسن صحيح». قال الألباني رحمه الله: «صحيح».

سنن البيهقي، نحوه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها: ١٠/ ١٩٣.

مسند أحمد، نحواً منه في: ٦/ ١٥٩، ٤٥١. الموضع الثّاني عن عائشة رضي الله عنها.

مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب عن عائشة رضي الله عنها، برقم: (٤٥٣٠). قال المحقّق: «إسناده حسن»، ٨/ ٢٤.

قال أبو حاتم ابن حبّان رحمه الله: «الواجب على العاقل لزوم الرفق في الأمور كلّها، وترك العجلة والخفّة فيها، إذ الله تعالى يحبّ الرّفق في الأمور كلّها، ومن منع الرّفق منع الخير، كما أنّ من أعطي الرّفق أعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكّن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الّذي يحبّ إلّا بمقارنة الرّفق، ومفارقة العجلة».

وقال: «أنشدني منصور بن محمّد الكُريزيّ: =

* يحسّن الأشياء، ويجمّلها، والبعد عنه يسيء إليها ويقبّحها:

عن عائشة رضي الله عنها زوج النّبي ﷺ عن النّبي ﷺ قال: «إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا ينزع من شيء إلّا شانه»(١).

* تصيب دعوة الرّسول ﷺ صاحبه:

وعنها رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللّهم من ولي من أمر أمّتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمّتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»(٢).

والأحاديث عنه ﷺ في شأن الرّفق كثيرة جداً. وقد امتثله ﷺ في حياته عمليّاً ليأخذ الدّعاة من ذلك العبرة، ويرتشفوا من نميره الأسوة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد، فزجره النّاس، فنهاهم النّبي ﷺ. فلمّا قضى بوله أمر النّبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه»(٣).

لقد بال هذا الأعرابي في المسجد. وذلك أمرٌ منكر لما يترتّب عليه من إصابة المسجد بالنّجاسة، ولذا زجره النّاس ونهوه عن ذلك، ولكنّ رسول الله ﷺ نهاهم رفقاً به، وتلطّفاً في تعليمه، ولا سيّما وهو جاهل وقريب عهد بالإسلام، وقد يؤدّي ذلك إلى تنفيره وعوده إلى الكفر مرّة أخرى، ولذا بالغ النّبي ﷺ في الرّأفة به.

= الرّفق أيمنُ شيء أنت تتبعه ... والخُرْقُ أشأم شيء يَقْدُمُ الرّجلا
وذو التّثبّت من حمد إلى ظفر ... من يركب الرّفق لا يستحقب الزّللا

روضة العقلاء، ص:٣٥٣، ٣٥٤.

استحقب الشّيء: جعله في حقيبته. كأنّه يرجع به إلى أهله. انظر: هامش المرجع السّابق، ص:٣٥٤.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب فضل الرّفق: (٢٣)، برقم: (٥٩٤)، ٤/٢٠٠٤.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر: (٥)، برقم: (١٨٢٨)، ٣/١٤٥٨.

(٣) سبق. انظر: ص:٥١٥.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

«وفيه الرّفق بالجاهل، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً، ولا سيّما إن كان ممّن يحتاج إلى استئلافه. وفيه رأفة النّبي ﷺ وحسن خلقه»[1].

وعن معاوية بن الحكم السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلّي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وَاثُكْلَ أُمِّيَاه[2]، ما شأنكم تنظرون إليّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني لكنّي سكت، فلمّا صلّى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمّي ما رأيت معلّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كَهَرني[3] ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إنّ هذه الصّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النّاس، إنّما هو التّسبيح والتّكبير وقراءة القرآن... الحديث»[4].

ففي الحديث: بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الّذي شهد الله تعالى له به[5]، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمّته وشفقته عليهم، وفيه التّخلّق بخلقه ﷺ في الرّفق بالجاهل وحسن تعليمه واللّطف به وتقريب الصّواب إلى فهمه[6].

---

(١) فتح الباري: ١/٤٣٣. وانظر: كتاب المنتقى شرح موطّأ مالك: ١/١٢٩. نيل الأوطار: ١/٥٣ ـ ٥٤.

(٢) واثُكل أُمِّياه: الثُّكل: فَقْد الوَلَد، وامرأة ثَاكِل وثَكْلَى، ورجُل ثَاكِل وثَكْلان. النّهاية في غريب الحديث: ١/٢١٧.

(٣) كهرني: الكَهْر الانْتِهار، وقد كَهَره يكْهَرُه إذا زَبَره واسْتقبَله بوجهٍ عَبُوس.
النّهاية في غريب الحديث: ٤/٢١٢. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/١١٥. الفائق: ٣/٢٨٨.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). باب تحريم الكلام في الصّلاة ونسخ ما كان من إباحة: (٧)، برقم: (٥٣٧)، ١/٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

(٦) شرح النّووي على مسلم: ٥/٢٠.

والرّفق هو أقوم سبل الدّعوة إلى الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما نهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه. فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر، والرّفق عند الأمر ليسلك أقرب الطّرق إلى تحصيل المقصود، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي فإنّه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك»[1].

والدّاعية أحوج ما يكون إلى الرّفق، إذ بدونه لا تستقيم دعوته، ولا تتحقّق رغبته، ولا يصل إلى ما يصبو إليه، ولا ينال بغيته.

ولذا قال النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وينبغي الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب»[2].

فهو قد يفوّت مطلوبه ومرغوبه بعدم رفقه، وحينها لا يكون من دعوته فائدة، ولا يقطف لها ثمرة، فأولى به أن يكفّ[3].

والغلظة والفظاظة في الدّعوة لا تؤدّي إلى عاقبة محمودة، بل تعكس صورة شوهاء لداعية الإسلام، وتنفّر النّفوس عنه وإن كان قوله حقّاً وصدقاً، بل تورث العداوة بينه وبين المدعوّين، فيعيش منعزلاً بعيداً عن النّاس، بل قد تؤدّي إلى ردود فعل بما تثيره من كوامن الشّرّ في الإنسان فيكابر ويعاند ويردّ الحقّ مع وضوحه، وهي تقذف القنوط واليأس في نفس الدّاعية. وهنالك يعجز عن السّير، وينقطع به المسير، ويجانبه الثّبات، ويخالفه الصّبر[4].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٧. وانظر: ٢٨/ ١٣٧، فقد نسبه فيها لغيره، وذكر أنّ بعض العلماء جعله من المرفوع.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ٢/ ٢٤.

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص:٣٣.

(٤) انظر: في آثار الغلظة والفظاظة: أصول الدّعوة، ص:٣٥٨. طرق الدّعوة الإسلاميّة، ص:١٨. أخلاقية الدّاعية، لعبد الله ناصح علوان، طبعة: دار السّلام، ص:٢٧ ـ ٣٠. =

بل الدّاعية النّاصح هو الّذي يمتلئ قلبه رحمة وشفقة لعباد الله، يسعى جاهداً لإنقاذهم وتخليصهم من هاوية الهلاك، وهو في سبيل ذلك لا تستفزّه الإساءة، ولا تحرّكه حظوظ النّفس ومعاجلة الانتقام، ولا يسأم من تعنّتهم وصدودهم وكثرة إعراضهم وجهلهم، فإنّ رحمته بهم وشفقته عليهم عزاء له في كلّ ما يناله منهم من أذى.

وبذلك يصبر على دعوتهم، ويثبت على إبلاغهم، ويظلّ في مجاهدتهم دون كلل ولا ملل، وهو يتذكّر قوله تعالى في رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهو يرسل موعظته، ويبعث نصحه في أسلوب رقيق جميل يحيط به الرّفق، وتحفّه الرّحمة، وتكلّله الشّفقة بعيداً عن القسوة والغلظة والجفاء والسّباب والشّتم، فينزل على قلب المدعو برداً وسلاماً، فينفتح له القلب، وينشرح له الصّدر، وتهتز له النّفس، فيسري في الوجدان سريان الدّم في العروق، والنّار في الهشيم، فينساق صاحبه إلى الدّاعية، وينجرّ لدعوته، منصاعاً لأمره، طائعاً لقوله، مطبّقاً لفعله، فيسعد بذلك الدّاعية، ويفرح بكسبه وهو يشاهد ثمار جهده، ونتاج عمله، فيدفعه إلى المزيد والسّعي الحثيث، محافظاً على مسلكه، مداوماً على نهجه.

= والغلظة قد تنفع أحياناً وذلك إذا وضعت في موضعها المناسب لها، لأنّ هنالك من الأمور ما لا يصلح معه إلّا الغلظة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].
قال المتنبي:
ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلى مضرّ كوضع السّيف في موضع النّدى
ديوان أبي الطّيّب وبهامشه العرف الطّيّب: ٢/ ١٨٣.
قال الغزالي رحمه الله: «الرّفق... محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على النّدور، وإنّما الكامل من يميّز مواقع الرّفق عن مواقع العنف فيعطي كلّ أمر حقّه، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرّفق، فإنّ النّجح معه في الأكثر».
إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ٩/٤٧٨، وهذا تفصيل قيّم.

المطلب الثّاني

التيسير

التّيسير من اليَسَر واليُسْر وهو السّهل[١]. فالتّيسير هو التّسهيل والأخذ باللّين بعيداً عن المشقّة والعنت.

وهو صفة ميّزت بها هذه الشّريعة الّتي جاء بها المصطفى ﷺ على الشّرائع السّابقة.

حيث وضع الله ﷻ عن هذه الأمّة كلّ ثقل في الأمم الماضية، وأزاح عنها كلّ إصر[٢]، ورفع عنها كلّ مشقّة.

قال سبحانه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال ﷺ: «بُعِثْتُ بالحنيفيّةِ السّمْحة»[٣].

وقال: «إنّ الدّين يسر ولن يُشَادّ[٤] الدّين أحدٌ إلّا غلبه، فسدّدوا وقاربوا

---

(١) انظر: القاموس المحيط، ص:٦٤٣. المفردات ص:٥٥١، ٥٥٢.

(٢) الإِصْرُ: العَهْد الثّقيل.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ أي ما عُقِدَ عَقْد ثقيل عليهم مثل قَتْلهم أنفسهم، وما أشبه ذلك من قَرْض الجلد إذا أصابته النّجاسة. انظر: لسان العرب: ٤/٢٣. وانظر: المفردات، ص:١٨ ـ ١٩.

(٣) صحيح البخاري، بمعناه ـ معلّقاً ـ في كتاب الإيمان: (٢). باب الدّين يسر: (٢٩/ ٣٠)، ص:٢٣.

مسند أحمد، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: ٥/٢٦٦. عن أبي أمامة ﷺ، ونحوه في: ٦/١١٦، عن عائشة ﷺ.

معجم الطّبراني الكبير، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: ٨/ ١٧٠، ٢١٦، ٢٢٢.

(٤) المشادّة: بالتّشديد المغالبة، يقال شادّه يشادّه مشادّة إذا قاواه، والمعنى لا يتعمّق أحد في الأعمال الدّينيّة ويترك الرّفق إلّا عجز وانقطع فيغلب، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنّه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدّي إلى الملال، أو المبالغة في التّطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلّي اللّيل كلّه ويغالب النّوم إلى أن غلبته عيناه في آخر اللّيل فنام عن صلاة الصّبح=

وأبشروا واستعينوا بالغَدْوة[1] والرَّوْحَة[2] وشيء من الدُّلْجَة[3]»[4].

وقد أخذ رسول الله ﷺ بحظٍّ وافر من التّيسير حتّى قالت عنه عائشة ﵂: «ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثْماً، فإن كان إثماً كان أبعد النّاس منه. . . الحديث»[5].

أي: إذا كان بين أمرين أو عرضت عليه مصلحتان جاز أن يفعل أحدهما اختار الأيسر، أخذاً بالسّهولة وتعليماً للأمّة[6].

= في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشّمس فخرج وقت الفريضة. فتح الباري: ١/ ٩٤. طبعة: دار المعرفة، بتصرّف يسير.

(١) الغَدْوَة: المرّة من الغُدُوّ، وهو ما بين صلاة الغَداة وطلوع الشّمس. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٤٦.

(٢) الرّوحة: هي المرّة من الرّواح، وهو ما بعد الزّوال. انظر:المرجع السّابق: ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٣) الدّلجة: يُقال أدْلَج بالتخفيف إذا سَار من أوّل اللّيْل، وادْلَجَّ بالتّشديد إذا سارَ من آخره، والاسْم منْهُما الدُّلْجة والدَّلْجَة بالضّم والفتح، ومنهم مَن يَجْعَل الإدْلَاجَ لِلَّيل كُلِّه. انظر: المرجع نفسه: ٢/ ١٢٩.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الإيمان: (٢). باب الدّين يسر: (٢٩/ ٣٠)، برقم: (٣٩)، ص:٢٣.
عن أبي هريرة ﵁، وللوقوف على المزيد من بيان يسر الشّريعة وسهولتها انظر: الموافقات: ١/ ٢٣٦ فما بعدها. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٤. محاسن التّأويل: ٧/ ٢٨٨١ ـ ٢٨٨٢.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧). باب صفة النّبي ﷺ: (٢٣)، برقم: (٣٥٦٠)، ص:٧٥١. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب قول النّبي ﷺ «يسّروا ولا تعسّروا»: (٨٠)، برقم: (٦١٢٦)، ص:١٣١٠، وبلفظ مقارب في: كتاب الحدود: (٨٦/ ٦٠). باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله: (١٠)، برقم: (٦٧٨٦)، ص: [illegible] ١٤.
صحيح مسلم، [illegible]ظه في: كتاب الفضائل: (٤٣) مباعدته ﷺ للآثام: (٢٠)، برقم: (٢٣٢٧)، ٤/ ١٨[illegible].

(٦) انظر: المفهم: ٦/ ١١٨ ـ ١١٩.
قال النّووي ؒ: «فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروهاً».
شرح النّووي على مسلم: ١٥/ ٨٣.

وذكر أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه: «أنه صحب النّبيّ ﷺ فرأى من تيسيره»[(١)].

وقد كان ذلك ديدنه ﷺ، لكمال رحمته، وعظيم عطفه، وبالغ إشفاقه على أمّته، وسعيه الدّائم على إزالة العنت والمشقّة عنها. وهو القائل: «لولا أن أشقّ على أمّتي أو على النّاس لأمرتهم بالسّواك مع كلّ صلاة»[(٢)]، والقائل: «إنّي لأدخل الصّلاة أُريد إطالتها فأسمع بكاء الصبّي فأخفف من شدّة وجد أمّه به»[(٣)].

بل حرص ﷺ على أمر التّيسير تمام الحرص حتّى إنّه كان إذا بعث الدّعاة إلى الله وصّاهم به كي لا ينفّروا المدعوّين أو يشقّوا عليهم.

عن أبي موسى رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: «يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب قول النّبي ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»: (٨٠)، برقم: (٦١٢٧)، ص: ١٣١٠.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجمعة: (١١/ ٥). باب السّواك يوم الجمعة: (٨/ ٣٢٥)، برقم: (٨٨٧)، ص: ١٩٢، ١٩٣. وطرفاً منه بلفظه ـ ولم يقل: «أو على النّاس» ـ في كتاب التّمني: (٩٤/ ٦٩). باب ما يجوز من اللّو: (٩)، برقم: (٧٢٤٠)، ص: ١٥٢٤. عن أبي هريرة رضي الله عنه.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الطّهارة: (٢). باب السّواك: (١٥)، برقم: (٢٥٢)، ١/ ٢٢٠.
وانظر: كتاب المنتقى شرح الموطّأ: ١/ ١٣٠.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الأذان (الصّلاة): (١٠/ ٥). باب من أخفّ الصّلاة عند بكاء الصّبي: (٦٥/ ٢١٦)، برقم: (٧٠٩)، (٧١٠). عن أنس رضي الله عنه، ونحوه برقم: (٧٠٧)، عن أبي قتادة رضي الله عنه، وبرقم: (٧٠٨)، عن أنس رضي الله عنه، ص: ١٥٨، ١٥٩. وفي باب انتظار النّاس قيام الإمام العالم: (١٦٣/ ٣١٤)، برقم: (٨٦٨)، عن أبي قتادة رضي الله عنه، ص: ١٨٩.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤). باب أمر الأئمّة بتخفيف الصّلاة في تمام: (٣٧)، برقم: (٤٧٠)، عن أنس رضي الله عنه، ١/ ٣٤٣.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢). باب ما يكره من التّنازع والاختلاف في الحرب: (١٦٤/ ٦٣)، برقم: (٣٠٣٨)، ص: ٦٣٩. وبلفظ=

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا، وسكّنوا ولا تنفّروا»[1].

بل كان يغضب ﷺ أشدّ الغضب إذا خالف بعض أصحابه التّيسير وشقّ على النّاس.

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّي لأتأخّر عن صلاة الصّبح من أجل فلان، ممّا يطيل بنا. فما رأيت النّبيّ ﷺ غضب في موعظة قطّ أشدّ ممّا غضب يومئذ، فقال: «يا أيّها النّاس إنّ منكم منفّرين فأيّكم أمَّ النّاس فليوجز، فإنّ من ورائه الكبير والضّعيف وذا الحاجة»[2].

= مقارب في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨). باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع: (٦٠/ ٦١)، برقم: (٤٣٤٤)، (٤٣٤٥)، ص:٩٠٣، وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب قول النّبي ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»: (٨٠)، برقم: (٦١٢٤)، ص:١٣١٠. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/ ٦٨). باب أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موقع، أن يتطاوعا ولا يتعاصيا: (٢٢)، برقم: (٧١٧٢)، ص:١٥١١، وطرفاً منه بنحوه في كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨). باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع: (٦٠/ ٦١)، برقم: (٤٣٤١)، (٤٣٤٢)، ص:٩٠٣.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢). باب في الأمر بالتّيسير وترك التّنفير: (٣)، برقم: (١٧٣٣)، ٣/ ١٣٥٩. وطرفاً منه بنحوه في كتاب الأشربة: (٣٦). باب بيان أنّ كلّ مسكر خمر: (٧)، ٣/ ١٥٨٦.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب قول النّبي ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»: (٨٠)، برقم: (٦١٢٥)، ص:١٣١٠، وبلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣). باب ما كان النّبي ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا: (١١)، برقم: (٦٩)، ص:٣٢.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢). باب في الأمر بالتّيسير وترك التّنفير: (٣)، برقم: (١٧٣٤)، ٣/ ١٣٥٩، وبلفظ مقارب برقم: (١٧٣٢)، ٣/ ١٣٥٨، عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣). باب الغضب في الموعظة والتّعليم إذا رأى ما يكره: (٢٨)، برقم: (٩٠)، ص:٣٧. وفي كتاب الأذان (الصّلاة): (١٠/ ٥). باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الرّكوع والسّجود: (٦١/ ٢١٢)، برقم: (٧٠٢). وفي باب من شكا إمامه إذا طوّل: (٦٣/ ٢١٤)، برقم: (٧٠٤)، ص:١٥٨. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب ما يجوز من الغضب والشّدّة=

وعن عائشة ﵂ قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنّهم كرهوه وتنزّهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: «ما بال رجال بلغهم عنّي أمر ترخّصت فيه فكرهوه وتنزّهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشية»[1].

ففي هذه النّصوص وغيرها الكثير دعوة حارّة إلى القائمين بأمر الدّعوة أن يلتزموا مبدأ التّيسير في دعوتهم، والتّسهيل في إبلاغهم، ولا يكونون وجوهاً كالحة لدعوة الله، منفّرين عنها، مبعدين النّاس عن طريقها، صادّين عن الالتزام بها.

فإنّ الدّاعية المُيَسِّرَ محبوب لدى الخلق، قريب من قلوبهم، يلتفّون حوله، ويأخذون بقوله، ممّا يعينه على المداومة، ويعطيه القدرة على الاستمرار وعدم الانقطاع.

وعليه أن يتدرّج معهم في الأحكام فذلك أدعى لقبولهم، وأكثر إعانة لهم وله على الثّبات.

قال النّووي ﵀:

«وقد كانت أمور الإسلام في التّكليف على التّدريج، فمتى يسّر على

= لأمر الله: (٧٥)، برقم: (٦١١٠)، ص:١٣٠٨. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/ ٦٨). باب هل يقضي الحاكم أو يفتي وهو غضبان: (١٣)، برقم: (٧١٥٩)، ص:١٥٠٧.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤). باب أمر الأئمّة بتخفيف الصّلاة في تمام: (٣٧)، برقم: (٤٦٦)، ١/ ٣٤٠.

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب من لم يواجه النّاس بالعتاب: (٧٢)، برقم: (٦١٠١)، ص:١٣٠٦. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١). باب ما يكره من التّعمّق والتّنازع في العلم والغلو في الدّين والبدع: (٥/٦)، برقم: (٧٣٠١)، ص:١٥٣٤.
صحيح مسلم، بلفظه وبلفظ مقارب في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدّة خشيته: (٣٥)، برقم: (٢٣٥٦)، ٤/ ١٨٢٩.
قال أبو العبّاس القرطبي ﵀: «ويستفاد من هذا الحديث النّهي عن التّنطّع في الدّين، وعن الأخذ بالتّشديد في جميع الأمور. فإنّ دين الله يسر وهو الحنيفيّة السّمحة، فإنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه». المفهم: ٦/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

الدّاخل في الطّاعة أو المريد للدّخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التّزايد منها، ومتى عسّرت عليه أوشك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم، أو لا يستحليها»[1].

والدّاعية المتعنّت المتزمّت تنفر منه طباع النّاس، وتستثقله نفوسهم، فيستوحشون منه، ويفرّون عنه، فيتطرّق إليه اليأس، وينتابه الكلل، ويجرفه الملل؛ بما يرى من خلو حصيلته من المكاسب، وتبعثر جهده في غير طائل، فتخمد روح الدّعوة في نفسه، وينتابه الخمول والكسل فينقطع عن الأداء، ويتوقّف عن العطاء، فيغيب عنه الثّبات، ويفارقه الصبر.

المطلب الثّالث

الحلم

الحِلْمُ: الأناة، وقيل هو: الأناة والعقل، وهو نقيض السّفه، وجمعه أحلام وحُلُوم[2]. يقال: حَلُمْ فلان عن فلان إذا لم يقابله على إساءته ولم يجازه عليها.

والله ﷻ حليم عن عباده، لأنّه يعفو عن كثير من سيئاتهم، ويمهلهم بعد المعصية، ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام، ويقبل توبتهم بعد ذلك[3].

وفي الاصطلاح:

قال الجرجاني رحمه الله:

«هو الطّمأنينة عند سَورة الغضب. وقيل: تأخير مكافأة الظّالم»[4].

وقال الرّاغب رحمه الله:

«الحلم ضبط النّفس والطّبع عند هيجان الغضب»[5].

---

(١) شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ٤١. (٢) وانظر: الصّحاح: ٥/ ١٩٠٣.

(٣) وانظر: تفسير أسماء الله الحسنى، إملاء أبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجّاج، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، طبع: مطبعة محمّد هاشم الكتبي، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، ص: ٤٥. نضرة النّعيم: ٥/ ١٧٣٦.

(٤) التّعريفات، ص: ١٢٥.

(٥) المفردات، ص: ١٢٩.

=

وهو على ضربين:

أحدهما: ما رد على الخلق من قضاء الله، من المصائب الّتي امتحن الله بها عباده، فيصبر العاقل تحت ورودها، ويحلُم عن الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل.

والآخر: ما يرد على النّفس بضدّ ما تشتهيه من المخلوقين.

فمن تعوّد الحلم فليس بمحتاج إلى التّصبّر، لاستواء العدم والوجود عنده[1].

فالحلم في الإنسان دلالة على كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوّة الغضب وخضوعها للعقل[2].

ولذا مدح الله أنبياءه به فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ[3] مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥]. ومدح ابنه إسماعيل عليه السلام كذلك فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١].

وأمر رسوله ﷺ أن يتحلّى به فقال له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أي خذ العفو من أخلاق النّاس وما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم، وتجاوز عن تقصيرهم في حقّك، وأمُرْهم بالقول الحسن، والفعل الجميل، والخلق الكامل، ولا تقابل أهل الجهل بجهلهم، ولا تكافئ أهل السّفه بمثل سفههم، بل أعرض عنهم واحلم عليهم[4].

= قال أبو حاتم رحمه الله: «فالحلم يشتمل على المعرفة والصّبر والأناة والتّثبّت، ولم يقرن شيء إلى شيء أحسن من عفو إلى مقدرة، والحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام، روضة العقلاء، ص: ٣٤٥.

(١) المرجع السّابق، ص: ٣٥١.

(٢) انظر: إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ٩/ ٤٣٣.

(٣) الأوّاه: الّذي يكثر التّأوّه وهو أن يقول: أوه، وكلّ كلام يدلّ على حزن يقال له التّأوّه، ويعبر بالأوّاه من يظهر خشية الله تعالى، وقيل في قوله تعالى: ﴿أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ أي المؤمن الدّاعي، وأصله راجع إلى ما تقدّم، المفردات، ص: ٣٢.

(٤) هذه آية جمعت مكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها كما=

ولذا كان ﷺ في قمّة من الحلم حتّى قالت عائشة ﵂ عنه: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلّا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»(١).

أي كان يصبر على من جهل عليه ويحتمل جفاه، ويصفح عمّن آذاه في خاصّة نفسه، ولكن إذا انتهك حقّ من حقوق الله لا يعفو بل إن كان فيه حدّ أقامه(٢).

كما مدح سبحانه المؤمنين المتّصفين به فقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٤، ٥٥].

وقال في موطن الدّعوة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ

= قال جعفر الصّادق ﵀، وهي متضمّنة لقواعد الشّريعة في المأمورات والمنهيات، وللوقوف على معناه بتوسّع وما ذكرته عنها. انظر: جامع البيان: ٩/ ١٥٤ ـ ١٥٦. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨١٢ ـ ٨١٥. التّفسير الكبير: ١٥/ ٩٥ ـ ٩٧. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٤٤ ـ ٣٤٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١. الجواهر الحسان: ٢/ ٧٠ ـ ٧١. روح المعاني: ٩/ ١٤٦ ـ ١٤٧. فتح البيان: ٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩. محاسن التّأويل: ٧/ ٢٩٢٩ ـ ٢٩٣٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٧٦.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧). باب صفة النّبي ﷺ: (٢٣)، برقم: (٣٥٦٠)، ص: ٧٥١، وبلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب قول النبي ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»: (٨٠)، برقم: (٦١٢٦)، ص: ١٣١٠، وفي كتاب الحدود: (٨٦/ ٦٠). باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله: (١٠)، برقم: (٦٧٨٦)، ص: ١٤٣٤، وفي كتاب الحدود (المحاربين): (٨٦/ ٦١). باب كم التّعزير والأدب: (٤٢/ ٢٩)، برقم: (٦٨٥٣)، ص: ١٤٤٦.
صحيح مسلم، بلفظ في: كتاب الفضائل: (٤٣)، مباعدته ﷺ للآثام: (٢٠)، برقم: (٢٣٢٧)، ٤/ ١٨١٣.

(٢) المفهم: ٦/ ١١٨ ـ ١١٩، بتصرّف.

﴿أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فمتى ما حلّ الحنق بقلوب المتّصفين بالحلم على مسيء لهم كظموه، ينتقموْا منه بقول أو فعل، وزادوا على ذلك بمقابلة إساءته بالعفو عنه، والمسامحة له، وعدم مؤاخذته، وسعوا في الإحسان إليه بإيصال النّفع له ودفع الشّرّ عنه، والمسالمة له، لأنّهم يكرمون أنفسهم وينزّهونها عن مواطن السّوء، ومقابلة الجاهل بجهله، والمسيء بإساءته، واللّئيم بلؤمه، والسّفيه بسفهه. لعلمهم أنّ الحسنة لا تساوي السّيّئة لما بينهما من الفرق الشّاسع والبون الكبير. وأن مقابلة المسيء بفعله لا تفيد شيئاً، بل تزيد الشّحناء، وتورث البغضاء، وتكثر العداء. وقصدهم الّذي يسعون إليه إرضاء الله، ونيل مثوبته.

فكانت العاقبة أن انقلب شرّ ذلك المسيء خيراً، وبغضه محبّة، وإساءته إحساناً، وعداوته صداقة. وهذا أثر الحلم على النّفوس.

ومن الأحاديث قوله ﷺ لأشج عبد القيس[(١)]: «إنّ فيك لخصلتين يحبّهما الله: الحلم والأناة»[(٢)].

فالحليم محبوب عند الله، محبوب عند النّاس.

قال لقمان رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ثلاثة لا يعرفون إلّا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلّا عند الغضب، ولا الشّجاع إلّا عند الحرب، ولا الأخ إلّا عند الحاجة إليه»[(٣)].

وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«إنّ أوّل ما عوّض الحليم من حلمه أنّ النّاس كلّهم أعوانه على الجاهل»[(٤)].

---

(١) اسمه: المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث العصري ـ بمهملتين مفتوحتين ـ أشجّ عبد القيس الصّحابي. انظر: تقريب التّهذيب: ١/٥٤٦.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله ﷺ وشرائع الدّين: (٦)، برقم: (١٧)، عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلّا إنّه قال: «(خصلتين)»، وبرقم: (١٨)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ١/٤٨ ـ ٤٩.

(٣) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ٩/٤٤٧.

(٤) المرجع السّابق: ٩/ ٤٤٤.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اطلبوا العلم وزيّنوه بالوقار والحلم»[١].

وعن عليّ بن الحسين بن عليّ[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه سبّه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم. فقال بعضهم: «جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرّجل ممّا يبعده من الله عَزَّ وَجَلَّ، وحمله على النّدم والتّوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذّم. اشترى جميع ذلك بشيء من الدّنيا يسير»[٣]. وهذا موقف فريد في الحلم.

قال أبو حاتم بن حبّان رَحِمَهُ اللَّهُ:

«العاقل يلزم الحلم عن النّاس كافّة، فإن صعب ذلك عليه، فليتحالم لأنّه يرتقي به إلى درجة الحلم.

وأوّل الحلم المعرفة، ثمّ التّثبّت، ثمّ العزم، ثمّ التّصبّر، ثمّ الرّضا، ثمّ الصّمت والإغضاء، وما الفضل إلّا للمحسن إلى المسيء، فأمّا من أحسن إلى المحسن، وحَلُم عمّن لم يؤذه، فليس ذلك بحلم ولا إحسان»[٤].

وقال: «ما ضمّ شيء إلى شيء هو أحسن من حلم إلى علم، وما عدم شيء في شيء هو أقبح من عدم الحلم في العالم، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل والآخر الصّبر»[٥].

---

(١) المرجع نفسه: ٩/ ٤٤٣.

(٢) عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي، أبو الحسين، ويقال أبو الحسن، زين العابدين، التّابعي الجليل، ثقة ثبت، فقيه عابد، فاضل مشهور، قال عنه الزّهري: «ما رأيت قرشيّاً أفضل منه»، توفي سنة ٩٢هـ، وقيل: بعدها.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٢١١. معرفة الثّقات: ٢/ ١٥٣. الجرح والتّعديل: ٦/ ١٧٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٣. التّعديل والتّجريح: ٣/ ٩٥٦. تهذيب الكمال: ٢٠/ ٣٨٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٧٤.
الكاشف: ٢/ ٣٧. تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٦٨. تقريب التهذيب: ١/ ٤٠٠. إسعاف، ص: ٢١.

(٣) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ٩/ ٤٤٥.

(٤) روضة العقلاء، ص: ٣٤٧.

(٥) المرجع السّابق، ص: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وفي الصّفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطّمأنينة والسّكينة، وشرف النّفس، وعزّها ورفعتها عن تشفّيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام»[1].

وأقوال أهل العلم في الحلم كثيرة جدّاً، وذلك لمكانته، وشدّة الحاجة إليه، وعظم شأنه، وبالغ نفعه.

والدّاعية إلى الله أحوج النّاس إليه، وأكثرهم ضرورة للتّحلي به كي يجذب القلوب إليه، ويحبّب النّاس فيه، ويكسب بذلك ثقتهم، ويؤثّر في نفوسهم[2].

وهو يقابل فئات مختلفة ومشارب متعدّدة من المدعوّين، منهم المهذّب الأديب، ومنهم الشّرس العنيد، ومنهم السّفيه الطّائش، وقد يجد من بعضهم ما يكدّر الصّفو، ويجلب الغضب، ويدعو إلى الانتقام، والرّد بالمثل، فإن لم يكن مفعماً بخلق الحلم، كاظماً لغيظه، متّسماً بالعفو، متجلّداً بالصّبر، عرّض نفسه للذّل والهوان، ودعوته للطّعن والإساءة والاهتزاز، وقد يكون ذلك سبباً للنّفرة عنه وعن دعوته، فيفسد عند الإصلاح، ويعوّج عند الاستقامة، ويفشل عند النّجاح، فيكون عدم حلمه سبباً في عدم ثباته، وضياع جهده، وتبدّد سعيه.

قال الإمام الشّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا نطق السّفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السّكوت

فإن كلّمته فرّجت عنه ... وإن تاركته كمداً يموت[3]

وفي ذلك:

إذا أنا كافيت الجهول بفعله ... فهل أنا إلّا مثله إذ أحاوره

ولكن إذا ما طاش بالجهل طائش ... عليّ فإنّي بالتّحلُّم قاهره[4]

---

(١) مدارج السّالكين: ٢/٣١٩.

(٢) وانظر: أخلاق الدّاعية، ص:٢٦، ٣٠.

(٣) روضة العقلاء، ص:٣٤٩، هامش (٣). ولم أقف عليهما في ديوان الشّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المطبوع.

(٤) المرجع السّابق، ص:٣٤٧. ونسبهما للكريزي.

المطلب الرّابع

التّواضع

التّواضع مصدر تواضع، أي: تذلّل وتخاشع. وهو من وضع الشّيء إذا حطّه[1].

وحقيقته خضوع العبد لصولة الحقّ، وانقياده لها، فلا يقابلها بصولته عليها[2].

وقيل هو: إظهار التّنزّل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، أو تعظيم من فوقه لفضله[3].

وهو ثلاث درجات:

الأولى: أن يتواضع العبدُ للدّين فلا يعارضه بعقل أو قياس أو ذوق أو سياسة، ولا يتّهم دليلاً من أدلّته بحيث يظنّه فاسداً أو ناقصاً أو قاصراً، ولا يخالفه بقول أو فعل.

الثّانية: أن يرضى بأخوّة المسلم فلا يترفّع عليه، ويقبل الحقّ ممّن أبغض وأحبّ فلا يردّه، ويقبل عذر من أساء إليه.

الثّالثة: أن يتواضع للحقّ فيعبد الله بما أمره به لا بما رآه أو اعتاده، وأن لا يرى لنفسه حقّاً على الله لأجل عمله[4].

---

(١) وانظر: القاموس المحيط، ص:٩٩٦ ـ ٩٩٧.

(٢) مدارج السّالكين: ٢/ ٣٣٣.

(٣) انظر: فتح الباري: ١١/ ٣٤١، طبعة: دار المعرفة. نضرة النّعيم: ٤/ ١٢٥٥.
قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله:
«التّواضع نقيض التّكبّر، والتّكبّر: هو التّرفّع على الغير. فالتّواضع: هو الانخفاض للغير، وحاصله أنّ المتكبّر يرى لنفسه مزيّة على الغير تحمله على احتقاره. والمتواضع لا يرى لنفسه مزيّة، بل يراها لغيره بحيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقّه والتّواضع... منه: أعلى وأدنى. والأعلى: هو التّواضع لله تعالى. ولكتابه، ولرسوله. والأدنى: هو ما عداه». المفهم: ٧/ ١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) انظر: مدارج السالكين: ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨.

وقد دعا القرآن الكريم إلى خُلق التّواضع، وأمر به سيّد المرسلين.

فقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشّعراء: ٢١٥].

أي ألن جانبك إليهم، وتلطّف في خطابهم، وتودّد وتحبّب إليهم، وحَسِّن خلقك معهم، ولا تترفّع عليهم، وتذلّل لهم. وقد فعل ﷺ[١] ذلك كلّه وما هو أكثر في هذا المقام.

كما دعا القرآنُ عبادَ الله المؤمنين أن يتخلّقوا به، فقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي يمشون بسكينة ووقار من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر[٢].

قال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار والسّكينة، والتّواضع لله ولعباده»[٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«هذه صفات المؤمنين الكمّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزّزاً على خصمه وعدوّه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]»[٤].

---

(١) وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٥٤٨. وانظر: مدارج السّالكين: ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩. فقد ساق فيه ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نماذج مشرقة من تواضعه ﷺ.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥١٨. وانظر: مدارج السّالكين: ٢/ ٣٢٧.

(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١١١. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٢٠. تسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٩٨. في ظلال القرآن: ٢/ ٩١٩.

فهم ذليلون لإخوانهم المؤمنين ذلّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات وتواضع ولين وانقياد وليس بذلّ هوان وضعف. وهم أعزّة على الكفار عزّ قوّة ومنعة وغلبة، وليس بعزّ ذات واستعلاء نفس[1].

كما حَذَّرَ القرآنُ ممّا يناقض خُلُقَ التّواضع ويخلّ به. قال ﷻ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ[2] خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

أي لا تمش متكبّراً متغطرساً متجبّراً مفتخراً بنفسك معجباً بها، متعالٍ على النّاس، متعاظماً عليهم، فإنّك عندئذ تكون محتقراً عند الله وعند النّاس، مبغضاً ممقوتاً لديه ولديهم، مبعداً منه ومنهم. بل امش متواضعاً، متذلّلاً لربّك، مخبتاً[3] مستكيناً، فإنّه يحبّك الله ويحبّك النّاس[4].

وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال ﷺ: «وإنّ الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتّى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله»[6].

فقوله: «وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله» فيه وجهان:

---

(١) وانظر: مدارج السّالكين: ٢/٣٢٧.

(٢) الصّعَر: ميل في العنق. والتّصْعير: إمالته عن النّظر كِبْراً. المفردات: ، ص:٢٨١.

(٣) المُخْبِت: هو المطمئن المتواضع الخاشع لله. انظر: لسان العرب: ٢/٢٧.

(٤) وانظر في معنى الآيتين: تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٦ ـ ٦٧، ٧١٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤٠٩، ٥٩٧.

(٥) صحيح مسلم، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب الصّفات الّتي يعرف بها في الدّنيا أهل الجنّة وأهل النّار: (١٦)، برقم: (٢٨٦٥)، ٤/٢١٩٩.

(٦) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب استحباب العفو والتّواضع: (١٩)، برقم: (٢٥٨٨)، ٤/٢٠٠١.

أحدهما: يرفعه في الدّنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند النّاس ويجلّ مكانه.

والثّاني: أنّ المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدّنيا(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تُسَمَّى العَضْباء، وكانت لا تُسْبق، فجاء أعرابيٌّ على قعود له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِقَتِ العضباء. فقال رسول الله ﷺ: «إنّ حقّاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدّنيا إلّا وضعه»(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«فيه إشارة إلى الحثّ على عدم التّرفّع، والحثّ على التّواضع، والإعلام بأنّ أمور الدّنيا ناقصة غير كاملة». وقال: «فيه أيضاً حُسن خلق النّبيّ ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابيّاً يسابقه»(٣).

ومن أقوال أهل العلم في التّواضع:

قال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه:

«وجدنا الكرمَ في التّقْوى، والغِنَى في اليقين، والشّرفَ في التّواضعِ»(٤).

---

(١) شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ١٤٢.
قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله في معرض بيان الحديث:
«التّواضع يقتضي متواضعاً له. فإن كان المتواضع له هو الله تعالى، أو من أمر الله بالتّواضع له كالرّسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم فهو التّواضع الواجب المحمود، الّذي يرفع الله تعالى به صاحبه في الدّنيا والآخرة. وأمّا التّواضع لسائر الخلق فالأصل فيه: أنّه محمود، ومندوب إليه، ومرغّب فيه إذا قصد به وجه الله. ومن كان كذلك رفع الله تعالى قدره في القلوب، وطيّب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة. وأمّا التّواضع لأهل الدّنيا، ولأهل الظّلم فذلك هو الذّلّ الّذي لا عزّ معه، والخسّة الّتي لا رفعة معها، بل يترتّب عليها ذلّ الآخرة، وكلّ صفقة خاسرة، نعوذ بالله من ذلك». المفهم: ٦/ ٥٧٥.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب التّواضع: (٣٨)، برقم: (٦٥٠١)، ص:١٣٨٢، وبلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب ناقة النّبي ﷺ: (٥٩)، برقم: (٧٨٧٢)، ص:٦٠٦.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٣٤١، طبعة: دار المعرفة.

(٤) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ١٠/ ٢٧٠.

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

«تعلّموا العلم، وتزيّنوا معه بالوقار والحلم، وتواضعوا لمن تتعلّمون منه ولمن تعلّمونه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فيذهب باطلكم حقّكم»(١).

وقال قتادة رحمه الله:

«من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثناءً أو علماً ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة»(٢).

وقال ابن عبد البر رحمه الله:

«ومن أفضل آداب العالم تواضعه، وترك الإعجاب بعلمه، ونبذ حبّ الرّئاسة عنه»(٣).

فهذه النّصوص وغيرها الكثير تبيّن حاجة المسلم إلى خُلق التّواضع لأنّه خُلق من أخلاق المؤمنين، يجلب محبّة ربّ العالمين وقربه، ويوصل إلى مرضاته وجنّته.

والدّاعية إلى الله أشدّ حاجة له من غيره، إذ النّفوس بطبعها تميل إلى من يتواضع وتلتفّ حوله، وتنفر عن من يغتر ويتكبّر.

فالدّاعية الّذي بسط وجهه للنّاس، وعايشهم في أفراحهم وأتراحهم، وجالسهم وخالطهم، وأكل ما يأكلون وشرب ما يشربون، ولم يترفّع عنهم في ملبس أو مركب، ولم يحتقرهم أو يستصغرهم أو يستطيل عليهم بقوله أو فعله، أو يكثر الحديث بتعدّد مآثره، ومدح نفسه، وذمّ غيره، فإنّه يكون قريباً من قلوبهم، محبوباً لنفوسهم، يسمعون عظاته، ويأخذون بنصائحه، ويتّبعون

---

(١) جامع بيان العلم، ص:٢٢٣، وقريباً منه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في شعب الإيمان: ٢/ ٢٨٧، وكتاب الزّهد لأبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشّيباني، تحقيق: عبد العلي عبد المجيد حامد، طبعة: دار الريان للتّراث، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٨هـ، ص:١٢٠، ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه، في الفردوس بمأثور الخطاب: ١/ ٧٩.

(٢) إحياء علوم الدّين، بهامشه إتحاف السّادة المتّقين: ١٠/ ٢٦٠.

(٣) جامع بيان العلم، ص:٢٢٣.

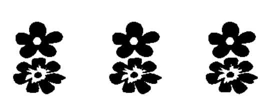
إرشاده، وينجذبون لكلامه، ويفتحون قلوبهم لدعوته، ويستيقنون صدقه وإخلاصه لأنّهم يعلمون حينئذ أنّه يُعَبِّدُهم لله لا لنفسه، ويدعوهم لربّهم لا لشخصه.

فتوفّق دعوته وتثمر، ويكثر نتاجه، ويزداد نفعها فيزداد نشاطه، وترتفع همّته فيكثر عطاؤه، ويستمر بذله، ويجد في خلق التّواضع ما يعينه على الصّبر والثّبات.

وبعد فإنّ الرّفق والتّيسير والحلم والتّواضع هي أهم الأخلاق الّتي ينبغي للدّاعية أن يتحلّى بها في نفسه، ويصطحبها في دعوته.

وإن كان هنالك كثير من الأخلاق الحسنة الّتي يحتاج لها الدّاعية كالصّدق، والكرم، والسّماحة، والرّحمة، والتّضحية، والجرأة، والشّجاعة، واليقظة، والحزم، والجديّة، والبشاشة، والتّفاؤل، والسّكينة، والوقار، والعفّة، وعلوّ الهمّة، وقوّة العزيمة، والقناعة، والنّزاهة، والورع، وعدم المداهنة، وعدم الكسل والخمول واليأس. وغيرها كثير، وكلّها معين على ثبات الدّاعية. ولكنّي خصصت أهمّها بالذّكر وأعظمها أثراً في الثّبات، خشية الإطالة، وتجنّباً للملل.

وفي التّنبيه على القليل ما يغني عن الكثير، وما لا يؤخذ كلّه لا يترك جله.





التّأنّي وعدم العجلة

التّأنّي: عدم العجلة في طلب شيء من الأشياء والتّمهّل في تحصيله والتّرفّق فيه[1]. والعجَلة: فعل الشّيء قبل وقته اللّائق به[2].

قال الرّاغب رَحِمَهُ اللهُ:

«العجلة طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن حتّى قيل: العجلة من الشّيطان»[3].

ولقد ذمّ الله سبحانه العجلة في مواضع كثيرة من كتابه، وعاب الإنسان لتخلقه بها.

فقال: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

فقد أخبر سبحانه عن عجلة الإنسان حيث يدعو في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشّرّ، أي بالموت أو الهلاك والدّمار واللّعنة، وهذا لفرط جهله، فيبادر بذلك كما يبادر بالدّعاء في الخير، فلو استجاب الله له لهلك بدعائه، ولكن الله يلطف به[4].

فهو مطبوع على العجلة حيث يسارع إلى كلّ ما يخطر بباله لا ينظر إلى عاقبته[5].

---

(١) نضرة النّعيم: ٣/ ٨٦٥.

(٢) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: ٥٠٤. وانظر: التّعريفات، ص: ٣٦.

(٣) المفردات، ص: ٣٢٣، وقوله: «حتى قيل: العجلة من الشيطان»، هذا لفظ حديث يأتي قريباً.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٠٦.

(٥) تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل للقاضي عبد الله بن=

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«ضجراً، لا صبر له على السّرّاء والضّرّاء»[1].

وقال سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ٣٧].

أي طبع الإنسان على العجلة، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرّة[2].

قال البيضاوي رحمه الله:

«كأنّه خلق منه لفرط استعجاله وقلّة ثباته كقولك: خلق زيد من الكرم، جعل ما طبع عليه منزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له... ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد»[3].

وقد نهى سبحانه رسوله ﷺ عن العجلة بإهلاك الكفّار والإسراع في عذابهم مع كفرهم وعداوتهم البالغة. فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٣ ـ ٨٤].

أي لا تعجل يا رسولنا على هؤلاء الكفّار بطلبك من الله إهلاكهم ووقوع العذاب بهم، وذلك بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحقّ، وتمرّدهم عن الاستجابة لدعوتك، فنحن نعدّ لهم الأيام واللّيالي والشّهور والسّنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم، كما نعدّ أنفاسهم وخطواتهم ولحظاتهم حتّى يأتي أجلهم، وهم لا محالة صائرون إلى عذاب الله ونكاله، فلم العجلة؟[4].

= عمر البيضاوي، طبعة: دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م: ٣/ ٤٣٤، بتصرّف. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٢٦. فتح القدير: ٣/ ٢١١.

(١) معالم التّنزيل: ٣/ ١٠٧. فتح القدير: ٣/ ٢١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٨٨.

(٣) أنوار التّنزيل: ٤/ ٩٣. وانظر: معالم التّنزيل: ٣/ ٢٤٤. فتح القدير: ٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٧٢.

(٤) انظر المعنى في: معالم التّنزيل: ٣/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩. الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ١٥٠. أنوار التّنزيل: ٤/ ٣٤. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٢٠. فتح القدير: ٣/ ٣٥٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٤٩.

كما أمره سبحانه أن يصبر ويثبت على دعوته كما ثبت إخوانه من الرّسل السّابقين له، ولا يتعجّل بهلاك الكفّار المعاندين له ليرتاح من العناء والمشقّة، بل عليه أن يكافح ويجاهد في تبليغ دعوة الله صابراً ثابتاً محتسباً، ليس بضجر ولا متضايق ولا متعجّل حتّى يؤدّي مهمّته الّتي كلّفه الله بها.

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال ابن جرير رحمه الله:

«يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ، مثبّته على المضي لما قلّده من عبء الرّسالة، وثقل أحمال النّبوّة ﷺ، وآمره بالائتساء في العزم على نفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الّذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشّدائد... وقوله: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ يقول: ولا تستعجل عليهم بالعذاب. يقول: لا تعجل بمسألتك ربّك ذلك لهم، فإنّ ذلك نازل بهم لا محالة»[1].

وقال الرّازي رحمه الله:

«اصبر كما صبر الرّسل من قبلك على أذى قومهم، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم»[2].

ولذلك أمر ﷺ أصحابه بالصّبر والثّبات على دعوة الله تعالى، وذكّرهم بأحوال السّابقين الّذين عانوا ما عانوا، ولاقوا ما لاقوا من شدائد ومحن، فثبتوا ولم يتعجّلوا، فكونوا أنتم مثلهم.

---

(١) جامع البيان: ٢٦/٣٧.

(٢) التّفسير الكبير: ٢٨/ ٣٥. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٢٠ ـ ٢٢١. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٦٣، ـ وذكر رحمه الله أنّ أهل العلم اختلفوا في تعداد أولي العزم والأشهر أنّهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلى الله عليهم جميعاً ـ. روح المعاني: ٢٦/ ٣٤ ـ ٣٥. فتح البيان: ١٣/ ٤١. محاسن التّأويل: ١٥/ ٥٣٦٩ ـ ٥٣٧٠. تيسير الكريم الرّحمن، ص: ٧٢٨ ـ ٧٢٩.

عن أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثمّ يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديث ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذّئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

وفي رواية: «وهو متوسّد بردة وقد لقينا من المشركين شدّة»[(١)].

وأخبرهم ﷺ بأنّ العجلة من الشّيطان لما يتبعه من الطّيش والخفّة والسّفه.

عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «التّأنّي من الله، والعجلة من الشّيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحبّ إلى الله من الحمد»[(٢)].

بل مدح أشجّ عبد القيس بالتّأنّي وعدم العجلة. فقال له في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إنّ فيك لخصلتين يحبّهما الله ورسوله: الحلمُ والأَنَاةُ»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه. انظر، ص: ٣٢٥.

(٢) سنن البيهقي، بنحو منه ولفظه: «التّأني من الله والعجلة من الشّيطان»، في باب التّثبّت في الحكم: ١٠/ ١٠٤. مسند أبي يعلى، بلفظه في: ٧/ ٢٤٨، برقم: (٤٢٥٦).
مسند الحارث بن أبي أسامة: بلفظه، إلّا إنّه قال: «الله ﷻ»: ٢/ ٨٢٨.
قال المنذري والهيثمي رحمهما: «رجاله رجال الصّحيح». التّرغيب والتّرهيب: ٢/ ٢٨٤. مجمع الزّوائد: ٨/ ١٩.
وله شاهد عند التّرمذي والطّبراني عن سهل بن سعد السّاعدي رضي الله عنه، ولفظه: قال: قال رسول الله ﷺ: «الأناة من الله والعجلة من الشّيطان». سنن التّرمذي، كتاب البر والصّلة: (٢٤)، باب ما جاء في التّأنّي والعجلة: (٦٦)، برقم: (٢٠١٢)، ص: ٣٣٥. معجم الطّبراني الكبير: ٦/ ١٢٢. وانظر: السّلسلة الصّحيحة: ٤/ ٤٠٤، برقم: (١٧٩٥).

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص: ٥٤٧.
روى أبو داود عن زارع رضي الله عنه، وكان في وفد عبد القيس، قال: لمّا قدمنا المدينة، =

وقد مدحه ﷺ بذلك لمّا ظهر له من تأنّيه وعدم عجلته[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال ﷺ: «التّؤدة[2] في كلّ شيء إلّا في عمل الآخرة»[3].

ومن الآثار وأقوال أهل العلم المحذّرة من العجلة وعدم التّأنّي:

= فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فَنُقَبِّل يَدَ النّبيّ ﷺ وَرِجْله. قال: وانتظر المنذر الأشج حتّى أتى عَيْبَتَهُ (جراب من أدم تجعل فيه الثّياب) فلبس ثوبيه، ثمّ أتى النّبيّ ﷺ فقال له: «إنّ فيك خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ الحلمُ والأناةُ»، قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما». قال: الحمد لله الّذي جبلني على خلّتين يحبّهما الله ورسوله». سنن أبي داود، كتاب الأدب: (٤٠)، باب في قبلة الرّجل، برقم: (٥٢٢٥). الشّطر الأوّل من الحديث إلى قوله: «فنقبّل يد النّبي ﷺ ورجله». قال عنه الشّيخ ناصر الألباني رحمه الله: «حسن دون ذكر الرّجل»، وقال عن باقي الحديث: «صحيح»، ص:٥٦١. والحديث عند ابن ماجه نحوه في، كتاب الزّهد: (٣٧)، باب الحلم: (١٨)، برقم: (٤١٨٧، ٤١٨٨)، ص:٤٥٢. وانظر روايات الحديث في مجمع الزّوائد: ٩/ ٣٨٧ ـ ٣٩٠، ففيها ما يدلّل على تأنّيه وعدم عجلته رضي الله عنه.

وانظر: المفهم: ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩. شرح النّووي على مسلم: ١/ ١٨٩.

(١) انظر: المفهم: ١/ ١٧٨.

(٢) التّؤدة: التّأنّي. يقال اتَّأَدَ في فعله وقوله، وتَوأَّد إذا تأنّى وَتَثَبَّت ولم يَعْجَل. واتئِدْ في أمْرك: أي تَثَبَّت، وأصل التّاء فيها واو. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٧٨.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الأدب: (٤٠)، باب في الرّفق: (١٠)، برقم: (٤٨١٠). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٥٢٤.

سنن البيهقي، بلفظه، وزاد: «في كلّ شيء خير»، في باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها: ١٠/ ١٩٤.

مستدرك الحاكم، مثل رواية البيهقي، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرطهما»: ١/ ١٣٢.

مسند أبي يعلى، بلفظ رواية الحاكم والبيهقي في: ٢/ ١٢٣، برقم: (٧٩٢). قال المحقّق: «رجاله ثقات»، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٤/ ٤٠٣، برقم: (١٧٩٤). وصحيح الجامع، برقم: (٣٠٠٩)، ١/ ٥٧٨. وذكره أبو عبد الله محمّد بن مفلح المقدسي في الآداب الشّرعية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيّام، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م: ٢/ ٢٢٩، وقال عن رجال إسناده: «كلّهم ثقات». وقال المحقّقان: «وإسناده صحيح».

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«إنّها ستكون أمور مشتبهات فعليكم بالتّؤدة، فإنّك أن تكون تابعاً في الخير خيراً من أن تكون رأساً في الشّرّ»[1].

خطب الحسن بن عليّ رضي الله عنه بالكوفة فقال: «إنّ الحلم زينة، والوقار مروءة، والعجلة سفه، والسّفه ضعف، ومجالسة أهل الدّناءة شين، ومخالطة الفسّاق ريبة»[2].

وعاب مالك رحمه الله العجلة وقال: «قرأ ابن عمر البقرة في ثمان سنين».

وقال: «العجلة نوع من الجهل والخرق»[3].

وقال أبو حاتم بن حبّان رحمه الله:

«الرّافق لا يكاد يُسبَق، كما أنّ العَجِل لا يكاد يَلْحق، وكما أنّ من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم، والعجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يُسأل، ويحمد قبل أن يُجرِّب، ويُذمُّ بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكّر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجل تصحبه النّدامة، وتعتزله السّلامة، وكانت العرب تكنّي العجلة أمّ النّدامات»[4].

وقال:

«العجلة تكون من الحِدّة، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لم يكن محموداً، وإن أخطأها كان مذموماً، والعجل لا يسير إلّا مناكباً للقصد، منحرفاً عن الجادّة، يلتمس ما هو أنكد وأوعر وأخفى مساراً، يحكم حكم الوَرْهاء[5]،

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/٣٢٨.
وأورده ابن أبي شيبة في مصنّفه بلفظ مقارب في: ٧/٤٥٦.

(٢) سير أعلام النّبلاء: ٣/٢٦٣.

(٣) الآداب الشّرعية: ٢/٢٣٩ ـ ٢٤٠. وانظر: العلل ومعرفة الرّجال للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشّيباني، تحقيق: د. وصي الله بن محمّد عبّاس، طبعة: المكتب الإسلامي، دار الخاني، بيروت، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: ٢/٧٢. شعب الإيمان: ٢/٣٣١.

(٤) روضة العقلاء، ص: ٣٥٥.

(٥) الوَرَهُ: الحُمْقُ في كلّ عمل، ويقال: الخُرقُ في العمل. والأَوْرَهُ: الّذي تُعْرِفُ وتنكر=

ويناسب أخلاق النّساء»[1].

فالعجلة مذمومة، محذّر منها، مرغّب عنها.

ولا يدخل في ذلك المسارعة إلى أداء الطّاعات، والمبادرة إلى فعل الخيرات، والمسابقة إلى عمل القربات، فذلك أمر محبوب ممدوح مرغّب فيه. لقوله سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].

فهذه من باب المبادرة الممدوحة لا العجلة المذمومة.

وقد فرّق بينهما الإمام ابن القيّم رحمه الله بقوله:

«الفرق بين المبادرة والعجلة: أنّ المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتّى إذا فاتت طلبها، فهو لا يطلب الأمور في إدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثّمرة وقت كمال نضجها وإدراكها.

... والعجلة طلب أخذ الشّيء قبل وقته، فهو لشدّة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثّمرة قبل أوان إدراكها، فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين: أحدهما التّفريط والإضاعة، والثّاني الاستعجال قبل الوقت. ولهذا كانت العجلة من الشّيطان، فإنّها خفّة وطيش وحدّة في العبد تمنعه من التّثبّت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعاً من

= وفيه حُمْقٌ ولكلامه مَخارِجُ، وقيل: هو الّذي لا يَتمالكُ حُمْقاً، وقد وَرِهَ وَرَهاً. وكَثِيبٌ أَوْرَهُ: لا يَتَمالكُ. وامرأة وَرْهَاءُ: خَرْقاءُ بالعمل. لسان العرب: ١٣/ ٥٦٠.

(١) روضة العقلاء، ص: ٣٥٦.

العجلة تحمل على عدم التّدبّر والتّأمّل وقلّة النّظر في العواقب فيقع الخطأ ومن ثم قيل: إنّما تكون الزّلة من العجلة. فيض القدير: ٦/ ٥٥.

الشّرور، وتمنعه أنواعاً من الخير، وهي قرين النّدامة، فقلّ من استعجل إلّا ندم، كما أنّ الكسل قرين الفوت والإضاعة»[1].

فالعجلة مذمومة فيما كان المطلوب فيه الأناة، محمودة فيم يطلب تعجيله من المسارعة إلى الخيرات ونحوها. وقد يقال لا منافاة بين الأناة والمسارعة فإن سارع بتؤدة وتأنٍّ تمّ له الأمران. والضّابط أنّ خيار الأمور أوسطها[2].

فإذا تبيّن لنا أمر العجلة فعلى الدّاعية إلى الله أن يتّسم بالتّأني والتّؤدة في جميع مراحل دعوته، ويتجنّب التّهور والاستعجال حتّى لا يسقط في منتصف الطّريق بل في مبدئه.

والدّاعية عليه أن يقوم بواجب دعوته على أكمل وجه، ويبذل غاية جهده في إبلاغ دين الله إلى النّاس، ولا يربط ذلك بنتائج عاجلة، ويجعلها شرطاً في مواصلة سيره في الدّعوة. وهذا سوء فهم ينشأ عند المتعجّلين والقاصرين عن حقيقة الدّعوة.

فالدّعاة لا يملكون هداية التّوفيق للنّاس، وإن كانوا يملكون هداية الإرشاد لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشّورى: ٥٢]. فهذه هداية تعليم وتوجيه، وأمّا الأولى الّتي هي هداية الإلهام والتّوفيق فهي بيد الخالق سبحانه، لقوله لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦].

فمتى ما قرن الدّاعية دعوته بتحقّق النّتائج العاجلة واستجابة النّاس له، ولم يحصل له ذلك انقطع به السّير. وهذا من العجلة.

وعليه أن يعلم أنّ تحقّق النتائج واستجابة النّاس فضل من الله يؤتيه من يشاء، وإن لم يحصل ذلك فلا يضر الدّاعية شيئاً، وقد استحقّ الأجر بمجرّد دعوته، ووبال المعصية على صاحبها.

---

(١) الرّوح، ص: ٢٥٨.

(٢) سبل السّلام، للأمير محمّد بن إسماعيل الصّنعاني، تحقيق: محمّد عبد العزيز الخولي، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٣٧٩هـ: ٤/ ٢٠١، بتصرّف يسير.

وقد يدفع الحماس الزّائد والعاطفة وحبّ الدّعوة بعض النّاس إلى مباشرة الدّعوة ومزاولتها، وهم قليلو العلم الشّرعي، كثيرو الجهل بطرق الدّعوة وأساليبها، مع نقص في الحكمة، وقصور في التّجربة، يتبع ذلك طيش وتهوّر.

فهؤلاء يهدمون أكثر ممّا يبنون، ويفسدون أكثر ممّا يصلحون، ويبدّدون أعظم ممّا يجمعون، ويوقعون النّاس في طامّات وبلايا. وينقطع بهم السّير ويفارقهم الثّبات. وقد أساءوا ولم يحسنوا.

من أولئك شباب دفعه التزامه وحبّه إلى الخير إلى قراءة وريقات من كتب العلم ـ مع تركيزه على قضايا الخلاف فيها ـ ثمّ بلغ به حماسه أن ينصّب نفسه داعية من دعاة الإسلام، وعالماً من علمائه الّذين يشار لهم بالبنان ـ وخاصّة إذا وجد من بين الأحداث من يلتفّ حوله ويمجّده ـ فيأمر حينئذ وينهى، ويفتي ويعقّب، ويعدّل ويجرّح، وينتقد ويصحّح، ويكثر كلامه ويكثر خطؤه لاندفاعه وتهوّره، وقد يؤدّي به الأمر إلى مخاطر لا تحمد، ومزالق لا تمدح، ولعلّه ينحرف عن السّير بعد أن يحرف الكثيرين.

فهذا عليه أن يتأنّى أولاً إلى حين اكتمال فقهه ووعيه، لقول عمر رضي الله عنه له ولأمثاله: «تفقّهوا قبل أن تسودوا»[1].

ويتأنّى ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته.

ويتأنّى ثالثاً في إبلاغ دعوته إلى النّاس، وتخيّر حسن الأسلوب وطريقة الأداء.

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣)، باب الاغتباط في العلم والحكمة: (١٥)، ص: ٣٣.
ولا يعني التّفقه المطلوب أن ينتظر المسلم حتّى يبلغ منزلة علياء في العلم فيصبح من أصحاب الإفتاء وأرباب الاجتهاد حتّى يبلّغ دعوة الله. بل المراد أن ينال المسلم إضافة إلى حصيلته من النّصوص الشّرعيّة ولوازمها ملكة شعوريّة وفكريّة لفقه الدّعوة، وبصيرة تحكم خطواتها وتثبّتها على الجادّة، وقد قال ﷺ: «بلغوا عنّي ولو آية». صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠)، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥١/٥٠)، برقم: (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، ص: ٧٣٣. وانظر: عقبات في طريق الدّعوة، ص: ٨٩ ـ ٩٠.

ويتأنّى رابعاً في البدء بالأهمّ فالأهمّ، ولا يشغل النّاس بقضايا جزئيّة، وبعضها انصرافيّة، وهم محتاجون إلى أصول العلم ومبادئه. وعليه البدء بصغار العلم قبل كباره.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الله يحبّ من عنده العلم والأناة، فلا يعجل بل يثبت حتّى يعلم ويستيقن ما ورد عليه، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه، فالعجلة والطّيش من الشّيطان، فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش، وعاقبته النّدامة، وعاقبة الأوّل حمد أمره. ولكن للأوّل آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت، فإنّه لا يخاف من التّثبيت إلّا الفوت، فإذا اقترن به العزم والحزم تمّ أمره. ولهذا في الدّعاء الّذي رواه الإمام أحمد والنّسائي عن النّبيّ ﷺ: «اللّهم إنّي أسألك الثّبات في الأمر، والعزيمة على الرّشد»[(١)].

وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أتي العبد إلّا من تضييعهما أو تضييع أحدهما. فما أتي أحد إلّا من باب العجلة والطّيش، واستفزاز البداءات له، أو من باب التّهاون والتّماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها، فإذا حصل الثّبات أوّلاً والعزيمة ثانياً أفلح كلّ الفلاح والله ولي التّوفيق»[(٢)].

فالعجلة كاسمها سرعان ما يقطف صاحبها من الدّعاة نتاجها، فينجرف عن إكمال دعوته، وأداء مهمته، فيسقط، ويُسقط غيره، ويفارقه الثّبات.

---

(١) هذا جزء من حديث في:
سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٢٣)، برقم: (٣٤٠٧). عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه. قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضعيف»، ص:٥٣٩.
سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب السّهو: (١٣)، باب نوع آخر من الدّعاء: (٦١)، برقم: (١٣٠٤). قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضعيف»، ص: ١٥٤.
مسند أحمد، بلفظه في: ٤/ ١٢٣، وبلفظ مقارب في: ٤/ ١٢٥.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر جواز دعاء المرء في صلاته بما ليس في كتاب الله جلّ وعلا، برقم: (١٩٧٤. قال شعيب الأرناؤوط: «رجاله ثقات إلّا إنّه منقطع»: ٥/ ٣١٠.
(٢) مفتاح دار السّعادة: ١/ ١٤٢.



البدء بالتّوحيد

التّوحيد هو: علم العبد واعترافه واعتقاده وإيمانه بتفرّد الرّب بكلّ صفة كمال وتوحيده في ذلك. واعتقاده أنّه لا شريك له في كماله، وأنّه ذو الألوهيّة والعبوديّة على خلقه أجمعين[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ التّوحيد الّذي بُعثت به الرّسل أن يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له، فيعبد الله دون ما سواه، وعبادته تجمع كمال محبّته وكمال الذّل له»[2].

---

(١) الكواشف الجليّة عن معاني الواسطيّة، ص: ٤١٧. وانظر: التّعريفات، ص: ٩٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ٨/ ٣٥٢.

والتّوحيد قسمان:

الأوّل: التّوحيد القولي العلمي الخبري الاعتقادي، الّذي يسمّى توحيد المعرفة والإثبات، وهو نوعان:

أ ـ توحيد الرّبوبيّة: وهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتّدبير. فيقرّ العبد ويعتقد أنّ الله ربّ كلّ شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنّه المحيي المميت المدبّر النّافع الضّار، الّذي ربّى جميع خلقه بأصناف النّعم، وربّى خواص خلقه بالعقيدة الصّحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النّافعة، والأعمال الصّالحة. وهذا التّوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام لأنّ المشركين الّذين قاتلهم رسول الله ﷺ واستحلّ دماءهم وأموالهم كانوا مقرّين به كما حكى الله ذلك عنهم في آيات كثر، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٢].

ب ـ توحيد الأسماء والصّفات: وهو إفراد الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. فيعتقد العبد أنّ الله متفرّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وأنّه مباين لخلقه، ومنزّه=

والأدلّة على ذلك كثيرة جداً، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النّحل: ٥١].

وقوله ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

= عن النّقائص والعيوب. فيثبت ما أثبته سبحانه لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ بلا تمثيل، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ بلا تعطيل. قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الثّاني: التّوحيد القصدي الإرادي العملي الطّلبي: وهو توحيد الألوهيّة المتضمّن لتوحيد العبادة، وهو الاعتراف والإقرار بأنّ الله سبحانه ذو الألوهيّة والعبوديّة على خلقه أجمعين، وإفراده بالعبادة كلّها، وإخلاص الدّين له، وينبني على تجريد القصد له سبحانه والمحبّة والتّعظيم. فيصرف العبد جميع عباداته لله وحده كالخوف والرّجاء والتّوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والدّعاء والنّذر والذّبح، ولا يجعل فيها شيئاً لغيره سبحانه، لا لملك مقرّب، ولا لنبيّ مرسل، ولا لعبد صالح فضلاً عن غيرهم. لقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣].

وهذا النّوع هو الّذي وقع فيه النّزاع في القديم والحديث، وعارض فيه الرّسل أقوامُهم، وهو معنى قول لا إله إلّا الله.

وانظر في بيان أنواع التّوحيد: الصّواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة، لابن القيّم، تحقيق: د. علي بن محمّد الدّخيل الله، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، دار العاصمة، الرّياض: ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٣. بدائع الفوائد: ١/ ١٤٦. مدارج السّالكين: ١/ ٢٤ ـ ٢٥. شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٧٦ ـ ٨٩، ٨٨، طبعة: المكتب الإسلامي. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التّوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمّد بن عبد الوهاب، طبعة: مكتبة الرّياض الحديثة، الرّياض، ص:١٧ ـ ٢٠. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيّم، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشّاويش، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٦هـ: ٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠. الكواشف الجليّة، ص:٤١٧ ـ ٤١٨.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وقد افتتح رسل الله عليهم السّلام جميعاً دعواتهم بالتّوحيد فلم يشذّ رسول منهم في بدء دعوته به.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩][(١)].

وقال عن هود عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥][(٢)].

وعن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣][(٣)].

وعن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥][(٤)].

وهكذا عن جميع الرّسل عليهم السلام فلم يبدأ رسول دعوته بغير التّوحيد. ولذا عمّم الله ذلك عنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وإمامهم وقدوتهم الّذي كان أكمل النّاس توحيداً صلوات الله وتسليماته عليه سارٍ على نهج سلفه من الأنبياء عليهم السلام في بدء دعوته بالتّوحيد، وهو الّذي أُمر بالاقتداء بهم في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠][(٥)]، فأي

---

(١) وانظر: المؤمنون: ٢٣.
(٢) وانظر: هود: ٥٠.
(٣) وانظر: هود: ٦١.
(٤) وانظر: هود: ٨٤
(٥) يقول شيخنا الدّكتور ربيع بن هادي حفظه الله: «تلك هي دعوة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم أولو العزم منهم، الأنبياء الّذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين ألفاً ومائة ألف يسيرون في دعوتهم في منهج واحد، وينطلقون من منطلق واحد، هو التّوحيد. أعظم=

اقتداء أعظم من أن ينهج نهجهم في بدء دعوته به[1].

ففي حديث أبي سفيان عندما سأله هرقل عن ما يقوله النّبي ﷺ لهم؟ قال: يقول: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم..» الحديث[2].

وفي حديث أمّ سلمة ﵂ في الهجرة إلى الحبشة عندما سألهم النّجاشي عن دعوة النّبيّ ﷺ أجابه جعفر بن أبي طالب ﵁ بقوله: «دعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان...». الأثر[3]. وكان ذلك في مبدأ دعوته.

وقد ظلّ ﷺ يدعو إلى ذلك في مكّة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يأمر بصلاة أو زكاة أو صوم أو حجّ، كما كان ينهى عن الشّرك قبل أن ينهى عن ربا أو زنا أو سرقة أو قتل نفس بغير حقّ[4].

وصبر على ذلك صبراً عظيماً متحمّل الإيذاء والبلاء فيه، لا ينحرف عنه يَمنة ولا يسرة، وقد ضجّ المشركون من ذلك وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وبذلوا كلّ ما يستطيعون لإسكاته عن دعوته إليه وما يتبع ذلك من عيب آلهتهم وبيان بطلانها. ولكنّه ظلّ ثابتاً على الدّعوة إلى التّوحيد لا يلوي عنه، بل ارتبطت دعوته كلّها به.

قال الطّبري ﵀ **في بيان قوله تعالى:** ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، **قال:**

= القضايا والمبادئ الّتي حملوها إلى الإنسانية جميعاً في جميع أجيالهم ومختلف بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم، ممّا يدلّ أنّ هذا هو الطّريق الوحيد الّذي يجب أن يسلك في دعوة النّاس إلى الله، وسنّة من سننه الّتي رسمها لأنبيائه وأتباعهم الصّادقين، لا يجوز تبديلها ولا العدول عنها». منهج الأنبياء في الدّعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل، للدّكتور ربيع بن هادي، طبعة: الدّار السّلفيّة، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص: ٢٦ - ٢٧.

(١) انظر: مدارج السّالكين: ٣/٤٤٨.

(٢) سبق تخريجه. انظر، ص: ٤٠١.

(٣) سبق تخريجه. انظر، ص: ٢٥٧.

(٤) انظر: منهج الأنبياء في الدّعوة إلى الله، ص: ٥.

«يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدّعوة الّتي أدعو إليها، والطّريقة الّتي أنا عليها من الدّعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته، وترك معصيته ﴿سَبِيلِيٓ﴾ وطريقتي ودعوتي ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له»[1].

بل القرآن الّذي أنزل عليه ﷺ كان كلّه دعوة إلى التّوحيد ونهياً عمّا يناقضه.

فإنّ القرآن إمّا إخبار عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التّوحيد العلمي الخبري، وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التّوحيد الإرادي الطّلبي، وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التّوحيد ومكمّلاته، وإمّا خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وإمّا خبر عن أهل الشّرك وما فعل بهم في الدّنيا من النّكال، وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التّوحيد.

فالقرآن كلّه في التّوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشّرك وأهله وجزائهم[2].

ولذلك ما برح ﷺ قائماً به يدافع عنه ويكافح، لا يكفّ عن إبلاغه وبيانه للنّاس، بل قد جرّد السّيف في الدّفاع والذّبّ عنه كما قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «بعثت بين يدي السّاعة بالسّيف حتّى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي، وجُعل الذّلُّ والصّغار[3] على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم»[4].

---

(١) جامع البيان: ١٣/ ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٨٨ ـ ٨٩، طبعة: المكتب الإسلامي. وانظر: تيسير العزيز الحميد، ص:٢٣. شرح قصيدة ابن القيّم: ٢/ ٢٦٠.

(٣) الصّغار: هو الذّل والهَوان. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٢.

(٤) مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «الذّلّة» ـ في: ٢/ ٥٠، وبلفظه في: ٢/ ٩٢، وبلفظ مقارب في: ٢/ ٥٠. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٧/ ١٢١، ١٢٢. ٨/ ٤٤، برقم: (٥١١٤، ٥١١٥، ٥٦٦٧).

وأباح عليه الصّلاة والسّلام دماء ونفوس وأموال من لم يقبل دعوة التّوحيد ولم يستجب لها، فقال: «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا: لا إله إلّا الله، فمن قال: لا إله إلّا الله، عصم منّي ماله ونفسه إلّا بحقّه، وحسابه على الله»[(١)].

والنّاس هنا عامّ مخصوص وهم المشركون الّذين يقفون في طريق الدّعوة.

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد عُلم بالاضطرار من دين الرّسول ﷺ واتّفقت عليه الأمّة أن أصل الإسلام وأوّل ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدوّ وليّاً، والمباح دمه وماله معصوم الدّم والمال، ثمّ إنّ كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، وفيه البداءة في الدّعوة والتّعليم بالأهمّ فالأهمّ»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣)، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الرّدّة: (٣)، برقم: (٦٩٢٤)، ص:١٤٦١، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (٢/ ٣)، برقم: (٧٢٨٤، ٧٢٨٥)، ص:١٥٣١، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (٢)، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]: (١٧)، برقم: (٢٥)، ص:١٩، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧)، باب وجوب الزّكاة: (١)، برقم: (١٣٩٩)، ص:٢٩٥، وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب دعاء النّبي ﷺ إلى الإسلام والنّبوّة: (١٠٢/ ١٠١)، برقم: (٢٩٤٦)، ص:٦٢١، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥)، باب فضل استقبال القبلة: (٢٨)، برقم: (٣٩٢)، ص:١٠٠، عن أنس رضي الله عنه.

صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «فقد عصم» ـ في كتاب الإيمان: (١)، باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقول لا إله إلّا الله: (٨)، برقم: (٢٠)، وبلفظه، برقم: (٢١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبلفظ مقارب، برقم: (٢١)، عن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما، برقم: (٢٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما: ١/ ٥١ ـ ٥٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص:١٠١.

وكان صلوات الله وتسليماته عليه يأمر دعاته أن يفتتحوا دعوتهم بالتّوحيد، وينهاهم أن ينتقلوا إلى غيره إلّا بعد أن يقرّهم النّاس عليه.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: لمّا بعث النّبي ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن، قال له: «إنّك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلّوا فأخبرهم أنّ الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيّهم فتردّ على فقيرهم، فإذا أقرّوا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموال النّاس»(١).

فقد رتّب ﷺ شرائع الإسلام في الدّعوة إليه وبدأ بالأهمّ فالأهمّ، والأوكد فالأوكد(٢).

فالتّوحيد أوّل دعوة الرّسل، وأوّل منازل الطّريق، وأوّل مقام يقوم فيه السّالك إلى الله عز وجل، وهو أوّل الدّين وآخره وباطنه وظاهره، ولأجله خلقت الخليقة وأرسلت الرّسل وأنزلت الكتب، ولأجله افترق النّاس إلى مؤمنين وكفّار وأهل جنّة وأهل نار. وهو أوّل واجب على المكلّف، وأوّل ما يدخل به الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدّنيا. كما قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله دخل الجنّة(٣)»(٤).

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ٤٧٤.

(٢) انظر: المفهم: ١/ ١٨٢. شرح النّووي على مسلم: ١/ ١٩٨. منهج الأنبياء في الدّعوة إلى الله، ص: ٤.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في التّلقين: (١٥/ ١٦)، برقم: (٣١١٦). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٥٣.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «وجبت له الجنّة» ـ في: ٥/ ٢٣٣ ـ ٢٤٧.
مستدرك الحاكم، بلفظه في: /٥٠٣، ٦٧٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٢٠/ ١١٢.
معجم الطّبراني الأوسط، ولفظه: «من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله لم يدخل النّار»، عن علي رضي الله عنه: ١/ ٣٤٢.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٧٤ ـ ٧٥، طبعة: المكتب الإسلامي. وانظر: =

وأهميّة التّوحيد لا تقف عند هذا الحدّ لكي يُبدأ بالدّعوة به، بل هي تفوق كلّ وصف، وتتجاوز كلّ قدر. من ذلك:

١ ـ إنّه أحبّ أمر إلى الله تعالى، كما أنّ الشّرك الّذي يناقضه أبغض أمر إليه سبحانه(١).

٢ ـ إنّه أفضل ما نطق به النّاطقون كما قال ﷺ: «أفضل الدّعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنّبيّون من قبلي: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له»(٢). وأشرف علم على الإطلاق(٣).

٣ ـ يندفع به كيد الشّيطان، ويحترز به صاحبه منه.

يقول ابن القيّم رحمه الله **في بيان قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النّحل: ٩٩ ـ ١٠٠] **يقول:**

= شفاء العليل، ص:١٣٩. مدارج السّالكين: ٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤. تيسير العزيز الحميد، ص: ٢٠ ـ ٢٣.
عقد الإمام محمّد بن إسحاق بن منده رحمه الله في كتاب الإيمان، باباً ذكر فيه أنّ أوّل ما يدعى إليه العبد التّوحيد ثمّ الصّلوات الخمس ثمّ الزّكاة، وذكر حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما في بعث معاذ إلى اليمن وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في قتال أبي بكر مانعي الزّكاة: ١/ ٣٧٩، تحقيق: عليّ بن محمّد بن ناصر الفقيهي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ.

(١) انظر: الاستقامة: ٢/ ٥٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٢/ ٣٥١، والحديث في:
سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب في دعاء يوم عرفة: (١٢٢)، برقم: (٣٥٨٥)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه. قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٥٦٢.
موطّأ مالك، بلفظه في: كتاب القرآن: (١٥)، باب ما جاء في الدّعاء: (٨)، برقم: (٣٢)، ١/ ٢١٥، وفي كتاب الحجّ: (٢٠)، باب جامع الحجّ: (٨١)، برقم: (٢٤٦)، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز: ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.
سنن البيهقي، بلفظه في: باب الاختيار للحاجّ في ترك صوم يوم عرفة: ٤/ ٢٨٤، وفي باب أفضل الدّعاء دعاء يوم عرفة: ٥/ ١١٧، عن طلحة رضي الله عنه.

(٣) انظر: إعلام الموقّعين: ١/ ٥.

«فتضمّن ذلك أمرين: أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التّوحيد والإخلاص. والثّاني: إثبات سلطانه على أهل الشّرك وعلى من تولّاه. ولمّا علم عدوّ الله أنّ الله تعالى لا يسلّطه على أهل التّوحيد والإخلاص: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]. فعلم عدوّ الله أنّ من اعتصم بالله ﷻ، وأخلص له وتوكّل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنّما يكون له السّلطان على من تولّاه وأشرك مع الله. فهؤلاء رعيته، فهو وليّهم وسلطانهم ومتبوعهم»[١].

وأعظم أمر يظفر به الشّيطان من بني آدم أن يجرّده من التّوحيد ويلقي به في الشّرك، فحينئذ يستريح من تعبه وكدّه، وقد بلغ أعلى ما يناله منه، فيصير حينها ابن آدم من جنده وعسكره، بل ربّما استنابه على أمثاله وأشكاله فيصبح داعية من دعاته[٢].

٤ ـ إنّه مَفْزَع أعداء الله وأوليائه.

فأمّا أعداؤه فينجيهم من كرب الدّنيا وشدائدها، كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأمّا أولياؤه فينجيهم به من كربات الدّنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فزع إليه يونس عليه السلام فنجاه من تلك الظّلمات[٣]، وفزع إليه أتباع الرّسل فنجوا به ممّا عذب به المشركون في الدّنيا وما أعدّ لهم في الآخرة. ولمّا فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك، وإدراك الغرق له لم ينفعه[٤] لأنّ الإيمان عند المعاينة لا يقبل، هذه سنّة الله في عباده.

---

(١) إغاثة اللّهفان: ١/٩٨ ـ ٩٩. (٢) انظر: بدائع الفوائد: ٢/٤٨٣.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

(٤) وذلك في قوله سبحانه: ﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [٩٠ ـ ٩١].

فما دفعت شدائد الدّنيا بمثل التّوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب[1] بالتّوحيد[2]، ودعوة ذي النّون الّتي ما دعا بها مكروب إلّا فرّج الله كربه بالتّوحيد[3].

فلا يلقي في الكُرَب العظام إلّا الشّرك، ولا ينجي منها إلّا التّوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها[4].

---

(١) الكَرْب: على وَزْن الضَّرْبِ: الحُزْنُ والغَمُّ الّذي يَأْخُذُ بالنّفْس، وجمعه كُرُوبٌ، وكَرَبه الأَمْرُ والغَمُّ يَكْرُبُه كَرْباً: اشْتَدَّ عليه، فهو مَكْرُوبٌ وكَرِيبٌ، والاسم الكُرْبَة. انظر: لسان العرب: ١/٧١١. وانظر: القاموس المحيط، ص:١٦٦.

(٢) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلّا الله العظيم الحليم، لا إله إلّا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلّا الله ربّ السّماوات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم».

صحيح البخاري، في كتاب الدّعوات:(٨٠/ ٥٤)، باب الدّعاء عند الكرب: (٢٧)، برقم: (٦٣٤٦)، ص:١٣٥٣ ـ ١٣٥٤. صحيح مسلم: في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب دعاء الكرب: (٢١)، برقم: (٢٧٣٠)، ٤/٢٠٩٢.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «دعوات المكروب: اللّهمّ رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلّا أنت». سنن أبي داود، في كتاب الأدب: (٤٠)، باب ما يقول إذا أصبح: (١٠٠/١٠١)، برقم: (٥٠٩٠). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٥٤٩. مسند أحمد، ٥/٤٢. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، في باب ذكر وصف دعوات المكروب، برقم: (٩٧٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده محتمل للتّحسين»: ٣/ ٢٥٠.

(٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّي لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلّا فرّج الله عنه، كلمة أخي يونس ﷺ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وهو صحيح الإسناد، كتاب الأذكار لأبي زكريا يحيى بن شرف النّووي، تحقيق: بشير محمّد عيون، طبعة: مكتبة المؤيّد، الطّائف، مكتبة: دار البيان، دمشق، الطّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، دمشق، بيروت، ص:١٦٥ مع الهامش. وانظر: سنن التّرمذي، كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٨١)، برقم: (٣٥٠٥). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٥٥٢. سنن البيهقي: ٦/ ١٦٨. مستدرك الحاكم: ١/ ٦٨٤، ٦٨٥، ٢/ ٦٣٧، ٦٣٩. مسند أبي يعلى: ٢/ ٦٥، برقم: (٧٠٧).عمل اليوم واللّيلة لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي، تحقيق: د. فاروق حمادة،طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ، ص:٤١٥ ـ ٤١٦، برقم: (٦٥٥ ـ ٦٥٦).

(٤) الفوائد، ص:٥٣ بتصّرف.

٥ ـ لا تقوم للأعمال قائمة إلّا إذا أسّست عليه، ولا تنفع طاعة إلّا إذا أقيمت عليه. بل متى ما فُقد التّوحيد حبط ثواب جميع الطّاعات ولم ينتفع بها صاحبها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وعدّد سبحانه جماعة عظيمة من الرّسل والأنبياء ثمّ قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

إنّ العاص بن وائل[1] نذر في الجاهليّة أن ينحر مائة بدنة، وأنّ هشام بن العاص نحر حصّته خمسين بدنة، وأنّ عمراً سأل النّبي ﷺ عن ذلك فقال: «أمّا أبوك فلو كان أقرّ بالتّوحيد فصُمتَ وتصدّقتَ عنه نفعه ذلك»[2].

٦ ـ إنّه يجلب لصاحبه الأمن التّام في الدّنيا والآخرة.

فقد حكى الله عن خليله إبراهيم عليه السلام أنّه قال في محاجّته لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١]. ففصل الله بحكم قاطع بين الفريقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه فسّر الظّلم هنا بالشّرك، وأيّد ذلك بقول لقمان رحمه الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][3].

---

(١) العاص بن وائل بن هاشم السّهمي، القرشي، أحد الحكّام في الجاهليّة، ومن زعماء بني سهم، والد الصّحابيين الجليلين عمرو وهشام رضي الله عنهما، أدرك الإسلام فلم يسلم، ومات على كفره، وكان من المستهزئين بالإسلام وبالنّبي ﷺ. انظر: الأعلام: ٣/ ٢٤٧.

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ١٨١ ـ ١٨٢، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٠/ ١٧٦، برقم: (٦٧٠٤). وانظر: مجمع الزّوائد: ٤/ ١٩٢.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]: (٨/ ٩)، برقم: (٣٣٦٠)، ص: ٧٠٧، وباب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]: =

فالتّوحيد أقوى سبب للأمن من المخاوف، وضدّه الشّرك الّذي هو أعظم أسباب حصول المخاوف[1].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإذا جرّد العبد التّوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوّه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمّنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به، واشتغاله به، وفكره فيه، وتودد لله محبّة وخشية وإنابة وتوكّلاً واشتغالاً به عن غيره. فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوّه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده... فالتّوحيد حصن الله الأعظم الّذي من دخله كان من الآمنين. قال بعض السّلف: «من خاف الله خافه كلّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء»[2].

٧ ـ إنّه أعظم عامل للاستخلاف والتّمكين[3] في الأرض.

قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النّور: ٥٥].

= (٤١/ ٤٢)، برقم: (٣٤٢٩)، ص: ٧٢٦، وكتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، سورة لقمان (٣١)، باب ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]: (١)، برقم: (٤٧٧٦)، ص: ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩، وكتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣)، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدّنيا والآخرة: (١)، برقم: (٦٩١٨)، ص: ١٤٦٠، وباب ما جاء في المتأوّلين: (٩)، برقم: (٦٩٣٧)، ص: ١٤٦٤.
صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب صدق الإيمان وإخلاصه: (٥٦)، برقم: (١٢٤)، ١/ ١١٤ ـ ١١٥.

(١) انظر: مفتاح دار السّعادة: ٢/ ٢٧٣.

(٢) بدائع الفوائد: ٢/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠ روى القضاعي الأثر بسنده مرفوعاً. عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف الله خوّف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله خوّفه الله من كلّ شيء».
مسند الشّهاب: ١/ ٢٦٥. قال المنذري: «ورفعهُ منكر». الترغيب والترهيب: ٤/ ١٣٤.

(٣) التّمكين هو: مقام الرّسوخ والاستقرار على الاستقامة. التّعريفات، ص: ٩٢.

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنّه سيجعل أمّته خلفاء الأرض، أي أئمّة النّاس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، ويخضع لهم العباد. وليبدلنّهم من بعد خوفهم من النّاس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنّة[1].

وقد قال ﷺ في حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه: «بشّر هذه الأمّة بالسّناء[2] والرّفعة والدّين والنّصر والتّمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدّنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[3].

فقوله سبحانه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال ابن جرير رحمه الله:

«ليورثنّهم الله أرض المشركين من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها»[4].

وقال البيضاوي رحمه الله:

«ليجعلهم خلفاء متصرّفين في الأرض تصرّف الملوك في مماليكهم»[5].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٨٠.

(٢) قال ابن الأثير رحمه الله:
«بَشِّرْ أُمَّتي بالسَّناء: أي بارْتِفَاعِ المَنْزلة والقَدْر عند الله تعالى، وقد سَنِي يَسْنَى سَنَاء أي ارتفَع، والسّنى بالقصر الضّوءُ». النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤١٤.

(٣) مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ١٣٤، مع زيادة: «وهو يشكّ في السّادسة»، وبلفظه في نفس الصّفحة ولم يذكر: «الدّين»، وبنحو منه في الموضع نفسه.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه في: باب ذكر وصف إشراك المرء بالله جلّ وعلا في عمله، برقم: (٤٠٥). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ٢/ ١٣٢.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٣٤٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح»، وهو في صحيح الجامع، برقم: (٢٨٢٥)، ١/ ٥٤٥. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٨٣.

(٤) جامع البيان: ١٨/ ١٥٨، طبعة: دار الفكر. وانظر: معالم التّنزيل: ٣/ ٣٥٣ ـ ٣٤٥.

(٥) أنوار التّنزيل: ٤/ ١٩٧.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«يوسّع لهم في البلاد حتّى يملكوها، ويظهر دينهم على سائر الأديان»[(١)].

وقال ابن جرير رحمه الله:

«وليوطّئن لهم دينهم، يعني ملّتهم الّتي ارتضاها لهم فأمرهم بها»[(٢)].

وقال السّعدي رحمه الله:

«بأن يتمكّنوا من إقامته ـ أي: الإسلام ـ وإقامة شعائره الظّاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفّار مغلوبين ذليلين»[(٣)].

ولا ينال هذه الوعود الصّادقة إلّا من حقّق التّوحيد، لأنّ المولى سبحانه شرط حصول ذلك بقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ولذا قال البيضاوي رحمه الله:

«﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال من الّذين، لتقييد الوعد بالثّبات على التّوحيد، أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف والأمن»[(٤)].

٨ ـ إنّه يجمع بين القلوب، ويوحّد بين الشّتات، وعليه تجتمع الكلمة ويتّحد الهدف.

فالمسلمون أمّة واحدة، يتساوون في الحقوق والواجبات، لا تفرّق بينهم الألوان أو الأجناس أو الأوطان، وتلك الوحدة أعظم مظهر للإسلام، ولا يتأتّى لهم ذلك إلّا إذا صفت قلوبهم، وخلصت ضمائرهم فأفردوا إلههم الواحد سبحانه بالعبوديّة ولم يشركوا معه سواه. ولو أشركوا لوقع بينهم التّفرق

---

(١) معالم التّنزيل: ٣/ ٣٥٤. وانظر: فتح القدير: ٤/ ٤٧.

(٢) جامع البيان: ١٨/ ١٥٩، طبعة: دار الفكر.

(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٢١.
ذكر الاستخلاف أوّلاً، وهو جعلهم ملوكاً، ثمّ ذكر التّمكين ثانياً ليفيد أنّ الملك على وجه الاستقرار والثّبات لهم ولعقبهم من بعدهم، وليس أمراً طارئاً. انظر: فتح القدير: ٤/ ٤٧.

(٤) أنوار التّنزيل: ٤/ ١٩٨.

والشّتات الّذي حذّرهم معبودهم سبحانه منه لأنّه سمة بارزة لأهل الشّرك، وذلك في قوله:

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرّوم: ٣١ ـ ٣٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أهل التّوحيد فإنّهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً في بيوته الّتي قد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه[(١)]، مع أنّه قد جعل لهم الأرض كلّها مسجداً وطهوراً[(٢)]، وإن حصل بينهم تنازع في شيء ممّا يسوّغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك لهم تفرّقاً ولا اختلافاً، بل هم يعلمون أنّ المصيب منهم له أجران، وأنّ المجتهد المخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له[(٣)]، والله هو معبودهم وحده، إيّاه يعبدون، وعليه يتوكّلون، وله يخشون ويرجون، وبه يستعينون ويستغيثون، وله يدعون ويسألون»[(٤)].

---

(١) وذلك لقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النّور: ٣٦ ـ ٣٧].

(٢) وذلك لقوله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحدٌ قبلي.. الحديث». وفيه: «جعلت لي الأرض طيّبة طهوراً ومسجداً، فأيّما رجل أدركته الصّلاة صلّى حيث كان». صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، برقم: (٥٢١)، ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٣) وذلك لقوله ﷺ في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر» صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ: (٢١/ ٢٢)، برقم: (٧٣٥٢)، ص: ١٥٤٣. صحيح مسلم، كتاب الأقضية: (٣٠)، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ: (٦)، برقم: (١٧١٦)، ٣/ ١٣٤٢.

(٤) اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد حامد الفقي، مطبعة: السّنّة المحمّديّة، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٩م، ص: ٤٥٧.

لقد وفّق شيخ الإسلام رحمه الله في تسطير هذه الكلمات المضيئة. وفيها لفتة انتباه جادّة لدعاتنا اليوم الّذين ربط بينهم التّوحيد الّذي هو أصل أصيل وركن ركين في هذا الدّين. ولكنّهم افترقوا في أمور من الاجتهاد لا تبلغ بهم ما هم فيه من تناحر=

٩ ـ إنّه يعصم مال العبد ودمه، فلا يؤخذ ماله ولا يسفك دمه إلّا بحقّ شرعي.

قال ﷺ: «من قال لا إله إلّا الله وكفر بما يُعْبَدُ من دون الله حَرُمَ مالُهُ ودمه وحسابه على الله».

وفي الرّواية الثّانية: «من وحدّ الله». ثمّ ذكر بمثله[1].

١٠ ـ إنّه أعظم سبب لمغفرة الذّنوب وتكفيرها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النّساء: ٤٨].

فمن نُقِض توحيده ومات على ذلك فلا يغفر ذنبه، ولا يُتَجاوز له عن سيّئاته، وأمّا الموحّد فذنوبه يُرْجى لها المغفرة ولو بلغت ما بلغت. كما ثبت ذلك من حديث أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان[2] السّماء، ثمّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[3].

= وتباغض، بل وصل الأمر ببعضهم إلى الطّعن في إخوانه الدّعاة وإبراز عيوبهم والرّد عليهم. والأمّة في أمسّ الحاجة إلى نصحهم وتوجيههم، وهي تعاني من خلل عظيم في أعظم جوانب الإسلام، وبفعلهم ذاك زادوها تفرّقاً وشتاتاً وانقساماً.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله: (٨)، برقم: (٢٣)، عن أبي مالك عن أبيه ﷺ: ١/ ٥٣.

(٢) العَنان بالفتح: السّحاب، والواحِدة عَنَانة، وقيل مَا عَن لك منها، أي اعْتَرض وبَدَا لَك إذا رَفَعْت رأسَك ويُروى أعْنان السّماء أي نَواحِيها، واحِدُها: عَنَنُ، وعَنٌّ. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣١٣. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ٤٣ ـ ٨٤. الفائق: ٣/ ٣٣.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب خلق الله مائة رحمة: (٩٨)، برقم: (٣٥٤٠)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٥٥٧. =

قال ابن رجب رحمه الله في معرض بيانه للحديث السّابق:

«من أسباب المغفرة التّوحيد، وهو السّبب الأعظم، فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة... فمن جاء مع التّوحيد بقراب الأرض ـ وهو ملؤها، أو ما يقارب ملأها[1] ـ خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثمّ كان عاقبته ألّا يخلد في النّار، بل يخرج منها، ثمّ يدخل الجنّة... فمن تحقّق بكلمة التّوحيد قلبه أخرجت منه كلّ ما سوى الله محبّة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، وخشية، ورجاء، وتوكّلاً، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلّها، ولو كانت مثل زبد البحر، وربّما قلبتها حسنات... فإنّ هذا التّوحيد هو الأكسير[2] الأعظم، فلو وضع ذرة منه على جبال الذّنوب والخطايا لقلبها حسنات»[3].

١١ ـ إنّه أعظم سبب لدخول الجنّة والنّجاة من النّار.

عن جابر رضي الله عنه: أتى النّبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: «يا رسول الله: ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النّار»[4].

= سنن الدّارمي، بلفظ مقارب، مع تقديم وتأخير، في باب إذا تقرّب العبد إلى الله، عن أبي ذر رضي الله عنه: ٢/ ٤١٤. مسند أحمد، بلفظ مقارب مع تقديم وتأخير في: ٥/ ١٦٧ ـ ١٧٢، ونحوه في: ٥/ ١٥٤، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(١) انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٤.

(٢) الإكسير: هو الكيمياء. القاموس المحيط، ص: ٦٠٤.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص: ٣٩٨. وانظر كلاماً قيّماً جدّاً للإمام ابن القيّم رحمه الله حول هذا المعنى في: إغاثة اللّهفان: ١/ ٦٤. إعلام الموقّعين: ١/ ٢٢٦. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنّصارى، طبعة: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص: ١٣٠. وانظر: اعتقاد أئمّة الحديث لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمٰن الخميس، طبعة: دار العاصمة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص: ٦٤. تيسير العزيز الحميد، ص: ٧٣ ـ ٧٥.

(٤) صحيح البخاري، بنحو منه عن ابن مسعود رضي الله عنه من قوله، في كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلّا الله: (١)، برقم: (١٢٣٨)، ص: ٢٦١. =

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخل الجنّة»[1].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيهما إلّا دخل الجنّة»[2].

وفي حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «فإنّ الله قد حرّم على النّار من قال: لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجه الله»[3].

= صحيح مسلم، بلفظه وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة: (٤٠)، برقم: (٩٣)، ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه، برقم: (٩٢)، ١/ ٩٤.

(١) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً: (١٠)، برقم: (٢٦)، ٥٥١.

(٢) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الشّركة: (٤٧/ ٢٣)، باب الشّركة في الطّعام والنّهد والعروض: (١)، برقم: (٢٤٨٤)، عن سلمة رضي الله عنه، ص:٥١٧، وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب حمل الزّاد في الغزو: (١٢٣/ ١٢٢)، برقم: (٢٩٨٢)، عن سلمة رضي الله عنه، ص:٦٢٨.
صحيح مسلم، بلفظه وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً: (١٠)، برقم: (٢٧)، ١/ ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) هذا جزء من حديث في:
صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥)، باب المساجد في البيوت: (٤٦)، برقم: (٤٢٥)، ص:١٠٦، وفي كتاب التّهجّد (الصّلاة): (١٩/ ٥)، باب صلاة النّوافل جماعة: (٣٦/ ٥١٣)، برقم: (١١٨٦)، ص:٢٤٩، وفي كتاب الأطعمة: (٧٠/ ٤٤)، باب الخزيرة: (١٥)، برقم: (٥٤٠١)، ولم يقل: «قد»، ص:١١٨٤، ونحوه في: كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/ ٦٣)، باب ما جاء في المتأوّلين: (٩)، برقم: (٦٩٣٨)، ص:١٤٦٤.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب الرّخصة في التّخلف عن الجماعة بعذر: (٤٧)، برقم: (٣٣)، ١/ ٤٥٦.
وقد اشتهر عند كثير من النّاس أنّ من قال لا إله إلّا الله دخل الجنّة ولو لم يعمل عملاً، فيكفيه قولها، وهذا زعم خاطئ. فإنّ: لا إله إلّا الله لها لوازم وحقوق يجب على القائل لها أن يلتزم بها وإلّا لم ينتفع بها. ولا شك أنّ: لا إله إلّا الله سبب لدخول الجنّة والنّجاة من النّار ومقتضى لذلك. ولكنّ المقتضى لا يعمل عمله إلّا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلّف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو=

والنّصوص في ذلك كثيرة جدّاً وكلّها تفيد أنّ الموحّد يدخل الجنّة، سواء كان دخوله دخولاً أوّليّاً، أو يدخلها بعد ما ينال قسطاً من العذاب في النّار على معاصيه الّتي مات مصرّاً عليها. إذ لا يخلد في النّار إلّا المشرك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقد ثبت أنّ بعض أهل التّوحيد يدخلون النّار ولكن لا يخلّدون فيها كما جاء في حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعذّب ناس من أهل التّوحيد في النّار حتّى يكونوا فيها حُمَماً[1]، ثمّ تدركهم الرّحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنّة، قال: فَيَرُشُّ عليهم أهل الجنّة الماء فينبتون كما ينبت الغُثَاء[2] في حمالة السّيل[3]،

= لوجود مانع. ولهذا قيل للحسن ﷺ: إنّ ناساً يقولون: من قال: لا إله إلّا الله دخل الجنّة، فقال: «من قال: لا إله إلّا الله فأدّى حقّها وفرضها دخل الجنّة». وقال وهب بن منبّه ﷺ لمن سأله: أليس: لا إله إلّا الله مفتاح الجنّة؟ قال: «بلى، ولكن ما من مفتاح إلّا وله أسنان. فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلّا لم يفتح». ويدلّ على ذلك أنّ الله رتّب دخول الجنّة على الإيمان والأعمال الصّالحة. وكذلك النّبي ﷺ كما في الصّحيحين عن أبي أيوب ﷺ قال: جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال: دلّني على عمل أعمله يدنيني من الجنّة ويباعدني من النّار؟ قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصّلاة وتؤتي الزّكاة وتصل ذا رحمك». صحيح البخاري، كتاب الزّكاة: (٢٤/ ٧)، باب وجوب الزكاة: (١)، برقم: (١٣٩٦)، ص: ٢٩٤. صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب بيان الإيمان الّذي يدخل به الجنّة: (٤)، برقم: (١٣)، ١/ ٤٢ ـ ٤٣. تيسير العزيز الحميد، ص: ٦٩ ـ ٧٠. وانظر: الوابل الصّيّب من الكلم الطّيّب لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد عبد الرّحمٰن عوض، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص: ٣٣.

(١) حُمَماً: جمع حُمَمَة وهي الفَحمة، يقال: رجل مُحَمّم: أي مُسَوّد الوجه وهو مُفَعَّل من الحُمَم، ويقال فلان أسود كأنّه الحُمَم. ومنه يقال رجل أحمّ وامرأة حَمّاء إذا كانا أسْوَدَين. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٥٢٣. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ١٩٣. الفائق: ١/ ٣٢١. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٤٤.

(٢) الغُثَاء بالضّمّ والمدّ: ما يجيء فوق السّيْل مِمَّا يَحْمِله من الزّبَد والوَسَخ وغيره. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٤٣.

(٣) حمالة السّيْل: وهو ما يجيء به السّيْل من طين أو غُثَاء وغيره. فشُبِّه به سُرْعة عَوْد أبْدانِهم وأجْسامِهم إليهم بَعْدَ إحْراق النّار لها. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٤٢.

ثمّ يدخلون الجنّة»[1].

ولذلك قال التّرمذي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ أهل التّوحيد سيدخلون الجنّة، وإن عذّبوا بالنّار بذنوبهم فإنّهم لا يخلّدون في النّار»[2].

١٢ ـ إنّه أعظم سبب لنيل الشّفاعة[3] يوم القيامة.

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب صفة جهنّم: (٣٦)، باب: (١٠)، برقم: (٢٥٩٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٤٢١.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ٣٩١.
وهذا الحديث أصله في الصّحيحين. انظر:
صحيح البخاري، كتاب الإيمان: (٢)، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال: (١٥)، برقم: (٢٢)، ص:١٨ ـ ١٩، وكتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب صفة الجنّة والنّار: (٥١)، برقم: (٦٥٦٠)، ص:١٣٩٢.
صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب إثبات الشّفاعة وإخراج الموحّدين من النّار: (٨٢)، برقم: (١٨٤)، ١/ ١٧٢.

(٢) سنن التّرمذي، ص:٤٢٨، ونسبه إلى بعض أهل العلم.
والقاعدة الجامعة في ذلك ما نص عليه الإمام النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله:
«واعلم أنّ مذهب أهل السّنّة وما عليه أهل الحقّ من السّلف والخلف: أنّ من مات موحّداً دخل الجنّة قطعاً على كلّ حال. فإن كان سالماً من المعاصي كالصّغير والمجنون والّذي اتّصل جنونه بالبلوغ والتّائب توبة صحيحة من الشّرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته. والموفّق الّذي لم يبتل بمعصية أصلاً. فكلّ هذا الصّنف يدخلون الجنّة، ولا يدخلون النّار أصلاً، لكنّهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود. . . وأمّا من كانت له معصية كبيرة، ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنّة أوّلاً وجعله كالقسم الأوّل. وإن شاء عذّبه القدر الّذي يريده ﷻ ثمّ يدخله الجنّة فلا يخلد في النّار أحد مات على التّوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل. كما أنّه لا يدخل الجنّة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل. هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحقّ في هذه المسألة. وقد تظاهرت أدلّة الكتاب والسّنّة وإجماع من يعتدّ به من الأمّة على هذه القاعدة. وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي».
شرح النّووي على مسلم: ١/ ٢١٧.

(٣) قال الرّاغب رَحِمَهُ اللَّهُ:
«الشّفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه. وأكثر ما يستعمل في انضمام من=

فقد بيّن سبحانه أنّ الشّفاعة كلّها له فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٤].

كما بيّن أنّها لا تقع يوم القيامة إلّا إذا أذن للشّافع، ورضي عن المشفوع فيه لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وجمع بين الشّرطين في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩].

وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النّجم: ٢٦].

وهذا لا يتأتّى إلّا لأهل التّوحيد الّذين جرّدوا التّوحيد وخلّصوه من شوائب الشّرك، فهم الّذين ارتضاهم الله سبحانه.

وأمّا أهل الشّرك فلا يرضاهم ولا يرضى قولهم، ولا يأذن بالشّفاعة فيهم[1]. بل الشّفاعة في حقّهم منفيّة لأنّهم جعلوا وسائط بينهم وبين الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرّهم، زاعمين أنّهم شفعاؤهم عند الله. فحرموا لذلك الشّفاعة الحقّة. كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨][2].

= هو أعلى حرمةً ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشّفاعة في القيامة». المفردات، ص: ٢٦٣.

وقال الجرجاني ﷺ:

«الشّفاعة: هي السّؤال في التّجاوز عن الذّنوب من الّذي وقع الجناية في حقّه». التّعريفات، ص: ١٦٨.

(١) وانظر: إغاثة اللّهفان: ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) وانظر: مجموع الفتاوى: ١/ ١٥٤. مفتاح دار السّعادة: ٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

وقد بيّن النّبيّ ﷺ أنّ شفاعته لأهل التّوحيد لا يشركهم فيها سواهم وإنّما يختصّون بها.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «أسعد النّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلّا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»(١).

وفي حديثه الآخر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لكلّ نبيّ دعوة مستجابة، فتعجّل كلّ نبيّ دعوته، وإنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئاً»(٢).

هذه جوانب ـ وغيرها الكثير ـ تبرز أهميّة التّوحيد وسمو مكانته، ورفيع منزلته متى ما وقف عليها الدّاعية إلى الله تحتّم عليه أن يبدأ دعوته به، وأن يؤسّسها عليه، لأنّ التّوحيد مرتكزها ومحورها الّذي تنطلق منه.

فصحّة العقيدة هي المنطلق الأوّل للدّاعية، وهي القاعدة والأساس الّتي يرتكز عليها هذا البناء. والعقيدة الصّحيحة بمثابة القوّة المحرّكة للدّاعية الّتي تدفعه للأداء وتثبّته على الطّريق. وأي خلل في هذه القاعدة يعدّ خللاً في حياة الدّاعية. فصلاح العقيدة يتوقّف عليه صلاح الأمر كلّه، فإذا فسدت فسد سائر العمل وأصبح غثاء(٣).

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب العلم: (٣)، باب الحرص على الحديث: (٣٣)، برقم: (٩٩)، ص:٣٩، وبلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب صفة الجنّة والنّار: (٥١)، برقم: (٦٥٧٠)، ص:١٣٩٣ ـ ١٣٩٤.

(٢) المرجع السّابق، نحوه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب لكلّ نبيّ دعوة مستجابة: (١)، برقم: (٦٣٠٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (٦٣٠٥)، عن أنس رضي الله عنه، ص:١٣٤٥، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: (٣١)، برقم: (٧٤٧٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص:١٥٩٦.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب في قول النّبي ﷺ: «أنا أوّل النّاس يشفع في الجنّة»: (٨٥)، برقم: (١٩٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه عنه برقم: (١٩٨ ـ ١٩٩)، برقم: (٢٠٠)، عن أنس رضي الله عنه، برقم: (٢٠١)، عن جابر رضي الله عنه: ١/ ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٣) عقبات في طريق الدّعوة، ص:٣٤.

ولا يمكن البتّة لهذا الدّاعية أن يثبت على دعوته، وتقوم لدعوته قائمة ما لم يؤسّسها على التّوحيد الخالص من شوائب الشّرك.

وقد لفت الخالق سبحانه الانتباه لذلك مبيّناً أنّ التّوحيد مصدر الثّبات لجميع الطّاعات الّتي منها الدّعوة إلى الله تعالى، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٧].

قال ابن القيّم رحمه الله:

«فإنّه سبحانه شبّه شجرة التّوحيد في القلب بالشّجرة الطّيّبة الثّابتة الأصل، الباسقة الفرع في السّماء علوّاً، الّتي لا تزال تؤتي ثمرتها كلّ حين، وإذا تأمّلت هذا التّشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التّوحيد الثّابتة الرّاسخة في القلب الّتي فروعها من الأعمال الصّالحة الصّاعدة إلى السّماء، ولا تزال هذه الشّجرة تثمر الأعمال الصّالحة كلّ وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبّة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حقّ رعايتها»[1].

ثمّ استرسل رحمه الله في بيان ذلك بأسلوب رصين شائق إلى أن قال:

«. . . فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التّوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبّت الله بها عبده في الدّنيا والآخرة»[2].

ويقول سيّد قطب رحمه الله:

«إنّ العقيدة هي الرّكيزة الثّابتة في حياة المؤمن، تضطّرب الدّنيا من حوله فيثبت هو على هذه الرّكيزة، وتتجاذبه الأحداث والدّوافع فيتشبّث هو بالصّخرة الّتي لا تتزعزع، وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة الّتي لا تحول ولا تزول.

---

(١) إعلام الموقّعين: ١/ ١٧٢.

(٢) المرجع السّابق: ١/ ١٧٧.

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن. ومن ثم يجب أن يستوي عليها، متمكّناً منها، واثقاً بها، لا يتلجلج فيها، ولا ينتظر عليها جزاء، فهي في ذاتها جزاء. ذلك أنّها الحمى الّذي يلجأ إليه، والسّند الّذي يستند عليه. أجل هي في ذاتها جزاء على تفتّح القلب للنّور، وطلبه للهدى. ومن ثّم يهبه الله العقيدة ليأوي إليها، ويطمئن بها. هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشّاردين من حوله تتجاذبهم الرّياح، وتتقاذفهم الزّوابع، ويستبدّ بهم القلق، بينما هو بعقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتّصال»[1].

فالتّوحيد أعظم ما يزكو به القلب لأنّه يتضمّن نفي إلهيّة ما سوى الحقّ من القلب وإثبات الحقّ في القلب، وهو حقيقة لا إله إلّا الله، وهذا أصل ما تزكو به القلوب[2].

وهو أبلغ أسباب شرح الصّدر، فبحسب كماله وقوّته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، كما أنّ الشّرك من أعظم أسباب ضيق الصّدر وانحراجه[3].

فالدّاعية إلى الله لا يمكنه أبداً أن يثبت على دعوة الله إلّا إذا بناها على هذا الأساس المتين، وأرض التّوحيد الصّلبة.

ولذا تهاوت كثير من الدّعوات وتزلزلت أركانها، وتحطّمت قواعدها، وتفرّق دعاتها شَذَرَ مَذَرَ[4] لأنّها لم تنطلق في مبدئها من عقيدة التّوحيد، وإنّما تعلّقت بأمور من الإسلام لم تنل من الأهميّة ما ناله التّوحيد، ولم تصل في المكانة إلى مكانته. وهي قد تحاشت البدء به إمّا جهلاً بمقامه، أو صعوبة

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤١٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٩٧ بتصرّف يسير.

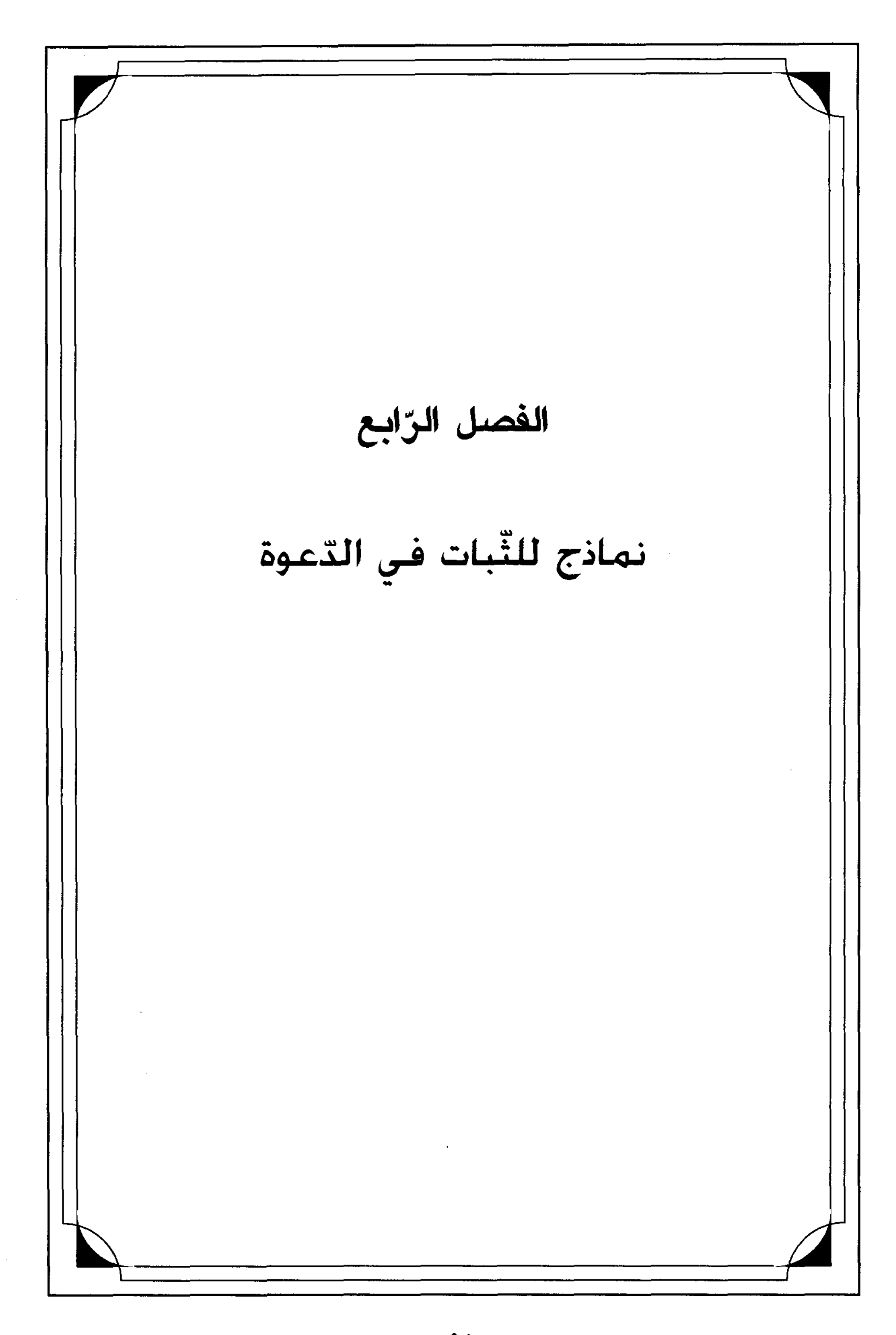
(٣) زاد المعاد: ٢/ ٢٣ ـ ٢٤ بتصرّف.

(٤) شَذَرَ مَذَرَ وشِذَرَ مِذَرَ وبِذَرَ: أي ذهبوا في كلّ وجه، ولا يقال ذلك في الإقبال؛ وذهبت غنمك شَذَرَ مَذَرَ وشِذَرَ مِذَرَ: كذلك، ويروى بكسر الشّين والميم وفتحهما. لسان العرب: ٤/ ٣٩٩، بتصرّف.

مسلكه، وشدّة الأذى على من قام به، وخطر مواجهة المجتمع الّذي انخرط الغالب من أفراده في الشّرك إلّا من رحم الله، أو تهويناً لأمره وتنقيصاً لمنزلته، أو سوى ذلك من الأسباب الصّارفة عن البدء به.

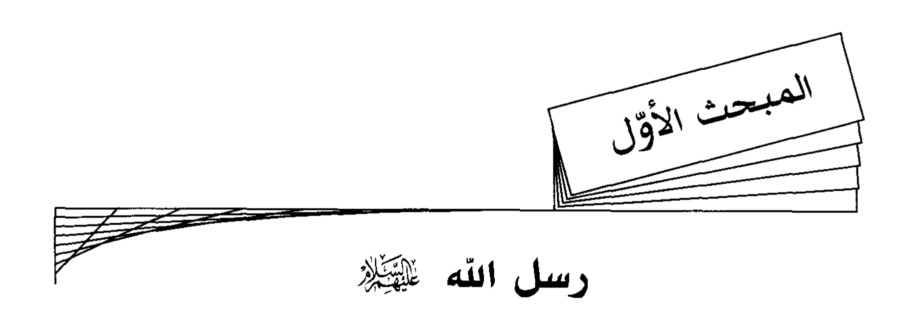
وما ثبت من الدّعاة على دعوتهم إلّا من بدؤها بالتّوحيد، وأسّسوها عليه، وظلّوا كذلك لا ينحرفون عنه، وهم أهل الثّبات حقّاً.





الفصل الرّابع

نماذج للثّبات في الدّعوة



رسل الله عليهم السلام

إنّ رسل الله هم الصّفوة المختارة، والنّخْبَةُ المُنتقاة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهم سفراء الله إلى النّاس، ومبعوثوه إلى خلقه، والمبلّغون لوحيه، والحاملون لدعوته إلى عباده.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقد جعلهم الله وسائط بينه وبين خلقه في إبلاغ دينه، وإقامة حجّته.

قال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النّحل: ٣٥].

وقال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النّساء: ١٦٥].

همّهم الأعظم وهدفهم الأسمى أن يُعْبَدَ الله في الأرض، ويطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ولذلك حملوا دعوته سبحانه بصدق وإخلاص، وصبر وعزيمة، غير خائفين ولا هائبين، بل صادعين بها، رافعين لواءها، مدافعين عنها، مجتهدين في نصرتها، صابرين على شدّتها، حريصين على هداية النّاس إليها، ناصحين، مرشدين، مبشّرين ومنذرين.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ [الأعراف: ٦٢].

وعن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ [الأعراف: ٦٨].

وعن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف: ٧٩].

وعن شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

فالدّعوة إلى الله هي وظيفتهم، ومهمّتهم الّتي كلّفوا من الله أن يُبلّغوها إلى عباده. ولذا بذلوا فيها غاية جهدهم، وكَرَّسُوا كلّ حياتهم من أجلها، والذّود عنها. ولم يكن طريقهم سهلاً، ولا سيرهم ميسّراً.

فلم تُفرش لهم الرّياحين، ولم تقطف لهم الورود، ولم يقابلوا بالهتافات مع عظمتهم، وجلالة قدرهم. بل وُوجِهُوا بعواصفَ لا تهدأ، وزلازل لا تخمد، وعداوات لا تنطفئ.

وبذل أقوامهم العتاة المتجبّرون كلّ ما يملكون من وسائل ليوقفوا سيرهم، ويخمدوا دعوتهم فما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

تنوّعت أسلحتهم في حرب رسل الله، وتعدّدت ضلالاتهم في الكيد والمكر فما أجدت لهم فتيلاً[١]، ولا نالوا بها قطميراً[٢].

واجهوهم بالتّكذيب ليجرّدوا الحقّ الّذي معهم من أقوى دعائمه، وأصلب

---

(١) الفَتِيلُ: ما يكون في شق النّواة، وقيل: هو ما يُفتل بين الإصبعين من الوسخ، وفَتَل الحبل وغيره من باب ضرب. مختار الصّحاح، ص: ٤٩٠. وانظر: لسان العرب: ١١/ ٥١٤. القاموس المحيط، ص: ١٣٤٥.

(٢) القِطْمِيرُ والقِطْمارُ: شَقُّ النّواة، وقيل: القِطْمِيرُ القُوفة الّتي في النّواة، وهي القِشْرة الدّقيقة الّتي على النّواة ما بين النّواة والتّمر، ويقال: هي النُّكْتة البيضاء الّتي في ظهر النّواة الّتي تنبت منها النّخلة، وما أَصبتُ منه قِطْميراً أي شيئاً. لسان العرب: ٥/ ١٠٨، بتصرّف يسير، وانظر: مختار الصّحاح، ص:٥٤٣. القاموس المحيط، ص: ٥٩٧.

أسسه وهو الصّدق الّذي لازم دعوة الرّسل في كلّ وقت وحين، ولكنّهم ما أفلحوا. قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وكان التّكذيب لرسل الله قاعدة لا شذوذ عنها عند أعداء الله ليطفئوا بها نور الله.

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وأردفوا إلى التّكذيب الأذى فما نجحوا.

قال ربّ العزّة: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

قابلوهم بالاستهزاء والطّعن واللّمز و السّخرية ليحطّوا من قدرهم، ويهوّنوا من أمرهم فما أجدى ذلك نفعاً.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

وقـــال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرّعد: ٣٢].

وضعوا أمامهم الشّبه، ونصبوا في طريقهم العراقيل ليلفتوهم عن بغيتهم، ويشغلوهم عن غايتهم، فما قرّت لهم بذلك عين، ولا سعدت لهم به نفس.

قالوا لنوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧][1].

وقالوا لهود عليه السلام: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ

(١) وانظر: الشّعراء: ١١١.

﴿وَأَشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٥].

وقالوا لصالح عليه السلام: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٦٢﴾ [هود: ٦٢].

وقالوا لشعيب عليه السلام: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وقالوا في موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

وقالوا في محمّد: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٥].

ويَتْبَعُ ما ذُكر سيل عارم، ومدّ لا ينقطع من شبه أهل الباطل على رسل الله فما وصلوا إلى ما يصبون إليه.

وهدّدوهم بالقتل والإخراج والسّجن. بل منهم من قتل، ومن سجن، ومن أُخرج، فما نالوا ما يبتغون، ولا حازوا على ما يريدون، ولا جنوا بما به يسعدون.

قال تعالى في شأن القتل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: ٢١][(١)].

وقال في شأن الإخراج: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣﴾ [إبراهيم: ١٣][(٢)].

وقال في شأن السّجن: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ۝٣٥﴾ [يوسف: ٣٥].

وقد حاول مشركو مكّة أن ينفّذوا إحدى هذه الثّلاث في رسول الله ﷺ.

---

(١) وانظر: البقرة: ٦١، ٨٧، ٩١، وآل عمران: ١١٢.

(٢) وانظر: الأعراف: ٨٢. الشّعراء: ١٦٧.

وفي ذلك قال سبحانه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، فباءت محاولتهم بالفشل.

وهذه السّلسلة من مواجهات أعداء الله لرسله يطول ذكرها، وكلّها فشلت فشلاً ذريعاً، وتحطّمت أجزاؤها، وتناثرت أشلاؤها على عتبة ثبات الرّسل عليهم السلام. فما وهنوا، وما ضعفوا، وما استكانوا، وما جبنوا، وما خاروا، وما فُت في عزائمهم، ولا قُدح في صبرهم، ولا فُلّ في قوّتهم.

بل ظلّوا قمماً شامخة في الثّبات، وجبالاً راسية في الصّبر، حتّى بلّغوا دعوة الله، وأوصلوها إلى كلّ من كلّفهم الله بإيصالها إليه. ومحمّد ﷺ الّذي هو خاتم الرّسل، وأمّته الّتي هي خاتمة الأمم شاهدين على ذلك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النّبيّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنّبيّ ومعه الرّجلان وأكثر من ذلك، فيدعىٰ قومه، فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته. فيدعى محمّد وأمّته فيقال لهم: هل بلّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيّنا فأخبرنا أن الرّسل قد بلّغوا. فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[1].

وهذان أنموذجان عظيمان، ومثالان فذّان، يشعّان ثباتاً، ويتنفسان صبراً،

---

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: ١]: (٣)، برقم: (٣٣٣٩)، ص: ٧٠١، وفي كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]: (١٣)، برقم: (٤٤٨٧)، ص: ٩٣٤، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]: (١٩/ ٢٠)، برقم: (٧٣٤٩)، ص: ١٥٤٣، واللّفظ لأحمد في مسنده: ٣/ ٥٨. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٨٤.

لرسولين كريمين، ونبيّين جليلين: أحدهما: أوّل رسل الله، والثّاني آخر رسل الله إلى أهل الأرض ليكونا مثالين في الثّبات على الدّعوة إلى الله لبقية كوكبة الرّسل بينهما. أتحدث عنهما في مطلبين. وأبدأ بآخرهما لأنّه أفضلهما.

المطلب الأوّل

محمّد بن عبد الله ﷺ

أوّل ما أوحاه ربّه إليه قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١][١]، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره بالتّبليغ. وهذا مبدأ نبوّته. ثمّ أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]، وهذا مبدأ رسالته. ثمّ أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشّعراء: ٢١٤]. ثمّ أنذر قومه، ثمّ أنذر من حولهم من العرب، ثمّ أنذر العرب قاطبة، ثمّ أنذر العالمين[٢].

وأقام ثلاث سنين يدعو إلى الله مستخفياً حتّى نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]، فأعلن ﷺ الدّعوة، وجاهر بها قومه[٣].

ومكث في مكّة عشر سنين يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً، وسرّاً وجهاراً، لا تأخذه في الله لومة لائم. دعا الصّغير والكبير، والحرّ والعبد، والذّكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجنّ والإنس[٤].

وكان يعرض نفسه على القبائل يدعوهم، ويذهب إلى النّاس في أسواقهم ومنازلهم ويخبرهم أنّه نبي مرسل من عند الله، ويطلب منهم أن يمنعوه حتّى يبلّغ رسالة ربّه[٥].

---

(١) وانظر الآيات بعدها.

(٢) وانظر: السّير النّبويّة لابن هشام: ١/١٤٧ ـ ١٥٩ فما بعدها.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ١/١٥٩. زاد المعاد: ١/٨٦. وانظر: الرّحيق المختوم، لصفي الرّحمٰن المباركفوري، طبعة: المكتبة العصريّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ص:٦٨ ـ ٧٠.

(٤) زاد المعاد: ٣/١٢ بتصرّف يسير. وانظر: البداية والنّهاية: ٣/٣٩ ـ٤٠.

(٥) انظر: السّير النّبويّة لابن هشام: ١/٢٦٧. زاد المعاد: ٣/٢٣٤.

وقد حاول قومه جاهدين أن يوقفوا دعوته، ويعطّلوا سيرها، ويخمدوا أنفاسها، ويبيدوها في مهدها.

تلك الدّعوة الّتي عابت آلهتهم، وضلّلت آباءهم، وسفّهت أحلامهم، وحطّت من كبريائهم، فأجمعوا على خلافه وعداوته.

* سعوا إلى عمّه أبي طالب الحادب عليه(١) لكي يكفّه وإلّا نازلوه ومن معه حتّى يهلك أحد الفريقين، ورغّبوه كي يبدّله لهم بفتى من قريش ليقتلوه. ولكنّ أبا طالب لم يفعل، وحدب على رسول الله حامياً له مدافعاً عنه(٢).

* سلكوا معه ﷺ كلّ مسلك معوج، واستخدموا كلّ وسيلة سيّئة، وكلّ أسلوب منحطّ ليتنصل عن دعوته، وينسلخ عنها، فأبى.

* وصفوه بالجنون فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦](٣).

* زعموا أنّه كاهن(٤)، فأجابهم الله داحضاً الفِرْيتين: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطّور: ٢٩](٥).

* ادعوا أنّه شاعر، وأنّ ما جاء به مفترٍ، وهو ضرب من الأحلام

---

(١) حَدِبَ فلان على فلان يَحْدَبُ حَدَباً فهو حَدِبٌ. وتَحَدَّبَ: تَعَطَّفَ، وحَنا عليه. يقال: هو له كالوالد الحَدِبِ. وحَدِبَتِ المرأةُ على ولَدها: أيَ أشْفَقْت عليه. والمُتَحَدِّبُ: المُتَعَلِّقُ بالشّيءِ المُلازِمُ له. انظر: لسان العرب: ١/ ٣٠١. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٩٣.

(٢) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/ ١٥٩ ـ ١٦١. الكامل في التّاريخ: ٢/ ٤٢ ـ ٤٣. وانظر: البداية والنّهاية: ٣/ ٤٠.

(٣) وانظر: الصّافات: ٣٦. الطّور: ٢٩. القلم: ٢، ٥١.

(٤) كاهن: الكاهِنُ: الّذي يَتعاطى الخبرَ عن الكائنات في مستقبل الزّمان ويدَّعي معرفة الأسرار. وقد كان في العرب كَهَنةٌ كشِق وسطيح وغيرهما. فمنهم من كان يَزْعُم أنّ له تابعاً من الجنّ ورئيّاً يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمُقدّمات أسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يُخصُّونه باسم العَرَّاف كالّذي يدَّعي معرفة الشّيء المسروق، ومكان الضّالة ونحوهما. لسان العرب: ١٣/ ٣٦٣.

(٥) وانظر: الحاقّة: ٤٢.

فقالوا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: ٥][1].

* وسموه بالسّحر فقالوا: ﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

* سلكوا معه سبيل الاستهزاء والسّخرية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنبياء: ٣٦][2].

* أثاروا حوله الشّبهات المضلّلة، والدّعايات المغرضة، والأراجيف الواهية، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النّحل: ١٠٣]، وقالوا: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

* قالوا عن القرآن الّذي جاء به: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٥].

* اتّهموه بالكذب، وادّعوا أنّه يقول عن الله ما لم يأمره به.

قال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤][3].

* سلكوا معه سبيل التّعجيز، فتمحّلوا في اقتراح الآيات عليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣][4].

---

(١) وانظر: الصّافات: ٣٦. الطّور: ٣٠. الحاقة: ٤١.

(٢) وانظر: الفرقان: ٤١ ـ ٤٢.

(٣) وانظر: الحجّ: ٤٢. فاطر: ٤، ٢٥.

(٤) وانظر: السّيرة النّبوية لابن هشام: ١/ ١٧٧ ـ ١٧٨.

ولمّا باءت هذه المسالك جميعها بالفشل، سلكوا سبلاً أخرى أنكى وأشد.

* حاولوا إغراءه بالمال والشّرف والملك علّه تلين له قناة، ويذعن لبغيتهم، ولكنّهم عادوا خائبين.

* أرادوا قتله والقضاء عليه، وحاولوا ذلك كرّات ومرّات، ولكن ذهبت محاولاتهم أدراج الرّياح.

* تفنّنوا في إيصال الأذى إليه بكلّ ما أمكنهم فعله، فما وصلوا إلى ما يريدون وما نالوا ما يبتغون[1].

* شنّوا عليه وعلى من وقف معه وآزره حرباً اقتصاديّة بشعة، استمرت ثلاثة أعوام عجاف[2]، أدّت بهم إلى أكل الجلود، وأوراق الأشجار. ولكنّها فشلت في القضاء على دعوته[3].

ولمّا بلغ به الأذى مبلغه خرج إلى ثقيف في الطّائف يلتمس النّصرة والمنعة بهم، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به، ولكنّهم ردّوه ردّاً منكراً، وآذوه أذى بالغاً عاد بعده إلى مكّة أسيفاً حزيناً[4].

* انتهت كلّ محاولاتهم بالإخراج والطّرد الّذي أدّى فيما بعد بتجريد السّيوف، وسفك الدّماء، وضرب الأعناق.

وهذا كلّه يحدث ورسول الله ﷺ ثابت على دعوته، لم يتراجع خطوة

---

(١) انظر: المرجع السّابق: ١/ ١٧٣ ـ ١٧٦. وانظر: الرّحيق المختوم، ص:٨٧ ـ ٨٩.

(٢) العَجَف: ذهاب السّمن والهزال. وقد عَجِفَ: بالكسر، وعَجُفَ بالضّم فهو أَعْجَفُ وعَجِفٌ. والأُنثى عجفاء وعجِفٌ بغير هاء، والجمع منهما عِجافٌ حملوه على لفظ سِمان. لسان العرب: ٩/ ٢٣٣. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٤١٤. القاموس المحيط، ص:١٠٧٩.

(٣) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/٢١٩. الكامل في التّاريخ: ٢/ ٥٩ ـ ٦٠. البداية والنّهاية: ٣/ ٩٣ ـ ٩٦. الرّحيق المختوم، ص:٩٧ ـ ٩٨.

(٤) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/ ٢٦٤. الكامل في التّاريخ: ٢/ ٦٣ ـ ٦٤. البداية والنّهاية: ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٧. الرّحيق المختوم، ص:١١٣.

عنها، ولم يتزحزح قيد أنملة. والآيات تتنزّل من ربّ العزّة تدعوه إلى الثّبات على الدّعوة وتأمره به، وتهيّجه عليه، وتصبّره وتطمئن قلبه.

فإن كذّبت فقد كذّب رسل الله قبلك، وإن أوذيت فقد أوذوا ولكنّهم ثبتوا فاثبت كثباتهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

قال ابن كثير رحمه الله:

«هذه تسلية للنّبيّ ﷺ وتعزية له، فيمن كذّبه من قومه، وأمر له بالصّبر، كما صبر أولو العزم من الرّسل، ووعد له بالنّصر كما نصروا، وبالظّفر حتّى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التّكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثمّ جاءهم النّصر في الدّنيا كما لهم النّصر في الآخرة»[(١)].

وقال السّعدي رحمه الله **في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: «ما به يثبّت فؤادك، ويطمئن به قلبك»**[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال ابن جرير رحمه الله:

«يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ مثبّته على المعنى لما قلّده من عبء الرّسالة، وثقل أحمال النّبوّة ﷺ، وأمره بالائتساء في العزم على النّفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الّذين صبروا على عظيم ما لاقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه من الأذى والشّدائد.. إلخ»[(٣)].

وقال الرّازي رحمه الله:

«اصبر كما صبر الرّسل من قبلك على أذى قومهم، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٠٩.
(٢) تسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢١٧.
(٣) جامع البيان: ٢٦/٣٧.
(٤) التّفسير الكبير: ٢٨/٣٥.

وقال صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فاصبر كما صبر أرباب الثّبات والحزم وأولو الجدّ والصّبر فإنّك منهم»[1].

وقال ﷻ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الشّورى: ١٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإلى ذلك الدّين الّذي شرع لكم، ووصّى به نوحاً، وأوحاه إليك يا محمّد، فادع عباد الله، واستقم على العمل به، ولا تزغ عنه، واثبت عليه كما أمرك ربّك بالاستقامة»[2]. والآيات في هذا المعنى وافرة.

وقد كان رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً وأنموذجاً فذّاً في الثّبات على دعوة الله، فاق من قبله من رسل الله، وأعجز من بعده أن يصلوا إلى ثباته.

وقد تحطّمت كبرياء قريش أمامه، وفشلت كلّ جهودهم في النّيل منه ومن دعوته، وتضعضعت قوّتهم أمام صبره، وتلاشت عزيمتهم أمام عزمه، وفترت هممهم أمام همّته.

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لا خفاء في أنّ النّبي ﷺ قد بَلَّغَ البلاغَ التّام، وقام به أتمّ القيام، وثبت في الشّدائد وهو مطلوب، وصبر على البأساء والضّراء وهو مكروب ومحروب، وقد لقي بمكّة من قريش ما يشيب النّواصي، ويهدّ الصّياصي، وهو مع الضّعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي»[3].

---

(١) فتح البيان: ١٣/ ٤١. وانظر: محاسن التّأويل: ١٥/ ٥٣٦٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٢٨ ـ ٧٢٩.

(٢) جامع البيان: ٢٥/ ١٧. وانظر: التّفسير الكبير: ٢٧/ ١٥٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٦٥. الجواهر الحسان: ٣/ ١٨٧. فتح البيان: ٢/ ٢٨٧. محاسن التّأويل: ١٤/ ٥٢٣٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٠١.

(٣) محاسن التّأويل: ٦/ ٢٠٦٨، وقد سبق من قبل: انظر: ٣٦٥.

ولمّا هاجر ﷺ إلى المدينة ظلّ يدعو إلى الله ﷻ بالقول واللّسان والسّيف والسنان، لم تفتر له عزيمة، ولم يخلد إلى راحة أبداً حتّى لقي ربّه.

بعث الكتب إلى الملوك، وأرسل السّرايا، وبعث البعوث، وغزا الغزوات، وشمّر عن ساعد الجدّ والسّاق.

وقام في الدّعوة خير قيام لم يسترح ولم يعش لنفسه ولا لأهله، قام وظلّ قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثّقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشريّة كلّها، عبء العقيدة كلّها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتّى، عاش في المعركة الدّائبة المستمرّة لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد منذ أن سمع النّداء العلوي الجليل، وتلقّى منه التّكليف الرّهيب[1].

فَبَشَّرَ ﷺ وأنذرَ، ورغّبَ ورهّبَ، ووعظ وذكّر، ونصح وأرشد، وخطب وبَلّغ، ودعا بقوله وفعله وخلقه، وسلك كلّ وسيلة حقّة توصل إلى الله، ونهج كلّ أسلوب سليم مقنع مؤثّر يُبَيّنُ دين الله تعالى، وهو مع ذلك ثابت لا يتزلزل.

وقد أمر الخلق بكلّ ما أمر الله به، ونهاهم عن كلّ ما نهى الله عنه، أمر بكلّ معروف، ونهى عن كلّ منكر، ودعا بإذن الله، ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به[2].

وحرص كلّ الحرص على هداية أمّته، وإنقاذها من عذاب الله، ونجاتها من عقابه، وإيصالها إلى مرضاته، وقد شهد الله له بذلك الحرص، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التّوبة: ١٢٨][3].

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٧٤٢ ـ ٣٧٤٣ بتصرّف.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦١ بتصرّف. وانظر: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ص: ١٢.

(٣) وانظر: النّحل: ٣٧. الكهف: ٦. الشّعراء: ٣.

ناراً، فجعل الجَنادِب[1] والفراش يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ[2] عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم[3] عن النّار وأنتم تفلّتُون من يدي»[4].

وفي هذا كمال حرصه، وعظيم اجتهاده في تخليص الأمّة من الهلكات، والأخذ بأيديها عن الوقوع في الدّركات، لشفقته وكمال رحمته[5].

وهو أحقّ الرّسل بقوله: «إنّه لم يكن نبيّ قبلي إلّا كان حقّاً عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم»[6].

وأثبت الله له في قرآنه أنّه قام بالدّعوة خير قيام، وبلّغ دين الله على الكمال والتّمام، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

أمره بالتّبليغ، وأوعده على عدمه، وضمن له العصمة إن قام به، فوفّى بما أُمر، واجتنب ما عنه حُذّر، ونال ما وُعِد به وبُشّر.

---

(١) الجنادِب: جَمْع جُنْدَب بِضَمّ الدّال وفَتْحِهَا وهو ضَرْب من الجرَادِ، وقيل هُو الّذي يَصرُّ في الحرّ. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٠٦.

(٢) يذبّهنّ: الذَّبُّ: الدّفْعُ والمَنْعُ. والذَّبُّ: الطّرْدُ. وذَبَّ عنه يَذُبُّ ذَبّاً: دَفَعَ ومنع. وذَبَبْتُ عنه، وفُلانٌ يَذُبُّ عن حَرِيمه ذَبّاً أي يَدْفَعُ عنهم. لسان العرب: ١/ ٣٨٠. وانظر القاموس المحيط، ص: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) بحجزكم: أصل الحُجْزَة: موضع شَدِّ الإزار، ثمّ قيل للإزار حُجْزَة للمُجاوَرة. واحْتَجَز الرّجُلُ بالإزار إذا شَدّه على وسَطه، فاسْتعاره للاعْتِصام والالتجاء والتّمسُّك بالشّيء والتّعلُّق به. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٤٤.

(٤) صحيح البخاري، نحوه في كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]: (٤٠/ ٤١)، برقم: (٣٤٢٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص: ٧٢٦، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب الانتهاء عن المعاصي: (٢٦)، برقم: (٦٤٨٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ص: ١٣٧٩.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الفضائل: (٤٣)، باب شفقته ﷺ على أمّته: (٦)، برقم: (٢٢٨٥)، عن جابر رضي الله عنه، نحوه برقم (٢٢٨٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه: ٤/ ١٧٨٩ ـ ١٧٩٠.

(٥) وانظر: المفهم: ٦/ ٨٧. شرح النّووي على مسلم: ١٥/ ٤٨ ـ ٥٠.

(٦) هذا جزء من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الّذي سبق ذكره في الفتن. انظر: ص: ٤٣.

ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: «ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرْيَة[1]. والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧]»[2].

وقد فعل صلوات الله وتسليماته عليه حتّى استطاع أن يوجد من قوم ضربوا بأطنابهم في الجهالة، وانحدروا إلى حضيض الأخلاق والطّباع، خير أمّة أخرجت للنّاس، حتّى أصبحت نبراساً[3] تهتدي به الأمم، وشعاعاً يُقْتَفى أثره في الظّلم، ونهجاً يسير بهديه المصلحون، والدّعاة الصّادقون.

وظلّ ﷺ داعية إلى الله بحقّ، ثابتاً على الدّعوة بصدق، قائماً بأمر الله صابراً محتسباً حتّى أعزّ الله دينه، وأعلى كلمته.

ولم يفارق ﷺ الحياةَ إلّا وأفواج من البشر تلج دين الله، وتلتزم بشرعه، وتتمسّك بهديه، ويتحقّق بذلك قول ربّه سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النّصر: ١ ـ ٣].

---

(١) الفرية: يقال: فَرَى يَفْرِي فَرْياً، وافْتَرى يفتري افِتراءِ، إذا كذب.
انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٤٣.

(٢) هذا جزء من حديث في:
صحيح البخاري، نحوه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧]: (٧/ ٦)، برقم: (٤٦١٢)، ص: ٨٦٧، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧]: (٤٦)، برقم: (٧٥٣١)، ص: ١٥٨٢.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣﴾ [النّجم: ١٣]: (٧٧)، برقم: (١٧٧)، ١/ ١٥٩.
وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ٦/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩. التّفسير الكبير: ١٢/ ٤٨ ـ ٥٠. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٥. الجواهر الحسان: ١/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩. روح المعاني: ٦/ ١٨٨ ـ ١٨٩. فتح البيان: ٤/ ١٨ ـ ٢٠. محاسن التّأويل: ٦/ ٢٠٦٧ ـ ٢٠٦٨.

(٣) النّبْراسُ: المِصْباح والسّراج، وهو ثلاثي مشتقٌّ من البِرْسِ الّذي هو القطن. لسان العرب: ٦/ ٢٢٥، بتصرّف يسير. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٧٤٣.

المطلب الثّاني

نوح عليه السلام

إنّ نوحاً عليه السلام أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض(١). وذلك بعد أن انحرفت الإنسانية عن الجادّة، واختلّت العقيدة، ودبّ الاضمحلال إلى التّوحيد، وسرى الوهن إلى القلوب، والضّلال إلى النّفوس.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلّهم على شريعة من الحقّ، فاختلفوا فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين»(٢). فكان أوّل من بعث نوح عليه السلام(٣)».

ولم يلق نبي من الأذى مثل ما لقي، لطول مُكْثِهِ(٤). وقد سلك مسلكاً عظيماً، واختطّ طريقاً قويماً في الثّبات على الدّعوة، يجب أن يقف عليه الدّعاة إلى الله كي يأخذوا العبرة، ويستشفّوا العظة، ويتأسّوا بثباته وصبره، وصلابته

---

(١) ثبت ذلك في حديث الشّفاعة الطويل:

انظر: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح: ١]: (٣)، برقم: (٣٣٤٠)، ص:٧٠١ ـ ٧٠٢، وكتاب التّفسير: (٦٥/٣٩)، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]: (٥/٤)، برقم: (٤٧١٢)، ص:١٠٠٠ ـ ١٠٠١.

صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب بيان أدنى أهل الجنّة منزلة فيها: (٨٤)، برقم: (١٩٣ ـ ١٩٤)، ١/١٨٠ ـ ١٨٦.

(٢) سبق تخريجه. انظر: ص:٤٠٨.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أنبيّ كان آدم؟ قال: «نعم مُكَلَّم». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرون قرون». الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، باب ذكر الإخبار عمّا كان بين آدم ونوح صلوات الله عليهما من القرون، برقم: (٦١٩٠)، ١٤/٦٩. مستدرك الحاكم: ٢/٢٨٨، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». معجم الطّبراني الكبير: ٨/١١٨. معجم الطّبراني الأوسط: ١/١٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/٣٧٤ عن قتادة رحمه الله.

(٤) وانظر: المرجع السّابق: ٢/٣٥٧.

في الحقّ، مع وعورة الطّريق، وصعوبة السّير، وطول الأمد. فقد أخبرنا ربّنا ﷻ أنّه ظلّ يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقد بذل غاية الجهد ومنتهى الوسع في دعوتهم، فكان يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وجهاراً، وخفية وعلناً علّهم يستجيبون، ولأمر الله ينصاعون، وبدين الله يلتزمون.

قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٥ ـ ٦].

وقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٨ ـ ٩].

وهي دعوة واضحة جليّة، صافية نقيّة، يكتنفها العطف، وتحفّها الشّفقة، في رقّة ولين، وتواضع جمّ، وأدب ثر. تنطلق من التّوحيد الّذي هو أصل دعوة الرّسل وأساسها الّذي تنبني عليه، وفي ذلك غاية النّصح.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ١ ـ ٣].

فهي عبارات لطيفة رقيقة، تسودها روح التّسامح، وتجلّلها الرّحمة والشّفقة، والصّدق والإخلاص، لأنّها تنبعث من قلب رحيم عطوف يخشى على قومه مصيراً هائلاً مخيفاً. وهي مع ذلك تتّسم بالإقناع، وقوّة الحجّة، بعيدة عن السّباب والشّتم والقسوة والتّنفير والتّعالي وحبّ الانتقام.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦٠ ـ ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٨][1].

وقد سلك في دعوتهم كلّ السّبل النّاجعة، واستخدم كلّ الأساليب الدّافعة لإيمانهم، والمانعة لتكذيبهم وكفرهم.

* رغبّهم بما عند الله من غفران الذّنوب، ونيل الثّواب وعظيم الأجر.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠].

* رغّبهم بما ينالهم من متاع عاجل، من طول أجل، وبسط عمر، مع كثرة الأمطار والأموال والبنين، والجنّات الظّليلة الوارفة، والأنهار المتدفقة ليجمعوا بين سعادة الدّنيا مع نعيم الآخرة.

قال سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٤].

وقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١١ ـ ١٢].

* رهبّهم من عذاب الله وشدّة بطشه، وأنّ أجلهم محدود، وعمرهم معدود.

قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال ﷻ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٤].

---

(١) وانظر الآيات بعدها.

* لفت نظرهم إلى آيات الله ومخلوقاته المحسوسة والمشاهدة كالسّماء والشّمس والقمر وآثارها ومنافعها في حياتهم. ووجّههم إلى مبدأ خلقهم، وكيف أنشأهم من تراب، خلقاً من بعد خلق، وأخرجهم منها كما يخرج النّبات، ثمّ يعودون إليها مرّة أخرى ثمّ يبعثون.

قال جلّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٨].

* ذكّرهم بنعم الله، وكيف بسط لهم الأرض وجعل فيها المسالك والفجاج ليسيروا فيها وينتفعوا بها.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٩ ـ ٢٠][1].

ومع كلّ ما بذل من نصح وإرشاد وتذكير وتبليغ واجهوه مواجهات سافرة، وردّوه ردّاً منكراً، وآذوه أذى بالغاً، وسلكوا كلّ فج، وتبعوا كلّ سبيل لدحض دعوته وبطلان شرعته.

وأوّل من واجهه رؤساؤهم وأشرافهم، لأنّ هؤلاء دائماً هم الّذين يقفون في وجه الحقّ خوفاً على سلطانهم ومكانتهم وعزّهم الزّائف، ودنياهم الفانية.

وأهالوا عليه وابلاً من الشّبهات، وسيلاً من المعوّقات، وجمهرة من الأراجيف، مشفوعة بالطّعن واللّمز والتّكذيب والإنكار.

* زعموا أنّه بشر فلا يختصّ بفضل ولا زيادة رتبة عليهم، فكيف يضع نفسه في مقام لم يدركوه، وينال منزلة لم يصلوا إليها، وإن اغترّ بأتباعه فإنّهم أراذل القوم وسفلتهم وهمجهم[2]، الّذين ينساقون وراء كلّ ناعق، ويتبعون كلّ

---

(١) وانظر: في أساليب نوح عليه السلام في الدّعوة: الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل، ص: ٢٩٥ ـ ٣٠٠.

(٢) الهَمَجُ: بفتحتين جمع هَمَجَةٍ وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها، ويقال للرعاع الحمقى إنّما هم هَمَجٌ. مختار الصّحاح، ص: ٦٩٨. وانظر: لسان العرب: ٢/ ٣٩٢. القاموس المحيط، ص: ٢٦٩.

زاعق، وقد تبعوه بغير تفكّر ولا رويّة، ولم يكونوا على بصيرة من أمرهم، بل بمجرد أن دعاهم أجابوه. وهم مع ذلك كاذبون مثله ـ هكذا زعموا ـ.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧][1].

* قابلوه بالسّخرية والاستهزاء والتّهكّم والاستهتار، كما حكى عنهم ذلك الرّب ﷻ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

* وصموه بالجنون وعدم العقل فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٥].

* قذفوه بالضّلال، وادّعوا أنّ ضلاله واضح لكلّ ذي عينين.

قال الحقّ سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠].

---

(١) وانظر: الشّعراء: ١١١ ـ ١١٤.
قال ابن كثير رحمه الله:
«هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلّة علمهم وعقلهم، فإنّه ليس بعار على الحقّ رذالة من اتّبعه. فإنّ الحقّ في نفسه صحيح سواء اتّبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحقّ الّذي لا شكّ فيه أنّ أتباع الحقّ هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والّذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. ثمّ الواقع غالباً أنّ ما يتبع الحقّ ضعفاء النّاس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزّخرف: ٢٣]. ولمّا سأل هرقل ملك الرّوم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النّبي ﷺ قال له فيما قال: «أشراف النّاس اتّبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرّسل».. إلخ ما ذكر. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٨٥. وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٥٤٣. وحديث أبي سفيان سبق ذكره، ص:٤٠١.

* لمّا أكثر من نصحهم وإرشادهم عكسوا الحقّ، وقلبوا الأمور، وأساؤوا وشوّهوا، فرموه بكثرة الجدل العقيم القليل النّفع.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢].

* توّجوا كلّ ذلك بالامتناع عن سماع نصحه، وتدثّروا بثيابهم بغضاً للحقّ، وفراراً عنه، مع الإصرار والاستكبار، كما ذكر المولى عنه: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧].

* جاهروا بالعصيان، وبالغوا في المكر والكيد والمعاندة، وتعصّبوا للآلهة الباطلة، وسعوا في الضّلال بكلّ معناه. كما أوضح ذلك ربّ العزّة في قرآنه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤].

عند ذلك تحدّاهم نوح عليه السلام في ثبات لا يعهد له مثيل، وبصبر لا يتطرّق إليه الضّعف، وقوّة عزيمة لا تزلزلها العواصف. قائلاً لهم في صلابة وثقة بالله: يا قوم إن كان عظم مقامي عندكم ولبثي بين أظهركم، وتذكيري إيّاكم، وسئمتموني، وأردتم أن تنالوا منّي بسوء، فإنّي معتمد على الله، متوكّل عليه في دفع كلّ شرّ يراد بي، ولست مبالٍ بكم، ولن أكفّ عن دعوتكم فاجتمعوا كلّكم، واجتهدوا في رأيكم، واحضروا شركاءكم الّذين تعبدونهم من دون الله، وليكن أمركم واضحاً علناً ليس بمشتبه ولا خفي، واقضوا عليّ ولا تمهلوني ساعة واحدة، وافعلوا ما قدرتم على فعله معي فإنّي لست بخائف منكم ولا هائب.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٢].

رجل وحده يواجه أمّة بأجمعها، مسفّهاً لدينها، معيباً لآلهتها، مضلّلاً لعقولها، وهي قد أجمعت على بغضه وعداوته، مع سطوتها وجبروتها، ويتحدّاها هذا التّحدّي العظيم بأن تفعل ما تستطيع، لهو رجل بلغ في الثّبات أوجه، وفي التّوكّل كماله، وفي اليقين غايته، وفي الصّلابة قمّتها. صلوات الله وتسليماته عليه[1].

ولمّا يئس نوح عليه السلام من هدايتهم، وأنّه لا فائدة من دعوتهم، وأخبره الله بأنّه لن يؤمن من قومه إلّا من آمن كما قال سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦][2].

هنالك دعا عليهم بالهلاك والاستئصال مبيّناً السّبب الّذي دفعه لذلك مع إخبار الله له بعدم إيمانهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧][3].

فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالغرق جميعاً، وأنجى نوحاً عليه السلام والمؤمنين، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧].

وجعل نسله وذريته هي الباقية، فجميع النّاس من نسله، وأبقى له الذّكر الجميل والثّناء الحسن لإحسانه في عبادة الله، وإحسانه إلى النّاس بقيامه بالدّعوة على أحسن الوجوه، وأفضل الطّرق مع الصّبر والثّبات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصّافات: ٧٧ ـ ٨٢][4].

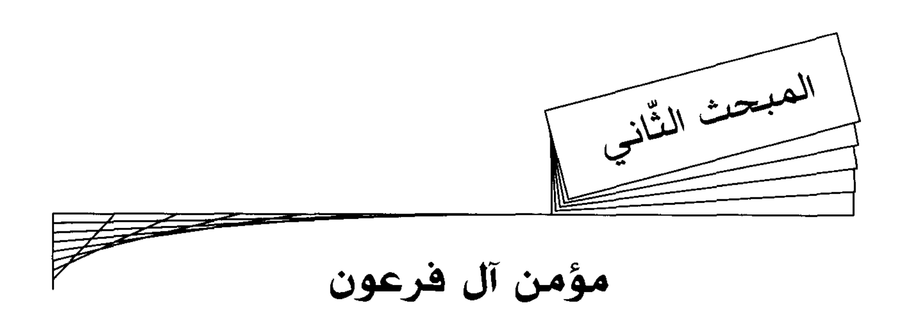
---

(١) وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣٢٥ ـ ٣٢٦. الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل، ص:٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٢) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/٣١٢.

(٣) وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٨٢٤.

(٤) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٩ ـ ٢٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٥٠ ـ ٦٥١.



مؤمن آل فرعون

هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى ﷺ، وكان يُسِرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه(١).

قيّضه الله تعالى لنصرة الحقّ والذّب عنه بأحسن الوجوه وأكمل الأساليب، ودافع عن موسى ﷺ دفاعاً عظيماً حتّى أزال ما قصده به فرعون من الشّرّ.

كان رجلاً عاقلاً حكيماً فطناً لبيباً دفعه إيمانه للوقوف في وجه الطّاغية فرعون موقفاً ترتجف له القلوب، وتنخلع له الأفئدة، ولا يثبت عنده إلّا المؤمنون الصّادقون، والمخلصون النّاصحون. وقد أرسل كلماته الّتي دوّنها له القرآن الكريم قويّة الحجّة، بليغة العبارة، شديدة الأثر، مع قلّتها وإيجازها، ولكنّها حوت بين طيّاتها دعوة كاملة شاملة أقضّت مضجع الطّاغية وزلزلت أقدامه، وأعجزته عن المواجهة فلجأ إلى الحيل، والسّبل الملتوية ليردّ كبرياءه ويثبت جبروته، ويعيد سطوته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ

---

(١) انظر: جامع البيان: ٢٤/ ٥٧.
ذكره البعض أنّه كان إسرائيليّاً يكتم إيمانه من آل فرعون. ففي الكلام تقديم وتأخير. والرّاجح إنّه كان قبطيّاً من آل فرعون. ولذا أصغى فرعون إلى قوله، وكفّ عمّا همّ به من قتل موسى ﷺ. ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجله بالعقوبة، لأنّهم مضطهدون عنده. انظر: جامع البيان: ٢٤/ ٥٨. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١١٧.

دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد زعم فرعون أنّه قاتل موسى عليه السلام، غير مبالٍ بربّه ولا عابئ به، وهذا منتهى الجحود وقمّة النكر مع التّجبّر والتّكبّر والغرور. وهو يزعم أنّه بذلك يريد إزالة الشّرّ من الأرض، وتطهيرها من الفساد النّاجم عن موسى عليه السلام، وهو بذلك ناصح مشفق على قومه. وهذا من أعجب ما يتصوّر أن يصبح أشرّ النّاس ناصحاً محذّراً من خير النّاس في وقته. وهذا معنى المثل الشّائع: صار فرعون مذكّراً.

فلجأ موسى إلى الله واستعاذ به فسخّر الله له هذا المؤمن الصّادق للدّفاع عنه والذّب عن الحقّ(١).

قال الرّازي رحمه الله:

«إنّه تعالى قيّض إنساناً أجنبيّاً غير موسى حتّى ذبّ عنه على أحسن الوجوه، وبالغ في تسكين تلك الفتنة، واجتهد في إزالة ذلك الشّرّ»(٢).

لقد انبرى المؤمن يدافع وينافح في ثبات وصلابة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

أي ذنب جناه وأي جريرة ارتكبها؟ لا شيء سوى إنّه قال: ربّي الله. وهل هذا ذنب يدعو لقتله؟ ولم يكن قوله مجرّداً من الحجّة، بل جاءكم بالبراهين النّيّرات، والحجج الدّامغات، الّتي عجزتم عن ردّها وإبطالها. فكان أولى بكم أن تكرّموه وتجلّوه وتعظّموه ولا تقتلوه(٣).

حجّة قويّة، وأسلوب مقنع، يحفّه العطف، ويوجّهه العقل الرّاشد السّديد، مفعم بالحزم والثّبات، مع شدّة الإنكار، ومهابة الموقف.

قال ابن كثير رحمه الله:

«خاف هذا المؤمن على موسى فتلطّف في ردّ فرعون بكلام جمع فيه

---

(١) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١١٦/٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٨٢.
(٢) التّفسير الكبير: ٥٧/٢٧.
(٣) وانظر: المرجع السّابق: ٥٧/٢٧. فتح البيان: ١٨٢/١٢.

التّرغيب والتّرهيب، فقال على وجه المشورة والرّأي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[1]، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإنّ فرعون لا أشدّ جوراً منه، وهذا الكلام لا أعدل منه لأنّ فيه عصمة نبيّ»[2].

ثمّ أردف المؤمن الحجّة بحجّة عقليّة مقنعة لمن كان له عقل فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

أي إنّ العقل والرّأي التّام والحزم يدعوكم أن تتركوه ولا تنالوه بأذى، لأنّه بين أمرين: إمّا أن يكون كاذباً، فهو حينئذ ضرره على نفسه، والله يجازيه بالعقوبة ولا يمسّكم من ذلك شيء. وإن كان صادقاً وقد آذيتموه فإنّه حينئذ يصبكم بعض ما يتوعّدكم به من العقاب، فينبغي تركه وعدم التّعرّض له[3].

---

(١) سنن أبي داود، بلفظه: في كتاب الملاحم: (٣٦)، باب الأمر والنّهي: (١٧)، برقم: (٤٣٤٤)، عن أبي سعيد رضي الله عنه وفيه زيادة. قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٧٤.
سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر: (١٣)، برقم: (٢١٧٤)، عن أبي سعيد رضي الله عنه وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦١.
سنن النّسائي، بلفظ مقارب في: كتاب البيعة: (٣٩)، باب فضل من تكلّم بالحقّ عند إمام جائر: (٣٧)، عن طارق بن شهاب رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٤٢.
سنن ابن ماجه، بلفظه: في كتاب الفتن: (٣٦)، باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٢٠)، برقم: (٤٠١١)، عن أبي سعيد رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٣١، وبلفظ مقارب، برقم: (٤٠١٢)، عن أبي أمامة رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص: ٤٣١.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ٦١، عن أبي سعيد رضي الله عنه، جزء من حديث طويل، وفي: ٤/ ٣١٤، ٣١٥، عن طارق رضي الله عنه، ونحوه في: ٥/ ٢٥١، ٢٥٦، عن أبي أمامة رضي الله عنه.
معجم الطّبراني الصّغير، بلفظ مقارب في: ١/ ١٠٧، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) البداية والنّهاية: ١/ ٢٦٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١١٧ ـ ١١٨.

=

ولم يكن ذلك شكّ منه في صدق موسى ﷺ، فقد وصفه الله بالإيمان، ولكنّه تلطّف في الخطاب، وترقيق للكلام في الوعظ، مع حسن العدل وتمام الإنصاف[1].

قال الألوسي رحمه الله:

«وفيه مبالغة في التّحذير فإنّه إذا حذّرهم من إصابة البعض أفاد أنّه مهلك مخوف فما بال الكلّ، وإظهار للإنصاف وعدم التّعصب ولذا قدّم احتمال كونه كاذباً»[2].

ثمّ قال المؤمن ناصحاً لقومه، مرشداً لهم، محذّراً إيّاهم من زوال نعم الله عنهم، وحلول نقمه بهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

لقد أنعم الله عليكم بنعمة الملك والظّهور في الأرض، فنفذت كلمتكم، وعظم جاهكم، فهلّا راعيتم تلك النّعمة فشكرتم الله وصدّقتم رسوله، وإن أبيتم فاحذروا بأس الله وسوء عذابه، فإنّ جندكم وقوّتكم لا تغني فتيلاً[3].

ومن حسن عرضه للموعظة رحمه الله أنّه نسب ما يسرّهم من الملك والظّهور في الأرض لهم دونه، ونظم نفسه معهم فيما يسوء من العذاب تطيباً لقلوبهم، ومبالغة في نصحهم، فهو ساع في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرّهم كسعيه في حقّ نفسه، ليصل النّصح إلى قلوبهم، ويبلغ أثره إلى نفوسهم[4].

وقد ظهرت حجّته، وبلغت مبلغها في نفس الحاضرين ممّا جعل فرعون يلجأ إلى المراوغة والإيهام، والتّضليل والكذب قائلاً لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

= قال الشّيخ السّعدي رحمه الله:

«وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الّذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تينك الحالتين. وعلى كلّ تقدير فقتله سفه وجهل منكم». تيسير الكريم الرّحمن، ص: ٦٨٣.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٠٧. فتح البيان: ١٢/ ١٨٣.

(٢) روح المعاني: ٢٤/ ٦٤. وقيل: المراد بالبعض عذاب الدّنيا، وقيل: بعض بمعنى كلّ. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨. روح المعاني: ٢٤/ ٦٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١١٨.

(٤) انظر: روح المعاني: ٢٤/ ٦٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٨٣.

وقد كذب ـ عليه لعائن الله فيم زعم ـ فقد كان مقرّاً في باطنه بصدق موسى عليه السلام، وأن ما جاء به حقّ، ولم يكن راشداً في أمره، بل كان على سفه وضلال، ولذلك أضلّ قومه وما هدى[1].

ولكنّ المؤمن لم يعبأ بقول فرعون ولم يهب منه، بل زاده ذلك ثباتاً وقوّة، لأنّ فرعون ترك ما عزم عليه ولجأ إلى هذه الحجّة الضّعيفة الباطلة.

فقال المؤمن مكرّراً الدّعوة إلى قومه غير آيس من هدايتهم، محذّراً إيّاهم أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم السّابقة الّذين تحزّبوا على أنبيائهم وكذّبوهم، فحلّ بهم من الدّمار والهلاك ما استأصل شأفتهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١][2].

ثمّ خوّفهم بالعذاب الأخروي عقب تخويفهم بالعذاب الدّنيوي ليكون أبلغ في ردّهم وأرجى لهدايتهم فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣][3].

وفي هذا تصريح لهم بإيمانه.

ولذا قال القرطبي رحمه الله:

«زاد في الوعظ والتّخويف، وأفصح عن إيمانه، إمّا مستسلماً موطّناً نفسه على القتل، أو واثقاً بأنّهم لا يقصدونه بسوء»[4].

وظلّ المؤمن رحمه الله يورد الحجّة بعد الحجّة، ويقيم الدّليل عقب الدّليل

---

(١) انظر: البداية والنّهاية: ١/ ٢٦١.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١١٩. روح المعاني: ٢٤/ ٦٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٨٣.

(٣) قال الرّازي رحمه الله:
«أمّا تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم، وإيقاظ من سِنة الغفلة، وإظهار أنّ له بهذا المهم مزيد اهتمام، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة». التّفسير الكبير: ٢٧/ ٧٠.
وقال القرطبي رحمه الله:
«فقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه». الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣١٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣١٠.

على صدق موسى عليه السلام وهو ثابت لا يتزعزع. فنصح وأرشد، وخوّف وأنذر، وحذّرهم من الدّنيا وزهّدهم في متاعها الزّائل، ورغّبهم في الآخرة، وأنّها لا تقارن بالدّنيا لما فيها من نعيم مقيم، وثواب عظيم، ورهّبهم من عذابها الدّائم، وعقابها الّذي لا ينقطع. وذلك بعد أن دعاهم إلى اتّباع موسى عليه السلام والتّصديق به، لأنّه هو الرّاشد الّذي على الحقّ ليس كما يدعي الطّاغية فرعون. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٠][١].

والتّرغيب بالنّعيم الدّائم، والتّرهيب عن العذاب الّذي لا ينقطع من أقوى وجوه التّرغيب والتّرهيب[٢].

ثمّ انبرى المؤمن مواجهاً بدعوته الملأ، مجاهراً ببطلان ما هم فيه، مضادّاً لفرعون فيما ذهب إليه، مستنكراً عبادتهم لفرعون ـ عليه لعائن الله ـ موبّخاً إيّاهم من الاستجابة لضلاله، مبيّناً لهم أن دعوة فرعون إلى النّار، وإنّما الدّعوة الحقّ هي دعوة موسى عليه السلام، وهي الّتي تقودهم إلى النّجاة وإلى الجنّة، لأنّها دعوة لعبادة الله وحده وهو المستحقّ للعبادة، الّذي له القوّة الكاملة، والعزّة الّتي لا تقهر، والّذي يتجاوز عن السّيئات ويغفر الذّنوب، وأن مردّ العباد يوم القيامة إليه، وأمّا فرعون فهو عاجز قاصر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً دعك عن غيره، فهو لا يستحق أن يعبد.

وفي ذلك يقول المولى سبحانه على لسان المؤمن البار الرّاشد: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا

---

(١) وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ٢٤/٦٧ ـ ٦٨. التّفسير الكبير: ٢٧/٦٨ ـ ٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٢١. روح المعاني: ٢٤/ ٧٠ ـ ٧١. فتح البيان: ١٢/١٩٢ ـ ١٩٣. محاسن التّأويل: ١٤/٥١٦٨ ـ ٥١٦٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٨٤.

(٢) انظر: التّفسير الكبير: ٢٧/ ٦٩.

تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٣][1].

لقد بالغ رَحِمَهُ اللهُ في بيان الحقّ ونُصحِ قومه، بثبات جأش وقوّة عزيمة، وإصرار منقطع النّظير، مع حسن الأسلوب وقوّة الحجّة، وتنوّع الموعظة.

ثمّ ختم كلامه بعبارة لطيفة حوت تخويفاً وتحذيراً شديداً لهم مع قوّة اليقين ورسوخ الإيمان حيث قال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضّحت لكم، وتتذكّرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم النّدم. وأتوكّل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، والله بصير بعباده، يهدي من يستحقّ الهداية، ويضلّ من يستحقّ الضّلال، وله الحجّة البالغة، والحكمة التّامّة، والقدر النّافذ[2].

عند ذلك أرادوا به كيداً فوقاه الله بلطفه وحفظه، وردّ كيدهم في نحورهم، وعاد مكرهم مكراً بهم، وحاق بهم عذاب الدّنيا متّصلاً بعذاب الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦][3].

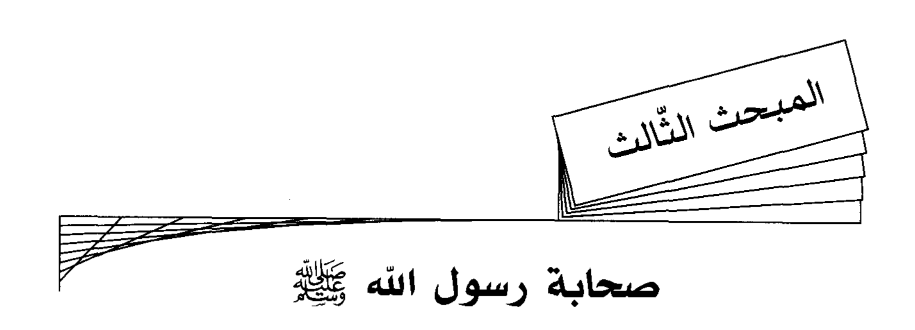
إنّه أنموذج لكلّ داعية صادق، يريد لدين الله أن ينتصر، ولدعوته أن تعلو. وفي سبيل ذلك لا يبالي بما يواجه من صعاب وشدائد مهما عظم أمرها، وزاد خطرها. فما عند الله أعظم، وفضله أعلى وأكرم، وخيره أعمّ وأنعم. فساعة من الصّبر والثّبات يقفها الدّاعية المخلص تدعو حاجة الدّعوة إليها تورثه نعيماً لا ينفد، وعزّاً لا يفقد، وسعادة إلى الأبد.

---

(١) وانظر معنى الآيات في: جامع البيان: ٢٤/ ٦٨ ـ ٧٠. التّفسير الكبير: ٢٧/ ٧٠ ـ ٧١. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٢٢. روح المعاني: ٢٤/ ٧١ ـ ٧٢. فتح البيان: ١٢/ ١٩٣ ـ ١٩٥. محاسن التّأويل: ١٤/ ٥١٦٩ ـ ٥١٧٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٢٢ بتصرّف يسير.

(٣) وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٨٥.



صحابة رسول الله ﷺ

إنّ الصّحابة رضي الله عنهم هم الّذين حملوا دعوة الله عز وجل على كواهلهم بعد رسول الله ﷺ، وعانوا في حملها ما عانوا، واجتهدوا في إبلاغها أعظم الاجتهاد، وضحّوا من أجلها أعظم التّضحيات.

أوذوا فيها أبلغ الأذى[1]، وصبروا على حملها أبلغ الصّبر. انطلقوْا بها في ربوع الأرض لا يعبئون بما يلاقونه من متاعب، ولا يكترثون بما يواجهونه من عقبات. استعذبوا في سبيلها الآلام، ولاقوا من أجلها أنواع المحن العظام. فما اهتزّ لهم عود، وما لانت لهم قناة، ولم يفلّ عزمهم الاضطهاد، ولم يوقف سيرهم الشّدائد الشّداد. بل صبروا صبر الأبطال، وثبتوا ثبات شوامخ الجبال. واصلوا ليلهم بنهارهم، وصبحهم بمسائهم، حتّى انتشرت دعوة الله في آفاق الأرض، وخفقت راياتها في البر والبحر، وظهر الحقّ بعد أن كان عافياً، وأضاء الكون بعد أن كان مظلماً.

ومواقف الصّحابة رضي الله عنهم في الثّبات على دعوة الله الّتي سطرها لهم التّاريخ تفوق حدّ الوصف، ويعجز اليراع أن يأتي عليها بما يفي، وتضيق هذه الصّفحات عن ذكرها. ولكنّي أمثل لها بمثالين لبطلين فذّين، وقفا موقفين متشابهين أمام طاغيتين جبّارين ظالمين سفّاحين، فما ارتجفت لهم بوادر[2]،

---

(١) انظر فيما لقي الصّحابة من الأذى: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/ ١٩٤ ـ ١٩٧. الكامل في التّاريخ: ٢/ ٤٥ فما بعدها. البداية والنّهاية: ٣/ ٤٩ فما بعدها. فتح الباري: ٧/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(٢) بوادر: جمع بادرة: اللّحمة الّتي بين المنكب والعنق. لسان العرب: ٤/ ٥٠.

وما انخلعت لهم قلوب، وما تضعضعت لهم عزائم، وما زلّت لهم أقدام.

لم تمنعهما مهابة المقام أن يبلغا دعوة الله، ولم يثن عزمهما ويدخل الهلع إلى قلوبهما سيوف مصلتة، ولا رماح مشرعة، ولا أعداء بالشرّ متربّصة. بل قالا الحقّ وصدعا به بعزّة نفس، وصدق إيمان، وقوّة عزم، وثبات قلب.

* أولهما: النّعمان بن مُقَرّن رضي الله عنه:

بعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في جماعة من أشراف القوم إلى يَزْدَجْرِد[1] ملك الفرس ليدعوه إلى الله، وكان متكبّراً قليل الأدب.

فلمّا وقفوا بين يديه قال لتَرْجُمَانه[2]: سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا؟ والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أنّنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فقال النّعمان بن مقرّن رضي الله عنه لأصحابه: «إن شئتم تكلّمت عنكم، ومن شاء آثرته، فقالوا: بل تكلّم».

فقال: «إنّ الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشرّ، ووعدنا على إجابته خير الدّنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلّا وقاربه منها فرقة، وتباعد عنه بها فرقة، ثمّ أمر أن نبتدئ إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم،

---

(١) هو يَزْدَجْرِد بن شهريار بن أبرويز، آخر ملوك الفرس. مُلّك عليهم في العام الّذي بويع فيه للصّدّيق رضي الله عنه، وقيل: في عهد عمر رضي الله عنه. وكان حديث السّن، ضعيفاً في أمره، قتل سنة ٣١هـ هارباً من جيوش المسلمين في خلافة عثمان رضي الله عنه بعد معارك عديدة، استمرّ ملكه عشرين عاماً.

وانظر: تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العبّاسي، طبعة: دار صادر، بيروت: ١/ ١٧٤، ٢/ ١٤٣. تاريخ الطّبري: ١/ ١٢٠، ٤٩٤، ٢/ ٢٥٣، ٣٧٩، ٦٢٠، طبعة: دار الكتب العلميّة. البدء والتّاريخ: ٣/ ١٧٣، ٥/ ١٩٦. المنتظم: ٣/ ٣١٣، ٤/ ١٦٠، ١٦٤، ٢٣٦، ٥/ ١٣، ١٤. الكامل في التّاريخ: ١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨، طبعة: دار الكتب العلميّة. وفيات الأعيان: ٤/ ٣٦١. البداية والنّهاية: ٧/ ٣٠ ـ ١٢٩. النّجوم الزّاهرة: ١/ ٨٨.

(٢) التّرْجَمَان: المفسّر للسان، بالضّم والفتح، وهو الّذي يُتَرْجِم الكلام، أي ينقله من لغة إلى لغة أُخرى، والجمع التّراجِم. والتّاء والنّون زائدتان؛ وقد تَرْجَمه وتَرْجَم عنه. لسان العرب: ١٢/ ٦٦. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٢٣٦. القاموس المحيط، ص: ١٣٩٩.

فدخلوا معه على وجهين: مكره عليه فاغتبط[١]، وطائع فازداد. فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الّذي كنّا عليه من العداوة والضيق. ثمّ أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف. فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسَن، وقبّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمر من الشّرّ هو أهون من آخر شرّ منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة[٢]، فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلّا قاتلناكم»[٣].

* ثانيهما: ربْعي بن عامر رضي الله عنه:

لمّا طلب رستم قائد الفرس من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يرسل له رجلاً يكلّمه، فأرسل إليه ربعيّاً رضي الله عنه.

فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنّمارق[٤] المذهّبة، والزّرابي[٥] الحرير، وأظهر اليواقيت واللّآلئ الثمينة، والزّينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثّمينة.

وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة[٦]،

---

(١) اغتبط: أي حسن حاله، أو فرح بالنّعمة. وانظر: لسان العرب: ٧/ ٣٥٩. مختار الصّحاح، ص:٤٦٨. القاموس المحيط، ص:٨٧٧.

(٢) المُناجَزَةُ: المُبارزةُ والمقاتلة، وهو أن يَتَبَارَزَ الفارسان فيتمارسا حتّى يُقْتلَ كلُّ واحد منهما صاحبه أو يَقْتُل أحدهما. لسان العرب: ٥/ ٤١٤. وانظر: القاموس المحيط، ص:٦٧٧.

(٣) الكامل في التّاريخ: ٢/ ٣١٥. وانظر: البداية والنّهاية: ٧/ ٤١ ـ ٤٢. إتمام الوفا في سيرة الخلفاء، للشّيخ محمّد الخضري، تحقيق: عبد المجيد طعمة حلبي، الطّبعة الأولى،١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، دار المعرفة، بيروت، ص:٧٣ ـ ٧٤.

(٤) النّمَارِق: جمع نُمْرُقة وهي الوسادة. انظر: مختار الصّحاح، ص:٦٨٠. لسان العرب: ١٠/ ٣٦١. القاموس المحيط، ص:١١٩٦.

(٥) الزّرابيُّ: البُسُطُ؛ وقيل: كلّ ما بُسِطَ واتُّكِئَ عليه؛ وقيل: هي الطّنافِسُ، واحدها زُرْبِي ويكسر. انظر: لسان العرب: ١/ ٤٤٧. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٢٧٠. القاموس المحيط، ص:١٢٠.

(٦) ثوب صَفِيق: مَتِين بيّن الصّفاقة، وقد صَفُقَ صَفاقةً: كُثف نسجه، وأَصْفَقَه الحائك. لسان العرب: ١٠/ ٢٠٤.

وسيف وتُرْس[1] وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتّى داس بها على طرف البساط، ثمّ نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته[2] على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: «إنّي لم آتكم، وإنّما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلّا رجعت»، فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكّأ على رمحه فوق النّمارق فخرق عامّتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتّى نفضي إلى موعود الله»، قالوا: وما موعود الله؟ قال: «الجنّة لمن مات على قتال من أبى، والظّفر لمن بقي».

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتّى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: «نعم! كم أحبّ إليكم؟ يوماً أو يومين؟». قال: لا، بل حتّى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: «ما سنّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخّر الأعداء عند اللّقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل»، فقال: أسيّدهم أنت؟ قال: «لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجيز[3] أدناهم على أعلاهم[4]».

فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرّجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب،

---

(١) التّرْس من السّلاح: المُتَوقَّى بها، وجمعه أَتْرَاسٌ وتِراسٌ وتِرَسَةٌ وتُروسٌ وترس، فهو آلة يتترّس بها: أي يحتمي ويتستّر بها. وانظر: لسان العرب: ٦/ ٣٢:. القاموس المحيط، ص:٦٨٨.

(٢) البيضة: هي الحَوْزَة الّتي يلبسها الفارس على رأسه وتصنع من الحديد. انظر: مختار الصّحاح، ص:٧١. لسان العرب: ٧/ ١٢٤. القاموس المحيط، ص:٨٢٣.

(٣) يجير: أي ينقذ ويعيذ. انظر: لسان العرب: ٤/ ١٥٤. القاموس المحيط، ص:٤٧١.

(٤) في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال ﷺ: «والمؤمنون يد على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يجير عليهم أوّلهم، ويردّ عليهم أقصاهم». الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، باب ذكر القصاص في القتل، برقم: (٥٩٩٦). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١٣/ ٣٤٠.

أما ترى إلى ثيابه؟. فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثّياب، وانظروا إلى الرّأي والكلام والسّيرة. إنّ العرب يستخفّون بالثّياب والمأكل، ويصونون الأحزاب»[1].

هذان مثلان قيّمان، وأنموذجان عظيمان، بلغا في التّضحية والثّبات مبلغاً بعيد المدى. وهما قطرة من فيض في أمثلة متوافرة، ونماذج متكاثرة، حفظها التّاريخ لقوم صحبوا رسول الله ﷺ، فحملوا الدّعوة معه وبعده في وقت مهول مخوف، أطبقت فيه أُمم الأرض على عداوتهم، وأسفرت عن وجوه كالحة لدعوتهم، فما أقعدهم ذلك ولا ثبّطهم عن نصرة دين الله، والذّب عن شرع الله، وإيصاله إلى كلّ فرد أمكنهم إيصاله إليه، باذلين المهج، راكبين الصّعب، مصارعين الأهوال، مواجهين المشاقّ، همّهم أن تعلوا كلمة الله، وأن تسود الأرض دعوة الله، فيخرج أثر ذلك العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدّنيا إلى سعة الدّنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وقد فعلوا، وتركوا آثاراً مضيئة، وبصمات مشعّة خلّدها لهم التّاريخ بأحرف من نور لتكون نبراساً يضيء طريق الأجيال المتعاقبة من بعدهم. وليقف أبناء الإسلام عندها مترسّمين خطاها، سائرين على منوالها، مفاخرين بها الأمم:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع[2]

والدّعوة اليوم تئن من وطأة ظلم أهلها لها، وتشكو إلى ربّها من نكول الدّعاة عنها ـ إلّا من رحم الله، وقليل ما هم ـ وتنادي أبناءها بصوت كليل مبحوح: إليّ إليّ أحفاد ربعي والنّعمان، لقد رفع هامتي آباؤكم، وعظّم قدري أجدادكم، فهلّا فعلتم كما فعلوا، وقمتم بما قاموا؟ فإنّ العالم بأسره محتاج إليّ، متشوّق للقائي. أفيقوا من ثباتكم، وضمّدوا جراحاتكم، ورمّموا صفوفكم، وأزيلوا خلافاتكم واتحدّوا وتعاونوا، فإنّي مللت من طول الانتظار حتّى كدت أيأس، فعجّلوا عجّلوا.

---

(١) البداية والنّهاية: ٣٩/٧ ـ ٤٠. وانظر: الكامل في التّاريخ: ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١. إتمام الوفا، ص: ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) ديوان الفرزدق، ص: ٣٦٠.

الباب الرّابع

الثبات في الجهاد

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: معاني الجهاد في اللّغة والشّرع.

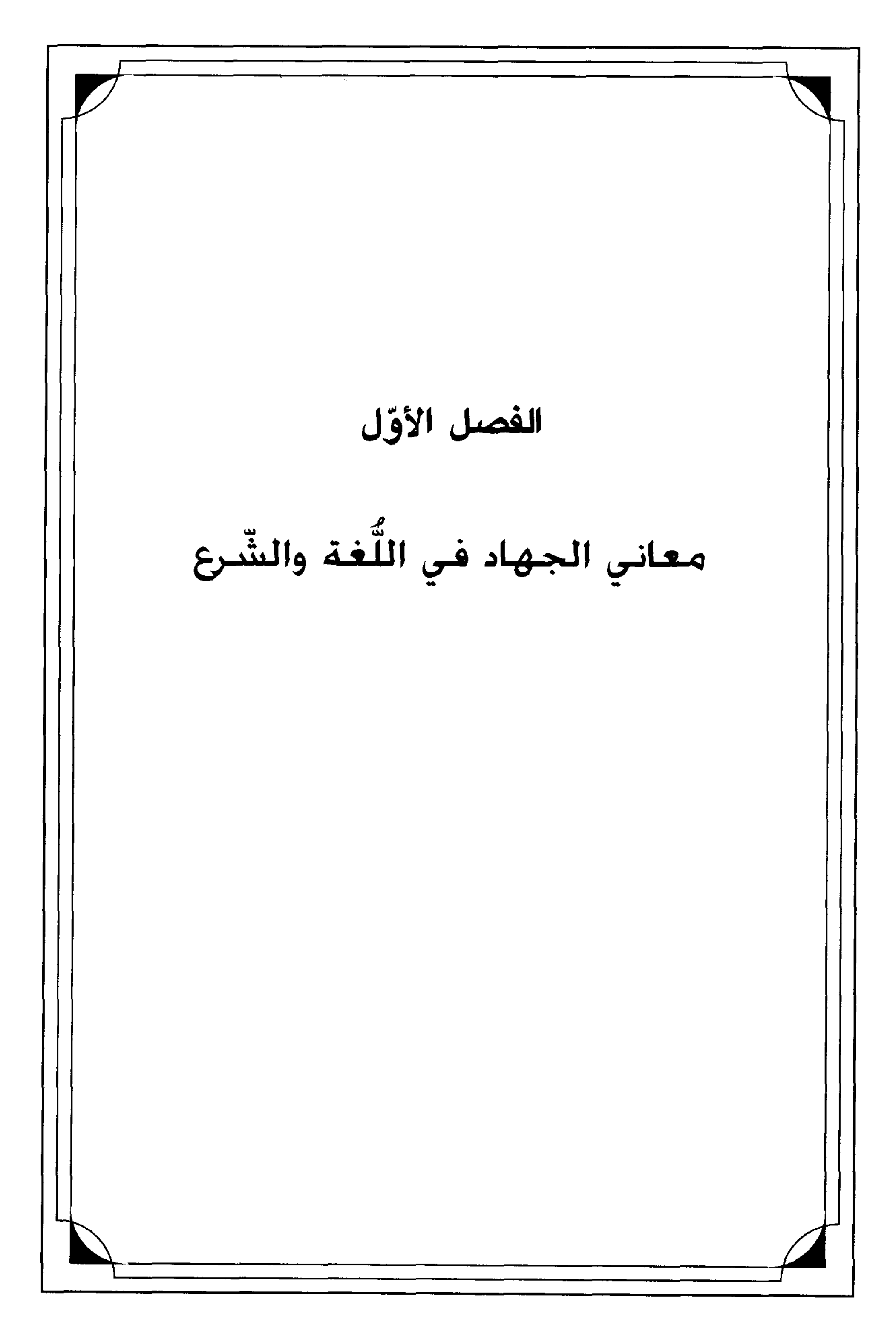
الفصل الثّاني: مراحل تشريع الجهاد وأنواعه.

الفصل الثّالث: حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه.

الفصل الرّابع: عوامل الثبات في الجهاد.

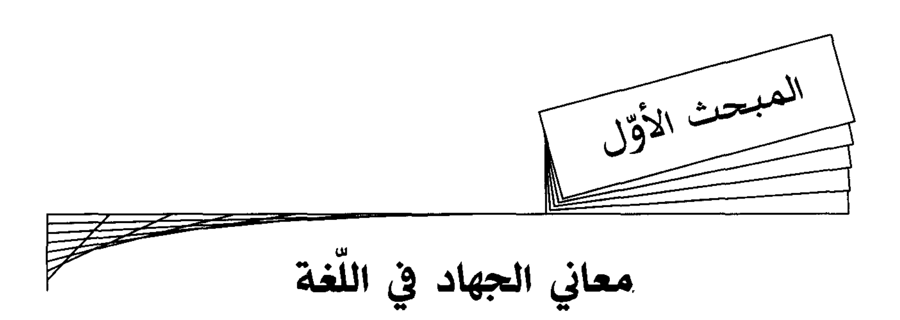
الفصل الخامس: نماذج للثبات في الجهاد.





الفصل الأوّل

معاني الجهاد في اللُّغة والشّرع



معاني الجهاد في اللّغة

الجهد بفتح الجيم: المشقّة والغاية، وبضمّها: الطّاقة(١).

قال ابن دريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والجَهْد والجُهْد لغتان فصيحتان بمعنى واحد. بلغ الرّجل جُهده وجَهده ومجهوده: إذا بلغ أقصى قوّته وطوقه»(٢).

وجمهور العلماء على التّفريق بين لغتي الفتح والضمّ(٣).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بالضمّ: الوسع والطّاقة، وبالفتح: المشقّة، وقيل: المبالغة والغاية. وقيل: هما لغتان في الوسع والطّاقة، فأمّا في المشقّة والغاية فالفتح لا غير»(٤).

---

(١) انظر: تهذيب اللّغة: ٦/ ٣٧. مقاييس اللّغة: ١/ ٤٨٦. مجمل اللّغة: ١/ ٢٠٠. الصّحاح: ٢/ ٤٦٠. أساس البلاغة: ١/ ١٤٤. المحكم والمحيط الأعظم في اللّغة لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق عبد السّتّار أحمد فراج، الطّبعة الأولى، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، مطبعة: مصطفى الحلبي، بمصر: ٤/ ١١٠. مختار الصّحاح، ص: ١١٤. المصباح المنير: ١/ ١٢٢. لسان العرب: ٣/ ١٣٣. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٢) كتاب جمهرة اللّغة، لأبي بكر محمّد بن الحسن الأزدي البصري المشهور بابن دريد، طبعة: مؤسّسة الحلبي وشركاه، القاهرة، نشر: دار صادر: ٢/ ٧١.

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١/ ٢٢٦.

(٤) النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٠.
وانظر: المصباح المنير، ص: ١/ ١٢٢. ومعجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

وقيل: الضمّ لغة أهل الحجاز، وبالفتح لغة غيرهم[1].

وقد أطلقت كلمة الجهد عدّة إطلاقات في اللّغة وكلّها تدور حول المعنيين السّابقين.

فيقال: جَهَد الرّجلَ: أي ألحّ عليه في السّؤال[2]. وجَهَد الرّجل في كذا: أي جدّ فيه وبالغ[3]. وجَهَده المرض: هزله[4]. وجَهَد به: امتحنه عن الخير وغيره[5]. وجَهَد دابّته وأجهدها: إذا حمل عليها في السّير فوق طاقتها[6]. وجهدتّ اللّبن جهداً: إذا مزجته بالماء ومخضته حتّى استخرجت زبده فصار حلواً لذيذاً[7]. وأجهد الطّعام: إذا حمل عليه بالأكل الكثير الشّديد[8]. وجَهِد عيش القوم: إذا نكد واشتدّ[9].

ويقال: أجهد: إذا احتاط[10]، وإذا اختلط[11]. وأجهد فيه الشّيب

---

(١) المصباح المنير: ١/ ١٢٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٢) أساس البلاغة: ١/ ١٤٤. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢.

(٣) الصّحاح: ٢/ ٤٦٠. مختار الصّحاح، ص: ١١٤. لسان العرب: ٣/ ١٣٣.

(٤) المحكم: ٤/ ١١١. لسان العرب: ٣/ ١٣٣. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٥) انظر: المحكم: ٤/ ١١١. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧.

(٦) الصّحاح: ٢/ ٤٦٠. مختار الصّحاح، ص: ١١٤. المصباح المنير: ١/ ١٢٢. لسان العرب: ٣/ ١٣٣. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٧) المصباح المنير: ١/ ١١٢. وانظر: لسان العرب: ٣/ ١٣٥. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٨) معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٤٨٧. مجمل اللّغة: ١/ ٢٠٠. وانظر: الصّحاح: ٢/ ٤٦٠. لسان العرب: ٣/ ١٣٥. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٩) انظر: الصّحاح: ٢/ ٤٦١. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢.

(١٠) لسان العرب: ٣/ ١٣٤. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(١١) تهذيب اللّغة: ٦/ ٣٩. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

إجهاداً: إذا بدا فيه وكثر[1]. وأجهد لك الطّريق أو الحقّ: إذا برز وظهر ووضح[2]. وأجهد ماله: إذا أفناه وفرّقه[3]. وأجهد القوم: إذا أجدبوا[4]. وإذا أشرفوا[5]. وجاهدوا جهاداً: إذا بذل وسعه وطاقته في طلبه ليبلغ مجهوده ويصل إلى نهايته[6]. وجاهد العدوّ مجاهداً، وجهاداً: إذا قاتله[7].

والجهاد والتّجاهد والمجاهدة: بذل الوسع والمجهود[8].

والجَهَاد - بالفتح -: الأرض الصّلبة[9]. أو الغليظة. وقيل: المستوِية[10].

فالجهاد ورد في اللّغة بمعاني متعدّدة منها: الإلحاح، والجد، والهُزال، والامتحان، والشّدة، والاحتياط، والاختلاط، والوضوح، والتّفريق، والجدب، والبذل، والطّاقة، والمشقّة، والقتال. وكلّ هذه المعاني يلمح فيها معنى المشقّة وبذل الوسع.

---

(١) تهذيب اللّغة: ٦/ ٣٩. وانظر: أساس البلاغة: ١/ ١٤٤. المحكم: ٤/ ١١١. لسان العرب: ٣/ ١٣٣. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٢) انظر: تهذيب اللّغة: ١/ ٣٩. لسان العرب: ٣/ ١٣٤. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٣) انظر: تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٤) انظر: لسان العرب: ٣/ ١٣٤. تاج العروس: ٤/ ٤٠٩.

(٥) انظر: تهذيب اللّغة: ٦/ ٣٩. لسان العرب: ٣/ ١٣٤. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٦) المصباح المنير: ١/ ١٢٢. وانظر: لسان العرب: ٣/ ١٣٥. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٧) المحكم: ٤/ ١١١. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(٨) انظر: الصّحاح: ٢/ ٤٦١. مختار الصّحاح، ص: ١١٤. لسان العرب: ٣/ ١٣٥. تاج العروس: ٤/ ٤٠٨.

(٩) معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٤٨٧. مجمع اللّغة: ١/ ٢٠٠. الصّحاح: ٢/ ٤٦١. لسان العرب: ٣/ ١٣٤. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧. المعجم الوسيط: ١/ ١٤٢. معجم متن اللّغة: ١/ ٥٨٧.

(١٠) المحكم: ٤/ ١١١. لسان العرب: ٣/ ١٣٤. تاج العروس: ٤/ ٤٠٧.



معاني الجهاد في الشّرع والاصطلاح

وردت لفظة الجهاد في القرآن والسّنة كثيراً جداً، وهي لا تخرج في إطلاقاتها عن المعاني اللّغوية السّابقة مع أنّ اللّغة في ذلك أوسع دائرة وأشمل. وهي مع ذلك لا تخرج عن ما فيه مشقّة، واستفراغ ما في الوسع من طاقة.

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدّعوة الإسلاميّة والدّفاع عنها[1].

وقد يرد في غير ذلك: كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٣].

أي حلفوا واجتهدوا في الحلف على أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم[2].

قال الرّاغب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدوّ الظّاهر، ومجاهدة الشّيطان، ومجاهدة النّفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨][3].

ومن إطلاقاته في السّنّة:

ما ورد في حديث الأعمى والأقرع والأبرص: «فوالله لا أجهدك اليوم

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١/٢٢٦.
(٢) المفردات في غريب القرآن، ص:١٠١.
وانظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١/٢٢٦.
(٣) المفردات في غريب القرآن، ص:١٠١.

بشيء أخذته لله»[1]، أي لا أشقّ عليك وأردّك في شيء تأخذه من مالي لله تعالى[2].

وفي حديث أمّ معبد[3]: «شاة خلّفها الجَهْد عن الغنم»[4]، أي الهزال[5].

وفي حديث الحسن: «لا يُجْهِدُ الرّجلُ ماله ثمّ يقعد يسأل النّاس»[6]، أي يفرّقه جميعه هاهنا وهاهنا[7].

وفي دعائه ﷺ: «أعوذ بك من جهد البلاء»[8]، أي أعوذ بك من الحالة الشّاقة الّتي يمتحن بها الإنسان حتّى يختار عليها الموت ويتمنّاه[9].

وفي حديث الغسل: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثمّ جهدها»[10]، أي دفعها وحفزها[11].

---

(١) الحديث سبق تخريجه. انظر: ص: ٣٩٠.
(٢) النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٠.
(٣) هي عاتكة بنت خالد بن خليفة الخزاعيّة، وهي الّتي نزل عليها النّبي ﷺ لمّا هاجر، مشهورة بكنيتها، وقد أسلمت.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٨/ ٢٨٨. الجرح والتّعديل: ٩/ ٤٦٦. ثقات ابن حبّان: ٣/ ٣٢٥. الإصابة: ٨/ ٣٠٥.
(٤) هذا جزء من حديث أمّ معبد الطّويل في شأن هجرة النّبي ﷺ: وهو في:
مستدرك الحاكم، بلفظه في: ٣/ ١٠، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه ـ ولم يقل: «شاة» ـ في: ٤/ ٤٩.
(٥) كتاب الغريبين: ١/ ٤٢٦. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٠.
(٦) هذا الحديث أورده في الأثير في النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٠، ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث الّتي رجعت إليها.
(٧) المرجع السّابق: ١/ ٣٢٠. وانظر: كتاب الغريبين: ١/ ٤٢٦.
(٨) سبق تخريجه، انظر: ص: ٣٥٢.
(٩) انظر: المرجع السّابق: ١/ ٤٢٧. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٠.
(١٠) صحيح البخاري، بلفظه وتمامه: «فقد وجب الغسل» في: كتاب الغسل (الوضوء): (٥/ ٤)، باب إذا التقى الختانان: (٢٨/ ١٠٧)، برقم: (٢٩١)، ص: ٧٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الحيض: (٣)، باب نسخ «الماء من الماء» ووجوب الغسل بالتقاء الختانين: (٢٢)، برقم: (٣٤٨)، ١/ ٢٧١.
(١١) النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٠.

وتعريف الجهاد الاصطلاحي أيضاً أخذ من معناه اللّغوي الّذي استقي من المشقّة وبذل الطّاقة، وذلك ما أشار إليه القسطلاني رَحِمَهُ اللهُ بقوله:

«والجهاد بكسر الجيم مصدر جاهدت العدوّ مجاهدة وجهاداً، وأصله جيهاد كقيتال فخفّف بحذف الياء، وهو مشتقّ من الجهد بفتح الجيم وهو التّعب والمشقّة لما فيه من ارتكابها، أو من الجهد بالضّم وهو الطّاقة، لأنّ كلّ واحد منهما بذل طاقته في دفع صاحبه.

وهو في الاصطلاح: قتال الكفّار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله. ويطلق أيضاً على جهاد النّفس الشّيطان وهو من أعظم الجهاد، والمراد بالتّرجمة الأوّل»[1].

فالجهاد في اصطلاح أهل العلم من المحدّثين والفقهاء:

بذل الجهد في قتال الكفّار لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه[2].

وإن كان يطلق أيضاً على جهاد النّفس، كما جاء في حديث فضالة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذّنوب»[3].

---

(١) إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري، لأبي العبّاس شهاب الدّين أحمد بن محمّد القسطلاني، مؤسّسة الحلبي وشركاه، الطّبعة السّادسة، ١٣٠٤هـ، المطبعة: الكبرى الأميريّة ببولاق، مصر: ٥/ ٣١.

(٢) انظر: فتح الباري: ٦/ ٧٧. نيل الأوطار: ٨/ ٢٥. أهميّة الجهاد في نشر الدّعوة الإسلاميّة والرّد على الطّوائف الضّالة فيه،لعليّ بن نفيع العلياني، دار طيبة، الرّياض، الطّبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص:١١٦.
الجهاد في الإسلام بين الطّلب والدّفاع، لصالح اللّحيدان، نشر دار اللّواء، الرّياض، ١٣٩٧هـ، ص:١٧.

(٣) هذا الحديث أصله في الصّحيحين وغيرهما بطرق متعدّدة. انظر:
صحيح البخاري، كتاب الإيمان: (٢)، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: (٤)، برقم: (١٠)، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ص:١٦، كتاب الرّقاق: =

فيجاهد الإنسان نفسه على تعلّم الهدى ودين الحقّ، وعلى العمل به، والدّعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، والصّبر على مشاقّ الدّعوة وأذى الخلق[1]. وهذا أصل الجهاد وأساسه[2].

كما يطلق على جهاد الشّيطان الّذي أمر الله تعالى باتّخاذه عدوّاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

وفي ذلك تنبيه على استفراغ الوسع في مجاهدته[3]. فيجاهد بدفع ما يلقى من الشّبهات والشّكوك والشّهوات والإرادات الفاسدة[4].

ويطلق أيضاً على جهاد المنافقين لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

= (٨١/ ٥٥)، باب الانتهاء عن المعاصي: (٢٦)، برقم: (٦٤٨٤)، ص: ١٣٧٩.
صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب بيان تفاضل الإسلام، وأيّ أموره أفضل: (١٤)، برقم: (٤١)، عن جابر ﷺ، وبرقم: (٤٢)، عن أبي موسى ﷺ: ١/ ٦٥ ـ ٦٦.
وهو باللّفظ أعلاه في: مسند أحمد: ٦/ ٢١.
والإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، في باب ذكر البيان بأنّ كلّ هجرة ليس فيها التّحوّل من دار الكفر إلى دار الإسلام، برقم: (٤٨٦٢). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١١/ ٢٠٣.
وانظر أيضاً: مسند أحمد: ٦/ ٢٢. مستدرك الحاكم: ١/ ٥٤، وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٢/ ٨١، برقم: (٥٤٩).

(١) انظر: زاد المعاد: ٣/ ١٠.

(٢) قال ابن القيّم رحمه الله:
«ولمّا كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النّبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، كان جهاد النّفس مقدّماً على جهاد العدوّ في الخارج وأصلاً له، فإنّه ما لم يجاهد نفسه أوّلاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوّه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوّه والانتصاف منه وعدوّه الّذي بين جنبيه قاهر له، متسلّط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوّه حتّى يجاهد نفسه على الخروج». المرجع السّابق: ٣/ ٦. وانظر: أهميّة الجهاد، ص: ١٢١.

(٣) انظر زاد المعاد: ٣/ ٦.

(٤) انظر: المرجع السّابق: ٣/ ١٠.

وقد تباينت أقوال العلماء في كيفية جهادهم:

فذهب قوم إلى أنّهم يجاهدون باللّسان وإقامة الحجّة عليهم والغلظة وعدم الرّفق بهم.

وقال آخرون: بل يجاهدون بإقامة الحدود عليهم.

وقيل: يجاهدون كجهاد الكفّار وذلك بالسّيف والسّنان[١].

ورجح ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول الأخير. ولكن ذلك لمن أظهر النّفاق وأبان كفره[٢]. وإن كان جمهور العلماء على جهادهم باللّسان وإقامة الحجّة عليهم، إلّا إنّ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنّه لا منافاة بين تلك الأقوال، لأنّه تارة يؤاخذون بهذا وتارة بهذا، بحسب الأحوال[٣]. وقوله أولى بالأخذ لاختلاف أحوال المنافقين.

لكن لفظ الجهاد إذا أطلق إنّما يعني قتال الكفّار لإعلاء دين الله ونصرته، ولا ينصرف إلى غيره إلّا بقرينة، وهو الّذي دلّت على فضله النّصوص، وبوّب له علماء الإسلام في كتبهم[٤]. وهو المقصود بالحديث في هذا الموطن.

---

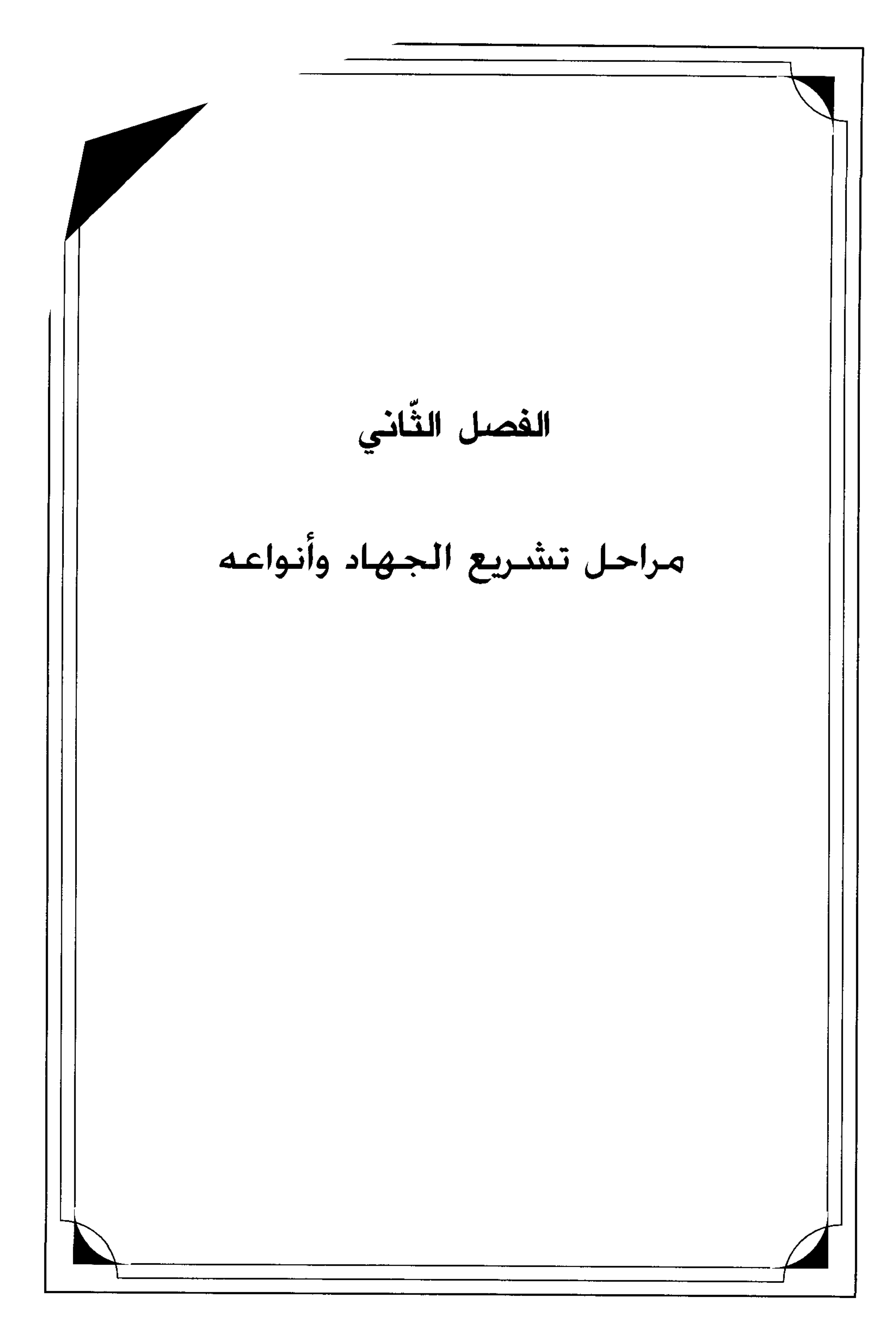
(١) انظر: جامع البيان: ١٠/ ١٨٣ ـ ١٨٤، طبعة: الحلبي. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٩٦٥ ـ ٩٦٦. التّفسير الكبير: ١٦/ ١٣٤ ـ ١٣٥. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨. فتح البيان: ٣٤٩/٥.
محاسن التّأويل: ٨/ ٣٢٠٢ ـ ٣٢٠٣. تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، طبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطّبعة الثّانية، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م: ١٠/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان: ١٠/ ١٨٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٧٨. وانظر: زاد المعاد: ٣/ ١١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣٠٣، ٨٠٩.

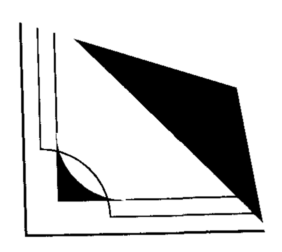
(٤) انظر: كتاب المقدّمات الممهّدات لبيان ما اقتضته رسوم المدوّنة من الأحكام الشّرعيّات والتّحصيلات المحكمات الشّرعيّات لأمّهات مسائلها المشكلات، لأبي الوليد محمّد بن أحمد بن رشد، طبع: مطبعة السّعادة بمصر، نشر: دار صادر، بيروت: ١/ ٢٥٩. أهميّة الجهاد، ص:١١٧ ـ ١١٨. وانظر: جامع البيان: ١٧/ ٢٠٥.





الفصل الثّاني

مراحل تشريع الجهاد وأنواعه



ـ في الأمم السّالفة المكذّبة للأنبياء أن يعاقبها
كما أهلك قوم نوح بالطّوفان، وعاداً بالدّبور[1]،
وثمود بالصّيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب والحجارة، وقوم شعيب بيوم الظّلة[2].

ولمّا بعث الله موسى عليه السلام وأهل عدوّه بالغرق، وأنزل عليه التّوراة شرع فيها قتال الكفّار واستمرّ ذلك في بقية الشّرائع من بعده[3].

فأصل الجهاد ومحاربة الأعداء من عهد موسى عليه السلام[4]. وإن كان بنو إسرائيل قد نكلوا عنه، وعصوا أمر رسولهم فيه، وجبنوا عن مواجهة أعدائهم حتّى عوقبوا بالتّيه[5]. فإنّ هذه الأمّة قد قامت به على الوجه الأكمل والصّفة الأتم.

---

(١) الدّبور: الرّيح الّتي تقابل الصّبا. مختار الصّحاح، ص:١٩٧. لسان العرب: ٤/ ٢٧٢. وفي الحديث: «نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدّبور». صحيح البخاري، برقم: (١٠٣٥)، ص:٢٢١. وبرقم: (٣٢٠٥)، ص:٦٧٨، وبرقم: (٣٣٤٣)، ص:٧٠٣، وبرقم: (٤١٠٥)، ص:٨٦٠. صحيح مسلم، برقم: (٩٠٠)، ٢/ ٦١٧.

(٢) الظّلة: ما سترك من فوقك، وتطلق على السّحابة. وعذاب يوم الظّلة: سمّي بذلك لأنّ سحابة أظلتهم فلجئوا إلى ظلّها من شدّة الحرّ فأطبقت عليهم وأهلكتهم. انظر: لسان العرب: ١١/ ٤١٦ ـ ٤١٨. وانظر: مختار الصحاح، ص:٤٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٥٩، بتصرّف.

(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ١٠٠٧. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٦٨.

(٥) انظر: الآيات: ٢٠ ـ ٢٦ من سورة المائدة. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٥. محاسن التّأويل: ٦/ ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥. تفسير المراغي: ٦/ ٩١ ـ ٩٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٨٩ ـ ١٩١. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢٣ ـ ١٢٤. والتّيه: هو المفازة الّتي يتاه فيها. وتيه بني إسرائيل هو الّذي ضلّوا فيه فلم يهتدوا للخروج منه. انظر: لسان العرب: ١٣/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فبيّن سبحانه أنّ هذه الأمّة خير الأمم للنّاس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم، لأنّهم كمّلوا أمر النّاس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصّفة والقدر، حيث أمروا بكلّ معروف، ونهوا عن كلّ منكر لكلّ أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النّفع للخلق»[١].

والجهاد فريضة شاقّة على النّفوس، تنفر عنه بطبعها، لما فيه من ذهاب الأرواح، وقطع الأطراف، والتّعرض للجراحات، وذهاب المال، ومفارقة الأوطان والأهل، وحصول أنواع المخاوف، ومواجهة الأعداء، وما يتبع ذلك من تعب ونصب.

فهو مكروه للنّفوس بطبعها، ثقيل عليها، كما قال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦][٢].

ولذا تدرّج الشّارع الحكيم في تشريعه على مراحل ككلّ الأحكام الشّاقّة، فإنّه سبحانه يشرعها على سبيل التّدريج لأنّ الإلزام بها بغتة يحصل عنه مشقّة عظيمة على المكلّفين[٣].

* لقد مكث رسول الله ﷺ بمكّة يدعو إلى الله ثلاث عشرة سنة لاقى فيها وَمَنْ معه من المسلمين من أذى قريش وعنتهم مَا لَاقُوا، وهم مع ذلك صابرون كافّون عن قتالهم لأنّهم لم يؤمروا به، وإنّما كان جهادهم مقصوراً على الدّعوة بالحجّة والبيان مع الصّبر والصّفح[٤].

---

(١) المرجع السّابق: ٢٨/ ١٢٣.

(٢) انظر: التّفسير الكبير: ٦/ ٢٦ ـ ٢٧. الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٩. فتح البيان: ١/ ٤٣٣. محاسن التّأويل: ٣/ ٥٣٥. تفسير المراغي: ٢/ ١٣٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٩ ـ ٨٠. في ظلال القرآن: ١/ ٢٢٣، ٣/ ١٦١٥.

(٣) انظر: أضواء البيان: ٥/ ٧٠٠. وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن: ١٥٢.

(٤) وانظر في ذلك: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤. زاد المعاد: ٣/ ١٣. الجهاد في الإسلام بين الطّلب والدّفاع، ص: ٣٥.

وكانت الآيات تنزل عليهم تأمرهم بالكفّ عن القتال، وتحمّل الأذى والصّبر على رعونات قريش واضطّهادهم لهم، كقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وقوله عزّ في علاه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢][(١)].

وإذا شكا إليه أصحابه ما يعانون صبَّرهم ومَنَّاهم ووعدهم بالنّصر وعاجل الفرج، وتلا على أسماعهم مثل قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية: ١٤][(٢)].

إذ كان المسلمون حينها في قلّة من العدد، وضعف من القوّة، فلو أمروا بالقتال لشقّ عليهم[(٣)]. بل كان ﷺ ينهاهم عن القتال ويأمرهم بالعفو والصّبر.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ عبد الرّحمٰن بن عوف وأصحاباً له، أتوا النّبي ﷺ بمكّة فقالوا: يا رسول الله إنّا كنّا في عزّ ونحن مشركون، فلمّا آمنّا صرنا أذلّة، فقال: «إنّي أمرت بالعفو فلا تقاتلوا».

فلمّا حوّلنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفّوا، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧][(٤)].

---

(١) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٤٧. فتح البيان: ١/ ٣٨٤.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٢٧. الجهاد في الإسلام، ص: ٣٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦١. تفسير المراغي: ١٧/ ١١٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٥٢.
وقد ذكر صاحب الظّلال رحمه الله بعض الحكم في عدم تشريع الجهاد بمكّة منها: تطويع نفوس المؤمنين على الصّبر، وإثارة النّخوة والنّجدة لتحريك القلوب نحو الإسلام، وتجنّب إحداث معركة في كلّ بيت، إضافة إلى قلّة العدد.
انظر: في ظلال القرآن: ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦. وقد أفاض في ذكر هذه الحكم في موطن آخر من كتابه المذكور بعد مقدّمة ذكر فيها الأدب مع الله في تناول حكم التّشريع.
انظر: ٢/ ٧١٣ ـ ٧١٥. وانظر: الجهاد في الإسلام، ص: ٥٣ ـ ٥٤.

(٤) سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجهاد: (٢٥)، باب وجوب الجهاد: (١)، برقم: (٣٠٨٦). قال الألباني رحمه الله: «صحيح إسناده»، ص: ٣٢٧. =

وقد مرّ حديث خباب بن الأرتّ رضي الله عنه في أمره ﷺ لهم بالصّبر وتحمّل الأذى[1].

فلمّا استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة النّبويّة بعد الهجرة، وأيّده الله بالمهاجرين والأنصار، وقويت شوكة الإسلام، واشتدّ عوده، وصارت لهم دار إسلام ومعقل عزّ يلجؤون إليه، أذن الله لهم في الجهاد، وأباح لهم قتال أهل الكفر، ولم يفرضه عليهم.

فقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

وهي أوّل ما نزل في الإذن بالقتال[2].

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «لمّا خرج النّبي ﷺ من مكّة، قال أبو بكر: «أخرجوا نبيّهم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ليهلكُن.

فنزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]. فعرفت: أنّه سيكون قتال».

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فهي أوّل آية نزلت في القتال»[3].

= سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب مبتدأ الإذن بالقتال: ٩/ ١١.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/ ٧٦، ٣٣٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط البخاري».

(١) الحديث سبق. انظر: ص: ٣٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان: ١٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣.
الكشّاف: ٣/ ١٢٦، طبعة: الاستقامة. أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٢٨٤. التّفسير الكبير: ٢٣/ ٣٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٦٨. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٢. فتح البيان: ٩/ ٥٥. تفسير المراغي: ١٧/ ١١٧. أضواء البيان: ٥/ ٦٩٩. وانظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٢٩٤.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة الحجّ: (٢٢)، برقم: (٣١٧١)، وقال: «هذا حديث حسن». وقال الألباني رحمه الله: =

وفي الآية تعليل للإذن بالقتال، وذلك بسبب الظّلم الّذي وقع على الصّحابة ﭫ، وإخراجهم من بلادهم بغير ذنب فعلوه ولا إثم ارتكبوه، سوى إنّهم وحّدوا الله وعبدوه وآمنوأ بدينه ونصروه، والتزموا بشرعه وطبّقوه[1]. ثمّ فرض عليهم سبحانه بعد ذلك قتال من قاتلهم والكفّ عن من لم يقاتلهم فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠][2].

وهذه مرحلة وسطى مهّد الله بها لقتال جميع الكفّار وإيجابه على المؤمنين[3].

ثمّ أمرهم سبحانه بقتال المشركين كافّة وإن لم يبدأوا بقتال مع البدء بالأقرب فالأقرب.

= «صحيح الإسناد»، ونحوه برقم: (٣١٧٢)، عن سعيد بن جبير ﷺ مرسلاً، ص: ٥٠٤.
سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجهاد: (٢٥)، باب وجوب الجهاد: (١)، برقم: (٣٠٨٥). قال الألباني ﷺ: «صحيح الإسناد»، ص: ٣٢٧.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب مبتدأ الإذن بالقتال: ٩/ ١٠.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا أحرف قليلة ـ في: ١/ ٢١٦. قال أحمد شاكر ﷺ: إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شارك: ٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢، برقم: (١٨٦٥).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أنّ فرض الجهاد كان بعد قدوم النّبي ﷺ المدينة، برقم: (٤٧١٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ١١/ ٨.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/ ٧٦، ٢٦٩، ٣/ ٨، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه». وقال الذّهبي ﷺ: «على شرط البخاري ومسلم».
وهو في جامع البيان: ١٧/ ١٧٢ ومن طريقه أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦١.

(١) سوف يأتي مزيد بيان لِحكم الجهاد وعلل تشريعه في المبحث التّالي.
(٢) لأهل العلم بالتّفسير خلاف في نسخ هذه الآية وعدم نسخها، ولهم أقوال في توجيهها في حالة عدم النّسخ. وانظر في ذلك: جامع البيان: ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠. أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ١٠٢ ـ ١٠٤. التّفسير االكبير: ٥/ ١٢٨. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٤٧ ـ ٣٥٠. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠. فتح البيان: ١/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥. محاسن التّأويل: ٣/ ٤٧٤. تفسير المراغي: ٢/ ٨٩ ـ ٩٠. تيسير الكريم الرّحمٰن: ٧١.
(٣) انظر: الجهاد في الإسلام، ص: ٤٩.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣][١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وللعلماء أقوال في معنى الآية:

ذهب ابن جرير رحمه الله إلى أنّ المراد: أن يقاتل المؤمنون الكفّار جميعاً غير مختلفين، ومؤتلفين غير متفرّقين[٢].

وذهب ابن العربي رحمه الله إلى أنّها تعني: محيطين بهم من كلّ جهة وحالة[٣].

بينما يرى السّعدي رحمه الله أنّها تأمر بقتال جميع أنواع المشركين[٤].

ويرى سيّد قطب رحمه الله أنّ معناها: قتالهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة[٥].

ولا يبعد أن تكون الآية جامعة لهذه المعاني، لأنّ كلمة (كافّة) شاملة لها جميعاً.

وقد بدأت هذه المرحلة من انقضاء أربعة أشهر بعد حجّ العام التّاسع من الهجرة وانقضاء العهود الّتي كانت بينه ﷺ وبين الكفّار.

وهي المرحلة الّتي استقرّ عليها أمر الجهاد. فيقاتل المشركون حتّى

---

(١) بيّن الإمام الرّازي رحمه الله بثمانية أوجه الحِكم المترتّبة على البدءِ في القتال بالأقرب إلى بلد المقاتلين. انظر: التّفسير الكبير: ١٦/٢٢٨ ـ ٢٢٩. كما ساق الإمام ابن كثير رحمه الله ترتيب هدي النّبي ﷺ والصّحابة رضي الله عنهم في البدء بقتال الأقرب فالأقرب. انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/٦٢٣.
وانظر: معنى الآية في الجامع لأحكام القرآن: ٨/٢٩٧. فتح البيان: ٥/٤٢٦. محاسن التّأويل: ٨/٣٣٠١. تفسير المراغي: ١١/٤٩ ـ ٥٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣١٣. وانظر الإكليل في استنباط التّنزيل، ص:١٢٣.

(٢) جامع البيان: ١٠/١٢٨.

(٣) أحكام القرآن: ٢/٩٢٨.

(٤) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢٩٦.

(٥) في ظلال القرآن: ٣/١٦٥٣.

يسلموا، ويقاتل أهل الكتاب والمجوس حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية[1] مع الذّل والصّغار[2].

قال ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥].

أي إذا انقضت الأشهر الأربعة الّتي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين فاقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه من حلّ أو حرم، وخذوهم بالأسر، واحبسوهم وضيّقوا عليهم بمنعهم من التّصرّف في بلاد الإسلام، واقعدوا لهم في كلّ طريق وموضع يمرّون عليه، ورابطوا في جهادهم، وابذلوا غاية مجهودكم في قتالهم وحربهم، حتّى يتوبوا عن شركهم ويؤدّوا الصّلاة بحقوقها والزّكاة لمستحقيها، أي يلتزموا بشرائع الإسلام فيكونوا مثلكم فعند ذلك اتركوا سبيلهم وكفّوا عن قتالهم[3].

وهذه هي آية السّيف النّاسخة لآيات العفو والصّفح والإعراض والمسالمة[4].

عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا: لا إله إلّا الله، فمن قال: لا إله إلّا الله عصم مني ماله ونفسه إلّا

---

(١) الجزية: هي عبارة عن الْمَال الّذي يُعْقَد للْكِتَابي عليه الذّمّة، وهي فِعْلة، من الجَزاء كأنّها جَزَت عن قتله.
والجمع الجِزَى مثل لحية ولحى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٧١. وانظر: الفائق: ١/ ٢١١. مختار الصّحاح، ص: ١٠٣. القاموس المحيط، ص: ١٦٤٠.

(٢) انظر: زاد المعاد: ٣/ ١٥٩ ـ ١٦٠. أهميّة الجهاد، ص: ١٤٣ ـ ١٤٤. والصّغار: هو الذّل والضّيم. مختار الصّحاح، ص: ٣٦٤.

(٣) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٠/ ٧٨. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٨٩ ـ ٨٩١. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٧٢ ـ ٧٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧. فتح البيان: ٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٧٢ ـ ٣٠٧٥. تفسير المراغي: ١٠/ ٥٧ ـ ٥٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٤) الإكليل، ص: ١١٦.

بحقّه، وحسابه على الله»[1]، والحديث في معنى الآية السّابقة.

وقال سبحانه في قتال أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه أوّل آية نزلت آمرة بقتال أهل الكتاب من اليهود والنّصارى بعدما تمهّدت أمور المشركين[2].

وقد نصّت على أربع صفات اتّسم بها أهل الكتاب كانت العلّة في وجوب قتالهم:

الأولى: إنّهم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً.

الثّانية: لا يصدّقون باليوم الآخر على النّحو الّذي يصحّ به الإيمان.

الثّالثة: لا يتّبعون شرع الله في تحريم المحرَّمات.

الرّابعة: لا يدينون بالدّين الصّحيح، لأنّ دينهم إمّا دين مبدّل محرّف لم يشرعه الله أصلاً، أو منسوخ بالدّين الخاتم فلا يصحّ العمل به، فيجب قتالهم حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية عن قهر لهم وغلبة، وهم ذليلون حقيرون مهانون[3].

وقد اكتملت بهذه المرحلة مراحل تشريع الجهاد في الإسلام[4].

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ٥٧١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٤٢.

(٣) انظر: التّفسير الكبير: ١٦/ ٢٨ ـ ٣٠. تفسير المراغي: ١٠/ ٩٣ ـ ٩٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٩٤.
وانظر: جامع البيان: ١٠/ ١٠٩. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٩٠٥ ـ ٩٠٧. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٠٩ ـ ١١٠. فتح البيان: ٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٣.

(٤) ولبيان تلك المراحل في الجملة انظر:
أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ١٠٢. الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية، مطابع المجد التّجاريّة: ١/ ٧٢ ـ ٧٣. السّياسة الشّرعيّة في إصلاح الرّاعي والرّعيّة لابن تيمية، تحقيق: محمّد إبراهيم البنّا ومحمّد أحمد عاشور، مطبعة: الشّعب، القاهرة، ص: ١٣٩ ـ ١٤٠. زاد المعاد: ٣/ ٦٩ ـ ٧١، ١٥٩ ـ ١٦٠. أضواء البيان: ٥/ ٧٠٠ ـ ٧٠١. فقه السّنّة للسّيّد سابق، الطّبعة الثّامنة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، =

والجهاد نوعان:

الأوّل: جهاد الابتداء والطّلب:

وهو أن يطلب المؤمنون الكفّار في بلادهم، ويغزوهم في عقر دارهم، فيدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا قوتلوا[1].

ومن أدلّته:

قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١][2].

= دار الكتاب العربي، بيروت: ٣/ ٩ ـ ١٠. الجهاد في الإسلام، ص:٤٤ ـ ٥١. وقد ذكر الحِكَمَ الّتي أدّت إلى مرور الجهاد بهذه المراحل، ص:٥٣ ـ ٥٤. أهميّة الجهاد، ص:١٣٦ ـ ١٤٤.

يقول سيّد قطب ﷺ:

«إنّ تلك الأحكام المرحليّة ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمّة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التّوبة، ذلك أنّ الحركة والواقع الّذي تواجهه في شتّى الظّروف والأمكنة والأزمنة هي الّتي تحدّد عن طريق الاجتهاد المطلق أيّ الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظّروف، في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة الّتي يجب أن يصار إليها متى أصبحت الأمّة المسلمة في الحال الّتي تمكّنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التّوبة، وما بعد ذلك أيّام الفتوحات الإسلاميّة الّتي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النّهائيّة، سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب». في ظلال القرآن: ٣/ ١٥٨٠. وانظر: ٣/ ١٥٨٢.

(١) انظر: أهميّة الجهاد، ص:١٢٤. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٥٢. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٥٩. السّياسة الشّرعيّة، ص:١٤٩ ـ ١٥٠. الفروسيّة، ص:١٨٧ ـ ١٨٨. الجهاد في الإسلام، ص:١٠٥.

(٢) لأهل العلم بالتّفسير أقوال متعدّدة في المراد بالخفّة والثّقل في الآية، أوصلها الإمام ابن العربي ﷺ إلى عشرة أقوال. انظر: الأحكام: ٢/ ٩٤٢.

والأولى ما ذهب إليه ابن جرير ﷺ وتبعه بعض العلماء في أنّ المراد بذلك: انفروا على كلّ حال من أحوال الخفّة والثّقل، إذ الآية لم تعيّن نوعاً بعينه. انظر: جامع البيان: ١٠/ ١٤٠. التّفسير الكبير: ١٦/ ٦٩. فتح البيان: ٥/ ٣٠٧. محاسن التّأويل: ٨/ ٣١٥٩. تفسير المراغي: ١٠/ ١٢٣.

وقول النّبي ﷺ في حديث بريدة رضي الله عنه: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله...»[1] الحديث.

وحكمه أنّه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط إثمه عن الباقين، وقد يتعيّن في بعض الأحوال وعلى بعض الأفراد[2].

ومن أدلّة كونه فرض كفاية:

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان: «ليخرج من كلّ رجلين رجل»، ثمّ قال للقاعد: «أيّكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج»[3].

الثّاني: جهاد الدّفع:

وهو إذا هاجم العدوّ بلداً من بلاد المسلمين فيجب على أهل البلد جميعاً جهاده حتّى يندفع شرّه، ولو لم يندفع شرّه إلّا بجهاد المسلمين جميعاً لوجب عليهم جهاده[4].

وحكمه فرض عين على الجميع[5].

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب تأمير الأمراء على البعوث: (٢)، برقم: (١٧٣١)، ٣/ ١٣٥٧.

(٢) انظر: المحلّى: ٧/ ٢٩١. المغني لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن محمّد بن قدامة، تصحيح: محمّد خليل هرّاس، مكتبة ابن تيمية: ٨/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦. نيل الأوطار: ٨/ ٢٥. الرّوضة النّديّة شرح الدّرر البهيّة لأبي الطّيّب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري، طبعة: الشّؤون الدّينيّة بدولة قطر: ٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩. فقه السّنّة: ٣/ ١٠ ـ ١٢. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٩، ٤٢ ـ ٤٣. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٨٤. فتح الباري: ٦/ ١٢١.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل إغاثة الغازي في سبيل الله: (٣٨)، برقم: (١٨٩٦)، ٣/ ١٥٠٧.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٥١ ـ ١٥٢. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩. السّياسة الشّرعيّة، ص: ١٤٩ ـ ١٥٠. الفروسيّة، ص: ١٨٧ ـ ١٨٨. أهميّة الجهاد، ص: ١٣٤.

(٥) انظر: المغني: ٨/ ٣٤٧. فقه السّنّة: ٣/ ١٢.

